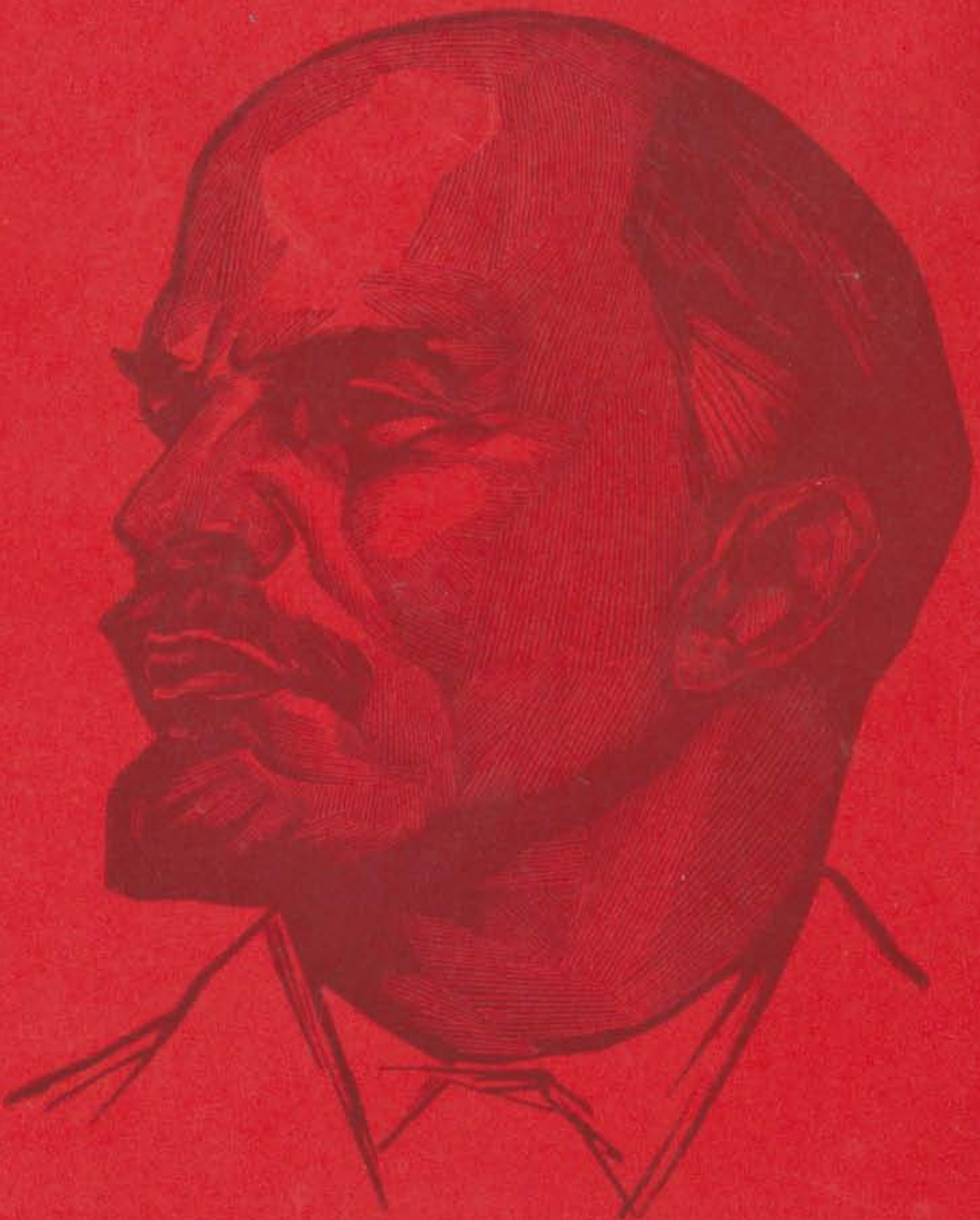


لينين

المادية و المذهب
النقدى التجريبي



يا عمال العالم ، اتحدوا !

لينين

المادية و المذهب النقدى التجريبي



دار التقدم

موسكو

© الترجمة الى اللغة العربية ، دار التقدم ، ١٩٨١
طبع في الاتحاد السوفييتي

Л $\frac{10102-893}{014(01)-81}$ 501 81

0101020000

من الدار

كتب لينين «المادية والمذهب النقدي التجريبي» في مرحلة من تاريخ روسيا كانت فيها الاوتوقراطية القيصرية قد فرضت في البلاد الارهاب البوليسي القاسي بعد ان قمعت ثورة ١٩٠٥-١٩٠٧ ، وكانت فيها الرجعية تسود وتبطش في جميع ميادين الحياة الاجتماعية . وقد وصف لينين الوضع في البلاد بعد هزيمة الثورة الروسية الاولى بقوله : «الانحطاط ، فساد المعنويات ، الانشقاقات ، التشتت ، الارتداد ، العهر عوضاً عن السياسة . اشتداد الميل الى المثالية الفلسفية ؛ الصوفية كرداء للامزجة المعادية للثورة» . (المؤلفات الكاملة ، المجلد ٤١ ، ص ١٠) . وقد ختم التبرير الايديولوجي للثورة المضادة ، وانبعث الصوفية الدينية بخاتمهما العلم والادب والفن . وفي الفلسفة سادت اشد اشكال المثالية اغراقاً في الرجعية ، الاشكال التي تنكر سنن تطور الطبيعة والمجتمع ، وامكانية معرفتها . وبذلت القوى المعادية للثورة كل ما في وسعها لكي تفتري على الطبقة العاملة وحزبها وتقوض الاسس النظرية للماركسية . وفي هذه الاحوال ، غدا الدفاع عن الفلسفة الماركسية مهمة عاجلة وفائقة الشأن .

ان الرجعية التي كانت تعيث فساداً في روسيا ، لم تكن ظاهرة «روسية خالصة» . فان البرجوازية في جميع البلدان قد انعطفت بحددة في عهد الامبريالية ، كما كتب لينين ، من الديموقراطية الى «الرجعية على طول الخط» - في الاقتصاد والسياسة والفلسفة . وفي اواخر القرن التاسع عشر واوائل القرن

العشرين ، انتشر في أوروبا ما يسمى بفلسفة «التجربة النقدية» - المذهب النقدي التجريبي (الانتقادية التجريبية) أو الماخية . وقد نشأ هذا المذهب بوصفه نوعاً من أنواع الوضعية ، وادعى بدور الفلسفة «العلمية الوحيدة» التي ذلت ما في المادية والمثالية على السواء من نقاط وحيدة الجانب ، مع ان الجوهر الرجعي ، المثالي الذاتي ، كان يتستر بالفعل وراء هذا الستار . ثم ان عدداً من الاشتراكيين-الديموقراطيين الذين كانوا يعتبرون انفسهم من «تلامذة ماركس» ، رأوا في الماخية «كلمة العلم الاخيرة» المدعوة الى «الحلول محل» الفلسفة الماركسية المادية الديالكتيكية .

والى جانب الاعداء السافرين للبروليتاريا وحزبها (ف . ف . ليسيفيتش ، ف . م . تشيرنوف . وغيرهما) قام في روسيا بترويج الماخية فريق من المثقفين الاشتراكيين-الديموقراطيين كان يضم على السواء المناشقة (ن . فالنتينوف ، ب . س . يوشكيفيتش وغيرهما) والملتحقين بالبلاشفة (ا . بوغدانوف ، ف . بازاروف ، ا . ف . لوناتشارسكي ، وغيرهم) . فواجه الماركسيون المنسجمون مهمة بالغة الشأن قوامها تبيان كنه الماخية الرجعي والدفاع عن الماركسية ، وتوضيح المسائل الاساسية في المادية الديالكتيكية ، وتفسير الاكتشافات الجديدة في العلوم الطبيعية تفسيراً مادياً ديالكتيكياً . وهذه المهمة اداها لينين في كتاب «المادية والمذهب النقدي التجريبي» .

خلفاً لعهد ماركس وانجلس ، حيث كانت ترد في المقام الاول مهمة تطوير المفهوم المادي عن التاريخ والديالكتيك المادي والدفاع عنهما ، ارتدى الدفاع عن المادية الفلسفية الماركسية وعن النظرية المادية الديالكتيكية للمعرفة وتطويرهما على تخوم القرنين التاسع عشر والعشرين الاهمية الحاسمة في النضال ضد المثالية الفلسفية . فقد حاول الفلاسفة الرجعيون ان يثبتوا نظرياً استحالة معرفة الواقع الموضوعي ، وزعموا ان مفهوم المادة قد «شاخ» ، وحصروا مهمة العلم في «تحليل الاحساسات» ، وما الى ذلك . وحاول الماخيون ان يدعموا هذه الفلسفة المثالية المعادية

للعلم بالاكتشافات الحديثة في العلوم الطبيعية ، وان يصورها بصورة كلمة العلم الاخيرة . وقد برهن لينين بطلان هذه المحاولات التي كانت تعني اساساً بعث نظرات بركلي وهيوم المثالية الذاتية .

وفي غمرة النضال ضد الفلسفة الرجعية زاد لينين عن المادية الفلسفية الماركسية ؛ وتطويراً لموضوعاتها الاساسية ، اعطى تعريفاً عن المادة هو تعميم لكل تاريخ نضال المادية ضد المثالية والميتافيزياء وللاكتشافات الجديدة في العلوم الطبيعية . وقد كتب يقول : «ان المادة مقولة فلسفية للاشارة الى الواقع الموضوعي الذي يعطى للانسان في احساساته ، والذي تستنسخه ، تصوره ، تعكسه احساساتنا ؛ وهو موجود بصورة مستقلة عنا» (راجع هذا الكتاب . ص ١٤٥) . ويبحث لينين المادة على صلة وثيقة لا انفصام لعراها مع الحركة ويؤكد ان الواقع الموضوعي هو بالذات المادة المتحركة .

ومن مآثر لينين العظمى انه طور من جميع النواحي مذهب الماركسية بصدد امكانية معرفة العالم ، ونظرية الانعكاس ، وذلك في سياق النضال ضد المثالية الذاتية وضد اللاعرفانية . وذاد لينين عن المفهوم المادي للنفسي ، للوعي ، بوصفه اسمى نتاج للمادة ، بوصفه وظيفة الدماغ البشري ، وأشار الى ان التفكير ، الوعي ، هو انعكاس للعالم الخارجي . واعطى تعريفاً رائعاً للاحساس بوصفه صورة ذاتية عن العالم الموضوعي ، وانتقد النظرية اللاعرفانية الخاصة بالرموز او الهيروغليفات التي تقول ان الاحساسات هي مجرد علامات اصطلاحية ، وليست صوراً للاشياء الفعلية . وهذه النظرية لا يزال يروجها في ايامنا ايضاً ممثلو مختلف الاتجاهات في الفلسفة البرجوازية ، ولذا لا يزال نقد لينين لها يحتفظ باهمية كبيرة في الوقت الحاضر .

وكشف لينين هذه العملية المعقدة ، والديالكتيكية التي هي عملية المعرفة ، وبين ان الديالكتيك هو نظرية المعرفة الماركسية . والى هذه الموضوعات الفائقة الاهمية التي صاغها

لينين فيما بعد ، في سنتي ١٩١٤ و ١٩١٥ ، في مؤلفه «كارل ماركس» ومؤلفه «الدقاتر الفلسفية» ، يقود كل مجرى المحاكمات اللينينية بشأن جوهر النظرية الماركسية الخاصة بالمعرفة في كتاب «المادية والمذهب النقدي التجريبي» . وقد كتب يقول : «في نظرية المعرفة ، كما في جميع ميادين العلم الاخرى ، تجب المحاكمة بطريقة دياليكتيكية . وهذا يعني انه يجب علينا لا ان نفترض معرفتنا ناجزة وثابتة لا تتغير ، بل ان نحلل ونبحث باي طريقة تظهر المعرفة من اللامعزنة ، بأي طريقة تصبح المعرفة غير الكاملة وغير الدقيقة اكمل وادق» (ص ١١٣) . وان تحليل مذهب الحقيقة الوارد في كتاب «المادية والمذهب النقدي التجريبي» هو مثال رائع على تطبيق الديالكتيك في دراسة عملية المعرفة البشرية . فان لينين يعرف الحقيقة على انها عملية معقدة ، متناقضة ، عملية تطوير المعرفة ، ويدرس هذه العملية من جانبين : فعلى نقيض مختلف اشكال المثالية الذاتية والاعرفانية ، يشير الى موضوعية مضمون معارفنا ، الى استقلاله عن الذات ؛ وفي الوقت نفسه ، يشير لينين الى ان المعرفة هي عملية تطور الحقيقة النسبية الى حقيقة مطلقة ، فعارض بالتالي نظرية النسبية والميتافيزياء على السواء بالمذهب المادي الديالكتيكي الخاص بالحقيقة . وقد كتب يقول : « . . . يستطيع التفكير البشري بحكم طبيعته ان يعطينا وهو يعطينا الحقيقة المطلقة التي تتكون من مجمل الحقائق النسبية . وكل درجة في تطور العلم تضيف ذرات جديدة الى مجمل الحقيقة هذا ، ولكن حدود حقيقة كل موضوعية علمية هي حدود نسبية لالها تتسع تارة وتضيق طوراً من جراء نمو المعرفة اللاحق» (ص ١٥١-١٥٢) .

وابان لينين اهمية النشاط العملي في عملية المعرفة بوصفه معيار الحقيقة ، وادّعى انه يجب ان تكون وجهة نظر الحياة ، وجهة نظر النشاط العملي ، وجهة النظر الاولى والاساسية في النظرية المعرفة ، والها تؤدي حتماً الى المادية . وان كل مضمون كتاب «المادية والمذهب النقدي التجريبي» هو تحليل عميق

لامكانية معرفة قوانين الطبيعة والمجتمع ، مفعم بالاقتناع بقوة العقل البشري وجبروته .

في اواخر القرن التاسع عشر واول القرن العشرين ، بدأت ثورة حقيقية في العلوم الطبيعية : فقد اكتشفت اشعة رنتغن (١٨٩٥) ، وظاهرة النشاط الاشعاعي (١٨٩٦) ، والالكترون (١٨٩٧) الذي اكتشفوا اثناء دراسته قابلية كتلته للتغير تبعاً للسرعة ، والراديوم (١٨٩٨) ، والنخ . . وقد بين تطور العلم محدودية الصورة الفيزيائية الموجودة حتى ذاك عن العالم . وبدأت اعادة النظر في جملة من المفاهيم سبق وصاغتها الفيزياء الكلاسيكية التي كان ممثلوها يقفون ، بصورة عامة ، مواقف المادية العفوية ، غير المدركة ، الميتافيزيائية احياناً كثيرة ، التي كانت الاكتشافات الفيزيائية الجديدة تبدو غير قابلة للتفسير من وجهة نظرها . فقد كانت الفيزياء الكلاسيكية تنطلق من التشبيه الميتافيزيائي بين المادة بوصفها مقولة فلسفية وبين تصورات معينة عن بنية المادة . ولكن عندما تغيرت هذه التصورات بشكل جذري ، شرع الفلاسفة المثاليون ، وكذلك بعض الفيزيائيين ، يتحدثون عن «زوال» المادة ، ويحاولون تقديم البرهان على «بطلان» المادية ، وانكار الاهمية الموضوعية للنظريات العلمية ، وحصراً هدف العلم في وصف الظواهرات ، وما الى ذلك .

وقد اشار لينين الى ان امكانية تفسير الاكتشافات العلمية تفسيراً مثالياً تكمن في عملية معرفة الواقع الموضوعي ذاتها ، وانها تنجم عن تقدم العلوم ذاته . فان قانون بقاء الطاقة وتحولها ، مثلاً ، قد استغله اوستفالد لتعليل «مذهب الطاقة» ، للبرهنة على «زوال» المادة وتحولها الى طاقة . وادى التسرب الى اعماق الذرة ، ومحاولات فرز اجزائها المكونة الاساسية الى تعزيز دور الرياضيات في تطوير المعارف الفيزيائية ، الامر الذي كان يحد ذاته ظاهرة ايجابية . ولكن صبغ الفيزياء بصبغة الرياضيات ، وكذلك مبدأ نسبية معارفنا في مرحلة تغير اللوحة الفيزيائية عن

العالم تغيراً جذرياً ، قد اسهما في نشوب ازمة الفيزياء ، وكانا مصدرين عرفانيين للمثالية «الفيزيائية» . اما في الواقع ، فان الاكتشافات الجديدة في الفيزياء ، كما بين لينين ، لم تدحض ، بل على العكس ، اكدت صحة المادية الديالكتيكية التي قاد اليها كل تطور العلوم الطبيعية . وقد كتب لينين واصفاً الطريق المعقد لتطور الفيزياء وبحوثها العفوية عن نظرية فلسفية صحيحة يقول : « . . . ان الفيزياء المعاصرة . . . تمضي نحو الطريقة الصحيحة الوحيدة ونحو الفلسفة الصحيحة الوحيدة للعلوم الطبيعية ، لا بطريق مستقيم ، بل بتعرجات ، لا بصورة واعية ، بل بصورة عفوية ، دون ان ترى بوضوح «هدفها النهائي» ، بل مقتربة منه تلمسا ، مترنحة وحتى بالمقلوب احيانا» (ص ٣٦٥) .

ان الانعطاف العميق في النظرات الى الطبيعة الذي بدأ على تخوم القرنين التاسع عشر والعشرين قد صادف تفاقم الرجعية الاجتماعية والسياسية الناجم عن انتقال الرأسمالية الى مرحلة جديدة من تطورها ، الى المرحلة الامبريالية . وفي هذه الظروف ، استغلت الفلسفة المثالية الثورة في الفيزياء وقامت بمحاولة لزعزعة المادية من العلوم الطبيعية ولفرض تفسيرها للاكتشافات الجديدة على الفيزياء . وقد كتب لينين : «ان كنه ازمة الفيزياء المعاصرة يكمن في تحطيم القوانين القديمة والمبادئ الاساسية القديمة ، في نبذ الواقع الموضوعي القائم خارج الوعي ، اي في الاستعاضة عن المادية بالمثالية والاعرفالية» (ص ٣٠٠) . ولم يحلل لينين جوهر ازمة الفيزياء وحسب ، بل حدد ايضاً سبيل الخروج منها ، وهو استيعاب المادية الديالكتيكية من قبل الفيزيائيين .

وقد اعطى لينين في كتاب «المادية والمذهب النقدي التجريبي» تعميماً فلسفياً عن الاكتشافات الجديدة في العلوم الطبيعية ؛ وفعل ذلك كفيلسوف مسلح باكثر طرائق التفكير تقدماً ، بطريقة كانت تعوز الاختصاصيين الفيزيائيين . ان هذه الطريقة هي الديالكتيك المادي الذي لا يمكن عكس الديالكتيك

الموضوعي للطبيعة بصورة صحيحة الا بواسطة مقولاته . وهذه الطريقة ، خلافاً للميتافيزياء وللنظرية النسبية سواء بسواء ، تلح ، حسبما قال لينين ، على الطابع التقريبي ، النسبي لمعارفنا عن بنية المادة وخواصها ، على عدم وجود حدود مطلقة في الطبيعة ، على تحول المادة المتحركة من حالة الى اخرى ، وما الى ذلك . وانطلاقاً من الديالكتيك المادي ، طرح لينين موضوعاً استحالته نضوب المادة . وكتب يقول : « . . . ان الالكترون لا ينضب مثله مثل الذرة ، والطبيعة لامتناهية ، ولكنها توجد الى ما لا نهاية ؛ وان هذا الاعتراف القاطع الوحيد ، والمطلق الوحيد بوجودها خارج وعي الانسان واحساسه هو الذي يميز المادية الديالكتيكية عن الاعرفانية النسبية وعن المثالية» (ص ٣٠٦) . ان هذه الفكرة اللينينية العميقة الرائعة قد اكد صحتها كل تطور العلوم لاحقاً (اكتشاف النشاط الاشعاعي الاصطناعي والبنية المعقدة لنواة الذرة ، النظرية المعاصرة الخاصة بالدقائق «الاولية»، والنخ . . .) .

وقد بيّن لينين في كتاب «المادية والمذهب النقدي التجريبي» الوحدة التي لا تنفصم عراها بين المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية ، وطور الموضوعات الاساسية في المادية التاريخية ، ولا سيما منها موضوعة الدور المحدّد للوجود الاجتماعي بالنسبة للوعي الاجتماعي . وعارض لينين بالمادية التاريخية نظرية بوغدانوف المثالية القائلة بتماثل الوجود والوعي ، وكذلك محاولات الماخيين المنافية للعلم للاستعاضة عن قوانين التطور الاجتماعي «بمذهب الطاقة الاجتماعي» والقوانين البيولوجية ، والنخ . . .

وفضح لينين في كتابه «المادية والمذهب النقدي التجريبي» الاحزبية الموهومة للفلسفة البرجوازية والمستورة بالحيل الكلامية وبالمدرسية «العلمية» . وبين ان تطور الفلسفة في المجتمع التنافسي ، الطبقي ، يتجلى بصورة محتمة في الصراع بين الاتجاهين الفلسفيين الاساسيين - المادية والمثالية - اللذين يعربان ، بوجه عام ، احدهما عن مصالح الطبقات التقدمية ، والثاني عن

مصالح الطبقات الرجعية . وكشف لينين لاعلمية المثالية وعارضها بالتقليد الفلسفي المادي (من ديموقريطس الى فورباخ وتشيرنيشيفسكي) الذي بلغ ارفع درجات تطوره في الفلسفة الماركسية . ويعتبر لينين تاريخ الفلسفة على انه صراع بين «اتجاهي او خطي افلاطون وديموقريطس» ، ويشير الى ان الفلسفة الحديثة حزبية كما منذ الفي سنة .

ان كتاب لينين هو وسيلة ضرورية في النضال ضد الفلسفة والسوسيولوجيا البرجوازية المعاصرة ؛ وهو يفضح الاساليب والطرائق الاساسية «لنقد» الماركسية من قبل ايديولوجيي البرجوازية الرجعية ، وقوامها الاستعاضة عن قوانين التطور الاجتماعي «بعوامل» بيولوجية ونفسانية وغيرها من «العوامل» ، والسعي الى تزيف الماركسية بذريعة «تطويرها» ، وهكذا دواليك .

وقد بين لينين ، واكد تطور العلوم الطبيعية لاحقاً ، ان المادية الديالكتيكية هي الفلسفة الصحيحة الوحيدة للعلوم الطبيعية ، وطريقة التفكير الاكثر انسجاماً وعلمية . وساعد كتاب لينين «المادية والمذهب النقدي التجريبي» كثيرين من العلماء التقدميين في ايجاد الطريق الصحيح في ميادين معارفهم ، وقطع الصلة مع الفلسفة المثالية ، والانتقال الى مواقف العقيدة العلمية، المادية الديالكتيكية . وان التعميم الفلسفي العميق الذي اعطاه لينين عن منجزات العلوم الطبيعية ، ووصفه لازمة الفيزياء وتحديده لسبيل الخروج منها ، ان كل هذا يرتدي اهمية بالغة لأجل النضال ضد التزيف المثالي المعاصر للاكتشافات العلمية ، لأجل انتصار المادية الديالكتيكية في ميادين العلوم الطبيعية .

وينطوي هذا الكتاب كذلك على المقطع «حول الديالكتيك» من «الدفاتر الفلسفية» ، فهو خاتمة دراسة لينين لقضايا الفلسفة في سنتي ١٩١٤ و ١٩١٥ . ان هذا المقطع الصغير من حيث الحجم هو عبارة عن تعميم لكل رئيسي وجوهري يشكل مضمون الديالكتيك المادي .

المادية والمذهب النقدي التجريبي

ملاحظات انتقادية بصدد فلسفة رجعية

مقدمة الطبعة الاولى

ان طائفة من الكتاب ممن يرغبون في ان يكونوا ماركسيين قد شنوا عندنا في السنة الجارية حملة حقيقية ضد فلسفة الماركسية . ففي اقل من نصف سنة صدرت اربعة كتب مكرسة بصورة رئيسية ، وكلياً تقريباً ، للتهجمات على المادية الديالكتيكية . وفي عدادها تأتي في المقام الاول «دراسات في ؟ وكان ينبغي القول : ضد) فلسفة الماركسية» ، سانت بطرسبورغ ، عام ١٩٠٨ ، مجموعة مقالات لبازاروف ، وبوغدانوف ، ولوناتشارسكي ، وبرمان ، وغلفونيد ، ويوشكيفيتش ، وسوفوروف ؛ ثم كتب : يوشكيفيتش - «المادية والواقعية النقدية» ، برمان - «الديالكتيك * في ضوء النظرية المعاصرة للمعرفة» ، فالنتينوف - «الماركسية وانشاءاتها الفلسفية» .

ان جميع هؤلاء الاشخاص لا يمكن ان لا يعرفوا ان ماركس وانجلس قد سميا عشرات المرات نظراتهما الفلسفية بالمادية الديالكتيكية . وجميع هؤلاء الاشخاص الذين يجمع العداء للمادية الديالكتيكية بينهم - رغم الفوارق العادة بينهم في النظرات

* الديالكتيك - يترجمها بعضهم بالجدل والجدالية ، مع اعطاء المسيرات متنوعة ومختلفة . ونفضل الاحتفاظ بالتعبير اليوناني الاصل ، نظراً لشيوع استعماله في مختلف اللغات ولا سيما في ميدان الفلسفة كغيره من التعابير الفلسفية . المعرب .

السياسية ، - يدعون في الوقت نفسه بانهم في الفلسفة
ماركسيون ! ان دياليكتيك انجلس هو «تصوف» - هكذا يقول
برمان . ان نظرات انجلس قد «شاخت» - هكذا يقول بازاروف
عرضاً ، كأنما يقول شيئاً بديهياً ؛ واذا المادية تبدو مدحوضة من
جانب مقاتلينا الاجرياء الذين يستشهدون باعتزاز «بالنظرية
المعاصرة للمعرفة» ، «بالفلسفة الحديثة» (او «بالوضعية *
الحديثة») ، «بفلسفة العلوم الطبيعية المعاصرة» او حتى «بفلسفة
العلوم الطبيعية في القرن العشرين» . وبالاعتماد على هذه المذاهب
الحديثة المزعومة ، يذهب اصحابنا مبيدو المادية الدياليكتيكية ،
الى حد القول بلا خوف ولا خشية بالايمانية * * (وهذا واضح عند
لوناتشارسكي اشد الوضوح ، ولكن ليس البتة عنده وحده !)
(١) ، ولكنهم يفقدون في الحال كل جرأة ، كل احترام لعقائدهم
بالذات حين يبلغ الامر حد تحديد موقفهم على المكشوف من
ماركس وانجلس . في الواقع - عدول تام عن المادية الدياليكتيكية
اي عن الماركسية . في الاقوال - مراوغات لا نهاية لها ، محاولات
للتهرب من كنه المسألة ، لتغطية التراجع ، لوضع مادي ما من
الماديين محل المادية على العموم ، الامتناع قطعاً عن تحليل آراء
ماركس وانجلس المادية التي لا عد لها تحليلاً مباشراً . وهذا -
«فتنة على الركاب» حقيقية ، على حد التعبير الصحيح لاحد
الماركسيين . انه لتحريف فلسفي نموذجي ، لأن المحرفين وحدهم
اكتسبوا شهرتهم السيئة بانحرافهم عن المفاهيم الاساسية
للماركسية ، وبخوفهم او بعجزهم عن ان «يصفوا» بصورة سافرة
ومباشرة وقاطعة وواضحة «حساب» النظرات التي تخلوا عنها .
وعندما حدث للارثوذكس ان وقفوا ضد آراء ماركس الشائخة
(مثلاً ، مهرينغ ضد بعض الموضوعات التاريخية) ، فقد فعلوا

* المذهب الوضعي ، positivisme . **المعرب** .

* * الايمانية - fidéisme ، او مذهب الايمان - هو مذهب يحل

الايمان محل المعرفة او يولي الايمان ، على العموم ، اهمية معينة .

ذلك دائماً بدرجة من الوضوح والتدقيق بحيث ان احداً لم يجد يوماً في مثل هذه الاعمال الادبية اي لبس وابهام .
ولكنه توجد في «دراسات «في» فلسفة الماركسية» جملة تشبه الحقيقة . انها جملة لوناتشارسكي : «لربما نحن» (اي ، اغلب الظن ، جميع المساهمين في «دراسات») «نضل ، ولكننا نبحت» (ص ١٦١) . اما ان النصف الاول من هذه الجملة يتضمن حقيقة مطلقة ، والنصف الثاني حقيقة نسبية ، فهذا ما سأحاول تبينه بكل تفصيل في الكتاب الذي اعرضه على القراء . والآن اکتفي بالقول انه لو ان فلاسفتنا لم يتحدثوا باسم الماركسية بل باسم بعض الماركسيين «الباحثين» ، لكانوا ابدوا مزيداً من الاحترام لانفسهم وللماركسية على السواء .
اما فيما يخصني ، فاني انا ايضاً «باحث» في الفلسفة واعني بذلك اني وضعت نصب عيني في هذه الملاحظات مهمة العثور على ما اضل اولئك الذين يصورون بصورة الماركسية شيئاً مضطرباً ومشوشاً ورجعياً الى حد لا يصدق .

المؤلف

ايلول (سبتمبر) ١٩٠٨ .

مقدمة الطبعة الثانية

هذه الطبعة لا تختلف عن السابقة ، باستثناء بعض التعديلات في النص . واني آمل في ان هذه الطبعة ، بصرف النظر عن المناظرة مع «الماخيين» الروس ، لن تكون عديمة الجدوى بوصفها وسيلة للاطلاع على فلسفة الماركسية ، على المادية الديالكتيكية ، وكذلك على الاستنتاجات الفلسفية من احدث اكتشافات العلوم الطبيعية . وفيما يخص آخر مؤلفات ا . ا . بوغدانوف التي لم يتسنّ لي الاطلاع عليها ، تعطي مقالة الرفيق ف . اى . نيفسكي المنشورة لاحقاً التوجيهات اللازمة (٢) . فان الرفيق ف . اى . نيفسكي الذي لا يعمل كداعية على العموم وحسب ، بل ايضاً كمسؤول في المدرسة الحزبية على الخصوص ، قد توفرت له الامكانية التامة للاقتناع بان ا . ا . بوغدانوف يمرر الآراء البرجوازية والرجعية وراء ستار «الثقافة البروليتارية» (٣) .

ن . لينين

٢ ايلول (سبتمبر) ١٩٢٠ .

عوضاً عن المقدمة

كيف دحض بعض «الماركسيين» المادية في عام ١٩٠٨ وكيف دحضها بعض المثاليين في عام ١٧١٠

ان كل من اطلع نوعاً على المطبوعات الفلسفية ، لا بد له ان يعرف انه من المشكوك فيه ان يتواجد وان بروفيسور معاصر في الفلسفة (وكذلك في اللاهوت) لا ينصرف مباشرة او بصورة غير مباشرة الى دحض المادية . ومئات وآلاف المرات اعلنوا ان المادية قد دحضت ، ولكنهم يواصلون دحضها حتى الآن للمرة الواحدة بعد المئة ، وللمرة الواحدة بعد الألف . ومحرفونا جميعهم يتعاطون دحض المادية متظاهرين انهم يدحضون المادى بليخانوف وحده ، وليس المادى انجلس ، ولا المادى فورباخ ، ولا آراء يوسف ديتزغن المادية ، - ثم انهم يدحضون المادية من وجهة نظر المذهب الوضعي «الحديث» و«المعاصر» والعلوم الطبيعية ، وما الى ذلك . ودون ان اسوق استشهادات يجمع منها كل راغب المئات في الكتب المذكورة آنفاً اذكر بتلك الحجج التي يقضي بها على المادية بازاروف وبوغدانوف ويوشكيفيتش وفالنتينوف وتشيرنوف* والماخيون الآخرون . وهذا التعبير الاخير ، بوصفه اوجز وابسط ، ناهيك عن انه حظي باعتراف الجميع في المطبوعات الروسية ، سأسعمله في كل مكان كمرادف لتعبير «النقاد التجريبيون» . اما ان ارنست ماخ هو في الوقت الحاضر اشهر ممثلي المذهب النقدي التجريبي ، فان هذا معترف به على العموم

* ف . تشيرنوف . «دراسات فلسفية وسوسولوجية» . موسكو . عام ١٩٠٧ . والمؤلف نصير متحمس لافيناريوس وعدو للمادية الديالكتيكية مثل بازاروف وشركاه .

في المطهرات الفلسفية * ، في حين ان انحرافات بوغدانوف ورومكهايتش عن الماخية «الخالصة» تتسم بأهمية ثانوية تماماً ، كما سنبين فيما بعد .

ويقولون لنا ان الماديين يعترفون بشيء ما غير معقول ويستحيل ادراكه - «الاشياء في ذاتها» ، المادة «خارج التجربة» ، خارج ادراكنا ؛ وانهم يسقطون في حماة التصوف الحقيقي ، بقبولهم بشيء ما غيبي ، قائم فيما وراء حدود «التجربة» والمعرفة ؛ وان الماديين ، حين يزعمون ان المادة تحدث احساسات بتأثيرها في اعضاء حواسنا ، انما يتخذون «غير المعروف» ، العدم ، اساساً ، لانهم يعلنون هم انفسهم ان حواسنا هي المصدر الوحيد للمعرفة ؛ وان الماديين يسقطون في حماة «الكانطية» (بليخانوف - حين يسلم بوجود «الاشياء في ذاتها» ، اي بوجود اشياء خارج ادراكنا) ، و«يشنون» العالم ، ويكرزون «بالاثينية» * * ، لان وراء الظاهرات يوجد عندهم ايضاً الشيء في ذاته ، ووراء المعطيات المباشرة للحواس يوجد شيء ما آخر ، فتش * * * ما ، «صنم» ، مطلق ، مصدر «للميتافيزياء» ، صنو للدين («المادة المقدسة» ، كما يقول بازاروف) .

هذه هي حجج الماخين ضد المادية ، الحجج التي يرددها ويكررها بكل شكل وصورة الكتاب المذكورون اعلاه .

وللتحقق مما اذا كانت هذه الحجج جديدة ومما اذا كانت موجهة فعلاً ضد مادي روسي واحد فقط «سقط في حماة الكانطية» ، نسوق مقتبسات مسهبة من مؤلف من مؤلفات مثالي قديم ، هو

* راجع ، مثلاً ، Dr. Richard Höningwald. «Über die Lehre (الدكتور Hume's von der Realität der Außendinge», Brl., 1904, S. 26 ريتشارد هونيغسفالده . «مذهب هيوم في واقعية العالم الخارجي» . برلين ، عام ١٩٠٤ ، ص ٢٦) . الناشر .

* * الاثينية - Dualisme - ثنائية ، ثنوية . المعرب .

* * * فتش - fetiche - تيم ، شيء مادي معبود لذاته .

المعرب .

جورج بركلي . فان هذه الشهادة التاريخية ضرورية في مقدمة لملاحظاتنا خصوصاً وانه سيتأتى لنا ان نستشهد مرارا ادناه ببركلي واتجاهه في الفلسفه ، لأن الماخين يصورون بصورة خاطئة سواء موقف ماخ من بركلي ام كنه خط بركلي الفلسفي . فان مؤلف الاسقف جورج بركلي ، الذي صدر في عام ١٧١٠ تحت اسم «بحث في مبادئ المعرفة البشرية» * يبدأ بالمحاكمة التالية : «من الجلي لكل من يراقب مواضيع المعرفة البشرية انها امّا افكار (ideas) تدركها الحواس بالفعل ، واما افكار نحصل عليها بملاحظة انفعالات العقل وافعاله ، واما ، اخيراً ، افكار تتشكل بمساعدة الذاكرة والخيال . . . بواسطة البصر ، اكون افكاراً عن النور وعن الالوان ، عن درجاتها وانواعها المختلفة . وبواسطة اللمس ، ادرك الجامد والرخو ، الحار والبارد ، الحركة والمقاومة . . . والشم يعطيني الروائح ؛ والذوق - الاحساس بالذوق ؛ والسمع - الاصوات . . . وبما ان مختلف الافكار تلاحظ الواحدة مع الاخرى ، فانهم يرمزون اليها باسم واحد ويعتبرونها شيئاً ما . مثلاً ، يلاحظون لوناً معيناً ، وذوقاً معيناً ، ورائحة معينة وشكلاً معيناً وتماسكاً معيناً مجموعة معاً (to go together) فيعتبرون هذا شيئاً مستقلاً ويرمزون اليه بكلمة **تفاحة** ؛ وتشكل مجموعات اخرى من الافكار (collections of ideas) **حجراً** ، **شجرة** ، **كتاباً** ، وما الى ذلك من الاشياء الحسية . . .» (الفقرة ١) .

ذلك هو مضمون الفقرة الاولى من مؤلف بركلي . وينبغي لنا ان نتذكر انه يضع في اساس فلسفته «الجامد ، الرخو ، الحار ، البارد ، الالوان ، الاذواق ، الروائح» والنخ . ان الاشياء

George Berkeley. «Treatise concerning the Principles of * Human Knowledge», vol. I of Works, edited by A. Fraser. Oxford, 1871. هناك ترجمة روسية (جورج بركلي . «بحث في مبادئ المعرفة البشرية» ، المجلد الاول من المؤلفات . اصدار ا . فريزر . اوكسفورد ، عام ١٨٧١ . الناشر .)

بنظر بركلي هي «مجموعات افكار» ، علماً بأنه يقصد بهذه الكلمة الاخيرة ، فيما يقصد ، الصفات او الاحساسات المذكورة اعلاه بالضبط ، وليس الافكار المجردة .

ثم يقول بركلي انه يوجد ، علاوة على هذه «الافكار او مواضيع المعرفة» ، ما يدركها ، - «العقل ، الروح ، النفس او انا» (الفقرة ٢) . وبديهي ، - كما يستخلص الفيلسوف ، - انه لا يمكن «للافكار» ان توجد خارج العقل الذي يدركها . وللاقتناع بذلك ، حسبنا ان نفكر في معنى كلمة : وُجد . «حين اقول ان المكتب الذي اكتب عليه يوجد ، فان هذا يعني اني اراه واشعر به ؛ واذا ما خرجت من غرفتي ، فاني ساقول ان المكتب موجود ، قاصداً بذلك اني لو كنت في غرفتي ، لكان بوسعي ان ادركه بحواسي . . .» . هكذا يقول بركلي في الفقرة ٣ من مؤلفه ؛ وهنا بالذات يبدأ مناظرة مع الذين يسميهم بالماديين (الفقرتان ١٨ ، ١٩ وغيرهما) . وهو يقول : من غير المفهوم اطلاقاً بالنسبة لي كيف يمكن القول بوجود الاشياء المطلق بمعزل عن واقع ان احداً ما يدركها بحواسه ؟ ان يكون الشيء موجوداً ، انما يعني ان يكون قابلاً للادراك بالحواس (their اي الاشياء *esse is percipi* ، الفقرة ٣ ، - قول لبركلي يستشهدون به في الكتب المدرسية في تاريخ الفلسفة) . «وبين الناس يهيمن بصورة غريبة رأي يقول ان للبيوت والجبال والانهر ، وبكلمة ، للاشياء الحسية وجوداً ، طبيعياً او واقعياً يتميز عن كون العقل يدركها» (الفقرة ٤) . ان هذا الرأي «تناقض بّين» - كما يقول بركلي . - «لانه ما عسى ان تكون هذه المواضيع المذكورة آنفاً ان لم تكن اشياء ندرکها بواسطة الحواس ؟ وما عسانا ان ندرک ان لم يكن افكارنا او احساساتنا بالذات (ideas or sensations) ؟ اوليس من السخافة ، يا ترى ، ان يكون من الممكن ان توجد افكار او احساسات ما ، او مركبات منها اذا لم تكن قابلة للادراك؟» (الفقرة ٤) .

والآن يستعوض بركلي عن مجموعات الافكار بتعبير مرادف بالنسبة له هو **مركبات الاحساسات** ، متهماً الماديين بالسعي

«السخيف» الى المضي قدماً ، الى البحث عن مصدر ما لأجل هذا المركب . . . اي لأجل هذا المركب من الاحساسات . وفي الفقرة ٥ ، يتهم الماديين بالانهماك في التجريد لأن فصل الاحساس عن الموضوع هو ، برأي بركلي ، تجريد فارغ . ويقول بركلي في نهاية الفقرة ٥ ، غير الواردة في الطبعة الثانية : «ان الموضوع والاحساس هما بالفعل الشيء نفسه (are the same thing) ولذا لا يمكن تجريدهما احدهما من الآخر» . وكتب بركلي يقول : «قد تقولون انه يمكن الافكار ان تكون نسخاً او انعكاسات (resemblances) لاشياء موجودة خارج العقل في جوهر * لا يفكر . واني اجيب بأنه لا يمكن للفكرة ان تشبه الا الفكرة ؛ ولا يمكن للون او للشكل ان يشبها الا لوناً آخر او شكلاً آخر . . . واني اسأل : أيمكننا ان ندرك هذه الاصول المفترضة او الاشياء الخارجية التي افكارنا كأنما هي صور او تصورات عنها ام لا ؟ اذا كان نعم ، فان هذا يعني انها افكار ، واننا بالتالي لم نتقدم اي خطوة الى الامام ؛ اما اذا قلتم كلا ، فاني اخاطب اي انسان كان وأسأله ما اذا كان ثمة معنى للقول ان اللون يشبه شيئاً ما غير منظور ؛ وان الجامد او الرخو يشبه شيئاً يستحيل لمسه ، وما الى ذلك» (الفقرة ٨) .

ان «حجج» بازاروف ضد بليخانوف في مسألة ما اذا كان بإمكان الاشياء ان توجد خارجاً عنا بدون ان تؤثر فينا ، - لا تختلف مقدار ذرة ، كما يرى القارىء ، عن حجج بركلي ضد الماديين الذين لا يسميهم باسمائهم . فان بركلي يعتبر فكرة وجود «المادة او الجوهر الجسدي» (الفقرة ٩) «تناقضاً» ، «محالاً» الى حد انه داعي البتة الى تضييع الوقت على دحضها . ويقول : «ولكن بما ان التعليم (tenet) بصدد وجود المادة قد مدّ ، على ما يبدو ، جذوراً عميقة في عقول الفلاسفة ويستتبع مثل هذه الكثرة من الاستنتاجات الضارة ، فاني افضل ان ابدو مكثراً في الكلام

* الجوهر - هنا Substance . المعرب .

ومملاً ، شرط ان لا افوت اي شيء لفضح واجتثاث هذا الوهم بصورة تامة» (الفقرة ٩) .

وسنرى الآن عن اية استنتاجات ضارة يتحدث بركلي .
لننته اولاً من حججه النظرية ضد الماديين . فان بركلي ، اذ ينكر وجود المواضيع «المطلق» اي وجود الاشياء خارج المعرفة البشرية ، انما يعرض على المكشوف آراء اعدائه على نحو يبدو معه انهم يعترفون «بالشيء في ذاته» . وفي الفقرة ٢٤ ، يكتب بركلي بحروف التأكيد ان هذا الرأي الذي يدحضه يعترف «بالوجود المطلق للمواضيع الحسية في ذاتها» (objects in themselves) او خارج العقل» (ص ١٦٧-١٦٨ من الطبعة المذكورة) . هنا يرتسم خطان اساسيان من الآراء الفلسفية بتلك الدرجة من الصراحة والوضوح والجلء التي تميز اعلام الفلسفة الكلاسيكيين عن مختلقي الانظمة «الجديدة» في زمننا . المادية - الاعتراف «بالمواضيع في ذاتها» او خارج العقل ؛ الافكار والاحساسات - نسخ او انعكاسات لهذه المواضيع . المذهب المقابل (المثالية) : لا توجد المواضيع «خارج العقل» ؛ المواضيع هي «مركبات احساسات» .

وقد كتب هذا في عام ١٧١٠ ، اي قبل ولادة عمانوئيل كانط بـ ١٤ سنة ، في حين ان ماخيينا - بالاستناد الى ما يسمى بالفلسفة «الحديثة» - قد اكتشفوا ان الاعتراف «بالاشياء في ذاتها» هو نتيجة لعدوى او لتشويه المادية بالكانطية ! ان اكتشافات الماخيين «الجديدة» هي نتيجة لجهلهم المذهل في تاريخ الاتجاهات الفلسفية الاساسية .

وفكرتهم «الجديدة» التالية تقول ان مفهوم «المادة» او «الجوهر» هما بقية آراء قديمة غير نقدية . فان ماخ وافيناريوس ، لو ترون ، قد دفعا الفكر الفلسفي الى الامام ، وعمقا التحليل ، وازالا هذه «المطلقات» ، هذه «الجواهر الثابتة» وما الى ذلك . خذوا بركلي لكي تتحققوا من مثل هذه الاقوال في مصدرها الاولي ، تروا انها تتلخص في اختلاق دعي . فان بركلي

يقول بكل جلاء ان المادة هي "nonentity" (جوهر لا وجود له ،
 الفقرة ٦٨) ، ان المادة هي لاشي (الفقرة ٨٠) . ويتهم بركلي
 على الماديين قائلاً : «بوسعكم ، اذا شئتم ، ان تستعملوا كلمة
 «المادة» بالمعنى الذي يستعمل به الآخرون كلمة «لاشي»»
 (ص ١٩٦-١٩٧ من الطبعة المذكورة) . ويقول بركلي : في
 البدء ، آمنوا بان الالوان والروائح ، وما الى ذلك «توجد فعلاً» ،
 - ثم تخلوا عن هذا الرأي واعترفوا بانها لا توجد الا تبعاً
 لاحساساتنا . ولكن هذا القضاء على المفاهيم الخاطئة القديمة لم
 يتم الى النهاية : فان الزعم بان البقية هي مفهوم «الجوهر»
 (الفقرة ٧٣) انما هو نفس هذا «الوهم» (ص ١٩٥) الذي فضحه
 الاسقف بركلي نهائياً في عام ١٧١٠ ! وفي عام ١٩٠٨ ، يتواجد
 عندنا مزاحون صدقوا عن جدّ افيناريوس وبتسولدت وماخ
 وشركاهم الزاعمين بان «المذهب الوضعي الحديث» و«علم الطبيعة
 الحديث» هما وحدهما اللذان توصلا الى حد ازالة هذه المفاهيم
 «الميتافيزيائية» .

وهؤلاء المزاحون انفسهم (بمن فيهم بوغدانوف) يؤكدون
 للقراء ان الفلسفة الجديدة بالذات هي التي اوضحت خطأ «ثنائية
 العالم» في مذهب الماديين المدحوضين على الدوام الذين يتحدثون
 عن «انعكاس» ما من قبل وعي الانسان لاشياء موجودة خارج
 وعيه . وعن هذه «الثنائية» كتب المؤلفون المذكورون اعلاه ،
 جبلاً من الكلمات المؤثرة . ولكنهم لم يضيفوا ، إما بسبب
 النسيان واما بسبب الجهل ، ان هذه الاكتشافات الجديدة قد
 سبق واكتشفت في عام ١٧١٠ .

كتب بركلي يقول : «ان معرفتنا لها (للافكار او للاشياء)
 كانت في منتهى الغموض والتشوش ، وكانت موجهة نحو اخطر
 الضلالات بفرضية الوجود الثنائي (twofold) للمواضيع الحسية ،
 اي : الوجود المعقول او الوجود في العقل ، والآخر - **الفعلي** ،
 خارج العقل (اي خارج الوعي) . ويهزأ بركلي من هذا الرأي
 «السخيف» الذي يجيز امكانية التفكير بالمحال ! ان مصدر

«المحال» هو ، بالطبع ، التمييز بين «الاشياء» و«الافكار» (الفقرة ٨٧) ، و«التسليم بالمواضيع الخارجية» . والمصدر نفسه يولد ، كما اكتشف بركلي في عام ١٧١٠ واكتشف بوغدانوف من جديد في عام ١٩٠٨ ، الايمان في الفتشات والاصنام . يقول بركلي : «ان وجود المادة او الاشياء غير القابلة للادراك ، لم يكن السند الرئيسي عند الملحدين والجبريين وحسب ، بل ان عبادة الاصنام بجميع اشكالها المتنوعة ترتكز هي ايضاً على المبدأ نفسه» (الفقرة ٩٤) .

وهنا وصلنا ايضاً الى تلك الاستنتاجات «الضارة» من المذهب «السخيف» القائل بوجود العالم الخارجي ، التي اجبرت الاسقف بركلي لا على دحض هذا المذهب على الصعيد النظري وحسب ، بل ايضاً على ملاحقة انصاره بحمية كاعداء . وهو يقول : «على اساس مذهب المادة او الجوهر الجسدي ، اقيمت جميع اختلاقات الالحاد وانكار الدين الكافرة . . . ولا داعي للقول الى اي حد كان الجوهر المادي في جميع الازمنة صديقاً كبيراً للملحدين . فان جميع انظمتهم الفظيعة تتوقف عليه بقدر من الجلاء ، وبقدر من الضرورة بحيث ان هذا الصرح ينهار حتماً بكليته ما ان يقضى حجر الزاوية هذا . ولهذا لا داعي يدعونا الى ايلاء المذاهب السخيفة لمختلف شيع الملحدين الحقيرة انتباهاً خاصاً» (الفقرة ٩٢ . ص ٢٠٣-٢٠٤ من الطبعة المذكورة) .

«ان المادة ، ما ان تُطرد من الطبيعة حتى تحمل معها الكثير من الاختلاقات الريبية والكافرة ، وعدداً لا يصدق من المجادلات والمسائل المشوشة» («مبدأ الاقتصاد في الفكر» الذي اكتشفه ماخ في السبعينيات من القرن التاسع عشر ! «الفلسفة بوصفها التفكير في العالم حسب مبدأ الحد الأدنى من انفاق القوى» - افيناريوس في عام ١٨٧٦ !) «التي كانت شوكة في العيسن بالنسبة للاهوتيين والفلاسفة ؛ وقد اجبرت المادة الجنس البشري على بذل قدر من الجهود العقيمة بحيث لو ان حتى تلك الحجج التي تقدمنا بها ضد المادة اعتبرت غير ثابتة كفاية (في

حين اني انا شخصياً اعتبرها جلية وثابتة تماماً) ، فاني واثق مع ذلك بان لجميع اصدقاء الحقيقة والسلام والدين المبررات لكي يتمنوا اعتبار هذه الحجج كافية» (الفقرة ٩٦) .

لقد حاكم الاسقف بركلي بصراحة ، وحاكم ببساطة ! ففي زمننا ، يلبسون الافكار ذاتها بشأن استبعاد «المادة» من الفلسفة استبعاداً «اقتصادياً» في شكل اكثر دهاء وتشوشاً بواسطة اصطلاحات «جديدة» لكي يعتبر السذج ان هذه الافكار هي الفلسفة «الحديثة» !

ولكن بركلي لم يتكلم بصراحة عن ميول فلسفته وحسب ، بل حاول كذلك ان يستر عريها المثالي ويصورها خالية من السخافات ومقبولة بالنسبة «للعقل السليم» . وهو يقول راداً عن نفسه بالغريزة التهمة بما قد يسمى الآن بالمثالية الذاتية والسوليبيسيسم * : بسبب فلسفتنا «لا نحرم انفسنا اية اشياء في الطبيعة» (الفقرة ٣٤) . الطبيعة تبقى ، ويبقى ايضاً الفرق بين الاشياء الفعلية والخيالات ، - ولكن «هذه وتلك على السواء توجد في الادراك بالقدر نفسه» . «انا لا اجادل البتة في وجود اي شيء يمكننا ان نعرفه بواسطة الاحساس او التفكير . اما ان الاشياء التي اراها بعيني ، والمسها بيدي توجد ، - توجد فعلاً ، فان هذا لا اشك فيه البتة . الشيء الوحيد الذي ننكر وجوده هو ما يسميه الفلاسفة (حرف التأكيد لبركلي) المادة او الجوهر الجسدي . ان انكار هذه المادة لا يتسبب باي ضرر للنوع البشري الباقي الذي اتجراً واقول انه لن يلحظ يوماً غيابها . . . ان الملحد يحتاج فعلاً الى شبح التسمية الفارغة هذا لكي يعلل كفره . . .» . وترد هذه الفكرة بمزيد من الوضوح في الفقرة ٣٧ التي يرد فيها بركلي على اتهامه بان فلسفته تقضي على الجواهر الجسدية : «اذا فهمت كلمة **الجوهر** بالمعنى المبتذل (vulgar) اي كمركب

* السوليبيسيسم - solipsisme ، مذهب وحدة الذات او مذهب الانانية او مذهب «الاناوحدية» من اللاتينية : solus ومعناه الوحيد و ipse ومعناه انا نفسي . **العرب** .

من الصفات الشعورية ، والامتداد ، والمتانة ، والوزن ، وما الى ذلك ، فلا يجوز اتهامي بالقضاء عليها . ولكن اذا فهمت كلمة الجوهر بالمعنى الفلسفي ، اي كأساس للعوارض او الصفات (الموجودة) خارج الادراك ، - فاني اعترف آنذاك فعلاً بانني اقضي على الجوهر اذا امكن القول بالقضاء على ما لم يكن له وجود يوماً ، ولم يكن له وجود حتى في الخيال» .

ان الفيلسوف الانجليزي فريزر ، المثالي ، ونصير البركلية ، والذي اصدر مؤلفات بركلي وزودها بملاحظاته ، ليس عبثاً يسمي مذهب بركلي «بالواقعية الطبيعية» (صفحة X من الطبعة المذكورة) . ولا بدّ من الاشارة حتماً الى هذه التعابير المضحكة ، لأنها تفصح بالفعل عن نية بركلي في التلون بلسون الواقعية . وسنلتقي مرارا عديدة فيما بعد «وضعين» «حديثين» يكررون بشكل آخر ، بحلة كلامية اخرى ، هذا الخداع نفسه او هذا التزييف نفسه . ان بركلي لا ينكر وجود الاشياء الفعلية ! ان بركلي لا يقاطع رأي البشرية جمعاء ! ان بركلي ينكر «فقط» مذهب الفلاسفة اي نظرية المعرفة التي تأخذ بصورة جديدة وقاطعة ، كأساس لجميع محاكماتها ، الاعتراف بالعالم الخارجي وانعكاسه في ادراك الناس . ان بركلي لا ينكر العلوم الطبيعية التي وقفت دائماً ولا تزال تقف (وفي معظم الاحيان عن غير وعي) على صعيد نظرية المعرفة هذه ، اي النظرية المادية . ونقرأ في الفقرة ٥٩ : «بوسعنا ان نستخلص من تجربتنا» (بركلي - فلسفة «التجربة الخالصة») * «فيما يتعلق بتعايش وانسجام الافكار في ادراكنا . . . استنتاجات صحيحة بصددها ما نشعر به نحن (او : ما نراه نحن) فيما اذا واجهنا احوالا تختلف اختلافاً كبيراً جداً عن الاحوال التي نواجهها الآن . وفي ذلك بالذات تتلخص معرفة الطبيعة ، التي» (اسمعوا !) «يمكن ان تحتفظ باهميتها وصحتها بصورة منسجمة تماماً بالارتباط مع ما قيل اعلاه» .

* يصرّ فريزر في مقدمته على ان بركلي ، مثله مثل لوك ، «يستند بوجه الحصر الى التجربة» (ص ١١٧) .

سنعتبر العالم الخارجي ، الطبيعة - «مركب احساسات»
 يثيرها الاله في عقلنا . اعترفوا بهذا ، اعدلوا عن البحث في خارج
 الادراك ، في خارج الانسان ، عن «اسس» هذه الاحساسات ، -
 فاعترف انا ، في اطار نظريتي المثالية عن المعرفة ، بجميع العلوم
 الطبيعية ، بكل اهمية وصحة استنتاجاتها . فانا بحاجة على وجه
 الضبط الى هذا الاطار ، والى هذا الاطار فقط لأجل استنتاجاتي
 في صالح «السلام والدين» . هذه هي فكرة بركلي . وهذه الفكرة
 التي تعرب بصورة صحيحة عن كنه الفلسفة المثالية واهميتها
 الاجتماعية ، سنلتقي بها فيما بعد ، عندما نتحدث عن موقف
 الماخية من العلوم الطبيعية .

اما الآن ، فاننا نشير الى اكتشاف حديث آخر اقتبسه في
 القرن العشرين الوضعي الحديث والواقعي النقدي ب. يوشكيفيتش
 من الاسقف بركلي . هذا الاكتشاف هو «المذهب الرمزي
 التجريبي» . يقول فريزر : «ان النظرية المفضلة عند بركلي هي
 نظرية «الرمزية الطبيعية الكلية» (ص ١٩٠ من الطبعة المذكورة)
 او نظرية «رمزية الطبيعة» (Natural Symbolism) . ولو ان هذه
 الكلمات لم ترد في الطبعة الصادرة في عام ١٨٧١ ، لكان امكن
 الظن بان الفيلسوف الانجليزي الايماني فريزر انتحل من عالم
 الرياضيات والفيزياء المعاصر بوانكاره و«الماركسي» الروسي
 يوشكيفيتش !

ان نظرية بركلي نفسها التي اثارت اعجاب فريزر ، انما
 يعرضها الاسقف كما يلي :
 «ان الصلة بين الافكار» (لا تنسوا ان الافكار والاشياء هي
 الامر نفسه بالنسبة لبركلي) «لا تفترض العلاقة بين السبب
 والمسبب ، بل تفترض فقط العلاقة بين السمة او العلامة
 والشيء ، المعلم بنحو او آخر» (الفقرة ٦٥) . «ومن هنا يتضح
 ان تلك الاشياء التي هي ، من وجهة نظر مقولة السبب
 (under the notion of a cause) التي تسهم او تساعد في انتاج
 المسبب ، غير قابلة اطلاقاً للتفسير ، وتقودنا الى سخافات

كبيرة ، - انما يمكن تفسيرها بصورة طبيعية تماماً ،
 اذا نظرنا اليها كسمات او علامات لأجل اطلاقنا» (الفقرة ٦٦) .
 وبديهي ان من يطلعنا بواسطة هذه «الرموز التجريبية» ليس ،
 برأى بركلي وفريزر ، غير الاله . اما شأن الرمزية العرفاني في
 نظرية بركلي ، فهو انه لا بد لها ان تحل محل «مذهب» «يدعي
 بتفسير الاشياء باسباب جسدية» (الفقرة ٦٦) .

نحن امام اتجاهين فلسفيين في مسألة السببية . احدهما
 «يدعي بتفسير الاشياء باسباب جسدية» ، - وواضح انه يرتبط
 «بمذهب المادة» «السخيف» والذي دحضه الاسقف بركلي . والثاني
 يحصر «مفهوم السبب» في مفهوم «السمة او العلامة» المعدة «لأجل
 اطلاقنا» (من قبل الرب) . وبهذين الاتجاهين في حلة القرن
 العشرين نلتقي لدن تحليل موقف الماخية والمادية الديالكتيكية
 من المسألة المعنية .

وبعد . يجب ان نشير ايضاً في مسألة الواقعية الى ان بركلي
 الذي يرفض الاعتراف بوجود الاشياء خارج الادراك ، يحاول ان
 يفتش عن معيار لأجل التمييز بين الفعلي والوهمي . وهو يقول في
 الفقرة ٣٦ ان تلك «الافكار» التي يستحضرها العقل البشري على
 هواه «شاحبة ، ضعيفة ، متقلقلة بالقياس الى تلك الافكار التي
 ندركها بالحواس . وبما ان هذه الافكار الاخيرة تتسجل فينا
 بموجب قواعد او قوانين معروفة للطبيعة ، فانها تدل على فعل
 عقل اوفر جبروتاً وحكمة من العقل البشري . ولهذه الافكار ، كما
 يقال ، من الواقعية اكثر مما للافكار السابقة ؛ وهذا يعني انها
 اكثر وضوحاً وترتيباً وتقسيماً وانها ليست اوهاماً للعقل الذي
 يدركها» . وفي مكان آخر (الفقرة ٨٤) يحاول بركلي ان
 يربط مفهوم الفعلي بادراك الاحساسات الحسية ذاتها من قبل
 عدد كبير من الناس في آن واحد . مثلاً . كيف نحل المسألة
 التالية : هل تحويل الماء الى خمر ، الامر الذي - لنفترض -
 يحكون لنا عنه ، هو حقيقي واقعي ؟ «لو رأى جميع الحاضرين
 الى المائدة هذا ، وشموا رائحته ، وشربوا الخمر ، واحسوا

بطعمه ، ولو رأوا على انفسهم عواقب احتساء الخمر ، لما كان من الممكن ، برأبي ، ان تقوم شكوك في واقعية هذا الخمر» . ويوضح فريزر : «ان معرفة اشخاص مختلفين ، في آن واحد ، للافكار الحسية ذاتها تعتبر هنا ، خلافاً للمعرفة الفردية او الشخصية الصرف للمواضيع والانفعالات المتخيلة ، دليلاً على حقيقة واقعية الافكار من النوع الاول» .

ومن هنا يتضح انه لا يجوز فهم مثالية بركلي الذاتية على نحو يبدو منه انه يتجاهل الفرق بين الادراك الفردي والادراك الجماعي ، بل بالعكس . فعلى هذا الفرق يحاول ان يبني معايير الحقيقة الواقعية . ان بركلي يستخرج «الافكار» من تأثير الاله في عقل الانسان ، ويقترّب بالتالي من المثالية الموضوعية : ان العالم ليس تصوري ، بل نتيجة لسبب روحي اعلى يضع «قوانين الطبيعة» وقوانين الفرق بين افكار «اكثر واقعية» وافكار اقل واقعية ، والنح . .

ويحاول بركلي في مؤلف آخر له هو «ثلاثة احاديث بين هيلاس وفيلونوس» (عام ١٧١٣) ان يعرض نظراته بأسلوب مبسط جداً ؛ وفيه يبسط التضاد بين مذهبه والمذهب المادي كما يلي :

«اني اؤكد مثلكم» (الماديين) «انه ما دام شيء ما من الخارج يفعل فعله فينا ، فانه يتعين علينا ان نقبل بوجود قوى موجودة خارجاً (عنا) ، قوى تخص كائناً مختلفاً عنا . ولكننا نفترق هنا في مسألة معرفة طبيعة هذا الكائن الجبار . اني اؤكد انه الروح ، وانتم - انه المادة او طبيعة ثالثة لا اعرفها (وبوسعي ان اضيف انكم انتم ايضاً لا تعرفون) . . .» (ص ٣٣٥ من الطبعة المذكورة) .

ويعلق فريزر : «هنا لبّ المسألة كلها . فان الظاهرات الحسية تنجم ، برأي الماديين ، عن الجوهر المادي او عن «طبيعة ثالثة» مجهولة ما ؛ وبرأي بركلي ، عن الارادة العقلانية ؛ وبرأي هيوم والوضعيين ان منشأها مجهول تماماً ؛ اما نحن ، فلا

يسعنا الا ان نعممها ، كوقائع ، عن طريق الاستقراء ، حسب العادة» .

ان البركلي الانجليزي فريزر يقترب هنا من وجهة نظره المثالية المنسجمة من تلك «الخطوط» الاساسية ذاتها في الفلسفة ، الموصوفة ببالح الوضوح عند المادي انجلس . فان انجلس يقسم الفلاسفة في مؤلفه «لودفيغ فورباخ» الى «معسكرين كبيرين» : معسكر الماديين ومعسكر المثاليين . ويرى انجلس الفرق الاساسي بينهما ، - آخذاً بعين الاعتبار نظريات الاتجاهين التي هي اكثر تطوراً واغنى مضموناً بكثير مما اخذه فريزر في اعتباره - في كون الماديين يعتبرون الطبيعة الاصل والروح الفرع ، وفي كون المثاليين يعتبرون العكس بالعكس . وبين هؤلاء واولئك يضع انجلس انصار هيوم وكانط لانهم ينكرون امكانية معرفة العالم او على الاقل امكانية معرفته معرفة تامة ، وسماههم **اللاعرفانيين** * (٤) . ويطبق انجلس في مؤلفه «لودفيغ فورباخ» هذا التعبير الاخير على انصار هيوم فقط (اي على اولئك الذين يسميهم فريزر ويطيّب لهم ان يسموا انفسهم «بالوضعيين») ، ولكن انجلس يتحدث صراحة في مقالة «المادية التاريخية» عن وجهة نظر «**اللاعرفاني الكانطي الجديد**» (٥) معتبراً الكانطية الجديدة (٦) ضرباً من اللاعرفانية * * .

ونحن لا يسعنا ان نتوقف هنا عند محاكمة انجلس هذه الرائعة الصحة والعمق (هذه المحاكمة التي يتجاهلها الماخيون بلا

* اللاعرفاني - من انصار اللاعرفانية ، (agnosticisme) اللاادرية او الانكارية . **المعرب** .

* * (٧) ، «Neue Zeit» ، Fr. Engels. «Über historischen Materialismus» ، XI. Jg., Bd. I. (1892 — 1893), Nr. 1, S. 18 «المادية التاريخية» ، «الازمنة الحديثة» ، السنة الحادية عشرة ، المجلد الاول (١٨٩٢ - ١٨٩٣) ، العدد الاول ، ص ١٨ . **الناشر** . الترجمة من الانجليزية قام بها انجلس نفسه . الترجمة الروسية في مجموعة «المادية التاريخية» (سانت بطرسبورغ ، عام ١٩٠٨ ، ص ١٦٧) غير دقيقة .

حياة) . فسوف نتحدث عن هذا بالتفصيل فيما بعد . وحتى ذلك سنكتفي بالإشارة إلى هذه التعابير الماركسية وإلى هذا التطابق بين الطرفين : التطابق بين نظرة المادي المنسجم ونظرة المثالي المنسجم إلى الاتجاهات الفلسفية الأساسية . ولتبيان هذه الاتجاهات (التي سنواجهها على الدوام فيما يلي من العرض) ، نشير بإيجاز إلى نظرات كبار فلاسفة القرن الثامن عشر ممن ساروا في سبيل غير سبيل بركلي .

اليكم محاكمات هيوم في الفصل (الثاني عشر) عن الفلسفة الريبية * من مؤلفه «دراسات في المعرفة البشرية» : «يمكننا أن نعتبر من الجلي أن الناس يميلون بحكم الغريزة الطبيعية أو بحكم الاستعداد إلى تصديق احساساتهم واننا ، بدون أي تفكير أو حتى قبل أن نلجأ إلى التفكير ، نفترض دائماً العالم الخارجي (external universe) الذي لا يتوقف على ادراكنا ، والذي سيظل موجوداً حتى وإن زلنا نحن وجميع الكائنات الأخرى القادرة على الاحساس أو قضي علينا . وحتى الحيوانات تسترشد برأي مماثل وتحتفظ بهذا الايمان في المواضيع الخارجية في جميع افكارها وخططها واعمالها . . . ولكن هذا الرأي العام والأولي عند جميع الناس سرعان ما تحطمه أطفه (slightest) فلسفة تعلمنا أنه لا يمكن أن يكون يوماً في منال عقلنا أي شيء غير الصورة أو الاحساس ، وأن الحواس ليست غير قنوات (inlets) ترسل فيها هذه الصور ، دون أن تكون قادرة على إقامة أية علاقة مباشرة (intercourse) بين العقل والموضوع . فإن الطاولة التي نراها تبدو أصغر إذا ابتعدنا عنها ، ولكن الطاولة الحقيقية الموجودة بصورة مستقلة عنا لا تتغير ؛ ومن هنا ينجم أنه لم يظهر شيء أمام عقلنا غير صورة الطاولة (image) . وتلك هي إشارات العقل الجلية ؛ وإن أي أمرٍ يفكر لم يشك يوماً في أن الموجودات (existences) التي نحكي عنها : «هذه الطاولة» ، «هذه الشجرة» ليست غير مدركات عقلنا . . . باي حجة يمكن

* الريبية - scepticism أو مذهب الشك . المعرب .

تقديم البرهان على ان المدركات في عقلنا يجب ان تسببها موجودات خارجية تختلف تماماً عن هذه المدركات ، حتى وان كانت متشابهة معها (اذا كان هذا ممكناً) ولا تنبع اما من طاقة العقل نفسه ، وإما من فعل روح ما غير منظورة وغير معروفة ، وإما من سبب ما آخر نحن اقل معرفة به ؟ . . . باي نحو يمكن حل هذه المسألة ؟ طبعاً ، بواسطة التجربة شأنها شأن جميع المسائل الاخرى من هذا النوع . ولكن التجربة تلزم الصمت في هذه النقطة ولا يسعها ان لا تلزم الصمت . ان العقل لا يجد ابدأ امامه اية اشياء ما عدا المدركات الحسية ، وليس بمقدوره في اي حال من الاحوال ان يقوم باية تجربة بشأن العلاقة بين المدركات الحسية والمواضيع . ولهذا لا تقوم فرضية هذه العلاقة على اي اساس منطقي . وان اللجوء الى صدق الكائن الاعلى للبرهنة على صدق حواسنا - انما يعني تعاشي المسألة بنحو غير متوقع ابدأ . . . وما دمنا نطرح مسألة العالم الخارجي ، فاننا نفقد جميع الحجج التي كان يمكن بها اثبات وجود هذا الكائن* .
والشيء نفسه يقوله هيوم في مؤلفه «بحث في الطبيعة البشرية» ، القسم الرابع ، الباب الثاني : «في الريبة حيال الحواس» . «ان مدركاتنا الحسية هي مواضعنا الوحيدة» (ص ٢٨١ من الترجمة الفرنسية لرينوفيه وبيلون . عام ١٨٧٨) . ان هيوم يسمي بالريبة الامتناع عن تفسير الاحساسات بتأثير الاشياء والروح وما الى ذلك ، الامتناع عن حصر المدركات الحسية في العالم الخارجي ، من جهة ، وفي الاله او في الروح المجهولة من جهة اخرى . وان كاتب المقدمة للترجمة الفرنسية لمؤلف هيوم ، بيلون (F. Pillon) ، وهو فيلسوف ذو اتجاه متقارب مع اتجاه ماخ (كما سنرى فيما بعد) ، يقول عن حق وصراب ان

* David Hume. «An Enquiry concerning Human Understanding».

Essays and Treatises, vol. II, Lond., 1822, pp. 150 — 153 (دافيد هيوم .

«تحقيق في المعرفة البشرية» ، بحوث ودراسات . المجلد الثاني .

لندن . عام ١٨٢٢ . ص ١٥٠-١٥٢ . الناشر) .

الذات والموضوع ينحصران بالنسبة لهيوم في «مجموعتين من مختلف المدركات الحسية» ، في «عناصر من الادراك وانطباعات وافكار ، والنخ .» وان الكلام يجب ان يتناول فقط «تكتيل وتركيب هذه العناصر» * . ثم ان الانجليزى هكسلي ، نصير هيوم ، وصاحب التعبير الدقيق والصائب «اللاعرفانية» ، يؤكد في كتابه عن هيوم ان هذا الاخير الذي اعتبر ان «الاحساسات» هي «حالات الادراك الاولية غير القابلة للتحليل والفصم» ، ليس منسجماً تماماً في مسألة ما اذا كان يجب تفسير منشأ الاحساسات بتأثير المواضيع في الانسان او بقوة العقل الخلاقة . «انه (اي هيوم) يعتبر الواقعية والمثالية فرضيتين محتملتين بالقدر نفسه» * * . ولا يمضي هيوم الى ابعد من الاحساسات . «ان اللونين الاحمر والازرق ، ورائحة الورد ، انما هي انطباعات بسيطة . . . ان الورد الحمراء تعطينا انطباعاً معقداً (complex impression) يمكن تحليله الى انطباعات بسيطة للون الاحمر ورائحة الورد وغير ذلك» (ص ٦٤-٦٥ ، المرجع نفسه) ويجيز هيوم «الموقف المادي» و«الموقف المثالي» على السواء . (ص ٨٢) ؛ ان «مجموعة الانطباعات» يمكن ان تنجم عن «انسان» فيخته ، ويمكن ان تكون «صورة او على الاقل رمزاً» لشيء ما حقيقي واقعي (real something) . هكذا يفسر هكسلي هيوم .

اما فيما يتعلق بالماديين ، فاليكم رأي زعيم الموسوعيين (٨) ديدرو في بركلي : «يسمون بالمثاليين الفلاسفة الذين يقرون بان وجودهم ووجود الاحساسات التي تتعاقب في داخلنا هما

Psychologie de Hume. Traité de la nature humaine etc. Trad. *
par Ch. Renouvier et F. Pillon, Paris, 1878. Introduction, p. X
(علم النفس عند هيوم . بحث في الطبيعة البشرية ، النخ . ترجمة ش .
رينوفيه وف . بيلون ، باريس ، عام ١٨٧٨ . المقدمة ، ص X .
الناشر) .

* * Th. Huxley. «Hume», Lond., 1879, p. 74 (ت . هكسلي .
«هيوم» ، لندن ، عام ١٨٧٩ ، ص ٧٤ . الناشر) .

وحدهما معروفان ، ولا يقرون بأي امر آخر . وهذا نظام متهور لا يمكن ، بنظري ، ان يبنيه غير العميان ! وهذا النظام لما فيه عار العقل البشرى ، لما فيه عار الفلسفة ، هو الاصعب على الدحض بين الانظمة رغم انه اسخفها جميعاً* . وان ديدرو ، الذي اقترب عن كثب من نظرة المادية المعاصرة (القائلة ان الحجج والقياسات المنطقية لا تكفي لدحض المثالية ، وان المسألة هنا لا تكمن فى الحجج النظرية) يلاحظ التشابه بين مقدمات المثالي بركلي والحسي** كونديلياك . وهو يرى انه كان ينبغي على كونديلياك ان ينصرف الى دحض بركلي لكي يتجنب الاستنتاجات السخيفة من اعتبار الاحساسات المصدر الوحيد لمعارفنا .

في كتاب «حديث دالامبر وديدرو» ، يعرض ديدرو نظريته الفلسفية على النحو التالي : « . . . افترض ان البيانو يملك القدرة على الاحساس والتذكر ، وقل : ألا يعمد في هذه الحال ، يا ترى ، ويردد بنفسه تلك الانغام التي عزفتها انت على مفاتيحه ؟ نحن ادوات تملك القدرة على الاحساس والتذكر . وحواسنا هي المفاتيح التي تضرب عليها الطبيعة المحيطة بنا والتي تضرب نفسها احياناً كثيرة ؛ وهذا ، برأبي ، كل ما يجري في البيانو المنظم مثلك ومثلي» . ويجب دالامبر انه ينبغي لهذا البيانو ان يملك القدرة على تحصيل المأكل لنفسه وعلى انجاب بيانوهات صغيرة . ويرد ديدرو : بلا ريب . ولكن خذ بيضة . «هذا ما يطبخ ارضاً بجميع تعاليم اللاهوت وجميع المعابد في الارض . ما هي البيضة ؟ كتلة لا تحس طالما لم يدخل فيها الجنين ؛ وعندما يدخل فيها الجنين ، فما هي ؟ كتلة لا تحس ، لأن هذا

* Œuvres complètes de Diderot, éd. par J. Assézat, Paris, 1875, *

vol. I, p. 304. (ديدرو . المؤلفات الكاملة . اصدار ج . اسيزا .

باريس ، عام ١٨٧٥ . المجلد الاول ، ص ٣٠٤ . الناشر) .

** الحسي - sensualiste ، نصير المذهب الحسي sensualisme

الجنين ليس بدوره غير سائل حامل وخشن . فكيف تنتقل هذه الكتلة الى تنظيم جديد ، الى القدرة على الاحساس ، الى الحياة ؟ بواسطة الحرارة . وما الذي ينتج الحرارة ؟ الحركة» . ان الحيوان الذي يفقس من البيضة يملك جميع انفعالاتك ، ويقوم بجميع اعمالك . «فهل تزعم مع ديكارت ان هذا آلة بسيطة للتقليد ؟ ونكن الاولاد الصغار سيضحكون عليك ، وسيرد عليك الفلاسفة بانه اذا كان هذا آلة ، فانت ايضاً آلة . واذا اعترفت بان الفرق بين هذه الحيوانات وبينك ينحصر في التنظيم ، فانك تبرهن عن فكر سليم وتبصر ، وستكون على حق ؛ ولكنه سينجم من هنا استنتاج ضدك وهو ان من المادة الجامدة ، والمنظمة بطريقة معينة ، ستنتج ، بتأثير مادة خاملة اخرى ، ثم بتأثير الحرارة والحركة ، القدرة على الاحساس والحياة والتذكر والوعي والانفعال والتفكير» . ويستطرد ديدرو قائلاً : واحد من امرين : اما الاقرار بوجود «عنصر خفي» ما في البيضة ، يتسرب اليها بطريقة مجهولة في لحظة معينة من التطور ، - عنصر غير معروف ما اذا كان يشغل مكاناً ، او اذا كان مادياً ، او مخلوقاً قصداً وعمداً . وهذا يناقض الفكر السليم ويؤدي الى التناقضات والى المحال . واما يبقى ان نتقدم «بافتراض بسيط يفسر كل شيء ، وهو ان القدرة على الاحساس هي خاصة عامة للمادة او نتاج تنظيمها» . ورداً على اعتراض دالامبر بان هذا الافتراض يجيز صفة تتنافى مع المادة من حيث الجوهر ، قال ديدرو :

«ومن اين تعرف ان القدرة على الاحساس تتنافى مع المادة من حيث الجوهر ، ما دمت لا تعرف جوهر الاشياء على العموم ، ولا جوهر المادة ولا جوهر الاحساس ؟ وهل تفهم ، يا ترى ، على نحو افضل ، طبيعة الحركة ، ووجودها في جسم ما ، وانتقالها من جسم الى آخر ؟» دالامبر : «دون ان اعرف طبيعة الاحساس ولا طبيعة المادة ، ارى ان القدرة على الاحساس هي صفة بسيطة ، واحدة ، لا تنقسم ، وتتنافى مع الذات او مع الاساس (suppôt) القابل للتقسيم» . ديدرو : «هراء ميتافيزيائي - لاهوتي ! كيف ؟

ألا ترى حقاً ان جميع صفات المادة ، جميع اشكالها التي هي في منال احساسنا لا تنقسم من حيث جوهرها ؟ لا يمكن ان تكون ثمة درجة اكبر او اصغر من اللاخترافية . يمكن ان يكون ثمة نصف جسم مستدير ، ولكنه لا يمكن ان يكون ثمة نصف استدارة «كن فيزيائياً ووافق على الاعتراف بالطابع الاشتقاقي للعاقبة المعنية ، حين ترى كيف تنجم ، رغم انك لا تستطيع ان تفسر علاقة السبب بالمسبب . كن منطقياً ولا تستعص عن السبب الموجود والذي يفسر كل شيء بسبب ما آخر لا يمكن فهمه والذي يخلق عدداً لا يحصى من المصاعب دون ان يحل اياً منها» . دالامبر : «وما عسى ان يحدث اذا ما انطلقت من هذا السبب ؟» ديدرو : «لا يوجد في الكون كله غير جوهر واحد ، سواء في الانسان ام في الحيوان . الارغن اليدوي من الخشب ، الانسان من اللحم . النعار من اللحم ، الموسيقى من لحم منظم بصورة اخرى ؛ ولكن هذا وذاك من اصل واحد ، من تشكيلة واحدة ، ولهما الوظائف ذاتها والهدف ذاته» . دالامبر : «وباي نحو يقوم تطابق الاصوات بين بيانوهيك ؟» . ديدرو : «... ان الاداة التي تملك القدرة على الاحساس او الحيوان اقتنع بالتجربة بان صوتاً ما تتبعه عواقب معينة في خارجه ، بان ادوات حساسة اخرى ، مثلها ، او حيوانات اخرى تتقارب او تتباعد ، تطلب او تعرض ، تجرح او تلاطف ، وجميع هذه العواقب تقارن في ذاكرته وفي ذاكرة الحيوانات الاخرى مع اصوات معينة ؛ ولاحظ انه لا يوجد في العلاقات بين الناس غير الاصوات والافعال . ولتقييم كل قوة نظامي ، لاحظ ايضا انه يواجه نفس الصعوبة المستعصية التي تقدم بها بركلي ضد وجود الاجسام . لقد كانت لحظة جنون عندما تصور فيها البيانو الحساس انه البيانو الوحيد الموجود في الدنيا وان كل هرمونية الكون تجري فيه» * .

لقد كتب هذا في عام ١٧٦٩ . وعنده نختتم توضيحنا

التاريخي الصغير . وسيتأتى لنا ان نواجه غير مرة «البيانوس المجنون» وهرمونية العالم الجارية في داخل الانسان ، لدن تحليل «الوضعية الحديثة» .

وحتى ذاك نكتفي باستنتاج واحد ، هو ان الماخيين «الحديثين» لم يوردوا ضد الماديين اية حجة واحدة ، اية حجة على الاطلاق ، لم ترد عند الاسقف بركلي .

ومن باب الطرائف نشير الى ان احد هؤلاء الماخيين ، وهو فالنتينوف ، وقد شعر شعوراً غامضاً بزيف موقفه ، قد حاول ان «يزيل آثار» قرابته مع بركلي ، وفعل ذلك بصورة مضحكة جداً . ففي الصفحة ١٥٠ من كتابه نقراً : « . . . حين يتحدثون عن ماخ ويومنون الى بركلي ، فاننا نسأل : عن اي بركلي يجري الحديث ؟ عن بركلي الذي كان يعتبر عادة (يريد فالنتينوف ان يقول : الذي يُعتبر) سوليبيسياً ، ام عن بركلي الذي يدافع عن الوجود المباشر لئله وعن عناية الاله ؟ وعلى العموم (؟) ، عن بركلي بصفته اسقفاً يتفلسف ، ويسحق الالحاد ، ام عن بركلي بصفته محلاً عميق التفكير ؟ ان ماخ لا يمت فعلاً بأي صلة الى بركلي بوصفه سوليبيسياً ، والى الواعظ بالميتافيزياء الدينية» . ان فالنتينوف يخبص لانه لا يستطيع ان يفهم بوضوح لماذا تأتي له ان يدافع عن «المحلل العميق التفكير» المثالي بركلي دون المادي ديدرو . ان ديدرو قد قارن بجلاء بين الاتجاهات الفلسفية الاساسية . اما فالنتينوف ، فانه يخلط بينها ، ثم يعزينا بصورة مضحكة ؛ فقد كتب يقول : «نحن لا نعتبر «قرابة» ماخ من آراء بركلي المثالية جريمة فلسفية ، هذا اذا ما كانت هذه «القرابة» موجودة بالفعل» (١٤٩) . الخلط بين اتجاهيين اساسيين في الفلسفة يستحيل التوفيق بينهما ، اي «جريمة» في هذا ؟ والواقع ان كل حكمة ماخ وافيناريوس تنحصر في هذا . والى تحليل هذه الحكمة ننتقل الآن .

الفصل الاول

نظرية المعرفة في المذهب النقدي التجريبي وفي المادية الديالكتيكية . - ١

١ - الاحساسات ومركبات الاحساسات

لقد عرض ماخ وافيناريوس بصراحة وبساطة ووضوح المقدمات الاساسية لنظرية المعرفة الخاصة بهما في مؤلفاتهما الفلسفية الاولى . والى هذه المؤلفات بالذات نعود مرجئين الى العرض اللاحق تحليل ما قام به هذان الكاتبان من تعديل وتنقيح وشطب .

فقد كتب ماخ في عام ١٨٧٢ يقول : «يمكن ان تنحصر مهمة العلم فيما يلي : ١ - بحث قوانين الصلة بين التصورات (البيكولوجيا) * . ٢ - اكتشاف قوانين الصلة بين الاحساسات (الفيزياء) . ٣ - تفسير قوانين الصلة بين الاحساسات والتصورات (البيكوفيزياء) **» * * * . وهذا واضح تماماً .

اذن ، موضوع الفيزياء هو الصلة بين الاحساسات وليس بين الاشياء او الاجسام التي احساساتنا صورة عنها . وفي عام ١٨٨٣ يكرر ماخ الفكرة نفسها في مؤلفه «الميكانيك» :

* البيكولوجيا او السيكولوجيا او علم النفس - Psychologie .

المعرب .

** علم النفس الفيزيائي - Psychophysique . المعرب .

*** E. Mach. «Die Geschichte und die Wurzel des Satzes von der

Erhaltung der Arbeit». Vortrag gehalten in der K. Böhm. Gesellschaft der Wissenschaften am 15. Nov. 1871, Prag, 1872, S. 57 — 58 (ارنست

ماخ . «مبدأ بقاء العمل ، تاريخه واصله» . تقرير القى في الجمعية العلمية الملكية في بوهيميا في ١٥ تشرين الثاني - نوفمبر ١٨٧١ ، براغ ، ١٨٧٢ ، ص ٥٧-٥٨ . الناشر) .

«الاحساسات - ليست «رموز الاشياء» . فان «الشيء» هو بالاحرى رمز فكري لأجل مركب الاحساسات الذي يتصف باستقرار نسبي . وليست الاشياء (الاجسام) ، بل الالوان والاصوات ، والضغط ، والمكان ، والزمان (اي ما نسميه عادة بالاحساسات) هي عناصر العالم الحقيقية» * .

وسنتحدث ادناه عن هذه الكلمة «عناصر» التي جاءت ثمرة «تأملات» دامت اثني عشر عاماً . اما الآن ، فيتعين علينا ان نلاحظ ان ماخ يعترف هنا صراحة بان الاشياء او الاجسام هي مركبات احساسات وانه يعارض بكل وضوح بوجهة نظره الفلسفية النظرية المضادة القائلة ان الاحساسات هي «رموز» الاشياء (ومن الادق القول : صور او انعكاسات الاشياء) . ان هذه النظرية الاخيرة هي **المادية الفلسفية** . مثلاً المادي فريدريك انجلس ، المعاون المعروف لماركس ، ومؤسس الماركسية ، يتحدث على الدوام وبلا استثناء في مؤلفاته عن الاشياء وعن صورها الذهنية او انعكاساتها (Gedanken-Abbilder) ، زد على ذلك انه غني عن البيان ان هذه الصور الذهنية لا تنبثق الا من الاحساسات . قد يخيل انه لا بدّ لهذه النظرية الاساسية في «فلسفة الماركسية» ان تكون معروفة لكل من يتحدث عنها ، وخاصة لكل من يكتب في الصحف باسمها . ولكن نظراً للبلبلّة الفائقة العادة التي احدثها اصحابنا الماخيون ، يتعين تكرار ما يعرفه الجميع . لنفتح الفقرة الاولى من «ضد دوهرينغ» ونقرأ : «... الاشياء وانعكاساتها الذهنية ...» * * . او

E. Mach. «Die Mechanik in ihrer Entwicklung historisch-kri- *
tisch dargestellt», 3. Auflage, Leipz., 1897, S. 473 . ماخ
«الميكانيك . بحث تاريخي نقدي في تطوره» ، الطبعة الثالثة ، ليبزيغ ،
عام ١٨٩٧ ، ص ٤٧٣ . الناشر) .

Fr. Engels. «Herrn Eugen Dührings Umwälzung der Wissen- * *
schaft», 5. Auflage, Stuttg., 1904, S. 6 (السيد اوجين
دوهرينغ يحدث انقلاباً في العلم» . الطبعة الخامسة . شتوتغارت ، عام
١٩٠٤ ، ص ٦ . الناشر) .

الفقرة الاولى من القسم الفلسفي : «من اين يأخذ التفكير هذه المبادئ؟» (المقصود هنا المبادئ الاساسية لكل معرفة) . «من نفسه بالذات ؟ كلا . . . ان التفكير لا يستطيع ابداً ان يستمد ويستخلص اشكال الوجود من نفسه بالذات ، بل من العالم الخارجي فقط . . . ان المبادئ - ليست نقطة الانطلاق للبحث» (كما يتبين عند دوهرينغ الذي يرغب في ان يكون مادياً ، ولكن الذي لا يعرف كيف يطبق المادية بانسجام) ، «بل نتيجته الختامية ؛ وهذه المبادئ لا تطبق على الطبيعة وعلى التاريخ البشري ، بل تتجرد منها ؛ وليست الطبيعة ولا البشرية هما اللتان تتطابقان مع المبادئ ، بل بالعكس ؛ فان المبادئ لا تكون صحيحة الا بقدر ما تتطابق مع الطبيعة والتاريخ . ذلك هو الرأي المادي الوحيد في الموضوع ، في حين ان نظرة دوهرينغ المضادة هي نظرة مثالية تقلب رأساً على عقب العلاقة الفعلية وتبني العالم الفعلي من الافكار . . .» (المرجع نفسه ص ٢١) . وهذه «النظرة المادية الوحيدة» يطبقها انجلس - ونكرر قولنا - في كل مكان وبلا استثناء ، ملاحقاً دوهرينغ بلا هوادة لأقل انحراف عن المادية صوب المثالية ، وكل من يطالع «ضد دوهرينغ» و«تودفينغ فورباخ» وان ببعض الانتباه يجد عشرات الامثلة التي يتحدث فيها انجلس عن الاشياء وعن صورها في الدماغ البشري ، في ادراكنا ، في تفكيرنا ، وما الى ذلك . ان انجلس لا يقول ان الاحساسات او التصورات هي «رموز» الاشياء ، لأنه يتعين على المادية المنسجمة ان تضع هنا «الصور» او اللوحات او الانعكاسات محل «الرمز» ، كما سنبين ذلك بالتفصيل في حينه ومكانه . ولكن المقصود الآن عندنا لا يتعلق البتة بهذه الصياغة او تلك للمادية ، بل بتضاد المادية للمثالية ، بالفرق بين الخطين الاساسيين في الفلسفة . أمن الاشياء نمضي الى الاحساس والفكر ؟ ام من الفكر والاحساس الى الاشياء ؟ ان انجلس يتمسك بالخط الاول اي بالخط المادي . اما ماخ ، فانه يتمسك بالخط الثاني ، اي بالخط المثالي . ان المراوغات ، والسفسطات (التي سوف نجد كثرة كثيرة منها) ،

أيًا كانت ، لن تقضي على هذا الواقع العجلي الذي لا مرأى فيه ، وهو ان تعليم ارنست ماخ القائل ان الاشياء هي مركبات احساسات هو مثالية ذاتية ، هو مجرد اجترار للبركلية . فاذا كانت الاجسام «مركبات احساسات» ، كما يقول ماخ ، او «تركيبات احساسات» كما قال بركلي ، فانه ينجم حتماً من هذا ان العالم كله هو تصوري فقط . وانطلاقاً من هذه المقدمة ، لا يمكن التوصل الى وجود اناس آخرين غيري انا بالذات : وهذا هو السنوليبسيسم الصرف . ومهما تنكر ماخ وافيناريوس وبتسولدت وشركاهم لهذا المذهب ، فانهم لا يستطيعون التخلص بالفعل منه بدون سخافات منطقية صارخة . لتوضيح هذا العنصر الاساسي في فلسفة الماخية بمزيد من الجلاء ، لنورد بعض المقتبسات الاضافية من مؤلفات ماخ . اليكم نموذجاً من «تحليل الاحساسات» (الترجمة الروسية لكوتليار ، دار سكيرمونت للطبع والنشر ، موسكو ، عام ١٩٠٧) :

«امامنا جسم علامة نصله S . حين نلمس النصل ، حين نجعله في تماس مع جسمنا ، فانتا نحس وخزة . بوسعنا ان نرى النصل ، دون ان نشعر بالوخزة . ولكننا حين نشعر بالوخزة ، فاننا نجد النصل . وعليه يكون النصل المنظور نواة دائمة ، بينما تكون الوخزة شيئاً ما من باب الصدفة قد يكون او لا يكون ، نظراً للظروف ، على صلة بالنواة . ومع تكاثر الظواهر المماثلة ، يتعودون ، اخيراً ، اعتبار جميع خواص الاجسام «افعالاً» تنطلق من مثل هذه النوى الدائمة ومحقة في افانا بواسطة جسمنا - «افعالاً» نسميها «احساسات» . . .» (ص ٢٠) .

وبتعبير آخر : «يتعود» الناس تبني وجهة نظر المادية ، واعتبار الاحساسات نتيجة لفعل الاجسام والاشياء والطبيعة في اعضاء حواسنا . وهذه «العادة» الضارة بالنسبة للمثاليين الفلاسفة (والتي استوعبتها البشرية جمعاء والعلوم الطبيعية جمعاء !) لا تعجب ماخ على الاطلاق ، فيشرع في تحطيمها :

« . . . ولكن هذه النوى تفقد بذلك كل مضمونها الحسي وتغدو رموزاً مجردة عارية . . .» .

هذه اغنية قديمة ، ايها السيد البروفسور الجزيل الاحترام !
 هذا تكرار حرفي لبركلي الذي قال ان المادة رمز مجرد عار . ولكن
 ارنست ماخ يمشى بالفعل عارياً ، لأنه اذا كان لا يعترف بان
 الحقيقة الواقعية الموضوعية ، الموجودة بصورة مستقلة عنا ، هي
 «المضمون الحسي» ، فلا يبقى عنده غير **الانا** «المجرد العاري» ،
الانا المطبوع حتما بحرف اسود كبير = «البيانو المجنون الذي يتصور
 انه البيانو الوحيد الموجود في الدنيا» . واذا لم يكن العالم الخارجي
 «المضمون الحسي» لاحساساتنا ، فان هذا يعني انه لا يوجد شيء
 غير هذا **الانا** العاري الذي يقوم ببهلوانيات «فلسفية» باطله . ويا
 للعمل الغبي والعقيم !

« . . . ومن الصحيح آنذاك ان العالم لا يتألف الا من
 احساساتنا . ولكننا لا نعرف آنذاك غير احساساتنا ، فيفسدو
 التسليم بتلك النوى وبالتفاعل بينها الذي تشكل الاحساسات
 وحدها ثمرته ، نافلاً وباطلاً تماماً . وهذه النظرة لا يمكن ان
 تكون صالحة الا بالنسبة للواقعية النصفية او بالنسبة للانتقادية
 النصفية» .

لقد استنسغنا كلياً كامل الفقرة السادسة من «الملاحظات
 المناهضة للميتافيزياء» لماخ . هذا انتحال تام من بركلي . فلا
 اي رأي ، ولا اي بصيص من فكر ، عدا «اننا نحس با احساساتنا
 فقط» . ومن هنا استنتاج واحد فقط ، هو ان «العالم يتألف من
 احساساتي انا فقط» . ان ضمير المتصل «نا» الذي وضعه ماخ
 محل ياء المتكلم انما وضعه عن غير حق وصواب . وبهذه الكلمة
 وحدها يكشف ماخ تلك «النصفية» التي يتهم بها الآخرين . فاذا
 كان «التسليم» بالعالم الخارجي «باطلاً» ، اذا كان التسليم بان
 الابرّة موجودة بصورة مستقلة عني وبانه يجري تفاعل بين
 جسمي ونصل الابرّة ، واذا كان كل هذا التسليم «باطلاً نافلاً»
 بالفعل ، فان «التسليم» بوجود الناس الآخرين هو في المقام
 الاول باطل ونافل . **انا** وحدي فقط موجود ؛ اما جميع الناس
 الآخرين ، فانهم ، مثل العالم الخارجي كله ، يسقطون في فئة

«النوى» الباطلة . ومن وجهة النظر هذه لا يمكن التحدث عن احساسات «نا» ؛ ولكن ما دام ماخ يتحدث عنها ، فان هذا يعني نصفيته الصارخة فقط . ان هذا يثبت فقط ان فلسفته كلام باطل وفارغ لا يؤمن به صاحبه نفسه .

اليكم مثالا جلياً بخاصة على النصفية والبلبلية عند ماخ . ففي الفقرة السادسة من الفصل الحادي عشر من المؤلف ذاته «تحليل الاحساسات» نقرأ : «لو كان بوسعي انا او بوسع شخص ما آخر ان يراقب دماغي بواسطة شتى الوسائل الفيزيائية والكيميائية في الوقت الذي احس فيه بشيء ما ، لكان من الممكن ان نعرف باية عمليات جارية في الجسم ترتبط احساسات من نوع معين . . .» (١٩٧) .

جيد جداً ! هل هذا يعني ان احساساتنا ترتبط بعمليات معينة تجري في الجسم على العموم وفي دماغنا على الخصوص ؟ اجل ؛ ان ماخ يقوم بهذا «التسليم» بكل وضوح - ولو لم يقم به لكان ذلك افراطاً في الحكمة من وجهة نظر العلوم الطبيعية . ولكن عفواً - ان هذا هو «التسليم» نفسه بنفس تلك «النوى والتفاعل بينها» الذي اعلنه فيلسوفنا نافلاً وباطلاً ! الاجسام - كما يقولون لنا ، - هي مركبات احساسات ؛ والسير الى ابعد من هذا ، - كما يؤكد لنا ماخ ، - اي اعتبار الاحساسات نتاجاً لفعل الاجسام في اعضاء حواسنا هو ميتافيزياء ، هو تسليم باطل ، نافل ، والنخ . . . ، كما عند بركلي . ولكن الدماغ هو جسم . وهذا يعني ان الدماغ هو ايضاً مركب احساسات لا اكثر . ومن هنا ينجم اني انا ، بمساعدة مركب احساسات (والحال ان انا هو ايضاً ليس غير مركب احساسات) ، احس بمركبات احساسات . فما اروع هذه الفلسفة ! في البدء ، تعلن ان الاحساسات هي «عناصر العالم الحقيقية» وتبني على هذا بركلية «اصيلة» ، ثم تدس خفية نظرات معاكسة مفادها ان الاحساسات ترتبط بعمليات معينة في الجسم . ألا ترتبط هذه «العمليات» بعملية الايض بين «الجسم» والعالم الخارجي ؟ وهل

من الممكن ان تجري عملية الايض هذه اذا كانت احساسات الجسم المعني لا تعطيه صورة صحيحة موضوعياً عن هذا العالم الخارجي ؟

ان ماخ لا يطرح على نفسه مثل هذه المسائل المزعجة ، بل يقارن بصورة آلية بين مقتطفات من البركلية وبين نظريات العلوم الطبيعية التي تتبنى بصورة عفوية وجهة نظر النظرية المادية عن المعرفة . . . ويكتب ماخ في الفقرة نفسها : «أحياناً يطرحون كذلك على انفسهم السؤال التالي : ألا تحس «المادة» (غير العضوية) هي ايضاً» . . . فهل هذا يعني ان مسألة ما اذا كانت المادة **العضوية** تحس غير واردة ؟ فهل هذا يعني ان الاحساسات ليست شيئاً اولياً ، بل احدى خواص المادة ؟ ان ماخ يقفز من فوق جميع سخافات البركلية ! . . . وهو يقول : «هذه المسألة طبيعية تماماً اذا انطلقنا من التصورات الفيزيائية العادية ، الواسعة الانتشار التي تكون المادة بموجبها ذلك **الواقعي المباشر والمعطى** بلا ريب الذي يقوم عليه كل شيء ، سواء كان عضويًا ام غير عضوي» . . . لنتذكر جيداً هذا الاعتراف القيم حقاً من جانب ماخ ، ومفاده ان التصورات **الفيزيائية العادية** والواسعة الانتشار تعتبر المادة حقيقة واقعية مباشرة ، علماً بان ضرباً واحداً فقط من هذه الحقيقة الواقعية (المادة العضوية) يملك خاصية جليلة للعيان هي خاصية الاحساس . . . ويواصل ماخ قائلاً : «ففي هذا الحال ، يجب ان ينبثق الاحساس فجأة في الصرح المبني من المادة ، او يجب ان يوجد ، اذا جاز القول ، في قاعدة هذا الصرح ذاتها . ان هذه المسألة هي ، من وجهة نظرنا ، خاطئة اصلاً . فالمادة بنظرنا ليست المعطى الاولي . ان **العناصر** بالاحرى (التي تسمى بمعنى معين معروف بالاحساسات) هي هذا المعطى الاولي» . . . اذن ، الاحساسات هي المعطى الاولي ، رغم انها «ترتبط» فقط بعمليات معينة في المادة العضوية ! وكان ماخ ، اذ يطلق هذه السخافة ، يلقي على المادية («التصور الفيزيائي العادي ،

نظرية المعرفة في المذهب النقدي التجريبي وفي المادية الديالكتيكية ٤٣

الواسع الانتشار» جريرة عدم حل مسألة معرفة «مصدر» الاحساس . وهذا نموذج «لدحض» المادية من قبل الايمانين واذنابهم . هل «تحل» وجهة نظر فلسفية ما اخرى ، يا ترى ، مسألة لم يتوفر بعد لأجل حلها ما يكفي من المعطيات ؟ اولم يقل ماخ نفسه ، يا ترى ، في الفقرة ذاتها : «طالما ان هذه المسألة» («الى اي حد تنتشر الاحساسات في العالم العضوي») لم تحل في اية حالة خاصة ، فانه من المستحيل حل هذه المسألة ؟ وهذا يعني ان الفرق بين المادية و«الماخية» ينحصر بخصوص المسألة المعنية فيما يلي . وفقاً تماماً للعلوم الطبيعية ، تحسب المادية المادة المعطى الاولي ، وتعتبر الوعي ، التفكير ، الاحساس المعطى الثانوي ، لأن الاحساس بشكله البيّن لا يرتبط الا بالاشكال العليا للمادة (المادة العضوية) ؛ ولا يمكن الا ان نفترض «في قاعدة صرح المادة ذاتها» وجود قدرة مشابهة للاحساس . وتلك هي ، مثلاً ، فرضية عالم الطبيعيات الالمانى المعروف ارنست هيكل ، والبيولوجى الانجليزى لويد مورغان وغيرهما ، ناهيك عن حدس ديدرو الذى اوردناه اعلاه . اما الماخية ، فانها تتبنى وجهة النظر المضادة ، المثالية ، وتؤدي في الحال الى سخافة : اولاً ، لأنها تعتبر ان الاحساس هو الاولي رغم انه لا يرتبط الا بعمليات معينة في المادة المنظمة بصورة معينة ؛ وثانياً لأن المقدمة الاساسية القائلة ان الاجسام هي مركبات احساسات ، تخالفها فرضية وجود كائنات حية اخرى ووجود «مركبات» اخرى على العموم ، عدا الانا العظيم المعنى .

ان كلمة «عنصر» التي يحسبها كثيرون من السذج (كما سنرى) مستحدثاً ما واكتشافاً ما ، لا تفعل في الواقع غير ان تشوش المسألة بتعبير لا يعنى شيئاً ، وتخلق مظهراً خادعاً بحل ما او بخطوة الى الامام . وهذا المظهر خادع لأنه لا يزال يتعين بالفعل ان نبحث ونبحث لنعرف باي نحو ترتبط مادة يقال انها لا تحس البتة ، بمادة مشكلة من الذرات (او الالكترونات) نفسها ومالكة في الوقت نفسه لقدرة بيّنة على الاحساس . ان المادية تطرح

بوضوح مسألة لا تزال معلقة ، وبذلك تدفع الى حلها ، تدفع الى اجراء بحوث اختبارية لاحقة . اما الماخية ، اي هذا الضرب من المثالية المشوشة ، فانها تحجب كنه المسألة ، وتصرف جانباً عن الطريق الصحيح بواسطة شعوذة كلامية فارغة : «عنصر» .

اليكم مقطعاً في مؤلف ماخ الفلسفي الاخير والملخص والختامي ، يبين كل زيف هذه الشعوذة المثالية . ففي هذا المؤلف «المعرفة والضللال» نقراً : «بينما لا توجد اية صعوبة لبناء (aufzubauen) اي عنصر فيزيائي كان من الاحساسات اي من العناصر النفسية ، - يستحيل على المرء حتى ان يتخيل (ist keine Möglichkeit abzusehen) كيف يمكن تصور (darstellen) اية معاناة نفسية من العناصر التي تستعملها الفيزياء المعاصرة اي من الكتل والحركات (في تحجر (Starrheit) هذه العناصر المناسب فقط لهذا العلم المختص)» * .

ان انجلس يتحدث مراراً باكمل ما يكون من الوضوح عن تحجر المفاهيم عند العديدين من علماء الطبيعيات المعاصرين ، وعن نظراتهم الميتافيزيائية (بالمعنى الماركسي للكلمة اي المنافية للديالكتيك) . وسنرى ادناه ان ماخ قد التبس عليه في هذه النقطة بالذات ، اذ انه لم يفهم او لم يعرف الفرق بين النسبية والديالكتيك . ولكن ليس هذا هو المقصود الآن . فمن المهم لنا ان نلاحظ هنا باي جلاء تبدى مثالية ماخ رغم التعابير المشوشة ، الجديدة حسبما يزعم . فلا صعوبة ، لو ترون ، لانشاء اي عنصر فيزيائي كان من الاحساسات ، اي من العناصر النفسية ! آه ، ان مثل هذه الانشاءات ليست صعبة بالطبع ، لأنها انشاءات كلامية خالصة ، ومدرسية * * فارغة يقصد منها دس الايمانية . فلا

* E. Mach. «Erkenntnis und Irrtum», 2. Auflage, 1906, S. 12,

Anmerkung (ارنست ماخ . «المعرفة والضللال» . الطبعة الثانية ، عام ١٩٠٦ ، ص ١٢ . الملاحظة . الناشر) .

** مدرسية - scolastique - سكولاستية . المحرب .

نظرية المعرفة في المذهب النقدي التجريبي وفي المادية الديالكتيكية ٤٥

غرابة بعد هذا اذا كان ماخ يكرس مؤلفاته للكمونيين * ،
واذا كان الكمونيون اي ممثلو المثالية الفلسفية الاشد اغراقاً في
الرجعية يعانقون ماخ . ولكن ارنست ماخ تأخر نحو مائتي سنة
«بمذهبه الوضعي الحديث» : فقد سبق وبيّن بركلي بصورة
كافية انه لا يمكن «انشاء» شيء «من الاحساسات اي من العناصر
النفسية» غير السوليبسيسم . اما فيما يخص المادية التي يعارضها
ماخ هنا ايضاً بنظراته ، دون ان يسمي «العدو» بصراحة ووضوح ،
فلقد رأينا من مثال ديدرو نظرات الماديين الحقيقية . ان هذه
النظرات لا تقوم في استخلاص الاحساس من حركة المادة او في
حصره في حركة المادة ، بل تقوم في كونها تعتبر الاحساس احدى
خواص المادة المتحركة . وفي هذه المسألة كانت وجهة نظر انجلس
مماثلة لوجهة نظر ديدرو . وقد وضع انجلس حداً فاصلاً بينه
وبين الماديين «المبتدلين» فوغت وبوخنر وموليشوت لاسباب
عدة ، منها السبب التالي على وجه الضبط ، وهو انهم تبنا النظرية
الزاعمة ان الدماغ يفرز الفكر مثلما يفرز الكبد الصفراء . ولكن ماخ
الذي يعارض دائماً المادية بنظراته ، يتجاهل ، بالطبع ، جميع
الماديين العظام ، وديدرو وفورباخ وماركس - انجلس شأنه
تماماً في ذلك شأن جميع البروفسورات الرسميين في الفلسفة
الرسمية .

لوصف نظرة افيناريوس الاولية والاساسية ، لناخذ مؤلفه
الفلسفي المستقل الاول : «الفلسفة ، بوصفها تفكيراً في العالم
حسب مبدأ الحد الأدنى من الجهد» («مقدمات لنقد التجربة الخالصة»)
الذي صدر في عام ١٨٧٦ . يقول بوغدانوف في مؤلفه «الاحادية
التجريبية» * * (الكتاب الاول ، الطبعة الثانية ، عام ١٩٠٥ ، ص ٩ ،
الملاحظة) ان «المثالية الفلسفية كانت نقطة الانطلاق في تطور

* الكموني - نصير مبدأ الكمون - immanence . الكمونية - مذهب
من يأخذون بمبدأ الكمون - immanentisme . **الهرج** .
* * الاحادية التجريبية - Empiriomonisme . **الهرج** .

نظرات ماخ في حين ان التلوين الواقعي كان السمة المميزة منذ بادىء بدء بالنسبة لافيناريوس». وقد قال بوغدانوف هذا لأنه صدق ماخ على كلامه : راجعوا «تحليل الاحساسات» ، الترجمة الروسية ، ص ٢٨٨ . ولكن عبثاً صدق بوغدانوف ماخ ؛ فان تأكيد مناقض كلياً للحقيقة . ذلك ان الامر على العكس . فان مثالية افيناريوس تبرز في المؤلف المذكور الصادر في عام ١٨٧٦ بدرجة من الوضوح بحيث ان افيناريوس نفسه اضطر في عام ١٨٩١ الى الاعتراف بذلك . ففي المقدمة لكتاب «المفهوم البشري عن العالم» ، يقول افيناريوس : «ان من طالع عملي المنهاجي الاول «الفلسفة والخ . . .» ، يظن في الحال انه يتعين علي ان افسر مسائل «نقد التجربة الخالصة» من وجهة النظر المثالية قبل كل شيء» («Der menschliche Weltbegriff», 1891, Vorwort, S. IX) ، * .

ولكن «عقم المثالية الفلسفية» اجبرني على «التشكك في صحة سبيلي السابق» (S.X) . ان وجهة نظر افيناريوس الانطلاقية المثالية هذه يعترف بها الجميع في المطبوعات الفلسفية ؛ ومن بين الكتاب الفرنسيين ، استشهد بالكاتب كوفيلارت الذي يقول ان وجهة نظر افيناريوس الفلسفية في «المقدمات» هي «مثالية احادية» * * * ؛ ومن بين الكتاب الالمان اذكر تلميذ افيناريوس ، رودولف فيللي الذي يقول ان «افيناريوس كان كلياً في شبابه - وخاصة في مؤلفه الصادر عام ١٨٧٦ - مأخوذاً بسحر (ganz im Banne) ما يسمى المثالية النظرية العرفانية» * * * .

* «المفهوم البشري عن العالم» ، عام ١٨٩١ ، المقدمة ، ص IX.

الناشر .

* * * F. Van Cauwelaert. «L'empiriocriticisme» في «Revue Néo-Sco-

(٩) ، «lastique شباط (فبراير) ١٩٠٧ ، ص ٥١ (ف. فان كوفيلارت .

«المذهب النقدي التجريبي» في «المجلة السكولاستية الجديدة» .

الناشر) .

* * * Rudolf Willy. «Gegen die Schulweisheit. Eine Kritik der

Philosophie», München, 1905, S. 170 (رودولف فيللي . «ضد الحكمة

المدرسية . نقد الفلسفة» . مونيخ . عام ١٩٠٥ ، ص ١٧٠ . الناشر) .

نظرية المعرفة في المذهب النقدي التجريبي وفي المادية الديالكتيكية ٤٧

وانه لمن المضحك انكار المثالية في «مقدمات» افيناريوس حين يقول صراحة فيها ان «الاحساس وحده يمكن اعتباره موجوداً» (ص ١٠ و ص ٦٥ من الطبعة الالمانية الثانية ؛ حرف التأكيد لنا في الاستشهادات كلها) . هكذا يعرض افيناريوس نفسه مضمون الفقرة ١١٦ من مؤلفه . اليكم هذه الفقرة بنصها الكامل : «لقد اعترفنا بان الموجود (او الكائن ، (das Seiende) هو الجوهر الموهوب احساساً ؛ الجوهر يسقط . . .» («اكثر اقتصاداً» ، لو ترون ، «اقل من الجهد» في التفكير في انه لا وجود «للجوهر» ولا وجود لاي عالم خارجي !) . . .» ويبقى الاحساس ؛ لهذا يجب اعتبار الكائن احساساً لم يعد في اساسه اي شيء غريب عن الاحساس» (nichts Empfindungsloses) .

اذن ، يوجد الاحساس بدون «الجوهر» اي ان الفكر يوجد بدون الدماغ ! فهل يوجد بالفعل ، يا ترى ، فلاسفة قادرين على الدفاع عن هذه الفلسفة بلا دماغ ؟ يوجد . وفي عدادهم البروفسور ريخارد افيناريوس . ولا بد من التوقف قليلاً عند الدفاع عن هذه الفلسفة ، مهما كان من الصعب على الانسان السليم ان يحمله على محمل الجد ؛ اليكم محاكمة افيناريوس في الفقرتين ٨٩-٩٠ من المؤلف نفسه :

« . . . ان الموضوعة القائلة ان الحركة تستتبع الاحساس ترتكز على التجربة الظاهرية فقط . فان هذه التجربة التي الانطباع عمل منفرد من اعمالها تتلخص ، حسبما يبدو ، في كون الاحساس يولد في نوع معين من الجوهر (الدماغ) من جراء الحركة المنقولة (التهيج) وبمساهمة عوامل مادية اخرى (مثلاً ، الدم) . ولكن - بصرف النظر عن كون هذه الولادة لم تشاهد يوماً مباشرة (selbst) - لأجل اجراء التجربة المفترضة مثل التجربة الفعلية بجميع اجزائها ، من الضروري على الاقل برهان تجريبي على ان الاحساس الناتج كما يزعم في جوهر معين بواسطة الحركة المنقولة لم يكن موجوداً من قبل بنحو او آخر في هذا الجوهر ؛ ولذا لا يمكن فهم ظهور الاحساس الا من خلال فعل الخلق من جانب الحركة المنقولة .

اذن ، لا يمكن الا بالبرهان على انه حيث يظهر الاحساس الآن لم يكن ثمة من قبل اي احساس ، وحتى الحد الادنى من الاحساس ، لا يمكن الا بهذا البرهان اثبات الواقع الذي يعني فعل خلق ما ، ويناقض بالتالي كل التجربة الباقية ويغير بصورة جذرية كل الفهم الباقي للطبيعة (Naturanschauung) . ولكن برهاناً كهذا لا تعطيه اية تجربة ولا يمكن ان تعطيه اية تجربة ؛ بل بالعكس ؛ فان حالة الجوهر الخالية اطلاقاً من الاحساس - هذا الجوهر الذي يحس فيما بعد - ليست غير فرضية . وهذه الفرضية تعقد معرفتنا وتبهما عوضاً عن ان تبسطها وتوضحها .

واذا تبين ان ما يسمى بالتجربة - وهو ان الاحساس ينبثق ، بواسطة الحركة المنقولة ، في الجوهر فيشرع يحس مذ ذاك - اذا تبين عند الدراسة عن كثب ان هذه التجربة ظاهرية فحسب ، - فان مضمون التجربة الباقي ينطوي ايضاً ، اغلب الظن ، على ما يكفي من المادة لكي نلاحظ ، وان على الاقل ، المنشأ النسبي للاحساس من شروط الحركة ، اي بالضبط لكي نلاحظ ان الاحساس الموجود ، ولكن الخفي او الادنى ، او الذي يستحيل على ادراكنا لاسباب ما ، يتحرر او يتصاعد بقوة الحركة المنقولة ، او يصبح مدركاً . ولكن هذا القسم من مضمون التجربة المتبقي هو ايضاً ظاهري فقط . فاذا تتبعنا ، بفضل المراقبة المثلثية ، الحركة المنطلقة من الجوهر المتحرك أ ، والمنقولة عبر جملة من المراكز المتوسطة ، والتي تبلغ الجوهر ب الموهوب احساساً ، فاننا نجد ، في افضل الاحوال ، ان الاحساس في الجوهر ب يتطور او يتصاعد في آن واحد مع استقبال الحركة الواصلة ، ولكننا لا نجد ان هذا حدث من جراء الحركة»

لقد نسخنا قصداً وعمداً هذا الدحض للمادية من قبل افيناريوس بكليته لكي يستطيع القارى ان يرى الى اية سفسطائيات حقيرة حقاً تلجأ الفلسفة النقدية التجريبية «الحديثة» . لنقارن محاكمة المثالي افيناريوس بمحاكمة . . . بوغدانوف المادية ، وان على الاقل لمعاقبته على خيانتته للمادية !

في حقبة ولت من زمان بعيد بعيد ، منذ تسع سنين
 كاملة ، عندما كان بوغدانوف الى النصف «مادياً تاريخياً طبيعياً»
 (اي نصيراً للنظرية المادية عن المعرفة ، التي تتبناها بصورة
 عفوية الاغلبية الساحقة من علماء الطبيعيات المعاصرين) ، عندما
 ضل بوغدانوف السبيل الى النصف فقط بسبب من المشوش
 اوستفالد ، كتب بوغدانوف يقول : «منذ غابر الازمنة والى الآن
 يستمر في البسيكولوجيا الوصفية تقسيم وقائع الوعي الى ثلاث
 فئات : ميدان الاحساسات والتصورات ، ميدان العواطف ، ميدان
 الدوافع . . . الى الفئة الاولى تعود صور ظاهرات العالم الخارجي
 او الداخلي ، مأخوذة في الوعي بعد ذاتها . . . هذه الصورة تسمى
 «احساساً» اذا استثارته مباشرة ، بواسطة اعضاء الحواس
 الخارجية ، ظاهرة خارجية مناسبة لها» * . وبعد ذلك بقليل :
 «الاحساس . . . ينبثق في الوعي كنتيجة لدفعة ما من البيئة
 الخارجية ، منقولة بواسطة اعضاء الحواس الخارجية» (٢٢٢) . او
 ايضاً : «تشكل الاحساسات اساس حياة الوعي ، وصلته المباشرة
 مع العالم الخارجي» (٢٤٠) . «لدى كل خطوة ، يتحقق في سياق
 الاحساس تحول طاقة التهييج الخارجي الى واقع وعي» (١٣٣) .
 وحتى في عام ١٩٠٥ ، عندما افلح بوغدانوف ، بمساعدة اوستفالد
 وماخ وتعاطفهما ، في الانتقال من وجهة النظر المادية في الفلسفة
 الى وجهة النظر المثالية ، كتب (سهواً !) في «الاحادية التجريبية»
 يقول : «معلوم ان طاقة التهييج الخارجي المحولة في الجهاز الطرفي
 للعصب الى شكل «تلغرافي» للتيار العصبي لا يزال غير مدروس
 بصورة كافية ولكنه غريب عن كل تصوف ، تبلغ قبل كل شيء
 الى الخلايا العصبية الواقعة فيما يسمى بالمراكز «الدنيا» - مراكز
 العقد العصبية ، مراكز الحبل الشوكي ، مراكز ما تحت قشرة
 الدماغ» (الكتاب الاول . الطبعة الثانية ، عام ١٩٠٥ ،
 ص ١١٨) .

* ا . بوغدانوف . «العناصر الاساسية في النظرة التاريخية الى
 الطبيعة» . سانت بطرسبورغ . عام ١٨٩٩ ، ص ٢١٦ .

ان الاحساس ، بالنسبة لكل عالم طبيعيات لم تضلله الفلسفة الاستاذية ، كما بالنسبة لكل مادي ، هو صلة مباشرة فعلاً للادراك مع العالم الخارجي ، هو تحول طاقة التهيج الخارجي الى واقع وعي . وهذا التحول راقبه كل امرئ ملايين المرات ويراقبه فعلاً لدى كل خطوة . وان سفسطائية الفلسفة المثالية تتلخص في كونها تعتبر الاحساس ، لا صلة الوعي بالعالم الخارجي بل جزءاً ، جداراً يفصل الوعي عن العالم الخارجي ، لا صورة عن الظاهرة الخارجية المناسبة للاحساس ، بل «الكائن الوحيد» . ان افيناريوس لم يفعل غير ان اضفى شكلاً معدلاً قليلاً جداً على هذه السفسطائية القديمة التي سبق وعلكها الاسقف بركلي . واليكم ما تؤول اليه سفسطائية افيناريوس : بما اننا لا نعرف بعد جميع شروط صلة الاحساس التي نراقبها كل دقيقة بالمادة المنظّمة بصورة معينة ، - فاننا نعتبر ان الاحساس وحده دون غيره هو الموجود .

وختاماً لوصف المقدمات المثالية الاساسية للمذهب النقدي التجريبي ، نشير بايجاز الى ممثلي هذا التيار الفلسفي الانجليزي والفرنسيين . فبصدد الانجليزي كارل بيرسون ، يقول ماخ بصراحة انه «يوافق على نظراته العرفانية (erkenntniskritischen) في جميع النقاط الجوهرية» («الميكانيك» ، الطبعة المذكورة ، ص IX) . ويعرب كارل بيرسون بدوره عن موافقته مع ماخ * . «ان الاشياء الفعلية» ، هي بنظر بيرسون «انطباعات حسية» (sense impressions) . ويعتبر بيرسون كل اعتراف بالاشياء خارج حدود الانطباعات الحسية من الميتافيزياء . ويحارب بيرسون المادية (دون ان يعرف لا فورباخ ولا ماركس - انجلس) بصورة قاطعة للغاية ، - وحججه لا تختلف عن الحجج المدروسة اعلاه . ولكن بيرسون بعيد في هذه الحال عن الرغبة في التلون بلون

Karl Pearson. «The Grammar of Science», 2nd ed., Lond., *

1900, p. 326 (كارل بيرسون . «قواعد العلم» ، الطبعة الثانية ،

لندن ، عام ١٩٠٠ ، ص ٣٢٦ . الناشر) .

نظرية المعرفة في المذهب النقدي التجريبي وفي المادية الديالكتيكية ٥١

المادية (وهذا اختصاص الماخيين الروس) ، وبيرسون . . . غير محترس الى حد انه يعلن ، دون ان يختلق لفلسفته نعوتاً «جديدة» ، ان نظراته ونظرات ماخ على السواء «مثالية» (ص ٣٢٦ من الطبعة المذكورة) ! ان بيرسون يعيد نسبه الى بركلي وهيوم رأساً . وفلسفة بيرسون ، كما سنرى مراراً ادناه ، تتميز بقدر من التكامل والتبصر اكبر بكثير من فلسفة ماخ .

ويعرب ماخ خصيصاً عن تضامنه مع الفيزيائيين الفرنسيين دوهم وهنري بوانكارة * . وسيتأتى لنا ان نتناول في الفصل عن الفيزياء الجديدة نظرات هذين الكاتبين الفلسفية ، غير المنتظمة وغير المنسجمة بخاصة . ونكتفي بالاشارة هنا الى ان الاشياء هي بنظر بوانكارة «مجموعات احساسات» * * وان دوهم يعرب هو ايضاً عرضاً عن نظرة مماثلة * * * .

لننتقل الآن وندرس كيف اعترف ماخ وافيناريوس بطابع نظراتهما الاولى المثالي وكيف اصلحاهما في مؤلفاتهما اللاحقة .

٢ - «اكتشاف عناصر العالم»

تحت هذا العنوان يكتب عن ماخ الاستاذ المحاضر في جامعة زوريخ فريدريخ ادلر ، الكاتب الالمانسي الوحيد او يكاد ، الذي

* «تحليل الاحساسات» ، ص ٤ . قارن مقدمة «Erkenntnis und Irrtum» ، الطبعة الثانية .

* * Henri Poincaré. «La Valeur de la Science», Paris, 1905

(توجد ترجمة روسية) ، passim . (هنري بونكارة . «قيمة العلم» . باريس ، عام ١٩٠٥ ، في عدد من الاماكن . الناشر) .

* * * P. Duhem. La théorie physique, son objet et sa structure,

P., 1906 . قارن pp. 6, 10 (بيار دوهم . «نظرية الفيزياء ،

موضوعها وبنيتها» ، باريس ، عام ١٩٠٦ . قارن ص ٦ ، ١٠ . الناشر) .

يرغب هو ايضاً في ان يكمل ماركس بالماخية * . ومن باب العدالة يجب الاقرار لهذا الاستاذ المحاضر الساذج بانـه يخدم الماخية ببساطته خدمة الدب * * . فان السؤال يطرح على الاقل بوضوح وحدة : هل «اكتشف» ماخ «عناصر العالم» فعلاً ؟ وبديهي في هذه الحال ان المتأخرين والجهلاء كلياً هم وحدهم الذين يمكنهم ان يبقوا ماديين حتى الآن . ام ان هذا الاكتشاف يعني عودة ماخ الى الاخطاء الفلسفية القديمة ؟

لقد رأينا ان ماخ في عام ١٨٧٢ وافيناريوس في عام ١٨٧٦ يتبنيان وجهة نظر مثالية محضة ؛ فان العالم بالنسبة لهما هو احساسنا . وفي عام ١٨٨٣ ، صدر كتاب ماخ «الميكانيك» ؛ وفي مقدمة الطبعة الاولى يستشهد ماخ على وجه الضبط «بمقدمات» افيناريوس ، مرحباً بالافكار «الخارقة القرب» (sehr verwandte) من فلسفته . اليكم محاكمة عن العناصر في هذا «الميكانيك» : «ان جميع العلوم الطبيعية لا يمكنها ان لا تصور (nachbilden und Vorbilden) مركبات تلك العناصر التي نسميها عادة **بالاحساسات** . والمقصود هنا الصلة بين هذه العناصر . ان الصلة بين أ (الحرارة) وب (النار) تخص الفيزياء في حين ان الصلة بين أ و ن (الاعصاب) تخص الفيزيولوجيا . ولكن لا هذه الصلة ولا تلك توجد بمفردها بل توجدان كلتاهما معاً . ولا يسعنا ان نتجرد عن هذه او تلك الا مؤقتاً . وحتى العمليات الميكانيكية المحضة تكون بالتالي دائماً ، على ما يبدو ، فيزيولوجية ايضاً» . (ص ٤٩٩ من الطبعة الالمانية

* Friedrich W. Adler. «Die Entdeckung der Weltelemente» (Zu E. Machs 70. Geburtstag), «Der Kampf» (١٠) 1908, N5 (Februar).
ترجم في «The International Socialist Review» (١١) 1908, N 10 (April).
(فريدريخ . ف . ادلر . «اكتشاف عناصر العالم (لمناسبة بلوغ ارنست ماخ السبعين من العمر)» ، «النضال» ، عام ١٩٠٨ ، العدد ٥ (شباط - فبراير) . ترجم في «المجلة الاشتراكية العالمية» ، عام ١٩٠٨ ، العدد ١٠ (نيسان - ابريل) . الناشر) . ترجمت مقالة واحدة لادلر هذا الى اللغة الروسية في مجموعة «المادية التاريخية» .
* * * خدمة تعود بالضرر لا بالنفع . المحرب .

نظرية المعرفة في المذهب النقدي التجريبي وفي المادية الديالكتيكية ٥٣

المذكورة) . والشيء نفسه في «تحليل الاحساسات» : « . . . حيث الى جانب تعبيرى : «عنصر» ، «مركب عناصر» او عوضاً عنهما يُستعمل تعبيراً «احساس» ، «مركب احساسات» ، يجب ان لا يغيب ابداً عن البال ان العناصر هي احساسات في هذه الصلة فقط» (اي بالضبط : صلات ، ا ، ب ، ج مع ك ، ل ، م ، اي صلات «المركبات التي تسمى عادة بالاجسام» ، مع «المركب الذي نسميه جسمنا») ، «في هذه العلاقة ، في هذه التبعية الوظيفية . وهي في الوقت نفسه ، في تبعية وظيفية اخرى ، - مواضع فيزيائية» (الترجمة الروسية ، ص ٢٣ و ص ١٧) . «ان اللون هو موضوع فيزيائي اذا اخذنا ، مثلاً ، بعين الاعتبار تبعيته لمصدر النور الذي ينيره (للألوان الاخرى ، والحرارة ، والمكان ، والنخ .) . ولكن اذا اخذنا بعين الاعتبار تبعيته لشبكية العين (العناصر ك ، ل ، م . . .) ، فامامنا موضوع نفسي ، احساس» (المرجع نفسه . ص ٢٤) .

اذن يتلخص اكتشاف عناصر العالم في

١ - ان كل موجود يعلن احساساً ،

٢ - ان الاحساسات تسمى عناصر ،

٣ - ان العناصر تنقسم الى فيزيائي ونفسي ؛ الاخير هو ما

يتوقف على اعصاب الانسان وعموماً على العضوية البشرية ؛ الاول لا يتوقف ،

٤ - ان صلة العناصر الفيزيائية وصلة العناصر النفسية

تعلنان غير موجودتين بصورة منفردة احدهما عن الاخرى ؛ فهما لا توجدان الا معاً ؛

٥ - انه لا يمكن التجرد عن هذه الصلة او تلك الا مؤقتاً ؛

٦ - ان النظرية «الجديدة» تعلن خالية من «احادية الجانب» * .

لا وجود بالفعل هنا لاحادية الجانب ، ولكنه يوجد خلط ما

بعده خلط بين وجهات نظر فلسفية متضادة . فما دمت تنطلق من

* ماخ في «تحليل الاحساسات» : «تسمى العناصر عادة

بالاحساسات . وبما ان المقصود بهذه التسمية نظرية معينة احادية

الجانب ، فاننا نفضل التحدث بايجاز عن العناصر» (٢٧-٢٨) .

الاحساسات فقط ، فانك لن تصلح بكلمة «عنصر» «احادية جانب» مثاليتك ، ولن تفعل غير ان تشوش الامر ، وتتهرب بجبانة من نظريتك بالذات . وانت تزيل بالاقوال التضاد بين الفيزيائي والنفسي * ، بين المادية (التي تعتبر ان الاول ، الاسبق هو الطبيعة ، المادة) ، والمثالية (التي تعتبر ان الاول ، الاسبق هو الروح ، الوعي ، الاحساس) ، - اما بالفعل ، فانك تبعث في الحال من جديد هذا التضاد ، تبعثه سراً ، متراجعاً عن مقدمتك الاساسية ! لأنه اذا كانت العناصر هي الاحساسات ، فانه لا يحق لك ان تقر ، ولو لثانية واحدة ، بوجود «العناصر» بمعزل عن اعصابي ، وعيني . وما دمت تجيز مواضيع فيزيائية مستقلة عن اعصابي ، عن احساساتي ، ولا تولد الاحساس الا عن طريق التأثير في شبكية عيني ، فانك تتخلي بخزي وعار عن مثاليتك «الاحادية الجانب» وتنتقل الى وجهة نظر المادية «الاحادية الجانب» ! واذا لم يكن اللون احساساً الا تبعاً لشبكية العين (كما تجبرك العلوم الطبيعية على الاعتراف بذلك) ، فان هذا يعني ان اشعة النور ، بسقوطها على شبكية العين ، تولد الاحساس باللون . وهذا يعني انه توجد خارجاً عنا ، بصورة مستقلة عنا وعن ادراكنا ، حركة للمادة ، مثلاً ، موجات الاثير ذات الطول المعين والسرعة المعينة ، التي يولد في الانسان ، بتأثيرها في شبكية العين ، الاحساس بهذا اللون او ذاك . وهكذا بالضبط ترى العلوم الطبيعية . فهي تفسر الاحساسات المختلفة بهذا اللون او ذاك باختلاف طول موجات النور الموجودة خارج شبكية عين الانسان ، خارج الانسان ، وبصورة مستقلة عنه . وهذه هي المادية : المادة تولد الاحساس بتأثيرها في اعضاء حواسنا . الاحساس رهن بالدماع والاعصاب وشبكية العين والنخ . ، اي بمادة منظمة بشكل معين . ان وجود المادة ليس رهناً بالاحساس . ان المادة هي الاولى . الاحساس ، الفكر ، الادراك هو النتاج الاعلى لمادة منظمة بشكل

* «التضاد بين الانا والعالم ، بين الاحساس او الظاهرة والشئ يزول في هذه الحال ، وينحصر كل شئ في جمع العناصر» («تحليل الاحساسات» ، ص ٢١) .

نظرية المعرفة في المذهب النقدي التجريبي وفي المادية الديالكتيكية ٥٥

خاص . وهذه هي نظرات المادية على العموم وماركس - انجلس على الخصوص . ويمرر ماخ وافيناريوس المادية سرّاً بواسطة كلمة «العنصر» التي تخلص نظريتهما ، كما يزعمان ، من «احادية جانب» المثالية الذاتية ، وتتيح ، كما يزعمان ، التسليم بتبعية النفسي لشبكية العين والاعصاب والنخ . ، التسليم باستقلال الفيزيائي عن الجسم البشري . اما بالفعل ، فان الخديعة باستعمال كلمة «العنصر» هي بالطبع سفسطائية في منتهى الحقارة ، لأن المادي ، اذا ما قرأ ماخ وافيناريوس ، يطرح في الحال السؤال التالي : ما هي «العناصر»؟ ومن الصبيانية بالفعل الظن انه يمكن التهرب باختلاق كلمة جديدة من الاتجاهات الفلسفية الاساسية . اما ان «العنصر» هو احساس ، كما يقول جميع انصار المذهب النقدي التجريبي ، وماخ وافيناريوس وبتسولدت * والنخ . ، - وآنداك ، تكون فلسفتكم ، ايها السادة ، مثالية تحاول عبثاً ان تستر عري سوليبيسيسمها بستار تعابير اكثر «موضوعية» . واما ان «العنصر» ليس احساساً ، - وآنداك لا ترتبط اية فكرة على الاطلاق بكلمتكم «الجديدة» ، وآنداك يكون هذا مجرد تبختر بترهة .

خذوا مثلاً بتسولدت - وهو الكلمة الاخيرة في المذهب النقدي التجريبي كما يصفه الناقد التجريبي الروسي الاول والاكبر ف . ليسيفيتش * . فبعد ان يعرف بتسولدت العناصر بانها احساسات ، يعلن في المجلد الثاني من المؤلف المذكور : «يجب الاحتراز من ان يفهم في الموضوعة القائلة «الاحساسات هي عناصر

Joseph Petzoldt. «Einführung in die Philosophie der reinen *

Erfahrung», Bd. I, Leipz., 1900, S. 113 (يوسف بتسولدت. «مقدمة الى

فلسفة التجربة الخالصة» ، المجلد الاول ، ليبزيغ ، عام ١٩٠٠ ، ص ١١٣ . الناشر) : «الاحساسات بالمعنى العادي للانطباعات البسيطة

التي لا تتحلل فيما بعد ، تسمى بالعناصر» (Wahrnehmungen) .

* ف . ليسيفيتش . «ما هي الفلسفة العلمية ؟» (اقرأ :

الدرجة ، الاستاذية ، الاختيارية) ، سانت بطرسبورغ ، عام ١٨٩١ ،

ص ٢٢٩ و ٢٤٧ .

العالم» ان كلمة «احساس» تعني شيئاً ذاتياً فقط وانها لهذا السبب هوائية ، وتحول لوحدة العالم العادية الى وهم (verflüchtigendes) . *

لكل امرئ مسلة تحت ابطه تنخره ! ان بتسولدت يشعر بان العالم «يتبخر» (verflüchtigt sich) او يتحول الى وهم اذا اعتبرنا الاحساسات عناصر العالم . ويرغب بتسولدت الطيب في مساعدة القضية بواسطة التحفظ : لا يجوز اعتبار الاحساس شيئاً ذاتياً فقط ! اوليس هذا من السفسطة المضحكة ؟ وهل يتغير الامر ، يا ترى ، اذا ما «اعتبرنا» الاحساس احساساً ام اذا حاولنا ان نمط معنى هذه الكلمة ؟ وهل يزول من جراء ذلك ، يا ترى ، واقع ان الاحساسات ترتبط عند الانسان باعصاب وشبكية عين ودماغ ، والنخ . ، عاملة بصورة عادية ؟ وان العالم الخارجي موجود بصورة مستقلة عن احساسنا ؟ اذا لم تشأ ان تملص بالمراوغات ، اذا شئت عن جد ان «تحترز» من الذاتية والسوليبيسيسم ، فانه يتعين عليك ان تحترز قبل كل شيء من المقدمات المثالية الاساسية لفلسفتك ؛ تجب الاستعاضة عن خط فلسفتك المثالي (من الاحساسات الى العالم الخارجي) بالخط المادي (من العالم الخارجي الى الاحساسات) ؛ يجب نبذ الزخرف الكلامي الفسارغ والغامض : «عنصر» ، والقول ببساطة : اللون هو نتيجة تأثير موضوع فيزيائي على شبكية العين = الاحساس هو نتيجة تأثير المادة على اعضاء حواسنا .

لنأخذ ايضاً افيناريوس . ففي مسألة «العناصر» ، يعطي مؤلفه الاخير (والاهم ، على الأرجح ، لاجل فهم فلسفته) : «ملاحظات حول مفهوم موضوع علم النفس» ما هو الاكثر قيمة * * . وقد اعطى المؤلف

* بتسولدت . Bd. 2, Lpz., 1904, S. 329 (المجلد الثاني ، ليزيغ ، عام ١٩٠٤ ، ص ٣٢٩ . الناشر) .

* * R. Avenarius. «Bemerkungen zum Begriff des Gegenstandes» في «Vierteljahrsschrift für wissenschaftliche Philo- der Psychologie» (1894) Bd. XVIII (1894) و (1895) Bd. XIX (1895) ر . افيناريوس .

نظرية المعرفة في المذهب النقدي التجريبي وفي المادية الديالكتيكية ٥٧

هنا ، فيما اعطى ، جدولاً خارق «الجلء» (ص ٤١٠ في المجلد ١٨)
نقله بقسمه الرئيسي :

وعناصر ، مركبات عناصر :
١ - الاشياء او الشئي الاشياء الجسمانية ،
٢ - الافكار او التفكير الاشياء غير الجسمانية ،
(Gedankenhaftes) الذكريات والتخيلات .

قارن بهذا ما يقوله ماخ بعد جميع توضيحاته بصدد
«العناصر» («تحليل الاحساسات» ، ص ٣٣) : «ليست الاجسام هي
التي تحدث الاحساسات بل مركبات العناصر (مركبات الاحساسات)
هي التي تشكل الاجسام» . ما هو ذا «اكتشاف عناصر العالم» الذي
يتفوق على احادية جانب المثالية والمادية ! في البدء يؤكدون لنا ان
«العناصر»=شيء ما جديد ، فيزيائي ونفسي في آن واحد ، ثم
يدخلون خلسة تعديلاً : عوضاً عن التمييز المادي اللفظ بين المادة
(الاجسام ، الاشياء) والنفسي (الاحساسات ، الذكريات ،
التخيلات) ، يعطون مذهب «الوضعية الحديثة» عن العناصر الشئئية
والعناصر التفكيرية . فما اقل ما كسب ادلر (فريتس) من «اكتشاف
عناصر العالم» !

في عام ١٩٠٦ ، كتب بوغدانوف ، معترضاً على بليخانوف :
«... انا لا استطيع ان اعتبر نفسي ماخياً في الفلسفة . ففي المذهب
الفلسفي العام ، اخذت من ماخ امراً واحداً فقط هو الفكرة عن
حياد عناصر التجربة حيال «الفيزيائي» و«النفسي» ، عن تبعية هاتين
الصفتين لصلة التجربة فقط» («الاحادية التجريبية» ، الكتاب
الثالث ، سانت بطرسبورغ ، عام ١٩٠٦ ، ص XLI) . وهذا يعني
كان شخصاً متديناً يقول : انا لا استطيع ان اعتبر نفسي نصيراً
للدين ، لاني اخذت من هؤلاء الانصار «امراً واحداً فقط» : الايمان

وملاحظات حول مفهوم موضوع علم النفس» في «المجلة الفصلية
للفلسفة العلمية» . المجلد ١٨ (عام ١٨٩٤) والمجلد ١٩
(عام ١٨٩٥) . (الناشر) .

في الله . ان «الامر الواحد فقط» الذي اخذه بوغدانوف من ماخ ،
انما هو خطأ الماخية الاساسي ، انما هو الخطأ الاساسي لكل هذه
الفلسفة . ان انحرافات بوغدانوف عن المذهب النقدي التجريبي
التي يوليها بوغدانوف اهمية كبيرة جداً ، هي بالفعل ثانوية تماماً ،
ولا تتعدى حدود الفوارق التفصيلية ، الجزئية ، الفردية ، بين
مختلف النقاد التجريبيين * الذين يحبذهم ماخ والذين يحبذون ماخ
(وسنتحدث عن هذا ادناه بمزيد من التفصيل) . ولهذا حين غضب
بوغدانوف لانهم يخلطونه مع الماخيين ، لم يظهر بالتالي غير
عدم فهمه للفوارق الجذرية التي تميز المادية عن كل ما هو مشترك
بين بوغدانوف وجميع الماخيين الآخرين . فليس المهم كيف طور
بوغدانوف الماخية او كيف اصلحها او كيف زادها سوءاً . المهم
انه تخلى عن وجهة النظر المادية وحكم على نفسه بذلك حتماً
بالتشوش والضلالات المثالية .

في عام ١٨٩٩ ، كما رأينا ، تبنى بوغدانوف وجهة نظر صحيحة
عندما كتب يقول : «ان صورة الانسان الواقف امامي التي يعطيني
اياها البصر مباشرة هي الاحساس» * * . ولم يكلف بوغدانوف نفسه
عناء انتقاد وجهة نظره القديمة هذه ، وصدق ماخ على العمياء ،
وشرع يكرر بعده ، ان «عناصر» التجربة محايدة حيال الفيزيائي
والنفسى . وقد كتب بوغدانوف في الكتاب الاول من «الاحادية
التجريبية» (الطبعة الثانية ، ص ٩٠) يقول : «ان عناصر التجربة
النفسية ، كما اوضحت الفلسفة الوضعية الحديثة ، متماثلة مع
عناصر كل تجربة على العموم ، كما هي متماثلة مع عناصر التجربة
الفيزيائية» . او في عام ١٩٠٦ (الكتاب الثالث ، ص ٢٠) : «اما فيما
يتعلق «بالمثالية» ، فهل يمكن التحدث عنها بالاستناد فقط الى ان
عناصر «التجربة الفيزيائية» يُعترف بها متماثلة مع عناصر «النفسى»

* انصار المذهب النقدي التجريبي . المهرب .

** «العناصر الاساسية في النظرة التاريخية الى الطبيعة» .

ص ٢١٦ . راجع الاستشهادات المذكورة اعلاه .

او مع الاحساسات الاولية اذا كان ذلك واقعاً لا مرأ فيه لا اكثر ولا اقل» .

هنا بالضبط يكمن المصدر الاساسي لجميع مصائب بوغدانوف الفلسفية ، - وهو مصدر مشترك بينه وبين جميع الماخيين . يمكن ويجب القول بالمثالية حين يعتبرون «عناصر التجربة الفيزيائية» (اي الفيزيائي ، العالم الخارجي ، المادة) متماثلة مع الاحساسات ، لأن هذا ليس غير البركلية . ولا اثر البتة هنا لا للفلسفة الحديثة ، ولا للفلسفة الوضعية ، ولا لواقع لا مرأ فيه ، بل ان ما نواجهه هنا مجرد سفسطائية قديمة متقدمة . واذا ما سألتم بوغدانوف كيف يمكنه ان يثبت هذا «الواقع الذي لا مرأ فيه» ، وهو ان الفيزيائي متماثل مع الاحساسات ، فانكم لن تسمعوا اية حجة ، عدا لازمة المثاليين الابدية : اني احس باحساساتي فقط ؛ «دليل الوعي الذاتي» (die Aussage des Selbstbewußtseins) عند افيناريوس في «المقدمات» ص ٥٦ ، الطبعة الالمانية الثانية ، (الفقرة ٩٣) ؛ او : «في تجربتنا» (التي تدل على «اننا جواهر تحس») «الاحساس معطى لنا بصورة اصدق من الجوهرية» (المرجع نفسه ، ص ٥٥ ، الفقرة ٩١) والنخ . ، والنخ . ، وهكذا دواليك . ان بوغدانوف قد اعتبر شعوذة فلسفية رجعية (مصدقاً ماخ) «واقعاً لا مرأ فيه» ، لأنه لم يسق ولا يمكن ان يساق اي واقع من شأنه ان يدحض النظرة الى الاحساس بوصفه صورة عن العالم الخارجي ، - هذه النظرة التي كان يشاطرها بوغدانوف في عام ١٨٩٩ وتشاطرها العلوم الطبيعية حتى في الوقت الحاضر . ولقد انحرف الفيزيائي ماخ كلياً في ضلالاته الفلسفية عن «العلوم الطبيعية المعاصرة» ؛ وعن هذا الامر الهام الذي لم يلحظه بوغدانوف سيتأتى لنا التحدث كثيراً فيما بعد .

في عداد العوامل التي ساعدت بوغدانوف على القفز بمثل هذه السرعة من مادية علماء الطبيعة الى مثالية ماخ المشوشة ، مذهب افيناريوس (علاوة على تأثير اوستفالد) بشأن صف التجربة التابع وصف التجربة المستقل . فان بوغدانوف نفسه يعرض الامر في

الكتاب الاول من «الاحادية التجريبية» على النحو التالي : «بما ان معطيات التجربة تكون في تبعية لعالة الجهاز العصبي المعني ، فانها تشكل العالم النفسي للفرد المعني ؛ وبما ان معطيات التجربة تؤخذ خارج هذه التبعية ، فنحن امام العالم الفيزيائي . ولهذا يسمي افيناريوس ميداني التجربة هذين صف التجربة التابع وصف التجربة المستقل» (ص ١٨) .

ولكن المصيبة ان هذا المذهب بشأن «الصف» المستقل (عن احساس الانسان) يعني تمرير المادية ، بصورة غير مشروعة ، بصورة اعتباطية ، بصورة اختيارية من وجهة نظر الفلسفة القائلة ان الاجسام هي مركبات احساسات ، وان الاحساسات «متماثلة» مع «عناصر» الفيزيائي . لأنك حين تقر بان مصدر النور وموجات النور توجد بصورة مستقلة عن الانسان وعن الوعي البشري ، وان اللون رهن بفعل هذه الموجات في شبكية العين ، فانك تتبنى عملياً وجهة النظر المادية وتعظم كلياً جميع «الوقائع التي لا مرأ فيها» للمثالية مع جميع «مركبات الاحساسات» والعناصر التي اكتشفتها الوضعية الحديثة ، وما مائل ذلك من الهراء واللغو .

ولكن المصيبة ان بوغدانوف (مع جميع الماخيين في روسيا) لم يفقه آراء ماخ وافيناريوس المثالية الاولى ، ولم يتفهم مقدماتهما المثالية الاساسية - ولهذا غابت عن باله اختيارية وعدم شرعية محاولتهما التالية لتمرير المادية خلسة . ولكن كما ان مثالية ماخ وافيناريوس الاولى معترف بها على العموم في المطبوعات الفلسفية ، كذلك من المعترف به على العموم بان المذهب النقدي التجريبي قد حاول فيما بعد ان يميل صوب المادية . فان الكاتب الفرنسي كوفيلارت ، الذي استشهدنا به اعلاه ، يرى في «مقدمات» افيناريوس «مثالية احادية» ، وفي «انتقاد التجربة الخالصة» (١٨٨٨-١٨٩٠) - «واقعية مطلقة» ، وفي «المفهوم الانساني عن العالم» (١٨٩١) - محاولة «لتفسير» هذا التبدل . ولنلاحظ ان تعبير «الواقعية» يستعمل هنا بمعنى التضاد للمثالية . وبهذا المعنى استعمل انا ، اثر انجلس ، كلمة «المادية» فقط واحسب هذا التعبير التعبير الصحيح

الوحيد ، وخاصة لأن كلمة «الواقعية» قد لوثها الوضعيون وسائر
المخبصين الذين يتذبذبون بين المادية والمثالية . يكفي الإشارة هنا
الى ان كوفيلارت يقصد هذا الواقع الذي لا مرء فيه ، وهو ان
الاحساس في «المقدمات» (١٨٧٦) هو بنظر افيناريوس الكائن
الوحيد ، بينما أزيل «الجوهر» - حسب مبدأ «توفير الفكر» ! - ،
وان الفيزيائي معتبر في «انتقاد التجربة الخالصة» صفاً مستقلاً ،
بينما النفسي - وبالتالي الاحساسات - معتبر صفاً تابعاً .
كذلك يقر رودولف فيللي ، تلميذ افيناريوس ،
ان افيناريوس ، المثالي «كلياً» فيما مضى ، في عام ١٨٧٦ ، قد
«وَفَّق» (Ausgleich) فيما بعد مع هذا المذهب «الواقعية الساذجة»
(المؤلف المذكور اعلاه ، المقطع نفسه) اي وجهة النظر المادية
عفوياً ، التي تتبناها البشرية حين تعتبر وجود العالم الخارجي
مستقلاً عن ادراكنا .

ويقول اوسكار ايفالد ، الذي وضع كتاباً عن «افيناريوس
بوصفه مؤسس المذهب النقدي التجريبي» ، ان هذه الفلسفة تتضمن
في آن واحد عناصر (لا بالمعنى الماخي لكلمة «عنصر» ، بل بمعناها
الانسائي) مثالية و«واقعية» (وكان ينبغي القول : مادية) متناقضة .
مثلاً . «من شأن (البحث) المطلق ان يخلد الواقعية الساذجة ، ومن
شأن النسبي ان يعلن المثالية الخالصة دائمة» * . ان افيناريوس
ينعت بالبحث المطلق ما يعتبره ماخ صلة «العناصر» خارج جسمنا ،
وينعت بالنسبي ما يعتبره ماخ صلة «العناصر» التابعة لجسمنا .
ولكنه من الطريف والمفيد لنا بخاصة في الموضوع الذي نحن
بصدده رأي فوننت الذي يتبنى هو ايضاً - مثل اغلبية الكتاب
المذكورين آنفاً - وجهة نظر مثالية مشوشة ولكن الذي حلل المذهب
النقدي التجريبي بترو يكاد يفوق تروي الجميع . وقد قال

Oskar Ewald. «Richard Avenarius als Begründer des Empi-

riokritizismus» , Brl., 1905, S. 66.

بوصفه مؤسس المذهب النقدي التجريبي» . برلين . عام ١٩٠٥ ،

ص ٦٦ . (الناشر) .

ب . يوشكيفيتش في هذا الصدد ما يلي : «من الطريف ان فوننت يعتبر المذهب النقدي التجريبي الشكل الاكثر علمية لطراز المادية الاخير» * ، اي لذلك الطراز من الماديين الذين يرون في الروحي وظيفة العمليات الجسمانية (والذين يسميهم فوننت - كما نضيف نحن - بالواقفين في الوسط بين السبينوزية * * ، والمادية المطلقة * * *) .

صحيح ان رأي ف . فوننت خارق الطرافة . ولكن «الاطرف» هنا هو موقف السيد يوشكيفيتش من تلك الكتب والمقالات في الفلسفة التي يتناولها بالبحث . فانه مثال نموذجي عن موقف ماخيينا من المسألة . فان بتروشكا عند غوغول (١٤) قد قرأ ووجد من الطريف ان تتألف الكلمات دائماً من الاحرف . وقرأ السيد يوشكيفيتش فوننت ووجد من «الطريف» ان يكون فوننت قد اتهم افيناريوس بالمادية . اذا كان فوننت غير محق ، فلم لا تدحضه ؟ واذا كان محقاً فلم لا توضح تضاد المادية للمذهب النقدي التجريبي ؟ ان السيد يوشكيفيتش يجد من «الطريف» ما يقوله المثالي فوننت ، ولكن هذا الماخي يرى ان السعي لتفهم المسألة جهد نافل تماماً (اغلب الظن ، حسب مبدأ «توفير الفكر»)

والحكاية ان يوشكيفيتش قد شوه المسألة تماماً باطلاعه القارى على اتهام افيناريوس من قبل فوننت بالمادية ، وبلزومه الصمت عن ان فوننت يعتبر بعض جوانب المذهب النقدي التجريبي من المادية ، وبعضها الآخر من المثالية ، والصلة بين هذه الجوانب وتلك مصطنعة . اما ان هذا الجنتلمن لا يفهم البتة ما يقرأه ، واما

* ب . يوشكيفيتش . «المادية والواقعية النقدية» ، سانت بطرسبورغ . عام ١٩٠٨ ، ص ١٥ .

* * السبينوزية - spinozisme - مذهب الفيلسوف الهولندي باروخ (بينديكت) سبينوزا (١٦٣٢-١٦٧٧) . المعرب .

* * * W. Wundt. «Über naiven und kritischen Realismus» في «Philosophische Studien» (١٢) ، Bd. X111, 1897, S. 334
(ف . فوننت . «في الواقعية الساذجة والنقدية» في «دراسات فلسفية» ، المجلد ١٣ ، عام ١٨٩٧ ، ص ٣٣٤ . الناشر) .

انه تصرف بدافع الرغبة في مدح نفسه زوراً وبهتاناً من خلال فوننت : ها هم البروفسورات الرسميون لا يعتبروننا نحن ايضاً مخلصين ما ، بل يعتبروننا ماديين .

ان مقالة فوننت المذكورة هي عبارة عن كتاب كبير (اكثر من ٣٠٠ صفحة) مكرس لدراسة المدرسة الكمونية في البدء ، ثم النقاد التجريبيين ، باكثر ما يكون من الاسهاب والتفصيل . لعاذا جمع فوننت بين هاتين المدرستين ؟ لانه يعتبرهما من اقرب الاقرباء ، - وهذا الرأي الذي يشاطره ماخ وافيناريوس وبتسولدت وانصار الكمونية هو صحيح بالتأكيد ، كما سنرى ادناه . ويبين فوننت في القسم الاول من المقالة المذكورة ان انصار الكمونية مثاليون ، ذاتيون ، انصار للايمانية . وهذا ايضاً ، كما سنرى ادناه ، رأي صحيح تماماً ، ولكن فوننت اعرب عنه بثقل ناقل من الحذقة العلمية الاستاذية ، بتدقيقات وتحفظات نافلة ، مردها الى كون فوننت نفسه مثاليا وايمانيا . فهو يلوم انصار الكمونية ، لا على انهم مثاليون وانصار للايمانية ، بل على انهم يستخلصون هذه المبادئ العظيمة ، برأيه ، بصورة غير صحيحة . ثم يكرس فوننت القسم الثاني والقسم الثالث من المقالة للمذهب النقدي التجريبي ، علماً بانه يشير بجلاء تام الى ان موضوعي المذهب النقدي التجريبي النظريتين البالغتي الاهمية (مفهوم «التجربة» و«التنسيق المبدئي» الذي سنتحدث عنه ادناه) **متماثلتان** عنده وعند انصار الكمونية (die empiriokritische in Übereinstimmung mit der immanenten Philosophie annimmt, S. 382 من مقالة فوننت) . وموضوعات افيناريوس النظرية الاخرى مقتبسة من المادية ؛ والمذهب النقدي التجريبي هو بالاجمال «خليط مبرقش» (bunte Mischung, S. 57) من المقالة المذكورة) ، حيث «مختلف الاقسام المكونة غير مترابطة على الاطلاق» (an sich einander völlig heterogen sind ، ص ٥٦) . وفي عداد المقاطع المادية من مخلوطة افيناريوس وماخ ، يصنف فوننت بصورة رئيسية مذهب افيناريوس في «الصف الحيوي المستقل» . فاذا انطلقت من «نظامن» (بهذا يرمز افيناريوس ، الهاوي

العظيم للعب العلمي بالمصطلحات الجديدة ، - الى دماغ الانسان او على العموم الى الجهاز العصبي) ، - اذا كان النفسي هو بالنسبة لك وظيفة الدماغ ، فان هذا «النظام ن» هو «جوهر ميتافيزيائي» ، - هكذا يقول فوننت (ص ٦٤ من المقالة المذكورة) - ومذهبك هو المادية . يجب القول ان كثيرين من المثاليين وجميع اللادريين (يمن فيهم الكانطيون والهيوميون) يلقبون الماديين بالميتافيزيائيين لأنه يخيل اليهم ان الاعتراف بوجود عالم خارجي مستقل عن ادراك الانسان يعني تخطي حدود التجربة . وسوف نتكلم في حينه عن هذه التعابير وعن خطئها التام من وجهة نظر الماركسية . اما الآن ، فمن المهم لنا ان نلاحظ واقع ان التسليم بالذات بالصف «المستقل» عند افيناريوس (وكذلك عند ماخ الذي يفصح عن الفكرة نفسها بكلمات اخرى) هو - حسب الاعتراف العام من قبل الفلاسفة من مختلف الاحزاب اي من مختلف الاتجاهات في الفلسفة - اقتباس من المادية . واذا انطلقت من ان كل موجود هو احساس او من ان الاجسام هي مركبات احساسات ، فانك لا تستطيع ، بدون القضاء على جميع مقدماتك الاساسية ، على كل فلسفة «ك» ، ان تخلص الى القول ان الفيزيائي موجود بصورة مستقلة عن وعينا ، وان الاحساس هو وظيفة مادة منظمة بشكل معين . ان ماخ وافيناريوس يخلطان في فلسفتها مقدمات مثالية اساسية واستنتاجات مادية معينة وذلك على وجه الضبط لأن نظريتهما نموذج عن ذلك «الحساء الاختياري الهزيل» (١٥) الذي تحدث عنه انجلس بازدراء يستحقه * .

* مقدمة «لودفيغ فورباخ» المؤرخة في شباط (فبراير) ١٨٨٨ . ان كلمات انجلس هذه تتعلق بالفلسفة الاستاذية الالمانية على العموم . الا ان الماخين الذين يرغبون في ان يكونوا ماركسيين ، والذين لا يستطيعون ان يمعنوا الفكر في اهمية ومضمون فكرة انجلس هذه ، يتسترون احياناً وراء تحفظ حقير : «ان انجلس لم يكن يعرف بعد ماخ» (فريتس ادلر في «المادية التاريخية» ، ص ٣٧٠) . علام يرتكز هذا الرأي ؟ على ان انجلس لا يستشهد بماخ وافيناريوس ؟ ليست ثمة اسس اخرى ، ولكن هذا الاساس لا يصلح ، لأن انجلس لم يسم اياً من الاختياريين باسمه ، ولأنه من المشكوك فيه انه كان بوسع انجلس

ان هذه الاختيارية (Eclectisme) تفقأ العين بصورة خاصة في مؤلف ماخ الفلسفي الاخير «المعرفة والضلال»، الطبعة الثانية ، عام ١٩٠٦ . وقد سبق ورأينا ان ماخ يعلن فيه : «ليست ثمة اية صعوبة لانشاء اي عنصر فيزيائي كان من الاحساسات اي من العناصر النفسية» ، - ونقرأ في الكتاب نفسه : «ان التبعية خارج U (=Umgrenzung اي «حد جسمنا في المكان» ، ص ٨) هي الفيزياء باوسع معاني الكلمة» (ص ٣٢٣ ، الفقرة ٤) . «لأجل الحصول على هذه التبعية بشكلها الصافي (rein erhalten) ، من الضروري ان يصار ، قدر الامكان ، الى استبعاد تأثير المراقب ، اي تأثير العناصر الواقعة داخل لنا» (المرجع نفسه) . هكذا اذن ! في البدء ، وعد العصفور بان يحرق البحر ، اي بان ينشئ العناصر الفيزيائية من العناصر النفسية ، ولكن تبين فيما بعد ان العناصر الفيزيائية تقع خارج حدود العناصر النفسية «الواقعة داخل جسمنا» ! فيا لها من فلسفة ، والحق يقال !

واليكم مثلاً آخر : «لا وجود للغاز الكامل (المثالي ، vollkommene) ، للسائل الكامل ، للجسم المطاطي الكامل ؛ فان الفيزيائي يعرف ان اوهامه التي تبسط الوقائع بصورة اعتبارية لا تتطابق معها الا بصورة تقريبية ؛ وهو على علم بهذا الانحراف الذي لا تمكن ازالته» (ص ٤١٨ ، الفقرة ٣٠) .

اي انحراف (Abweichung) هو المقصود هنا ؟ انحراف اي شيء عن اي شيء ؟ انحراف الافكار (النظرية الفيزيائية) عن الوقائع . ولكن ما هي الافكار ؟ الافكار هي «آثار الاحساسات» (ص ٩) . وما هي الوقائع ؟ الوقائع هي «مركبات احساسات» ؛ ومن هنا ينجم انه لا تمكن ازالة انحراف آثار الاحساسات عن مركبات الاحساسات .

ماذا يعني هذا ؟ هذا يعني ان ماخ ينسى نظريته بالذات ،

ان لا يعرف افيناريوس الذي اخذ يصدر منذ عام ١٨٧٦ مجلة فصلية في الفلسفة «العلمية» .

وحيث يبدأ في الحديث عن مختلف مسائل الفيزياء ، يحاكم ببساطة ، بدون الشعوذة المثالية اي بطريقة مادية . ان جميع «مركبات الاحساسات» وكل هذه الحكمة البركلية تتبدد هباء . ويتبين ان نظرية الفيزيائيين هي انعكاس لاجسام وسوائل وغازات موجودة خارجاً عنا وبصورة مستقلة عنا ، علماً بان هذا الانعكاس هو بالطبع تقريبي ، ولكنه من غير الصحيح القول عن هذا التقريب او التبسيط انه «اعتباطي» . فهنا يعتبر ماخ **بالفعل** الاحساس مثلما تعتبره بالضبط جميع العلوم الطبيعية ، التي لم «يطهرها» تلامذة بركلي وهيوم ، اي **صورة عن العالم الخارجي** . ان نظرية ماخ بالذات هي مثالية ذاتية ؛ وعندما يقتضي الحال عامل الموضوعية ، - فان ماخ يدرج في محاكماته بلا حياء مقدمات نظرية مضادة عن المعرفة ، اي مقدمات النظرية المادية . وان المثالي المنسجم والرجعي المنسجم في الفلسفة ادوارد هارتمان الذي يتعاطف مع **النضال الماخي ضد المادية** يقترب كثيراً جداً من الحقيقة حين يقول ان موقف ماخ الفلسفي هو «خليط (Nichtunterscheidung) من الواقعية الساذجة والوهمية * المطلقة» * . هذا صحيح . فان المذهب القائل ان الاجسام هي مركبات احساسات وما الى ذلك هو وهمية مطلقة ، اي سوليبيسيسم لأن العالم كله من وجهة النظر هذه ليس سوى وهمي انا . اما محاكمة ماخ التي اوردناها ، مثلها مثل طائفة من محاكماته الجزئية الاخرى ، فهي ما يسمى «بالواقعية الساذجة» اي النظرية المادية عن المعرفة ، المقتبسة من علماء الطبيعة بصورة غير واعية ، بصورة عفوية .

ويحاول افيناريوس والاساتذة السائرون في اثره ، ان يستروا هذا الخليط بنظرية «التنسيق المبدئي» . وسننتقل الآن الى دراستها ، ولكن لنته اولاً من مسألة اتهام افيناريوس

* الوهمية - Illusionisme . **المعرب** .

Eduard von Hartmann, «Die Weltanschauung der modernen * *

Physik», Lpz., 1902, S. 219. (ادوارد فون هارتمان . «نظرة الفيزياء

المعاصرة الى العالم» . ليبزيغ ، عام ١٩٠٢ ، ص ٢١٩ . **الناشر** .

بالمادية . فان السيد يوشكيفيتش الذي اعتبر رأي فوننت الذي لم يفهمه ، طريفاً لم يظهر فضوله لكي يعرف هو نفسه او لم يتكرم ويبين للقارىء موقف اقرب تلامذة واتباع افيناريوس من هذا الاتهام . والحال ان هذا ضروري لأجل توضيح الامر ، اذا اهتمنا بمسألة موقف فلسفة ماركس ، اي المادية ، من فلسفة المذهب النقدي التجريبي . ثم اذا كانت الماخية تخبيصاً ، وخليطاً من المادية والمثالية ، فمن المهم ان نعرف الى اين تمدد - اذا امكن القول - هذا التيار حين شرع المثاليون الرسميون يدفعونه عن انفسهم بسبب تنازلاته في صالح المادية .

وقد رد على فوننت ، فيمن رد عليه ، اثنان من تلامذة افيناريوس هما اكثرهم صفاء واستقامة في الرأي ، - بتسولدت وكارستانيان . فبغضب ابي ، انكر بتسولدت الاتهام بالمادية الذي يعيب البروفسور الالمانى واستشهد . . بَمَ تظنون انه استشهد ؟ . . . «بمقدمات» افيناريوس حيث ازيل ، حسب زعمه ، مفهوم الجوهر ! فما أنسب النظرية حين يمكن ان تعزى اليها المؤلفات المثالية الصرف والمقدمات المادية المسلم بها اعتباطاً سواء بسواء ! يقيناً ان «نقد التجربة الخالصة» لافيناريوس لا يناقض هذا المذهب اي المادية ، - هكذا كتب بتسولدت - ولكنه قلما يناقض المذهب المضاد مباشرة ، المذهب الروحاني * (spiritualisme) . * . فيا للدفاع الممتاز ! ان هذا بالذات هو ما نعتة انجلس بالحساء الاختياري الهزيل . ان بوغدانوف الذي لا يريد ان يعتبر نفسه ماخياً والذي يريد ان يعتبروه (في الفلسفة) ماركسياً ، يسير وراء بتسولدت . وهو يعتقد ان «المذهب النقدي التجريبي . . . لا يأبه لا بالمادية ولا بالمذهب الروحاني ، ولا باي ميتافيزياء على العموم» * * * ، وان «الحقيقة . . . ليست في

J. Petzoldt. «Einführung in die Philosophie der reinen Erfahrung», Bd. I, S. 351, 352.

* * Spiritualisme - المذهب الروحي او المذهب الروحاني . **المعرب** .

* * * «الاحادية التجريبية» ، الكتاب الاول . الطبعة الثانية . ص ٢١ .

«الوسط الذهبي» بين الاتجاهين المتضادين» (المادية والروحانية) «بل في خارجهما» * . اما بالفعل فان ما بدا لبوغدانوف حقيقة هو تشوش ، وتذبذب بين المادية والمثالية . واعتراضاً على فوندت ، كتب كارستانيان يقول انه يرفض قطعاً «دس (Unterschiebung) العامل المادي» «الغريب تماماً عن نقد التجربة الخالصة» * * . «ان المذهب النقدي التجريبي هو مذهب الريبية $\chi\alpha\tau' \acute{\epsilon}\xi\omicron\chi\eta\nu$ (على الاغلب) حيال مضمون المفاهيم» . ان هذه الاشارة الخاصة المشددة الى حياد الماخية تنطوي على نصيب من الحقيقة : فان تعديل ماخ وافيناريوس على مثاليتهما الاولى ينحصر بكليته في الاقدام على تنازلات نصفية في صالح المادية . فعوضاً عن وجهة نظر بركلي المنسجمة القائلة ان العالم الخارجي هو احساسي انا ، - يكون الحاصل احياناً وجهة نظر هيوم القائلة: اني انحي مسألة ما اذا كان يوجد شيء وراء احساساتي . والحال ان وجهة نظر اللاعرفانية هذه تفضي حتماً الى التذبذب بين المادية والمثالية .

٣ - التنسيق المبدئي و «الواقعية الساذجة»

عرض افيناريوس مذهبه عن التنسيق المبدئي في مؤلفه «المفهوم الانساني عن العالم» وفي مؤلفه «ملاحظات» . وقد كتب افيناريوس مؤلفه الاخير بعد الاول ، و اشار فيه الى انه لا يعرض شيئاً ما يختلف عما عرضه في «نقد التجربة الخالصة» وفي «المفهوم الانساني عن العالم» بل يعرض الشيء نفسه ، ويعرضه ، والحق

* «الاحادية التجريبية» . الكتاب الاول . الطبعة الثانية . ص ٩٣ .

Fr. Garstanjen. «Der Empiriokritizismus, zugleich eine Er- * *
widerung auf W. Wundt's Aufsätze», «Vierteljahrsschrift für wissen-
schaftliche Philosophie», Jahrg. 22 (1898), SS. 73, 213
والمذهب النقدي التجريبي ، وفي الوقت نفسه جواب على مقالات
ف . فوندت ، «المجلة الفصلية للفلسفة العلمية» ، العام ٢٢ (١٨٩٨)
ص ٧٣ ، ٢١٣ . الناشر .

يقال ، بشكل مختلف نوعاً . («Bemerk» * . ١٨٩٤ . ص ١٣٧ في المجلة المذكورة). ان كنه هذا المذهب هو موضوعة التنسيق **الذي لا انفصام لعراه** (unauflösliche) « (اي الصلة المتبادلة) بين **«انا» (des Ich) والبيئة»** (ص ١٤٦) . وهنا يقول افيناريوس : «يمكن القول بلغة الفلسفة : **«انا ولا-انا»** . «وهذا وذاك ، **انا** والبيئة ، **«نجدهما دائماً معاً** (immer ein Zusammen-Vorgefundenes) . «ان اي وصف كامل للمعطي (او لما وجدناه : des Vorgefundenen) لا يمكنه ان يتضمن «البيئة» بدون **انا ما** (ohne ein Ich) الذي هذه البيئة بيئته ، - على الاقل ذلك **الانا** الذي يصف هذا الذي وجدناه» (او المعطي : das Vorgefundene ، ص ١٤٦) . وفي هذه الحال يُسمّى **انا بالعضو المركزي** للتنسيق ، والبيئة - **بالعضو المضاد** (Gegenglied) . (راجع «Der menschliche Weltbegriff» ، الطبعة الثانية . عام ١٩٠٥ . ص ٨٣-٨٤ ، الفقرة ١٤٨ وما يليها) . يدعي افيناريوس بانه يعترف بواسطة هذا المذهب بكل قيمة ما يُسمّى **بالواقعية الساذجة** اي بالنظرة العادية ، الساذجة ، غير الفلسفية عند جميع الناس الذين لا يمعنون الفكر فيما اذا كانوا موجودين هم انفسهم وفيما اذا كانت توجد بيئة ، اي عالم خارجي . وتضامناً مع افيناريوس ، يحاول ماخ هو ايضاً ان يصور نفسه بصورة مدافع عن «الواقعية الساذجة» («تحليل الاحساسات» ، ص ٣٩) . ان ماخبي روسيا ، جميعهم بلا استثناء ، قد صدقوا ماخ وافيناريوس ، صدقوا بان هذا بالفعل دفاع عن «الواقعية الساذجة» : **يُعتَرَف باننا** ، يُعتَرَف بالبيئة ، - فماذا تريدون اكثر من هذا ؟

لكي نتفهم من ذا الذي تلازمه هنا الدرجة العظمى من **السادجة** الفعلية ، لنبدأ من البعيد نوعاً . اليكم حديثاً مبسطاً بين فيلسوف ما وقارى .

* «Bemerkungen zum Begriff des Gegenstandes der Psychologie».

«القارى» : لا بد من وجود نظام من الاشياء (برأي الفلسفة العادية) ، ولا بد من استخلاص الوعي من الاشياء» .

«الفيلسوف» : انت الآن تتكلم على غرار الفلاسفة المحترفين . . . وليس من وجهة نظر العقل البشري السليم والوعي الفعلي . . . فكر جيداً قبل الجواب وقل لي : هل يلوح في ذهنك او امام انظارك شيء ما دون ان يرتبط مع ادراك هذا الشيء او دون ان يمر من خلال ادراكه ؟» .

«القارى» : اذا امعنت الفكر في المسألة ، فلا بد ان اوافق معك» .

«الفيلسوف» : انت تتكلم الآن من نفسك بالذات ، من صميم روحك ، من اعماق روحك . فلا تسع الى التفلت من نفسك بالذات لكي تضم اكثر مما تستطيع ان تضمه (او تمسكه) واعني بالضبط : الوعي و (حرف التأكيد للفيلسوف) الشيء ، الشيء و الوعي ؛ او بالادق : لا هذا ولا ذاك كلاً منهما بمفرده ، بل ما ينشطر فيما بعد فقط الى هذا وذاك ، ما هو ، بالتأكيد ، ذاتي - موضوعي وموضوعي - ذاتي» .

هذا هو كل كنه التنسيق المبدئي النقدي التجريبي والدفاع الحديث عن «الواقعية الساذجة» من جانب الوضعية الحديثة ! ان فكرة التنسيق «الذي لا انفصام لعراه» معروضة هنا بكل وضوح وعلى وجه الضبط من وجهة النظر الزاعمة ان هذا دفاع حقيقي عن نظرة انسانية عادية لم تشوهها تفلسفات «الفلاسفة المحترفين» .
والحال ان الحوار الوارد اعلاه مقتبس من مؤلف صدر في عام ١٨٠١ وكتبه الممثل الكلاسيكي للمثالية الذاتية - يوهان غوتليب فيخته * .

Johann Gottlieb Fichte. «Sonnenklarer Bericht an das größere * Publikum über das eigentliche Wesen der neuesten Philosophie. — Ein Versuch die Leser zum Verstehen zu zwingen», Berlin, 1801, SS. 178—180 (يوهان غوتليب فيخته . «اعلام واضح كالشمس لأجل الجمهور الواسع

لا شيء في مذهب ماخ وافيناريوس موضوع دراستنا ، لا شيء غير صياغة المثالية الذاتية بتعابير واساليب اخرى . وان ادعاءاتهما بانهما ارتفعا فوق المادية والمثالية واذلا التضاد بين وجهة النظر المنطلقة من الشيء الى الادراك ووجهة النظر المعاكسة لها انما هي صورة هزيلة عن الفيختية المجددة قليلاً . فان فيخته يظن هو ايضاً انه ربط «بصورة لا انفصام لعراها» بين «انا» و«البيئة» ، بين الادراك والشيء ، وانه «حل» المسألة بالاستشهاد بكون الانسان لا يستطيع ان يتفلسف من نفسه بالذات . وهذا ، بتعبير آخر ، تكرار لحجة بركلي : اني لا احس الا باحساساتي ، ولا يحق لي ان افترض «المواضيع في حد ذاتها» خارج احساسي . ان اختلاف اساليب التعبير عند بركلي في عام ١٧١٠ ، وفيخته في عام ١٨٠١ ، وافيناريوس في اعوام ١٨٩١-١٨٩٤ لا يغير البتة كنه الامر ، اي خط المثالية الذاتية الفلسفي الاساسي . ان العالم هو احساسي ؛ لا انا «يستحضره» (يستخلصه ، يستنتجه) انا ؛ الشيء يرتبط بالادراك بصورة لا انفصام لعراها ؛ التنسيق الذي لا انفصام لعراها بين انا والبيئة هو تنسيق مبدئي نقدي تجريبي ؛ كل هذه هي الموضوعات ذاتها ، كل هذه هي الزبالة القديمة مع لافتة مجملة قليلاً او معاد صبغها .

ان الاستشهاد «بالواقعية الساذجة» التي تدافع عنها ، كما يزعم ، فلسفة من هذا الطراز هو سفسطة من ارنست صنف . فان «الواقعية الساذجة» عند اي انسان سليم لم يعيش في مستشفى المجانين او لم يتعلم على يد الفلاسفة المثاليين تتلخص في كون الاشياء ، البيئة ، العالم توجد بصورة مستقلة عن احساسنا ، عن ادراكنا ، عن انا وعن الانسان بوجه عام . ان تلك التجربة ذاتها (لا بمعنى الكلمة الماخي ، بل بمعنى الكلمة الانساني) التي خلقت لنا الاقتناع الثابت بأنه يوجد بصورة مستقلة عنا اناس آخرون

من الكنه الحقيقي للفلسفة الحديثة . - محاولة لاجبار القارى على الفهم .
برلين . عام ١٨٠١ ، ص ١٧٨-١٨٠ . الناشر .

وليس مجرد مركبات احساساتي بالعالى والمنخفض والاصفر والصلب والرخ . ، هذه التجربة ذاتها تخلق اقتناعنا بان الاشياء ، العالم ، البيئة توجد بصورة مستقلة عنا . ان احساساتنا ، وادراكنا ليست غير صورة عن العالم الخارجى ؛ وغنى عن البيان ان الانعكاس لا يمكن ان يوجد بدون المعكوس فى حين ان المعكوس يوجد بصورة مستقلة عن العاكس . وان المادية تضع عن وعى فى اساس نظريتها عن المعرفة اقتناع البشرية «السادج» .

أوليس هذا التقييم «للتنسيق المبدئى» نتيجة للتحيز المادى ضد الماخية ؟ كلا اطلاقاً . فان الفلاسفة الاختصاصيين ، الغرباء عن كل تحيز للمادية ، وحتى الذين يكرهونها ويتبنون هذه او تلك من انظمة المثالية ، مجمعون على ان التنسيق المبدئى عند افيناريوس وشركاه هو مثالية ذاتية . مثلاً ، ان فوننت الذى لم يفهم السيد يوشكيفيتش رآيه الطريف ، يقول صراحة ان نظرية افيناريوس التى تزعم انه يستحيل ، بدون انا ما ، وبدون مراقب او واصف ، اعطاء وصف كامل للمعطى او لما وجدناه هي «خلط زائف بين مضمون التجربة الفعلية والمحاكمة بصددها» . ويقول فوننت ان العلوم الطبيعية تتجرد تماماً من كل مراقب . «والحال ان هذا التجرد لا يمكن الا لسبب واحد فقط ، هو ان ضرورة رؤية (hinzudenken ، حرفياً - استحضار) الفرد الذى يعيش التجربة فى كل مضمون للتجربة ، ان هذه الضرورة التى تقبلها الفلسفة النقدية التجريبية بالتوافق مع الفلسفة الكمونية ، هي على العموم فرضية غير معللة تجريبياً ، ونابعة من الخلط الزائف بين مضمون التجربة الفعلية والمحاكمة بصددها» (المقالة المذكورة . ص ٣٨٢) . لان انصار مذهب الكمونية (شوبه ، رمكه ، ليكلر ، شوبرتزولدرن) ، الذين يشيرون بانفسهم - كما سنرى فيما بعد - الى تعاطفهم الحار مع افيناريوس ينطلقون على وجه الضبط من هذه الفكرة عن الصلة «التي لا تنفصم عراها» بين الذات والموضوع . اما فوننت ، فقد بين بالتفصيل ، قبل ان يحلل افيناريوس ، ان الفلسفة الكمونية ليست غير «نوع معدل» من البركليية ، وانه ينبغى

نظرية المعرفة في المذهب النقدي التجريبي وفي المادية الديالكتيكية ٧٣

للفوارق الكلامية ، مهما تنكر انصار مذهب الكمونية لبركلي ، ان لا تحجب عنا بالفعل «مضموناً اعمق للمذاهب الفلسفية» ، اي بالضبط مذهب بركلي او مذهب فيخته * .

ثم ان الكاتب الانجليزي نورمان سميث ، الذي درس مؤلف افيناريوس «فلسفة التجربة الخالصة» ، يعرض هذا الاستنتاج بصورة سافرة وقاطعة اكثر بكثير :

«ان اغلبية المطلعين على مؤلف افيناريوس «المفهوم الانساني عن العالم» يوافقون ، اغلب الظن ، على ان نتائجه الايجابية وهمية تماماً مهما كان نقده (للمثالية) مقنعاً . واذا حاولنا ان نفسر نظريته عن التجربة حسبما يريدون تصويرها ، اي على وجه الضبط كنظرية واقعية حقاً (genuinely realistic) ، فانها تملص من كل عرض واضح : فان كل مدلولها ينحصر في انكار الذاتية التي تطيح بها هذه النظرية ، كما يزعم . ولكننا حين نترجم تعابير افيناريوس التكنيكية الى لغة ايسط ، فاننا نرى اين يكمن المصدر الحقيقي لهذه التعمية . فقد صرف افيناريوس الانتباه عن نقاط الضعف في موقفه بتوجيه هجومه الرئيسي ضد نقطة الضعف هذه على وجه الضبط» (اي النقطة المثالية) «المشؤومة بالنسبة لنظريته بالذات» * * . «على كل امتداد محاكمات افيناريوس ، يقدم له لموض تعبير «التجربة» خدمة طيبة . فان هذا التعبير (experience) يعني تارة ذلك الذي يقوم بالتجربة ؛ ويعني طوراً ما يجربونه ؛ والمعنى الاخير يشار اليه على الاخص حين يكون المقصود طبيعة الانا (of the self) . ان هذين المعنيين لتعبير «التجربة» يتطابقان

* المقالة المذكورة . الفقرة ج : «الفلسفة الكمونية ومثالية بركلي» ، ص ٣٧٣ ، ٣٧٥ . قارن ص ٣٨٦ و ٤٠٧ . حول حتمية المموليبسيسم من وجهة النظر هذه : ص ٣٨١ .

* * Norman Smith. «Avenarius' Philosophy of Pure Experience»

في vol. XV, 1906, pp. 27—28 (١٦) «Mind» (نورمان سميث ، «فلسفة التجربة الخالصة عند افيناريوس» في مجلة «الفكر» ، المجلد ١٥ ، عام ١٩٠٦ ، ص ٢٧—٢٨ . الناشر) .

في الواقع مع تقسيمه الهام للبحث المطلق والنسبي» (وقد سبق واشرت الى معنى هذا التقسيم عند افيناريوس) ؛ «ووجهتا النظر هاتان لا تتوافقان بالفعل في فلسفته . لأنه حين يسلم بشرعية المقدمة القائلة ان التجربة تكتمل بالفكرة بصورة مثلي» (الوصف الكامل للبيئة يكتمل بصورة مثلي بالفكرة عن انا المراقب) ، «فانه يتقدم بفرضية ليس في وسعه ان يجمعها مع زعمه بالذات بان لا شيء يوجد خارج الموقف من انا (to the self) . ان التكميل الامثل للواقع المعني الذي يحصل من انشطار الاجسام المادية الى عناصر ليست في منال حواسنا» (المقصود هنا العناصر المادية التي اكتشفتها العلوم الطبيعية ، والذرات ، والالكترونات ، وما الى ذلك ، وليس تلك العناصر التي اختلقها ماخ وافيناريوس) ، «او من وصف الارض في تلك الازمنة التي لم يكن فيها اي كائن بشري في الارض ، - ان هذا بمعنى الكلمة الدقيق ، ليس تكميلاً للتجربة ، بل تكميل لما نجرب به . ان هذا لا يكمل غير حلقة من حلقات التنسيق التي قال عنها افيناريوس انه يستحيل الفصل بينها . وهذا ما يؤدي بنا الى ما لم تجر تجربته يوماً (لم يكن موضوع تجربة ، has not been experienced) ، وليس هذا وحسب ، بل ايضاً الى ما لا يمكن تجربته ابدأ في اي حال من الاحوال من قبل كائنات شبيهة بنا . ولكن ازدواج معنى تعبير «تجربة» يهب هنا على وجه الضبط الى نجدة افيناريوس . فان افيناريوس يرى ان الفكر شكل حقيقي (فعلي ، genuine) للتجربة بقدر ما هو عليه الادراك الحسي ، وهو بالتالي يعود الى الوراء نحو الحجة القديمة المبتدلة (time-worn) التي تتذرع بها المثالية الذاتية والتي تقول على وجه الضبط ان الفكر والواقع لا ينفصلان ، لأنه لا يمكن ادراك الواقع الا في الفكر ، وان الفكر يتطلب وجود من يفكر . اذن ، لا بحث اصيل وعميق ما للواقعية ، بل مجرد بحث للمثالية الذاتية في اخشن (crudest) اشكالها ، - تلك هي النتيجة النهائية لمحاكمات افيناريوس الوضعية» (ص ٢٩) .

ان تعمية افيناريوس الذي يكرر كلياً خطأ فيخته مدحوضة

هنا بصورة ممتازة . فان القضاء الشهير بواسطة كلمة «تجربة» على التضاد بين المادية (عبثاً يقول سميث ؛ الواقعية) والمثالية قد غدا في الحال خرافة ما ان بدأنا ننتقل الى مسائل ملموسة معينة ، ومنها مسألة وجود الارض قبل الانسان ، قبل اي كائن يحس . وسنتحدث قريباً عن هذا بمزيد من التفصيل . اما الآن ، فنلاحظ ان ن . سميث ، خصم نظرية افيناريوس ، ليس وحده الذي ينزع القناع عن افيناريوس وعن «واقعيته» الموهومة ، بل ينزعه كذلك نصير مذهب الكمونية شوبه الذي رحب ترحيباً حاراً بصدور «المفهوم الانساني عن العالم» ، بوصفه تأكيداً للواقعية **السادجة** * . ذلك ان شوبه نفسه موافق تماماً على مثل هذه «الواقعية» اي على مثل هذه التعمية للمادية التي قام بها افيناريوس . وقد كتب الى افيناريوس يقول : - لقد ادعيت دائماً بمثل هذه «الواقعية» وبنفس الحق مثلك hochverehrter Herr College (ايها السيد الزميل العزيز الاحترام) ، لانهم افتروا علي ، انا نصير مذهب الكمونية ، بزعمهم اني مثالي ذاتي . «ان مفهومي للتكبير . . . قابل للتوفيق بشكل ممتاز (verträgt sich vortrefflich) مع نظريتك ، ايها السيد الزميل العزيز الاحترام ، «نظرية التجربة الخالصة» (ص ٣٨٤) . «ان الصلة واستحالة الفصل بين عضوي التنسيق» لا يعطيها بالفعل الا انا (das Ich) ، اي الوعي الذاتي المجرد ، الفيختي ، الفكر المفصول (من الدماغ) . وقد كتب شوبه الى افيناريوس (ص ٣٨٨) يقول : «ان ما اردت شطبه انما افترضته ضمناً» . ويصعب القول من ذا الذي ينزع القناع عن المعتمى افيناريوس بمزيد من الايلام ، سميث بدحضه الصريح والواضح ، ام شوبه باعجابه بمؤلف افيناريوس الختامي . ان قبلة ولهم شوبه في الفلسفة ليست البتة افضل من قبلة بيوتر ستروفه او السيد منشيكوف في السياسة .

* راجع رسالة و . شوبه المفتوحة الى ر . افيناريوس في «Vierteljahrsschrift für wissenschaftliche Philosophie», Bd. 17, 1893, SS. 364—388.

ثم ان او . ايفالد الذي يمدح ماخ لأن ماخ لم يستسلم للمادية ، يتحدث عن التنسيق المبدئي : «اذا قلنا ان التناسب بين العضو المركزي والعضو المضاد ضرورة عرفانية لا يمكن التراجع عنها ، فذلك يعني - مهما كانت الاحرف التي كتب بها على الالفة تعبير «المذهب النقدي التجريبي» كبيرة وصارخة - تبني وجهة نظر لا تختلف في شيء عن المثالية المطلقة» . (تعبير غير صحيح ؛ فقد كان ينبغي القول : المثالية الذاتية ، لان مثالية هيغل المطلقة تسلم بوجود الارض والطبيعة والعالم الفيزيائي بدون الانسان ، معتبرة الطبيعة مجرد «وجود مغاير» للفكرة المطلقة) . «وبالعكس ، اذا لم نتمسك بدأب وانسجام بهذا التنسيق ، واذا منحنا الاعضاء المضادة استقلالها ، فان جميع الامكانيات الميتافيزيائية تطفو دفعة واحدة ، وخاصة باتجاه الواقعية المتعالية» * (المؤلف المذكور . ص ٥٦-٥٧) .

ان السيد فريدلندر الذي يتستر بالاسم المستعار ايفالد ، يطلق نعت الميتافيزياء والواقعية المتعالية على المادية . وهو اذ يدافع بنفسه عن احد ضروب المثالية ، يوافق كلياً مع الماخيين والكانطيين في ان المادية هي الميتافيزياء ، في انها «من البداية الى النهاية ميتافيزياء في غاية الغرابة» (ص ١٣٤) . وهو ، فيما يتعلق «بتعالى» * * * وميتافيزيائية المادية ، رفيق بالفكر لبازاروف وجميع ماخيينا ، وعن هذا سنتحدث بوجه خاص فيما بعد . اما هنا ، فمن المهم ان نلاحظ ايضا كيف يتبدد هنا بالفعل الادعاء الغيليرتري * * * الفارغ بتجاوز المثالية والمادية ، وكيف توضع المسألة بتشدد لا يلين . «منح الاعضاء المضادة الاستقلال» ، هذا يعني (اذا ترجمناه من لغة افيناريوس المتصنع المغاليسة في

* المتعالي - transcendental . المعرب .

* * * التعالي - transcensus . المعرب .

* * * نسبة الى الكلمة الالمانية «غيليرتر» Gelehrter - اي «العالم ،

المتعلم» . والمقصود بها من يستوعب العلم الكتبي المفصول عن الحياة وعن النشاط العملي والعلم الطبيعي . مدرسي (سكولاستي) . سطحي . المعرب .

التزويق الى لغة بشرية) اعتبار الطبيعة ، العالم الخارجي ، مستقلاً عن وعي الانسان واحساسه ، وهذه هي المادية . وان بناء نظرية المعرفة على مقدمة الصلة التي لا انفصام لها بين الموضوع واحساس الانسان («مركبات الاحساسات=الاجسام ؛ «عناصر العالم» متماثلة في النفسي والفيزيائي ؛ تنسيق افيناريوس وما الى ذلك) يعني الانزلاق حتماً الى المثالية . هذه هي الحقيقة البسيطة والمحتمة التي يمكن ، ببعض الانتباه ، اكتشافها بسهولة تحت ركام تعابير ومصطلحات افيناريوس وشوبه وايفالد والآخرين المفرقة في التكلف ، التي تخمض الامر قصداً وعمداً ، وتدفع الجمهور الواسع عن الفلسفة .

ان «التوفيق» بين نظرية افيناريوس وبين «الواقعية الساذجة» قد استثار في آخر المطاف الشكوك حتى عند تلامذته . فان ر . فيللي يقول ، مثلاً ، ان الرأي العادي الذي يزعم ان الهيناريوس توصل الى «الواقعية الساذجة» انما يجب اعتباره *cum grano salla* . «ان الواقعية الساذجة ، بوصفها عقيدة ، لا تعدو ان تكون ايماناً بالاشياء في ذاتها ، الموجودة خارج الانسان (*außerpersönliche*) ، في شكلها المحسوس الملموس» * * . وهذا يعني بتعبير آخر ان النظرية الوحيدة عن المعرفة ، الجاري بناؤها بالفعل في الوفاق الحقيقي وليس في الوفاق الوهمي مع «الواقعية الساذجة» ، هي ، برأي فيللي ، المادية ! والحال ان فيللي ينكر ، بالطبع ، المادية ، ولكنه مضطر الى الاعتراف بان افيناريوس يبعث وحدة «التجربة» ، وحدة «انا» والبيئة ، في مؤلفه «المفهوم الالساني عن العالم» ، «بواسطة جملة من المفاهيم الثانوية والمساعدة ، المعقدة ، والمصطنعة جزئياً منتهى الاصطناع» (١٧١) . وبما ان «المفهوم الالساني عن العالم» هو رد فعل ضد مثالية الهيناريوس الاولية فانه «يتسم كلياً بطابع التوفيق

* حرفياً : بحبة ملح ؛ بتحفظ ، ليس حرفياً تماماً . الناشر .

* * R. Willy «Gegen die Schulweisheit», S. 170.

(eines Ausgleiches) بين واقعية الفكر السليم الساذجة وبين المثالية العرفانية النظرية للفلسفة المدرسية . اما انه يمكن لهذا التوفيق ان يبعث وحدة التجربة وكمالها (يقول فيللي : Grunderfahrung ، اي التجربة الجذرية ؛ كلمة جديدة اخرى ا) ، فاني لن اؤكد هذا» (١٧٠) .

فيا للاعتراف القيم ! لم تفلح «تجربة» افيناريوس في التوفيق بين المثالية والمادية . فان فيللي ، على ما يبدو ، ينكر الفلسفة المدرسية بصدد التجربة لكي يستعيز عنها بفلسفة مشوشة ثلاثاً عن التجربة «الجذرية»

٤ - هل وجدت الطبيعة قبل الانسان ؟

لقد رأينا ان هذا السؤال سام بخاصة بالنسبة لفلسفة مانخ وافيناريوس . فان العلوم الطبيعية تؤكد بالايجاب ان الارض وجدت في حالة لم يكن فيها ولم يكن من الممكن ان يكون فيها ، لا الانسان ولا على العموم اي كائن حي اياً كان . ان المادة العضوية هي ظاهرة متأخرة ، وثمره تطور طويل . وهذا يعني انه لم تكن ثمة مادة حساسة ، - لم تكن ثمة «مركبات احساسات» ، - لم يكن ثمة اي انا ، مرتبط «بصورة لا انفصام لها» بالبيئة ، حسبما يزعم ، وفقاً لمذهب افيناريوس . ان المادة هي الاولى ، بينما الفكر ، الادراك ، الاحساس - نتاج تطور رفيع جداً . تلك هي النظرية المادية عن المعرفة ، التي تتبناها العلوم الطبيعية بصورة عفوية .

ونتساءل : هل لاحظ ممثلو المذهب النقدي التجريبي البارزون هذا التناقض بين نظريتهم وبين العلوم الطبيعية ؟ اجل ، لاحظوا وطرحوا صراحة مسألة المحاكمات التي يجب ازالة هذا التناقض بها . ان ثلاث نظرات الى هذه المسألة ، - نظرة افيناريوس نفسه ، ثم نظرتي تلميذيه بتسولدت وفيللي ، - تتسم باهمية خاصة من وجهة نظر المادية .

ان افيناريوس يحاول ان يزيل التناقض مع العلوم الطبيعية بواسطة نظرية العضو المركزي «الموجود بالقوة» * في التنسيق . ان التنسيق ، كما نعرف ، يتلخص في الصلة «التي لا انفصام لعراها» بين **انا** والبيئة . ولازالة سخف هذه النظرية الجلي ، يستنبطون مفهوم العضو المركزي «الموجود بالقوة» . مثلاً ، ماذا يجب القول بصدد تطور الانسان من الجنين ؟ هل توجد بيئية (=«عضو مضاد») ، اذا كان «العضو المركزي» عبارة عن جنين ؟ يجيب افيناريوس : النظام الجنيني ن هو «العضو المركزي الموجود بالقوة حيال البيئة الفردية المقبلة» («الملاحظات» ، ص ١٤٠ من المقالة المذكورة) . ان العضو المركزي الموجود بالقوة لا يوازي ابدأ الصفر ، حتى حين لا يكون ثمرة والدان (elterliche Bestandteile) ، بل توجد فقط «اجزاء مكونة للبيئة» ، قادرة على ان تصبح والدين (ص ١٤١) .

اذن ، التنسيق لا تنفصم عراه . والقول بذلك الزامي على الناقد التجريبي بغية انقاذ اسس فلسفته ، والاحساسات ومركباتها . فان الانسان هو العضو المركزي لهذا التنسيق . وحين لا يكون ثمرة انسان ، حين لا يكون قد ولد بعد ، فان العضو المركزي لا يوازي مع ذلك الصفر ، بل اصبح فقط عضواً مركزياً **موجوداً بالقوة** ! فلا يبقى لنا الا ان نعجب من تواجد اناس قادرين على ان يأخذوا على محمل الجد فيلسوفاً كهذا يدلي بمحاكمات كهذه! وحتى فوننت الذي تحفظ قائلاً انه ليس البتة عدواً لكل ميتافيزياء (اي لكل ايمانية) يضطر الى الاعتراف «بالتغميض الصوفي لمفهوم التجربة» هنا بواسطة تعبير «موجود بالقوة» الذي يقضي على كل تنسيق (المقالة المذكورة ، ص ٣٧٩) .

وبالفعل ، هل يمكن التحدث بجد ، يا ترى ، عن تنسيق لتلخص استحالة انفصامه في كون احد اعضائه موجوداً بالقوة ؟

* موجود بالقوة - potential - كامن . ممكن . محتمل . موجود بالقدرة . **المعرب** .

اوليس هذا ، يا ترى ، من الصوفية ، اوليس هذا ، يا ترى ، عتبة مباشرة الى الايمانية ؟ اذا كان يمكن تصور العضو المركزي الموجود بالقوة حيال البيئة المقبلة ، فلماذا لا يمكن تصوره حيال البيئة **الماضية** اي **بعد موت الانسان** ؟ ستقولون : ان افيناريوس لم يستخلص هذا الاستنتاج من نظريته . اجل . ولكن النظرية السخيفة والرجعية لم تصبح من جراء ذلك الا نظرية اكثر جبانة ، ولم تصبح افضل من ذي قبل . ففي عام ١٨٩٤ ، لم يعرضها افيناريوس الى النهاية او خاف ان يعرضها الى النهاية ، ان يفكر فيها بانسجام الى النهاية ؛ ولكن ر . شوبرت-زولدرون ، كما سنرى ، قد استشهد في عام ١٨٩٦ **بهذه النظرية على وجه الدقة** ، ولأجل استخلاص استنتاجات لاهوتية **على وجه الضبط** ، فاستحق في عام ١٩٠٦ **تحييد** ماخ الذي قال : ان شوبرت-زولدرون يسير «**بسبب قربة جداً**» (الى الماخية) («تحليل الاحساسات» ، ص ٤) . وكان انجلس يملك الحق الكامل في انتقاد دوهرينغ ، الملحد السافر ، لأنه ترك في فلسفته ، بصورة غير منطقية ، **ثغرات امام الايمانية** . وقد لام انجلس مراراً على هذا - وبملاء الحق والصواب - المادي دوهرينغ الذي لم يستخلص ، في السبعينيات على الاقل ، استنتاجات لاهوتية . اما عندنا ، فيتواجد اناس يرغبون في ان يعتبروهم ماركسيين ، ويحملون الى الجماهير فلسفة قربة جداً من الايمانية .

وقد كتب افيناريوس في المرجع نفسه : « . . . قد يبدو انه لا يحق للعلوم الطبيعية من وجهة النظر النقدية التجريبية على وجه الضبط ان تطرح مسألة مراحل في بيئتنا الحالية سبقت من حيث الزمن وجود الانسان» (ص ١٤٤) . جواب افيناريوس : «ان من يسأل عن هذا لا يمكنه التهرب من استحضار نفسه بالذات» (sich hinzuzudenken اي تصور نفسه حاضراً عند هذا) . ويستطرد افيناريوس قائلاً : «وبالفعل ، ان ما يريده عالم الطبيعيات (رغم انه لم يدرك هذا بما يكفي من الوضوح) يقتصر من حيث جوهر الامر على ما يلي : باي نحو يجب تعريف الارض او العالم قبل ظهور

الكائنات الحية او الانسان ، اذا كنت استحضر نفسي بصفة متفرج ، - تقريباً كأنما يمكن ان نتصور اننا نراقب تاريخ كوكب آخر او حتى نظام شمسي آخر من ارضنا بواسطة ادوات راقية» . لا يمكن للشيء ان يوجد بصورة مستقلة عن ادراكنا ؛ «نحن نستحضر دائماً انفسنا بالذات كعقل يسعى الى ادراك هذا الشيء» . ان هذه النظرية ، نظرية ضرورة «استحضار» ادراك الانسان حيال كل شيء ، حيال الطبيعة قبل الانسان ، انما عرضتها في المقطع الاول باقوال «الوضعي الحديث» ر . افيناريوس ، وفي المقطع الثاني باقوال المثالي ي . غ . فيخته * . ان سفسطائية هذه النظرية جلية للعيان الى حد انه من المزعج تحليلها . فاذا كنا «نستحضر» انفسنا ، فان حضورنا سيكون متخيلاً ، في حين ان وجود الارض قبل الانسان فعلي . وبالفعل لم يكن بوسع الانسان ان يكون شاهداً ، مثلاً ، على حالة الارض الملتهبة ، و«تصور» حضوره في هذه الحالة انما هو ظلامية ، تماماً كما لو اني شرعت ادافع عن وجود جهنم بالذريعة التالية : لو كنت «استحضرت» نفسي كمرقب ، لكنت استطعت ان اراقب جهنم . ان «التوفيق» بين المذهب النقدي التجريبي وبين العلوم الطبيعية يتلخص في كون افيناريوس يتفضل ويوافق على «استحضار» امكانية التسليم بما نفته العلوم الطبيعية . وما من امرى متعلم نوعاً وسليم نوعاً يخالجه الشك في ان الارض كانت موجودة عندما لم يكن من الممكن ان تكون فيها اية حياة ، اي احساس ، اي «عضو مركزي» وان كل نظرية ماخ وافيناريوس التي ينجم منها ان الارض هي مركب احساسات («الاجسام هي مركبات احساسات») او

* Sämt- J. G. Fichte. «Rezension des «Aenesidemus», 1794, في

liche Werke, Bd. I, S. 10 (يوهان غوتليب فيخته . «مراجعة ا«اينيزيدم»»

عام ١٧٩٤ ، في مجموعة المؤلفات ، المجلد الاول ، ص ١٩ . الناشر) .

اينيزيدم - فيلسوف الريبية الاغريقي (القرن الاول قبل المسيح) .

«مركب عناصر يتماثل فيها النفسي مع الفيزيائي» ، او «عضو مضاد لا يمكن ابدأ في ظله ان يكون العضو المركزي موازياً للصفير» هي ، بالتالي ، **ظلامية فلسفية** ، وتعني السير بالمثالية الذاتية الى حد المحال .

لقد رأى بتسولدت سخافة الموقف الذي تورط فيه السيد افيناريوس ، فنجعل . وفي مؤلفه «مقدمة الى فلسفة التجربة الخالصة» (المجلد الثاني) يكرس فقرة كاملة (الفقرة ٦٥) «لمسألة واقعية مراحل الارض السابقة» (او الباكرة - frühere) .

يقول بتسولدت : «ان الانا (das Ich) يضطلع في مذهب افيناريوس بدور يختلف عما عند شوبته» (ونلاحظ ان بتسولدت يعلن صراحة وغير مرة : ان فلسفتنا قد اسسها ثلاثة اشخاص : افيناريوس وماخ وشوبته) ، «ولكن ، مع ذلك ، بدور هو ، على الأرجح ، مفرط في الاهمية بالنسبة لنظريته» (اغلب الظن ان ما اثر في بتسولدت ، كون شوبته قد نزع القناع عن افيناريوس ، بقوله ان كل شيء عند افيناريوس ايضاً يرتكز فعلاً على الانا فقط ؛ ويريد بتسولدت ان يتصحح) . ويستطرد بتسولدت قائلاً : «قال افيناريوس ذات مرة : «بوسعنا ، طبعاً ، ان نتصور مكاناً لم تطأه بعد قدم الانسان ؛ ولكن لكي يكون من الممكن تصور (حرف التأكيد لافيناريوس) مثل هذه البيئـة ، لهذا الغرض ينبغي ما نسميه **انا** (Ich-Bezeichnetes) **الذي** هذا التصور هو تصوره (حرف التأكيد لافيناريوس) «Vierteljahrsschrift für wissenschaftliche Philosophie», 18. Bd., 1894, S. 146, Anmerkung)» .

ويعترض بتسولدت :

«ولكن المسألة الهامة لا تقوم البتة ، من الناحية العرفانية ، فيما اذا كان بوسعنا على العموم ان نتصور مكاناً كهذا ، بل تقوم فيما اذا كان يحق لنا ان نتصور انه يوجد او وجد بصورة مستقلة عن التفكير الفردي اياً كان» .

ما هو صحيح صحيح . فبوسع الناس ان يتصوروا

و«يستحضروا» لانفسهم اية جهنم ، واية عفاريت ؛ ولوناتشارسكي ذهب الى حد انه «استحضر» لنفسه . . . - ولنقل بلطف - مفاهيم دينية ؛ ولكن مهمة نظرية المعرفة تكمن على وجه الضبط في تبيان عدم واقعية هذه الاستحضارات ، وخياليتها ، ورجعيتها .
« . . . اما انه لا بد من النظام ن (اي الدماغ) لأجل التفكير ، فان هذا بديهي بنظر افيناريوس وبنظر الفلسفة التي ادافع عنها . . . »

هذا غير صحيح . فان نظرية افيناريوس في عام ١٨٧٦ هي نظرية الفكر بدون الدماغ . وفي نظريته العائدة الى سنوات ١٨٩١ - ١٨٩٤ يوجد ، كما سنرى الآن ، عنصر مماثل من الهذيان المثالي .
« . . . ولكن هل يكون هذا النظام ن شرطاً لوجود (حرف التأكيد لبتسولدت) ، مثلاً ، العهد الثانوي (Sekundärzeit) للارض؟ واذا بتسولدت ، - وقد اورد هنا محاكمة افيناريوس التي امتشهدت بها والتي تتعلق بما تريده بالذات العلوم الطبيعية ، وبالكيفية التي نستطيع بها «استحضار» المراقب ، يعترض قائلاً :

«كلا . نحن نريد ان نعرف ما اذا كان يحق لنا ان نتصور الارض في ذلك العهد البعيد موجودة مثلما اتصورها موجودة امس او منذ دقيقة . او ما اذا كان ينبغي بالفعل اشتراط وجود الارض بمنحنا الحق (كما اراد فيللي) في ان نتصور على الاقل انه يوجد مع الارض في الزمن المعني نظام ما ن ، وان في ادنى درجات تطوره ؟» (وسنتحدث الآن عن فكرة فيللي هذه) .

«ان افيناريوس يتحاشى استنتاج فيللي الغريب بواسطة تلك الفكرة القائلة ان الشخص الذي يطرح المسألة لا يمكنه ان يستغيب نفسه (sich wegdenken) اي ان يتصور نفسه غائباً) او لا يمكنه ان يتحاشى استحضر نفسه (sich hinzuzudenken) : راجع «المفهوم الانساني عن العالم» ، ص ١٣٠ ، من الطبعة الالمانية الاولى) . ولكن افيناريوس يجعل على هذا النحو من انا الفردي للشخص الذي يطرح المسألة او الفكرة عن انا كهذا ، شرطاً لحقنا

في تصور وجود الارض في ذلك الزمن وليس شرطاً لمجرد عمل الفكر عن الارض غير المأهولة .

من السهل تجنب هذه السبل الخاطئة اذا لم يول هذا الانا مثل هذا القدر الكبير من الاهمية النظرية . ان الامر الوحيد الذي يجب ان تطالب به نظرية المعرفة ، مع حسابان الحساب لهذه او تلك من النظرات الى ما هو بعيد عنا في المكان وفي الزمان ، هو ان يكون قابلاً للتصور وان يكون من الممكن تعريفه بمدلول واحد (eindeutig) ؛ والباقي كله هو شأن العلوم المختصة» (المجلد الثاني ، ص ٣٢٥) .

لقد جعل بتسولدت من قانون السببية قانون القابلية للتعريف الوحيد المدلول وادخل في نظريته ، كما سنرى ادناه ، **قبليّة** * هذا القانون . وهذا يعني ان بتسولدت ينقد نفسه من المثالية الذاتية والسوليبسيسم عند افيناريوس (ويقال هذا باللغة الاصطلاحية الاستاذية : «يضفي على انا اهمية خارقة») بواسطة افكار **كانطية** . ان نقص العامل الموضوعي في مذهب افيناريوس ، واستحالة التوفيق بينه وبين مقتضيات العلوم الطبيعية التي تعلن ان الارض (الموضوع) قد وجدت قبل ظهور الكائنات الحية (الذات) بزمن طويل ، - قد اجبرا بتسولدت على التمسك بالسببية (التعريف الوحيد المدلول) . كانت الارض موجودة ، لأن وجودها قبل الانسان مرتبط سببياً بوجود الارض الحالي . اولاً ، من اين جاءت السببية ؟ القبليّة - يقول بتسولدت . ثانياً ، أليست التصورات عن جهنم والعفاريت و«استحضارات» لوناتشارسكي مرتبطة هي ايضاً بالسببية ؟ ثالثاً ، على كل حال ، يظهر ان نظرية «مركبات الاحساسات» قد قضى عليها بتسولدت . فان بتسولدت لم يحل التناقض الموجود عند افيناريوس والذي يعترف به ، بل ازداد ارتباكاً لأنه لا يمكن ان يكون ثمة سوى حل واحد : الاعتراف بان العالم الخارجي الذي

يعكسه وعينا يوجد بصورة مستقلة عن وعينا . وهذا الحل المادي هو وحده الذي يتفق فعلا مع العلوم الطبيعية وهو وحده الذي يستبعد حل مسألة السببية حلا مثالياً من قبل بتسولدت وماخ ، الامر الذي سنتحدث عنه بوجه خاص .

وللمرة الاولى طرح الناقد التجريبي الثالث ، ر . فيللي ، مسألة هذه الصعوبة بالنسبة لفلسفة افيناريوس في عام ١٨٩٦ في مقالته : «Der Empiriekritizismus als einzig wissenschaftlicher

Standpunkt» («المذهب النقدي التجريبي بوصفه وجهة النظر العلمية الوحيدة»). فما العمل بالعالم قبل الناس ؟ - يسأل هنا فيللي * ويجيب في البدء اثر افيناريوس : «نحن ننتقل الى الماضي بالفكر» . ولكنه يقول فيما بعد انه ليس من الالزامي اطلاقاً ان نفهم التجربة من كل بد بمعنى تجربة الانسان . «لأنه يجب اعتبار عالم الحيوانات - حتى وان كان المقصود دودة تافهة للغاية - كالناس البدائيين (Mitmenschen) ما دمنا نأخذ حياة الحيوانات بالارتباط مع التجربة العامة» (٧٣-٧٤) . وهكذا ، كانت الارض قبل الانسان «تجربة» دودة قامت بوظيفة «العضو المركزي» لأجل انقاذ «تنسيق» افيناريوس وفلسفة افيناريوس ! فلا غرابة اذا كان بتسولدت قد حاول ان يقي نفسه من مثل هذه المحاكمة التي ليست درة من درر السخافة وحسب (تُعزى الى الدودة فكرة عن الارض تتناسب مع نظريات الجيولوجيين) ، بل لا تساعد كذلك فيلسوفنا في شيء ، لأن الارض قد وجدت ، لا قبل الانسان وحسب ، بل ايضاً قبل اية كائنات حية على العموم .

وقد حاكم فيللي مرة اخرى في هذا عام ١٩٠٥ . فاذا الدودة تختفي * * . ولكن «قانون وحدة المدلول» الذي قال به بتسولدت لم يرض فيللي بالطبع ، اذ انه لم ير هنا غير «الصورية»

* «Vierteljahrsschrift für wissenschaftliche Philosophie» ، المجلد

٢٠ ، ١٨٩٦ ، ص ٧٢ .

* * «Gegen die Schulweisheit» ، R. Willy ، ١٩٠٥ ، ص ١٧٣ -

المنطقية». يقول المؤلف : ان مسألة العالم قبل الانسان ، المطروحة بطريقة بتسولدت ، تقودنا ، على الارجح ، «من جديد الى الاشياء-في-ذاتها لما يسمى الفكر السليم؟» (اي الى المادية ! فيا للهول بالفعل !). ماذا تعني ملايين السنين بدون حياة ؟ «أوليس الوقت نفسه ، يا ترى ، شيئاً-في-ذاته ؟ كلا ، طبعاً ! * وما دام الحال هكذا ، فان هذا يعني ان الاشياء خارج الانسان ليست غير تصورات ، اجزاء من خيال يتراءى للناس بواسطة بعض القطع التي نجدتها حولنا . ولماذا لا يكون الحال هكذا بالفعل ؟ وهل ينبغي للفيلسوف ، يا ترى ، ان يخشى سيول الحياة ؟ . . . اني اقول لنفسي : دع جانباً تفلسفات الانظمة واغتنم اللحظة (ergreife den Augenblick) ، تلك اللحظة التي تعيشها والتي هي وحدها تمنح السعادة» (١٧٧-١٧٨) .

هكذا اذن . هكذا اذن . إمّا المادية ، وإمّا السوليبسيسم . الى هذا خلص ر . فيللي ، رغم كل جملة الصياحة ، عند دراسة مسألة الطبيعة قبل الانسان .

الحاصل . تكلم امامنا ثلاثة من عرافي المذهب النقدي التجريبي بذلوا قصارى جهدهم للتوفيق بين فلسفتهم والعلوم الطبيعية ، لرفء فتق السوليبسيسم . وقد ردد افيناريوس حجة فيخته واستعاض عن العالم الفعلي بعالم متخيّل . وابتعد بتسولدت عن المثالية الفيختية واقترب من المثالية الكانطية . اما فيللي الذي مني بالفشل مع «الدودة» ، فقد تملكه اليأس وافشى الحقيقة عن غير قصد : إمّا المادية ، وإمّا السوليبسيسم او حتى عدم الاعتراف باي شيء ما عدا اللحظة الراهنة .

ولا يبقى لنا غير ان نبين للقارى كيف فهم الماخيون من ابناء بلدنا هذه المسألة وكيف عرضوها . اليكم بازاروف في «دراسات (في) فلسفة الماركسية» . ص ١١ :

* وسنتحدث عن هذا بصورة خاصة مع الماخيين فيما يلي من العرض .

«يبقى لنا الآن ان ننزل تحت قيادة vademecum * نا الامين» (والمقصود به بليخانوف) «الى آخر وارهب طبقة من طبقات جهنم السوليبسيسم ، الى تلك الطبقة التي تتهدد فيها كل مثالية ذاتية ، كما يؤكد بليخانوف ، ضرورة تصور العالم في الصور التي تصوّرتها الايكتيوسورات ** والاركيوبتيريكسات *** . «لننتقل بالفكر ، - يكتب هو ، بليخانوف ، - الى ذلك العهد الذي لم يكن يوجد فيه في الارض غير اجداد للانسان بعيدين جداً ، مثلاً ، الى العهد الثانوي . وهنا نتساءل : كيف كان آنذاك حال المكان والزمان والسببية ؟ باية صور ذاتية كانت آنذاك ؟ بالصور الذاتية للايكتيوسورات ؟ واي عقل فرض آنذاك قوانينه على الطبيعة ؟ عقل الاركيوبتيريكس ؟ عن هذه الاسئلة ، لا تستطيع فلسفة كانط ان تعطي جواباً . فيجب نبذها ، لأنه يستحيل التوفيق بينها وبين العلم المعاصر» (ل . فورباخ ، ص ١١٧) .

هنا يقطع بازاروف الاستشهاد من بليخانوف ، على وجه الضبط ، قبل جملة بالغة الاهمية ، كما سنرى الآن : «تقول المثالية : لا موضوع بدون ذات . ولكن تاريخ الارض يبين ان الموضوع قد وجد قبل ظهور الذات بزمن طويل ، اي قبل زمن طويل من ظهور العضويات التي تملك درجة ملحوظة من الوعي . . . ان تاريخ التطور يكشف صحة المادية» .

لنواصل الاستشهاد من بازاروف :

« . . . ولكن هل الشيء البليخانوفي في ذاته يعطي الجواب المنشود ؟ لننتذكر انه لا يمكننا ان نملك ، وفقاً لبليخانوف

* مرشد . الناشر .

** الايكتيوسور - ichthyosaurus - زحافة بحرية منقرضة .

المعرب .

*** الاركيوبتيريكس - archaeopteryx - طير من الازمان

الغابرة . المعرب .

ايضاً ، اية فكرة عن الاشياء كما هي في ذاتها ، وكل ما نعرفه هو مظاهرها ، ونتائج فعلها في اعضاء حواسنا . «وليس لها ، عدا هذا الفعل ، اي صورة» («ل . فورباخ» ، ص ١١٢) . اي من اعضاء الحواس كانت موجودة في عهد الايكتيوسورات ؟ طبعاً ، اعضاء حواس الايكتيوسورات والحيوانات المماثلة لها فقط . وكانت تصورات الايكتيوسورات فقط المظاهر الفعلية ، الواقعية للاشياء في ذاتها . ومن هنا ينجم انه ، وفقاً لبليخانوف ايضاً ، ينبغي للعالم الاحاثي ، اذا ما شاء ان يبقى في تربة «واقعية» ، ان يكتب تاريخ العهد الثانوي في الصور التي صورتها الايكتيوسورات . وهنا ، بالتالي ، لا خطوة الى الامام بالقياس الى السوليبسيسم» .

هذا هو النص الكامل (ونعتذر من القراء لطول الاستشهاد ، ولكنه لا يمكن غير ذلك) لمحاكمة ماخي يجدر تخليدها بوصفها نموذجاً رائعاً على التشوش .

فان بازاروف يتصور انه أخذ بليخانوف بكلامه . فاذا لم يكن للاشياء في ذاتها اية صورة عدا الفعل في اعضاء حواسنا ، فان هذا يعني انه لم يكن لها وجود في العهد الثانوي الا «كصورة» تخلقها اعضاء حواس الايكتيوسورات . وهذه محاكمة مادي ؟! اذا كانت «الصورة» نتيجة فعل «الاشياء في ذاتها» في اعضاء الحواس ، فانه ينجم من هنا ان الاشياء لا توجد بنحو مستقل عن اعضاء الحواس ايّاً كانت ؟؟

ولكن لنفترض ، وان لثانية ، ان بازاروف «لم يفهم» بالفعل كلمات بليخانوف (مهما كان هذا الافتراض مستحيلاً) ، وانها بدت له غير واضحة . فليكن كذلك . ومما نتساءل : أيقوم بازاروف ببهلوانات الفروسية ضد بليخانوف (الذي يرفع الماخيون انفسهم من شأنه ويجعلون منه الممثل الوحيد للمادية !) ام يقوم بتوضيح مسألة المادية ؟ فاذا كان بليخانوف يبدو لك غير واضح او متناقضاً ، وما الى ذلك فلماذا لم تأخذ ماديين آخرين ؟ ألا نك لا نعرفهم ؟ ولكن الجهل ليس حجة .

إذا كان بازاروف لا يعرف بالفعل ان المقدمة الاساسية للمادية هي الاعتراف بالعالم الخارجي ، الاعتراف بوجود الاشياء خارج ادراكنا وبصورة مستقلة عنه ، فاننا نواجه هنا بالفعل حالة بارزة من الجهل المطبق . واننا نذكر القارىء ببركلي الذي لام الماديين في عام ١٧١٠ على اعترافهم «بالمواضيع في حد ذاتها» الموجودة بصورة مستقلة عن ادراكنا والتي يعكسها هذا الادراك . وبقينا ان كل امرىء حرّ في الوقوف الى جانب بركلي او اي كان ضد الماديين ؛ فهذا امر لا جدال فيه ؛ ولكن لا جدال كذلك في ان التحدث عن الماديين وتشويهه او جهل المقدمة الاساسية للمادية **جمعا** ، انما يعنيان تشويش المسألة غاية التشويش . هل كان بليخانوف على حق حين قال انه لا موضوع بدون الذات بنظر المثالية ، وان الموضوع يوجد ، بنظر المادية ، بصورة مستقلة عن الذات ومعكوساً بقدر متفاوت من الصحة في ادراكه ؟ اذا كان هذا غير صحيح ، فانه كان يتعين على من يحترم الماركسية وان قليلا ان يبين غلطة بليخانوف هذه وان يأخذ بالحسبان في مسألة المادية والطبيعة قبل الانسان ، لا بليخانوف ، بل شخصاً ما آخر ، ماركس ، انجلس ، فورباخ . اما اذا كان هذا صحيحاً ، او اذا كنت ، على الاقل ، عاجزاً عن العثور على الغلطة هنا ، فان محاولتك لخلط الاوراق ، لتشويش ابسط تصور في رأس القارىء عن الفرق بين المادية والمثالية هي بذاءة ادبية .

اما اولئك الماركسيون الذين يهتمون بالمسألة بصرف النظر عن كل كلمة يقولها بليخانوف ، فاننا نسوق من اجلهم رأي ل . فورباخ الذي كان مادياً ، كما هو معروف (ولربما ليس لبازاروف ؟) ، والذي انتقل ماركس وانجلس بواسطته ، كما هو معروف ، من مثالية هيغل الى فلسفتها المادية . فقد كتب فورباخ في اعتراضه على هايم يقول : «ان الطبيعة التي ليست موضوع الانسان او الوعي هي ، بالطبع ، بالنسبة للفلسفة التأملية او ، على الاقل ، بالنسبة

للمثالية ، شيء كانطي في ذاته» (وسنتحدث فيما بعد بالتفصيل عن خلط ماخيينا بين الشيء الكانطي في ذاته والشيء المادي في ذاته) ، «تجريد بدون واقع ، ولكن الطبيعة بالضبط تتسبب للمثالية بالفشل . ان العلوم الطبيعية تقودنا بالضرورة ، في حالتها الراهنة على الاقل ، الى تلك النقطة التي لمّا تكن قد توفرت فيها الظروف لأجل الوجود البشري ، والتي لمّا تكن فيها الطبيعة اي الارض موضوعاً لعين الانسان ولوعيه ، والتي كانت فيها ، بالتالي ، كائناً غير بشري اطلاقاً (absolut unmenschliches Wesen) . قد تعترض المثالية على هذا قائلة : ولكن هذه الطبيعة هي طبيعة تتصورها انت (von dir gedachte) . طبعاً ، ولكنه لا ينجم من هذا ان هذه الطبيعة لم يكن لها وجود بالفعل في حقبة معينة من الزمن ، مثلما انه لا ينجم من كون سقراط وافلاطون غير موجودين بالنسبة لي اذا لم افكر فيهما ، ان سقراط وافلاطون لم يوجدوا في زمنهما في الواقع بدوني» * .

هكذا حاكم فورباخ بصدد المادية والمثالية من وجهة نظر الطبيعة قبل الانسان . وقد دحض فورباخ سفسطة افيناريوس («استحضار مراقب») دون علمه «بالوضعية الحديثة» ومع علمه جيداً بالسفسطات المثالية القديمة . والحال ان بازاروف لا يعطي البتة اي شيء ، عدا تكرار سفسطة المثاليين هذه : «لو كنت هناك (في الارض في العهد ما قبل الانسان) ، لكنت رأيت العالم بصورة ما» («دراسات في فلسفة الماركسية» ، ص ٢٩) . وبتعبير

* L. Feuerbach. Sämtliche Werke, herausg. von Bolin und Jodl, Band VII, Stuttgart, 1903, S. 510; او Karl Grün. «L. Feuerbach in seinem Briefwechsel und Nachlaß , sowie in seiner philosophischen Charakterentwicklung», I. Band, Lpz., 1874, SS. 423—435 . المؤلفات الكاملة . اصدار بولين ويودل ، المجلد ٧ ، شتوتغارت ، ١٩٠٣ ، ص ٥١٠ ؛ او كارل غرون «ل . فورباخ ، مراسلاته وتراثه الادبي ، وكذلك تحليل تطوره الفلسفي» . المجلد الاول ، ليبزيغ ، عام ١٨٧٤ ، ص ٤٢٣—٤٣٥ . (الناشر) .

آخر : اذا تقدمت بفرضية من الجلي انها سخيفة وتناقض العلوم الطبيعية (كأنما بوسع الانسان ان يكون مراقباً للعهد ما قبل الانسان) ، فاني اجعل فلسفتي منسجمة !
ولهذا يمكن الحكم على معرفة بازاروف للقضية او على اساليبه الادبية ، وهو الذي لم يتبس ببنت شفة عن «الصعوبة» التي كسر افيناريوس وبتسولدت وفيللي رؤوسهم عليها فضلا عن انه خلط كل شيء في كيس واحد ، وقدم للقارى تشوشاً ما بعده تشوش ، بحيث لم يبق اي فرق بين المادية والسوليبيسيسم ! فان المثالية معروضة على انها «الواقعية» بينما عزي الى المادية انكار وجود الاشياء خارج فعلها في اعضاء الحواس ! اجل ، اجل ، إما ان فورباخ لم يكن يعرف الفرق الاولي بين المادية والمثالية ، وإما ان بازاروف وشركاه صوروا الحقائق الاولية في الفلسفة بطريقة جديدة تماماً .

او اليكم ايضاً فالنتينوف . انظروا الى هذا الفيلسوف المعجب طبعاً ببازاروف : ١ - «ان بركلي هو مؤسس نظرية التضاييف الخاصة بالتواجد النسبي للذات وللموضوع» (١٤٨) . ولكن هذا ليس البتة مثالية بركلي ، ولا شيء من هذا القبيل ! هذا «تحليل عميق التفكير» ! ٢ - «ان المقدمات الاساسية للنظرية مصاغة عند افيناريوس في الشكل الاكثر واقعية ، خارج صور (!) تفسيرها (التفسير فقط !) المثالي العادي» (١٤٨) . ان التعمية ، كما يتضح ، تتصيد الرضع ! ٣ - «نظرة افيناريوس الى نقطة انطلاق المعرفة : ان كل فرد يجد نفسه في بيئة معينة ، اي ان الفرد والبيئة يُعطيان على انهما عضوا تنسيق واحد متصلان ولا تنفصم عراهما (!)» (١٤٨) . يا للروعة ! هذا ليس مثالية - فان فالنتينوف وبازاروف قد ارتفعا فوق المادية والمثالية ؛ هذا «الانفصامية» الموضوع عن الذات الاكثر «واقعية» . ٤ - «هل القول المعاكس صحيح ، وهو انه لا وجود لعضو مضاد لا يناسبه العضو المركزي - الفرد ؟ مفهوم (!) ، انه غير صحيح . . . في العهد الاقدم اخضرت الغابات . . . ولم يكن الانسان موجوداً»

(١٤٨) . اللانفصامية - تعني انه يمكن الفصم ! اولىس هذا «مفهوماً» ، يا ترى ؟ ٥ - «ومع ذلك ، تكون مسألة الموضوع في حد ذاته سخيفة من وجهة نظر نظرية المعرفة» (١٤٨) . وكيف لا ! عندما لم تكن ثمة عضويات حساسة ، كانت الاشياء مع ذلك «مركبات عناصر» متماثلة مع الاحساسات ! ٦ - «ان المدرسة الكمونية ، في شخص شوبرت-زولدرن وشوبته ، قد البست هذه (!) الافكار شكلا غير صالح فوجدت نفسها في مأزق السوليبسيسم» (١٤٩) . لا سوليبسيسم في «هذه الافكار» ، كما ان المذهب النقدي التجريبي ليس البتة ترديداً للنظرية الرجعية لانصار مذهب الكمونية الذين يكذبون حين يعربون عن عطفهم على افيناريوس !

هذه ليست فلسفة ، ايها السادة الماخيون ، بل رصف لكلمات لا رابط بينها .

٥ - هل يفكر الانسان بواسطة الدماغ ؟

يجيب بازاروف عن هذا السؤال بالايجاب بصورة جازمة تماماً . وقد كتب يقول : «اذا اضفي على موضوعه بليخانوف القائلة «ان الوعي هو الحالة الداخلية (؟ بازاروف) للمادة» شكل أنسب ، مثلاً ، كل عملية نفسية هي وظيفة عملية الدماغ» ، فلن يجادل ضدها لا ماخ ولا افيناريوس . . .» («دراسات «في» فلسفة الماركسية» ، ٢٩) .

بنظر الفأر ، ليس ثمة وحش اقوى من القطة ، وبنظر الماخيين الروس ، ليس ثمة مادي اقوى من بليخانوف . فهل طرح بليخانوف وحده بالفعل ، او هل كان بليخانوف هو اول من طرح تلك الموضوع المادية القائلة ان الادراك هو الحالة الداخلية للمادة ؟ واذا كانت صياغة المادية عند بليخانوف لم تعجب

بازاروف ، فلماذا كان ينبغي ان يؤخذ بليخانوف بالحسبان ، وليس انجلس ولا فورباخ ؟
لأن الماخيين يخافون من الاعتراف بالحقيقة . وهم يناضلون ضد المادية ، ويتظاهرون بانهم يناضلون ضد بليخانوف : وهذا اسلوب جبان ولا مبدئي .

ولكن لننتقل الى المذهب النقدي التجريبي . ان افيناريوس «لن يجادل» ضد ان الفكر هو وظيفة الدماغ . ان كلمات بازاروف هذه كذب سافر . فان افيناريوس لا **يجادل** ضد الموضوع المادية وحسب ، بل يبني كذلك «نظرية» كاملة لدحض هذه الموضوع على وجه الضبط . يقول افيناريوس في «المفهوم الانساني عن العالم» : «ان دماغنا ليس مسكناً ، مقعداً ، صانعاً ، ليس اداة او عضواً ، حاملاً او اساساً والنخ . للتفكير» (ص ٧٦ ، - يستشهد ماخ بتعاطف في مؤلفه «تحليل الاحساسات» ، ص ٣٢) . «ان التفكير ليس ساكناً او آمراً ، وليس نصفاً او جانباً ، والنخ . ، ولكنه ليس ايضاً نتاجاً وليس حتى وظيفة فيزيولوجية او حتى حالة على العموم للدماغ» (المرجع نفسه) . وليس باقل من الجزم يفصح افيناريوس عن رأيه في مؤلفه «الملاحظات» : ان «التصورات» ليست وظائف الدماغ (الفيزيولوجية ، النفسية ، النفسية الفيزيائية)» (الفقرة ١١٥ ، ص ٤١٩ من المقالة المذكورة) . ان الاحساسات ليست «وظائف الدماغ النفسية» (الفقرة ١١٦) .

اذن ، ليس الدماغ ، حسب افيناريوس ، عضو الفكر ، وليس الفكر وظيفة الدماغ . لناخذ انجلس ، فاذا بنا نرى في الحال صيغاً مادية على المكشوف ، ومضادة تماماً لهذا . فان انجلس يقول في مؤلفه «ضد دوهرينغ» : «ان التفكير والادراك هما نتاجا الدماغ البشري» (ص ٢٢ من الطبعة الالمانية الخامسة) (١٧) . والفكرة نفسها تتكرر مراراً عديدة في هذا المؤلف . وفي كتاب «لودفيغ فورباخ» ، نقرا العرض التالي لنظرات فورباخ ونظرات انجلس : «ان عالم الاشياء (stofflich) هذا الذي ندركه بالحواس والذي

ننتهي اليه نحن انفسنا هو العالم الوحيد الواقعي» ، «اما ادراكنا وتفكيرنا ، مهما يبدووا فائقي الاحساس ، فانهما نتاج (Erzeugnis) جهاز مادي جسمي هو الدماغ . ليست المادة نتاج الروح ، بل الروح نفسه ليس سوى اعلى نتاج للمادة . فهذه ، طبعاً ، مادية بحتة» (الطبعة الالمانية الرابعة ، ص ١٨) . او ص ٤ : انعكاس مجريات الطبيعة «في الدماغ المفكر» (١٨) ، والنخ . ، وهكذا دواليك .

ان وجهة النظر المادية هذه يرفضها افيناريوس الذي يسمي «تفكير الدماغ» بـ «فتشية * العلوم الطبيعية» («المفهوم الانساني عن العالم» ، الطبعة الالمانية الثانية ، ص ٧٠) . ومن هنا ينجم ان افيناريوس لا يعلل نفسه باقل وهم بصدد اختلافه التام في هذه النقطة مع العلوم الطبيعية . وهو يعترف ، - كما يعترف ماخ وجميع انصار مذهب الكمونية ، - بان العلوم الطبيعية تبني وجهة نظر مادية عفوية ، غير واعية . وهو يعترف ويعلن صراحة انه **يختلف بالتأكيد مع «علم النفس السائد»** («الملاحظات» ، ص ١٥٠ وكثير غيرها من الصفحات) . ان علم النفس السائد هذا يقوم بـ «حقن» - وهذه كلمة جديدة استنبطها فيلسوفنا بشسق النفس - غير جائز اي بادخال الفكر في الدماغ او الاحساسات فينا . ان «هاتين الكلمتين» (في نا = in uns) ، - كما يقول افيناريوس في المكان نفسه - ، تنطويان على تلك المقدمة (Annahme) التي يعارضها المذهب النقدي التجريبي . «ان هذا **الادخال (Hineinverlegung)** للمرئي والنخ . في الانسان هو ما نسميه **بالحقن**» * * (ص ١٥٣ ، الفقرة ٤٥) .

ان الحقن يتراجع «مبدئياً» عن «المفهوم الطبيعي عن العالم» (natürlicher Weltbegriff) قائلاً : «في» ، عوضاً عن ان يقول

* فتشية - fetichisme ، تيميسة اي عبادة الاشياء المسحورة او عبادة الاشياء المادية لذاتها . **المعرب** .
* * الحقن - introjection . **المعرب** .

«امامي» (vor mir ، ص ١٥٤) ، «جاعلاً من احدى مقومات البيئة (الواقعية) احدى مقومات التفكير (المثالي)» (المرجع نفسه) . «من اللاميكانيكي» amechanique (كلمة جديدة عوضاً عن : النفسي) «الذي يتكشف بطلاقة وجلاء في المعطى (او : الذي نجده im Vorgefundenen) ، يجعل الحقن شيئاً يتخفى سراً (latetant) ، - يقول افيناريوس «بطريقة جديدة» في الجهاز العصبي المركزي» (المرجع نفسه) .

امامنا **التعمية** ذاتها التي رأيناها في مثال الدفاع المزعوم عن «الواقعية الساذجة» من قبل انصار المذهب النقدي التجريبي وانصار مذهب الكمونية . ان افيناريوس يعمل بنصيحة المكار عند تورغينيف (١٩) : يجب الزعيق ، اكثر ما يكون ، ضد العيوب التي تدرك انها عيوبك . فان افيناريوس يحاول ان يتظاهر بانه يحارب المثالية : فمن الحقن ، كما يزعم ، يستخلصون عادة المثالية الفلسفية ، ويحولون العالم الخارجي الى احساس ، الى تصور ، وما الى ذلك . اما انا ، فاني ادافع عن «الواقعية الساذجة» ، عن كون كل المعطى ، اي «الانا» والبيئة على السواء ، حقيقة واقعة واحدة ، دون ان ادخل العالم الخارجي في دماغ الانسان .

ان السفسطائية هنا هي تماماً نفس السفسطائية التي رأيناها في مثال التنسيق الشهير . فان افيناريوس ، بصرفه انتباه القارىء بالتهجمات على المثالية ، يدافع فعلاً ، بكلمات مختلفة بعض الشيء ، عن المثالية ذاتها : ان الفكر ليس وظيفة الدماغ ، والدماغ ليس عضو الفكر ، والاحساسات ليست وظيفة الجهاز العصبي ؛ كلا ، ان الاحساسات انما هي «عناصر» نفسية فقط في حالة واحدة ، وفي حالة اخرى (رغم انها عناصر «متماثلة» ، ولكنها) فيزيائية . وبالتعابير المشوشة الجديدة ، والكلمات المزوقة الجديدة التي تعبر ، كما يزعم ، عن «نظرية» جديدة ، لم يفعل افيناريوس غير ان راوح في مكانه وعاد الى مقدمته المثالية الاساسية .

واذا كان ماخيونا الروس (مثلاً ، بوغدانوف) لم يلاحظوا

«التعمية» ورأوا دحض المثالية في الدفاع «الجديد» عنها ، فاننا نجد في تحليل المذهب النقدي التجريبي من قبل الفلاسفة-الاختصاصيين تقييماً سليماً لكنه افكار افيناريوس ، الذي يتكشف باستبعاد التعابير المزوقة .

في عام ١٩٠٣ ، كتب بوغدانوف (مقالة : «التفكير المتسلط» في مجموعة «من بسيكولوجيا المجتمع» ، ص ١١٩ وما يليها) يقول :

«لقد رسم ريخارد افيناريوس لوحة فلسفية في غاية التناسق والكمال عن تطور اثينية الروح والجسد . ان كنه «مذهبه عن الحقن» يتلخص فيما يلي» (نحن لا نرى مباشرة سوى الاجسام الفيزيائية ، مستخلصين من باب الافتراض فقط وجود الانفعالات عند الآخرين اي وجود النفسي عند انسان آخر) وتزداد الفرضية تعقداً بكون انفعالات الانسان الآخر توضع داخل جسمه ، وتدخل (تحقن) في عضويته . وهذه فرضية نافلة وحتى فرضية تولد طائفة من التناقضات . وان افيناريوس يشير بانتظام الى هذه التناقضات ، عارضاً سلسلة متتابعة من المراحل التاريخية في تطور الاثينية ثم في تطور المثالية الفلسفية ؛ - ولكنه لا داعي هنا يدعونا الى السير وراء افيناريوس «ان الحقن يبرز بمثابة تفسير لاثينية الروح والجسد» .

لقد علق بوغدانوف في صدارة الفلسفة الاستاذية ، اذ صدق ان «الحقن» موجه ضد المثالية . وصدق بوغدانوف على العمياء ذلك التقييم للحقن الذي اعطاه افيناريوس نفسه ، دون ان يلاحظ الابرة المصوبة ضد المادية . فان الحقن ينكر ان يكون الفكر وظيفة الدماغ ، وان تكون الاحساسات وظيفة الجهاز العصبي المركزي عند الانسان ، اي انه ينكر الحقيقة الاولى في الفيزيولوجيا ، وذلك لأجل تحطيم المادية . واذا «الاثينية» تُدحض بطريقة مثالية (رغم كل الغضب الذي يملأه الذي يتملك افيناريوس على المثالية) ، لأن الاحساس والفكر يصبحان بالتالي **الاولين** وليس الثانويين ، وليس نتاجاً للمادة . ان

افيناريوس لم يدحض الاثينية هنا الا بقدر ما «دحض» وجود الموضوع بدون الذات ، وجود المادة بدون الفكر ، وجود العالم الخارجي بصورة مستقلة عن احساساتنا ، اي انه «دحضها» بطريقة مثالية : ان افيناريوس قد احتاج الى الانكار السخيف لكون الصورة المرئية للشجرة هي وظيفة شبكية عيني واعصابي ودماعي ، لأجل دعم النظرية بشأن الصلة «التي لا تنفصم عراها» للتجربة «الكاملة» التي تحتوي «انا»نا والشجرة معاً ، اي البيئة .

ان مذهب الحقن هو تخصيص يمرر الهراء المثالي خلسة ، ويناقض العلوم الطبيعية التي تتبنى بثبات وجهة النظر القائلة ان الفكر هو وظيفة الدماغ ، وان الاحساسات اي صور العالم الخارجي توجد فينا ، كحاصل لتأثير الاشياء في اعضاء حواسنا . ان القضاء المادي على «اثينية الروح والجسد» (اي الاحادية المادية) يقوم في ان الروح لا يوجد بصورة مستقلة عن الجسد ، ان الروح هو الثانوي ، هو وظيفة الدماغ ، هو انعكاس العالم الخارجي . اما القضاء المثالي على «اثينية الروح والجسد» (اي الاحادية المثالية) فيقوم في ان الروح ليس وظيفة الجسد ، وان الروح هو بالتالي الاولي ، وان «البيئة» و«انا» لا يوجدان الا في الصلة التي لا انفصام لعراها بين «مركبات العناصر» ذاتها . وعدا هذين الاسلوبين ، المتضادين تماماً ، للقضاء على «اثينية الروح والجسد» ، لا يمكن ان يكون ثمة اسلوب ثالث ، اذا لم تؤخذ الاختيارية * بالحسبان اي التخصيص العشوائي بين المادية والمثالية . وهذا التخصيص عند افيناريوس هو الذي بدا لبوغدانوف وشركاه «الحقيقة خارج المادية والمثالية» .

ولكن الاختصاصيين-الفلاسفة ليسوا سذجاً وسريعي التصديق بقدر الماخيين الروس . صحيح ان كلا من هؤلاء السادة من الاساتذة رؤساء الكراسي يدافع عن منهج «هو» لدحض المادية او على الاقل «للتوفيق» بين المادية والمثالية ، - ولكنهم

حين يواجهون منافساً ، يفضحون بدون تكلف الاجزاء غير المترابطة من المادية والمثالية في شتى المناهج «الحديثة» و«الاصيلة» . واذا كان بعض المثقفين الشبان قد علقوا في صنارة افيناريوس ، فان الامر لم ينطل على المحنك فوننت . فان المثالي فوننت قد نزع القناع بجلافة عن وجه المتكلم افيناريوس **باطرائه على نزع مذهب الحقن المناوئة للمادية .**

فقد كتب فوننت يقول : «اذا كان المذهب النقدي التجريبي يلوم المادية المبتذلة على كونها تُعبّر ، - بواسطة تعابير من نوع : الدماغ «يملك» الفكر او «ينتج» التفكير - عن موقف لا تمكن ملاحظته عموماً بواسطة مراقبة الواقع ووصفه» (فان «الواقع» هو ، بنظر فوننت ، كما ينبغي الظن ، كون الانسان يفكر بدون مساعدة الدماغ !) ، « . . . فان هذا اللوم هو ، بالطبع ، وجيه» (المقالة المذكورة ، ص ٤٧-٤٨) .

وكيف لا ! فصد المادية سيسير المثاليون دائماً مع افيناريوس وماخ غير المنسجمين ! الا انه من المؤسف ، - كما يضيف فوننت ، - ان نظرية الحقن هذه «لا تمت باية صلة الى مذهب الصف الحياتي المستقل ، اذ انه من الجلي انها موصولة من الخارج بهذا المذهب بعد وقوع الامر فقط وبطريقة اصطناعية جداً (ص ٣٦٥) .

يقول او . ايفالد : ان الحقن «ليس اكثر من اختلاق للمذهب النقدي التجريبي ضروري له لستر اخطائه» (l.c. * ، ص ٤٤) . «نحن نلاحظ تناقضاً غريباً : من جهة ، من شأن القضاء على الحقن وبعث المفهوم الطبيعي عن العالم ان يعيدا للعالم طابعه كحقيقة واقعية حية ؛ ومن جهة اخرى ، يؤدي المذهب النقدي التجريبي ، بواسطة التنسيق المبدئي ، الى النظرية المثالية البحتة عن التناسب المطلق بين العضو المضاد والعضو المركزي . وعليه يلف افيناريوس ويدور في حلقة . فقد شن حملة على المثالية

والقى سلاحه امام المثالية عشية الاشتباك الحربي السافر معها .
فقد اراد تحرير عالم المواضيع من سلطة الذات ، - فربط هذا
العالم من جديد بالذات . وان ما يقضي عليه بالنقد فعلا ، انما
هو كاريكاتور عن المثالية ، وليس تعبيرها العرفاني الصحيح
فعلا» (I. c. ، ص ٦٤ - ٦٥) .

يقول نورمان سميث : «ان قول افيناريوس المأثور ،
المستشهد به احيانا كثيرة - وهو ان الدماغ ليس مقعداً للفكر ،
ولا عضواً له ، ولا حاملاً له ، - هو انكار لتلك التعابير الوحيدة
التي نملكها وحدها لأجل تحديد علاقة هذا وذاك» (المقالة
المذكورة ، ص ٣٠) .

ولا غرابة كذلك اذا كانت نظرية الحقن التي يجدها فوننت
تثير عطف الروحاني السافر جيمس ورد * الذي يشنها حرباً
دائبة على «الطبيعية واللاعرفانية» ، وخاصة على ت . هكسلي
(لا لأنه لم يكن مادياً على ما يكفي من الوضوح والعزم ، - الامر
الذي لامه انجلس عليه ، - بل) لأن المادية هي التي تسترت
من حيث جوهر الامر تحت لاعرفانيته .

ولنلاحظ ان الماخي الانجليزي ك . بيرسون الذي يتجاهل
الحيل الفلسفية اياً كانت ، والذي لا يعترف لا بالحقن ولا
بالتنسيق ولا «باكتشاف عناصر العالم» ، يحصل على نتيجة محتمة
من الماخية الخالية من مثل هذه «الاغطية» ، اي بالذات : المثالية
الذاتية الخالصة . ان بيرسون لا يعرف اية «عناصر» . فان
«الانطباعات الحسية» (sense-impressions) هي كلمته الاولى
والاخيرة . وهو لا يخامر ادنى شك في ان الانسان يفكر بواسطة
الدماغ . والتناقض بين هذه الموضوعات (المطابقة وحدها للعلم)
ونقطة انطلاق فلسفته بقي عارياً وفقاً العين . ان بيرسون يغضب
شديد الغضب ويزعق في حربه ضد مفهوم المادة بوصفها شيئاً

James Ward. «Naturalism and Agnosticism», 3rd ed.,—Lond., *

1906, vol. II, pp. 171, 172 («جيمس ورد . «الطبيعية واللاعرفانية» ،

الطبعة الثالثة . لندن ، عام ١٩٠٦ ، المجلد الثاني ، ص ١٧١-١٧٢ . الناشر) .

ما موجوداً بصورة مستقلة عن انطباعاتنا الحسية (الفصل السابع من مؤلفه «قواعد العلم»). ويردد بيرسون جميع حجج بركلي ، ويعلن ان المادة لاشيء . ولكن عندما يدور الكلام حول علاقة الفكر بالدماغ ، فان بيرسون يعلن قطعاً : «من الارادة والوعي المرتبطين بالآلية المادية لا يمكننا ان نخلص الى اي شيء كان يشبه الارادة والوعي بدون هذه الآلية» * . بل ان بيرسون يتقدم بالموضوعة التالية بوصفها حاصل القسم المعني من بحوثه : «ليس للادراك اي معنى فيما وراء حدود الجهاز العصبي المشابه لجهازنا ؛ ومن غير المنطقي القول ان المادة كلها مدركة» (ولكنه من المنطقي الافتراض أن المادة كلها تملك خاصية مشابهة من حيث الجوهر للاحساس ، خاصة العكس) ، «ومن غير المنطقي اكثر القول ان الوعي او الارادة يوجدان خارج المادة» (المرجع نفسه ، ص ٧٥ ، الموضوعة الثانية) . لقد خص بيرسون واي تخبيص ! المادة لا تعدو ان تكون مجموعات من انطباعات حسية ؛ هذه هي مقدمته ؛ هذه هي فلسفته . وهذا يعني ان الاحساس والفكر - الاولي ؛ المادة - الثانوي . كلا ، ان الوعي لا يوجد بدون المادة وحتى كأنما بدون الجهاز العصبي ! اي ان الوعي والاحساس هما الثانوي . الماء على الارض ، الارض على الحوت ، الحوت على الماء . ان «عناصر» ماخ ، وتنسيق افيناريوس وحقنه لا تقضي البتة على هذا التخبيص ، ولا تفعل غير ان تغمض المسألة ، وتمحو الآثار بواسطة رطانة علمية فلسفية .

وان التعابير الخاصة التي استنبطها افيناريوس هي رطانة من هذا الطراز نفسه يكفي التحدث عنها ببالح الايجاز ؛ فقد استنبط وفرة لا نهاية لها من مختلف الكلمات المبهمة من نوع «نوتال» (notal) و«سيكورال» (secural) ، و«فيدينسيال» (fidencial) وهكذا دواليك وهلم جراً . الا ان ماخينا الروس يتجنبون بحياء وخجل هذا الهراء الاستاذي بمعظمه ، ومن النادر

فقط يطلقون على القارىء (لاصعاقه) مصطلحاً ما مثل "existential" ما ، وما الى ذلك . ولكن اذا اعتبر السذج هذه الكلمات بيوميكانيكاً خاصاً ، فان الفلاسفة الالمان ، - وهم الذين يحبون الكلمات «العويصة» - ، يضحكون على افيناريوس . فسواء قلت : «نوتال» - "notal" - (=notus=معروف) ام قلت ان شيئاً ما معروف لي ، فلا فرق ، - هكذا يقول فوننت في فقرة عنوانها : «الطابع السكولاستي للمنهج النقدي التجريبي» . وبالفعل ، هذه سكولاستية خالصة تماماً ومطبقة . فان واحداً من اشد تلامذة افيناريوس اخلاصاً له ، وهو ر . فيللي ، قد تحلى بالشجاعة للاعتراف صراحة بهذا . فهو يقول : «لقد حلم افيناريوس بالبيوميكانيك ، ولكنه لا يمكن التوصل الى فهم حياة الدماغ الا بواسطة الاكتشافات الفعلية وليس البتة بذلك الاسلوب الذي حاول افيناريوس اللجوء اليه . ان بيوميكانيك افيناريوس لا يرتكز ابدأ على اية مراقبات جديدة ؛ وسمته المميزة هي الانشاءات التخطيطية الجامدة البحتة للمفاهيم ؛ علماً بانها انشاءات لا تتسم حتى بطابع فرضيات تفتح افقاً معيناً ، - فهي مجرد كليشيات تأمل (blosse Spekulierschablonen) تحجب عنا ، كالجدار ، منظر الابعاد» * .

ان الماخين الروس سيبدون بعد قليل اشبه بهواة الموضة الذين يعجبون بالقبعة التي ابلاها فلاسفة اوروبا البرجوازيون .

٦ - عن سوليبيسيسم ماخ وافيناريوس

لقد رأينا ان المثالية الذاتية هي نقطة الانطلاق والمقدمة الاساسية في فلسفة المذهب النقدي التجريبي . ان العالم هو احساسنا ، - تلك هي المقدمة الاساسية التي تمورها كلمة

* R. Willy. «Gegen die Schulweisheit» S. 169. يقينا ان المتحذلق

بتسولدت لن يدلي باعترافات كهذه . فهو يجتر بغرور التافه الضيق الافق سكولاستية افيناريوس «البيولوجية» (المجلد الاول ، الفصل الثاني) .

«عنصر» ونظريات «الصف المستقل» و«التنسيق» و«الحقن» ، ولكن لا غيرها البتة . ان سخافة هذه الفلسفة تتلخص في كونها تؤدي الى السوليبسيسم ، الى الاعتراف بوجود الفرد المتفلسف وحده دون غيره . ولكن ماخينا الروس يؤكدون للقارى ان «اتهام» ماخ «بالمثالية وحتى بالسوليبسيسم» هو «الذاتية المتطرفة» . هكذا يقول بوغدانوف في مقدمة «تحليل الاحساسات» ، ص XI ؛ وهذا ما تكررته كل الزمرة الماخية بكثرة كثيرة من الاشكال .

بعد ان عرفنا اية اغطية يلجأ اليها ماخ وافيناريوس لتغطية السوليبسيسم عندهما ، يجب الآن ان نضيف امراً آخر ، هو ان «الذاتية المتطرفة» للتأكيدات تخص كلياً بوغدانوف وشركاه ، لأن الكتاب من اكثر الاتجاهات تبايناً قد كشفوا من زمان في المطبوعات الفلسفية خطأ الماخية الاساسي تحت كل اغطيتها . لنكتف بمجرد **مجمّل** للآراء التي تبين بصورة كافية «ذاتية» عدم المعرفة عند ماخينا ، ولنلاحظ هنا ان الفلاسفة الاختصاصيين يتعاطفون جميعهم تقريباً مع المثالية بمختلف صورها : فان المثالية في نظرهم ليست البتة ملامة ، كما هي بالنسبة لنا نحن الماركسيين ، ولكنهم يقررون الاتجاه الفلسفي **الفعلي** لماخ حين يعارضون منهجاً من مناهج المثالية بمنهج آخر ، مثالي هو ايضاً ، منهج يبدو لهم اكثر انسجاماً وتماسكاً .

او . ايفالد في كتابه المكرس لتحليل مذهب افيناريوس : «مبدع المذهب النقدي التجريبي» يحكم على نفسه بالسوليبسيسم volens-nolens* (l.c.) ص ٦١-٦٢) .

هانس كلينبيتر ، تلميذ ماخ ، الذي يتحفظ بنحو خاص في مقدمة كتاب "Erkenntnis und Irrtum" بصدد تضامنه مع ماخ : «ان ماخ هو على وجه الضبط مثال على التساوق بين المثالية النظرية-العرفانية وبين مقتضيات العلوم الطبيعية» (كل شيء

نظرية المعرفة في المذهب النقدي التجريبي وفي العادية الديالكتيكية ١٠٣

«متساوق» بنظر الاختياريين!) ، «مثال على ان بوسع العلوم الطبيعية ان تنطلق جيداً من السوليبسيسم دون ان تتوقف عنده» ("Archiv für systematische Philosophie" (٢٠), Band VI, 1900, S. 87).

١ . لوكا في دراسته لمؤلف ماخ «تحليل الاحساسات» :
اذا وضعنا جانباً سوء الفهم (Mißverständnisse) فان «ماخ يقف في تربة المثالية الصرف» . «ليس من المفهوم كيف ينكر ماخ انه من اتباع بركلي . Band VIII, 1903, (٢١) "Kant studien" SS. 416,417)

ف . اورشليم - وهو كانطي مغرق في الرجعية يعرب ماخ عن تضامنه معه في المقدمة ذاتها («قراءة» في الافكار «اوثق» مما كان يظن ماخ من قبل : *S. X. Vorwort, 1906, "Erk.u.Irrt." - «ان الظاهرية * المنسجمة تؤدي الى السوليبسيسم» ، ولذا يجب اقتباس شيء ما والى حد ما من كانط ! (راجع : "Der kritische Idealismus und die reine Logik", 1905 S. 26***).

١ . هونيغسفالده : «... الخيار بالنسبة لانصار مذهب الكمونية ولانصار المذهب النقدي التجريبي : إما السوليبسيسم ، وإما الميتافيزياء بروح فيخته او شيلينغ او هيغل» ("Über die Lehre Hume's von der Realität der Außendings", 1904, S. 68****).

والعالم الفيزيائي الانجليزي اوليفر لودج في كتاب مكرس لتفريع المادي هيكل ، يتحدث عرضاً ، كأنما عن شيء معروف للجميع ، عن «انصار مذهب السوليبسيسم مثل بيرسون وماخ»

* ص X ، المقدمة . الناشر .

** الظاهرية - phénoménalisme ، مذهب الظواهر . المحرّب .

*** «المثالية النقدية والمنطق الخالص» ، ١٩٠٥ ، ص ٢٦ .

الناشر .

**** «مذهب هيوم بشأن واقعية العالم الخارجي» ، ١٩٠٤ ،

ص ٦٨ . الناشر .

(Sir Oliver Lodge. "La vie et la matière", P., 1907, p. 15*).

وفيما يتعلق بالماخي بيرسون ، اعربت صحيفة علماء الطبيعة الانجليز "Nature" («الطبيعة») (٢٢) ، بلسان عالم الهندسة ا . ت . ديكسون ، عن رأي واضح تماماً يجب سوقه ، لا لأنه كان جديداً ، بل لأن الماخيين الروس ظنوا بسذاجة ان تخبيص ماخ الفيلسفي هو «فلسفة العلوم الطبيعية» (بوغدانوف ، ص XII وغيرها من مقدمة «تحليل الاحساسات»).

فقد كتب ديكسون يقول : «ان اساس كل مؤلف بيرسون هو الموضوعة القائلة اننا ما دمنا لا نستطيع ان نعرف اي شيء معرفة تامة غير الانطباعات الحسية (sense-impressions) ، فان الاشياء التي نقول عنها عادة بانها اشياء موضوعية او خارجية ، لا تعدو ان تكون مجموعات من الانطباعات الحسية . ولكن البروفسور بيرسون يسلم بوجود ادراكات اخرى ، وهو لا يسلم بهذا الوجود ضمناً بكونه يخصص كتابه لها وحسب ، بل يسلم به ايضاً صراحة في كثير من الاماكن في كتابه» . وبموجب قياس التمثيل ، بمراقبة حركات اجساد اشخاص آخرين ، يخلص بيرسون الى القول بوجود ادراك آخر : فما دام الادراك الآخر واقعياً ، فان هذا يعني التسليم بوجود اناس آخرين ايضاً خارجاً عني ! «يقيناً انه لن يكون بوسعنا ان ندحض بهذه الطريقة مثالياً منسجماً يزعم ان الاشياء الخارجية ليست وحدها فقط ، بل الادراكات الاخرى ايضاً ، غير واقعية ، وانها لا توجد الا في خياله ؛ ولكن الاعتراف بواقعية الادراكات الاخرى يعني الاعتراف بواقعية الوسائل التي نخلص بها الى القول بوجود ادراك آخر ، اي . . . بوجود شكل خارجي للجسام البشرية» . والمخرج من المأزق هو الاعتراف «بالفرضية» القائلة ان انطباعاتنا الحسية تناسبها خارجاً عنّا حقيقة واقعية

* اوليفر لودج . «الحياة والمادة» ، باريس ، عام ١٩٠٧ ، ص ١٥ . الناشر .

نظرية المعرفة في المذهب النقدي التجريبي وفي المادية الديالكتيكية ١٠٥

موضوعية . ان هذه الفرضية تفسر بصورة مرضية انطباعاتنا الحسية . «انا لا استطيع ان ارتاب جدياً في ان البروفسور بيرسون نفسه يؤمن فيها مثله مثل غيره . ولكن اذا ما تعين عليه ان يعترف صراحة بذلك ، فانه سيضطر الى ان يكتب من جديد كل صفحة تقريباً من مؤلفه «قواعد العلم» * .

الهزء . بهذا يستقبل علماء الطبيعة المفكرون الفلاسفة المثالية التي تستثير اعجاب ماخ .

واليكم ، اخيراً ، رأي العالم الفيزيائي الالماني لودفيغ بولتسمان . ان الماخيين سيقولون ، اغلب الظن ، كما قال ف . ادلر ، ان هذا العالم فيزيائي من المدرسة القديمة . ولكن المقصود الآن ليس البتة نظريات الفيزياء ، بل المسألة الفلسفية الاساسية . ف ضد «المولعين بالعقائد العرفانية الجديدة» ، كتب بولتسمان يقول : «ان عدم الثقة بتصورات لا يمكننا ان نستخلصها الا من الانطباعات الحسية المباشرة ، قد ادى الى التطرف المعاكس مباشرة للايمان الساذج السابق . يقولون : لقد اُعطينا الانطباعات الحسية فقط ، وابتعد من ذلك لا يحق لنا ان نخطو اية خطوة . ولكن لو كان هؤلاء الناس منسجمين ، لتعين عليهم ان يطرحوا السؤال اللاحق : هل اُعطينا انطباعاتنا الحسية الماضية الخاصة بنا ؟ اننا لم نُعطَ مباشرة سوى انطباع حسي واحد او سوى فكرة واحدة ، - واعني بها على وجه الضبط الفكرة التي نفكر بها في اللحظة المعنية . وهذا يعني انه اذا كنت منسجماً ، تعين عليّ ، لا ان انكر وجود اناس آخرين عدا اناني بالذات وحسب ، بل ان انكر ايضاً وجود جميع التصورات في الماضي» ** .

* «Nature», 1892, July 21, p. 269.

** Ludwig Boltzmann. «Populäre Schriften», Lpz., 1905, S. 132.

قارن SS. 168, 177, 187 وغيرها . (لودفيغ بولتسمان . «مقالات مبسطة» ليبزيغ ، عام ١٩٠٥ ، ص ١٢٢ . قارن ص ١٦٨ ، ١٧٧ ، ١٨٧ ، وغيرها . الناشر) .

ان هذا العالم الفيزيائي يستخف بكامل الحق والصواب
بوجهة نظر ماخ وشركاه التي يُزعم انها «جديدة» ، «ظاهرية» ،
لاعتباره اياها سخافة قديمة من سخافات المثالية الذاتية
الفلسفية .

كلا . ان اولئك الذين «لم يروا» ان السوليبسيسم هو
غلطة ماخ الاساسية مصابون بالعمى «الذاتي» .

الفصل الثاني

نظرية المعرفة في المذهب النقدي التجريبي وفي المادية الديالكتيكية . - ٢

١ - «الشيء في ذاته»

او ف . تشيرنوف يدحض ف . انجلس

لقد كتب ماخيونا عن «الشيء في ذاته» الكثير الكثير بحيث لو جمعنا كل ما كتبوه لكان الحاصل اكواماً وتلالاً من الورق المطبوع . ان «الشيء في ذاته» انما هو *bête noire* * حقيقي بالنسبة لبوغدانوف وفالنتينوف وبازاروف وتشيرنوف وبرمان ويوشكيفيتش . فليست ثمة كلمات «قوية» لم يطلقوها بحقه ، وليست ثمة تهكمات لم ينهالوا بها عليه . ومن يحاربون بسبب هذا «الشيء في ذاته» النحس ؟ هنا يبدأ انقسام فلاسفة الماخية القائمة في روسيا الى احزاب سياسية . فان جميع الماخيين الذين يرغبون في ان يكونوا ماركسيين يحاربون ضد «الشيء في ذاته» **البليخانوفي** ، متهمين بليخانوف بانه ضل السبيل وانحرف الى الكانطية ، وبانه تراجع عن انجلس . (سنتحدث عن التهمة الاولى في الفصل الرابع ، وسنتحدث هنا عن التهمة الثانية) . ان الماخي السيد ف . تشيرنوف ، الشعبي ، العدو اللدود للماركسية ، يحمل صراحة **على انجلس ذوداً عن «الشيء في ذاته»** .

من العار ان نعترف ، ولكنه من الاثم ان نخفي ان العداوة السافرة للماركسية قد جعلت هذه المرة من السيد فكتور تشيرنوف خصماً ادبياً اكثر مبدئية من رفاقنا في الحزب ومناظرينا في الفلسفة (٢٣) . **لأن الضمير غير الشريف** (او لربما ايضاً بالاضافة

* حرفياً : الوحش الاسود . الفزاعة . موضع الحق والكراهة .

عدم الاطلاع على المادية ؟) هما وحدهما اللذان حملا الماخيين الذين يرغبون في ان يكونوا ماركسيين على ان يتركوا جانباً انجلس بطريقة ديبلوماسية ، ويتجاهلوا فورباخ كلياً ، ويرأوحوا في مكانهم بوجه الحصر حول بليخانوف . وهذا على وجه الضبط مراوحة ، وعراك ممل وحقير ، ومماحكة لتلميذ انجلس ، مع التهرب من تحليل نظرات المعلم تحليلاً صريحاً . وبما ان مهمة هذه الملاحظات العاجلة تبيان رجعية الماخية وصحة مادية ماركس وانجلس ، فاننا سنترك جانباً ضوضاء الماخيين الذين يرغبون في ان يكونوا ماركسيين ، وجلبتهم مع بليخانوف ، ونعود رأساً الى انجلس الذي يدحضه الناقد التجريبي السيد ف . تشيرنوف . ففي مؤلفه «دراسات فلسفية وسوسيولوجية» (موسكو ، عام ١٩٠٧ ، - مجموعة مقالات كتبت جميعها ، باستثناء عدد قليل منها ، قبل عام ١٩٠٠) ، تبدأ مقالة «الماركسية والفلسفة المتعالية» مباشرة بمحاولة معارضة ماركس بانجلس ، وبتهام انجلس «بالمادية العقائدية الجامدة الساذجة» ، «بالجمود العقائدي المادي الفائق الخشونة» . (ص ٢٩ و ٣٢) . ويعلن السيد ف . تشيرنوف ان محاكمة انجلس ضد الشيء في ذاته عند كانط وضد خط هيوم الفلسفي مثال «كاف» . وبهذه المحاكمة نبدأ نحن ايضاً .

يعلن انجلس في مؤلفه «لودفيغ فورباخ» ان المادية والمثالية هما الاتجاهان الفلسفيان الاساسيان . المادية تعتبر ان الطبيعة هي الاولى والروح هو الثانوي ، وتضع في المرتبة الاولى الوجود ، وفي المرتبة الثانية التفكير . اما المثالية فتفعل العكس . وهذا الفرق الجذري بين «المعسكرين الكبيرين» اللذين ينقسم اليهما فلاسفة «مختلف مدارس» المثالية والمادية ، انما يضعه انجلس في رأس الزاوية متهماً صراحة «بالتشوش» اولئك الذين يستعملون تعبيرى المثالية والمادية بمعنى آخر .

يقول انجلس ان «اعلى مسألة في الفلسفة بكاملها» ، «المسألة الاساسية الكبرى في كل فلسفة ولا سيما في الفلسفة الحديثة» هي «مسألة علاقة الفكر بالوجود ، علاقة الروح بالطبيعة» . وبعد ان

نظرية المعرفة في المذهب النقدي التجريبي وفي المادية الديالكتيكية ١٠٩

قسم انجلس الفلاسفة الى «معسكرين كبيرين» في هذه المسألة الاساسية ، اشار الى انه يوجد «مظهر آخر» للمسألة الفلسفية الاساسية ، عنيت بها : «ما هي العلاقة بين افكارنا عن العالم المحيط بنا ، وهذا العالم نفسه ؟ وهل نستطيع فكرنا ان يعرف العالم الواقعي وهل نستطيع في تصوراتنا ومفاهيمنا عن العالم الواقعي ان نكون انعكاساً صادقاً عن الواقع ؟» * .

«ان اكثرية الفلاسفة الكبرى قد اجابوا عن هذه المسألة بالايجاب» . هكذا يقول انجلس ، مصنفاً في عدادهم ، لا جميع الماديين وحسب ، بل ايضاً المثاليين الاشد انسجاماً ، وبينهم ، مثلاً ، المثالي المطلق هيغل الذي اعتبر العالم الواقعي تحقيقاً «للفكرة المطلقة» التي وجدت في مكان ما منذ الازل ، علماً بان الروح البشري ، اذا ما عرف العالم الواقعي معرفة صحيحة ، عرف بالتالي فيه ومن خلاله «الفكرة المطلقة» .

«ولكن هناك ، الى جانب ذلك» (اي الى جانب الماديين والى جانب المثاليين المنسجمين) «عددًا من الفلاسفة الآخرين ممن يشكون في امكانية معرفة العالم او ، على الاقل ، معرفته الكاملة . وفي عداد هؤلاء ، نجد بين الفلاسفة الحديثين هيوم وكانط اللذين قاما بدور على جانب كبير من الاهمية في تطوير الفلسفة . . .» (٢٤) .

وبعد ان يورد السيد ف . تشيرنوف كلمات انجلس هذه ، يندفع الى المعركة ويبيدي الملاحظة التالية على كلمة «كانط» :

«في عام ١٨٨٨ كان من الغريب نوعاً ان ينعت «بالحديثين» فلاسفة مثل كانط ، ومثل هيوم على الاخص . ففي ذلك الوقت ، كان

* فريدريك انجلس . «لودفيغ فورباخ» والنخ . الطبعة الالمانية الرابعة . ص ١٥ . الترجمة الروسية ، طبعة جينيف . عام ١٩٠٥ . ص ١٢-١٣ . يترجم السيد ف . تشيرنوف Spiegelbild - «انعكاس المرأة» - متهماً بليخانوف بانه يقدم نظرية انجلس «بشكل اضعف بكثير مما هي عليه» : اذ انه يقول بالروسية «الانعكاس» فقط وليس «انعكاس المرأة» . هذه مباحكة ؛ فان Spiegelbild تستعمل بالالمانية بمعنى Abbild ايضاً (انعكاس ، صورة . الناشر) .

من الطبيعي اكثر سماع اسماء كوهن ، لانغسه ، ريل ، لاس ، ليبمان ، هيرينغ ، ومن اليهم ، ولكن انجلس ، على ما يبدو ، لم يكن قويا في الفلسفة «الحديثة» (ص ٣٣ ، الملاحظة رقم ٢) .
 ان السيد ف . تشيرنوف وفي نفسه . ففي المسائل الاقتصادية والمسائل الفلسفية على السواء يشبه بالقدر نفسه فوروشيلوف (٢٥) ، بطل رواية تورغينيف ، الذي يقضي تارة على الجاهل كاوتسكي * وطوراً على الجاهل انجلس بمجرد الاستشهاد باسماء «علماء» ! ولكن المصيبة ان ذوي المكانة الذين ذكرهم السيد تشيرنوف انما هم اولئك الكانطيون الجدد الذين يقول عنهم انجلس في الصفحة ذاتها من مؤلفه «لودفيغ فورباخ» انهم رجعيون نظريون يحاولون احياء جثة تعاليم كانط وهيوم المدحوضة من زمان . ان السيد تشيرنوف الشجاع لم يفهم ان انجلس يدحض بالضبط بمحاكمته البروفسورات المشوشين ذوي المكانة (بنظر الماخية) !
 وبعد ان يشير انجلس الى ان هيغل قد اورد الحجج «الحاسمة» ضد هيوم وكانط وان فورباخ اكمل هذه الحجج باعتبارات ظريفة اكثر مما هي عميقة ، يتابع قائلاً :

«ان اعظم دحض حاسم لهذه الشعوذات الفلسفية ولجميع الشعوذات الاخرى (او الاختلاقات ، Schrullen) هو التطبيق وعلى الاخص التجربة والصناعة . فاذا استطعنا ان نبرهن على صحة فهمنا لظاهرة طبيعية معينة بخلق هذه الظاهرة بانفسنا ، باستحصالتها من شروطها ، وباستخدامها ، فوق ذلك ، في سبيل اغراضنا ، فبذلك تحل نهاية مقولة كانط بشأن «الشيء في ذاته» الذي لا يمكن ادراكه» (او الذي لا يمكن استيعابه unfassbaren) وهذه الكلمة الهامة لم ترد لا في ترجمة بليخانوف ولا في ترجمة السيد ف . تشيرنوف) . «فان المواد الكيماوية المتكونة في الاجسام النباتية والحيوانية ظلت مثل هذه «الاشياء في ذاتها» الى ان اخذت

* ف . ايلين . «المسألة الزراعية» ، القسم الاول ، سانت بطرسبورغ . عام ١٩٠٨ ، ص ١٩٥ (راجع : لينين ، المؤلفات الكاملة ، المجلد ٥ ، ص ١٤٧ . الناشر) .

الكيمياء العضوية بتحضيرها الواحدة بعد الاخرى ، وبذلك اصبح «الشيء-في-ذاته» «شيئاً من اجلنا» ، كالايزارين ، مثلاً ، وهي المادة الصباغية في نبات الفوة ، التي لم نعد نحصل عليها من جذور الفوة المزروعة في الحقول ، بل نحصل عليها بثمان ارخص وبصورة ايسر جداً من قطران الفحم الحجري» (ص ١٦ من المؤلف المذكور) (٢٦) .

واذ يورد السيد ف . تشيرنوف هذه المحاكمة ، يثور ثأره ، ويقضي كلياً على المسكين انجلس . اسمع : «اما انه يمكن الحصول على الاليزارين من قطران الفحم الحجري «بثمان ارخص وبصورة ايسر» ، فان هذا لن يدهش ، بالطبع ، اي كانطي جديد ، ولكن ، اما انه يمكن استخلاص دحض «الشيء في ذاته» ، فضلاً عن الاليزارين ، من القطران نفسه وبالثمن الرخيص نفسه ، فان هذا سيبدو بالطبع ، - وليس للكانطيين الجدد وحدهم ، - اكتشافاً رائعاً ولم يسبق له مثيل» .

«ان انجلس ، على ما يبدو ، اذ علم ان «الشيء في ذاته» لا تمكن معرفته ، حسبما يقول كانط ، قلب هذه النظرية الى نظرية معاكسة وقرر ان كل ما لم تتم معرفته بعد هو الشيء في ذاته . . .» (ص ٣٣) .

اسمع ، ايها السيد الماخي : اكذب ، ولكن اعرف حدك ! فانك هنا بالذات ، امام انظار الجمهور ، تشوه ذلك المقطع بالذات الذي تقتبسه من انجلس والذي تريد انت ان «تحطمه» ، دون ان تفهم حتى عما يدور الحديث هنا !

اولاً ، ليس من الصحيح ان انجلس «يستخلص دحض الشيء في ذاته» . فان انجلس قد قال بصراحة ووضوح انه يدحض مقولة كانط بشأن الشيء في ذاته الذي لا يمكن ادراكه (او معرفته) . ان السيد تشيرنوف يشوش نظرة انجلس المادية الى وجود الاشياء بصورة مستقلة عن وعينا . ثانياً ، اذا كانت نظرية كانط تقول ان الشيء في ذاته لا تمكن معرفته ، فان النظرية «المعاكسة» ستكون التالية : ان ما لا تمكن معرفته هو الشيء في ذاته ؛ فاحل السيد

تشيرنوف ما لم تتم معرفته بعد محل ما لا تمكن معرفته ، دون ان يفهم انه بذلك شوش من جديد نظرة انجلس العادية وحرّف معناها !

ان السيد ف . تشيرنوف قد ضلله اولئك الرجعيون في الفلسفة الرسمية الذين اتخذهم مرشدين له ، وضللوه الى حد انه طفق يضج ويزعق ضد انجلس ، دون ان يفهم اي شيء في المثال المذكور . لنحاول ان نفسر لممثل الماخية ما هو المقصود هنا .

ان انجلس يقول بصراحة ووضوح انه يعترض على هيوم وكانط معاً . ولكنه لا توجد عند هيوم اية «اشياء في ذاتها لا تمكن معرفتها» . فما هو المشترك اذن بين هذين الفيلسوفين ؟ هو انهما **يفصلان مبدئياً** «الظواهر» عمّا يظهر ، الاحساس عن المحسوس ، الشيء من اجلنا عن «الشيء في ذاته» ، علماً بان هيوم يتجاهل كلياً «الشيء في ذاته» ، وهو يعتبر مجرد الفكرة عنه امراً غير جائز فلسفياً ، ويعتبرها من «الميتافيزياء» (كما يقول الهيوميون والكانطيون) ؛ اما كانط ، فانه يسلم بوجود «الشيء في ذاته» ، ولكنه يقول عنه «انه لا تمكن معرفته» وانه يختلف مبدئياً عن الظاهرة ، ويعود الى ميدان مختلف مبدئياً ، الى ميدان «الغيبي» (Jenseits) * المستحيل على المعرفة ، ولكن المفتوح امام الايمان . فيم يكمن كنه اعتراض انجلس ؟ في الامس لم نكن نعرف ان الاليزارين موجود في قطران الفحم الحجري . اما اليوم ، فقد عرفنا هذا (٢٧) . وهنا نتساءل : هل كان الاليزارين موجوداً في الامس في قطران الفحم الحجري ؟

اجل ، بالطبع . ومن شأن كل شك في هذا المجال ان يكون بمثابة تهكم على العلوم الطبيعية المعاصرة .
واذا كان اجل ، فانه تنبع من هنا ثلاثة استنتاجات عرفانية هامة :

١ - توجد الاشياء بصورة مستقلة عن وعينا ، بصورة مستقلة عن احساسنا ، خارجاً عنّا ، لأنه لا ريب في ان الاليزارين كان

* Jenseits - الغيبي . الجانب الآخر ، العالم الآخر . **العرب** .

نظرية المعرفة في المذهب النقدي التجريبي وفي المادية الديالكتيكية ١١٣

موجوداً في الأمس في قطران الفحم الحجري ، كما انه لا ريب في اننا لم نكن نعرف اي شيء في الأمس عن هذا الوجود ، ولم نكن نحصل على اية احساسات من هذا الاليزارين .

٢ - لا يوجد ولا يمكن ان يوجد قطعاً اي فرق مبدئي بين الظاهرة والشيء في ذاته . ان الفرق يقوم ببساطة بين ما صار معروفاً وبين ما لم تتم معرفته بعد ؛ اما الاختلاقات الفلسفية فيما يتعلق بالحدود الخاصة بين هذا وذاك ، فيما يتعلق بكون الشيء في ذاته موجوداً «في الجانب الآخر» من الظواهر (كانط) ، او فيما يتعلق بانه يمكن ويجب عزل النفس بحاجز فلسفي ما عن مسألة العالم الذي لم نعرفه بعد في هذا القسم منه او ذاك ، ولكن الموجود خارجاً عنا (هيوم) ، - فان كل هذا كلام فارغ ، Schrulle ، شعوذة ، تلفيق .

٣ - في نظرية المعرفة ، كما في جميع ميادين العلم الاخرى ، تجب المحاكمة بطريقة ديالكتيكية . وهذا يعني انه يجب علينا ، لا ان نفترض معرفتنا ناجزة وثابتة لا تتغير ، بل ان نحلل ونبحث باي طريقة تظهر المعرفة من اللامعرفة ، باي طريقة تصبح المعرفة غير الكاملة ، غير الدقيقة اكمل وادق .

وما دمتم قد اخذتم بوجهة نظر تطور المعرفة البشرية من اللامعرفة ، فانكم ترون ان ملايين الامثلة ، البسيطة كمثال اكتشاف الاليزارين في قطران الفحم الحجري ، وملايين المراقبات ، لا من تاريخ العلم والتكنيك وحسب ، بل ايضاً من الحياة اليومية لكل فرد وللجميع ، تبين للمرء تحول «الاشياء في ذاتها» الى «اشياء من اجلنا» ، وانبثاق «الظواهرات» ، عندما تشعر اعضاء حواسنا بدفعة من الخارج من هذه او تلك من الاشياء ، - وزوال «الظواهرات» ، عندما تقضي هذه العقبة او تلك على امكانية تأثير الشيء الموجود بصورة بيّنة بالنسبة لنا على اعضاء حواسنا . وان الاستنتاج الوحيد والمحتم من هذا ، - الاستنتاج الذي يستخلصه جميع الناس في الممارسة البشرية الحية والذي تضعه المادية عن وعي في اساس عرفانها ، - هو انه توجد اشياء ، مواد ، اجسام خارجاً عنا ،

وبصورة مستقلة عنّا ، وان احساساتنا هي صور العالم الخارجي .
 اما نظرية ماخ المعاكسة (الاجسام هي مركبات احساسات) ، فهي
 هراء مثالي حقير . ولكن السيد تشيرنوف كشف مرة اخرى ،
 «بتحليله» لانجلس ، صفاته الفوروشيلوفية : فان المثال البسيط
 الذي ساقه انجلس بدا له «غريباً وساذجاً» ! وهو لا يرى الفلسفة
 الا في الاختلاقات المتحدقة ، ولا يعرف كيف يميز بين الاختيارية
 الاستاذية وبين النظرية المادية المنسجمة عن المعرفة .

وليس من الممكن ، كما ليس ثمة داع لتحليل جميع محاكمات
 السيد تشيرنوف اللاحقة ؛ فهي ايضاً من الهراء المتحدلق (كالزعم ،
 مثلاً ، ان الذرة هي شيء في ذاته بنظر الماديين !) . ولكننا نشير
 فقط الى رأي عن ماركس يتعلق بموضوعنا (وضلل بعضهم ، على
 ما يبدو) ويزعم ان ماركس يختلف عن انجلس . والمقصود هنا
 موضوع ماركس الثانية عن فورباخ وترجمة بليخانوف لكلمة
 • Diessseitigkeit .

واليكم هذه الموضوع الثانية :

«ان مسألة ما اذا كان التفكير الانساني يتسم بحقيقة موضوعية
 ليست مطلقاً قضية نظرية ، انما هي قضية عملية . ففي النشاط
 العملي ينبغي على الانسان ان يثبت حقيقة تفكيره ، اي واقعيته
 وقوته ووجوده في هذا الجانب (Diessseitigkeit) ، كونه ليس من
 الغيبيات . **المعرب**) . والنقاش حول واقعية او عدم واقعية التفكير
 المنعزل عن النشاط العملي انما هو قضية سكولاستية بحتة» (٢٨) .
 وعند بليخانوف ، يرد عوضاً عن «يثبت وجود التفكير في هذا
 الجانب» (الترجمة الحرفية) : يثبت ان التفكير «لا يتوقف في هذا
 الجانب من الظواهر» . واذا السيد ف . تشيرنوف يصرخ : «لقد
 ازيل التناقض بين انجلس وماركس بخارق البساطة» ، «ينجم
 كأن ماركس ، مثل انجلس ، قد قال بإمكانية معرفة الاشياء في ذاتها

نظرية المعرفة في المذهب النقدي التجريبي وفي المادية الديالكتيكية ١١٥

وبكون التفكير عائداً الى الغيبيات» (المؤلف المذكور . ص ٣٤ ،
الملاحظة) .
ها هو ذا فوروشيلوف الذي يكوم بكل جملة تلالاً من
التشويش ! فمن الجهل ، ايها السيد فكتور تشيرنوف ، ان لا يعرف
المرء ان جميع الماديين يقولون بإمكان معرفة الاشياء في ذاتها . ومن
الجهل ، ايها السيد فكتور تشيرنوف ، او من التهاون الذي لا حد
له ، اذا كنت تقفز من فوق الجملة **الاولى بالذات** من الموضوع ،
دون ان تعباً بان «الحقيقة الموضوعية» (gegenständliche Wahrheit)
للتفكير لا تعني **غير وجود** المواضيع (=«الاشياء في ذاتها») ، التي
يعكسها التفكير بصورة **حقيقية** . ومن الجهل ، ايها السيد فكتور
تشيرنوف ، ان تزعم انه «ينجم» من التحوير البليخانوفي (فقد اعطى
بليخانوف تحويراً وليس ترجمة) ان ماركس دافع عن كون التفكير
يعود الى الغيبيات . لأن الهيوميين والكانطيين وحدهم يوقفون
التفكير البشري «في هذا الجانب من الظواهر» . اما جميع الماديين ،
بمن فيهم ماديو القرن السابع عشر الذين يببدهم الاسقف بركلي
(راجع «المقدمة») فان «الظواهر» هي ، بنظرهم ، «اشياء من اجلنا»
او نسخ عن «المواضيع في حد ذاتها» . يقيناً ان تحوير بليخانوف
الحر ليس الزامياً بالنسبة لاولئك الذين يريدون ان يعرفوا ماركس
نفسه ، ولكنه من الالزامي امعان الفكر في محاكمة ماركس ، وليس
القفز والنط على طريقة فوروشيلوف .
ومن الطريف والمفيد الاشارة الى انه اذا كنا نجد عند من
يسمون انفسهم بالاشتراكيين عدم الرغبة او عدم القدرة على امعان
الفكر في «موضوعات» ماركس ، فان الكتاب البرجوازيين ،
الاختصاصيين في الفلسفة ، يبرهنون احياناً عن مزيد من حسن
الذمة . وانا اعرف كاتباً من هذا النوع ، كان يدرس فلسفة فورباخ
ويحلل ، بالارتباط معها ، «موضوعات» ماركس . هذا الكاتب هو
البر ليفي ، الذي خصص الفصل الثالث من القسم الثاني من كتابه

عن فورباخ لدراسة تأثير فورباخ في ماركس * . ودون ان اتناول ما اذا كان ليفي يفسر فورباخ بصورة صحيحة في كل مكان ام لا ، وكيف ينتقد ماركس من وجهة النظر البرجوازية العادية ، اكتفي بايراد تقييم البر ليفي للمضمون الفلسفي «لموضوعات» ماركس الشهيرة . ففيما يتعلق بالموضوعة الاولى ، يقول البر ليفي : «يعترف ماركس ، من جهة ، مع المادية السابقة كلها ومع فورباخ ، بان تصوراتنا عن الاشياء تتطابق مع المواضيع الفعلية والمنفردة (المتميزة ، distincts) القائمة خارجاً عنا . . .» .

لقد اتضح دفعة واحدة لالبر ليفي ، كما يرى القارى ، الموقف الاساسي الذي لا تقفه المادية الماركسية فقط ، بل تقفه كذلك كل مادية ، المادية «السابقة كلها» ، وهو الاعتراف بالمواضيع الفعلية خارجاً عنا ، هذه المواضيع التي «تتطابق» تصوراتنا معها . هذه الالفباء التي تتعلق بالمادية كلها على العموم ، لا يجهلها غير الماخيين في روسيا . ويتابع ليفي قائلاً :

« . . . من جهة اخرى ، يعرب ماركس عن الأسف لكون المادية قد اتاحت للمثالية الانصراف الى تقييم اهمية القوى النشيطة» (اي النشاط العملي البشري) . «هذه القوى النشيطة انما يجب انتزاعها من المثالية ، كما يعتقد ماركس ، لأجل ادخالها ايضاً في النظام المادي ؛ ولكنه ينبغي ، بالطبع ، صبح هذه القوى بذلك الطابع الفعلي والحسي الذي لم يكن بوسع المثالية ان تعترف لها به . وهكذا ، تكون فكرة ماركس التالية : كما ان المواضيع الفعلية القائمة خارجاً عنا تتطابق مع تصوراتنا ، كذلك يتطابق النشاط العملي الجاري خارجاً عنا ، نشاط الاشياء ، مع نشاطنا الظاهري ؛

* Albert Lévy. «La philosophie de Feuerbach et son influence sur la littérature allemande», Paris, 1904 وتاثيرها في الادب الالمانى» . باريس . عام ١٩٠٤ - الناشر) . ص ٢٤٩-٣٣٨ - تاثير فورباخ في ماركس ؛ ص ٢٩٠-٢٩٨ - تحليل «الموضوعات» .

نظرية المعرفة في المذهب النقدي التجريبي وفي المادية الديالكتيكية ١١٧

وبهذا المعنى ، تشترك البشرية في المطلق لا بواسطة المعرفة النظرية وحسب ، بل أيضاً بواسطة النشاط العملي ؛ وعليه يكتسب النشاط البشري كله تلك الكرامة ، تلك العظمة التي تتيح له ان يواكب النظرية : فمن الآن وصاعداً يكتسب النشاط الثوري اهمية ميتافيزيائية»

البر ليفي ، بروفيسور . والحال ان البروفيسور الموقر لا يسعه الاّ ينعت الماديين بالميتافيزيائيين . وكل مادية هي «ميتافيزياء» بنظر البروفيسورات المثاليين والهيوميين والكانطيين ، لان المادية ترى وراء | Phénomène (الظاهرة ، الشيء من اجلنا) شيئاً واقعياً خارجاً عنا ؛ ولهذا كان البر ليفي على حق من حيث الجوهر حين يقول ان «نشاط الاشياء» يتطابق ، بنظر ماركس ، مع «نشاط» البشرية «الظاهري» ، اي ان نشاط البشرية العملي لا يتسم بمدلول ظاهري (بمعنى الكلمة الهيومي والكانطي) وحسب ، بل ايضاً بمدلول موضوعي فعلي . ان لمعيار النشاط العملي ، كما سنبين بالتفصيل في المكان المعني (الفقرة ٦) مدلولاً عند ماركس يختلف تماماً عنه عند ماركس . ان القول : «تشترك البشرية في المطلق» ، انما يعني ان معرفة الانسان تعكس الحقيقة المطلقة (راجع ادناه ، الفقرة ٥) ، وان نشاط البشرية العملي ، اذ يتحقق من صحة تصوراتنا ، يؤكد فيها ما يتطابق مع الحقيقة المطلقة . ويتابع البر ليفي قائلاً :

« وحين يصل ماركس الى هذه النقطة ، يصطدم طبعاً باعتراض النقد . فقد سلم بوجود الاشياء في ذاتها التي نظريتنا حيالها ترجمة انسانية لها ؛ وهو لا يستطيع ان يتهرب من الاعتراض العادي : ما الذي يضمن لك صحة الترجمة ؟ بم تثبت ان الفكر البشري يعطيك الحقيقة الموضوعية ؟ على هذا الاعتراض يرد ماركس في الموضوع الثانية» . (ص ٢٩١) .

ان القارى يرى ان البر ليفي لا يشك لحظة في اعتراف ماركس بوجود الاشياء في ذاتها !

٢ - عن «التعالى» ، او ف . بازاروف «يعالج» انجلس

ولكن اذا كان الماخيون الروس الذين يرغبون في ان يكونوا
ماركسيين قد تحاشوا بطريقة ديبلوماسية واحداً من أهم واحزم
بيانات انجلس ، فقد «عالجوا» بالمقابل بياناً آخر من بياناته على
طريقة تشيرنوف تماماً . ومهما كانت مهمة اصلاح تشويهات
وتحريفات معنى الاستشهادات مملة وشاقة ، فليس بوسع من يريد
التحدث عن الماخين الروس ان يتملص منها .
اليكم كيف عالج بازاروف انجلس .

يقول انجلس في مقاله «المادية التاريخية» * عن اللاعرفانيين
الانجليز (اي عن الفلاسفة السائرين على خط هيوم) ما
يلي :

« . . . ان صاحبنا اللاعرفاني يقر ايضاً بان معرفتنا كلها
تقوم على اساس المعطيات (Mitteilungen) التي نتلقاها بواسطة
حواسنا . . . »

وهكذا ، لنلاحظ من اجل اصحابنا الماخين ان اللاعرفاني
(الهيومي) ينطلق هو ايضاً من الاحساسات ولا يقّر باي مصدر
آخر للمعارف . ان اللاعرفاني هو «وضعي» خالص ؛ وليأخذ انصار
«الوضعية الحديثة» علماً بذلك !

« . . . ولكن - يضيف (اي اللاعرفاني) - من اين نعرف
ان حواسنا تقدم لنا صوراً (Abbilder) صحيحة عن الاشياء التي

* مقدمة الترجمة الانجليزية «الاشتراكية الطوبوية والاشتراكية
العلمية» ؛ وقد ترجمها انجلس نفسه الى الالمانية في 1, XI, «Neue Zeit»
(١٨٩٢-١٨٩٣ ، العدد الاول) ص ١٥ وما يليها . الترجمة الروسية ،
اذا لم اكن على خطأ ، وحيدة واحدة - في مجموعة «المادية التاريخية» ،
ص ١٦٢ وما يليها . يورد بازاروف الاستشهاد في «دراسات «في» فلسفة
الماركسية» ، ص ٦٤ .

نظرية المعرفة في المذهب النقدي التجريبي وفي المادية الديالكتيكية ١١٩

ندركها؟ ويواصل قوله ويبلغنا انه ، حين يتحدث عن الاشياء او عن صفاتها ، لا يقصد في الواقع هذه الاشياء او صفاتها التي لا يمكنه ان يعرف اي امر ثابت ، اكيد عنها ، انما يقصد فقط انطباعاتها على حواسه . . . » (٢٩) .

اي هما الخطان من الاتجاهات الفلسفية اللذان يواجه هنا انجلس احدهما بالآخر؟ الخط الاول ، هو ان الحواس تعطينا صوراً صحيحة عن الاشياء ، واننا نعرف هذه الاشياء نفسها ، وان العالم الخارجي يؤثر في اعضاء حواسنا . وهذه هي المادية التي لا يتفق معها اللاعرفاني . وفيه يتلخص جوهر خط اللاعرفاني؟ في انه لا يمضي الى ابعاد من الاحساسات ، في انه يتوقف في هذا الجانب من الظواهر ، رافضاً ان يرى اي امر «ثابت» «اكيد» فيما وراء حدود الاحساسات . اما عن هذه الاشياء نفسها (اي عن الاشياء في ذاتها ، عن «المواضيع في حد ذاتها» ، كما كان يقول الماديون الذين تجادل معهم بركلي) ، فلا يمكننا ان نعرف اي امر ثابت اكيد - هذا ما يقوله اللاعرفاني بكل وضوح . وهذا يعني ان المادي يؤكد ، في ذلك الجدل الذي يتحدث عنه انجلس ، وجود الاشياء في ذاتها وامكان معرفتها . ان اللاعرفاني لا يقبل حتى بفكرة الاشياء في ذاتها ، عندما يعلن اننا عاجزون عن معرفة اي امر ثابت اكيد عنها .

وهنا نتساءل : بم تختلف وجهة نظر اللاعرفاني التي عرضها انجلس عن وجهة نظر ماخ؟ بكليمة «العنصر» «الجديدة»؟ ولكن من الصبيانية البحتة ان يظن المرء ان بوسع المصطلحات ان تغير الخط الفلسفي ، وان الاحساسات المسماة «بالعناصر» لم تبق احساسات! او بالفكرة «الجديدة» القائلة ان العناصر نفسها تشكل الفيزيائي في حالة ما ، وتشكل النفسي في حالة اخرى؟ ولكن ، الم تلاحظوا ، يا ترى ، ان اللاعرفاني عند انجلس يضع هو ايضاً «الانطباعات» محل «هذه الاشياء نفسها»؟ اذن ، يميز اللاعرفاني هو ايضاً ، من حيث جوهر الامر ، بين «الانطباعات» الفيزيائية والنفسية! ان الفرق ينحصر من جديد في المصطلحات . وعندما

يقول ماخ : الاجسام هي مركبات احساسات ، فان ماخ بركلي . وعندما «يصحح» ماخ «نفسه» ويقول ان «العناصر» يمكن ان تكون فيزيائية في حالة ، ونفسية في حالة اخرى ، فان ماخ لاعرفاني ، هيومي . ولا يتخطى ماخ في فلسفته هذين **التحطين** ؛ ولا يمكن الا للساذج الذي لا حد لسذاجته ان يصدق كلام هذا المشوش حين يقول انه «تجاوز» بالفعل المادية والمثالية على السواء .

ان انجلس يمتنع قصداً وعمداً عن ذكر الاسماء في عرضه ، ولا ينتقد بعض ممثلي الهيومية (يميل الفلاسفة المحترفون شديداً الميل الى نعت التغييرات التافهة التي يجريها هؤلاء او اولئك منهم في التعابير او في الحجج بالمناهج الاصيلية) ، بل ينتقد كل خط الهيومية . ان انجلس لا ينتقد الجزئيات ، بل ينتقد الجوهر ، ويأخذ ذلك **الاساسي الذي يتعرف به جميع الهيوميين عن المادية** ؛ ولهذا يقع ميل وهكسلي وماخ على السواء تحت سياط نقد انجلس . فسواء قلنا ان المادة هي امكانية الاحساس الدائمة (حسب جون ستوارت ميل) ام ان المادة هي مركبات ثابتة الى هذا الحد او ذاك من «عناصر» - احساسات ، (حسب ارنست ماخ) ، - فاننا نبقى ضمن **حدود اللاعرفانية او الهيومية** ؛ ان وجهتي النظر هاتين ، او بالاصح ، هاتين الصيغتين **يغطيهما** عرض اللاعرفانية عند انجلس : ان اللاعرفاني لا يمضي الى ابعد من الاحساسات ، عندما يعلن انه لا يستطيع ان يعرف اي امر ثابت اكيد عن مصدرها او عن اصلها ، وما الى ذلك . واذا كان ماخ يعلق اهمية عظيمة على خلافه مع ميل في هذه المسألة ، فذلك على وجه الدقة لان ماخ يصحح عليه الوصف الذي اعطاه انجلس عن البروفسورات رؤساء الكراسي : Flohknacker ، لقد قرصتم البرغوث ، ايها السادة ، بادخال التعديلات الطفيفة وتغيير المصطلحات ، عوضاً عن ان تتخلوا عن وجهة النظر النصفية الاساسية !

فكيف يدحض المادي انجلس - ، في بداية المقالة ، يعارض

نظرية المعرفة في المذهب النفدي التجريبي وفي المادية الديالكتيكية ١٢١

انجلس على المكشوف وبصورة قاطعة للاعرافية بماديته ، - الحجج المعروضة ؟

انه يقول :

« . . . لا ريب ان هذه وجهة نظر من الصعب ، على ما يبدو ، دحضها بالحجج وحدها . ولكن قبل ان بدأ الناس بتقديم الحجج ، كانوا يعملون . «في البدء كان العمل» . وقد حل العمل الانساني هذه الصعوبة قبل ان يخلقها التفلسف الانساني بزمن طويل .
"The proof of the pudding is in the eating" (البرهان على نوعية الكعكة او التحقق من الكعكة ، امتحانها ، انما هو اكلها) . «ففي اللحظة التي نستعمل فيها شيئاً ما لانفسنا وفقاً لصفاتـه التي ندركها - في هذه اللحظة بالذات نمتحن امتحاناً لا خطأ فيه صحة او عدم صحة مدركاتنا الحسية . فاذا كانت هذه المدركات خاطئة ، كان رأينا في امكانية استعمال الشيء المعني خاطئاً ايضاً لا محالة ؛ وكان لا بدّ من ان تؤدي كل محاولة لمثل هذا الاستعمال الى الاخفاق . ولكن ، اذا نجحنا في بلوغ هدفنا ، اذا تبين لنا ان الشيء ينطبق على فكرتنا عنه وانه يعطي النتيجة التي توقعناها من استعماله ، كان ذلك الدليل الايجابي على ان مدركاتنا بالشيء وصفاته تنطبق ضمن هذه الحدود على الواقع القائم خارجاً عنّا . . . »

وعليه نرى ان النظرية المادية ، نظرية عكس الاشياء من قبل الفكر ، معروضة هنا بأكمل الوضوح : توجد الاشياء خارجاً عنّا . ومدركاتنا وتصوراتنا هي صورها . والتحقق من صحة هذه الصور ، وفصل الحقيقية عن الخاطئة ، يعطيه النشاط العملي . ولكن لنستمع قليلاً ايضاً الى انجلس فيما يقوله لاحقاً (فهنا يقطع بازاروف الاستشهاد من انجلس او من بليخانوف ، لأنه يرى من الناقل ، على ما يبدو ، ان يأخذ انجلس بعين الاعتبار) .

« . . . وحين نرى ، بالعكس ، اننا اخطأنا ، فاننا نعرف ، بعد وقت قصير على الاغلب ، كيف نكتشف سبب هذا الخطأ ؛ فنجد ان المدرك الذي كان اساس امتحاننا ، اما انه كان يحد نفسه سطحياً

وغير كامل ، واما انه كان مرتبطاً بنتائج مدركات اخرى على نحو لا يبرره الواقع» (الترجمة الروسية في «المادية التاريخية» غير صحيحة) .
«وما دمنا نطور حواسنا ونستخدمها على نحو صحيح ، وما دمنا نحصر نشاطنا في الحدود التي رسمتها مدركاتنا الحاصلة والمستخدمه على نحو صحيح ، فاننا سنجد دائماً ان نجاح اعمالنا يقدم البرهان على تطابق (Übereinstimmung) مدركاتنا مع الطبيعة الموضوعية (gegenständlich) للاشياء التي ندركها . وحسب معرفتنا حتى الآن ، لم يحدث مرة ان ترتب علينا ان نستنتج ان مدركاتنا الحسية المعللة علمياً ، تولد في دماغنا افكاراً عن العالم الخارجي تحيد بحكم طبيعتها عن الواقع ، او ان هناك تناقضاً لازماً بين العالم الخارجي ومدركاتنا الحسية به .

ولكن يطل اللاعرفاني الكانطي الجديد ويقول . . . « (٣٠) .
نحن نترك لمرة اخرى تحليل حجج الكانطيين الجدد . ولنلاحظ ان المطلع قليلاً جداً على المسألة او حتى مجرد الانسان المنتبه لا يمكنه ان لا يفهم ان انجلس يعرض هنا تلك المادية نفسها التي يحاربها جميع الماخيين في كل زمان ومكان . والآن انظروا الى اساليب بازاروف في معالجة انجلس .
فقد كتب بازاروف بصدد المقطع الذي نوهنا به من الاستشهاد :

«هنا يقف انجلس بالفعل ضد المثالية الكانطية . . .» .
هذا غير صحيح . فان بازاروف يخبّص . ففي المقطع الذي اورده هو واوردناه نحن بصورة اكمل ، لا وجود لاية كلمة لا عن الكانطية ، ولا عن المثالية . ولو ان بازاروف قرأ بالفعل كل مقالة انجلس ، لكان رأى من كل بد ان انجلس لا يتحدث عن الكانطية الجديدة وعن كل خط كانط الا في الفقرة التالية ، اي حيث قطعنا استشهادنا . ولو ان بازاروف قرأ بانتباه وامعن الفكر في ذلك المقطع الذي اورده هو نفسه ، لكان رأى من كل بد انه لا يوجد اي شيء ، لا مثالي ولا كانطي ، في حجج اللاعرفاني التي يدحضها انجلس هنا ، لأن المثالية لا تبدأ الا حين يقول الفيلسوف ان

نظرية المعرفة في المذهب النقدي التجريبي وفي المادية الديالكتيكية ١٢٣

الاشياء هي احساساتنا ؛ وان الكانطية لا تبدأ الا حين يقـول
الفيلسوف ان الشيء في ذاته يوجد ، ولكن تستحيل معرفته . لقد
خلط بازاروف بين الكانطية والهيومية ، ولقد خلط هذا لأنه ، وهو
نفسه نصف بركلي ، نصف هيومي من الشيعة الماخية ، لا يفهم
(كما سنبيّن بالتفصيل ادناه) الفارق بين المعارضة الهيومية
والمعارضة المادية للكانطية .
ويستطرد بازاروف قائلاً :

« . . . ولكن حججه - ويا للأسف ! - موجهة ضد فلسفة
بليخانوف بقدر ما هي موجهة ضد فلسفة كانط . وعند مدرسة
بليخانوف الاورثوذكسي ، كما سبق واثار بوغدانوف الى هذا ،
سوء تفاهم مشؤوم مع الوعي . فانه يبدو لبليخانوف - كما لجميع
المثاليين - ان كل المعطى حسيّاً اي المدرك هو «ذاتي» ، وان
الانطلاق فقط من المعطى فعلاً ، انما يعني ان يكون المرء
سوليبسياً ، وانه لا يمكن ايجاد الوجود الفعلي الا فيما وراء حدود
كل المعطى مباشرة . . . » .

هذا تماماً بروح تشيرنوف وتأكيداته بان ليكنخت كان
شعبياً روسياً حقاً ! فاذا كان بليخانوف مثالياً انحرف عن انجلس ،
فلماذا لست مادياً ، وانت نصير انجلس ، كما تزعم ؟ ان هذا مجرد
تعمية حقيرة ، ايها الرفيق بازاروف ! فبالعبارة الماخية : «المعطى
مباشرة» ، تبدأ بخلط الفارق بين اللاعرفانية والمثالية والمادية .
لفهم ان «المعطى مباشرة» ، «المعطى فعلاً» هو تخبيص من الماخيين
والكمونيين وغيرهم من الرجعيين في الفلسفة ، هو مسخرة يتقنع
فيها اللاعرفاني (واحياناً المثالي ايضاً عند ماخ) بلباس المادي .
ان المادي يرى ان العالم الخارجي الذي احساساتنا صورة عنه هو
«المعطى فعلاً» . ويرى المثالي ان الاحساس هو «المعطى فعلاً» ،
فضلاً عن انه يعتبر العالم الخارجي «مركب احساسات» . ويرى
اللاعرفاني ان «المعطى مباشرة» هو ايضاً احساس ، ولكن اللاعرفاني
لا يمضي الى أبعد ، لا نحو الاقرار المادي بواقعية العالم الخارجي ،
ولا نحو الاقرار المثالي بان العالم هو احساسنا . ولهذا كان قولك

«انه لا يمكن ايجاد الوجود الفعلي» (حسب تعبير بليخانوف) «الا فيما وراء حدود كل المعطى مباشرة» سخافة تنبع حتماً من موقفك الماخي . ولكن اذا كان من حقلك ان تشغل اي موقف ، بما في ذلك الموقف الماخي ، فليس من حقلك ان تحرف انجلس حين تتحدث عنه . والحال ، يبدو من اقوال انجلس ، بوضوح ما بعده وضوح ، ان الوجود الفعلي يقوم ، بنظر المادي ، فيما وراء حدود «مدركات» الانسان «الحسية» وانطباعاته وتصوراته ، في حين ان اللاعرفاني يعتقد انه يستحيل تجاوز حدود هذه المدركات . ان بازاروف قد صدق ماخ وافيناريوس وشوبته حين زعموا ان المعطى «مباشرة» (او فعلاً) يجمع بين الانا المدرك والبيئة المحسوسة في التنسيق الشهير «الذي لا انفصام لعراه» ، واذا به يحاول ان يدس للمادي انجلس هذا الهراء بصورة غير ملحوظة بالنسبة للقارى !

« . . . يبدو كأن المقطع المذكور آنفاً والمأخوذ من انجلس قد كتبه هذا الاخير قصداً وعمداً لكي يبدد بشكل مبسط ومفهوم لدى الجميع سوء الفهم المثالي هذا . . . »

ليس عبثاً كان بازاروف في مدرسة افيناريوس ! فهو يواصل تعميته : فورا ستار النضال ضد المثالية (التي لا يدور الحديث ابدأ حولها عند انجلس) يمرر بالتهريب «التنسيق» المثالي . حسناً ، يا رفيق بازاروف !

« . . . يسأل اللاعرفاني : من اين نعرف ان حواسنا الذاتية تقدم لنا صورة صحيحة عن الاشياء ؟ . . . »

انت تخبص ، يا رفيق بازاروف ! فان انجلس لا يقول بنفسه ولا ينسب حتى الى عدوه ، اللاعرفاني ، سخافة من طراز الحواس «الذاتية» . فلا وجود لحواس اخرى غير الحواس الانسانية اي «الذاتية» ، لأننا نحاكم من وجهة نظر الانسان وليس من وجهة نظر العفريت . وها أنت تبدأ من جديد بدس الماخية الى انجلس : ان اللاعرفاني - كما يقال ، - يعتبر الحواس ، وبالادق ، الاحساسات ذاتية فقط (ان اللاعرفاني لا يعتبر هذا !) ، في حين اننا ، انسا

نظرية المعرفة في المذهب النقدي التجريبي وفي المادية الديالكتيكية ١٢٥

وافيناريوس ، قد «نسّقنا» الموضوع في صلة لا تنقسم عراها مع الذات . حسناً ، يا رفيق بازاروف !

«... ولكن ما تسمونه «صحيحاً» ، - يعترض انجلس . - ان الصحيح هو ما يؤكد نشاطنا العملي ؛ ولذا ، بما ان مدركاتنا الحسية تؤكدها التجربة ، فانها ليست «ذاتية» ، اي انها ليست اعتبارية ، او وهمية ، بل صحيحة ، فعلية ، مأخوذة بذاتها . . .» .

انت تخبص ، يا رفيق بازاروف ! فانت تستعيز عن مسألة وجود الاشياء خارج احساساتنا ومدركاتنا وتصوراتنا بمسألة معيار صحة تصوراتنا عن «هذه» الاشياء «نفسها» او بالادق : انت **تعجب** المسألة الاولى بالثانية . والحال ان انجلس يقول بصراحة ووضوح ان ما يفصله عن اللاعرفاني ، ليس فقط شك اللاعرفاني في صحة الصور ، بل ايضاً شك اللاعرفاني فيما اذا كان يمكن التحدث عن **الاشياء نفسها** ، فيما اذا كان يمكن معرفة وجودها معرفة «ثابتة اكيدة» . لماذا احتاج بازاروف الى هذا التزوير ؟ لقد احتاج اليه لكي يموه ويشوش المسألة **الاساسية** بالنسبة للمادية (وبالنسبة لانجلس بوصفه مادياً) ، مسألة وجود الاشياء خارج وعينا ، هذه الاشياء التي تثير الاحساسات بفعلها في اعضاء الحواس . فلا يمكن ان يكون المرء مادياً اذا لم يحل بالايجاب هذه المسألة ، ولكن بامكانه ان يكون مادياً مع وجود آراء مختلفة في مسألة معيار صحة هذه الصور التي تقدمها لنا الحواس .

كذلك يخبص بازاروف عندما ينسب الى انجلس صيغة سخيفة وجاهلة في الجدل ضد اللاعرفاني ، تزعم ان مدركاتنا الحسية تؤكدها «**التجربة**» . فان انجلس لم يستعمل ولم يكن بوسعه ان يستعمل **هنا** هذه الكلمة ، لأن انجلس **كان يعرف** ان المثالي بركلي واللاعرفاني هيوم والمادي ديدرو كانوا جميعهم على السواء يستشهدون بالتجربة .

«... ضمن تلك الحدود التي نتعامل فيها مع الاشياء ، **تتطابق التصورات عن الشيء وعن صفاته مع الواقع القائم خارجاً**

عنا» . ان كون التصورات «تتطابق» يختلف قليلاً عن كونها «هيروغليفاً» . «تتطابق» - هذا يعني : ان التصور الحسي انما هو (حرف التأكيد لبازاروف) ، ضمن الحدود المعنية ، الواقع القائم خارجاً عنا»

الامور بخواتيمها ! ها هو ذا انجلس محور ومكيف على ماخ ، ومطبوخ ومقدم في صلصة ماخية . المهم ان لا يغص اصحابنا الطباخون الاجلاء الموقرون بهذه الطبخة !

«التصور الحسي انما هو الواقع القائم خارجاً عنا» ! ! وهذا هو بالذات ذلك السخف الاساسي ، ذلك التشوش الاساسي والزيف الاساسي في الماخية الذي نبع منه كل هراء هذه الفلسفة الباقي والذي ينهال بسببه الرجعيون المتطرفون ووعاظ الاكليريكية ، الكمونيون ، على ماخ وافيناريوس بالقبلات . ومهما راوغ ف . بازاروف ، ومهما تحايل ، ومهما لجأ الى الاساليب الديبلوماسية لتجنب النقاط الحساسة ، فقد زل لسانه في آخر الامر وكشف طبيعته الماخية ! ان القول : «التصور الحسي انما هو الواقع القائم خارجاً عنا» يعني العودة الى الهيومية او حتى الى البركليية التي تخفت في ضباب «التنسيق» . وهذا كذب مثالي او رواغ لاعرفاني ، ايها الرفيق بازاروف ، لأن التصور الحسي ليس الواقع القائم خارجاً عنا ، بل صورة فقط عن هذا الواقع . انت تريد ان تتمسك بازدواجية معنى الفعل الروسي «تطابق» ؟ انت تريد ان تجبر القارىء غير المطلع على ان يصدق ان فعل «تطابق» يعني هنا «ان يكون الشيء نفسه» وليس «تناسب» ؟ هذا يعني بناء كل تزييف انجلس لظهاره بصورة ماخ على تشويه معنى الاستشهاد ، لا اكثر .

خذوا الاصل الالمانى ، تروا كلمتي "stimmen mit" اي تتناسب ، تتوافق ، تتساوت - الترجمة الاخيرة حرفية لأن "Stimme" تعني «صوت» ، ولا يمكن لكلمتي "stimmen mit" ان تعنيا «تطابق» بمعنى «ان يكون الشيء نفسه» . بل انه من الواضح تماماً ، ولا يمكن ان لا يكون من الواضح ، للقارىء الذي لا يعرف

نظرية المعرفة في المذهب النقدي التجريبي وفي المادية الديالكتيكية ١٢٧

الالمانية ولكن الذي يطالع انجلس بذرة من الانتباه ، ان انجلس يفسر «التصور الحسي» طوال الوقت كله ، على امتداد كل محاكمته ، على انه صورة (Abbild) الواقع القائم خارجاً عنا ، وانه لا يمكن بالتالي استعمال فعل «совпадать» («تطابق») بالروسية الا بمعنى التناسب ، التوافق ، وما الى ذلك . وحين تنسب الى انجلس الفكرة التي تزعم ان «التصور الحسي انما هو الواقع القائم خارجاً عنا» ، فان ذلك سيكون درة التشويه الماخي ، درة دس الاعرفانية والمثالية وتصويرهما بصورة المادية ؛ ولذا لا بد من الاعتراف بان بازاروف قد ضرب جميع الارقام القياسية في هذا المجال !

وهنا نتساءل : كيف يمكن لاناس لم يجنوا ان يؤكدوا بوعي وبصيرة «ان التصور الحسي (ايا كانت الحدود التي يجري ضمنها ، فلا شأن لهذا) انما هو الواقع القائم خارجاً عنا» ؟ ان الارض هي واقع قائم خارجاً عنا . ولا يمكن لها ، لا ان «تتطابق» (بمعنى : ان تكون الشيء نفسه) مع تصورنا الحسي ، ولا ان تكون معه في تنسيق لا انفصام لعراه ، ولا ان تكون «مركب عناصر» مماثلة للاحساس في حالة اخرى ، لأن الارض كانت موجودة عندما لم يكن ثمة وجود لا للانسان ولا لاعضاء الحواس ، ولا للمادة المنظمة في ذلك الشكل الاعلى الذي تلاحظ بفضل بقدر ما من الوضوح خاصة المادي في ان تكون لها احساسات .

والحكاية كلها انه لأجل ستر كل سخافة هذا الزعم المثالية تستخدم تلك النظريات المختلفة التي درسناها في الفصل الاول ، نظريات «التنسيق» و«الحقن» وعناصر العالم المكتشفة حديثاً . ان صيغة بازاروف التي صاغها سهواً وبدون تبصر ، ممتازة بكونها تكشف بجلاء السخافة الصارخة التي يجب نبشها ، لولا ذلك ، من تحت اكوام الترهات المتحذلقة الفارغنة ، شبه العلمية ، الاستاذية .

مرحى لك ، يا رفيق بازاروف ! سننصب لك في حياتك تمثالاً وننقش على جانب منه صيغتك ، وعلى جانب آخر : الى الماخي الروسي الذي دفن الماخية عند الماركسيين الروس !

سوف نتحدث بصورة خاصة عن نقطتين تناولهما بازاروف في الاستشهاد المذكور هما معيار النشاط العملي عند اللاعرفانيين (بمن فيهم الماخيون) وعند الماديين ، والفرق بين نظرية الانعكاس (او التصوير) ونظرية الرموز (او الهيروغليفات) . اما الآن فلنواصل قليلاً ايضاً الاستشهاد من بازاروف :

« . . . وماذا يوجد فيما وراء هذه الحدود ؟ ان انجلس لا ينبس ببنت شفة عن هذا . وهو لا يفصح في اي مكان عن الرغبة في القيام بذلك «التعالى» ، بذلك الخروج الى ما وراء حدود العالم المعطى حسيّاً ، بالخروج القائم في اساس نظرية المعرفة عند بليخانوف . . . » .

وراء اية حدود «هذه» ؟ وراء حدود ذلك «التنسيق» الذي اختلقه ماخ وافيناريوس والذي يمزج ، على حد زعمهما ، الانا والبيئة ، الذات والموضوع ، بصورة لا انفصام لعرها ؟ ان السؤال الذي يطرحه بازاروف ، يخلو بحد ذاته من كل معنى . ولو انه طرح المسألة بصورة انسانية ، لرأى بوضوح ان العالم الخارجي يقوم «وراء حدود» احساسات الانسان ومدركاته وتصوراته . ولكن كلمة «التعالى» تفضح بازاروف ايضاً وايضاً . وهذا «شعوذة» كانطية وهيومية مميزة ، هذا يعني اقامة حد مبدئي بين الظاهرة وبين الشيء في ذاته . وان الانتقال من الظاهرة او ، اذا شئتم ، من احساسنا ومدركنا ، وما الى ذلك ، الى الشيء القائم خارج المدرك والاحساس ، هو **التعالى** - كما يقول كانط - ، وهذا **التعالى** مسموح به لا لأجل المعرفة ، بل لأجل الايمان . ويعترض هيوم قائلاً : ان التعالى غير مسموح به اطلاقاً . وان الكانطيين ، شأنهم شأن الهيوميين ، يقولون عن الماديين انهم واقعيون **متعالون** وانهم «ميتافيزيائيون» يقومون **بانتقال** (باللاتينية transcensus) غير مشروع من ميدان الى ميدان آخر ، مختلف مبدئياً . وبوسعكم ان تجدوا عند اساتذة الفلسفة المعاصرين السائرين على خط كانط وهيوم الرجعي (خذوا على الاقل الاسماء التي ذكرها فوروشيلوف - تشيرنوف)

نظرية المعرفة في المذهب النقدي التجريبي وفي المادية الديالكتيكية ١٢٩

ترديدات لا نهاية لها بآلاف الصيغ لهذه التهم الموجهة الى المادية بالنزوع الى «الميتافيزيائية» و«التعالى». وقد اقتبس بازاروف الكلمة ومجرى التفكير على السواء من الاساتذة الرجعيين ويتقدم بهما متفاخراً باسم «الوضعية الحديثة» ! ولكن الحكاية كلها ان فكرة «التعالى» نفسها ، اي فكرة الحد المبدئي بين الظاهرة والشئ في ذاته ، هي فكرة سخيصة للاعرفانيين (بمن فيهم الهيوميون والكانطيون) والمثاليين . وقد سبق واوضحنا هذا على ضوء المثال الذي اوردته انجلس عن الاليزارين ، وسنوضحه ايضاً باقوال فورباخ ويوسف ديتزغن . ولكن لننـه اولاً مسألة «معالجة» بازاروف لانجلس :

« . . . يقول انجلس في مكان من مؤلفه «ضد دوهرينغ» ان «الوجود» خارج العالم الحسي هو "offene Frage" اي مسألة لا نملك اية معطيات لحلها وحتى لطرحها» .

وهذه الحجة يرددها بازاروف اثر الماخي الالمانى فريدريخ آدلى . وهذا المثال الاخير يكاد يكون اسوأ من «التصور الحسي» الذي «انما هو الواقع القائم خارجاً عنا» . وفي الصفحة ٣١ (الطبعة الالمانية الخامسة) من «ضد دوهرينغ» ، يقول انجلس :

«ان وحدة العالم لا تقوم في وجوده ، رغم ان وجوده مقدمة لوحده ، لانه ينبغي في البدء ان يوجد العالم قبل ان يكون بإمكانه ان يكون واحداً . ان الوجود مسألة معلقة على العموم (offene Frage) ابتداء من ذلك الحد الذي ينقطع عنده مجال بصرنا (Gesichtskreis) . ان وحدة العالم الفعلية تتجسد في ماديته ، وهذه الاخيرة لا يثبتها زوج من جمل الشعوذة ، بل يثبتها التطور المديد والصعب للفلسفة والعلوم الطبيعية» (٣١) .

فانظروا الى هذا الخبيص الجديد الذي صنعه طباخنا : انجلس يتحدث عن الوجود فيما وراء ذلك الحد الذي ينتهي عنده مجال بصرنا ، اي ، مثلاً ، عن وجود الناس على المريخ ، وخلافه . وواضح ان هذا الوجود هو بالفعل المسألة المعلقة . ولكن بازاروف ، الذي لا يورد الاستشهاد بكامله كأنما قصداً وعمداً ،

يحور كلام انجلس بحيث يبدو كأن مسألة «الوجود خارج العالم الحسي» مسألة معلقة ! ! هذه سخافة ما بعدها سخافة ؛ وهنا تنسب الى انجلس نظرة اولئك الاساتذة في الفلسفة الذين اعتاد بازاروف ان يصدق كلامهم والذين سماهم يوسف ديتزغن عن حق وصواب بخدم الاكليريكية او الايمانية حملة الشهادات . وبالفعل تؤكد الايمانية بالايجاب انه يوجد شيء ما «خارج العالم الحسي» . ولكن الماديين المتضامنين مع العلوم الطبيعية ، يرفضون هذا الرأي قطعاً . وفي الوسط يقف البروفسورات ، والكانطيون ، والهيوميون (بمن فيهم الماخيون) وخلافهم الذين «وجدوا الحقيقة خارج المادية والمثالية» والذين «يوقنون» قائلين : هذه مسألة معلقة . ولو ان انجلس قال ذات يوم شيئاً من هذا القبيل ، لكان من الخزي والعار ان يقول المرء عن نفسه بانه ماركسي . ولكن كفى ! ان نصف صفحة من الاستشهادات من بازاروف هي كبة من التخبيص على درجة من التعقد بحيث نرانا مضطرين الى الاكتفاء بما قيل ، دون ان نتبع لاحقاً جميع تذبذبات الفكر الماخي .

٣ - لودفيغ فورباخ ويوسف ديتزغن والشيء في ذاته

لكي نبين الى اي حد من الخراقة والسخافة يبلغ اصحابنا الماخيون في زعمهم ان الماديين ماركس وانجلس قد انكروا وجود الاشياء في ذاتها (اي الاشياء خارج احساساتنا وتصوراتنا وما اليها) وامكان معرفتها ، وانهما سلماً بوجود حد مبدئي ما بين الظاهرة والشيء في ذاته ، نسوق بضعة مقتبسات اخرى من فورباخ . فان مصيبة اصحابنا الماخيين هي انهم طفقوا يتحدثون بكلمات البروفسورات الرجعيين عن المادية الديالكتيكية دون ان يعرفوا لا الديالكتيك ولا المادية .

يقول لودفيغ فورباخ : «ان الروحانية الفلسفية المعاصرة

التي تسمى نفسها بالمثالية توجه الى المادية اللوم التالي ،
المالحق بنظرها : المادية - حسب زعم الروحانية - هي
الاعتقادية * اي انها تنطلق من العالم الحسي (sinnlichen)
باعتباره حقيقة موضوعية لا جدال فيها (ausgemacht) ، وتعتبرها
عالمًا في ذاته (an sich) ، اي عالمًا موجوداً بدوننا ، في حين ان
العالم ليس بالفعل غير نتاج الروح» (Sämtliche Werke,
X. Band, 1866, S. 185**)

هذا واضح ، على ما يبدو ، أليس كذلك ؟ العالم في ذاته
هو العالم الموجود بدوننا . ان هذا هو مادية فورباخ ، وكانت
مادية القرن السابع عشر التي عارضها الاسقف بركلي ، قد تلخصت
ايضاً في الاعتراف «بالمواضيع بحد ذاتها» الموجودة خارج ادراكنا.
ان تعبير "An sich" (بحد ذاته او «في ذاته») كما يفهمه فورباخ
يتعارض كلياً مع تعبير "An sich" كما يفهمه كانط : تذكروا
الاقتباس المذكور اعلاه من فورباخ الذي يتهم كانط بان «الشيء
في ذاته» هو بنظره «تجريد بدون واقع» . اما بنظر فورباخ ، فان
«الشيء في ذاته» هو «التجريد مع الواقع» اي العالم الموجود خارجاً
عنا ، وتمكن تماماً معرفته ، ولا يختلف مبدئياً في شيء عن
«الظاهرة» .

ويفسر فورباخ بصورة ظريفة وواضحة جداً انه من بالسف
السخافة تقبل «انتقال» ما من عالم الظاهرات الى العالم في ذاته ،
تقبل هاوية ما يستحيل عبورها وخلقها الكهنة واقتبسها منهم
اساتذة الفلسفة . اليكم احد هذه التفسيرات :

«يقيناً ان منتوجات الخيال هي ايضاً منتوجات الطبيعة ، لأن
قوة الخيال ، مثلها مثل جميع قوى الانسان الاخرى ، هي ايضاً
في آخر المطاف (zuletzt) ، من حيث اساسها ، من حيث اصلها ،

* الاعتقادية - dogmatism . المعرب .

** مجموعة المؤلفات . المجلد ١٠ ، عام ١٨٦٦ ، ص ١٨٥ .

قوة من قوى الطبيعة ، ولكن الانسان هو مع ذلك كائن يختلف عن الشمس والقمر والنجوم ، يختلف عن الحجارة والحيوانات والنباتات ، يختلف - خلاصة القول ، - عن جميع تلك الكائنات (Wesen) التي يرمز اليها بالتعبير العام : الطبيعة ، ومن هنا ينجم ان تصورات (Bilder) الانسان عن الشمس والقمر والنجوم وعن جميع الكائنات الاخرى في الطبيعة (Naturwesen) هي منتوجات اخرى تختلف عن مواضيعها في الطبيعة ، رغم ان هذه التصورات هي منتوجات الطبيعة» (Werke, Band VII, Stuttg., 1903, S. 516).

ان مواضيع تصوراتنا تختلف عن تصوراتنا ، والشيء في ذاته يختلف عن الشيء من اجلنا ، لأن هذا الاخير ليس غير جزء او جانب من الاول ، كما ان الانسان نفسه ليس غير جزء من الطبيعة المنعكسة في تصوراته .

« . . . ان عصب الذوق عندي هو ايضاً من منتوجات الطبيعة شأنه شأن الملح ، ولكنه لا ينجم من هذا ان طعم الملح يعتبر مباشرة ، كما هو عليه ، خاصة الملح الموضوعية ، وان الملح كما هو عليه (ist) بصفته موضوع الاحساس فقط ، يعتبر كذلك متواجداً بحد ذاته (an und für sich) ، وان الاحساس بالملح على اللسان يعتبر خاصة الملح ، كما نستحضر الملح بدون احساس (des ohne Empfindung gedachten Salzes) . . . » . وقبل ذاك ببضع صفحات : «ان الملوحة ، كطعم ، هي تعبير ذاتي عن خاصة الملح الموضوعية» (ص ٥١٤) .

ان الاحساس هو نتيجة تأثير شيء في ذاته موجود موضوعياً وخارجاً عنا في اعضاء حواسنا . تلك هي نظرية فورباخ . ان الاحساس هو صورة ذاتية للعالم الموضوعي ، للعالم an und für sich .

« . . . كذلك الانسان هو كائن من كائنات الطبيعة (Naturwesen) ، مثل الشمس والنجم ، والنبات ، والحيوان ، والحجر ، ولكنه يختلف مع ذلك عن الطبيعة ، وبالتالي يختلف

نظرية المعرفة في المذهب النقدي التجريبي وفي المادية الديالكتيكية ١٣٣

الطبيعة في رأس الانسان وقلبه عن الطبيعة القائمة خارج رأس الانسان وخارج قلب الانسان .

. . . ان الانسان هو الكائن الوحيد الذي تحقق فيه ، حسب اعتراف المثاليين انفسهم ، مطلب «تماثل الذات والموضوع» ، لأن الانسان هو شيء لا يطال اي شك مساواته ووحدته مع كياني . . . ولكن الا يشكل الانسان ، يا ترى ، بالنسبة لانسان آخر ، حتى لا يقرب شخص منه ، موضوعاً للخيال ، موضوعاً للتصور ؟ الا يدرك كل انسان ، يا ترى ، انساناً آخر حسبما يدركه عقله ، بطريقته الخاصة (in und nach seinem Sinne) ؟ . . . واذا كان هناك حتى بين انسان وانسان ، بين تفكير وتفكير ، فرق لا يمكن تجاهله ، فباي قدر يجب ان يربو الفرق بين الكائن بحد ذاته (Wesen an sich) غير المفكر ، غير الانساني ، غير المتماثل معنا وبين هذا الكائن نفسه حسبما نراه بالفكر ونتصوره ونفهمه ؟» (ص ٥١٨ ، المرجع نفسه) .

ان كل فرق مبهم ، عويص ، داه ، بين الظاهرة والشيء في ذاته هو هراء فلسفي مطبق . وفي الواقع العملي ، شاهد كل انسان ملايين المرات تحول «الشيء في ذاته» تحولاً بسيطاً وجلياً الى ظاهرة ، الى «شيء من اجلنا» . وهذا التحول انما هو المعرفة . وان «مذهب» الماخية القائل اننا ما دمنا لا نعرف غير الاحساسات فانه لا يسعنا ان نعرف عن وجود اي شيء فيما وراء حدود الاحساسات ، انما هو سفسطة قديمة للفلسفة المثالية والاعرفانية مقدمة في صلصة جديدة .

يوسف ديتزغن مادي ديالكتيكي . وسنبين ادناه ان اسلوبه للتعبير غالباً ما يكون غير دقيق ، وانه غالباً ما يسقط في حماة التشوش ، الامر الذي تمسك به مختلف الافراد غير الاذكياء (بمن فيهم يفغيني ديتزغن) ، وكذلك اصحابنا الماخيون بالطبع . ولكنهم لم يكلفوا انفسهم عناء تحليل الخط المهيمن في فلسفته ، وعناء فصل المادية بوضوح عن العناصر الغريبة ، او انهم لم يستطيعوا القيام بذلك .

يقول ديتزغن في مؤلفه «كنه عمل الدماغ» (الطبعة الالمانية، عام ١٩٠٣ ، ص ٦٥) : «لنأخذ العالم بوصفه «شيئاً في ذاته» ؛ فمن السهل ان نفهم ان «العالم في ذاته» والعالم كما يظهر لنا ، ظاهرات العالم ، لا يختلفان احدهما عن الآخر اكثر مما يختلف الكل عن الجزء» . «ان الظاهرة تختلف عما يظهر كما تختلف عشرة اميال من الطريق عن الطريق كله ، لا اكثر ولا اقل» (ص ٧١-٧٢) . ولا يوجد هنا ولا يمكن ان يوجد اي فرق مبدئي ، اي «تعال» ، اي «عدم تناسق فطري» . ولكن يوجد فرق بالطبع ، يوجد انتقال الى ما وراء حدود الانطباعات الحسية نحو وجود الاشياء خارجاً عنا .

ويقول ديتزغن في مؤلفه «جولات اشتراكي في ميدان نظرية المعرفة» (الطبعة الالمانية ، عام ١٩٠٣ ، Kleinere philosoph. Schriften ، ص ١٩٩) : «نحن نعرف ان كل تجربة هي جزء مما يتخطى ، اذا تكلمنا كما يتكلم كانط ، حدود كل تجربة» . «ان كل جزيئة ، سواء كانت جزيئة من الغبار او من الحجر او من الشجرة ، هي بالنسبة للوعي الذي ادرك جوهره شيء تستحيل معرفته الى النهاية (Unauskenntliches) ، اي ان كل جزيئة هي مادة لا ينضب لها معين لأجل القدرة العرفانية الانسانية ، وهي بالتالي شيء يتخطى حدود التجربة» (ص ١٩٩) .

انتم ترون : اذا تكلمنا كما يتكلم كانط ، اي باللجوء - لاغراض التبسيط بوجه الحصر ، لأجل المقارنة - الى تعابير كانط الغاطئة والمشوشة ، يعترف ديتزغن بالخروج «الى ما وراء حدود التجربة» . وهذا مثال جيد على ما يتشبه به الماخيون ، بالانتقال من المادية الى اللاعرفانية : نحن لا نريد ان نخرج «الى ما وراء حدود التجربة» ، ونحن نعتقد ان «التصور الحسي انما هو الواقع الموجود خارجاً عنا» .

و ضد هذه الفلسفة بالذات يقول ديتزغن : «ان التصوف السقيم يفصل بصورة غير علمية الحقيقة المطلقة عن الحقيقة النسبية . وهو يجعل من الشيء الظاهر و«الشيء في ذاته» اي من

نظرية المعرفة في المذهب النقدي التجريبي وفي المادية الديالكتيكية ١٣٥

الظاهرة والحقيقة ، مقولتين مختلفتين فيما بينهما toto coelo (كلياً ، على طول الخط ، مبدئياً) ولا تحتويهما اية مقولة مشتركة» (ص ٢٠٠) .

احكموا الآن على مبلغ اطلاع وظرافة الماخي الروسي بوغدانوف الذي لا يريد ان يعترف بانه ماخي ، ويريد ان يعتبروه ماركسياً في الفلسفة .

«لقد شغل الماديون ممن ميلهم الى النقد اقوى» «الوسط الذهبي» - بين «النفسية الشاملة والمادية الشاملة» («الاحادية التجريبية» ، الكتاب الثاني ، الطبعة الثانية ، عام ١٩٠٧ ، ص ٤٠-٤١) - «فهم ينكرون الاستحالة المطلقة لمعرفة «الشيء في ذاته» ولكنهم يعتبرون في الوقت نفسه ان «الشيء في ذاته» يختلف مبدئياً (حرف التأكيد لبوغدانوف) عن «الظاهرة» ، وانه دائماً بالتالي «تمكن معرفته بصورة غامضة» فقط في الظاهرة وانه خارج التجربة من حيث المضمون (اي ، على ما يبدو ، حسب «العناصر» التي ليست بصورة عناصر التجربة) ، ولكنه قائم ضمن حدود ما يسمى باشكال التجربة ، اي الزمان ، والمكان ، والسببية . وتلك هي على وجه التقريب وجهة نظر الماديين الفرنسيين من القرن الثامن عشر وكذلك ، بين الفلاسفة الحديثين ، وجهة نظر انجلس وتابعه الروسي بلتوف» .

هذه كبة من التشوش التام . ١ - ان ماديي القرن السابع عشر الذين يجادلهم بركلي ، يقرون بانه يمكن تماماً معرفة «المواضيع في حد ذاتها» ، لأن تصوراتنا ، افكارنا ، ليست سوى نسخ او انعكاسات لهذه المواضيع الموجودة «خارج العقل» (راجع «المقدمة») . ٢ - على التفريق «المبدئي» بين الشيء في ذاته وبين الظاهرة ، يعترض فوردباخ قطعاً ، ومن بعده يوسف ديتزغن ، كما ان انجلس يدحض هذا الرأي بالمثل الموجز عن تحول «الاشياء في ذاتها» الى «اشياء من اجلنا» ، ٣ - اخيراً ، اما ان الماديين يعتبرون ان الاشياء في ذاتها «تمكن معرفتها دائماً في الظاهرة بصورة غامضة فقط» ، فان هذا مجرد هراء ، كما رأينا من دحض

انجلس للاعرفاني ؛ ان سبب تشويه المادية من قبل بوغدانوف انما هو عدم فهمه للعلاقة بين الحقيقة المطلقة والحقيقة النسبية (الامر الذي سنتحدث عنه ادناه) . اما فيما يتعلق بالشئ في ذاته «خارج التجربة» و«بعناصر التجربة» ، فان هذا هو نفس التخبيص الماخي الذي تحدثنا عنه اعلاه كفاية .
ترديد هراء لا يصدق بحق الماديين في اثر الاساتذة الرجعيين ، والتنكر لانجلس في عام ١٩٠٧ ، ومحاولة «تكييف» انجلس في عام ١٩٠٨ للاعرفانية - تلك هي فلسفة «الوضعية الحديثة» للماخييين في روسيا !

٤ - هل توجد حقيقة موضوعية ؟

يعلن بوغدانوف : «ان الماركسية تنطوي ، بنظري ، على انكار الموضوعية المطلقة للحقيقة اياً كانت ، على انكار الحقائق الخالدة على اختلافها» («الاحادية التجريبية» . الكتاب الثالث . ص IV—V . ماذا يعني تعبير : الموضوعية المطلقة ؟ ان «الحقيقة السرمدية» هي «الحقيقة الموضوعية بمعنى الكلمة المطلق» - هكذا يقول بوغدانوف في المكان نفسه ، ولكنه لا يوافق على الاعتراف «بالحقيقة الموضوعية الا ضمن حدود عهد معين» .

من الجلي هنا ان بوغدانوف خلط بين مسألتين : ١ - هل توجد حقيقة موضوعية ، اي هل يمكن ان يقوم في التصورات الانسانية مضمون لا يتوقف على الذات ، لا يتوقف لا على الانسان ولا على الانسانية ؟ ٢ - اذا كان اجل ، ايمن للتصورات البشرية التي تعرب عن الحقيقة الموضوعية ان تعرب عنها دفعة واحدة ، بصورة كلية ، بلا شك ، بصورة مطلقة ، ام بصورة تقريبية فقط ، بصورة نسبية فقط ؟ هذه المسألة الثانية هي مسألة العلاقة بين الحقيقة المطلقة والحقيقة النسبية .

يجيب بوغدانوف عن المسألة الثانية بوضوح وصراحة ودقة ، ناكراً اقل تسليم بالحقيقة المطلقة ومتهماً انجلس بالاختيارية بسبب هذا التسليم . وسوف نتحدث فيما بعد بنحو خاص عن هذا الاكتشاف لاختيارية انجلس من قبل بوغدانوف . اما الآن ، فاننا سنتناول المسألة الاولى التي يحلها بوغدانوف هي ايضاً حلاً سلبياً دون ان يقول ذلك صراحة ، - لأنه يمكن انكار عنصر النسبي في هذه او تلك من التصورات البشرية ، دون انكار الحقيقة الموضوعية ، ولكنه لا يمكن انكار الحقيقة المطلقة دون انكار وجود الحقيقة الموضوعية . ويكتب بوغدانوف بعد ذلك بقليل ، ص IX : « . . . ان معيار الحقيقة الموضوعية لا وجود له بالمعنى البلتوفي ؛ ان الحقيقة هي الشكل الايديولوجي - الشكل المنظم للتجربة الانسانية . . . » . لا شأن هنا لا « للمعنى البلتوفي » لأن المقصود احدى المسائل الفلسفية الاساسية وليس البتة بلتوف ، ولا لمعيار الحقيقة الذي يجب التحدث عنه على انفراد دون خلط هذه المسألة بمسألة ما اذا كانت توجد حقيقة موضوعية . ان جواب بوغدانوف السلبي عن هذه المسألة الاخيرة واضح : اذا كانت الحقيقة شكلاً ايديولوجياً فقط ، فان هذا يعني انه لا يمكن ان تكون ثمة حقيقة مستقلة عن الذات ، عن البشرية ، لأننا لا نعرف مع بوغدانوف ايديولوجية اخرى غير الايديولوجية الانسانية . وجواب بوغدانوف السلبي يتبدى بمزيد من الوضوح من نصف جملته الثاني : اذا كانت الحقيقة شكلاً التجربة الانسانية ، فان هذا يعني انه لا يمكن ان تكون ثمة حقيقة مستقلة عن البشرية ، لا يمكن ان تكون ثمة حقيقة موضوعية .

ان انكار بوغدانوف للحقيقة الموضوعية هو اللاعرفانية والذاتية . وان خراقة هذا الانكار جلية للعيان وان على الاقل من المثال المذكور آنفاً ، مثال الحقيقة التاريخية الطبيعية وحدها . ان العلوم الطبيعية لا تتيح الشك في ان تأكيدها لوجود الارض قبل البشرية هو حقيقة . وهذا يتفق تماماً مع نظرية المعرفة

المادية : فان وجود المعكوس المستقل عن العواكس (استقلال العالم الخارجي عن الوعي) هو المقدمة الاساسية للمادية . وان تأكيد العلوم الطبيعية بان الارض وجدت قبل البشرية ، هو حقيقة موضوعية . ولكن هذه الموضوعية التي تقول بها العلوم الطبيعية لا تتفق مع فلسفة الماخيين ومع مذهبهم بشأن الحقيقة : اذا كانت الحقيقة الشكل المنظم للتجربة الانسانية ، فلا يمكن ان يكون القول بوجود الارض خارج كل تجربة انسانية قولاً صحيحاً .

ولكن هذا لا يكفي . فاذا لم تكن الحقيقة غير الشكل المنظم للتجربة الانسانية ، فان هذا يعني ان العقيدة الكاثوليكية ، مثلاً ، هي ايضاً حقيقة . لأنه لا مجال لادنى شك في ان الكاثوليكية هي «شكل منظم للتجربة البشرية» . ولقد شعر بوغدانوف نفسه بزيغ نظريته الصارخ هذا ؛ ولذا من فائق الطرافة ان نرى كيف حاول ان يتخلص من الورطة التي وقع فيها .

نقرأ في الكتاب الاول من «الاحادية التجريبية» : «يجب ان يتواجد اساس الموضوعية في ميدان التجربة الجماعية . ونحن ننتع بالموضوعية تلك من معطيات التجربة التي لها اهمية حيوية واحدة بالنسبة لنا وبالنسبة للناس الآخرين ، تلك من المعطيات التي لا نبني عليها نشاطنا بدون تناقض وحسب ، بل التي يجب ، باقتناعنا ، ان يرتكز عليها ايضاً الناس الآخرون ، لكي لا يقعوا في تناقض . ان الطابع الموضوعي للعالم الفيزيائي يتلخص في انه موجود ، لا من اجلي وحدي ، بل من اجل الجميع» (غير صحيح ! فهو موجود بصورة مستقلة عن «الجميع») «وانه يتسم بالنسبة للجميع باهمية معينة ، مماثلة ، باقتناعي ، للاهمية التي يتسم بها بالنسبة لي . ان موضوعية الصف الفيزيائي - انما هي اهميته العامة» (ص ٢٥ . حرف التأكيد لبوغدانوف) . «ان موضوعية الاجسام الفيزيائية التي نلتقي بها في تجربتنا تتكون في آخر المطاف على اساس التحقق المتبادل من آراء مختلف الناس وعلى اساس التنسيق بينها . ان العالم الفيزيائي انما هو ،

نظرية المعرفة في المذهب النقدي التجريبي وفي المادية الديالكتيكية ١٣٩

بوجه عام ، التجربة المنسقة اجتماعياً ، المتساوقة اجتماعياً ،
وبكلمة ، **التجربة المنظمة اجتماعياً**» (ص ٣٦ ، حرف التأكيد
لبوغدانوف) .

لن نكرر ان هذا تعريف خاطئ من اساسه ، مثالي ، وان
العالم الفيزيائي موجود بصورة مستقلة عن الانسانية وعن التجربة
الانسانية ، وان العالم الفيزيائي كان موجوداً عندما لم يكن من
الممكن ان تقوم ثمة اية «اجتماعية» واية «تنظيمية» للتجربة
الانسانية ، والخ . . . وسنتناول الآن فضع الفلسفة الماخية من
جانب آخر : فان الموضوعية تُعرّف بحيث تصلح لهذا التعريف
لعالم الدين التي تتسم بلا ريب «باهمية عامة» ، والخ . . .
وللستمع من جديد الى بوغدانوف : «نذكر القراء مرة اخرى ان
التجربة «الموضوعية» ليست البتة التجربة «الاجتماعية» . . . ان
التجربة الاجتماعية ابعده من ان تكون كلها منظمة اجتماعياً ، وهي
لنطوي دائماً على تناقضات مختلفة ، ولذا لا تتوافق بعض
الاسامها مع بعضها الآخر ؛ قد توجد عفاريت الغابات وجنيات
البيوت في ميدان التجربة الاجتماعية لشعب ما او لفئة ما من
الشعب ، مثلاً ، فئة الفلاحين ؛ ولكنه لا يجوز ادراجها من جراء
ذلك في التجربة المنظمة اجتماعياً او في التجربة الموضوعية ،
لأها لا تتوافق مع التجربة الجماعية الباقية ولا تتوضع في اشكالها
المنظمة ، مثلاً ، في سلسلة السببية» (ص ٤٥) .

يقيناً انه يطيب لنا جداً ان بوغدانوف نفسه «لا يدرج»
التجربة الاجتماعية المتعلقة بعفاريت الغابات وجنيات البيوت وما
الى ذلك في التجربة الموضوعية . ولكن هذا التصحيح الصغير
الحسن النية ، بروح انكار الايمانية ، لا يصحح البتة الخطأ
الجدري في كل الموقف البوغدانوفي . فمن المؤكد ان التعريف
البوغدانوفي للموضوعية وللعالم الفيزيائي يبطل لأن لتعاليم الدين
«اهمية عامة» اكبر مما لتعاليم العلم : فان البشرية لا تزال
للصمك في غالبيتها حتى الآن بالتعاليم الاولى ، بتعاليم الدين ،
ان الكاثوليكية «منظمة ، موفقة ، منسقة اجتماعياً» من جراء

تطورها خلال قرون وقرون ؛ وهي «تتوضع» في «سلسلة السببية» بشكل لا مرأى فيه إطلاقاً ، لأن الأديان لم تنبثق بدون سبب ، ولأنها لا تبقى البتة بفعل الصدفة في صفوف سواد الشعب في ظل الظروف الراهنة ، ولأن اساتذة الفلسفة يسايرونها «بصورة طبيعية» تماماً . وإذا كانت هذه التجربة الاجتماعية - الدينية ذات الأهمية العامة الأكيدة وذات التنظيم الرفيع الأكيد «لا تتوافق» مع «تجربة» العلم ، فإن هذا يعني أنه يوجد بين هذه وتلك فرق مبدئي ، جذري ، محاه بوغدانوف عندما انكر الحقيقة الموضوعية . ومهما حاول بوغدانوف ان «يصحح نفسه» بالقول ان الايمانية او الكليريكية لا تتوافق مع العلم ، يبق مع ذلك واقع لا ريب فيه ، هو ان انكار الحقيقة الموضوعية من قبل بوغدانوف «يتوافق» كلياً مع الايمانية . فان الايمانية المعاصرة لا تنكر البتة العلم ؛ وهي لا تنكر الا «ادعاءات» العلم «المفرطة» ، واعني بالضبط ، الادعاء بالحقيقة الموضوعية . واذا كانت الحقيقة الموضوعية موجودة (وهكذا يعتقد الماديون) ، واذا كانت العلوم الطبيعية التي تعكس العالم الخارجي في «تجربة» الانسان هي وحدها التي تستطيع ان تعطينا الحقيقة الموضوعية ، فان الايمانية ، كل ايمانية ، تُنكر من كل بد . اما اذا لم تكن الحقيقة الموضوعية موجودة واذا لم تكن الحقيقة (بما فيها الحقيقة العلمية) غير شكل منظم للتجربة البشرية ، فان هذا بحد ذاته يعني الاعتراف بالمقدمة الاساسية للاكليريكية ، اذ يفتح الباب امامها ، ويخلي المكان لأجل «الاشكال المنظمة» للتجربة الدينية .

ونتساءل : هذا الانكار للحقيقة الموضوعية ، ايخص شخصياً بوغدانوف الذي لا يريد ان يعترف بانه ماخي ، ام ينبع من اساس مذهب ماخ وافيناريوس ؟ عن هذا السؤال لا يمكن الجواب الا بالمعنى الاخير . فاذا لم يكن يوجد في الدنيا غير الاحساس (افيناريوس . عام ١٨٧٦) ، واذا كانت الاجسام مركبات احساسات (ماخ في «تحليل الاحساسات») ، فمن الواضح اننا امام الذاتية الفلسفية التي تؤدي حتماً الى انكار الحقيقة

نظرية المعرفة في المذهب النقدي التجريبي وفي المادية الديالكتيكية ١٤١

الموضوعية . واذا كانت الاحساسات تسمى «بعناصر» تعطي الفيزيائي في حالة والنفسي في حالة اخرى ، فان هذا ، كما رأينا ، لا يفعل غير ان يشوش النقطة المنطقية الاساسية في المذهب النقدي التجريبي ، ولكنه لا ينكرها . ان ماخ وافيناريوس يقران بان الاحساسات هي مصدر معارفنا . وهما يتبنيان بالتالي وجهة نظر المذهب التجريبي (كل المعرفة تنشأ من التجربة) او المذهب الحسي (كل المعرفة تنشأ من الاحساسات) . ولكن وجهة النظر هذه تؤدي الى التفريق بين الاتجاهين الفلسفيين الاساسيين ، المثالية والمادية ، ولكنها لا تزيل الفوارق بينهما ، ايا كانت الحلل الكلامية «الجديدة» («العناصر») التي ترتديها . ففي وسع السوليبيسي اي المثالي الذاتي ، وفي وسع المادي ان يعترفوا على السواء بان الاحساسات هي منشأ معارفنا . وبركلي وديدرو انطلقا على السواء من لوك . لا ريب ان المقدمة الاولى في نظرية المعرفة تتلخص في ان الاحساسات هي المنشأ الوحيد لمعارفنا . ان ماخ يعترف بهذه المقدمة الاولى ، ولكنه يشوش المقدمة الثانية الهامة القائلة بالواقعية الموضوعية المعطاة للانسان في احساساته او التي تشكل منشأ الاحساسات البشرية . وانطلاقاً من الاحساسات ، يمكن السير حسب خط الذاتية الذي يؤدي الى السوليبيسيسم («الاجسام هي مركبات او تركيبات احساسات») ، ويمكن السير حسب خط الموضوعية الذي يؤدي الى المادية (الاحساسات صور الاجسام ، صور العالم الخارجي) . بالنسبة لوجهة النظر الاولى-اي اللاعرفانية او ابعد قليلاً : المثالية الذاتية - لا يمكن ان توجد الحقيقة الموضوعية . اما بالنسبة لوجهة النظر الثانية ، اي للمادية ، فمن المهم الاعتراف بالحقيقة الموضوعية . ان هذه المسألة الفلسفية القديمة ، مسألة النزعتين او بالاصح مسألة الاستنتاجين الممكنين من مقدمتي المذهب التجريبي والمذهب الحسي ، لم يحلها ماخ ، ولم يذللها ، ولم يتغلب عليها ، بل شوشها عن طريق سوء استعماله لكلمة «عنصر» ، وما الى ذلك . ان انكار الحقيقة الموضوعية من قبل

بوغدانوف هو نتيجة محتمة للماخية بأسرها ، وليس تملصاً منها .

وينعت انجلس في مؤلفه «لودفيغ فورباخ» هيوم وكانط بانهما فيلسوفان «يعارضان امكانية معرفة العالم او ، على الاقل ، معرفته الكاملة» . ويدفع انجلس ، بالتالي ، الى المرتبة الاولى ما يجمع بين هيوم وكانط ، وليس ما يفرق بينهما . وفضلاً عن ذلك ، يشير انجلس الى ان «الشيء الحاسم في دحض هذا الرأي» (رأي هيوم ورأي كانط) «قد قاله هيغل» (ص ١٥-١٦ من الطبعة الالمانية الرابعة) (٣٢) . وفي هذا الصدد يبدو لي انه لا يخلو من الفائدة والطرافة ان اشير الى ان هيغل قد اعتبر **المادية** «منهجاً منسجماً للمذهب التجريبي» وكتب يقول : «ان الظاهري (das Äußerliche) على العموم هو الحقيقي بالنسبة للمذهب التجريبي ؛ وحتى اذا كان المذهب التجريبي يسلم فيما بعد بشيء ما فوق الاحساس ، فهو ينكر امكان معرفته (soll doch eine Erkenntnis desselben (d. h. des Übersinnlichen) nicht statt finden können) ويعتبر من الضروري التقييد بوجه الحصر بما يعود الى ميدان الادراك (das der Wahrnehmung Angehörige) . ولكن هذه المقدمة الاساسية اعطت في تطورها المتتابع (Durchführung) ما أسمى فيما بعد **بالمادية** . فان المادة ، مأخوذة بذاتها ، هي بالنسبة لهذه المادية الموضوعي حقا» (das wahrhaft Objektive) . • جميع المعارف تنشأ من التجربة ، من الاحساسات ، من المدركات . هكذا هو الحال . ولكننا نتساءل : هل الواقع الموضوعي «يعود الى ميدان الادراك» اي هل هو منشأ الادراك ؟ اذا كان نعم ، فأنتم ماديون . واذا كان كلا ، فانكم غير منسجمين ، وستصلون بلا مناص الى الذاتية ، الى اللاعرفانية ،

Hegel. «Enzyklopädie der philosophischen Wissenschaften im S. 122 قارن Grundrisse», Werke, VI. Band (1843), S. 83. (هيغل .
«موسوعة العلوم الفلسفية في عرض موجز» . المؤلفات . المجلد ٦ (عام ١٨٤٣) ، ص ٨٣ . قارن ص ١٢٢ . الناشر) .

سواء أنكرتم امكان معرفة الشيء في ذاته وموضوعية الزمان
والمكان والسببية (حسب كانط) ، ام رفضتم فكرة الشيء في ذاته
(حسب هيوم) . ان انعدام انسجام مذهبكم التجريبي وفلسفتكم
بصدد التجربة سيتلخص في هذه الحال في انكم تنكرون المضمون
الموضوعي في التجربة ، تنكرون الحقيقة الموضوعية في المعرفة
القائمة على التجربة .

ان انصار خط كانط وهيوم (وفي عداد هؤلاء ماخ وافيغارايوس
لأنهما ليسا بركليين خالصين) يسموننا ، نحن الماديين ،
«بالميتافيزيائيين» . لأننا نعرف بالواقع الموضوعي الذي نحصل
عليه في التجربة ، نعرف بمنشأ احساساتنا الموضوعي ، المستقل
عن الانسان . واثرا انجلس ، ننتع نحن الماديين ، انصار كانط
وهيوم بالاعرفانيين (agnostics - **المعرب** .) لانهم ينكرون
الواقع الموضوعي بوصفه منشأ احساساتنا . ان agnostique
(اغنوستيك) كلمة يونانية : a تعني باليونانية لا ؛ gnosis -
معرفة (عرفان) . الاعرفاني يقول : لا اعرف ، ما اذا كان يوجد
واقع موضوعي تعكسه وتصوره احساساتنا ، واعلن انه يستحيل
معرفة ذلك (راجع اعلاه كلمات انجلس الذي عرض موقف
الاعرفاني) . ومن هنا - انكار الحقيقة الموضوعية من قبل
الاعرفاني ، والتساهل ، التساهل الحقيق ، التافه ، الضيق الافق ،
الجبان ، حيال التعاليم بشأن عفاريت الغابات وجنيات البيوت
والقديسين الكاثوليك ، وما مائل . ان ماخ وافيغارايوس اللذين
يتقدمان بحذقة وادعاء بتعابير «جديدة» ، ووجهة نظر «جديدة»
كما يزعمان ، يكرران بالفعل جواب الاعرفاني ، مخبصين
ومرتبكين : من جهة ، الاجسام هي مركبات احساسات (الذاتية
الصرف ، البركلية الصرف) ؛ من جهة اخرى ، اذا سمينا الاحساسات
عناصر ، امكن تصور وجودها بصورة مستقلة عن اعضاء حواسنا
يطيب للماخيين ان يتشدقوا بانهم فلاسفة يثقون كلياً
بمعطيات اعضاء حواسنا ، وانهم يعتبرون العالم فعلاً كما يبدو
لنا ، حافلاً بالاصوات والالوان ، والنخ . ، ويزعمون في الوقت

نفسه ان العالم ينظر الماديين ميت وانه يخلو من الاصوات والالوان وانه يختلف بحد ذاته عما يبدو لنا ، وهلم جراً . مثل هذا الكلام يردده ، مثلاً ، اي . بتسولدت سواء في مؤلفه «مقدمة في فلسفة التجربة الخالصة» ام في مؤلفه «قضية العالم من وجهة النظر الوضعية» (عام ١٩٠٦) . وبعد بتسولدت ، يكرر ويعلك ذلك السيد فكتور تشيرنوف ، معجباً بالفكرة «الجديدة» . اما بالفعل ، فان الماخييين ذاتيون ولاعرفانيون ، لأنهم يثقون بشكل غير كاف بمعطيات اعضاء حواسنا ، ويتبعون المذهب الحسي بشكل غير منسجم . وهم لا يعترفون بالواقع الموضوعي ، المستقل عن الانسان ، منشأً لاحساساتنا . وهم لا يرون في الاحساسات صورة صحيحة عن هذا الواقع الموضوعي ، فيدخلون في تناقض مباشر مع العلوم الطبيعية ويفتحون الباب امام الايمانية . اما المادي ، فانه ، على العكس ، يرى ان العالم اكثر غنى وحيوية وتنوعاً مما يبدو ، لأن كل خطوة في تطور العلم تكشف فيه جوانب جديدة . ان المادي يرى ان احساساتنا هي صور الواقع الموضوعي الوحيد والاخير ، - الاخير ليس بمعنى انه صار معروفاً الى النهاية ، بل بمعنى انه لا يوجد ولا يمكن ان يوجد عداه واقع آخر . ان وجهة النظر هذه تغلق الباب نهائياً ، ليس فقط امام الايمانية ، كل ايمانية ، بل ايضاً امام تلك السكولاستية الاستاذية التي لا ترى في الواقع الموضوعي منشأ احساساتنا ، «فتستنتج» ، عن طريق الانشاءات الكلامية المصطنعة ، مفهوم الموضوعي بوصفه شيئاً ذا اهمية ، منظماً اجتماعياً ، وهكذا دواليك وهلم جراً ، دون ان يكون بمقدورها ، واحياناً كثيرة دون ان ترغب في فصل الحقيقة الموضوعية عن التعاليم بشأن عفاريت الغابات وجنيات البيوت .

ان الماخييين يهزون اكتافهم بازدراء بصدد النظرات «الشائخة» عند «العقائديين الجامدين» - الماديين ، الذين يتمسكون بمفهوم المادة الذي دحضه ، حسبما يزعم ، «العلم الحديث» و«المذهب الوضعي الحديث» . وسوف نتحدث بنحو خاص عن النظريات

نظرية المعرفة في المذهب النقدي التجريبي وفي المادية الديالكتيكية ١٤٥

الجديدة في الفيزياء ، المتعلقة ببنية المادة . ولكنه لا يجوز البتة الخلط ، كما يفعل الماخيون ، بين التعاليم بشأن هذه البنية او تلك للمادة وبين المقولة العرفانية ، - خلط مسألة الخواص الجديدة للانواع الجديدة من المادة (مثلاً ، الالكترونات) وبين المسألة القديمة في نظرية المعرفة ، مسألة مصادر معرفتنا ، مسألة وجود الحقيقة الموضوعية ، وهلم جراً . يقولون لنا : ان ماخ قد «اكتشف عناصر العالم» : الاحمر ، الاخضر ، الجامد ، الرخو ، المدوي ، الطويل ، وهكذا دواليك . ولكننا نتساءل : أيعطى الانسان ، حين يرى الاحمر ويحس بالجامد ، وما الى ذلك ، الواقع الموضوعي ام لا ؟ هذه المسألة الفلسفية القديمة ، القديمة جداً ، قد شوشها ماخ . فاذا كان لا يعطى تنزلقون ، لا محالة ، مع ماخ الى الذاتية واللاعرفانية ، الى احضان الكمونيين ، الى اضراب منشيكوف الفيلسفيين ، التي تستحقونها . واذا كان يعطى ، فلا بد في هذه الحال من مفهوم فلسفي لأجل هذا الواقع الموضوعي ، وهذا المفهوم قد صيغ من زمان ، من قديم الزمان ، وهذا المفهوم انما هو **المادة** . ان المادة مقولة فلسفية للإشارة الى الواقع الموضوعي الذي يعطى للانسان في احساساته ، والذي تستنسخه ، تصوره ، تعكسه احساساتنا ، وهو موجود بصورة مستقلة عنها . ولهذا كان القول بانه يمكن لهذا المفهوم ان «يشيخ» **لعثمة اطفال** ، وتكراراً لا معنى له لحجج الفلسفة الرجعية الدارجة . فهل كان من الممكن ان يشيخ ، خلال الف سنة من تطور الفلسفة ، الصراع بين المثالية والمادية ؟ الصراع بين نزعتي او خطي افلاطون وديموقريطس في الفلسفة ؟ الصراع بين الدين والعلم ؟ الصراع بين انكار الحقيقة الموضوعية والاعتراف بها ؟ الصراع بين انصار المعرفة فوق الاحساس وبين اخصامها ؟ ان مسألة قبول او رفض مفهوم المادية هي مسألة ثقة الانسان بمدلولات اعضاء حواسه ، مسألة مصدر معرفتنا ، المسألة التي طرحها ونوقشت منذ بادى بدء الفلسفة ، المسألة التي يمكن ان يجلبها البروفسورات المهرجون بألف حلة وحلة ، ولكن التي

لا يمكن ان تشيخ كما لا يمكن ان تشيخ مسألة ما اذا كان البصر واللمس والسمع والشم مصدر المعرفة البشرية . ان اعتبار احساساتنا صوراً عن العالم الخارجي ، والاعتراف بالحقيقة الموضوعية وتبني وجهة نظر النظرية المادية للمعرفة ، انما هو الشيء نفسه . ولتبيان هذا ، اكتفي بايراد استشهاد من فورباخ ومن دليلين في الفلسفة لكي يستطيع القارى ان يرى مبلغ بساطة هذه المسألة .

كتب لودفيغ فورباخ يقول : «ما أحسن ان ننكر ان الاحساس هو الانجيل ، البشرى (Verkündigung) من المخلص الموضوعي» * . التعابير ، كما ترون ، غريبة ، فظيعة ، ولكن الخط الفلسفي واضح تماماً : فان الاحساس يكشف للانسان الحقيقة الموضوعية . «ان احساسى ذاتي ، ولكن اساسه او سببه (Grund) موضوعي» (ص ١٩٥) - قارن الاستشهاد المذكور اعلاه حيث يقول فورباخ ان المادية تنطلق من العالم الحسي ، بوصفه الحقيقة الاخيرة (ausgemachte) ، الموضوعية .

ونقرأ في «قاموس العلوم الفلسفية» لمؤلفه فرانك * * : المذهب الحسي هو تعليم يستخلص جميع افكارنا «من تجربة الحواس ، حاصراً المعرفة في الاحساس» . ويكون المذهب الحسي ذاتياً (الريبية والبركلية) واخلاقياً (الابيقورية (٣٣)) وموضوعياً . «ان المذهب الحسي الموضوعي هو المادية ، لأن المادة او الاجسام هي ، برأى الماديين ، الموضوعات الوحيدة التي يمكنها ان تؤثر في حواسنا» (atteindre nos sens) .

ويقول شفيغلر في مؤلفه «تاريخ الفلسفة» : «اذا كان المذهب الحسي قد اكد انه تمكن معرفة الحقيقة او الواقع بواسطة الحواس على وجه الحصر ، فلا يبقى (الكلام يتناول هنا فلسفة او اخر

* Feuerbach. Sämtliche Werke, X. Band, 1866, SS. 194—195 .

** «Dictionnaire des sciences philosophiques», Paris, 1875 .

(«قاموس العلوم الفلسفية» ، باريس ، عام ١٨٧٥ . الناشر) .

القرن الثامن عشر في فرنسا) غير صياغة هذا الرأي صياغة موضوعية ، واذا بنا نجد امامنا موضوعة المادية : الحسي وحده موجود ؛ وليس ثمة وجود آخر غير الوجود المادي» * .
وهذه الحقائق الاولية التي دخلت في الكتب المدرسية نساها ماخيونا .

٥ - الحقيقة المطلقة والحقيقة النسبية ،

او بصدد اختيارية انجلس
التي اكتشفها أ . بوغدانوف

حقق بوغدانوف اكتشافه هذا عام ١٩٠٦ في مقدمته للكتاب الثالث من مؤلف «الاحادية التجريبية» . فقد كتب بوغدانوف يقول :
«يعرب انجلس في مؤلفه «ضد دوهرينغ» عن رأيه تقريباً بالمعنى الذي وصفت به الآن نسبية الحقيقة» (ص V) - اي بمعنى انكار الحقائق الخالدة على اختلافها ، بمعنى «انكار الموضوعية المطلقة للحقيقة ايّا كانت» . «ان انجلس غير محق في ترده ، في كونه يعترف ، عبر كل سخره ، «بحقائق خالدة» ما ، وان حقيرة» (ص VIII) . «ان عدم الانسجام فقط يجيز هنا التحفظات الاختيارية ، كما عند انجلس . . .» (ص IX) . لنورد مثلاً على دحض اختيارية انجلس من قبل بوغدانوف . «توفي نابليون في ٥ ايار ١٨٢١» - هكذا يقول انجلس في مؤلفه «ضد دوهرينغ» (الفصل عن «الحقائق الخالدة») ، موضعاً لدوهرينغ ما يتعين ان يقتصر عليه ، اية Platteiten ، «مستويات» ، يتعين ان يكتفي بها ذلك الذي يدعي في العلوم التاريخية باكتشاف الحقائق الخالدة . واذا بوغدانوف يعترض على انجلس كما يلي : «ما هي هذه

Dr. Albert Schweigler. «Geschichte der Philosophie im Umriß», *

15-te Aufl., S. 194 (الدكتور البرت شفيغلر . «عرض لتاريخ الفلسفة» ،
الطبعة ١٥ ، ص ١٩٤ . الناشر) .

«الحقيقة» ؟ وما هو «الخالد» فيها ؟ ان الاقرار بتناسب احادي لم يعد يتسم ، على الارجح ، بالنسبة لجيلنا ، باية اهمية فعلية ، لا يمكن ان يكون نقطة انطلاق لاي نشاط ، ولا يؤدي الى اي شيء» . (ص IX) . وفي الصفحة VIII : «هل يمكن اطلاق "Plattheiten" على "Wahrheiten" ؟ هل «المستويات» حقائق ، يا ترى ؟ الحقيقة انما هي شكل منظم حي للتجربة ، وهي تقودنا الى مكان ما في نشاطنا ؛ وتعطي نقطة ارتكاز في كفاحنا الحيوي» . من هذين الاستشهادين ، يظهر بما يكفي من الوضوح ان بوغدانوف يتشاقق عوضاً عن دحض انجلس . فاذا كنت لا تستطيع ان تؤكد بان موضوعه «توفي نابليون في ٥ ايار ١٨٢١» خاطئة ام غير دقيقة ، فانك تعترف بانها صحيحة . واذا كنت لا تؤكد انه يمكن دحضها في المستقبل ، فانك تعترف بان هذه الحقيقة خالدة . اما نعت الجمل من نوع الجملة القائلة ان الحقيقة هي «شكل منظم حي للتجربة» بانها اعتراض ، فان هذا يعني اظهار مجرد مجموعة عشوائية من الكلمات بمظهر الفلسفة . اكان للارض ذلك التاريخ المعروف في الجيولوجيا ، ام ان الارض خلقت في سبعة ايام ؟ هل يجوز التهرب من هذه المسألة ، يا ترى ، بجمل عن الحقيقة «الحية» (ما يعني هذا ؟) التي «تقود» الى مكان ما ، وهكذا دواليك ؟ وهل معرفة تاريخ الارض وتاريخ البشرية «لا تتسم باية اهمية فعلية» ، يا ترى ؟ ان هذا مجرد لغو مزوق يستر به بوغدانوف تراجع . لأن هذا تراجع ، حين عمد الى تقديم البرهان على ان التسليم بالحقائق الخالدة من قبل انجلس يعني الاختيارية ، وحين يتهرب في الوقت نفسه من المسألة بالضجيج والطنين فقط ، تاركاً بدون دحض القول ان نابليون قد توفي فعلاً في ٥ ايار ١٨٢١ وانه من السخافة اعتبار هذه الحقيقة قابلة للدحض في المستقبل .

ان المثال الذي اخذه انجلس بسيط جداً ؛ وبوسع كل امرئ ان يورد بدون جهد عشرات من هذه الامثلة على الحقائق التي هي خالدة ، مطلقة ، والتي ليس من الجائز الا للمجانين ان يشكوا

فيها (كما يقول انجلس حين يسوق مثلاً آخر من الطراز نفسه : «تقع باريس في فرنسا») . لماذا يتحدث انجلس هنا عن «المستويات» ؟ لأنه يدحض ويسخر من المادي الميتافيزيائي ، العقائدي الجامد دوهرينغ الذي لم يعرف كيف يطبق الديالكتيك على مسألة العلاقة بين الحقيقة المطلقة والحقيقة النسبية . ان المادي هو من يعترف بالحقيقة الموضوعية التي تكشفها لنا اعضاء الحواس . ان الاعتراف بالحقيقة الموضوعية اي بالحقيقة المستقلة عن الانسان وعن الانسانية يعني الاعتراف بنحو او آخر بالحقيقة المطلقة . وهذا التعبير «بنحو او آخر» هو الذي يفصل المادي - الميتافيزيائي دوهرينغ عن المادي - الديالكتيكي انجلس . فيميناً وشمالاً نشر دوهرينغ ، في اعقد مسائل العلم على العموم ومسائل علم التاريخ على الخصوص ، كلمات : الحقيقة الخالدة ، النهائية ، الاخيرة . فسخر منه انجلس ورد عليه قائلاً : توجد بالطبع حقائق خالدة ، ولكنه ليس من الذكاء في شيء استعمال كلمات كبيرة (gewaltige Worte) للإشارة الى اشياء بسيطة . ولأجل دفع المادية الى الامام ، ينبغي التخلي عن اللعبة السخيفة بتعبير : الحقيقة الخالدة ، ينبغي لنا ان نعرف كيف نطرح ونحل بطريقة ديالكتيكية مسألة العلاقة بين الحقيقة المطلقة والحقيقة النسبية . هذا هو السبب الذي من اجله احتدم النضال منذ ثلاثين سنة بين دوهرينغ وانجلس . اما بوغدانوف الذي استطاع ان «لا يلاحظ» التوضيح الذي اعطاه انجلس في الفصل نفسه عن مسألة الحقيقة المطلقة والحقيقة النسبية ، بوغدانوف الذي استطاع ان يتهم انجلس «بالاختيارية» لتسليمه بموضوعة اولية ، لا مرأى فيها بالنسبة لكل مادية ، - فانه لم يفعل غير ان ابان بذلك مرة اخرى جهله المطلق للمادية والديالكتيك على السواء .

كتب انجلس في مطلع الفصل المذكور (القسم الاول ، الفصل التاسع) من مؤلفه «ضد دوهرينغ» : «ونصل الى المسألة التالية : هل يمكن لنتائج المعرفة البشرية ، واذا كان يمكن ، فاي منها ، ان تكون لها الاهمية السيّدة والحق المطلق (Anspruch) في

اعتبارها حقيقية» (ص ٧٩ من الطبعة الالمانية الخامسة) . ويحل
انجلس هذه المسألة على النحو التالي :
«ان سيادة التفكير تتحقق في صف الذين يفكرون بطريقة غير
سيّدة اطلاقاً ؛ اما المعرفة التي لها الحق المطلق في اعتبارها
حقيقية ، فانها تتحقق في صف المغالطات النسبية ؛ وليس بوسع
هذه ولا ذلك» (ليس بوسع المعرفة الحقيقية تماماً ولا
التفكير السيّد) «ان يتحققا كلياً الا في حال استمرار حياة البشرية
الى ما لا نهاية له .

وهنا نجد من جديد ذلك التناقض الذي واجهناه اعلاه ،
التناقض بين طابع التفكير البشري الذي يبدو لنا مطلقاً بحكم
الضرورة ، وبين تحقيقه في الافراد الذين لا يفكرون الا بطريقة
محدودة . وهذا التناقض لا يمكن حله الا في صف الاجيال البشرية
المتتابعة الذي هو بالنسبة لنا ، على الاقل ، صف لا نهاية له
عملياً . وبهذا المعنى ، يكون التفكير البشري سيّداً بقدر ما هو
عديم السيادة ، وتكون قدرته على المعرفة غير محدودة بقدر ما هي
محدودة . سيّداً وغير محدود من حيث طبيعته» (او بنيته ،
Anlage) ، «ودعوته ، وامكانيته ، وهدفه النهائي التاريخي ؛
غير سيّد ومحدود من حيث التحقيق المنفرد ، من حيث الواقع
المعطى في هذا الزمن او ذلك» (ص ٨١) * .

ويستطرد انجلس قائلاً : «كذلك بالضبط هو الحال فيما
يتعلق بالحقائق الخالدة» (٣٤) .
ان هذه المحاكمة خارقة الاهمية فيما يتعلق بمسألة
النسبية ، بمبدأ نسبية معارفنا الذي يؤكد عليه جميع الماخيين .

* قارن ف . تشيرنوف ، المؤلف المذكور ، ص ٦٤ وما يليها .
ان الماخي السيد تشيرنوف يتبنى كلياً موقف بوغدانوف الذي لا يرغب في
الاعتراف بانه ماخي . اما الفرق ، فهو ان بوغدانوف يحاول ان يطمس
اختلافه مع انجلس ، وان يصوره بصورة صدفة ، وما الى ذلك ، بينما
يشعر تشيرنوف بان الحديث يتناول النضال ضد المادية وضد الديالكتيك
على السواء .

فان الماخيين جميعهم يصرون على انهم من انصار مبدأ النسبية ، - ولكن الماخيين الروس ، مع تكرارهم الكلمات اثر الالمان ، يخافون او لا يعرفون كيف يطرحون بوضوح وصراحة مسألة علاقة النسبية بالديالكتيك . فان الاعتراف بنسبية معارفنا ينفي ، بنظر بوغدانوف (كما بنظر جميع الماخيين) ، اقل تسليم بالحقيقة المطلقة . اما بنظر انجلس ، فمن الحقائق النسبية تتكون الحقيقة المطلقة . بوغدانوف - نصير النسبية . انجلس - ديالكتيكي . واليكم محاكمة لانجلس من الفصل نفسه من مؤلف «ضد دوهرينغ» ليست اقل اهمية .

«ان الحقيقة والخطأ ، شأنهما شأن جميع المقولات المنطقية المتحركة ضمن حدي التضاد ، لا يتسمان باهمية مطلقة الا ضمن حدود ميدان خارق الضيق ؛ وقد سبق لنا ورأينا هذا ؛ وكان بوسع السيد دوهرينغ ان يعرف هذا لو كان مطلعاً لدرجة ما على مبادئ الديالكتيك ، على مقدماته الاولى التي تتناول على وجه الدقة عدم كفاية جميع التضادات ذات الحدين . وما ان نشرع في استعمال تضاد الحقيقة والخطأ خارج حدود الميدان الضيق المذكور اعلاه حتى يصبح هذا التضاد نسبياً ، وبالتالي غير صالح للاسلوب العلمي الدقيق للتعبير . اما اذا حاولنا ان نستعمل هذا التضاد خارج حدود الميدان المذكور بوصفه تضاداً مطلقاً ، فاننا نمنى بالاخفاق كلياً : فان حدي التضاد يتحول كل منهما الى ضده اي ان الحقيقة تصبح خطأ ويصبح الخطأ حقيقة» (ص ٨٦) (٣٥) . ويلى مثال - قانون بويل (حجم الغازات متناسب عكساً مع الضغط) . ان «ذرة الحقيقة» ، الكامنة في هذا القانون ، ليست حقيقة مطلقة الا ضمن حدود معينة . ولا يكون القانون حقيقة «الا بصورة تقريبية» .

وهكذا ، يستطيع التفكير البشري بحكم طبيعته ان يعطينا وهو يعطينا الحقيقة المطلقة التي تتكون من مجمل الحقائق النسبية . وكل درجة في تطور العلم تضيف ذرات جديدة الى مجمل الحقيقة المطلقة هذا ، ولكن حدود حقيقة كل موضوع علمية هي حدود

نسبية لانها تتسع تارة وتضيق طوراً من جراء نمو المعرفة اللاحق . وقد قال يوسف ديتزغن في «الجولات» : «بوسعنا ان نرى ونسمع ونشم ونلمس الحقيقة المطلقة ، ومن المؤكد ان بوسعنا كذلك ان نعرفها ، ولكنها لا تدخل كلياً (genht nicht auf) في المعرفة» (ص ١٩٥) . «غني عن البيان ان اللوحة لا تستنفد الموضوع المعني ، وان الرسام يبقى وراء موديليه . . . كيف يمكن ان «تتطابق» اللوحة مع الموديل ؟ تقريباً ، اجل» (ص ١٩٧) . «ليس بوسعنا ان نعرف الطبيعة واقسامها الا نسبياً ؛ لأن لكل قسم ، رغم انه ليس سوى قسم نسبي من الطبيعة ، طبيعة المطلق ، طبيعة الكل الطبيعي بحد ذاته (des Naturganzen an sich) الذي لا تستنفده المعرفة . . . فمن اين نعرف انه تقوم وراء ظاهرات الطبيعة ، وراء الحقائق النسبية ، طبيعة شاملة ، غير محدودة ، مطلقة ، لا تكشف نفسها كلياً امام الانسان ؟ . . من اين هذه المعرفة ؟ انها ملازمة لنا بالفطرة . وهي معطاة مع الوعي» (ص ١٩٨) . هذا الرأي الاخير هو احد نواقص ديتزغن التي حملت ماركس على التنويه في رسالة الى كوغلمان بالتشوش في مفاهيم ديتزغن (٣٦) . ولا يمكن التحدث عن وجود فلسفة خاصة عند ديتزغن تختلف عن المادية الديالكتيكية الا بالتشبيث بمثل هذه المقاطع غير الصحيحة . ولكن ديتزغن يصحح نفسه في الصفحة ذاتها : «اذا كنت اقول ان المعرفة عن الحقيقة اللامتناهية ، المطلقة ملازمة لنا بالفطرة وانها المعرفة الواحدة والوحيدة a priori ، فان التجربة ايضاً تؤكد مع ذلك هذه المعرفة الفطرية» (ص ١٩٨) . من جميع اقوال انجلس وديتزغن هذه ، يظهر بوضوح انه لا يوجد بنظر المادية الديالكتيكية حد يستحيل تجاوزه بين الحقيقة النسبية والحقيقة المطلقة . ولم يفهم بوغدانوف هذا البتة ، ما دام قد كتب : «انها (اي نظرة المادية القديمة الى العالم) ترغب في ان تكون معرفة موضوعية اطلاقاً لجوهر الاشياء (حرف التأكيد لبوغدانوف) وهي لا تتطابق مع الشرطية التاريخية لكل ايدولوجية» (الكتاب الثالث من «الاحادية التجريبية» ،

نظرية المعرفة في المذهب النقدي التجريبي وفي المادية الديالكتيكية ١٥٣

ص IV) . ان هدى اقتراب معارفنا من الحقيقة الموضوعية ، المطلقة ، هي شرطية تاريخياً من وجهة نظر المادية المعاصرة ، اي من وجهة نظر الماركسية ، ولكن وجود هذه الحقيقة امر لا ريب فيه ، كما انه لا ريب في اننا نقرب منها . ان محيطات اللوحة شرطية تاريخياً ، ولكن لا ريب في ان هذه اللوحة تعكس موديلاً موجوداً موضوعياً . ان الامر التالي ، وهو متى وفي اية ظروف تقدمنا في معرفتنا لجوهر الاشياء حتى اكتشاف الاليزارين في قطران الفحم الحجري او حتى اكتشاف الالكترونات في الذرة ، هو امر شرطي تاريخياً ، ولكنه لا ريب في ان كل اكتشاف من هذا النوع هو خطوة الى الامام تخطوها «المعرفة الموضوعية اطلاقاً» . خلاصة القول ان كل ايدولوجية شرطية تاريخياً ، ولكنه لا ريب في ان كل ايدولوجية علمية (خلافاً ، مثلاً ، للايدولوجية الدينية) تناسبها حقيقة موضوعية ، طبيعة مطلقة . ستقولون : هذا التفريق بين الحقيقة النسبية والحقيقة المطلقة غير واضح . وانا سأرد عليكم : انه على وجه الدقة «غير واضح» الى حد انه يحول دون تحويل العلم الى عقيدة بمعنى هذه الكلمة السيئة ، الى شيء ما ميت ، متحجر ، متجمد ، ولكنه في الوقت نفسه وعلى وجه الدقة «واضح» الى حد انه يتيح التنصل بصورة حازمة ونهائية عن الايمانية وعن اللاعرفانية ، عن المثالية الفلسفية وعن سفسطة اتباع هيوم وكانط . هنا يوجد حد لم تروه ؛ وبما انكم لم تروه ، فقد انزلتكم الى مستنقع الفلسفة الرجعية . وهذا هو الحد بين المادية الديالكتيكية وبين النسبية .

نحن من انصار النسبية . هكذا يعلن ماخ وافيناريوس وبتسولدت . نحن من انصار النسبية . هكذا يردد معهم السيد تشيرنوف وبعض الماخيين الروس الراغبين في ان يكونوا ماركسيين . اجل . ايها السيد تشيرنوف وايها الرفاق الماخيون ، هنا بالذات يكمن خطأكم . لأن من يضع النسبية في اساس نظرية المعرفة يحكم حتماً على نفسه اما بالريبية المطلقة ، واللاعرفانية والسفسطائية ، وإما بالذاتية . فان النسبية ، بوصفها اساس

نظرية المعرفة ، لا تعني الاعتراف بنسبية معارفنا وحسب ، بل تعني كذلك انكار اي مقياس او موديل موضوعي ، موجود بصورة مستقلة عن البشرية ، تقترب منه معرفتنا النسبية . ومن وجهة نظر النسبية الخالصة يمكن تبرير كل سفسطائية ، اعتبار ما اذا كان نابليون قد توفي في ٥ ايار ١٨٢١ ام لم يتوف امراً «شرطياً» ، يمكن اعتبار قبول الايديولوجية الدينية («الملائمة» جداً على صعيد ما) الى جانب الايديولوجية العلمية («الملائمة» على صعيد آخر) مجرد «ملاءمة» لأجل الانسان او لأجل الانسانية ، والنخ . . .

ان الديالكتيك ، - كما سبق واوضح هيغل ، - ينطوي على عنصر النسبية والانكار والريبية ، ولكنه لا ينحصر في النسبية . ان الديالكتيك المادي لماركس وانجلس ينطوي بلا ريب على النسبية ، ولكنه لا ينحصر فيها اي انه يعترف بنسبية جميع معارفنا ، لا بمعنى انكار الحقيقة الموضوعية ، بل بمعنى الشرطية التاريخية لمدى اقتراب معارفنا من هذه الحقيقة .

يكتب بوغدانوف مع اشارة التأكيد : «ان الماركسية المنسجمة لا تقبل بعقائدية وجمود» كما هي عليهما الحقائق الخالدة («الاحادية التجريبية» ، الكتاب الثالث ، ص IX) . هذا تخبيص . فاذا كان العالم مادة متحركة ومتطورة بصورة سمرمدية (كما يعتقد الماركسيون) ، يعكسها الوعي البشري المتنامي ، فما شأن «الجمود» هنا ؟ ان المقصود هنا ليس البتة جوهر الاشياء الثابت الذي لا يتغير ، ولا الوعي الثابت الذي لا يتغير ، بل التطابق بين الوعي الذي يعكس الطبيعة والطبيعة التي يعكسها الوعي . وفي هذه المسألة - وهذه المسألة فقط ، كان لتعبير «العقائدية» مذاق خاص فلسفي مميز : فهو تعبير المثاليين والاعرفانيين المفضل ضد الماديين ، كما سبق ورأينا من مثال فورباخ المادي «العتيق» كفاية . نفاية عتيقة ، عتيقة جداً - بهذه الصورة تتبدى جميع الاعتراضات الموجهة ضد المادية الواردة من وجهة نظر «المذهب الوضعي الحديث» السيئ الشهرة .

٦ - مقياس الواقع العملي

في نظرية المعرفة

لقد رأينا ان ماركس في عام ١٨٤٥ ، وانجلس في عام ١٨٨٨ وعام ١٨٩٢ ادخلا مقياس الواقع العملي في اساس النظرية المادية للمعرفة (٣٧) . ان طرح مسألة ما اذا كان «التفكير البشري يتطابق مع الحقيقة الملموسة» (اي الموضوعية) في معزل عن الواقع العملي انما هو سكولاستية - هكذا يقول ماركس في الموضوع الثانية عن فورباخ . ان افضل دحض للاعرفانية الكانطية والهيومية ، وكذلك لشتى الشعوذات الفلسفية (Schrullen) انما هو الواقع العملي - هكذا يردد انجلس . «ان نجاح اعمالنا يثبت توافق (تطابق ، Übereinstimmung) احساساتنا مع الطبيعة الملموسة» (الموضوعية) «للاشياء المدركة» - هكذا يعترض انجلس على اللاعرفانيين (٣٨) .

قارن بهذا محاكمة ماخ بصدد مقياس الواقع العملي . «في التفكير اليومي والكلام العادي ، يقابلون عادة الظاهري ، الوهمي ، بالواقع . فحين نمسك قلماً امامنا في الهواء ، نراه في وضع مستقيم ؛ واذا انزلناه في الماء بوضع مائل ، فانا نراه ملتويًا . في الحالة الاخيرة ، يقولون : «القلم يبدو ملتويًا ، ولكنه في الواقع مستقيم» . ولكن على اي اساس نعتبر واحداً من الحالين واقعاً ، وننزل بآخر الى درك الوهم ؟ . . حين نقترف هذا الخطأ الطبيعي - وهو اننا في الاحوال غير العادية نتوقع مع ذلك حلول ظواهر عادية ، فان توقعاتنا ستكون ، بالطبع ، باطلة . ولكن الذنب في ذلك ليس ذنب الوقائع . ان للقول بالوهم في مثل هذه الاحوال معنى من وجهة النظر العملية ، ولكن ليس البتة من وجهة النظر العلمية . وبالقدر نفسه ، ليس ثمة اي معنى من وجهة النظر العلمية للمسألة التي يتناولها البحث احياناً كثيرة ، مسألة ما اذا كان العالم موجوداً فعلاً ، ام انه ليس سوى وهم من اوهامنا ، انه حلم ولا اكثر . ولكن حتى الحلم غير المعقول اطلاقاً انما هو واقع ليس اسوأ من

اي واقع آخر» . («تحليل الاحساسات» ، ص ١٨-١٩) .
من الصحيح ان الحلم غير المعقول ليس وحده واقعاً ، بل
ان الفلسفة غير المعقولة تكون هي ايضاً واقعاً . ومن المستحيل
الشك في هذا بعد الاطلاع على فلسفة ارنست ماخ . فهو ، مثل
احط سفسطائي ، يخلط بين البحث العلمي التاريخي والنفساني
للضلالات البشرية وشتى «الاحلام غير المعقولة» التي حلمتها
البشرية من نوع الايمان في عفاريت الغايات وجنيات البيوت وما الى
ذلك ، وبين التفريق العرفاني بين الحقيقي و«غير المعقول» .
ومثل ذلك مثل اقتصادي يقول ان نظرية سينيور التي تزعم ان
«الساعة الاخيرة» من عمل العامل هي التي تعطي الرأسمالي الربح
كله ، ونظرية ماركس واقعان على السواء ، ولذا فان مسألة معرفة
اية نظرية منهما تفصح عن الحقيقة الموضوعية واية نظرية تفصح عن
اوهام البرجوازية وعن مأجورية بروفسوراتها ليس لها اي معنى من
وجهة النظر العلمية . ان دباغ الجلود يوسف ديتزغن قد رأى في
نظرية المعرفة العلمية ، اي المادية ، «سلاحاً شاملاً ضد الايمان
الديني» (*"Kleinere philosophische Schriften", S, 55) ؛ اما بنظر
البروفسور العادي ارنست ماخ ، فان الفرق بين النظرية المادية
للمعرفة والنظرية المثالية الذاتية للمعرفة «ليس له اي معنى من
وجهة النظر العلمية» ! ان العلم لاجزبي في نضال المادية ضد
المثالية والدين ؛ وهذه الفكرة هي الفكرة المفضلة ، لا عند ماخ
وحده ، بل ايضاً عند جميع البروفسورات البرجوازيين المعاصرين ،
هؤلاء «الخدم ذوي الشهادات الذين يختبلون الشعب بالمثالية
المصطنعة» ، حسبما قال يوسف ديتزغن نفسه ايضاً بكل حق
وصواب (ص ٥٣ ، المصدر نفسه) .

وهذه هي المثالية الاستاذية المصطنعة بالذات حين ينقل
ارنست ماخ مقياس النشاط العملي الذي يفصل بالنسبة للجميع
ولكل فرد بين الوهم والواقع الى خارج حدود العلم ، الى خارج

* «مؤلفات فلسفية صغيرة» . ص ٥٥ . الناشر .

نظرية المعرفة في المذهب النقدي التجريبي وفي المادية الديالكتيكية ١٥٧

حدود نظرية المعرفة . فان الواقع العملي البشري يثبت صحة النظرية المادية للمعرفة . هكذا قال ماركس وانجلس واعلنا ان المحاولات لحل المسألة العرفانية الاساسية في معزل عن الواقع العملي انما هي ضرب من «السكولاستية» و«الشعوذات الفلسفية» . اما بنظر ماخ ، فان الواقع العملي شيء ، ونظرية المعرفة شيء آخر تماماً ؛ ومن الممكن وضعهما جنباً الى جنب ، دون اشتراط الثانية بالاول . يقول ماخ في مؤلفه الاخير «المعرفة والضلال» (ص ١١٥ من الطبعة الالمانية الثانية) : «المعرفة هي انفعال نفسي نافع (förderndes) بيولوجياً» . «ان النجاح هو وحده الذي يمكنه ان يفصل المعرفة عن الضلال» (ص ١١٦) . «المفهوم هو فرضية عمل فيزيائية» (ص ١٤٣) . ان ماخيننا الروس الذين يرغبون في ان يكونوا ماركسيين ، يعتبرون بسذاجة مدهشة جمل ماخ من هذا النوع برهاناً على انه يقترب من الماركسية . ولكن ماخ يقترب هنا من الماركسية كما اقترب بيسمارك من الحركة العمالية ، او كما اقترب الاسقف يفلوغي من الديموقراطية . وعند ماخ ترد مثل هذه الموضوعات الى جانب نظريته المثالية عن المعرفة ، ولا تحدد اختيار هذا الخط المعين اذ ذاك في علم العرفان (gnoséologie) . فلا يمكن للمعرفة ان تكون نافعة بيولوجياً ، نافعة في نشاط الانسان العملي ، في صيانة الحياة ، في صيانة النوع ، إلا اذا عكست الحقيقة الموضوعية ، المستقلة عن الانسان . وبنظر المادي ، يثبت «نجاح» الواقع العملي البشري تطابق تصوراتنا مع الطبيعة الموضوعية للاشياء التي ندركها . اما بنظر السوليبيسي ، فان «النجاح» هو كل ما هو ضروري لي في الواقع العملي الذي يمكن بحثه بمعزل عن نظرية المعرفة . يقول الماركسي : اذا ادرجنا مقياس الواقع العملي في اساس نظرية المعرفة ، فاننا نحصل حتماً على المادية . اما ماخ ، فانه يقول : ليكن الواقع العملي مادياً ، اما النظرية فهي امر خاص . كتب ماخ في «تحليل الاحساسات» : «عملياً ، قلتما نستطيع ، اذ نقوم باعمال ما ، ان نستغني عن تصور الأنا ، كما لا نستطيع

ان نستغني عن تصور الجسم ، مادّين ايدينا الى شيء ما .
وفيزيولوجياً نبقى انانيين وماديين بنفس القدر من الاستمرارية
الذي نرى فيه باستمرار طلوع الشمس . اما نظرياً ، فانه لا يتعين
علينا البتة ان نتبنى هذه النظرة» (ص ٢٨٤-٢٨٥) .

الانانية ليست هنا في مكانها ، لأن هذه مقولة ليست البتة
مقولة عرفانية . كذلك لا شأن هنا لتحرك الشمس الظاهري حول
الارض ، لأنه ينبغي لنا ان ندرج ايضاً ممارسة المراقبات
الفلكية ، والاكتشافات ، والنخ . ، في الواقع العملي الذي يشكل
بالنسبة لنا المقياس في نظرية المعرفة . يبقى هذا الاعتراف القيم
من ماخ ، وهو ان الناس يسترشدون كلياً وعلى وجه الحصر في
نشاطهم العملي بالنظرية المادية للمعرفة ؛ اما محاولة الاستغناء
عنها «نظرياً» ، فانها لا تعبّر الا عن تطلعات ماخ السكولاستية
السطحية والمثالية المصطنعة .

اما الى اي درجة ليست جديدة هذه الجهود الرامية الى فرز
النشاط العملي وتصويره بصورة شيء لا يصح بحثه في علم
المعرفة ، لأجل اخلاء المكان للاعرفانية والمثالية ، فان هذا يبيّنه
المثال التالي من تاريخ الفلسفة الالمانية الكلاسيكية . ففي
الطريق من كانط الى فيخته ، يقف هنا غ . ا . شولتسه (المسمى
في تاريخ الفلسفة شولتسه - اينيزيدم) . ان شولتسه يدافع على
المكشوف عن خط الريبة والشك في الفلسفة قائلاً عن نفسه انه
تابع لهيوم (وتابع من بين القدماء لبيرون وسكستوس) ؛ وينكر
قطعاً كل شيء في ذاته وامكانية المعرفة الموضوعية ، ويطلب
قطعاً بان لا نمضي ابعد من «التجربة» ، ابعد من الاحساسات ،
علماً بانه يتوقع كذلك الاعتراض من المعسكر الآخر : «بما ان
الشكّاك ، عندما يشترك في شؤون الحياة ، يعترف بان واقع
الاشياء الموضوعية امر لا ريب فيه ، ويتصرف وفقاً لذلك ،
ويسلّم بمقياس الحقيقة ، فان مسلك الشكّاك بالذات هو افضل

واوضح دحض لشكه وريبته» * . ويرد شولتسه باستياء وغضب : «ان الحجج من هذا النوع لا تصلح الا للرعاغ (Pöbel, S. 254) لأن ريبتي لا تمس النشاط العملي الحيوي وتبقى ضمن حدود الفلسفة» (ص ٢٥٥) .

كذلك يأمل المثالي الذاتي فيخته هو ايضاً بان يجد ضمن حدود فلسفة المثالية مكاناً لأجل تلك «الواقعية المحتملة (sich aufdringt) بالنسبة لنا جميعاً وحتى بالنسبة لأحزم المثاليين ، عندما تسير الامور الى حد الفعل ، الواقعية التي ترى ان الاشياء موجودة بصورة مستقلة تماماً عنا» (Werke, I, 455) ان الوضعية الحديثة عند ماخ لم تتقدم كثيراً بالمقارنة مع شولتسه وفيخته ! ونشير من باب الطرافة الى انه لا يوجد في الدنيا احد في هذه المسألة ، بنظر بوغدانوف ، غير بليخانوف : بنظر الفأر ، لا وحش اقوى من الهر . ان بازاروف يضحك من «فلسفة بليخانوف السالتوفيتالية» («دراسات» ، ص ٦٩) لأن بليخانوف كتب جملة سخيفة فعلاً مفادها ان «الايمان» في وجود العالم الخارجي «هو salto vitale» (سالتوفيتاله - قفزة حيوية) «محتمة للفلسفة» («ملاحظة على لودفيغ فورباخ» ، ص ١١١) . ان تعبير «الايمان» وان كان مأخوذاً بين اهله صغيرة ، ومكرراً بعد هيوم ، يكشف تشوش التعابير عند بليخانوف ، وهذا اكيد . ولكن ما شأن بليخانوف هنا ؟ لماذا لم يأخذ بازاروف مادياً آخر، فورباخ مثلاً ؟ ألانه لا يعرفه ، لا اكثر ولا اقل ؟ ولكن الجهل ليس حجة . وفورباخ ، مثله مثل ماركس وانجلس ، يقوم هو ايضاً «بقفزة» غير جائزة ، من وجهة نظر شولتسه وفيخته وماخ ،

G. E. Schulze. «Aenesidemus oder über die Fundamente der * von dem Prof. Reinhold in Jena gelieferten Elementarphilosophie», 1792, S. 253 (غ . ا . شولتسه . «اينيزيدم او عن اسس الفلسفة البسيطة التي يقدمها البروفسور رينهولد من يينا» ، عام ١٧٩٢ ، ص ٢٥٣ . الناشر) .

الى النشاط العملي في المسائل الاساسية في نظرية المعرفة .
 وحين ينتقد فورباخ المثالية ، يعرض جوهرها باستشهاد يفتقأ
 العين من كتابات فيخته ويضرب الماخية كلها ضربة رائعة . فقد
 كتب فيخته يقول : «انت تعتقد ان الاشياء فعلية ، وانها توجد
 خارجاً عنك ، لمجرد انك تراها وتسمعها وتلمسها . ولكن البصر
 واللمس والسمع ليست سوى احساسات . . . انت لا تحس
 الاشياء ، بل تحس فقط احساساتك» . (فورباخ .
 Werke, X, Band, S. 185 . ويعترض فورباخ قائلاً : الانسان
 ليس انا مجرداً ، ولكنه إما رجل وإما امرأة ؛ ومسألة ما اذا
 كان العالم احساساً تمكن مساواتها بالمسألة التالية : أيكون
 انسان آخر احساسى ام ان علاقاتنا في الواقع العملي تثبت
 العكس ؟ «ان خطأ المثالية الجنري يكمن على وجه الدقة في كونها
 لا تطرح وتحل مسألة الموضوعية والذاتية ، مسألة واقعية او
 لاواقعية العالم الا على الصعيد النظري» (ص ١٨٩ ، المرجع نفسه) .
 ان فورباخ يأخذ بالحسبان كل مجمل الواقع العملي البشري اساساً
 لنظرية المعرفة . ويقول : يقيناً ان المثاليين يعترفون هم ايضاً
 في الواقع العملي بواقعية انا و انت الآخر سواء بسواء . ويعتقد
 المثاليون «ان هذه وجهة نظر تصلح لأجل الحياة فقط ، ولا
 تصلح لأجل التأمل . ولكن التأمل الذي يدخل في تناقض مع
 الحياة ، ويجعل من وجهة نظر الموت والنفس المفصولة عن الجسم
 وجهة نظر الحقيقية ، - ان هذا التأمل هو تأمل ميت ، زائف»
 (ص ١٩٢) . فقبل ان نحس ، نتنفس ؛ ولا يسعنا ان نعيش
 بدون الهواء والمأكل والشراب .

«هذا يعني اذن ، ان الحديث يتناول المأكل والشراب عند
 تحليل مسألة مثالية العالم او واقعيته ؟ - يهتف المثالي
 الغاضب . - يا للسفالة ! واي انتهاك للعادة الطيبة ، عادة شتم
 المادية بالمعنى العلمي من منبر الفلسفة ومن منبر اللاهوت بكل
 قوة ومن ثم ممارسة المادية بأخشن معانيها الى المائدة»
 (ص ١٩٥) . ويهتف فورباخ ان مساواة الاحساس الذاتي منطبقاً

نظرية المعرفة في المذهب النقدي التجريبي وفي المادية. الديالكتيكية ١٦١

مع العالم الموضوعي «تعني المساواة بين الاحتلام والانسال»
(ص ١٩٨) .

هذه الملاحظة ليست من الملاحظات اللطيفة جداً ، ولكنها
تصيب لا حاجب ، بل عين اولئك الفلاسفة الذين يعلمون ان
التصور الحسي هو الواقع الموجود خارجاً عننا .

يجب ان تكون وجهة نظر الحياة ، وجهة نظر الواقع العملي
وجهة النظر الاولى والاساسية في نظرية المعرفة . ووجهة النظر
هذه تؤدي حتماً الى المادية ، نايذة منذ بادىء بدء الاختلاقات
اللامتناهية للسكولاستية الاستاذية . وبقيناً انه ينبغي ان لا
ينيب عن البال في هذه الحال ان مقياس الواقع العملي لا يسعه
ابدأ ، من حيث جوهر الامر ، ان يؤكد او يدحض كلياً اي تصور
بشري كان . وهذا المقياس هو ايضاً «غير واضح» الى درجة انه
لا يتيح لمعارف الانسان ان تتحول الى «مطلق» ، وهو في الوقت
نفسه واضح الى درجة انه يتيح خوض النضال بلا هوادة ضد
جميع انواع المثالية والاعرفانية . واذا كان ما يؤكد واقعنا
العملي هو الحقيقة الوحيدة ، الاخيرة ، الموضوعية ، نبع من هنا
الاعتراف بان سبيل العلم الذي يتبنى وجهة النظر المادية هو
السبيل الوحيد الى هذه الحقيقة . مثلاً . يوافق بوغدانوف على
الاعتراف بان لنظرية ماركس بشأن تداول النقد حقيقة موضوعية
«بالنسبة لزمنا» فقط ، ناعتاً امر ايلاء هذه النظرية حقيقة
«موضوعية فوق التاريخ» «بالجمود العقائدي» («الاحادية
التجريبية» ، الكتاب الثالث ، ص VII) . وهذا تخبيص من
جديد . فان تطابق هذه النظرية مع الواقع العملي لا يمكن ان
تغيره اية ظروف مقبلة ، للسبب البسيط نفسه الذي تكون
بموجبه خالدة حقيقة ان نابليون توفي في ٥ ايار ١٨٢١ . ولكن
بما ان مقياس الواقع العملي ، - اي سير تطور جميع البلدان
الرأسمالية في العقود الاخيرة من السنين ، - لا يثبت الا الحقيقة
الموضوعية لنظرية ماركس الاجتماعية-الاقتصادية كلها على
العموم ، وليس لهذا القسم او ذاك ، لهذه الصيغة او تلك ، وما

الى ذلك ، فمن الواضح ان القول هنا «بجمود» الماركسيين «العقائدي» يعني القيام بتنازل لا يغتفر في صالح الاقتصاد البرجوازي . ان الاستنتاج الوحيد من ذلك الرأي الذي يشاطره الماركسيون والذي يقول ان نظرية ماركس هي حقيقة موضوعية ، يتلخص فيما يلي : **بالسير على طريق النظرية الماركسية ، سنقترب اكثر فاكثر من الحقيقة الموضوعية (دون ان نستنفدها ابدأ) ؛ اما بالسير على اي طريق آخر ، فلا يسعنا ان نصل الى اي شيء ، غير التخبيص والكذب .**

الفصل الثالث

نظرية المعرفة في المادية الديالكتيكية والمذهب النقدي التجريبي . - ٣

١ - ما هي المادة ؟ ما هي التجربة ؟

السؤال الاول من هذين السؤالين يطرحه المثاليون ،
اللاعرفانيون ، بمن فيهم الماخيون ، ابدأ ودائماً ، على الماديين ؛
والسؤال الثاني يطرحه الماديون على الماخيين . لنحاول تفهيم
المشكلة .

يقول افيناريوس في مسألة المادة :

«لا وجود «للفيزيائي» - «المادة» - بالمعنى المطلق
الميتافيزيائي في داخل «التجربة الكاملة» المطهرة ، لأن «المادة»
بهذا المعنى ليست غير تجريد : والا كانت مجمل الأعضاء
المضادة في حال تجردها من كل عضو مركزي . وكما انه لا يمكن
تصور (undenkbar) العضو المضاد بدون العضو المركزي في
التنسيق المبدئي ، اي في «التجربة الكاملة» كذلك فان «المادة»
بالمعنى المطلق الميتافيزيائي هي ايضاً سخافة كاملة
(Unding) «(Bemerkungen)» ، ص ٢ * ، في المجلة المذكورة ،
الفقرة (١١٩) .

من هذه الرطانة ، يتبين شيء واحد هو ان افيناريوس
يسمي الفيزيائي او المادة بالمطلق والميتافيزيائي لأن العضو
المضاد ، حسب نظريته ، نظرية التنسيق المبدئي (او ايضاً
بالاسم الجديد : نظرية «التجربة الكاملة») ، لا ينفصل عن العضو

* «Bemerkungen zum Begriff des Gegenstandes der Psychologie»

S. 2. («ملاحظات بصدد موضوع علم النفس» ، ص ٢) . الناشر .

المركزي ، ولأن البيئة لا تنفصل عن **الأنا** ، **واللانا** لا ينفصل عن **الأنا** (كما قال ا . غ . فيخته) . أما ان هذه النظرية هي مثالية ذاتية في ثوب آخر ، فقد سبق لنا وتحدثنا عن ذلك في مكانه ، وطابع حملات افيناريوس على «المادة» واضح تماماً : ان المثالي ينكر وجود الفيزيائي بصورة مستقلة عن النفسي ، ولذا يرفض المفهوم الذي صاغته الفلسفة لأجل هذا الوجود . أما ان المادة هي «فيزيائي» (اي الامر الذي اكثر ما يعرفه الانسان والمعطى له مباشرة ، والذي لا يشك احد في وجوده ، ما عدا المجانين) ، فان افيناريوس لا ينكر هذا ، ولكنه يطالب فقط بقبول نظرية «ه» بصدد الصلة التي لا انفصام لعراها بين البيئة و**الأنا** .

ويعرب ماخ عن الفكرة نفسها بصورة ايسط ، بدون الشعوذة الفلسفية : «ان ما نسميه بالمادة ليس غير الصلة الطبيعية المعروفة بين **العناصر** («الاحساسات»)» (تحليل الاحساسات» ، ص ٢٦٥) . يبدو لماخ انه بتقديم هذا الزعم ، يقوم «بانقلاب جذري» في النظرة العادية الى العالم . اما في الواقع ، فان ذلك هو المثالية الذاتية ، القديمة القديمة ، المستور عريها بكلمة «عنصر» .

واخيراً ، يقول الماخي الانجليزي بيرسون الذي يحارب المادية بضراوة وجنون : «من وجهة النظر العلمية لا يمكن ان يكون ثمة اعتراض على تصنيف مجموعات معينة دائمة الى هذا الحد او ذاك من المدركات الحسية بجمعها معاً وتسميتها بالمادة ، وهكذا نقرب كثيراً جداً من تعريف ج . ست . ميل القائل : ان المادة هي امكانية الاحساس الدائمة ، ولكن هذا التعريف للمادة لا يشبه البتة التعريف القائل ان المادة شيء يتحرك» (*The Grammar of Science, 1900, 2nd ed., p. 249). هنا لا وجود لورقة تين «العناصر» ، والمثالي يمد اليد مباشرة الى الاعرفاني .

* «قواعد العلم» ، ١٩٠٠ ، الطبعة الثانية ، ص ٢٤٩ . الناشر .

ان القارى يرى ان جميع محاكمات مؤسسي المذهب النقدي التجريبي هذه تدور كلياً وعلى وجه الحصر في اطار المسألة العرفانية المزمّنة ، مسألة العلاقة بين الفكر والوجود ، بين الاحساس والفيزيائي . كان لا بدّ من سداجة الماخيين الروس اللامتناهية لاستشفاف شيء ما هنا يمت ، وان بصلة ما ، الى «العلوم الطبيعية الحديثة» او الى «الوضعية الحديثة» . وان جميع الفلاسفة الذين ذكرناهم يستعيضون ، بعض منهم بصراحة وبعض آخر بتصعيرة ، عن خط المادية الفلسفي الاساسي (من الوجود الى الفكر ، من المادة الى الاحساس) بخط المثالية المعاكس . فان انكارهم للمادة هو حل معروف من سحيق الزمان للمسائل النظرية العرفانية بمعنى انكار المصدر الخارجي ، الموضوعي لاحساساتنا ، للواقع الموضوعي المتطابق مع احساساتنا . وبالعكس ، يتجلى الاعتراف بالخط الفلسفي الذي ينكره المثاليون واللاعرفانيون في التعريفين التاليين : المادة هي ما ينتج الاحساس ، بالتأثير في اعضاء حواسنا ؛ المادة هي الواقع الموضوعي المعطى لنا في الاحساسات ؛ وما الى ذلك .

ان بوغدانوف اذ يتظاهر بانه يتجادل مع بلتوف فقط ، يتجنب انجلس بعبارة ، ويبيدي امتعاضه من هذه التعريفات التي هي ، حسبما يزعم ، «مجرد ترديدات» («الاحادية التجريبية» ، الفصل الثالث ، ص XVI) لتلك «الصيغة» (وينسى صاحبنا «الماركسي» ان يضيف انها صيغة انجلس) القائلة ان المادة هي الاولى والروح هي الثانوية بنظر اتجاه في الفلسفة ، بينما الحال بالعكس بنظر الاتجاه الآخر . ان جميع الماخيين في روسيا يرددون «الدحض» البوغدانوفي باعجاب وابتهاج ! والحال ، كان بوسع تفكير في منتهى البساطة ان يبين لهؤلاء الناس انه لا يمكن ، لا يمكن من حيث جوهر الامر ، اعطاء تعريف آخر للمفهومين الاخيرين لعلم العرفان إلا بالاشارة الى اي منهما يعتبر الاولي . ماذا يعني اعطاء «تعريف» ؟ انه يعني ، قبل كل شيء ، ايعاب مفهوم معني في مفهوم آخر ، اوسع . مثلاً ، حين اعرف :

الحمار هو حيوان ، ادرج مفهوم «الحمار» ضمن مفهوم اوسع .
ونتساءل الآن : هل هناك مفاهيم يمكن ان تستعملها نظرية
المعرفة اوسع من مفاهيم : الوجود والفكر ، المادة والاحساس ،
الفيزيائي والنفسي ؟ كلا . فان هذه مفاهيم واسعة الى اقصى
حد ، اوسع المفاهيم ، وابتعد منها لم يمض حتى الآن علم العرفان
من حيث جوهر الامر (اذا لم نأخذ بالحسبان التغيرات الممكنة
دائماً في المصطلحات) . ولا يمكن لغير الشعوذة او لاقصى قلة
العقل ان يطالب «بتعريف» كهذا لهذين «الصفين» من المفاهيم
الواسعة الى اقصى حد ، لا يقتصر على «مجرد الترديد» : ان هذا
او ذاك يؤخذ بوصفه الاولي . خذوا المحاكمات الثلاث المذكورة
اعلاه بصدد المادة . فقيم تنحصر جميعها ؟ في ان هؤلاء الفلاسفة
ينطلقون من النفسي ، او الانا ، الى الفيزيائي ، او البيئة ، كما
من العضو المركزي الى العضو المضاد ، - او من الاحساس الى
المادة ، - او من المدرك الحسي الى المادة . وهل كان بوسع
افيناريوس وماخ وبيرسون ، من حيث جوهر الامر ، ان يعطوا
«تعريفاً» مغايراً ما عن المفاهيم الاساسية ، عدا الاشارة الى اتجاه
خطهم الفلسفي ؟ هل كان بوسعهم ان يعرفوا بنحو آخر ، ان
يعرفوا ايضاً بنحو ما خاص ، ما هو الانا ، ما هو الاحساس ،
ما هو المدرك الحسي ؟ حسبنا ان طرح السؤال بوضوح حتى
نفهم اية سخافة في منتهى العظمة ينطق بها الماخيون حين يطالبون
الماديين بتعريف للمادة لا ينحصر في الترديد ان المادة ، الطبيعة ،
الوجود ، الفيزيائي هو الاولي ، وان الروح ، الوعي ، الاحساس ،
النفسي هو الثانوي .

ولكن عبقرية ماركس وانجلس تجلت ، فيما تجلت ، في
احتقارهما للتلاعب المتحذلق بالكلمات الجديدة ، والتعابير
العويصة ، وال«يات» المعقدة ، وفي قولهما ببساطة وصراحة :
يوجد في الفلسفة خط مادي وخط مثالي ، وبينهما توجد مختلف
تلاوين للاعرفانية . وان المساعي لايجاد وجهة نظر «جديدة» في
الفلسفة تعكس نفس فقر الروح الذي تعكسه المساعي لابتداع

نظرية «جديدة» للقيمة ، ونظرية «جديدة» للريع ، وما الى ذلك .
وعن افيناريوس يفيد تلميذه كارستانيان انه اعرب عن
رأيه في حديث خاص قائلاً : «انا لا اعرف لا الفيزيائي ولا
النفسي ، انما اعرف الثالث فقط» . ورداً على ملاحظة كاتب قال
ان افيناريوس لم يعط مفهوم هذا الثالث ، اجاب بتسولدت :
«نحن نعرف لماذا لم يستطع تقديم هذا المفهوم . فبالنسبة
لثالث ، لا يوجد مفهوم مضاد (Gegenbegriff) مفهوم مناسب) . . .
ان السؤال : ما هو الثالث ؟ مطروح بصورة غير منطقية»
(“Einführung in die Philosophie der reinen Erfahrung”, II,
329*) . اما انه يستحيل تعريف المفهوم الاخير ، فان بتسولدت يفهم
هذا . ولكنه لا يفهم ان الاستشهاد «بالثالث» هو مجرد شعوذة ،
لان كلاً منا يعرف ما هو الفيزيائي وما هو النفسي ، ولكن اياً
منا لا يعرف في الوقت الحاضر ما هو «الثالث» . وبهذه الشعوذة ،
لم يفعل افيناريوس غير ان طمس الآثار ، معلنا **الانا في الواقع** ،
الاولي (العضو المركزي) ، والطبيعة (البيئة) الثانوي (العضو
المضاد) .

ويقيناً ان التضاد بين المادة والوعي لا يتسم هو ايضاً
باهمية مطلقة الا ضمن حدود ميدان ضيق جداً : في الحالة المعنية،
ضمن الحدود التالية بوجه الحصر ، حدود المسألة العرفانية
الاساسية المتعلقة بما يصح اعتباره الاولوي وما يصح اعتباره
الثانوي . وفيما وراء هذه الحدود ، لا مجال للشك في نسبية
هذا التضاد .

لنمعن النظر الآن في استعمال كلمة : التجربة في الفلسفة
النقدية التجريبية . ان الفقرة الاولى من «نقد التجربة الخالصة»
تعرض «التسليم» بما يلي : «ان اي جزء من بيئتنا لعل علاقة مع
الافراد البشريين بحيث انه اذا اصبح هذا الجزء ماثلاً لاعلنوا عن
تجربتهم : هذا وذاك اعرف عن سبيل التجربة ؛ هذا وذاك تجربة،

او : نبع من التجربة ، يتوقف على التجربة» (الصفحة ١ ، الترجمة الروسية) . اذن ، تعرّف التجربة بواسطة المفهومين نفسيهما : انا والبيئة ، علماً بان «مذهب» «الصلة التي لا انفصام لعراها» بينهما يختفى لزمان ما . وبعد . «المفهوم التركيبي عن التجربة الخالصة» : «عن التجربة على وجه التحديد ، بوصفها اعلاناً ، تشكل اجزاء البيئة وحدها مقدمة له ، في كل قوامه» (ص ١-٢) . اذا اعتبرنا ان البيئة توجد بصورة مستقلة عن «اعلانات» الانسان و«تصريحاته» ، توفرت امكانية تفسير التجربة تفسيراً مادياً ! «المفهوم التحليلي عن التجربة الخالصة» : «بوصفها اعلاناً على وجه التحديد لم يُخلط بشيء ، ليس بدوره تجربة ، وليس بالتالي غير التجربة» (ص ٢) . التجربة هي التجربة . ومع ذلك ، يتواجد اناس يعتبرون هذا الهراء العلمي المزعوم حكمة حقيقية ! ومن الضروري ان نضيف ايضاً ان افيناريوس يدرس في المجلد الثاني من «نقد التجربة الخالصة» «التجربة» بوصفها «حالة خاصة» للنفسي ، وانه يقسم التجربة الى sachhafte Werte (قيم ملموسة) و gedankenhafte Werte (قيم فكرية) ، وان «التجربة بالمعنى الواسع» تشمل هذه الاخيرة ، وان «التجربة الكاملة» والتنسيق المبدئي ("Bemerkungen") هما الشيء نفسه . وبكلمة : «ما تريده ، تطلبه» . ان «التجربة» تستر الخط المادي والخط المثالي في الفلسفة ، مكرسة الخلط بينهما . واذا كان ماخيونا يصدقون «التجربة الخالصة» بسذاجة ، فان ممثلي مختلف الاتجاهات في المطبوعات الفلسفية يشيرون جميعهم الى سوء استعمال هذا المفهوم من جانب افيناريوس . فقد كتب ا . ريل يقول : «ان ماهية التجربة الخالصة تبقى عند افيناريوس غير واضحة ، وقوله : «التجربة الخالصة هي تجربة لم تُخلط بشيء ليس بدوره تجربة» يدور في حلقة بكل جلاء» (* "Systematische Philosophie", Lpz., 1907, S. 102) . وكتب

* «الفلسفة النظامية» . ليزيغ . عام ١٩٠٧ ، ص ١٠٢ . الناشر .

فوننت يقول ان التجربة الخالصة عند افيناريوس تعني تارة اي تخيل كان ، وتعني طوراً تصريحات متسمة بطابع «الملموس» (*Philosophische Studien», XIII. Band, S. 92-93). ان افيناريوس يحدد مفهوم التجربة (ص ٣٨٢) . وقد كتب كوفيلارت يقول : «على التعريف الدقيق لمصطلحي التجربة والتجربة الخالصة ، يتوقف معنى كل هذه الفلسفة . الا ان افيناريوس لا يعطي هذا التعريف الدقيق» („Revue. Néo-Scholastique”, 1907, févr., p. 61**) ويقول نورمان سميت (***) („Mind”, vol. XV, p. 29) «علم وضوح المصطلح : التجربة تقدم خدمات طيبة لافيناريوس» في تحرير المثالية بذريعة النضال ضدها .

«اني اعلن على رؤوس الاشهاد : ان مغزى فلسفتي الداخلي ، روحها انه ليس للانسان اي شيء على العموم عدا التجربة ؛ فان الانسان يتوصل الى كل ما يتوصل اليه عبر التجربة فقط . . .» . اي فيلسوف متحمس للتجربة الخالصة هذا الفيلسوف ، أليس كذلك ؟ ان صاحب هذا القول هو المثالي الذاتي ي . غ . فيخته (***) („Sonn. Ber. etc.”, S. 12) . ومعلوم من تاريخ الفلسفة ان تفسير مفهوم «التجربة» فرق بين الماديين والمثاليين الكلاسيكيين . وفي الوقت الحاضر ، تجلبب الفلسفة الاستاذية من كل شاكلة وطراز نزعتها الرجعية بجلباب البيانات الطنانة بصدده «التجربة» . وبالتجربة يستشهد جميع انصار مذهب الكمونوية . ويطري ماخ في مقدمة الطبعة الثانية لمؤلفه «المعرفة والضلال»

* «دراسات فلسفية» . المجلد ١٣ ، ص ٩٢-٩٣ . الناشر .

** «المجلة السكولاستية الجديدة» . عام ١٩٠٧ . شباط (فبراير)

ص ٦١ . الناشر .

*** «الفكر» . المجلد ١٥ ، ص ٢٩ . الناشر .

**** «Sonnenklarer Bericht an das größere Publikum über das

eigentliche Wesen der neuesten Philosophie», S. 12

كالشمس للجمهور الواسع بشأن جوهر الفلسفة الحديثة الحقيقي» ، ص

(١٢) . الناشر .

كتاب البروفسور ف . اورشليم ، هذا الكتاب الذي نقرأ فيه :
«ان القبول باولوية الوجود الرباني لا يناقض اي تجربة»
("Der krit. Id. etc.", S. 222*).

لا يبقى لنا غير ان نتأسف لاولئك الذين صدقوا افيناريوس
وشركاه وظنوا بانه يمكن بواسطة كلمة «التجربة» تجاوز الفرق
«الشائخ» بين المادية والمثالية . واذا كان فالنتينوف
ويوشكيفيتش يتهمان بوغدانوف الذي انحرف قليلاً عن الماخية
الخالصة بسوء استعمال كلمة «التجربة» ، فان هذين السيدين
يكشفان هنا جهلها وحسب . ذلك ان بوغدانوف «غير مذنب» في
هذا البند : لقد اقتبس فقط على العمياء تخبيص ماخ وافيناريوس.
وعندما يقول : «ان الوعي والتجربة النفسية المباشرة مفهومان
متماثلان» («الاحادية التجريبية» ، المجلد ٢ ، ص ٥٣) ، ان المادة
«ليست تجربة» بل «المجهول الذي ينبع منه كل معروف» («الاحادية
التجريبية» ، المجلد ٣ ، ص XIII) ، - فانه يفسر التجربة
تفسيراً مثالياً . وبقينا انه ليس اول * * ولا آخر من يبني
نظيماً مثالية على كلمة «التجربة» . وعندما يعترض على الفلاسفة
الرجعيين ، قائلاً ان محاولات تخطي حدود التجربة «لا» تؤدي
بالفعل «الا الى تجريدات فارغة ، وصور متناقضة كانت جميع
عناصرها مأخوذة من التجربة ايضاً» (المجلد الاول ، ص ٤٨) ،
فانه يقابل التجريدات الفارغة التي يخترعها الوعي البشري بما
يوجد خارج الانسان وبصورة مستقلة عن وعيه اي انه يفسر
التجربة تفسيراً مادياً .

* «Der kritische Idealismus und die reine Logik», S. 222
(«المثالية النقدية والمنطق الخالص» . ص ٢٢٢) . الناشر .

* * في انجلترا يقوم الرفيق بلفورت باكس من زمان يمثل هذه
الامور ؛ ومؤخراً قال له الناقد الفرنسي لكتابه «The Roots of Reality»
«جذور الواقع» . الناشر) ، وليس بدون سُمّ وسخر : «التجربة -
كلمة اخرى فقط عوضاً عن الوعي» ، فاعلن اذن على المكشوف انك مثالي !
(«Revue de Philosophie» (٣٩) ، 1907, N° 10, p. 399).

وعلى النحو نفسه ، لا يندر لماخ ، مع ان المثالية هي وجهة نظره الانطلاقية (الاجسام هي مركبات احساسات او مركبات «عناصر») ، ان ينحرف الى التفسير المادي لكلمة «التجربة» . فهو يقول في مؤلفه «الميكانيك» (الطبعة الالمانية الثالثة ، عام ١٨٩٧ ، ص ١٤) : «على المرء ، لا ان يتفلسف من نفسه (nicht aus uns herausphilosophieren) ، بل ان يأخذ من التجربة». ان التجربة تُقَابِلُ هنا بالتفلسف من النفس ، اي انها تُفَسَّرُ كشيء موضوعي ، معطى للانسان من الخارج ، تُفَسَّرُ تفسيراً مادياً . واليكم مثالا آخر : «ان ما نلاحظه في الطبيعة ، وان كان غير مفهوم وغير مُحَلَّل من قبلنا ، ينطبع في تصوراتنا ؛ وهذه التصورات تقلد (nachahmen) فيما بعد ، في اعم وأثبت (stärksten) خطوطها ، عمليات الطبيعة . ونحن نملك في هذه التجربة احتياطياً (Schatz) هو دائماً في منال يدنا...» (المرجع نفسه ، ص ٢٧) . هنا تؤخذ الطبيعة باعتبارها الاولى ، والاحساسات والتجربة باعتبارها الثانوي . ولو ان ماخ تبني بداب وانسجام وجهة النظر هذه في القضايا الاساسية في علم العرفان ، لكان جَنَّب الانسانية «مركبات» مثالية كثيرة وغبية . اليكم المثال الثالث : «ان الصلة الوثيقة بين الفكر والتجربة تخلق علم الطبيعة المعاصر . ان التجربة تولد الفكر . والفكر يستمر في تطوره ويُقَارَن من جديد بالتجربة» والغ . (*"Erkenntnis und Irrtum", S. 200) . ان «فلسفة» ماخ الخاصة لد رمي بها هنا جانباً ، والمؤلف ينتقل بصورة عفوية الى وجهة النظر العادية عند علماء الطبيعة الذين ينظرون الى التجربة نظرة مادية .

الحاصل : ان كلمة «التجربة» التي يبني عليها الماخيون انظمتهم قد كانت من قديم الزمان وسيلة لستر الانظمة المثالية ولا تزال الآن عند افيناريوس وشركاه وسيلة للانتقال الاختياري

من الموقف المثالي الى المادية وبالعكس . ان مختلف «تعاريف» هذا الفهوم لا تعبر الا عن الخطين الاساسيين في الفلسفة اللذين أبانهما انجلس ببالغ السطوع .

٢ - خطأ بليخانوف بصدده مفهوم «التجربة»

يقول بليخانوف في الصفحتين ١٠ و ١١ من مقدمته لكتاب «لودفيغ فورباخ» (طبعة عام ١٩٠٥) :
 «يقول كاتب الماني ان التجربة هي بالنسبة للمذهب النقدي التجريبي موضوع البحث وحسب ، وليست البتة وسيلة للمعرفة. واذا كان الحال هكذا ، فان معارضة المادية بالمذهب النقدي التجريبي تفقد كل معنى ، كما ان المحاكمات بصدده ان المذهب النقدي التجريبي مدعو للحلول محل المادية تغدو فارغة وباطلة تماماً» .

هذا تخبيص مطبق .

فان فر . كارستانيان ، وهو من اشده اتباع افيناريوس «ارثوذكسية» ، يقول في مقالته عن المذهب النقدي التجريبي (رداً على فوننت) : «ان التجربة ليست بالنسبة لـ«نقد التجربة الخالصة» وسيلة للمعرفة ، بل مجرد موضوع للبحث» * . ومن هنا ينجم ، بموجب نظرة بليخانوف ، ان معارضة المادية بنظرات فر . كارستانيان تفقد كل معنى !

ان فر . كارستانيان يردد حرفياً تقريباً اقوال افيناريوس الذي يعارض قطعاً في «ملاحظات»ه النظرة الى التجربة بوصفها «وسيلة للمعرفة» «بمعنى نظريات المعرفة ، النظريات السائدة ، الميتافيزيائية تماماً من حيث الجوهر» يفهمه للتجربة على انها ما

* «Vierteljahrsschrift für wissenschaftliche Philosophie», Jahrg.

22, 1898, S. 45 (المجلة الفصلية للفلسفة العلمية) ، السنة ٢٢ ، عام

١٨٩٨ ، ص ٤٥ . (الناشر) .

أعطي لنا ، ما نجده (das Vorgefundene) (l.c., S. 401) . واثـر افيناريوس يقول بتسولدت ايضاً الشيء نفسه في مؤلفه «مقدمة في فلسفة التجربة الخالصة» (المجلد الاول ، ص ١٧٠) . وهكـذا ينجم ، بموجب نظرة بليخانوف ، ان معارضة المادية بنظرات كارستانيين وافيناريوس وبتسولدت تفقد كل معنى ! إمّا ان بليخانوف لم «يقرأ الى النهاية» كارستانيين وشركاه ، وإمّا أخذ استشهاده «بكاتب الماني» من مرجع بعيد جداً عن المصدر .

فماذا يعني هذا القول من ابرز النقاد التجريبيين الذي لم يفهمه بليخانوف ؟ ان كارستانيين يريد ان يقول ان افيناريوس يأخذ في مؤلفه «نقد التجربة الخالصة» موضوعاً للبحث التجربة اي «الآراء البشرية» ايّا كانت . ويقول كارستانيين (ص ٥٠ من المقالة المذكورة) ان افيناريوس لا يبحث هنا فيما اذا كانت هذه الآراء فعلية ام اذا كانت تتعلق ، مثلاً ، بالاشباح ؛ انه يجمع ، يصنّف ، يبرّب شكلاً وحسب شتى الآراء البشرية ، المثالية والمادية على السواء (ص ٥٣) ، دون تناول جوهر المسألة . وان كارستانيين لعل تمام الحق حين يسمّي وجهة النظر هذه «بالريبية على الاغلب» (ص ٢١٣) . ولكن كارستانيين يدافع في هذه المقالة ، فيما يدافع ، عن معلمه العزيز دون الاتهام المخزي (من وجهة نظر البروفسور الالمانى) بالمادية الذي اطلقه فونددت . فاي ماديين نحن ، من لظلك ! - ذلك هو كنه اعتراض كارستانيين ، - اذا كنا نتحدث عن «التجربة» ، ولكن ليس البتة بالمعنى العادي ، الشائع ، الذي يؤدي او قد يؤدي الى المادية ، بل بمعنى بحثنا نحن في كل ما «يقوله» الناس بوصفه تجربة . ان كارستانيين وافيناريوس يعتبران النظرة الى التجربة بوصفها وسيلة للمعرفة نظرة مادية (لقد يكون هذا عادياً للغاية ، ولكنه غير صحيح مع ذلك ، كما رأينا من مثال فيخته) . وان افيناريوس يتنصّل من تلـسك «الميتافيزياء» «السائدة» التي تعاند في اعتبار الدماغ عضو الفكر ، دون ان تأبه لنظريتي الحقن والتنسيق . وبما نجده او المعطى (das Vorgefundene) يقصد افيناريوس بالضبط الصلة التي لا

تنقسم عراها بين انا والبيئة ، الامر الذي يؤدي الى تفسير «التجربة» تفسيراً مثالياً مشوشاً .

اذن ، تحت كلمة «التجربة» ، يمكن بلا ريب ، ان يتستر الخط المادي والخط المثالي في الفلسفة ، وكذلك الخط الهيومى والخط الكانطى ، ولكن لا تعريف التجربة على انها موضوع البحث * ولا تعريفها على انها وسيلة المعرفة ، يقران بعد اي شيء في هذا المجال . ثم ان ملاحظات كارستانيين ضد فوندت لا تمت هي ايضاً باية صلة الى مسألة معارضة المادية بالمذهب النقدي التجريبي . ونلاحظ من باب الطرافة ان بوغدانوف وفالنتينوف قد اظهرا في الرد على بليخانوف في هذه النقطة اطلاقاً ليس افضل اطلاقاً . فقد قال بوغدانوف : «ليس من الواضح تماماً» (الفصل الثالث ، ص XI) و«على النقاد التجريبيين ان يحلوا هذه الصيغة ويقبلوا او يرفضوا الشرط» . موقف مريب : انا لست ماخياً ، ولذا لست ملزماً بان اتفهم باي معنى يتحدث عن التجربة المدعو افيناريوس او المدعو كارستانيين ان بوغدانوف يرغب في الاستفادة من الماخية (والتخبيص الماخى فيما يخص «التجربة») ولكنه لا يرغب في تحمل المسؤولية عن هذا التخبيص .

واستنسخ الناقد التجريبي «الخالص» فالنتينوف ملاحظة بليخانوف ورقص امام الملا رقصة الكنكان ، متهكماً من كون بليخانوف لم يذكر اسم الكاتب ولم يوضح ماهية الامر (ص ١٠٨ - ١٠٩ من الكتاب المذكور) . بيد ان هذا الفيلسوف الناقد التجريبي لم يرد باية كلمة بصدده جوهر الامر ، واعترف بانه «طالع ثلاث مرات ، ان لم يكن اكثر» ملاحظة بليخانوف (ولم يفهم شيئاً ، على الارجح) . فيا للماخيين !

* خيل الى بليخانوف ، على الارجح ، ان كارستانيين قال : «موضوع المعرفة المستقل عن المعرفة» وليس «موضوع البحث» ؟ لو كان كذلك ، لكان بالفعل مادية . ولكن لا كارستانيين ولا على العموم اياً كان ، من المطلعين على المذهب النقدي التجريبي قال وكان بوسعهم ان يقول شيئاً كهذا .

٣ - بصدد السببية والضرورة في الطبيعة

ان مسألة السببية ترتدي اهمية كبيرة بخاصة لاستجلاء الخط الفلسفي لهذا المذهب الحديث او ذاك ؛ ولذا يجب علينا ان نتناول المسألة بمزيد من التفصيل .

لنبدأ بعرض النظرية المادية عن المعرفة في هذه النقطة . ان ل . فورباخ قد عرض آراءه بوضوح خاص في اعتراضه المذكور آنفاً على ر . هايم .

«يقول هايم : «ان الطبيعة والعقل البشري يتفارقان تماماً عنده (عند فورباخ) ، وتنحرف بينهما هوة كاملة يستحيل اجتيازها لا من هذا الجانب ولا من ذاك . ويبني هايم اللوم على الفقرة ٤٨ من مؤلفي «جوهر الدين» حيث جاء انه «لا يمكن فهم الطبيعة الا بواسطة الطبيعة نفسها ، وان ضرورتها ليست ضرورة انسانية او منطقية ، ليست ضرورة ميتافيزيائية او رياضية ، وان الطبيعة وحدها دون غيرها هي كائن لا يمكن قياسه باي مقياس بشري ، رغم اننا نشببه ظاهراتها بالظواهرات البشرية المماثلة ، ونطبق عليها ، لكي نجعلها مفهومة لنا ، تعابير ومفاهيم بشرية ، ومنها مثلاً : نظام ، هدف ، قانون ، ونحن مضطرون الى تطبيق مثل هذه التعابير عليها بحكم لفتنا» . ماذا يعني هذا ؟ هل اريد ان اقول بهذا : لا يوجد في الطبيعة اي نظام ، ولذا يمكن مثلاً ان يأتي الصيف بعد الخريف ، والشتاء بعد الربيع ، والخريف بعد الشتاء ؟ لا يوجد هدف ، ولذا لا يوجد ، مثلاً ، بين الرئتين والهواء ، بين النور والعيون ، بين الصوت والاذن اي تناسق وتوافق ؟ لا يوجد نظام ، ولذا ، مثلاً ، تتحرك الارض تارة في خط اهليلجي ، وطوراً في خط دائري ، وتدور حول الشمس تارة خلال سنة ، وطوراً خلال ربع ساعة ؟ يا للسخافة ! ماذا اردت ان اقول في هذا المقطع ؟ لا شيء اكثر من التمييز بين ما يخص الطبيعة وبين ما يخص الانسان ؛ ان هذا المقطع لا يقول ان الكلمات والتصورات عن النظام والهدف والقانون لا يطابقها اي شيء فعلي في الطبيعة ، وهو ينكر تماثل الفكر والوجود

فقط ، ينكر ان يكون النظام والنخ . موجوداً في الطبيعة تماماً كما في رأس الانسان او في شعوره . فان النظام والهدف والقانون ليست اكثر من كلمات يترجم بها الانسان شؤون الطبيعة الى لغته هو لكي يفهمها : ان هذه الكلمات ليست خالية من المعنى ، ليست خالية من مضمون موضوعي (nicht sinn-d.h. gegenstandlose Worte) ؛ ولكنه من الضروري مع ذلك تمييز الاصل عن الترجمة . فان النظام والهدف والقانون تعبر بالمعنى البشري عن شيء ما اعتباطي .

ان عذهب التأليه الديني يخلص مباشرة من صدفة نظام وعقلانية وقانونية الطبيعة الى اصلها الاعتباطي ، الى وجود كائن يختلف عن الطبيعة ويحمل النظام والعقلانية والسنن الى الطبيعة ، العمائية * (dissolute) في حد ذاتها (an sich) ، الغريبة عن كل تحديد . ان عقل انصار مذهب التأليه الديني . . . هو عقل مناقض للطبيعة ، ومحروم كلياً من فهم ماهية الطبيعة . ان عقل انصار مذهب التأليه الديني يقسم الطبيعة الى كائنين - احدهما مادي والثاني شكلي او روعي» (Werke, VII. Band, 1903, S. 518-520)

اذن ، يعترف فورباخ بالسنن الموضوعية في الطبيعة ، بالسببية الموضوعية ، التي لا تعكسها التصورات البشرية عن النظام والقانون وخلافهما الا بصورة صحيحة تقريباً . ان اعتراف فورباخ بالقانونية الموضوعية في الطبيعة يرتبط عنده ارتباطاً لا انفصام لعراء بالاعتراف بالواقعية الموضوعية للعالم الخارجي والمواد والاجسام والاشياء التي يعكسها ادراكنا . ان نظرات فورباخ نظرات مادية بشكل منسجم . فان فورباخ ينسب عن حق وصواب الى اتجاه الايمانية جميع النظرات الاخرى على اختلافها ، او بالاصح ، كل خط فلسفي آخر في مسألة السببية ، وانكار السنن الموضوعية والسببية والضرورة في الطبيعة . لأنه من الواضح ، بالفعل ، ان

* العمائية - chaotique من chaos - عماء - خليط ، مشوش .
المعرب .

** المؤلفات . المجلد ٧ ، عام ١٩٠٣ ، ص ٥١٨-٥٢٠ . الناشر ،

الخط الذاتي في مسألة السببية ، اي استخلاص نظام وضرورة الطبيعة من الوعي ، من العقل ، من المنطق وما الى ذلك وليس من العالم الموضوعي الخارجي ، لا يفصل العقل البشري عن الطبيعة وحسب ، لا يعارض الثانية بالاول وحسب ، بل يجعل كذلك من الطبيعة جزءاً من العقل ، عوضاً عن ان يعتبر العقل جزءاً من الطبيعة . ان الخط الذاتي في مسألة السببية هو المثالية الفلسفية (التي تشكل نظريتنا السببية عند هيوم وكانط على السواء نوعين من انواعها) ، اي ايمانية موهنة ، مميّعة الى هذا الحد او ذاك . اما الاعتراف بالسنن الموضوعية للطبيعة وبانعكاس هذه السنن انعكاساً صحيحاً في رأس الانسان ، فهو المادية .

اما فيما يخص انجلس ، فانه لم يتأت له ، اذا لم اكن على خطأ ، ان يعارض خصيصاً ، في مسألة السببية ، الاتجاهات الاخرى بوجهة نظره المادية . ولم يكن ثمة ما يدعو الى القيام بذلك ، ما دام قد فصل نفسه على العموم بصورة واضحة تماماً عن جميع اللاحرفانيين في مسألة اكثر جذرية ، هي مسألة واقعية العالم الخارجي الموضوعية . ولكن كل من قرأ مؤلفات انجلس الفلسفية وان ببعض الانتباه لا بد ان يتضح له ان انجلس لم يبد حتى اي ظل لشك بصدد وجود السنن الموضوعية ، والسببية ، وضرورة الطبيعة . لنكتف ببعض الامثلة . ففي الفقرة الاولى من «ضد دوهرينغ» ، يقول انجلس : «لكي نفهم مختلف جوانب» (او اجزاء اللوحة العامة للظواهر العالمية) ، «نضطر الى انتزاعها من صلتها الطبيعية (natürlich) او التاريخية ودراسة كل منها بمفرده حسب خصائصه ، حسب اسبابه ومسبباته الخاصة» (ص ٥-٦) . اما ان هذه الصلة الطبيعية ، الصلة بين ظاهرات الطبيعة موجودة موضوعياً ، فان هذا جلي للعيان . وان انجلس يؤكد بخصوصية على النظرة الديالكتيكية الى السبب والمسبب : «السبب والمسبب هما تصوران لا يتسمان باهمية مأخوذتين بذاتيهما ، الا شرط تطبيقهما على كل حالة بمفردها ؛ ولكن ما ان نبعث هذه الحالة بمفردها في صلتها المشتركة مع الكل العالمي بمجمله ، حتى يتلاقى

هذان التصوران ويتشابكان في تصور التفاعل الشامل الذي تتبادل فيه الاسباب والمسببات اماكنها باستمرار ؛ فان كل ما هو هنا او الآن سبب يصبح هناك او آنذاك مسبباً ، والعكس بالعكس» (ص ٨) . وعليه ، ان المفهوم البشري للسبب والمسبب يبسط دائماً بعض الشيء الصلة الموضوعية بين ظاهرات الطبيعة ، عاكساً اياها بصورة تقريبية فقط ، عازلاً بصورة مصطنعة هذه او تلك من جوانب العملية العالمية الواحدة الوحيدة . واذا وجدنا ان قوانين التفكير تتطابق مع قوانين الطبيعة ، فان هذا يصبح مفهوماً تاماً ، - كما يقول انجلس ، - اذا اخذنا بالحسبان ان التفكير والادراك هما «نتاجا الدماغ البشري وان الانسان نفسه هو نتاج الطبيعة» . ومفهوم ان «نتاجات الدماغ البشري ، بكونها هي نفسها في آخر المطاف نتاجات الطبيعة ، لا تناقض الترابط الطبيعي (Naturzusammenhang) الباقي ، بل تطابقه» (ص ٢٢) (٤٠) . اما انه توجد صلة طبيعية ، موضوعية ، بين ظاهرات العالم ، فان هذا امر لا شك فيه . وعلى الدوام يتحدث انجلس عن «قوانين الطبيعة» ، عن «ضرورة الطبيعة» (Naturnotwendigkeiten) دون ان يرى من الضروري ان يوضح ويفسر بنحو خاص موضوعات المادية المعروفة للجميع .

كذلك نقرأ في «لودفيغ فورباخ» ان «القوانين العامة لحركة العالم الخارجي والتفكير البشري متماثلة من حيث جوهر الامر ؛ اما من حيث المظهر فلا تختلف الا بقدر ما يستطيع الرأس البشري ان يطبقها بصورة واعية ، في حين انها في الطبيعة - وعلى الغالب حتى الآن في التاريخ البشري ايضاً - تشق لنفسها طريقاً بصورة غير واعية ، بشكل ضرورة خارجية ، بين عدد لامتناه من الصدف الظاهرية» (ص ٣٨) . ويتهم انجلس الفلسفة الطبيعية القديمة بانها استعاضت عن «الصلات الفعلية التي لا تعرفها بعد» (ظاهرات الطبيعة) بصلات «مثالية خيالية» (ص ٤٢) (٤١) . ان الاقرار بالسنن الموضوعية ، والسببية ، والضرورة في الطبيعة واضح تماماً عند انجلس بجانب الاشارة الى الطابع النسبي لمنعكساتنا اي

للمنعكسات البشرية ، التقريبية لهذه القانونية في هذه المفاهيم او تلك .

و حين ننتقل الى يوسف ديتزغن ، يجب قبل كل شيء ان نلاحظ تشويهاً من التشويهاً التي لا عد لها للقضية من قبل اصحابنا الماخيين . فان احد مؤلفي «دراسات «في» فلسفة الماركسية» ، وهو السيد غلفوند ، يقول لنا : «يمكن ايجاز النقاط الاساسية من عقيدة ديتزغن في الموضوعات التالية : « . . . ٩) - ان التبعية السببية التي ننسبها الى الاشياء لا تكمن بالفعل في الاشياء بالذات» (ص ٢٤٨) . هذا لغو وهراء . فان السيد غلفوند الذي تشكل آراؤه الخاصة خليطاً من المادية واللاعرفانية ، حرّف كلياً يوسف ديتزغن . يقيناً انه يمكننا ان نجد عند يوسف ديتزغن عدداً لا يستهان به من التشوشات والنواقص والاطع التي تفرح قلوب الماخيين وتجبر كل مادي على الاقرار بان يوسف ديتزغن فيلسوف غير منسجم تماماً . أما ان يُعزى الى المادي ي . ديتزغن الانكار الصريح للنظرة المادية الى السببية ، فلا يقدر على هذا غير امثال غلفوند ، غير الماخيين الروس .

يقول يوسف ديتزغن في مؤلفه «جوهر عمل الرأس» (الطبعة الالمانية ، عام ١٩٠٣) : «ان المعرفة العلمية الموضوعية تفتش عن الاسباب ، لا في الايمان ، لا في التأمل ، بل في التجربة ، في الاستقراء ، لا *a priori* بل *a posteriori* * . ان علم الطبيعة يفتش عن الاسباب ، لا خارج الظاهرات ، لا خلفها ، بل فيها او بواسطتها» (ص ٩٤-٩٥) . «ان الاسباب هي نتائج قدرة التفكير . ولكنها ليست نتائج خالصة لها ، بل تنجم عنها بالتعالف مع مادة حساسة . فان المادة الحساسة تعطي السبب الناجم على هذا النحو وجوده الموضوعي . وكما نطلب من الحقيقة ان تكون حقيقة ظاهرة موضوعية ، كذلك نطلب من السبب ان يكون فعلياً ، ان يكون سبب مسبب معطى موضوعياً» (ص ٩٨-٩٩) . «ان سبب الشيء هو صلته» (ص ١٠٠) .

* لا قبل التجربة ، بل بعد التجربة . الناشر .

من هنا يتضح ان السيد غلفوند تقدم بزعم **مناقض صراحة للواقع** . فان عقيدة المادية ، التي عرضها يوسف ديتزغن ، تعترف بان «التبعية السببية» **تكمن** «في الاشياء بالذات» . الا ان السيد غلفوند احتاج لأجل الخليط الماخي الى الخلط بين الخط المادي والخط المثالي في مسألة السببية .
لننتقل الى هذا الخط الثاني .

ان افيناريوس يعرض النقاط الانطلاقية لفلسفته في هذه المسألة عرضاً واضحاً في مؤلفه الاول : «الفلسفة بوصفها تفكيراً في العالم وفقاً لمبدأ انفاق الحد الادنى من الجهد» . ففي الفقرة ٨١ نقرأ ما يلي : «اذا لم نحس (لم نعلم من خلال التجربة : erfahren) بالقوة بوصفها شيئاً يستثير الحركة ، فاننا لا نحس كذلك **بضرورة** اية حركة . . . ان كل ما نحس به (erfahren) هو ان شيئاً يتبع آخر» . امامنا وجهة نظر هيومية في انقى صورها : ان الاحساس والتجربة لا يقولان لنا شيئاً عن اية ضرورة . وان الفيلسوف الذي يؤكد (بالاستناد الى مبدأ «الاقتصاد في الفكر») انه لا يوجد غير الاحساس لم يكن بوسع ان يخلص الى اي استنتاج آخر . ثم نقرأ : «بما ان تصوّر السببية يتطلب القوة والضرورة او الاكراه ، بوصفها مقومات تكاملية لأجل تحديد المسبب ، فانه يسقط معها» (الفقرة ٨٢) . «ان الضرورة تبقى بوصفها درجة احتمال توقع العواقب» (الفقرة ٨٣ ، موضوعة) .

ان هذه ذاتية واضحة تماماً في مسألة السببية . واذا ما بقي المرء منسجماً نوعاً ، فلا يمكنه ان يخلص الى استنتاج آخر ، دون ان يعترف بان الواقع الموضوعي هو مصدر احساساتنا .

لنأخذ ماخ . في فصل خاص عن «السببية والتفسير»
* (Wärmelehre", 2. Auflage, 1900, S. 432-439) نقرأ ما يلي :

Mach, E. «Die Prinzipien der Wärmelehre», 2. Auflage, 1900, S. 432—439 (ماخ ، ١ . «مبادئ مذهب الدفاع» ، الطبعة الثانية ، عام ١٩٠٠ ، ص ٤٢٢—٤٢٩) . الناشر .

«ان نقد هيوم (لمفهوم السببية) لا يزال ساري المفعول». ان كانط وهيوم يحلان بطريقة مختلفة قضية السببية (ان ماخ لا يأبىه للفلاسفة الآخرين!) ؛ «ونحن ننحاز» الى حل هيوم . عدا الضرورة المنطقية (حرف التأكيد لماخ) لا توجد اي ضرورة اخرى ، فيزيائية مثلاً . هذه هي بالضبط النظرة التي حاربها فورباخ ببالح الحزم . ولا يخطر لماخ حتى في البال ان ينكر قرابته مع هيوم . الماخيون الروس وحدهم دون غيرهم كان بوسعهم ان يذهبوا الى حد الزعم «بامكان الجمع» بين لاعرفانية هيوم ومادية ماركس وانجلس . ونحن نقرا في مؤلف ماخ «الميكانيك» ما يلي : «لا وجود في الطبيعة لا للسبب ولا للمسبب» (S. 474, 3. Auflage, 1897) . «لقد قلت مراراً ان جميع اشكال قانون السببية تنبع من التطلعات الذاتية (Trieben) ؛ وليس من الضروري للطبيعة ان تتطابق معها» (ص ٤٩٥) .

منا تجدر الاشارة الى ان ماخينا الروس يستعيضون بسداجة مذهلة عن مسألة الاتجاه المادي او الاتجاه المثالي لجميع المحاكمات بصدد قانون السببية بمسألة هذه الصياغة او تلك لهذا القانون . وقد صدقوا فلاسفة المذهب النقدي التجريبي الالمان في انه اذا قال المرء : «العلاقة الوظيفية» ، عنى هذا اكتشاف «الوضعية الحديثة» ، وخلص من «فتشية» التعابير كتعبير «الضرورة» ، «القانون» وما الى ذلك . يقيناً ان هذه ترهات وسفاسف لا غير ، وقد كان فوننت هل حق تام في السخر من **تغيير الكلمة** هذا (ص ٣٨٣ و ٣٨٨ من المقالة المذكورة في "Philosophische Studien") ، الذي لا يغير في شيء من جوهر الامر . فان ماخ نفسه يتحدث عن «جميع اشكال» قانون السببية ، ويبيدي في مؤلفه «المعرفة والضلال» (الطبعة الثانية ، ص ٢٧٨) تحفظاً بديهياً مفاده ان مفهوم الوظيفة لا يمكنه ان يعبر بمزيد من الدقة عن «تبعية العناصر» الا متى توفرت امكانية التعبير عن نتائج البحوث بمقادير **قابلة للقياس** ، - وهذا ما لا يتوفر حتى في علوم مثل الكيمياء الا جزئياً . ومن وجهة نظر ماخينا السريعي التصديق بالاكتشافات الاستاذية ، ينجم ، اغلب الظن ،

ان فورباخ (ناهيك عن انجلس) لم يكن يعرف ان مفاهيم النظام والسنة وما اليهما انما يمكن التعبير عنها رياضياً بمعادلة وظيفية معينة ، في حال توفر شروط معينة !

ان المسألة النظرية العرفانية الهامة فعلاً التي تفرّق بين الاتجاهات الفلسفية ليست مسألة الدرجة من الدقة التي بلغتها اوصافنا للصلات السببية وامكانية التعبير عن هذه الاوصاف في معادلة رياضية دقيقة ، - بل مسألة ما اذا كانت السنة الموضوعية للطبيعة ، او خواص عقلنا ، القدرة الملازمة له على معرفة حقائق قبلية معينة وما الى ذلك ، هي مصدر معرفتنا لهذه الصلات . وهذا ما يفصل الماديين فورباخ وماركس وانجلس بلا مرد عن اللاعرفانيين (الهيوميين) افيناريوس وماخ .

لا يندر لماخ - الذي يكون من الاثم اتهامه بالانسجام - ان «ينسى» ، في بعض الاماكن من مؤلفاته ، توافقه مع هيوم ونظريته الذاتية بشأن السببية ، محاكماً «بكل بساطة» كعالم طبيعيات اي من وجهة نظر مادية عفوية . مثلاً ، نقرأ في «الميكانيك» ما يلي : «تعلمنا الطبيعة ان نجد في ظاهراتها التماثل» (ص ١٨٢ من الترجمة الفرنسية) . فاذا كنا نجد التماثل في ظاهرات الطبيعة ، فهل هذا يعني ان هذا التماثل موجود بصورة موضوعية ، خارج عقلنا ؟ كلا . وفي هذه المسألة ذاتها ، مسألة التماثل في الطبيعة ، يتفوه ماخ بما يلي : «ان القوة التي تدفعنا الى ان نستكمل في الافكار الوقائع الملاحظة مناصفة فقط هي قوة تداعي الافكار . وهذه القوة تشتد من جراء التكرار . فتبدو لنا آذاك قوة لا تتوقف على ارادتنا وعلى مختلف الوقائع ، قوة توجه الافكار و (حرف التأكيد لماخ) الوقائع على السواء ، وتبقيها متطابقة بعضها مع بعض كقانون للافكار وللوقائع . اما اننا نعتبر انفسنا قادرين على اجراء التنبؤات بالاستناد الى هذا القانون ، فان ذلك يثبت فقط (!) تماثل بيئتنا الكافي ، ولكنه لا يثبت البتة ضرورة نجاح التنبؤات» (S. 383 "Wärmelehre") .

اذن ، يمكن ويجب البحث عن ضرورة ما علاوة على تماثل البيئة ، اي الطبيعة ! اما اين نبحت ، فهذا من الفلسفة المثالية

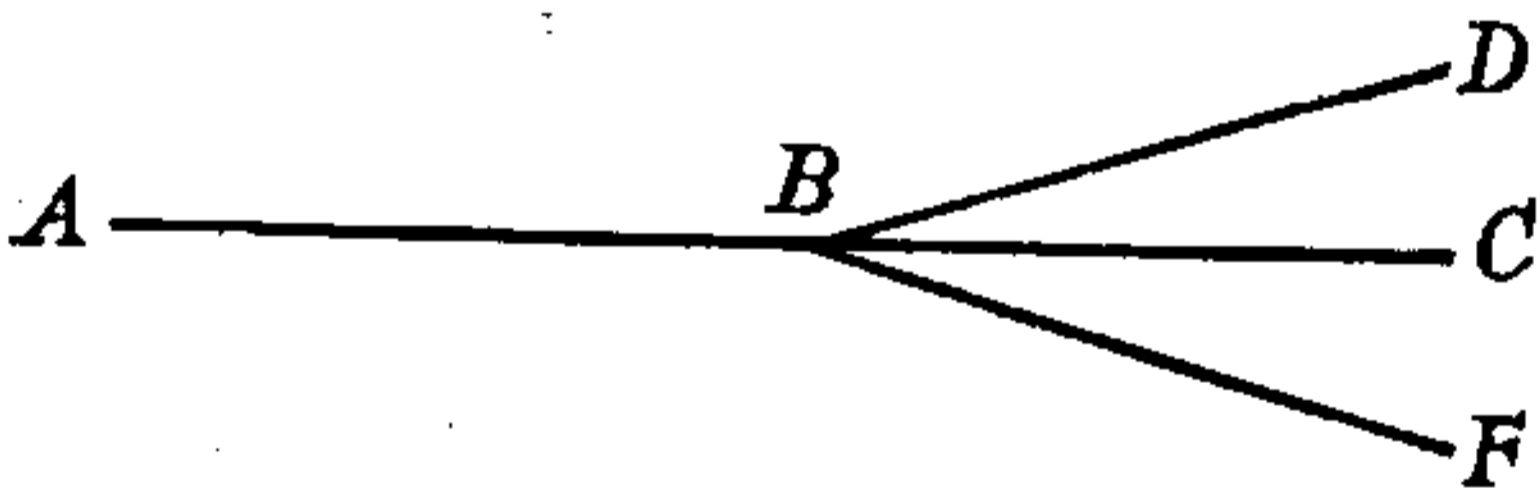
التي تخشى الاعتراف بقدرة الانسان العرفانية مجرد انعكاس للطبيعة . بل ان ماخ يعرف قانون الطبيعة ، في مؤلفه الاخير «المعرفة والضلال» ، على انه «حدّ للتوقع» (الطبعة الثانية ، ص ٤٥٠ وما يليها) ! ان السوليبسيسم يعزز الغلبة مع ذلك . لننظر الى موقف الكتاب الآخرين من الاتجاه الفلسفي ذاته . يقول الانجليزي كارل بيرسون بما يلزمه من قطعية «ان قوانين العلم هي نتاجات العقل البشري اكثر بكثير مما هي وقائع العالم الخارجي» ("The Grammar of Science", 2nd ed., p. 36) . «ان الشعراء والماديين الذين يتحدثون عن الطبيعة بوصفها السيد (sovereign) على الانسان غالباً جداً ما ينسون ان نظام وتعدد الظاهرات اللذين يثيران اعجابهم ، على الاقل ، هما نتاج لمؤهلات الانسان العرفانية بقدر ذكرياته وافكاره بالذات» (ص ١٨٥) . «ان كون قانون الطبيعة واسع الشمول مدين بوجوده لقدرة العقل البشري على الاختراع» (ib.*). «الانسان هو صانع قانون الطبيعة» . هكذا جاء في الفقرة الرابعة من الفصل الثالث . «ان القول بان الانسان يعطي الطبيعة القوانين يتضمن معنى اكبر بكثير مما يتضمنه القول المعاكس بان الطبيعة تعطي الانسان القوانين» - رغم ان هذه النظرة الاخيرة (المادية) - كما يعترف البروفسور الجزيل الاحترام بمرارة - «منتشرة في زمننا ، لسوء الحظ ، على نطاق واسع جداً» (ص ٨٧) . وفي الفصل الرابع المخصص لمسألة السببية ، تصوغ الفقرة ١١ موضوعاً بيرسون : «الضرورة تعود الى عالم المفاهيم وليس الى عالم المدركات» . تجدر الاشارة الى ان المدركات او الانطباعات الحسية «انما هي بالذات» ، بنظر بيرسون ، الواقع الموجود خارجاً عنّا . «لا ضرورة داخلية لـ ذلك التماثل الذي تتكرر به مجموعات معينة من المدركات لـ تلك الرتابة من المدركات ؛ ولكن وجود رتابة المدركات شرط ضروري لوجود الكائنات المفكرة . ان الضرورة تكمن بالتالي

في طبيعة الكائن المفكر وليس في المدركات نفسها ؛ انها نتاج القدرة العرفانية» (ص ١٣٩) .

ان صاحبنا الماخي الذي يعرب ماخ «نفسه» غير مرة عن تضامنه التام معه قد توصل على هذا النحو بسلامة الى المثالية الكانطية الصرف : الانسان هو الذي يعطي الطبيعة القوانين ، وليست الطبيعة هي التي تعطي الانسان القوانين ! ليس المهم هنا تكرار مذهب القبلي اثر كانط - ان هذا لا يحدد الخط المثالي في الفلسفة ، بل يحدد صيغة خاصة لهذا الخط ، - بل المهم ان العقل والتفكير والوعي هي هنا الاولي والطبيعة هي الثانوي . فليس العقل جزءاً من الطبيعة ، احد نتاجاتها العليا ، انعكاساً لعملياتها ، بل الطبيعة هي جزء من العقل ، الذي يتمدد تلقائياً بالتالي ويتحول من عقل بشري ، عادي ، بسيط ، معروف من الجميع ، الى عقل «خارق الحد» ، كما قال يوسف يتزغن ، مبهم ، الهني . ان الصيغة الكانطية الماخية «الانسان يعطي الطبيعة القوانين» هي صيغة الايمانية . واذا ما فتح ماخيوننا عيونهم عجباً حين يقرأون في مؤلفات انجلس ان العلامة المميزة الاساسية للمادية هي اعتبار ان الطبيعة هي الاولي ، وليس الروح ، - فان هذا يبين فقط الى اي حد هم عاجزون عن التمييز بين الاتجاهات الفلسفية الهامة فعلاً وبين التلاعب الاساتيزي بالادعاء العلمي وبالكلمات العويصة المعقدة .

وان ي . بتسولدت ، الذي يعرض ويطور افيناريوس في مؤلفه من مجلدين ، يمكنه ان يكون مثالا رائعا على السكولاستية الرجعية الملازمة للماخية . فهو يقول : «ان الجوهرية والسببية لا تزالان الى الآن ايضاً ، بعد مرور ١٥٠ سنة على هيوم ، تشلان رجولة التفكير» («مقدمة الى فلسفة التجربة الخالصة» ، المجلد الاول ، ص ٣١) . وبديهي ان السوليبسيين هم «اشد رجولة» من الجميع ، اذ انهم اكتشفوا الاحساس بدون مادة عضوية ، والفكر بدون دماغ ، والطبيعة بدون سنة موضوعية ! «والصيغة الاخيرة للسببية ، الصيغة التي لم نذكرها بعد ، الضرورة او ضرورة الطبيعة ، تنطوي على شيء ما صوفي وغير واضح» - على فكرة

«الفتشية» وفكرة «التشبيه» * والنخ . . (ص ٣٢ و ٣٤) . يا للصوفيين المساكين فورباخ وماركس وانجلس ! لقد تحدثوا على الدوام عن ضرورة الطبيعة ، ناهيك عن انهم نعتوا انصار خط هيوم بالرجعيين النظريين . . . ان بتسولدت ارفع من كل «تشبيه» . فقد اكتشف قانوناً عظيماً هو «قانون احادية المدلول» الذي يزيل كل غموض ، وكل اثر «للفتشية» ، وما الى ذلك وهلم جراً وهكذا دواليك . مثلاً : متوازي اضلاع القوى (ص ٣٥) . يستحيل «اثبات»ه ، يجب الاعتراف به بوصفه «واقعاً من التجربة» . لا يجوز التسليم بان الجسم ، اذ يتلقى الدفعات ذاتها ، يتحرك باشكال مختلفة . «نحن لا يسعنا التسليم بمثل هذا الغموض والاعتباط من الطبيعة ؛ بل يجب ان نطالبها بالتحديد والسنة» (ص ٣٥) . هكذا اذن ، نحن نطالب الطبيعة بالسنة . والبرجوازية تطالب بروفسوراتها بالرجعية . «ان تفكيرنا يطالب الطبيعة بالتحديد ، والطبيعة تخضع دائماً لهذا المطلب ، - بل اننا سنرى انها مضطرة بمعنى ما للخضوع له» (ص ٣٦) . في حال دفع الجسم على الخط AB ، لماذا يتحرك نحو C وليس نحو D ، ولا نحو F ، والنخ . ؟



«لماذا لا تختار الطبيعة اياً من الاتجاهات الممكنة الاخرى التي لا عدد لها ؟» (ص ٣٧) . لأنها ستكون في هذه الحال «متعددة المدلولات» ، بينما الاكتشاف النقدي التجريبي العظيم الذي حققه يوسف بتسولدت يطالب باحادية المدلول .

وبمثل هذا اللغو الذي يفوق الوصف يملأ «النقاد التجريبيون» عشرات الصفحات !

«... لقد اشرنا غير مرة الى ان موضوعتنا لا تستمد قوتها من مجمل التجارب المنفردة ، واننا ، على العكس ، نطالب الطبيعة بالاعتراف بها (seine Geltung) . وبالفعل ، قبل ان اصبحت قانوناً ، كانت بالنسبة لنا مبدأ نطبقه على الواقع اي مسلّمة * . وهي صحيحة ، بصورة قبلية ، كما يقال ، بصورة مستقلة عن اية تجربة منفردة . قد يبدو انه لا يليق بفلسفة التجربة الخالصة ان تروج الحقائق القبلية ، عائدة على هذا النحو الى الميتافيزياء الاشد عمقاً . ولكن قبلينا منطقي فقط ، وليس نفسانياً ولا ميتافيزيائياً» (ص ٤٠) . اذن ، بالطبع ، اذا نعتنا القبلي بانه منطقي ، فان كل رجعية مثل هذه الفكرة تزول من جراء ذلك ، وترتفع هذه الفكرة الى مستوى «الوضعية الحديثة» .

ثم يعلمنا ي . بتسولدت فيما بعد قائلاً : لا يمكن ان يكون ثمة تحديد وحيد المدلول للظواهر النفسية : فان دور الخيال ، وشأن المخترعين العظام ، وما الى ذلك تخلق هنا استثناءات ، في حين ان قانون الطبيعة او قانون الروح لا يحتملان «اية استثناءات» (ص ٦٥) . امامنا اذن ميتافيزيائي خالص تماماً لا يلزم بتاتا بنسبية الفرق بين الصدفي والضروري .

ويواصل بتسولدت قائلاً : لربما ينبهونني الى تعليل حوادث التاريخ او تطور الطبع في المؤلفات الشعرية ؟ «اذا نظرنا بانتباه ، فاننا نرى غياب احادية المدلول . وليس ثمة اي حدث تاريخي واية مأساة ليس بوسعنا ان نتصور المشتركين فيهما يتصرفون على نحو مغاير في ظل احوال نفسية معنية» (ص ٧٣) . «ان احادية المدلول في المجال النفسي ليست غائبة وحسب ، بل نملك الحق ايضاً في المطالبة بغيابها عن الواقع (حرف التأكيد لبتسولدت) . وعلى هذا النحو يرتفع مذهبنا ... الى مصف المسلّمة ... اي الى

مصنف الشرط الضروري لأية تجربة سابقة ، الى مصنف قبلي منطقي»
(حرف التأكيد لبتسولدت ، ص ٧٦) .
وهذا «القبلي المنطقي» يواصل بتسولدت استعماله في مجلدي
مؤلفه «مقدمة» وفي كتيبه الصادر عام ١٩٠٦ «لوحة العالم من وجهة
النظر الوضعية» * . امامنا مثال ثان على ناقد تجريبي بارز ،
انزلق بصورة غير ملحوظة الى الكانطية ، ويروج اشد المذاهب
المحاقا في الرجعية ممزوجة بصلصة معدلة قليلاً جداً . وليس هذا
من قبيل الصدفة ، لأن مذهب ماخ وافيناريوس في السببية هو من
حيث اساسه بالذات كذب مثالي ، مهما كانت الجمل عن «الوضعية»
التي يسترونه بها طنانة . ان الفرق بين نظرية هيوم ونظرية كانط
في السببية هو فرق من الدرجة الثانية بين الاعرفانيين الذين يجمعون
على الاساسي : اي على انكار السنة الموضوعية للطبيعة ، حاكمين
حتماً بهذا على انفسهم بهذه الاستنتاجات المثالية او تلك . فان
رودولف فيللي ، وهو ناقد تجريبي اكثر «ذمة ووجداناً» من
ي . بتسولدت بقليل ، ويستحي من قرابته مع الكمونيين ،
يرفض ، مثلاً ، كل نظرية بتسولدت بشأن «احادية المدلول» ،
باعتبار انها لا تعطي شيئاً عدا «الصورية المنطقية» . ولكن هل
يحسن ر . فيللي موقفه بتنكره لبتسولدت ؟ كلا ، ابدأ . لأنه
يتنكر للاعرفانية الكانطية في صالح الاعرفانية الهيومية بوجه
الحصر ؛ فقد كتب يقول : «نحن نعرف من زمان ، منذ زمن هيوم ،
ان «الضرورة» هي وصف (Merkmal) منطقي صرف ، غير «متعال»
او ، كما قد اقول بطيبة خاطر وكما سبق لي وقلت ، وصف كلامي

J. Petzoldt, «Das Weltproblem von positivistischem Standpun- •

kte aus», Lpz., 1906, S. 110 . «قضية العالم من وجهة
النظر الوضعية» ، ليبزيغ ، ١٩٠٦ ، ص ١٣٠ . الناشر) : «ومن وجهة
نظر النقد التجريبي ايضاً يمكن ان يكون قبلي منطقي : السببية هي القبلي
المعطي لأجل الدوام التجريبي (erfahrungsmäßig ، المعطى في التجربة)
المعطى .

(R. Willy: «Gegen die Schulweisheit», (sprachlich) صرف) Münch., 1905, S. 91; cf. 173, 175*)

ان اللاعرفاني ينعت نظرنا ، النظرة المادية ، الى الضرورة بالنظرة «المتعالية» ، لان كل اعتراف بالواقع الموضوعي المعطى لنا في التجربة هو «تعال» غير مشروع من وجهة نظر تلك «الحكمة المدرسية» الكانطية والهيومية ذاتها التي لا يرفضها فيللي ، بل يطهرها قليلاً فقط .

والى درب اللاعرفانية ذاته ينعطف على الدوام ، من عداد الكتاب الفرنسيين من الاتجاه الفلسفي الذي ندرسه ، هنري بوانكارة ، الفيزيائي الكبير والفيلسوف الصغير الذي اعتبر ب . يوشكيفيتش اخطاه ، بالطبع ، آخر كلمة في الوضعية الحديثة ، «الحديثية» الى حد ان الامر احتاج الى «ية» جديدة : الرمزية التجريبية * * . فان قوانين الطبيعة هي ينظر بوانكارة (الذي سنتحدث عن نظراته بالاجمال في الفصل عن الفيزياء الجديدة) رموز ، مصطلحات ، يبتدعها الانسان لأجل «الملاءمة» . «ان الواقع الموضوعي الحقيقي الوحيد هو التناسق (harmonie - المعرب) الداخلي للعالم» ، علماً بان بوانكارة ينعت بالموضوعي ما هو ذو دلالة عامة ، ما تعترف به اغلبية الناس او جميع الناس * * * ، - اي انه يقضي على الحقيقة الموضوعية بطريقة ذاتية صرف ، مثل جميع الماخين ، - ويعلن قطعاً ، فيما ينص «التناسق» ، بصدده ما اذا كان هذا «التناسق» خارجاً عنا : «كلا بلا ريب» . واضح تماماً ان التعابير الجديدة لا تغير البتة خط اللاعرفانية الفلسفي القديم المتقادم ، لان جوهر نظرية بوانكارة «الاصيلة» يتلخص في انكار (وان كان بوانكارة ابعد من ان يكون

* ر . فيللي . ضد الحكمة المدرسية ، مونيخ ، ١٩٠٥ ، ص ٩١ ؛ قارن ص ١٧٣ ، ١٧٥ . الناشر .

* * الرمزية التجريبية - empiriosymbolisme . المعرب .

* * * Henri Poincaré. «La Valeur de la Science», Paris, 1905, pp. 7, 9

(هنري بوانكارة . «قيمة العلم» ، باريس ، عام ١٩٠٥ ، ص ٧ ، ٩ . الناشر) . توجد ترجمة روسية .

منسجماً) واقعية الطبيعة الموضوعية وكونها سنة موضوعية . ولهذا من الطبيعي تماماً ان يكون الكانطيون الالمان ، - خلافاً للماخيين الروس الذين يعتبرون الصيغ الجديدة للاخطاء القديمة اكتشافات حديثة ، - قد رحبوا بمثل هذه النظرات ، بوصفها انتقالاً في مسألة فلسفية جوهرية الى جانبهم ، الى جانب الاعرفانية . فنحن نقرأ عند الكانطي فيليب فرانك قوله : «ان عالم الرياضيات الفرنسي هنري بوانكاريه يدافع عن وجهة النظر القائلة ان موضوعات كثيرة من أعم موضوعات العلوم الطبيعية النظرية (قانون القصور الذاتي ، قانون بقاء الطاقة ، وما الى ذلك) التي يصعب احياناً كثيرة القول بصحتها ما اذا كانت تجريبية الاصل او قبلية الاصل ، لا تعود بالفعل الى هذه ولا الى تلك ، لأنها مقدمات اصطلاحية صرف رهن بالهوى البشري» . ويهتف الكانطي باعجاب : «وعليه تجدد فلسفة الطبيعة الحديثة بنحو غير متوقع الفكرة الاساسية في المثالية النقدية ، ومفادها ان التجربة تملأ فقط الاطار الذي يجلبه معه الانسان الى الدنيا . . .» .

لقد اوردنا هذا المثال لكي نبيّن للقارىء بجلاء درجة سذاجة اصحابنا يوشكيفيتش وامثاله وشركاه الذين يعتبرون نظرية ما ، مثلاً «نظرية الرمزية» ، شيئاً حديثاً ، في حين ان الفلاسفة المطلعين نوعاً يقولون ببساطة وصراحة : انتقل الى وجهة نظر المثالية الانتقادية ! لأن كنه وجهة النظر هذه ليس الزامياً في ترديد صيغ كانط ، بل في الاعتراف بالفكرة الاساسية ، المشتركة بين هيوم وكانط على السواء ، وهي فكرة انكار السنة الموضوعية للطبيعة واستخلاص هذه او تلك من «شروط التجربة» ، هذه او تلك من المبادئ والمسلمات والمقدمات من الذات ، من الوعي البشري ، وليس من الطبيعة . ولقد كان انجلس على حق حين قال ان كنه الامر ليس انتماء هذا الفيلسوف او ذاك الى مدرسة من المدارس العديدة للمادية او المثالية ، بل فيما يعتبره الاولي : الطبيعة ،

العالم الخارجي ، المادة المتحركة ، ام الروح ، العقل ، الوعي ، وما الى ذلك (٤٣) .

اليكم وصفاً آخر للماخية في هذه المسألة خلافاً لسائر الخطوط الفلسفية ، اعطاء الكانطي المطلع ا . لوکا . فان «ماخ يلتصق كلياً بهيوم» * في مسألة السببية . «ان ب . فولكمان يستخلص ضرورة التفكير من ضرورة عمليات الطبيعة ، - وهذه وجهة نظر تعترف بواقع الضرورة على نقيض ماخ وبالتوافق مع كانط ، - ولكنه يرى مصدر الضرورة ، على نقيض كانط ، لا في التفكير ، بل في عمليات الطبيعة» (ص ٤٢٤) .

ان ب . فولكمان عالم فيزيائي يكتب كثيراً في المسائل العرفانية ، ويميل الى المادية ، مثل الاغلبية الساحقة من علماء الطبيعيات ، وان كانت مادية غير منسجمة ، وجلة ، مبتورة . فان الاعتراف بضرورة الطبيعة واستخلاص ضرورة التفكير منها هو من المادية . اما استخلاص الضرورة ، والسببية ، والسنة وخلافها من التفكير ، فهو من المثالية . ان النقص الوحيد الذي يشوب الاستشهاد المذكور هو انه ينسب الى ماخ الانكار التام لكل ضرورة . ولقد رأينا ان الحال ليس هكذا لا فيما يخص ماخ ، ولا فيما يخص كل الاتجاه النقدي التجريبي الذي ، بابتعاده قطعاً عن المادية ، ينزلق حتماً الى المثالية .

يبقى لنا ان نقول بضع كلمات خصيصاً عن الماخيين الروس . فهم يرغبون في ان يكونوا ماركسيين ، وقد «قرأوا» جميعهم ان انجلس فصل المادية قطعاً عن اتجاه هيوم ، ولم يكن بوسعهم ان لا يسمعوا من ماخ ذاته ومن كل مطلع على فلسفته ، وان بعض الشيء ، ان ماخ وافيناريوس يسيران في خط هيوم ، ولكنهم جميعهم يجهدون لان لا ينبسوا ببحث شقة عن الهيومية وعن

* E. Lucka. «Das Erkenntnisproblem und Machs «Analyse der Empfindungen في «Kantstudien», VIII. Bd., S. 409 (ا . لوکا . قضية المعرفة و«تحليل الاحساسات» عند ماخ» في «البحوث الكانطية» ، المجلد ٨ ، ص ٤٠٩ . الناشر) .

المادية في مسألة السببية ! ان التشوش يسود عندهم سيادة مطلقة . اليكم بضعة امثلة . فان السيد ب . يوشكيفيتش يروج رمزية تجريبية «جديدة» . و«الاحساسات بالازرق والصلب وخلاف ذلك ، هذه المعطيات المزعومة للتجربة الخالصة» و«هذه الانشاءات للعقل الخالص المزعوم ، مثل الوهم او مثل لعبة الشطرنج» ، كل هذه «رموز تجريبية» («دراسات» ، ص ١٧٩) . «ان المعرفة رمزية تجريبية ، وهي ، اذ تتطور ، تسير نحو رموز تجريبية على درجة اعلى فأعلى من الرمزية» . «ومن هذه الرموز التجريبية . . . ما يُسمّى بقوانين الطبيعة» (ib.) . «ان ما يُسمّى بالواقع الحقيقي ، الوجود في حد ذاته ، انما هو ذلك النظام الانليني» * (يا للعالم العلامة السيد يوشكيفيتش !) «الاقصى من الرموز الذي تسعى اليه معرفتنا» (ص ١٨٨) . «ان سيل المعطى» ، «القائم في اساس معرفتنا» «لامعقول» ، «لامنطقي» (ص ١٨٧ ، ١٩٤) . ان الطاقة «قلما تكون شيئاً ، جوهرأ ، مثلها مثل الزمان والمكان والكتلة والمفاهيم الاساسية الاخرى في العلوم الطبيعية : فان الطاقة انما هي ثابت ، رمز تجريبي ، مثل الرموز التجريبية الاخرى التي تلبى - لوقت ما - الحاجة الانسانية الاساسية القاضية بادخال العقل ، logos ، في سيل المعطيات اللامعقول» (ص ٢٠٩) . يظهر امامنا في بدلة مهرج مصنوعة من مزق التعابير «الحديثة» ، المبرقشة ، البراقة ، مثالي ذاتي يرى ان العالم الخارجي ، الطبيعة ، وقوانينها ، - ان كل هذه رموز لمعرفتنا . ان سيل المعطيات يخلو من المعقولية ، من النظام ، من التوافق مع القوانين : فان معرفتنا تحمل العقل اليه . الاجرام السماوية ، بما فيها الارض ، رموز للمعرفة الانسانية . واذا كانت العلوم الطبيعية تعلم ان الارض قد وجدت قبل زمن طويل من امكان ظهور الانسان والمادة العضوية ، فاننا قد غيرنا كل هذا ! ونحن الذين لدخل نظام حركة الكواكب ، وهذا النظام هو نتاج معرفتنا . ولكن السيد يوشكيفيتش يشعر بان هذه الفلسفة تمدد العقل البشري

• infini - اللامتناهي . المعرب .

وتجعل منه مسبب الطبيعة ، منشيء الطبيعة ، فاذا به يضع الى جانب العقل «اللوغوس» اي العقل في التجريد ، لا العقل العادي ، بل العقل الاول ، لا وظيفة الدماغ البشري ، بل شيئاً كائناً قبل كل دماغ ، شيئاً الهياً . ان آخر كلمة «للوضعية الحديثة» انما هي تلك الصيغة القديمة للايمانية التي سبق وفضحها فورباخ .

لنأخذ أ . بوغدانوف . في عام ١٨٩٩ ، عندما كان لا يزال نصف مادي ، وبدأ للتو يتأرجح تحت تأثير العالم الكيماوي الكبير جداً والفيلسوف المشوش جداً ولهلم اوستفالد ، كتب يقول : «ان الصلة السببية العامة بين الظاهرات هي الوليد الاخير ، والافضل ، للمعرفة البشرية ؛ وهي قانون عام ، اعلى من بين تلك القوانين التي ، - اذا استعملنا كلمات فيلسوف - يفرضها العقل البشري على الطبيعة» («العناصر الاساسية والنخ . . .» ، ص ٤١) .
الله يعلم من اية ايد اخذ بوغدانوف آنذاك مقتبسه ، ولكن هناك امر واقع ، وهو ان «كلمات الفيلسوف» التي يكررها هذا «الماركسي» بثقة وتصديق هي كلمات كانط . فيا للحادث المزعج ! ويشتد ازعاجه خصوصاً وانسه لا يمكن حتى تفسيره «بمجرد» التأثير باوستفالد .

في عام ١٩٠٤ ، كتب بوغدانوف ، وكان قد تخلى عن مادية العلوم الطبيعية وعن اوستفالد على السواء : «... ان الوضعية المعاصرة تعتبر قانون السببية مجرد وسيلة لربط الظاهرات ربطاً عرفانياً في صف متواصل ، مجرد شكل لتنسيق التجربة» («من سيكولوجيا المجتمع» ، ص ٢٠٧) . أما ان هذه الوضعية المعاصرة هي لاعرفانية تنكر الضرورة الموضوعية للطبيعة الموجودة قبيل وخارج كل «معرفة» وكل انسان ، فان بوغدانوف إما لم يعرف ذلك ، وإما لزم الصمت عنه . فقد صدق ما سماه البروفسورات الالمان «بالوضعية المعاصرة» . واخيراً ، في عام ١٩٠٥ ، كتب بوغدانوف ، بعد ان اجتاز جميع الاطوار السابقة والطور النقدي التجريبي وبلغ الطور «الاحادي التجريبي» : «ان القوانين لا تعود البتة الى مجال التجربة ،... انها غير معطاة في التجربة ، بل يخلقها

التفكير ، كوسيلة لتنظيم التجربة ، لترتيبها بتناسق في وحدة متألفة» («الاحادية التجريبية» ، المجلد الاول ، ص ٤٠) .
«القوانين - انما هي تجريدات للمعرفة ؛ والقوانين الفيزيائية فلما تتمتع بالخواص الفيزيائية مثلما القوانين النفسانية تتمتع بالخواص النفسية» (ibid.) .

اذن ، القانون القائل ان الخريف يتبعه الشتاء ، والشتاء يتبعه الربيع ، لم يُعْطَ لنا في التجربة ، بل اختلقه التفكير كوسيلة لتنظيم ، تنسيق ، توفيق ... اي شيء مع اي شيء ، يا رفيق بولغانوف ؟

«الاحادية التجريبية ممكنة لسبب واحد فقط ، هو ان المعرفة لتتسق التجربة بنشاط ، مزيلة تناقضاتها التي لا عد لها ، خالقة لاجلها اشكالا منظمة عامة ، مستعيضة عن عالم العناصر العمائي الاولي بعالم العلاقات المشتق ، المنظم» (ص ٥٧) . هذا غير صحيح . فان الفكرة التي تزعم ان بمقدور المعرفة ان «تخلق» اشكالا عامة ، ان تستعيض عن العماء الاولي بالنظام وما الى ذلك ، هي فكرة الفلسفة المثالية . ان العالم هو الحركة الطبيعية للمادة ؛ وبما ان معرفتنا هي النتاج الاعلى للطبيعة ، ففي مقدورها ان تعكس فقط هذه السنة .

الحاصل : ان اصحابنا الماخيين ، الذين يؤمنون على العمياء بالهروفسورات الرجعيين «الحديثين» ، يكررون اخطاء اللاعرفانية الكانطية والهيومية في مسألة السببية ، دون ان يروا لا مدى التناقض الجلي بين هذين المذهبين وبين الماركسية ، اي المادية ، ولا واقع انزلاقهم الى المثالية .

٤ - «مبدأ الاقتصاد في التفكير» ومسألة «وحدة العالم»

ان «مبدأ انفاق الحد الادنى من الجهد» ، الذي وضعه ماخ واليناريوس وكثيرون غيرهما في اساس نظرية المعرفة هو ... ، بلا ريب ، ميل «ماركسي» في علم العرفان» .

هكذا يقول ف . بازاروف في «دراسات» ، ص ٦٩ .
 عند ماركس «اقتصاد» . وعند ماخ «اقتصاد» . ولكن هل ،
 بالفعل ، «لا ريب» انه يوجد بين هذا وذاك وان ظل لصلة ؟
 ان مؤلف افيناريوس «الفلسفة بوصفها تفكيراً في العالم وفقاً
 لمبدأ انفاق الحد الأدنى من الجهد» (١٨٧٦) يطبق هذا «المبدأ» ،
 كما رأينا ، على نحو بحيث يعلن باسم «الاقتصاد في التفكير» ان
الاحساس وحده موجود . ويعلن ان السببية و«الجوهر» (الكلمة
 التي يطيب للسيادة البروفسورات استعمالها «من باب المهابة
 والوقار» عوضاً عن كلمة ادق واوضح : المادة) «قد أُزيحا» باسم
 هذا الاقتصاد نفسه اي ان الحاصل هو احساس بلا مادة ، فكر بلا
 دماغ . ان هذا الهراء الصرف هو محاولة لتمرير **المثالية الذاتية** في
 صلصة جديدة . وهذا الطابع بالذات لهذا المؤلف الاساسي في
 مسألة «الاقتصاد في التفكير» السيئ الشهرة انما يعترف به الجميع
 في المطبوعات الفلسفية ، كما رأينا . واذا كان اصحابنا الماخيون
 لم يروا المثالية الذاتية تحت الراية «الجديدة» ، فان هذا من باب
 الطرائف والغرائب .

يستشهد ماخ ، فيما يستشهد ، في مؤلفه «تحليل
 الاحساسات» (الترجمة الروسية ، ص ٤٩) ببحثه في هذه المسألة
 الصادر عام ١٨٧٢ . وهذا البحث ، كما رأينا ، هو تحقيق لوجهة
 نظر **الذاتية الخالصة** ، وحصر للعالم في الاحساسات . اذن ، مؤلفان
 اساسيان ادخلا في الفلسفة هذا «المبدأ» الشهير ، يروجان
 بالمثالية ! فما الحكاية ؟ ذلك ان مبدأ الاقتصاد في التفكير ، اذا
 ما وُضع فعلاً «في اساس نظرية المعرفة» ، لا يمكنه ان يؤدي الى
 اي شيء عدا المثالية الذاتية . ان «التفكير» باني انا وحدي فقط
 موجود مع احساساتي هو «الاكثر اقتصاداً» ، - وهذا امر لا جدال
 فيه ما دمنا ندخل في علم **العرفان** مفهوماً يمثل هذا القدر من
 السخافة .

هل «التفكير» في ان الذرة غير قابلة للانشطار «اكثر اقتصاداً»
 من «التفكير» في انها تتألف من الكترونات موجبة وسالبة ؟ هل

«التفكير» في ثورة برجوازية روسية يقوم بها الليبراليون «اكثر اقتصاداً» من «التفكير» في ثورة برجوازية روسية تجرى ضد الليبراليين ؟ حسبنا طرح السؤال لكي نرى سخافة وذاتية تطبيق مقولة «الاقتصاد في التفكير» هنا . فان تفكير الانسان يكون «اقتصادياً» حين يعكس الحقيقة الموضوعية بصورة صحيحة ، علماً بان الممارسة ، الاختبار ، الصناعة هي معيار هذه الصحة . ولا يمكن التحدث جدياً عن الاقتصاد في التفكير في نظرية المعرفة الا في حال انكار الواقع الموضوعي اى في حال انكار اسس الماركسية ! واذا القينا نظرة الى ابحاث ماخ بعد المؤلف الذي نحن بمسده ، فاننا نرى تفسيراً للمبدأ الشهير يعني كلياً انكاره التام . مثلاً . في «مذهب الدفء» ، يعود ماخ الى فكرته المفضلة عن «طبيعة» العلم «الاقتصادية» (ص ٣٦٦ من الطبعة الالمانية الثانية) . ولكننا ، كما يضيف في الحال ، لا نسيّر الاقتصاد من اجل الاقتصاد (ص ٣٦٦ ؛ القول نفسه مكرر في ص ٣٩١) : «هدف الاقتصاد العلمي هو . . . لوحة عن العالم . . . اكمل ما يمكن . . . هادئة» (ص ٣٦٦) . وما دام الحال هكذا ، فان «مبدأ الاقتصاد» يزاح ، من حيث جوهر الامر ، لا من اسس علم العرفان وحسب ، بل ايضاً من علم العرفان بوجه عام . ان القول بان هدف العلم هو اعطاء لوحة عن العالم صادقة (ولا شأن البتة هنا للهدوء) انما يعني تكرار موضوعة مادية . وان قول هذا انما يعني الاعتراف بالواقعية الموضوعية للعالم حيال معرفتنا ، بالواقعية الموضوعية للموديل حيال اللوحة . ان اقتصادية التفكير في مثل هذه الحالة انما هي كلمة خرقاء ومضحكة بتزويقها ، عوضاً عن كلمة : صحة . فان ماخ يخبس هنا بحكم العادة : اما الماخيون ، فانهم ينظرون ويصلون على التخبيص !

وفي «المعرفة والضلال» نقرأ في فصل «امثلة عن سبيل

البحث» :

«ان وصف كيرخهوف الكامل والبسيط للغاية (١٨٧٤) ،

والتصوير الاقتصادي للفعلي (ماخ ١٨٧٢) ، و«التوفيق بين التفكير

والوجود ، والتوفيق بين عمليات الفكر بعضها مع بعض» (غراسمان ١٨٤٤) - ، كل هذا يعبر ، بفوارق صغيرة ، عن الفكرة ذاتها .
أوليس هذا ، يا ترى ، نموذجاً على التخييص ؟ ان «الاقتصاد في الفكر» الذي استخلص منه ماخ في عام ١٨٧٢ وجود الاحساسات **وحدها دون غيرها** (وهي وجهة نظر اضطر هو نفسه فيما بعد الى الاقرار بانها مثالية) **يُجعل موازياً** للقول المادي الصرف لعالم الرياضيات غراسمان بضرورة التوفيق بين التفكير **والوجود** ! يُجعل موازياً **للوصف البسيط** للغاية (لِلوِاقِعِ المَوْضُوعِيِّ الذي لم يخطر في بال كيرخهوف حتى ان يشك في وجوده !).

ان تطبيق مبدأ «الاقتصاد في التفكير» **على هذا النحو** ما هو الا نموذج عن تذبذبات ماخ الفلسفية الطريفة . واذا ازلنا مقاطع كالطرائف او lapsus * ، فان الطابع المثالي «لمبدأ الاقتصاد في التفكير» يصبح امراً لا شك فيه . فان الكانطي هونيغسفالد ، اذ يناظر فلسفة ماخ ، **يعني** «مبدأه في الاقتصاد» باعتباره تقرّباً من «حلقة افكار الكانطية» (Dr. Richard Höningwald. «Zur Kritik der Mächtigen Philosophie», Brl., 1903, S. 27**) . وبالفعل ، اذا لم نترف بالواقع الموضوعي المعطى لنا في الاحساسات ، فمن اين يمكن ان ينبع «مبدأ الاقتصاد» ان لم يكن **من الذات** ؟ من المؤكد ان الاحساسات لا تنطوي على اي «اقتصاد» . وهذا يعني ان التفكير يعطي شيئاً لا وجود له في الاحساسات ! وهذا يعني ان «مبدأ الاقتصاد» لا ينبع من التجربة (= الاحساسات) ، بل يسبق كل تجربة ، ويشكل شرطها المنطقي ، مثل مقولة كانط . ويستشهد هونيغسفالد بالمقطع التالي من «تحليل الاحساسات» : «بناء على توازننا الجسدي والروحي ، نستطيع ان نخلص الى القول بتوازن العمليات الجارية في الطبيعة ، وتجانسها ، وتحديد الوحي المدلول» (الترجمة الروسية ، ص ٢٨١) . وبالفعل ، لا سبيل الى

* هفوات ، اخطاء . **المعرب** .

** الدكتور ريخارد هونيغسفالد . «مساهمة في نقد فلسفة ماخ» ،

برلين ، عام ١٩٠٣ ، ص ٢٧ . **الناشر** .

نظرية المعرفة في المادية الديالكتيكية والمذهب النقدي التجريبي ١٩٧

الريب في الطابع المثالي الذاتي لمثل هذه الموضوعات ، في قرب ماخ من بتسولدت الذي تمادى الى حد القول بالقبلية . وبلاستناد الى «مبدأ الاقتصاد في التفكير» ، يسمي المثالي فوننت ماخ ببالغ الدقة والصواب «كانط بالمقلوب» (*Systematische Philosophie". Lpz., 1907, S. 128) : فعند كانط قبلي وتجربة . وعند ماخ تجربة وقبلي ، لأن مبدأ الاقتصاد في التفكير هو عند ماخ ، من حيث جوهر الامر ، قبلي (ص ١٣٠) . ان العقدة المحكمة (Verknüpfung) إما تكمن في الاشياء ، «كقانون موضوعي للطبيعة (الامر الذي يرفضه ماخ قطعاً) ، وإما تكون مبدأ ذاتياً للوصف» (ص ١٣٠) . ان مبدأ الاقتصاد عند ماخ ذاتي ، وهو kommt wie aus der Pistole geschossen ، اي : يظهر في هذه الدنيا الله اعلم من اين ، كمبدأ لاهوتي ، قادر على اكتساب مختلف المعاني (ص ١٣١) . انتم ترون : ان اختصاصي التعابير الفلسفية ليسوا سذجاً مثل اصحابنا الماخيين المستعدين لان يصدقوا القول ان الكلمة «الجديدة» تزيل التضاد بين الذاتية والموضوعية ، بين المثالية والمادية .

واخيراً ، لنستشهد ايضاً بالفيلسوف الانجليزي جيمس ورد الذي يقول عن نفسه بدون موارد انه احادي روحاني . وهو لا يتناظر مع ماخ ، بل بالعكس ، يستعمل ، كما سترى فيما بعد ، التيار الماخي كله في الفيزياء لأجل نضاله ضد المادية . وهو يصرح بوضوح ان «معيار البساطة» عند ماخ «هو على الاغلب ذاتي وليس موضوعياً» (*Naturalism and Agnosticism», v. I, 3rd ed., p. 82**)

اما انه كان بوسع مبدأ الاقتصاد في الفكر ، بوصفه اساس علم العرفان ، ان يعجب الكانطيين الالمان والروحانيين الانجليز ،

* «الفلسفة النظامية» ، ليبزيغ ، عام ١٩٠٧ ، ص ١٢٨ .
الناشر .

** «الطبيعية واللاعرفانية» ، المجلد الاول ، الطبعة الثالثة ،
ص ٨٢ . الناشر .

فلا يمكن لهذا ، بعد كل ما قيل اعلاه ، ان يبدو غريباً . واما ان الذين يرغبون في ان يكونوا ماركسيين ، يقربون بين الاقتصاد السياسي للمادي ماركس وبين الاقتصاد العرفاني لماخ ، فان هذا من باب الفكاهة الصرف .

وسيكون من المناسب هنا التحدث بايجاز عن «وحدة العالم» . فان السيد ب . يوشكيفيتش قد بين بوضوح في هذه المسألة - للمرة المائة والالف - ذلك التخييص اللامتناهي الذي يجلبه اصحابنا الماخيون . ويقول انجلس في مؤلفه «ضد دوهرينغ» ، معترضاً على دوهرينغ ، الذي استخلص وحدة العالم من وحدة التفكير : «ان وحدة العالم الفعلية تتجسد في ماديته ، وهذه الاخيرة لا يثبتها زوج من جمل الغش والاحتيال ، بل يثبتها تطور الفلسفة والعلوم الطبيعية المديد والعسير» (ص ٣١) (٤٤) . ويستشهد السيد يوشكيفيتش بهذه الفقرة ، و«يعترض» قائلاً : «ليس من الواضح هنا قبل كل شيء ما يعنيه بالضبط الزعم ان «وحدة العالم تتجسد في ماديته» (الكتاب المذكور . ص ٥٢) .

هذا لطيف ، أليس كذلك ؟ هذا الشخص عمد الى الثروة امام الملاء بصدد فلسفة الماركسية ، لكي يعلن ان ابسط موضوعات المادية «ليست واضحة» له ! ولقد بين انجلس بمثال دوهرينغ ان الفلسفة ، اذا كانت منسجمة نوعاً ، تستطيع ان تستخلص وحدة العالم إما من التفكير - وهي في هذه الحال عاجزة حيال الروحانية والايمانية («ضد دوهرينغ» . ص ٣٠) وتنحصر حجج مثل هذه الفلسفة في جمل غش واحتيال - ، وإما من ذلك الواقع الموضوعي الموجود خارجاً عنا والذي يسمى من غابر الزمان في علم العرفان بالمادة والذي تدرسه العلوم الطبيعية . ولا جدوى من التحدث بجد مع شخص يكون هذا الامر «ليس واضحاً» له ، لأنه يتحدث هنا عن «عدم الوضوح» لكي يتهرب بالغش والاحتيال من الجواب بصدد جوهر موضوعة انجلس المادية الواضحة تماماً ، مردداً فضلاً عن ذلك لغواً دوهرينغياً صرفاً بصدد «المسلمة الجذرية عن تلاحم الوجود وتجانسه المبدئي» (يوشكيفيتش . الكتاب

المذكور ، ص ٥١) ، عن المسلمات بوصفها «موضوعات» لن يكون «من الدقيق والصائب القول انها مستخلصة من التجربة لان التجربة العلمية لا تكون ممكنة الا بفضل وضع هذه «الموضوعات» في اساس البحث» (المرجع نفسه) . هذا لغو وهراء ، لأنه لو كان هذا السيد يكنّ وان قدراً قليلاً من الاحترام للكلمة المطبوعة ، لراى الطابع المثالي على العموم **والكانطي** على الخصوص للفكرة الزاعمة انه يمكن ان تكون ثمة موضوعات غير مأخوذة من التجربة ، وبدونها تستحيل التجربة . مجموعة كلمات مقتطفة من مختلف الكراريس ومشبوكة باخطاء المادي ديتزغن البيئنة ، - هذه هي «فلسفة» السادة يوشكيفيتش واضرابه .

من الافضل ان ننظر الى محاكمات ناقد تجريبي جدي ، هو يوسف بتسولدت ، بصدد مسألة وحدة العالم . فان الفقرة ٢٩ من المجلد الثاني من مؤلفه «مقدمة» معنونة كما يلي : «السعي الى المتماثل (einheitlich) في ميدان المعرفة . مسلمة احادية مدلول كل ما يجري» . اليكم نماذج من محاكماته : «... في الوحدة فقط يقوم ذلك الهدف الطبيعي الذي لا يتخطى حدوده اي شيء نستحضره ، والذي يمكن فيه بالتالي للتفكير ان يتوصل الى الهدوء اذا اخذ بالحسبان جميع وقائع الميدان المناسب» (ص ٧٩) . «... لا ريب ان الطبيعة ابعد من ان تتجاوب دائماً مع مطلب الوحدة ، ولكنه لا ريب كذلك انها ، مع ذلك ، في كثير من الحالات ، تلبى الآن مطلب الهدوء ، ويجب ان نعتبر ان الاكثر احتمالاً بالاستناد الى جميع بحوثنا السابقة ، هو ان الطبيعة ستلبي هذا المطلب في المستقبل في جميع الحالات . ولهذا من الأصح ان نعرّف الحالة الروحية الفعلية بالطموح الى حالات ثابتة اكثر مما الى الوحدة . . . ان مبدأ الحالات الثابتة يمضي الى ابعد واعمق . . . واقترح هيكل بان توضع الى جانب المملكة النباتية والحيوانية مملكة الفرطيسات (٤٥) ايضاً هو حل لا ينفع ، لأنه يخلق صعوبتين جديدتين عوضاً عن الصعوبة الواحدة السابقة : فمن قبل ، كان الحد بين النباتات والحيوانات مشكوكاً فيه ؛ اما الآن ، فلا يمكن ان نفصل الفرطيسات

بصورة قاطعة لا عن النباتات ولا عن الحيوانات . . . وجلي للعيان ان هذه الحالة ليست نهائية (endgütig) . فيجب القضاء بنحو او آخر على هذا الازدواج في معنى المفاهيم وان حتى عن طريق التوافق بين الاختصاصيين والحل باغلبية الاصوات ، اذا لم تكن ثمة وسائل اخرى» (ص ٨٠-٨١) .

يكفي على ما يبدو ، أليس كذلك ؟ اما ان الناقد التجريبي بتسولدت لا يفضل على دوهرينغ وان بشعرة ، فهو امر واضح . ولكنه يجب ان نكون عادلين حيال الخصم ايضاً : فان بتسولدت يتحلى وان بما يكفي من الذمة العلمية لكي يرفض المادية في كل من مؤلفاته رفضاً قاطعاً لا عودة عنه بوصفها اتجاهاً فلسفياً . وهو لا يتذلل ، على كل حال ، الى حد ان يتلون بلون المادية ، ويعلن ان ابسط الفوارق بين الاتجاهات الفلسفية الاساسية «غير واضحة» .

٥ - المكان والزمان

بما ان المادية تعترف بوجود الواقع الموضوعي ، اي المادة المتحركة ، بصورة مستقلة عن وعينا ، فانه يتعين عليها حتماً ان تعترف كذلك بالواقعية الموضوعية للزمان والمكان ، خلافاً ، قبل كل شيء ، للكانطية التي تقف في هذه المسألة الى جانب المثالية ، وتعتبر الزمان والمكان شكلين من اشكال التأمل البشري وليس واقعاً موضوعياً . وان الفرق الجذري بين الخطين الفلسفيين الاساسيين في هذه المسألة ايضاً انما يدركه بكل وضوح الكتاب من اكثر الاتجاهات تبايناً ، والمفكرون المنسجمون نوعاً . لنبدأ من الماديين .

كتب فورباخ يقول : «ان الزمان والمكان ليسا مجرد شكلين من الظاهرات ، بل شرطان جذريان (Wesensbedingungen) . . . للوجود» (Werke, II, 332) . وبما ان فورباخ يعترف بان العالم المحسوس الذي ندري به عبر الاحساسات هو واقع موضوعي ، فانه ينبذ ايضاً بالطبع الفهم الظاهري (كما قد يقول ماخ عن نفسه)

او اللاعرفاني (كما يقول انجلس) للزمان والمكان : فكما ان الاشياء او الاجسام ليست مجرد ظاهرات ، ليست مركبات احساسات ، بل واقع موضوعي يؤثر في حواسنا ، كذلك المكان والزمان ليسا مجرد شكلين للظاهرات بل شكلان واقعيان موضوعيان للوجود . فليس ثمة في العالم اي شيء غير المادة المتحركة ، والمادة المتحركة لا تستطيع ان تتحرك الا في المكان والزمان . ان التصورات البشرية عن المكان والزمان نسبية ، ولكن الحقيقة المطلقة تتكون من هذه التصورات النسبية ؛ وهذه التصورات النسبية ، تسير ، في سياق تطورها ، على خط الحقيقة المطلقة ، وتقترب منها . وان تغير التصورات البشرية عن الزمان والمكان قلما يدحض الواقع الموضوعي لهذا وذاك ، مثلما تغير المعارف العلمية عن بنينة واشكال حركة المادة لا يدحض الواقعية الموضوعية للعالم الخارجي .

وحيث فضع انجلس المادي دوهرينغ ذا التفكير المشوش وغير المنسجم ، امسك به في الامر التالي بالذات ، وهو انه يتحدث عن تغير مفهوم الزمان (وهذه مسألة لا جدال فيها بنظر الفلاسفة المعاصرين الكبار نوعاً من اشهد الاتجاهات الفلسفية تبايناً) ، متهرباً من اعطاء جواب واضح عن السؤال التالي : المكان او الزمان ، هما واقعيان ام مثاليان ؟ وتصوراتنا النسبية عن المكان والزمان ، اهي خطوات اقتراب من اشكال الوجود الواقعية الموضوعية ؟ ام انها مجرد منتوجات الفكر البشري المتطور ، المنتظم ، المنسق ، وما الى ذلك ؟ في هذا وفي هذا فقط تكمن المسألة العرفانية الاساسية ، التي تفصل بين الاتجاهين الفلسفيين الجذريين فعلاً . وقد كتب انجلس يقول : «اننا لا نعبأ بما يتغير في رأس السيد دوهرينغ من مفاهيم . فالمقصود ليس مفهوم الزمان ، بل الزمان الفعلي الذي لن يتهرب منه السيد دوهرينغ في اي حال من الاحوال بمثل هذه السهولة» (اي بالجمل عن تغير المفاهيم) . («ضد دوهرينغ . الطبعة الالمانية الخامسة . ص ٤١) (٤٦) .

ان هذا ، على ما يبدو ، واضح الى حد انه بوسع السادة يوشكيفيتش واضرا به ان يفهموا كنه المسألة ، أليس كذلك ؟

فان انجلس يعارض دوهرينغ بموضوعة يعترف بها الجميع ، وبديهية بنظر كل مادي ، هي موضوعة فعلية الزمان اي موضوعة واقعية الزمان الموضوعية ، وذلك حين يقول انه لا يمكن التهرب بالمحاكمات عن تغير مفهومي الزمان والمكان من الاعتراف صراحة بهذه الموضوعات او من انكارها . ولا تنحصر القضية هنا في ان ينكر انجلس ضرورة البحث في تغير وفي تطور مفاهيمنا عن الزمان والمكان وينكر اهميته العلمية ، - بل في ان نحل بدأب وانسجام المسألة العرفانية اي مسألة مصدر واهمية كل معرفة بشرية على العموم . وان كل مثالي فلسفي فطن نوعاً - والحال ان انجلس قصد ، في سياق كلامه عن المثاليين ، مثاليي الفلسفة الكلاسيكية ذوي الانسجام العبقري - يعترف بسهولة بتطور مفاهيمنا عن الزمان والمكان ، دون ان يكف عن ان يكون مثالياً ، مع اعتباره ، مثلاً ، ان المفاهيم المتطورة عن الزمان والمكان تقترب من الفكرة المطلقة عن هذا وذاك ، وما شابه . وليس بوسع المرء ان يتبنى بثبات في الفلسفة وجهة نظر معادية لكل ايمانية ولكل مثالية اذا لم يعترف بكل صراحة ووضوح بان مفاهيمنا المتطورة عن الزمان والمكان تعكس زماناً ومكاناً واقعيين موضوعيين ؛ وانها تقترب هنا ايضاً ، كما على العموم ، من الحقيقة الموضوعية .

ويعلم انجلس دوهرينغ قائلاً : «ان الشكلين الاساسيين لكل وجود هما المكان والزمان ؛ ان الوجود خارج الزمان سخافة جسيمة مثل الوجود خارج المكان» (المرجع نفسه) .

ما الذي دفع انجلس الى ان يكرر حرفياً تقريباً في النصف الاول من هذه الجملة ما قاله فورباخ ، والى التذكير في النصف الثاني منها بذلك النضال الذي خاضه فورباخ بمثل هذا النجاح ضد سخافات مذهب التأليه الديني الجسيمة ؛ ان ما دفعه ، هو ان دوهرينغ ، كما يتبين من الفصل نفسه من مؤلف انجلس ، لم يستطع ان يربط بين اجزاء فلسفته ، دون الاعتماد تارة على «العلة الغائية» للعالم ، وطوراً على «الدفعة الاولى» (وهذا تعبير آخر لأجل المفهوم عن : الله ، كما يقول انجلس) . اغلب الظن

نظرية المعرفة في المادية الديالكتيكية والمذهب النقدي التجريبي ٢٠٣

ان دوهرينغ اراد ان يكون مادياً وملحداً باخلاص لا يقل عن اخلاص
رغبة اصحابنا الماخيين في ان يكونوا ماركسيين ، ولكنه لم يستطع
ان يعرض بتتابع وانسجام وجهة النظر الفلسفية التي من شأنها
ان تزيح بالفعل كل تربة من تحت اقدام السخافة المثالية وسخافة
التاليه . وبما ان دوهرينغ لا يعترف - او ، على الاقل ، لا يعترف
بوضوح وجلاء (لان دوهرينغ تأرجح وخبّص في هذه المسألة) -
بواقعية الزمان والمكان الموضوعية ، فانه ينزلق حتماً ، وليس
من باب الصدفة ، على سطح منحدر حتى «العلل الغائية» و«الدفعات
الاولى» ، لأنه حرم نفسه معياراً موضوعياً يحول دون تخطي حدود
الزمان والمكان . فاذا كان الزمان والمكان مجرد مفاهيم ، فمن
حق البشرية التي خلقتهما ان **تتخطى حدودهما** ، ومن حق
البروفسورات البرجوازيين ان يتقاضوا الرواتب من الحكومات
الرجعية لقاء دفاعهم عن شرعية هذا التخطي ، لقاء دفاعهم المباشر
او غير المباشر عن «السخافة» القروسطية .

ولقد بيّن انجلس لدوهرينغ ان انكار واقعية الزمان والمكان
الموضوعية ، هو على الصعيد النظري تخبيص فلسفي ، وهو على
الصعيد العملي استسلام او عجز امام الايمانية .

والآن انظروا الى «مذهب» «الوضعية الحديثة» في هذا
الموضوع . فنحن نقرأ عند ماخ ما يلي : «ان المكان والزمان هما
انظامان منظمان (او منسقان ، wohlgeordnete) - من صفوف
الاحساسات» («الميكانيك» ، الطبعة الالمانية الثالثة ، ص ٤٩٨) .
هذه سخافة مثالية بيئة ، تنبع حتماً من المذهب القائل ان الاجسام
هي مركبات احساسات . ليس الانسان مع احساساته هو الذي
يوجد في المكان والزمان ، بل المكان والزمان هما اللذان يوجدان
في الانسان ، ويتعلقان بالانسان ، ويولدهما الانسان - هذا ما
يتحصل عند ماخ . وهو يحزر انه ينزلق نحو المثالية و«يقاوم» ،
ملفقا طائفة من التحفظات ، مغرقاً المسألة ، على غرار دوهرينغ ،
في محاكمات طويلة للغاية (راجع على الاخص «المعرفة والضلال»)
عن تغير مفاهيمنا عن المكان والزمان ، وعن نسبتها وما الى

ذلك . ولكن هذا لا ينقذه ولا يمكن ان ينقذه ، لأنه لا يمكن التغلب فعلاً على الموقف المثالي في هذه المسألة إلا بالاعتراف بواقعية المكان والزمان الموضوعية . والحال ان ماخ لا يريد هذا في اي حال من الاحوال . وهو يبني النظرية العرفانية عن الزمان والمكان على مبدأ النسبية وحسب . وليس بمقدور هذا البناء ان يؤدي ، من حيث جوهر الامر ، الى اي شيء غير المثالية الذاتية ، كما سبق واوضحنا ذلك في معرض الكلام عن الحقيقة المطلقة والحقيقة النسبية .

واذ يقاوم ماخ الاستنتاجات المثالية المحتملة من مسلماته ، يجادل ضد كانط ، مدافعاً عن نشوء مفهوم المكان من التجربة («المعرفة والضلال» ، الطبعة الالمانية الثانية ، ص ٣٥٠ ، ٣٨٥) . ولكن اذا كان الواقع الموضوعي غير معطى لنا في التجربة (كما يعلم ماخ) ، فان هذا الاعتراض على كانط لا يقضي البتة على موقف الاعرفانية المشترك عند كانط وماخ على حد سواء . فاذا كنا نأخذ مفهوم المكان من التجربة ، **دون ان يكون انعكاساً للواقع الموضوعي القائم خارجاً عنا** ، فان نظرية ماخ تبقى مثالية . ان وجود الطبيعة في **الزمان** ، الذي يقاس بملايين السنين ، قبل ظهور الانسان والتجربة الانسانية ، يبين خرافة هذه النظرية المثالية .

كتب ماخ يقول : «ان الزمان والمكان يعنيان ، على الصعيد الفيزيولوجي ، احساسات بالاتجاه ، تحدد ، مع المدركات الحسية ، اطلاق (Auslösung) ردود فعل التكيف العقلانية بيولوجياً . اما على الصعيد الفيزيائي ، فان الزمان والمكان يعنيان تبعية العناصر الفيزيائية بعضها لبعض» (المرجع نفسه ، ص ٤٣٤) .

ان النسبي ماخ يكتفي ببحث مفهوم الزمان في اصعدة مختلفة وهو يراوح في مكانه ، مثل دوهرينغ . فاذا كانت «العناصر» هي الاحساسات ، فان تبعية العناصر الفيزيائية بعضها لبعض لا يمكن ان توجد خارج الانسان ، قبل الانسان ، قبل المادة العضوية . واذا كان بوسع الاحساسات بالزمان والمكان ان تعطي الانسان

الاتجاه العقلاني بيولوجياً ، فذلك بشرط واحد على وجه الحصر ، هو ان تعكس هذه الاحساسات **الواقع الموضوعي** القائم خارج الانسان : فلم يكن بوسع الانسان ان يتكيف بيولوجياً للبيئة ، لو لم تعطه احساساته تصوراً **صحيحاً موضوعياً عنها** . ان نظرية المكان والزمان ترتبط بعري وثيقة بحل المسألة الاساسية في علم العرفان وهي : أتمثل احساساتنا صوراً للجسام والاشياء ، ام ان الاجسام هي مركبات لاحساساتنا . ان ماخ لا يفعل غير ان يتخبط بين هذا الحل وذاك .

فهو يقول : الفيزياء المعاصرة تتبنى نظرة نيوتن الى الزمان المطلق والمكان المطلق (ص ٤٤٢-٤٤٤) ، الى الزمان والمكان ، ماخوذين بذاتيهما . هذه النظرة تبدو «لنا» سخيفة ، هكذا يستطرد ماخ ، دون ان يخطر في باله ، اغلب الظن ، انه يوجد في الدنيا ماديون ونظرية مادية عن المعرفة . ولكن هذه النظرة كانت في **الواقع العملي غير ضارة** (unschädlich ، ص ٤٤٢) ولذا ظلت زمناً طويلاً لا تتعرض لاي نقد .

ان هذه الملاحظة الساذجة عن عدم ضرر النظرة المادية تفضح ماخ كلياً ! اولاً ، ليس من الصحيح ان المثاليين ظلوا «زمنياً طويلاً» لا ينتقدون هذه النظرة ؛ فان ماخ يتجاهل بكل بساطة الصراع بين النظرية المثالية والنظرية المادية عن المعرفة في هذه المسألة ؛ وهو يتهرب من عرض النظرتين بصراحة وجلاء . ثانياً ، ان ماخ ، اذ يعترف «بعدم ضرر» النظرات المادية التي يعارضها ، انما يعترف بالتالي ، من حيث جوهر الامر ، بصحتها . لأنه كيف امكن ان يبقى عدم الصحة خلال قرون غير ضار ؟ واين اختفى ذلك المعيار للواقع العملي الذي حاول ماخ ان يتغزل به ؟ ان النظرة المادية الى واقعية الزمان والمكان الموضوعية لا يمكن ان تكون «غير ضارة» الا لسبب واحد ، هو ان العلوم الطبيعية لا تتخطى حدود الزمان والمكان ، حدود العالم المادي ، تاركة هذه المهمة لبروفسورات الفلسفة الرجعية . ان «عدم الضرر» هذا يعني الصحة .

ان نظرة ماخ المثالية الى المكان والزمان هي «ضارة» ، اولاً لأنها تفتح الابواب على مصاريحها امام الايمانية ، وثانياً لأنها تغري ماخ نفسه باستخلاص استنتاجات رجعية . مثلاً . في عام ١٨٧٢ ، كتب ماخ انه «ليس من الالزامي تصور العناصر الكيماوية موجودة في المكان الثلاثي المقاييس» («Erhaltung der Arbeit» ، ص ٢٩ * ؛ ومكرر في ص ٥٥) . ان التصرف على هذا النحو يعني ان المرء «يفرض على نفسه حداً لا لزوم له . فليس ثمة اية ضرورة لاستحضار اشياء تصورية بحتة (das bloss Gedachte) في المكان ، اي بالنسبة الى المنظور ، والمحسوس ، كما انه ليس ثمة اية ضرورة لاستحضارها في مستوى معين ما من الصوت» (ص ٢٧) . «اما انه لم يمكن حتى الآن انشاء نظرية مرضية عن الكهرباء ، فان هذا يتوقف ، اغلب الظن ، على انهم ارادوا ان يفسروا الظاهرات الكهربائية من كل بدء بالعمليات الجزيئية في المكان الثلاثي المقاييس» (ص ٣٠) .

ان هذه المحاكمة هي من وجهة نظر تلك الماخية الصريحة وغير المشوشة التي دافع عنها ماخ على المكشوف في عام ١٨٧٢ محاكمة لا جدال فيها اطلاقاً : اذا كان يستحيل الاحساس بالجزيئات والذرات ، اي العناصر الكيماوية ، فان هذا يعني انها «اشياء تصورية بحتة» (das bloss Gedachte) . ولكن بما ان الحال هكذا وبما انه ليس للمكان والزمان اية اهمية واقعية موضوعية ، فمن الواضح انه ليس من الالزامي اطلاقاً ان يتصور المرء الذرات على صعيد المكان ! «فلتحد» الفيزياء والكيمياء «نفسيهما» بالمكان الثلاثي المقاييس الذي تتحرك فيه المادة ، ومع ذلك ، يمكن لتفسير الكهرباء البحث عن عناصرها في مكان ليس ثلاثي المقاييس ا

اما ان صحابنا الماخيين يتجنبون باحتراس سخافة ماخ هذه ، رغم انه يكررها في عام ١٩٠٦ («المعرفة والضلال» ، الطبعة الثانية ، ص ٤١٨) ، فان هذا مفهوم ، لأنهم لو لم يفعلوا ذلك

نظرية المعرفة في المادية الديالكتيكية والمذهب النقدي التجريبي ٢٠٧

لاضطروا الى ان يطرحوا على المكشوف مسألة النظرية المثالية والنظرية المادية الى المكان ، بدون موارد وبدون محاولات «للتوفيق» بين المتضادات . ومفهوم كذلك ان يكون احد زعماء المدرسة الكمونية ، وهو انطون فون ليكلر ، قد تلقف بكل حزم آنذاك بالذات ، في السبعينيات ، عندما كان ماخ مجهولاً تماماً ولقي حق الرفض من جانب «الفيزيائيين الاورثوذكسيين» لطبع مقالاته ، محاكمة ماخ هذه على وجه الضبط بوصفها تبرؤاً رائعاً من المادية واعترافاً بالمثالية ! لأن ليكلر لم يكن قد اخلق آنذاك او لم يقتبس من شوبته وشوبرت - زولدرن او من رمكه نعتاً «جديداً» هو «المدرسة الكمونية» ، بل سمى نفسه صراحة بالمثالي الناقد* . ان هذا المدافع بلا لبس ولا ابهام عن الايمانية والمروج بها صراحة في مؤلفاته الفلسفية نادى على الفور بماخ ، تقديراً لهذه الاقوال ، فيلسوفاً عظيماً ، و«ثورياً بافضل معاني الكلمة» (ص ٢٥٢) ، وكان على حق تام . فان محاكمة ماخ تعني الانتقال من معسكر العلوم الطبيعية الى معسكر الايمانية . اذ ان العلوم الطبيعية سواء في عام ١٨٧٢ ام في عام ١٩٠٦ قد فتشت ، وتفتش وتجد - وتتلهم على الاقل - ذرة الكهرباء ، الالكترون ، في المكان الثلاثي المقاييس . ان العلوم الطبيعية لا تتردد في القول ان المادة التي تدرسها لا توجد الا في المكان الثلاثي المقاييس ، وان دقائق هذه المادة ، مع انها صغيرة الى حد اننا لا نستطيع ان نراها ، توجد بالتالي «الزاماً» في المكان نفسه الثلاثي المقاييس . وفي غضون اكثر من ثلاثة عقود من السنين تصرمت منذ سنة ١٨٧٢ واحرز فيها العلم نجاحات هائلة ، مدهشة ، في مضمار بنية المادة ، بقيت النظرية المادية الى الزمان والمكان «غير ضارة» اي متفقة كما

* Anton von Leclair. «Der Realismus der modernen Naturwissenschaft im Lichte der von Berkeley und Kant angebahnten Erkenntniskritik», Prag, 1879 (انطون فون ليكلر . «واقعية العلوم الطبيعية المعاصرة على ضوء نقد المعرفة الذي اعطاه بركلي وكانط» ، براغ ، عام ١٨٧٩) . الناشر .

من قبل مع العلوم الطبيعية ، في حين ان نظرة ماخ وشركاه المعاكسة كانت تنازلاً «ضاراً» عن الموقف في صالح الايمانية .
ويدافع ماخ في مؤلفه «الميكانيك» عن اولئك من علماء الرياضيات الذين يدرسون مسألة الاماكن التصورية ذات كذا من المقاييس ، ويدافع عنهم لرد التهمة الزاعمة ، بنظره ، انهم مسؤولون عن الاستنتاجات «الفضيحة» الناجمة من دراساتهم . ان الدفاع عادل تماماً ، ولا مراء فيه ، ولكن انظروا اي موقف عرفاني يشغله ماخ في هذا الدفاع . ويقول ماخ : ان الرياضيات الحديثة قد طرحت مسألة هامة ومفيدة جداً ، هي مسألة المكان ذي كذا من المقاييس ، بوصفه مكاناً تصورياً ، ولكن المكان الثلاثي المقاييس وحده يبقى «حالة فعلية» (ein wirklicher Fall) (الطبعة الثالثة ، ص ٤٨٣-٤٨٥) . ولهذا عبثاً رغب «كثيرون من اللاهوتيين ممن واجهوا المصاعب بصدد المكان الذي يحشرون فيه جهنم» وكذلك الروحانيون في ان يستخلصوا لانفسهم فائدة من المقياس الرابع (المرجع نفسه) .

حسناً جداً ! ان ماخ لا يرغب في ان ينضم الى اللاهوتيين والروحانيين . ولكن بم يفصل نفسه عنهم في نظريته بصدد المعرفة ؟ يكون المكان الثلاثي المقاييس هو وحده فعلياً ! فما هو هذا الدفاع دون اللاهوتيين وشركاهم اذا كنت لا تعترف للمكان والزمان بالواقعية الموضوعية ؟ فمن هنا ينجم انك تلجأ الى طريقة الاقتباسات الصامتة من المادية حين يتعين التنحي عن الروحانيين . لأن الماديين ، اذ يعتبرون العالم الفعلي ، المادة التي نحسها ، واقعاً موضوعياً ، انما يحق لهم ان يستخلصوا من هنا ان اية اختلاقات بشرية ، اياً كانت اغراضها ، تتخطى حدود الزمان والمكان ، ليست فعلية . اما انتم ايها السادة الماخيون ، فانكم تنكرون كون «الفعلي» واقعاً موضوعياً ، تناضلون ضد المادية ، وتمررونه خفية من جديد ، حين ينبغي النضال ضد المثالية المنسجمة ، الجريئة حتى النهاية والمكشوفة ! واذا لم يكن في مفهوم الزمان والمكان النسبي شيء غير النسبية ، واذا لم يكن ثمة واقع

موضوعي (=موجود بصورة مستقلة عن الانسان والبشرية على السواء) تعكسه هذه المفاهيم النسبية ، فلماذا لا تملك البشرية ، لماذا لا تملك اغلبية البشر الحق في مفهوم عن كائنات خارج الزمان والمكان ؟ اذا كان يحق لماخ ان يفتش عن ذرات الكهرباء او عن الذرات على العموم خارج المكان الثلاثي المقاييس ، فلماذا لا يحق لاغلبية البشر ان تفتش عن ذرات او اسس الاخلاق خارج المكان الثلاثي المقاييس ؟

كتب ماخ في المرجع نفسه : «لم تظهر بعد قابلة بوسعها ان تساعد على الوضع بواسطة مقياس رابع» .

حجة ممتازة ، ولكن لأجل اولئك الذين يرون في معيار الواقع العملي تأكيداً للحقيقة الموضوعية ، لواقعية عالمنا المحسوس الموضوعية . واذا كانت احساساتنا تعطينا صورة صحيحة موضوعياً عن العالم الخارجى الموجود بصورة مستقلة عنا ، فان هذه الحجة المستندة الى الاستشهاد بالقابلة ، الى الاستشهاد بالواقع العملي البشري كله ، تكون صالحة . ولكن الماخية كلها ، بوصفها اتجاهاً فلسفياً ، لا تنفع البتة في هذه الحال .

ويواصل ماخ مستشهداً بمؤلفه الصادر عام ١٨٧٢ : «اني آمل بان احداً لن يدافع عن شيطنة ما (die Kosten einer Spukgeschichte bestreiten) بواسطة ما قلته وكتبته في هذه المسألة» .

لا يمكن الأمل في ان نابليون لم يمت في ٥ ايار (مايو) ١٨٢١ . لا يمكن الأمل في ان الماخية لن تؤدي خدمة «للشيطنة» اذا كانت قد خدمت ولا تزال تخدم الكمونيين !

وليس الكمونيين وحدهم ، كما سنرى فيما بعد . فان المثالية الفلسفية ليست سوى شيطنة مستورة ، مجتملة . ولكن انظروا الى الممثلين الفرنسيين والانجليز للمذهب النقدي التجريبي ، وهم اقل مغالاة في التزويق من ممثلي هذا التيار الفلسفي الالمان . فان بوانكاره يقول ان مفهومي المكان والزمان نسبيان ، وانه بالتالي (هذا فعلاً «بالتالي» بالنسبة للاماديين) «ليست الطبيعة هي التي

تعطينا (او تفرض - impose) اياهما» (هذين المفهومين) ، «بل نحن الذين نعطي الطبيعة اياهما ، لأننا نجدهما ملائمين» (l.c. ، ص ٦) . أفلا يبرر هذا اعجاب الكانطيين الالمان ؟ أفلا يؤكد هذا بيانات انجلس القائلة انه يجب على المذاهب الفلسفية المنسجمة ان تعتبر ان الاولي هو إما الطبيعة ، وإما تفكير الانسان ؟

ان آراء الماخي الانجليزي كارل بيرسون واضحة تماماً . فهو يقول : «لا يسعنا ان نؤكد ان للمكان والزمان وجوداً فعلياً ؛ فهما ليسا موجودين في الاشياء ، بل موجودان في اسلوبنا (our mode) لادراك الاشياء» (l.c. ، ص ١٨٤) . هذه مثالية صريحة ومكشوفة . «ان الزمان ، مثل المكان ، هو احد الاساليب (حرفياً : الخطط ، plans) التي ترتب (arranges) بها هذه الآلة المصنفة العظيمة ، اي القدرة العرفانية البشرية ، مادتها» (المرجع نفسه) . ويقول كارل بيرسون في الاستنتاج الاخير الذي عرضه كالمعتاد في موضوعات دقيقة وواضحة : «المكان والزمان ليسا من وقائع عالم الظواهر (phenomenal world) بل اسلوبان (modes) ندرك بهما الاشياء . وليسا لامتناهيين ، ولا قابلين للقسمة الى ما لا نهاية له ، لأنهما بحكم جوهرهما (essentially) محدودان بمضمون مدركاتنا» (ص ١٩١ ، استنتاجات من الفصل الخامس عن المكان والزمان) .

ان عدو المادية النزيه والشريف ، بيرسون ، الذي - وكرر قولي - يعرب ماخ غير مرة عن اتفاهه التام معه ، والذي يعلن صراحة اتفاهه مع ماخ ، لا يلفق لافته خاصة لأجل فلسفته ، بل يسمي بدون اقل مواربة اولئك المؤلفين الكلاسيكيين اللذين يأخذ منهما خطه الفلسفي ، وهما هيوم وكانط (ص ١٩٣) .

واذا كان قد تواجد في روسيا اناس سذج صدقوا ان الماخية اعطت حلاً «جديداً» لمسألة المكان والزمان ، فان علماء الطبيعة ، من جهة ، والفلاسفة المثاليين من جهة اخرى ، قد حددوا في الادب الانجليزي ، دفعة واحدة ، وبوضوح تام ، موقفهم من الماخي كارل بيرسون . اليكم ، مثلاً ، رأي البيولوجي لويد مورغان : «ان العلوم الطبيعية ، مأخوذة بذاتها ، تعتبر عالم الظواهر شيئاً خارجياً

نظرية المعرفة في المادية الديالكتيكية والمذهب النقدي التجريبي ٢١١

بالنسبة لعقل المراقب ، مستقلاً عنه ، في حين ان البروفسور بيرسون يشغل «موقفاً مثالياً» * . «ان للطبيعيات ، بوصفها علماً ، الاساس التام ، برأبي ، لاعتبار المكان والزمان مقولتين موضوعيتين خالصتين . فمن حق البيولوجي ، برأبي ، ان يدرس توزع العضويات في المكان ، والجيولوجي - توزعها في الزمان ، دون ان يتوقفا ليشرحا للقارى ان المقصود هو مجرد المدركات الحسية ، المدركات الحسية المتراكمة ، الاشكال المعروفة للمدركات . قد يكون كل هذا جيداً ، ولكنه في غير محله في الفيزياء وفي البيولوجيا» (ص ٣٠٤) . ان لويد مورغان هو ممثل تلك الاعرفانية التي سماها انجلس «بالمادية الخجلة» ؛ ومهما كانت ميول مثل هذه الفلسفة «ساعية للتوفيق» ، تبين انه من المستحيل التوفيق بين آراء بيرسون والعلوم الطبيعية . وعند بيرسون «العقل اولاً في المكان ، ثم المكان في العقل» ، - هكذا يقول ناقد آخر * * . فرد راييل (R. J. Ryle) ، المدافع عن كارل بيرسون : «لا سبيل الى الريب في ان مذهب المكان والزمان المرتبط باسم كانط هو مكسب ايجابي بالغ الشأن حققته النظرية المثالية عن المعرفة البشرية منذ زمن الاسقف بركلي . ومن ابرز سمات مؤلف بيرسون «قواعد العلم» ، اننا نجد هنا للمرة الاولى ، على الارجح ، في مؤلف عالم انجليزي ، الاعتراف الكامل بصحة مذهب كانط الاساسية وكذلك عرضاً وجيزاً ولكن واضحاً له . . . * * * . وهكذا ، لا يوجد وان ظل لشك في انجلترا ، لا عند الماخين انفسهم ، ولا عند اخصامهم من معسكر علماء الطبيعة ، ولا عند انصارهم من معسكر الاختصاصيين - الفلاسفة ، بصدد الطابع

* «Natural Science» (٤٧) ، vol. I, 1892, p. 300.

* * J. M. Bentley عن بيرسون في «The Philosophical Review»

، vol. VI, 5, 1897, Septemb., p. 523 (٤٨) (ج . م . بنتلي عن بيرسون في

«المجلة الفلسفية» ، المجلد ٦ ، ٥ ، ١٨٩٧ . ايلول (سبتمبر) ،

س ٥٢٣ . الناشر .)

* * * R. J. Ryle عن بيرسون في «Natural Science», Aug. 1892. p. 454

المثالي لمذهب ماخ في مسألة الزمان والمكان . وهذا الطابع المثالي «لم يلاحظه» بعض الكتاب الروس فقط ، الراغبين في ان يكونوا ماركسيين .

فان ف . بازاروف ، مثلاً ، قد كتب في «دراسات» ، ص ٦٧ يقول : «لقد شاخت الآن كثرة من نظرات انجلس المنفردة . وبينها ، مثلاً ، تصوره عن المكان «الخالص» والزمان «الخالص» . كيف لا ! ان نظرات المادي انجلس قد شاخت ، ولكن نظرات المثالي بيرسون والمثالي المخبص ماخ هي أحدث الآراء ! واطرف ما في الأمر هنا ، هو ان بازاروف نفسه حتى لا يخامره الشك في انه يمكن تصنيف المفاهيم عن المكان والزمان - والمقصود بالذات : الاعتراف بواقعيتهما الموضوعية ام انكارها - في عداد «النظرات المنفردة» خلافاً «لنقطة انطلاق العقيدة» التي يرد ذكرها في الجملة التالية عند هذا الكاتب . هاكم مثلاً ملموساً عن «الحساء الاختياري البائس» الذي تكلم عنه انجلس عندما تناول الحديث الفلسفة الالمانية في الثمانينيات من القرن الماضي . لأن معارضة «نقطة انطلاق» العقيدة المادية عند ماركس وانجلس «بنظرتهم المنفردة» الى واقعية الزمان والمكان الموضوعية ، انما هي سخافة صارخة كما لو انك تعارض «نقطة انطلاق» نظرية ماركس الاقتصادية «بنظرته المنفردة» الى القيمة الزائدة . وان فصل مذهب انجلس بشأن واقعية الزمان والمكان الموضوعية عن مذهبه بشأن تحول «الاشياء في ذاتها الى الاشياء من اجلنا» ، عن اعترافه بالحقيقة الموضوعية والمطلقة ، اي بالضبط ، بالواقع الموضوعي المعطى لنا في الاحساسات ، عن اعترافه بسببية الطبيعة ، وضرورتها ، وسنتها الموضوعية ، انما يعني تحويل فلسفة متكاملة الى «مخلوطة» . ان بازاروف ، مثله مثل جميع الماخيين ، قد ضل السبيل حين خلط بين قابلية المفاهيم البشرية عن الزمان والمكان للتغير ، وطابعها النسبي الصرف ، وبين ثبات الواقع التالي وهو ان الانسان والطبيعة لا يوجدان الا في الزمان والمكان ، في حين ان الكائنات

خارج الزمان والمكان التي اختلقتها الاوهام الدينية الصوفية ويدعمها توهم الجمهور الجاهل والمضام من البشر هي من وضع خيال مريض ، ومن شعوذات المثالية الفلسفية ، ونتاج ردي لنظام اجتماعي ردي . يمكن ان تشيخ بل وتشيخ فعلاً كل يوم نظرية العلم عن بنية المادة ، عن التركيب الكيماوي للغذاء ، عن الذرة والالكترون ، ولكن لا يمكن ان تشيخ الحقيقة القائلة ان الانسان لا يستطيع ان يتغذى بالافكار ويلد الاولاد في ظل الحب الافلاطوني وحده . اما الفلسفة التي تنكر واقعية الزمان والمكان الموضوعية ، فانها خرقاء ، ومتعفنة داخلياً ، وزائفة مثل انكار هذه الحقائق الاخيرة . وان احتيالات المثاليين والاعرفانيين هي كذلك ، عموماً ، واجمالاً ، منافقة مثل وعظ الفريسيين بالحب الافلاطوني ! ولتبيان هذا الفرق بين نسبية مفاهيمنا عن الزمان والمكان والتضاد المطلق ضمن حدود علم العرفان بين الخط المادي والخط المثالي في هذه المسألة ، اسوق استشهداً موصوفاً آخر من «ناقد تجريبي» قديم جداً وخالص جداً ، هو بالضبط الهيومى شولتسه - اينيزيدم ، الذي كتب في عام ١٧٩٢ يقول :

«اذا خلصنا من التصورات الى «الاشياء خارجاً عنا» ، فان «المكان والزمان هما» ، في هذه الحال ، «شيء فعلي خارج عنا وموجود فعلاً» ، لأنه لا يمكن تصور وجود الاجسام الا في مكان موجود (vorhandenen) ، ولأنه لا يمكن تصور وجود المتغيرات الا في الزمان الموجود» (l.c. ، ص ١٠٠) .

هكذا بالضبط ! ان شولتسه ، تابع هيوم ، اذ ينبذ قطعاً المادية واقل تنازل امامها ، يرسم في عام ١٧٩٢ علاقة مسألة المكان والزمان بمسألة الواقع الموضوعي خارجاً عنا ، تماماً كما يرسم المادي انجلس هذه العلاقة في عام ١٨٩٤ (المقدمة الاخيرة التي كتبها انجلس لمؤلفه «ضد دوهرينغ» مؤرخة في ٢٣ ايار - مايو - ١٨٩٤) . ولكن هذا لا يعني ان تصوراتنا عن الزمان والمكان لم تتغير في غضون مائة سنة ، وانه لم يتم جمع مادة جديدة ضخمة عن تطور هذه التصورات (وان فوروشيلوف -

تشيرنوف وفوروشيلوف - فالنتينوف سواء بمسواء يشيران الى هذه المادة ويزعمان انها تدحض انجلس) ، بل يعني ان **العلاقة بين** المادية واللاعرفانية ، بوصفهما الخطين الفلسفيين الاساسيين ، لم يكن من الممكن ان تتغير ، مهما تقدم به اصحابنا الماخيون من نعوت «جديدة» .

ثم ان بوغدانوف هو ايضاً لا يضيف اي شيء الى الفلسفة القديمة ، فلسفة المثالية واللاعرفانية ، غير نعوت «جديدة» . وعندما يردد محاكمات هيرينغ وماخ بصدد الفرق بين المكان الفيزيولوجي والمكان الهندسي او بين مكان المدرك الحسي والمكان المطلق («الاحادية التجريبية» ، المجلد الاول ، ص ٢٦) ، فانه يردد كلياً خطأ دوهرينغ . فان المسألة التالية : كيف يدرك الانسان المكان بواسطة مختلف اعضاء الحواس وكيف تنشأ من هذه المدركات ، عن طريق التطور التاريخي المديد ، مفاهيم مجردة عن المكان ، شيء ؛ ومسألة ما اذا كان الواقع الموضوعي ، المستقل عن البشر ، يتطابق مع مدركات البشر هذه ومع مفاهيمهم هذه ، شيء آخر . الا ان هذه المسألة الاخيرة ، مع انها المسألة الفلسفية الوحيدة ، «لم يلاحظها» بوغدانوف تحت كومة البحوث المفصلة المتعلقة بالمسألة الاولى ، ولهذا لم يستطع ان يعارض بشكل واضح تخبيص ماخ بمادية انجلس .

ان الزمان ، مثله مثل المكان ، «هو شكل التنسيق الاجتماعي لتجربة مختلف الافراد» (المرجع نفسه ، ص ٣٤) ، و«موضوعية»هما هي «مدلوليتهما العامة» (المرجع نفسه) .

هذا زيف مطبق . فان الدين الذي يعبر عن التنسيق الاجتماعي لتجربة القسم الاكبر من البشر هو ايضاً ذو مدلولية عامة . ولكن تعاليم الدين ، مثلاً ، عن ماضي الارض وعن خلق العالم ، لا يطابقها اي واقع موضوعي . اما نظرية العلم القائلة ان الارض وجدت قبل كل حياة اجتماعية ، قبل البشر ، قبل المادة العضوية ، وجدت في سياق زمان معين ، في مكان معين بالنسبة الى سائر الكواكب ، اما هذه النظرية (مع انها نسبية في كل درجة

من تطور العلم ، كما هي نسبية كل مرحلة من تطور الدين) **فيطابقها** الواقع الموضوعي . وينجم عند بوغدانوف ان اشكالا مختلفة للمكان والزمان تتكيف لتجربة الناس ولقدرتهم العرفانية . اما في الواقع ، فالأمر على العكس تماماً : فان «تجربتنا»نا ومعرفتنا تتكيفان اكثر فاكثر للمكان **الموضوعي** والزمان **الموضوعي** ، عاكستين اياهما بصورة أصح فأصح وأعمق فأعمق .

٦ - الحرية والضرورة

في الصفحتين ١٤٠-١٤١ من «دراسات» ، يورد ا . لوناتشارسكي محاكمات انجلس في مؤلفه «ضد دوهرينغ» بصدد هذه المسألة ويوافق كلياً على الوصف «المذهل من حيث الوضوح والدقة» الذي اعطاه انجلس للمسألة في «الصفحة العجيبة» * من المؤلف المذكور .

والعجائب هنا كثيرة فعلاً . و«أعجب» ما في الامر ، ان الهمية العرفانية لمحاكمات انجلس بصدد الحرية والضرورة «لم يلاحظها» لا لوناتشارسكي ولا الجمع الغفير من الماخيين الآخرين الراغبين في ان يكونوا ماركسيين . لقد قرأوا حقاً وفعلاً ، واستنسخوا حقاً وفعلاً ، ولكنهم لم يفهموا شيئاً .

يقول انجلس : «ان هيغل هو اول من تفهم بشكل صحيح العلاقة بين الحرية والضرورة . فالحرية بنظره هي معرفة الضرورة . ان الضرورة عمياء ما دامت غير مفهومة» . فليس في الاستقلال الموهوم عن قوانين الطبيعة تتجسد الحرية ، بل في معرفة هذه القوانين وفي الامكانية المرتكزة على هذه المعرفة لاجبار قوانين الطبيعة بصورة منهجية على ان تفعل فعلها من اجل اهداف معينة .

* يقول لوناتشارسكي : «... صفحة الاقتصاد الديني العجيبة . اول هذا ، مجازفاً باثارة ابتسامة القارى غير المتدين» . ان مغازلاتك مع الدين ، يا رفيق لوناتشارسكي ، مهما كانت نواياك طيبة ، لا تشير الابتسام ، بل تشير الاشمئزاز .

وهذا ينطبق سواء على قوانين الطبيعة الخارجية ، ام على القوانين التي توجه الوجود الجسدي والروحي للانسان نفسه ، وهاتان فئتان من القوانين نستطيع ان نفصل احدهما عن الاخرى في تصورنا ، اكثر ما نستطيع ، وليس البتة في الواقع . وبالتالي ، لا تعني حرية الارادة سوى القدرة على اتخاذ القرارات عن معرفة للامر . وهكذا ، كلما كانت محاكمة الانسان بصدد مسألة ما اوفر حرية ، كلما تقرر مضمون هذه المحاكمة بقدر اوفر من **الضرورة** . . . ان الحرية تتجسد في السيادة على انفسنا بالذات وعلى الطبيعة الخارجية ، هذه السيادة المرتكزة على معرفة ضرورات الطبيعة (Naturnotwendigkeiten) . . . » (ص ١١٢-١١٣ . الطبيعة الالمانية الخامسة) (٤٩) .

لنر على اية مقدمات عرفانية ترتكز كل هذه المحاكمة . اولاً ، يعترف انجلس منذ بادىء بدء محاكماته بقوانين الطبيعة ، بقوانين الطبيعة الخارجية ، بضرورة الطبيعة ، - اي بكل ما يعلنه ماخ وافيناريوس وبتسولدت وشركاهم «ميتافيزياء» . ولو ان لوناتشارسكي اراد ان يمعن الفكر في محاكمات انجلس «العجيبة» ، لما كان بوسعها ان لا يرى الفرق الاساسي بين النظرية المادية بشأن المعرفة وبين اللاعرفانية والمثالية اللتين تنكران سنة الطبيعة او تعلنان انها مجرد سنة «منطقية» ، وهكذا دواليك وهلمّ جراً .

ثانياً ، ان انجلس لا يعمد الى تلفيق «تعريفات» للحرية والضرورة ، من نوع تلك التعريفات السكولاستية التي تشغل ، اكثر ما تشغل ، بال البروفسورات الرجعيين (من طراز افيناريوس) وتلامذتهم (من طراز بوغدانوف) . فان انجلس يأخذ معرفة الانسان واراادته - من جهة ، وضرورة الطبيعة - من جهة اخرى ؛ وعوضاً عن اي تعريف ، يقول ببساطة ان ضرورة الطبيعة هي الاولى وان ارادة الانسان ووعيه هما الثانوي . وينبغي لهذين الاخيرين ، ينبغي لهما حتماً والزاماً ، ان يتكيفا للاولى . ويعتبر انجلس هذا امراً بديهياً الى حد انه لا يرى من المجدي اطالة الكلام لشرح نظرقه .

ان ماخبي روسيا وحدهم استطاعوا ان يتشكوا من التعريف العام الذي اعطاه انجلس عن المادية (الطبيعة هي الاولى ؛ الوعي هو الثانوي : تذكروا «حيرة» بوغدانوف في هذا الصدد !) وان يجدوا في الوقت نفسه احد التطبيقات الملموسة من قبل انجلس لهذا التعريف العام والاساسي «عجيباً» و«وصائباً للغاية» !

ثالثاً ، لا يشك انجلس في وجود «الضرورة العمياء» . وهو يعترف بوجود الضرورة غير المعروفة من قبل الانسان . وهذا ما يتبين بوضوح ما بعده وضوح من المقطع المذكور اعلاه . ولكن ، من وجهة نظر الماخين ، كيف يمكن للانسان ان يعرف عن وجود ما لا يعرفه ؟ ان يعرف عن وجود الضرورة غير المعروفة ؟ اوليس هذا ، يا ترى ، من «الصوفية» ، من «الميتافيزياء» ، اوليس هذا اعترافاً «بالتماثل» و«الاصنام» ، اوليس هذا «الشيء في ذاته غير المعروف الكانطي» ؟ لو ان الماخين امعنوا الفكر ، لما كان في وسعهم ان يروا التشابه التام بين محاكمات انجلس بصدده امكانية معرفة الطبيعة الموضوعية للاشياء وبصدده تحول «الشيء في ذاته» الى «شيء من اجلنا» ، من جهة ، وبين محاكماته بصدده الضرورة العمياء ، غير المعروفة ، من جهة اخرى . ان تطور الوعي لدى كل فرد بشري بمفرده وتطور المعارف الجماعية لعموم البشر يبينان لنا ، لدى كل خطوة ، تحول «الشيء في ذاته» غير المعروف الى «شيء من اجلنا» معروف ، تحول الضرورة العمياء ، غير المعروفة ، «الضرورة في ذاتها» الى «ضرورة من اجلنا» معروفة . وعلى الصعيد العرفاني ، ليس ثمة قطعاً اي فرق بين هذا التحول وذلك ، لأن وجهة النظر الاساسية هنا وهناك واحدة - وهي بالذات وجهة النظر المادية ، الاعتراف بالواقعية الموضوعية للعالم الخارجي ولقوانين الطبيعة الخارجية ، علماً بانه من الممكن تماماً ان يعرف الانسان هذا العالم وهذه القوانين ، ولكن لن يكون بإمكانه يوماً ان يعرفها الى النهاية . فنحن لا نعرف ضرورة الطبيعة في ظاهرات الطقس ، ولذا نحن حتما عبيد الطقس . ولكن ، رغم عدم معرفة هذه الضرورة ، نعرف نحن انها موجودة . ومن اين هذه المعرفة ؟

من معرفتنا ان الاشياء موجودة خارج ادراكنا وبصورة مستقلة عنه ، اي بالضبط : من تطور معارفنا الذي يبين ملايين المرات لكل انسان ان اللامعرفة تعقبها المعرفة عندما يؤثر الشيء في اعضاء حواسنا ، والعكس بالعكس : فان المعرفة تتحول الى لامعرفة عندما تزول امكانية هذا التأثير .

رابعاً ، يطبق انجلس بكل وضوح في المحاكمة المذكورة طريقة «القفزة الحيوية» في الفلسفة اي انه يقوم بقفزة من النظرية الى التطبيق . وما من بروفيسور من اولئك البروفيسورات العلماء (والحمقى) في الفلسفة الذين يسير وراءهم اصحابنا الماخيون يسمح لنفسه ابدأ بمثل هذه القفزات ، المعيبة بالنسبة لمثلي «العلم الخالص» . فان نظرية المعرفة التي يجب فيها «طبخ» «التعريفات» قولاً بشكل ادهى ، هي بنظرهم شيء ، بينما التطبيق شيء آخر تماماً . اما عند انجلس ، فان التطبيق البشري الحي كله يقتحم نظرية المعرفة بالذات ، مقدماً المعيار الموضوعي للحقيقة : فما دمنا لا نعرف قانون الطبيعة ، فان هذا القانون الموجود والذي يفعل فعله في معزل عن ادراكنا ، خارج ادراكنا ، يجعلنا عبيداً «للضرورة العمياء» . ومتى عرفنا هذا القانون الذي يفعل فعله (كما كرر ماركس آلاف المرات) بصورة مستقلة عن ارادتنا وادراكنا ، فاننا نصبح اسياء الطبيعة . ان السيادة على الطبيعة ، هذه السيادة التي تتجلى في نشاط البشر العملي ، هي نتيجة لانعكاس ظاهرات الطبيعة وعملياتها انعكاساً صحيحاً موضوعياً في رأس الانسان ، هي دليل على ان هذا الانعكاس (في حدود ما يبينه لنا الواقع العملي) هو حقيقة موضوعية ، مطلقة ، خالدة .

وعلام نحصل في النتيجة ؟ ان كل خطوة في محاكمة انجلس ، وكل جملة وكل موضوعة تقريباً حقاً وفعلاً ، مبنية تماماً وبوجه الحصر على اساس علم العرفان للمادية الديالكتيكية ، على مقدمات تصفع وجه الهراء الماخي كله بصدد الاجسام بوصفها مركبات احساساتنا ، بصدد «العناصر» ، بصدد «تطابق التصور الحسي

مع الواقع الموجود خارجاً عنا» ، وخلافه ، وهكذا دواليك وهلم جراً . ودون الارتباك اطلاقاً من جراء هذا ، يطرح الماخيون المادية جانباً ، ويكررون (à la * برمان) التفاهات البالية عن الديالكتيك ، ويقبلون في الوقت نفسه ، بحفاوة وترحاب ، واحداً من مجالات تطبيق المادية الديالكتيكية ! وقد استقروا فلسفتهم من الحساء الاختياري البائس ؛ ولا يزالون يقدمون للقراء الحساء نفسه . يأخذون قطعة صغيرة من اللاعرفانية وقليلاً من المثالية من عند ماخ ، ويجمعون كل هذا مع قطعة صغيرة من مادية ماركس الديالكتيكية ، ويتمتمون ان هذا الخليط هو تطوير للماركسية . وهم يظنون انه اذا كان ماخ وافيناريوس وبتسولدت وجهاً بذتهم الآخرون غير ملمين بتاتاً بحل هيغل وماركس للمسألة (مسألة الحرية والضرورة) ، فمرد ذلك الى مجرد الصدفة : فان كل ما في الامر ، انهم لم يقرأوا صفحة ما معينة في كتيب ما معني وليس البتة ان هؤلاء «الجهابذة» كانوا ولا يزالون جهلاء مطبقين فيما يتعلق بتقدم الفلسفة **الفعلي** في القرن التاسع عشر ، كانوا ولا يزالون ظلاميين فلسفيين .

اليكم محاكمة ظلامي من هذا الطراز ، هو بروفيسور في الفلسفة من البروفسورات العاديين للغاية في جامعة فيينا ، ارنست ماخ :

«لا يمكن تقديم البرهان على صحة موقف الحتمية او الاحتمية . ولا يمكن ان يبت في هذه المسألة غير علم ناجز او غير علم اقيم الدليل على انه مستحيل . والمقصود هنا مقدمات نعملها (man heranbringt) الى دراسة الاشياء ، حسبما ننسب الى النجاحات او الاخفاقات السابقة في البحوث وزناً ذاتياً (subjektives Gewicht) كبيراً الى هذا الحد او ذاك . ولكن كل مفكر هو ، اثناء البحث ، حتمي بالضرورة على الصعيد النظري» («المعرفة والضلال» . الطبعة الالمانية الثانية ، ص ٢٨٢-٢٨٣) .

أوليس من الظلامية ان تُفصل النظرية الخالصة باهتمام عن التطبيق ؟ ان تُحصَر الحتمية في ميدان «البحث» ، بينما تخضع المسألة للتقييم «الذاتي» في ميدان الاخلاق وفي ميدان النشاط الاجتماعي ، وفي جميع الميادين الباقية ، عدا ميدان «البحث» ؟ يقول المتحدلق العالم : - انا حتمي في مكتبي ؛ اما ان يهتم الفيلسوف بعقيدة متكاملة ، تشمل النظرية والتطبيق على السواء ، وتقوم على الحتمية ، فلا مجال حتى للكلام عن هذا . ان ماخ ينطق بتفاهة لأن مسألة العلاقة بين الحرية والضرورة غير واضحة اطلاقاً بالنسبة له من الناحية النظرية .

«... ان كل اكتشاف جديد يظهر نواقص معرفتنا ، ويبين راسب التبعيات غير الملحوظ حتى الآن» (ص ٢٨٣) . . . ممتاز ! هل هذا «الراسب» هو «الشيء في ذاته» ، الذي تعكسه معرفتنا بصورة اعمق فأعمق ؟ لا شيء من هذا القبيل «... وهكذا ، ان من يدافع في حقل النظرية عن الحتمية المتطرفة ، لا بد له هو ايضاً ان يبقى بلا مناص في حقل التطبيق لاحتمياً» (ص ٢٨٣) . . . وهكذا تقاسموا حبياً * : النظرية - للبروفسورات ، التطبيق - للاهوتين ! او : في النظرية - الموضوعية (اي المادية «الخجلة») ، في التطبيق - «الطريقة الذاتية في السوسولوجيا» (٥٠) . اما ان هذه الفلسفة التافهة المبتذلة تحظى بعطف ايدولوجيي البرجوازية الصغيرة الروس ، الشعبيين ، ابتداء من ليسيفيتش الى تشيرنوف ، فلا غرابة في الامر . واما ان الذين يرغبون في ان يكونوا ماركسيين قد تولعوا بهذا اللغو والهذر ، ساترين بحياء استنتاجات ماخ السخيفة بخاصة ، فان هذا مؤسف جداً .

ولكن ماخ لا يكتفي في مسألة الارادة بالتخبيص واللاعرفانية المتذبذبة ، بل يمضي الى ابعد بكثير . . . فنحن نقرأ في

* ماخ في «الميكانيك» : «ان آراء الناس الدينية تبقى شيئاً خاصاً صرفاً طالما لم يحاولوا ان يفرضوها على غيرهم من الناس ، او ان يطبقوها في مسائل تتعلق بميدان آخر» (ص ٤٣٤ . الترجمة الفرنسية) .

«الميكانيك»: «ان احساسنا بالجوع لا يختلف من حيث الجوهر عن سعي حمض الكبريتيك الى الزنك ، و ارادتنا لا تختلف كثيراً عن ضغط الحجر على مسنده» . «وهكذا نصبح اقرب الى الطبيعة» (اي بموجب مثل هذه النظرة) ، «دون ان نحتاج الى تحليل الانسان الى كومة يستحيل فهمها من الذرات المبهمة او الى ان نجعل من العالم نظاماً من التركيبات الروحية» (ص ٤٣٤ . الترجمة الفرنسية) . اذن ، لا حاجة الى المادية («الذرات المبهمة» او الالكترونات ، اي الاعتراف بواقعية العالم المادي الموضوعية) ، لا حاجة الى مثالية تعتبر العالم «وجوداً آخر» للروح ، ولكن من الممكن مثالية تعتبر العالم ارادة ! نحن لسنا اعلى من المادية وحسب ، بل اعلى ايضاً من مثالية هيغل «ما» ولكننا لا نعارض مغازلة المثالية بروح شوبنهاور ! ان اصحابنا الماخيين الذين يتظاهرون بانهم ابرياء مهانون لدن اي تذكير بقراءة ماخ من المثالية الفلسفية ، قد فضلوا هنا ايضاً ان يلزموا الصمت المطبق حول هذه النقطة الحساسة . ولكنه من الصعب ان نجد في المطبوعات الفلسفية عرضاً لآراء ماخ لا ينوه بميله الى Willensmetaphysik ، اي الى المثالية الارادية . والى هذا اشار يو . باومان * ، علماً بان الماخي غ . كلينبيتر الذي يعترض عليه لم يدحض هذه النقطة ، بل اعلن ان ماخ هو بالطبع «اقرب الى كانط وبركلي مما الى التجريبية الميتافيزيائية» (اي الى المادية العفوية) «السائدة في العلوم الطبيعية» (المرجع نفسه ، المجلد ٦ ، ص ٨٧) . والى هذا يشير ايضاً ا . بيخر ملاحظاً ما يلي : اذا كان ماخ يعترف في بعض الاماكن بالميتافيزياء الارادية ، ويتبرأ منها في اماكن اخرى ، فان هذا يشهد على اعتباطية تعابيره ؛ اما في الواقع ، فان قرابة ماخ

* «Archiv für systematische Philosophie», 1898, II, Bd. 4, S. 63

(«ارشيف الفلسفة النظامية» ، عام ١٨٩٨ ، II ، المجلد ٤ ، ص ٦٣ . الناشر) ، مقالة عن نظرات ماخ الفلسفية .

من الميتافيزياء الارادية امر لا شك فيه * . وامتزاج هذه الميتافيزياء (اي المثالية) «بمذهب الظاهرية» (اي بالاعرفانية) يعترف به ايضاً لوكا * * . والى الامر نفسه يشير ف . فوندت * * * . اما ان ماخ نصير لمذهب الظاهرية ، و«ليس غريباً عن المثالية الارادية» ، فان هذا ورد ايضاً في الكتاب الدراسي الخاص بتاريخ الفلسفة الحديثة من تأليف ايرفينغ - هينتسه * * * * .

خلاصة القول ان اختيارية ماخ ونزوعه الى المثالية واضحان للجميع ، باستثناء الماخيين الروس ، على ما يبدو .

-
- Erich Becher. «The Philosophical Views of E. Mach» * في
«Philosophical Review», vol. XIV, 5, 1905, pp. 536, 546, 547, 548
(ايرينغ بيخر . «نظرات ا . ماخ الفلسفية» في «المجلة الفلسفية» ، المجلد
١٤ ، ٥ ، ١٩٠٥ ، ص ٥٣٦ ، ٥٤٦ ، ٥٤٧ ، ٥٤٨ . الناشر) .
- E. Lucka. Das Erkenntnisproblem und Machs «Analyse der * *
Empfindungen» في «Kantstudien», Bd. VIII, 1903, S. 400 .
«Systematische Philosophie», Lpz., 1907, S. 131. * * *
- «Grundriß der Geschichte der Philosophie», Bd. 4, 9. Auflage, * * * *
Brl., 1903, S. 250 («عرض في تاريخ الفلسفة» ، المجلد ٤ ، الطبعة
التاسعة ، برلين ، عام ١٩٠٣ ، ص ٢٥٠ . الناشر) .

الفصل الرابع

المثاليون الفلاسفيون ، بوصفهم انصار وورثة المذهب النقدي التجريبي

حتى الآن ، تناولنا المذهب النقدي التجريبي بمفرده . اما
الآن ، فيجب النظر اليه في تطوره التاريخي ، في ترابطه مع
الاتجاهات الفلسفية الاخرى . وهنا تتقدم الى المرتبة الاولى مسألة
موقف ماخ وافيناريوس من كانط .

١ - نقد الكانطية من اليسار ومن اليمين

دخل ماخ وافيناريوس الى حلبة الفلسفة في السبعينيات من
القرن الماضي عندما كان نداء «الى الوراء نحو كانط !» (٥١) النداء
الدارج في بيئة البروفسورات الالمان . ولقد انطلق مؤسس المذهب
النقدي التجريبي من كانط على وجه الضبط في تطورهما الفلسفي .
انب ماخ يقول : «بجزيل الشكر ، يجب ان اعترف ان مثاليته
(مثالية كانط) النقدية بالذات هي التي كانت نقطة الانطلاق لكل
تلاميذ النقاد . ولكنني لم استطع البقاء وفياً له . فبعد فترة وجيزة
هدأ عدت من جديد الى نظرات بركلي» ، ثم «توصلت الى نظرات
بريية من نظرات هيوم . . . وفي الوقت الحاضر ايضاً ، لا ازال
اعتبر بركلي وهيوم مفكرين اكثر انسجاماً من كانط» («تحليل
الاحساسات» ، ص ٢٩٢) .

وهكذا اذن ، يعترف ماخ بكل وضوح انه بدأ من كانط وسار
في خط بركلي وهيوم . لنر الى افيناريوس .

فقد لاحظ افيناريوس في مقدمة مؤلفه «مقدمات» لنقد التجربة الخالصة» (عام ١٨٧٦) ان كلمات «نقد التجربة الخالصة» تشير الى موقفه من مؤلف كانط «نقد العقل الخالص» ، «وبالطبع الى موقف التناحر» حيال كانط (ص IV ، طبعة عام ١٨٧٦) . فقيم يتلخص تناحر افيناريوس هذا حيال كانط ؟ في ان كانط ، كما يعتقد افيناريوس ، «قد طهر التجربة» بصورة غير كافية . وعن «تطهير التجربة» هذا يتحدث افيناريوس في مؤلفه «المقدمات» (الفقرتان ٥٦ و ٧٢ وكثير غيرهما) . وميم «يطهر» افيناريوس مذهب كانط عن التجربة ؟ اولاً ، من القبلية . فهو يقول في الفقرة ٥٦ : «ان مسألة ما اذا كان يجب ان نستبعد من مضمون التجربة «مفاهيم العقل القبلية» بوصفها نافلة ، ونخلق بهذه الصورة وعلى الاغلب تجربة خالصة ، توضع هنا ، بقدر ما اعلم ، للمرة الاولى» . ولقد سبق ورأينا ان افيناريوس قد «طهر» الكانطية على هذا النحو من الاعتراف بالضرورة والسببية .

ثانياً ، انه يطهر الكانطية من التسليم بالجواهر (الفقرة ٩٥) ، اي بالشيء في ذاته الذي هو ، كما يعتقد افيناريوس ، «غير معطى في مادة التجربة الفعلية ، بل يدخله التفكير فيها» . وسنرى الآن ان تعريف افيناريوس هذا لخطه الفلسفي يتطابق كلياً مع تعريف ماخ ، ولا يختلف عنه الا من حيث التفنن في التعبير . ولكنه من الضروري الاشارة بادىء ذي بدء الى ان افيناريوس ينطق **بكذبة بيئة** ، حين يزعم انه هو الذي طرح للمرة الاولى في عام ١٨٧٦ مسألة «تطهير التجربة» اي مسألة تطهير المذهب الكانطي من القبلية ومن التسليم بالشيء في ذاته . اما في الواقع ، فان تطور الفلسفة الكلاسيكية الالمانية بعد كانط على الفور قد انشأ نقد الكانطية في ذلك الاتجاه بالذات الذي شنته فيه افيناريوس . وهذا الاتجاه يمثله في الفلسفة الكلاسيكية الالمانية شولتسه-اينيزيدم ، نصير لاعرفانية هيوم ، واي . غ . فيخته ، نصير البركلية ، اي المثالية الذاتية . ففي عام ١٧٩٢ انتقد شولتسه-اينيزيدم كانط لتسليمه بالقبلية على وجه الضبط

(I.C. ، ص ٥٦ ، و ١٤١ وكثير غيرهما) والشيء في ذاته . قال شولتسه : - نحن ، الريبين او انصار هيوم ، نرفض الشيء في ذاته ، لأنه يتخطى «حدود كل تجربة» (ص ٥٧) . نحن نرفض المعرفة الموضوعية (ص ٢٥) ؛ نحن ننكر ان يكون الزمان والمكان موجودين فعلاً خارجاً عنا (ص ١٠٠) ؛ نحن نرفض وجود الضرورة (ص ١١٢) والسببية ، والقوة ، والنخ . (ص ١١٣) في التجربة . فلا يمكن ان ننسب اليها «الواقعية خارج تصوراتنا» (ص ١١٤) . ان كانط يحاول ان يثبت القبليّة «بطريقة عقائدية جامدة» ، قائلاً انه ما دمنا لا نستطيع ان نفكر بنحو آخر ، فان هذا يعني انه يوجد قانون قبلي للتفكير . ويرد شولتسه على كانط قائلاً : «هذه الحجة استعملوها من زمان في الفلسفة للبرهنة على الطبيعنة الموضوعية لما هو موجود خارج تصوراتنا» (ص ١٤١) . وبالمحاكمة على هذا النحو ، تمكن نسبة السببية الى الاشياء في ذاتها (ص ١٤٢) . «ان التجربة لا تبين لنا ابدأ (wir erfahren niemals) ان تأثير الاشياء الموضوعية فينا يولد تصورات» ، ولم يبرهن كانط البتة «ان هذا الشيء الموجود خارج عقلنا انما كان يجب الاعتراف به على انه الشيء في ذاته الذي يختلف عن احساسنا (Gemüt) . يمكن تصور الاحساس بوصفه الاساس الوحيد لكل معرفتنا» (ص ٢٦٥) . ان النقد الكانطي للعقل الخالص «يضع في اساس محاكماته المقدمة القائلة ان كل معرفة تبدأ من تأثير الاشياء الموضوعية في اعضاء حواسنا (Gemüt) ، ثم يجادل هذا النقد نفسه في صحة وواقعية هذه المقدمة» (ص ٢٦٦) . ان كانط لم يدحض المثالي بركلي في شيء (ص ٢٦٧-٢٧٢) .

ومن هنا يتبين ان الهيومي شولتسه يرفض مذهب كانط عن الشيء في ذاته ، بوصفه تنازلاً لامبدئياً للمادية ، اي للزعم «العقائدي الجامد» بان الواقع الموضوعي معطى لنا في الاحساس ، اي ، بتعبير آخر ، ان تصوراتنا يولدها تأثير الاشياء الموضوعية (المستقلة عن ادراكنا) في اعضاء حواسنا . ان اللاعرفاني شولتسه يلوم اللاعرفاني كانط على ان التسليم بالشيء في ذاته يناقض

اللاعرفانية ويقود الى المادية . كذلك - ولكن بمزيد من الحزم - ينتقد المثالي الذاتي فيخته كانط قائلاً ان تسليم كانط بالشيء في ذاته ، المستقل عن **أنا** هو «الواقعية» (Werke, I, S. 483) وان كانط يفرق «بصورة غير واضحة» بين «الواقعية» و«المثالية» . ويرى فيخته ما يلزم كانط والكانطيين من عدم انسجام صارخ في كونهم يسلمون بالشيء في ذاته بوصفه «اساس الواقعية الموضوعية» (ص ٤٨٠) ويدخلون بالتالي في تناقض مع المثالية النقدية . وقد صاح فيخته مخاطباً مفسري كانط الواقعيين : «عندكم ، الارض على الحوت ، والحوت على الارض . ان شيئكم في ذاته الذي هو فكرة فقط يؤثر في **أنا** !» (ص ٤٨٣) . وهكذا ، ضل افيناريوس ضللاً شديداً حين توهم انه يقوم «للمرة الاولى» «بتطهير التجربة» عند كانط من القبلية ومن الشيء في ذاته ، وحين توهم انه يخلق بذلك اتجاهاً «جديداً» في الفلسفة . اما في الواقع ، فانه واصل خطأ قديماً هو خط هيوم وبركلي وشولتسه-اينيزيدم واي . غ . فيخته . لقد توهم افيناريوس انه «يطهر التجربة» على العموم . اما في الواقع ، فانه لم يفعل غير ان **طهر اللاعرفانية من الكانطية** . وهو اذ ناضل ، لم يناضل ضد لاعرفانية كانط (اللاعرفانية هي انكار للواقع الموضوعي ، المعطى لنا في الاحساس) ، بل ناضل في سبيل لاعرفانية اكثر طهارة ، في سبيل ازالة تسليم كانط المناقض للاعرفانية والزاعم انه يوجد شيء في ذاته ، حتى وان كان مستحيلاً على المعرفة ووهماً وغيبياً ، وانه توجد ضرورة وسببية ، حتى وان كانت قبلية ، معطاة في التفكير ، وليس في الواقع الموضوعي . لقد ناضل ضد كانط لا من اليسار ، كما ناضل ضد كانط الماديون ، بل من اليمين ، كما ناضل ضد كانط الريبيون والمثاليون . وقد توهم انه سار الى الامام ، ولكنه سار بالفعل الى الوراء ، نحو ذلك البرنامج لنقد كانط ، الذي اعرب عنه كونو فيشر بدقة وصواب ، في معرض كلامه عن شولتسه-اينيزيدم ، بالكلمات التالية : «ان نقد العقل الخالص باستثناء العقل الخالص» (اي القبلية) «هو الريبية . ان نقد

العقل الخالص باستثناء الشيء في ذاته هو مثالية بركلية» («تاريخ الفلسفة الجديدة» ، الطبعة الألمانية ، عام ١٨٦٩ ، المجلد الخامس ، ص ١١٥) .

هنا اقتربنا من واقعة من اطرف وقائع كل «صليبيتنا الماخية» ، كل حملة الماخين في روسيا ضد ماركس وانجلس . ان الاكتشاف الحديث الذي حققه بوغدانوف وبازاروف ويوشكيفيتش وفالنتينوف والذي يطبلون ويزمرون له في كل ناد وواد ، يتلخص في كون بليخانوف يقوم «بمحاولة منحوسة للتوفيق بين انجلس وكانط بواسطة الشيء في ذاته ، المحور نوعاً ، الممكنة معرفته قليلاً جداً» («دراسات» ، ص ٦٧ وكثير غيرها) . ان اكتشاف اصحابنا الماخين هذا يكشف امامنا هاوية لا قعر لها حقاً وفعلاً من التشوش الرهيب ، من عدم الفهم الفظيع منتهى الفظاعة لكانط ولكل مجرى تطور الفلسفة الكلاسيكية الالمانية .

ان السمة الاساسية التي تختص بها فلسفة كانط هي التوفيق بين المادية والمثالية ، والمساومة بين هذه وتلك ، الجمع في نظام واحد بين اتجاهات فلسفية مختلفة ، متضادة . فعندما يسلم كانط بان تصوراتنا يطابقها شيء ما خارج عنا ، شيء ما في ذاته ، فان كانط هنا مادي . وعندما يعلن كانط ان هذا الشيء في ذاته مستحيل على المعرفة ، متعال ، غيبي ، فانه يبرز هنا كمثالي . وبما ان كانط يعترف بان التجربة ، الاحساسات هي المصدر الوحيد لمعارفنا ، فانه يوجه فلسفته في خط المذهب الحسي ، وعبر المذهب الحسي ، وبشروط معينة ، في خط المادية . وبما ان كانط يعترف بقبلية المكان والزمان والسببية والنخ . ، فانه يوجه فلسفته صوب المثالية . وبسبب هذا التذبذب ، ناضل الماديون المنسجمون والمثاليون المنسجمون على السواء (وكذلك اللاعرفانيون «الخالسون» ، الهيوميون) ضد كانط بلا رحمة ولا هوادة . فان الماديين قد رأوا خطيئة كانط في مثاليته ، ودحضوا سمات نظامه المثالية ، واكدوا على امكان معرفة الشيء في ذاته وعلى كونه غير غيبي وعلى عدم وجود اي فرق مبدئي بينه وبين الظاهرة ،

وضرورة استخلاص السببية ، وخلافها ، لا من قوانين الفكر القبلية ، بل من الواقع الموضوعي . اما اللاعرفانيون والمثاليون ، فقد رأوا خطيئة كانط في تسليمه بالشيء في ذاته ، بوصفه تنازلاً في صالح المادية او «الواقعية» او «الواقعية الساذجة» ، علماً بان اللاعرفانيين نبذوا القبلية ايضاً علاوة على الشيء في ذاته ، بينما طالب المثاليون بان يُستخرج بصورة منسجمة من الفكر الخالص ، لا قبلية اشكال التأمل فحسب ، بل ايضاً العالم كله على العموم (ماغطين تفكير الانسان حتى **الأنا المجردة او حتى «الفكرة المطلقة»** او حتى **الارادة** الشاملة والنخ . ، وهكذا دواليك) . وها هم اصحابنا الماخيون ، الذين «لم يلحظوا» انهم اتخذوا لانفسهم معلمين اناساً كانوا ينتقدون كانط من وجهة نظر الريبية والمثالية ، قد اخذوا يمزقون البستهم ويرشون الرماد على رؤوسهم عندما رأوا اناساً فظيعين ينتقدون كانط من **وجهة نظر مضادة كلياً** ، ويرفضون في نظام كانط اصغر عناصر اللاعرفانية (الريبية) والمثالية ، ويبرهنون ان الشيء في ذاته واقعي موضوعياً ، ومن الممكن تماماً معرفته ، وانه غير غيبي ولا يختلف البتة مبدئياً عن الظاهرة ، وانه يتحول الى ظاهرة لدى كل خطوة من تطور الوعي الفردي للانسان ومن تطور الوعي الجماعي للبشرية . وصاحوا : النجدة ! هذا خلط غير شرعي بين المادية والكانطية !

حين اقرأ تأكيدات اصحابنا الماخيين بانهم ينتقدون كانط بصورة اشد انسجاماً وحزماً بكثير من اي مادين شائخين ، يخيل التي دائماً بان بوريشكيفيتش جاء الى رفقتنا واخذ يصيح : لقد انتقدت الكاديت (٥٢) بانسجام وحزم اشد بكثير مما انتقدتموهم انتم ايها السادة الماركسيون ! وغني عن البيان ايها السيد بوريشكيفيتش ان الناس المنسجمين في السياسة يستطيعون ان ينتقدوا وسوف ينتقدون دائماً الكاديت من وجهات نظر متضادة تماماً ، ولكنه لا يجوز مع ذلك ان تنسى انك انتقدت الكاديت لانهم ديموقراطيون اكثر من اللزوم بينما نحن انتقدناهم لانهم ديموقراطيون اقل من اللزوم . وان الماخيين ينتقدون كانط لأنه

مادي اكثر من اللزوم ، بينما نحن ننتقده لأنه مادي اقل من اللزوم . ان الماخيين ينتقدون كانط من اليمين ، ونحن من اليسار . ان الهيومى شولتسه والمثالي الذاتي فيخته هما في تاريخ الفلسفة الالمانية الكلاسيكية نموذجان عن النوع الاول من النقد . فهما يحاولان ، كما سبق ورأينا ، ان يستأصلا من الكانطية عناصرها «الواقعية» . وكما انتقد شولتسه وفيخته كانط نفسه ، كذلك انتقد الهيوميون من انصار مذهب النقد التجريبي ، والمثاليون الذاتيون من انصار مذهب الكمونية ، الكانطيين الجدد الالمان من النصف الثاني من القرن التاسع عشر . ثم ان الخط نفسه ، خط هيوم وبركلي ، برز في حلة كلامية مجددة نوعاً . فقد لام ماخ وافيناريوس كانط ، لا على انه ينظر الى الشيء في ذاته نظرة واقعية ومادية اقل من اللزوم ، بل على انه يُسَلِّم بوجوده ؛ لا على انه يرفض ان يستخلص سببية وضرورة الطبيعة من الواقع الموضوعي ، بل على انه يسلم بوجه عام بالسببية والضرورة ايأ كانت (عدا السببية والضرورة «المنطقيتين» الخالصتين) . كان انصار مذهب الكمونية يجارون انصار مذهب النقد التجريبي ، منتقدين كانط من وجهة النظر الهيومية والبركلية ايضاً . مثلاً ، ان ليكلر قد لام كانط في عام ١٨٧٩ ، في نفس مؤلفه الذي مدح فيه ماخ بوصفه فيلسوفاً ممتازاً ، على «عدم انسجامه وعلى ميله (Connivenz) نحو الواقعية» ، اللذين تجليا في مفهوم «الشيء في ذاته» ، الذي هو «الراسب (Residuum) الاسمى عن الواقعية المبتدلة» (S. ١٩) «Der Real. der mod. Nat. etc.» . ان ليكلر يسمي المادية بالواقعية المبتدلة «من باب التشديد» . وقد كتب ليكلر يقول : «برأينا انه تجب ازالة جميع تلك الاجزاء المكوّنة من نظرية

* «Der Realismus der modernen Naturwissenschaft im Lichte der von Berkeley und Kant angebahnten Erkenntniskritik», S. ١٩
 «واقعية العلوم الطبيعية المعاصرة في ضوء نقد المعرفة الذي اعطاه بركلي
 والبلد» ، ص ٩ . الناشر .

الكانطية ، التي تميل الى realismus vulgaris * بوصفها لامبدئية ونتاجاً هجيناً (zwitterhaft) من وجهة نظر المثالية» (ص ٤١) . ان «ظواهر التناقض وعدم الانسجام» في تعاليم كانط تنبع «من خلط (Verquikkung) الانتقادية المثالية ببقايا غير مذلة من العقائدية الواقعية» (ص ١٧٠) . ان ليكلر يعني بالعقائدية الواقعية المادية . وقد لام نصير آخر لمذهب الكمونية ، هو يوهانس رمكه ، كانط على انه **يفصل نفسه بطريقة واقعية عن بركلي بواسطة الشيء في ذاته** (Johannes Rehmke. «Die Welt als Wahrnehmung und Begriff», Brl., 1880, S. 9**) . ان نشاط كانط الفلسفي قد اتسم من حيث الجوهر بطابع جدلي : فقد وجه فلسفته بواسطة الشيء في ذاته ضد العقلانية الالمانية» (اي ضد الايمانية القديمة من القرن الثامن عشر) ، «وبواسطة التأمل الخالص ضد التجريبية الانجليزية» (ص ٢٥) . «وقد اشبه الشيء في ذاته الذي يقول به كانط بفتح متحرك منصوب فوق حفرة ؛ يبدو هذا الشيء بريئاً ولا خطر منه ، ولكن ما ان تطأه حتى تسقط فجأة في هوة العالم في ذاته» (ص ٢٧) . فاليكم لماذا لا يحظى كانط بحب انصار ماخ وافيناريوس ، انصار مذهب الكمونية : لأنه يقترب في شيء ما من «هوة» المادية !

واليكم الآن نماذج عن نقد كانط من اليسار . فان فورباخ يلوم كانط على **مثاليته** ، لا على «واقعيته» ، ناعتاً نظامه «بالمثالية على اساس التجريبية» (Werke, II, 296) . واليكم محاكمة لفورباخ بشأن كانط ذات اهمية خاصة : «يقول كانط : «اذا اعتبرنا مواضيع احساساتنا ظواهر بسيطة ، - وهكذا يجب اعتبارها ، - فاننا نعترف بذلك بان الشيء في ذاته يقوم في اساس الظواهر ، وهم اننا لا نعرف كيفية بنيانه بحد ذاته ، بل

* realismus vulgaris - الواقعية المبتدلة . **المعرب** .

** يوهانس رمكه . «العالم بوصفه مدركاً ومفهوماً» ، برلين ،

١٨٨٠ ، ص ٩ . الناشر .

نعرف فقط ظواهره اي ذلك الاسلوب الذي يؤثر (affiziert) به هذا المجهول في حواسنا . ومن هنا ينجم ان عقلنا ، لكونه يدرك وجود الظواهر ، يعترف كذلك بوجود الشيء في ذاته ؛ وعليه ، نستطيع ان نقول ان تصور جواهر تقوم في اساس الظواهر اي جواهر ليست سوى جواهر تصورية ، ليس مسموحاً به وحسب ، بل ضروري ايضاً» وبما ان فورباخ قد اختار من كانط مقطعاً يعتبر فيه الشيء في ذاته مجرد شيء تصوري ، جوهر تصوري ، وليس واقعاً ، فانه يوجه كل انتقاده الى هذا بالذات . فهو يقول : « . . . ومن هنا ينجم ان مواضيع الاحساسات ، مواضيع التجربة هي بالنسبة للعقل ظواهر فقط ، وليست الحقيقة . . . » . «ان الجواهر التصورية ، لو ترون ، ليست مواضيع فعلية بالنسبة للعقل ! ان فلسفة كانط هي تناقض بين انذات والموضوع ، بين الجوهر والوجود ، بين التفكير والكينونة . ان الجوهر هنا يخص العقل ، والوجود يخص الحواس . ان الوجود بدون الجوهر» (اي وجود الظواهر بدون الواقعية الموضوعية) «هو مجرد ظاهرة ، انه اشياء حسية ؛ والجوهر بدون الوجود انما هو جواهر تصورية ، **نومينات** * ؛ وهذه يمكن ويجب تصويرها ، ولكنه ينقصها الوجود - بالنسبة لنا على الاقل ، - تنقصها الموضوعية ؛ وهي اشياء في ذاتها ، اشياء حقيقية ، ولكنها ليست اشياء واقعية . . . فيا للتناقض : فصل الحقيقة عن الواقع ، والواقع عن الحقيقة !» (Werke, II, S. 302-303) . ان فورباخ يلوم كانط ، لا على انه يسلم بالاشياء في ذاتها ، بل على انه لا يسلم بفعاليتها اي بواقعيته الموضوعية ، على انه يعتبرها مجرد فكرة ، «جواهر تصورية» ، وليس «جواهر تملك وجوداً» ، اي واقعية ، موجودة فعلاً . ان فورباخ يلوم كانط على تراجعته عن المادية .

* بالفرنسية noumène . بالانكليزية noumenon . - النومن مقابل الظاهرة ويطلق على الشيء في ذاته ، والحقيقة المطلقة التي تدرك بالحدس العقلي لا بالتجربة والادراك الحسي . **المعرب** .

في ٢٦ آذار (مارس) ١٨٥٨ كتب فورباخ الى بولين يقول :
«ان فلسفة كانط هي تناقض ؛ فهي تؤدي بضرورة محتمة الى
مثالية فيخته او الى المذهب الحسي» ؛ الاستنتاج الاول
«يتعلق بالماضي» ، والثاني - «بالحاضر والمستقبل»
(Grün, l.c.*, II, 49) . وقد سبق ورأينا ان فورباخ يدافع عن
المذهب الحسي الموضوعي اي عن المادية . وان الانعطاف الجديد
من كانط الى اللاعرفانية والمثالية ، الى هيوم وبركلي ، هو ، بلا
ريب ، رجعي حتى من وجهة نظر فورباخ . وان تابعه المتحمس ،
البريخت راو ، الذي اخذ عن فورباخ مزاياه ونواقصه على السواء -
النواقص التي تغلب عليها ماركس وانجلس ، - قد انتقد كانط
بروح معلمه كلياً : «ان فلسفة كانط هي امفيبوليا (ذات معنيين) ،
فهي مادية ومثالية في آن واحد ، وفي طبيعتها المزدوجة هذه يكمن
المفتاح لجوهرها . ان كانط ، بوصفه مادياً او تجريبياً ، لا يستطيع
ان يتملص من الاعتراف بالوجود (Wesenheit) للاشياء الواقعة
خارجاً عنا . ولكن ، بوصفه مثالياً ، لم يكن بوسعه ان يتخلص
من الرأي الباطل الزاعم ان الروح هي شيء يختلف تماماً عن
الاشياء الحسية . توجد اشياء فعلية وتوجد روح بشرية تدرك
هذه الاشياء . فكيف تقترب هذه الروح من اشياء تختلف عنها
تماماً ؟ ان كانط يلجأ الى الحيلة التالية : ان الروح تملك a priori
معارف معينة ، يجب بفضلها على الاشياء ان تظهر لها كما تظهر
لها . ومن هنا ينجم ان كوننا نفهم الاشياء كما نفهمها هو من صنعنا .
لأن الروح العائشة فينا ليست سوى روح الهية ؛ وكما خلق الله
العالم من العدم ، كذلك تخلق روح الانسان من الاشياء شيئاً
ليست هذه الاشياء بحد ذاتها هذا الشيء . وهكذا يضمن كانط
للاشياء الواقعية وجودها بوصفها «اشياء في ذاتها» . ان الروح
ضرورية لكانط ، لأن الخلود هو بالنسبة له مسلّمة اخلاقية . يقول
راو موجهاً كلامه الى الكانطيين الجدد على العموم والى المشوش

١ . لانغه الذي زوّر «تاريخ المادية» على الخصوص : ان «الشيء في ذاته» ، ايها السادة ، هو ما يفصل مثالية كانط عن مثالية بركلي : انه يشكل جسراً من المثالية الى المادية ، - ذلك هو نقدي للفلسفة الكانطية ، وليدحض هذا النقد كل من في مقدوره ان يدحضه . . . ان التمييز بين المعرفة a priori و«الشيء في ذاته» نافل تماماً بنظر المادي : فهو لا يقطع في اي مكان الصلات الدائمة في الطبيعة ، ولا يعتبر المادة والروح شيئين مختلفين كلياً فيما بينهما ، بل مجرد جانبي الشيء الواحد نفسه ، ولهذا لا يحتاج الى اية شعوزات لأجل تقريب الروح من الاشياء» * .

وبعد . ان انجلس ، كما رأينا ، يلوم كانط على انه لاعرفاني ، وليس على انه يتراجع عن الاعرفانية المنسجمة . وفي عام ١٩٠٠ ، جادل لافارغ ، تلميذ انجلس ، ضد الكانطيين (وفي عدادهم كان آنذاك شارل رابوبورت) على النحو التالي :
 «... في اوائل القرن التاسع عشر ، عمدت برجوازيتنا ، بعد ان انجزت مهمة التدمير الثوري ، الى انكار فلسفتها الفولتيرية ؛ ومن جديد صارت الكاثوليكية دارجة ، على الموضة ، وزخرفها (peinture) شاتوبريان بالاصباغ الرومانطيقية ، واستورد سيباستيان مرسية مثالية كانط لكي يقضي على مادية الموسوعيين التي كان روبسبير قد اعدم دعائها على المقصلة .

وفي اواخر القرن التاسع عشر الذي سيمسى في التاريخ بقرن البرجوازية ، يحاول المثقفون ان يسحقوا مادية ماركس وانجلس بواسطة فلسفة كانط . وقد بدأت هذه الحركة الرجعية في ألمانيا - ونحن لا نقول هذا لاهانة اصحابنا الاشتراكيين - التكاملين الذين يودون لو ينسبون الشرف كله الى مؤسس مدرستهم ،

Albrecht Rau. «Ludwig Feuerbach's Philosophie, die Natur-
 forschung und die philosophische Kritik der Gegenwart», Leipzig, 1881,
 110 117 SS. (البريخت راو . «فلسفة لودفيغ فورباخ والعلوم الطبيعية
 المعاصرة والنقد الفلسفي المعاصر» ، ليبزيغ ، عام ١٨٨٢ ، ص ٨٧ -
 ٨٩ . الناشر .)

مالون . اما في الواقع ، فان مالون نفسه قد خرج من مدرسة هوخبرغ وبرنشتين وسائر تلامذة دوهرينغ الذين اخذوا يصلحون الماركسية في زورينغ» . (يقصد لافارغ الحركة الفكرية المعروفة في الاشتراكية الالمانية خلال النصف الثاني من السبعينيات في القرن الماضي (٥٣)) . «يجب ان نتوقع ان يقدم لنا جوريس وفورنيير ومثقفونا ايضاً كانط عندما يتفهمون تعابيره . . . ان رابوبورت يخطئ حين يؤكد انه «يوجد تطابق بين الفكرة والواقع» بنظر ماركس . فنحن ، اولاً ، لا نستعمل ابداً مثل هذه التعابير والمصطلحات الميتافيزيائية . ان الفكرة واقعية مثل الموضوع الذي هي انعكاسه في الدماغ . . . ولكي اسلي (récréer) نوعاً الرفاق الذين يتأتى لهم الاطلاع على الفلسفة البرجوازية ، اعرض ماهية هذه القضية الشهيرة التي استحوذت ببالح الشدة على العقول الروحانية . . .

ان العامل الذي يأكل السجق والذي يتقاضى ٥ فرنكات في اليوم يعرف جيداً جداً ان رب عمله ينهبه وانه يأكل لحم الخنزير ؛ وان رب العمل سارق ، وان السجق لذيد الطعم ومغذ للجسم . لا شيء من هذا القبيل ، - يقول السفسطائي البرجوازي ، سواء كان اسمه بيرون او هيوم او كانط ، - فان رأي العامل في هذا الصدد هو رأي خاص اي ذاتي ؛ ويحق له بالقدر نفسه ان يظن ان رب العمل محسن اليه وان السجق مصنوع من جلد مفروم ، لانه لا يستطيع ان يعرف الشيء في ذاته . . .

ان المسألة مطروحة بصورة غير صحيحة ، وهنا بالذات تكمن صعوبتها . . . فلكي يعرف المرء الموضوع ، يتعين عليه اولاً ان يتحقق مما اذا كانت حواسه لا تخدعه . . . لقد مضى الكيماويون الى ابعد ، وتغلغلوا الى داخل الاجسام ، وحللوها ، وفككوها الى عناصرها ، ثم قاموا بالعملية المعاكسة ، اي بالتركيب ، وركبوا اجساما من عناصرها : ومنذ ان يصبح بمقدور الانسان ان ينتج من هذه العناصر اشياء لاجل استهلاكه ، يغدو بوسعه ، - كما يقول انجلس ، - ان يعتبر انه يعرف الاشياء في ذاتها . ولو ان الله

المسيحيين كان موجوداً ، ولو انه خلق العالم ، لما فعل اكثر من ذلك» * .

لقد سمحنا لانفسنا بايراد هذا المقتطف الطويل لكي نبيّن كيف فهم لافارغ انجلس ، وكيف انتقد كانط من اليسار ، لا على تلك الجوانب من الكانطية التي تتميز بها عن الهيومية ، بل على تلك الجوانب المشتركة بين كانط وهيوم ، لا على التسليم بالشيء في ذاته ، بل على النظرة المادية الناقصة اليه .

واخيراً ، ينتقد ك . كاوتسكي هو ايضاً في مؤلفه «الاخلاق» كانط ، وينتقده كذلك من وجهة نظر مضادة تماماً للهيومية والبركلية . وهو يكتب ضد علم العرفان عند كانط قائلاً : «في خواص قدرتي البصرية ، يكمن ما يتيح لي ان ارى الاخضر ، الاحمر ، الابيض . اما ان الاخضر يختلف عن الاحمر ، فان هذا يشهد على امر ما قائم خارجاً عني ، على فرق فعلي بين الاشياء . . . ان العلاقات والفوارق بين الاشياء نفسها التي تدلني عليها تصورات مختلفة في المكان والزمان . . . هي علاقات وفوارق فعلية في العالم الخارجي ؛ وهي ليست مشروطة بطابع مقدرتي العرفانية . . . في مثل هذه الحال» (اذا ما كان مذهب كانط بصدده مثالية الزمان والمكان صحيحاً) «لن يكون بوسعنا ان نعرف شيئاً عن العالم القائم خارجاً عنا ، لن يكون بوسعنا حتى ان نعرف ان هذا العالم موجود» (ص ٣٣-٣٤ . الترجمة الروسية) .

وهكذا ، سارت كل مدرسة فورباخ وماركس وانجلس من كانط نحو اليسار ، نحو الانكار التام لكل مثالية ولكل لاعرفانية . اما اصحابنا الماخيون ، فقد ساروا وراء الاتجاه الرجعي في الفلسفة ، وراء ماخ وافيناريوس اللذين انتقدا كانط من وجهة النظر الهيومية والبركلية . ويقيناً ان السير وراء اي كان من الرجعيين

• Paul Lafargue. «Le matérialisme de Marx et l'idéalisme de

Kant» في (٥٤) «Le Socialiste» بتاريخ ٢٥ شباط (فبراير) ١٩٠٠ .
 (١٠١) لافارغ . «مادية ماركس ومثالية كانط» في جريدة
 «السيالست» . (الناشر) .

الفكرين هو حق مقدس لكل مواطن وعلى الاخص لكل مثقف . ولكن اذا عمد اولئك الذين قطعوا تماماً كل صلة لهم بأسس الماركسية بالذات في الفلسفة ، وشرعوا فيما بعد يلفون ويدورون ، ويشوشون ، ويراوغون ، ويؤكدون انهم «هم ايضاً» ماركسيون في الفلسفة ، انهم موافقون «تقريباً» مع ماركس ، وانهم لم يفعلوا غير ان «أكملوه» قليلاً جداً ، - فان هذا يمسي مشهدية غير مستطابة ابداً .

٢ - بصدد سخر «الرمزي التجريبي» يوشكيفيتش من «الناقد التجريبي» تشيرنوف

كتب السيد ب . يوشكيفيتش يقول : «من المضحك ، بالطبع ، ان نرى كيف يريد السيد تشيرنوف ان يجعل من نصير كونت وسبنسر ، الوضعي اللاعرفاني ميخايلوفسكي ، سلفاً لماخ وافيناريوس» (l.c. ، ص ٧٣) .

ان المضحك هنا انما هو قبل كل شيء الجهل المذهل الذي يتصف به السيد يوشكيفيتش . وهو ، مثل فوروشيلوف واضرا به جميعهم ، يستر هذا الجهل بمجموعة من الكلمات والاسماء العلمية . وجملته المذكورة اعلاه ترد في فقرة مخصصة لموقف الماخية من الماركسية . الا ان السيد يوشكيفيتش الذي اخذ يتحدث عن هذا لا يعرف ان انصار خط هيوم وانصار خط كانط سواء بسواء هم ، بنظر انجلس (كما بنظر كل مادي) لاعرفانيون بالقدر نفسه . ولهذا ، حين يعارض المرء الماخية باللاعرفانية على العموم ، بينما ماخ نفسه يعترف بانه من انصار هيوم ، فان هذا يعني انه امي كلياً على الصعيد الفلسفي . ان تعبير «الوضعية اللاعرفانية» هو ايضاً سخيف لأن انصار هيوم هم بالذات يقولون عن انفسهم انهم وضعيون . وكان يتوجب على السيد غ . يوشكيفيتش ، - وقد اتخذ بتسولدت معلماً له ، - ان يعرف ان بتسولدت ينسب المذهب النقدي التجريبي مباشرة الى الوضعية . واخيراً ، من السخافة كذلك

ذكر اسمي اوغست كونت وهربرت سبنسر لأن الماركسية لا تنبذ ما يميّز وضعياً عن وضعي آخر ، بل تنبذ ما يجمع بينهما ، ما يجعل من الفيلسوف وضعياً ، وليس مادياً .

وكل هذه المجموعة من الكلمات انما احتاجها صاحبنا فوروشيلوف لكي «يفلسق رأس» القارى ، ويصمّه بطنين الكلمات ، ويصرف انتباهه عن جوهر القضية الى السفساف والتوافه . والحال ان جوهر القضية يتلخص في الاختلاف الجذري بين المادية وبين كل تيار الوضعية الواسع الذي يوجد في داخله او . كونت ، وه . سبنسر ، وميخايلوفسكي ، وعدد من الكانطيين الجدد ، وماخ مع افيناريوس سواء بسواء . وعن جوهر القضية هذا تحدث انجلس باكمل ما يكون من الوضوح والدقة في مؤلفه «لودفيغ فورباخ» ، عندما صنّف جميع الكانطيين والهيوميين في ذلك الزمن (اي في الثمانينيات من القرن الماضي) في معسكر الاختياريين الحقيرين ، المشتغلين بسفساف الامور (Flohknacker ، حرفياً : قارص البرغوث) ، وما الى ذلك (٥٥) . اما من يمكن ومن يجب ان تطلق عليهم هذه الاوصاف ، فان اصحابنا فوروشيلوف واضرا به لم يرغبوا في التفكير بذلك . وبما انهم عاجزون عن التفكير فاننا نسوق لهم مقارنة واضحة . ان انجلس لم يذكر اية اسماء عندما تحدث في سنة ١٨٨٨ وفي سنة ١٨٩٢ عن الكانطيين والهيوميين بوجه عام (٥٦) . والاستشهاد الوحيد عند انجلس بكتاب ما ، انما هو الاستشهاد بمؤلف شتاركة عن فورباخ ، الذي حلله انجلس . يقول انجلس : «يبذل شتاركة قصارى الجهد لكي يدافع عن فورباخ دون حملات ونظريات الاساتذة المحاضرين ممن يضجون في الوقت الحاضر في المانيا منتحلين اسم الفلاسفة . وهذا ، بالطبع ، امر هام بالنسبة لاولئك الذين يهتمون بالذرية المنحطة للفلسفة الالمانية الكلاسيكية ؛ وقد كان هذا يبدو ضرورياً لشتاركة نفسه . ولكننا نعفي القارىء منه» (٥٧) («Ludwig Feuerbach», S. 25) .

لقد اراد انجلس ان «يعفي القارىء» اي ان يجنب الاشتراكيين-الديموقراطيين امر التعرف المستطاب على الشرثارين المنحطين الذين

يسمون انفسهم بالفلاسفة . فمن هم ممثلو «الذرية المنحطة» هؤلاء؟
 نفتح كتاب شتاركة (C. N. Starke. «Ludwig Feuerbach», Stuttgart, 1885*) ونقرأ الاستشهادات الدائمة بانصار هيوم
وكانط . وعن هذين الخطين يفصل شتاركة فورباخ . وان شتاركة
 يستشهد فضلاً عن ذلك باقوال **ا . ريل وفندلباند ، وا . لانغه**
 (ص ٣ ، ١٨-١٩ ، ١٢٧ وما يليها عند شتاركة) .

نفتح كتاب **ا . افيناريوس** «المفهوم الانساني عن العالم»
 الصادر في سنة ١٨٩١ ونقرأ في الصفحة ١٢٠ من الطبعة الالمانية
 الاولى : «ان نتيجة تحليلنا النهائية تتطابق - وان لم يكن بصورة
 مطلقة (durchgehend) ، تبعاً لاختلاف وجهات النظر - مع ما خلص
 اليه باحثون آخرون ومنهم ، مثلاً ، **ا . لآس ، ا . ماخ ، ا . ريل ، ف . فونددت** . قارن كذلك **شوبنهاور**» .

على من كان يضحك صاحبنا فوروشيلوف - يوشكيفيتش ؟
 ان افيناريوس لا يشك البتة في قرابته المبدئية - لا في
 مسألة جزئية ، بل في مسألة «النتيجة النهائية» للمذهب النقدي
 التجريبي - من **الكانطيين ريل ولآس** ، من المثالي فونددت . اما
 ماخ ، فانه يذكره بين كانطيين اثنين . وبالفعل أليست هذه ،
 يا ترى ، زملة واحدة ، اذا عمل ريل ولآس على تكييف كانط
 ليشبه هيوم ، واذا عمل ماخ وافيناريوس على تكييف هيوم ليشبه
 بركلي ؟

وهل من داع للاستغراب اذا كان انجلس اراد ان «يعفي»
 العمال الالمان ، ان يجنبهم امر الاطلاع عن كذب على كل هذه الزملة
 من الاساتذة المحاضرين ، «قارصي البرغوث» ؟
 لقد عرف انجلس كيف يشفق على العمال الالمان ، ولكن
 اضراب فوروشيلوف لا يشفقون على القاريء الروسي .
 وتجب الاشارة الى ان الجمع الاختياري من حيث جوهر الامر

* ك . ن . شتاركة . «لودفيغ فورباخ» ، شتوتغارت ، عام
 ١٨٨٥ . الناشر .

بين كانط وهيوم ، او بين هيوم وبركلي يمكن ان يتم بنسب مختلفة ، اذا جاز القول ، مع التأكيد من باب التفضيل تارة على هذا العنصر من الخليط وطوراً على ذاك . وقد سبق ورأينا ، مثلاً ، ان ماخياً واحداً فقط ، هو غ . كلينبيتر ، يعتبر نفسه وماخ على المكشوف سوليبسين (اي بركليين منسجمين) . اما الهيومية في مفاهيم ماخ وافيناريوس ، فيؤكددها ، على العكس ، كثيرون من تلامذتهما وانصارهما : بتسولدت ، فيللي ، بيرسون ، الناقد التجريبي الروسي ليسيفيتش ، الفرنسي هنري ديلاكروا * وغيرهم . لنضرب مثلاً واحداً عن عالم كبير بخاصة جمع هو ايضاً في الفلسفة بين هيوم وبركلي ، ولكنه ابرز على الاخص العناصر المادية في هذا الخليط . انه عالم الطبيعيات الانجليزي الشهير ت . هكسلي الذي روج تعبير «اللاعرفاني» والذي عناه انجلس ، بلا ريب ، قبل كل شيء واكثر من كل شيء ، عندما تحدث عن اللاعرفانية الانجليزية . وقد نعت انجلس في عام ١٨٩٢ هذا الصنف من اللاعرفانيين «بالماديين الخجولين» (٥٨) . وان الروحاني الانجليزي جيمس ورد الذي حمل في كتابه «الطبيعية واللاعرفانية» على «زعيم اللاعرفانية العلمي» بصورة رئيسية (المجلد ٢ ، ص ٢٢٩) هكسلي يؤكد تقدير انجلس حين يقول : «ان ميل هكسلي الى الاعتراف بالاسبقية للجانب الفيزيائي» («لمجموعة العناصر» ، حسب ماخ) «يتجلى احياناً كثيرة بدرجة من القوة بحيث انه يكاد يكون من المستحيل هنا على العموم التحدث عن الموازنة . ورغم ان هكسلي يرفض بخارق الشدة نعت المادي ، باعتباره خزيًا وعاراً على لاعرفانيته الطاهرة الذيل ، لا اعرف كاتباً آخر يستحق اكثر منه هذا النعت» (المجلد ٢ ، ص ٣٠-٣١) . ويسوق جيمس ورد ، لتأكيد صحة

* «Bibliothèque du congrès international de philosophie», vol. IV. Henri Delacroix. «David Hume et la philosophie critique» (مكتبة مؤتمر الفلسفة العالمي» ، المجلد ٤ . هنري ديلاكروا . ودافيد هيوم والفلسفة الانتقادية» . (الناشر) . في عداد انصار هيوم ، يصنف المؤلف افيناريوس والكمونيين في المانيا ، ش . رينوفيه ومدرسته («الانتقاديين الجدد») في فرنسا .

رأيه ، بيانات لهكسلي من النوع التالي : «ان كل من يلزم بتاريخ العلم يوافق على ان تقدمه كان يعني في كل الازمان ويعني الآن اكثر مما في اي وقت مضى توسع ميدان ما نسميه بالمادة والسببية ، ويعني ، وفقاً لذلك ، زوال ما نسميه بالروح والتلقائية من جميع ميادين الفكر البشري زوالاً تدريجياً» . او : «سواء عبرنا عن ظواهر المادة بتعابير الروح ام عبرنا عن ظواهر الروح بتعابير المادة ، فان هذا ليس مهماً بعد ذاته ، اذ ان هذه الصياغة وتلك هي حقيقية ، بمعنى نسبي معين» («مركبات عناصر ثابتة نسبياً» ، حسب ماخ) . «ولكن التعابير والمصطلحات المادية افضل ، من وجهة نظر تقدم العلم ، في جميع النواحي . لأنها تربط الفكر بظواهر العالم الاخرى . . . في حين ان التعابير والمصطلحات المعاكسة او الروحانية فارغة تماماً (utterly barren) ولا تؤدي الى شيء ، اللهم الى التشوش والغموض . . . ويكاد لا يكون ثمة اي شك في انه بقدر ما يتقدم العلم ، بقدر ما يجري عرض جميع ظواهر الطبيعة بمزيد من الاتساع ومزيد من الانسجام ، بواسطة الصيغ او الرموز المادية» (المجلد الاول ، ص ١٧-١٩) .

هكذا حاكم «المادي الخجول» هكسلي الذي لم يشأ في اي حال من الاحوال ان يعترف بالمادية ، بوصفها «الميتافيزياء» التي تمضي بصورة غير مشروعة الى ابعد من «مجموعات الاحساسات» . وقد كتب هكسلي نفسه يقول : «لو اضطررت الى الاختيار بين المادية المطلقة والمثالية المطلقة ، لاضطرت الى تبني الاخيرة . . .» . «الشيء الوحيد الذي نعرفه بصورة اكدية ، انما هو وجود العالم الروحي» (J. Ward ، المجلد ٢ ، ص ٢١٦ ، المرجع نفسه) .

ان فلسفة هكسلي هي خليط من الهيومية والبركلية مثلها مثل فلسفة ماخ . ولكن الحملات البركلية عند هكسلي هي من باب الصدفة في حين ان لاعرفانيتها هي بمثابة ورقة تين لستر المادية . اما عند ماخ ، فان «صبغة» الخليط مغايرة ؛ واذا الروحاني ورد الذي يحارب هكسلي بضراوة ، يربت بلطف على كتف افيناريوس وماخ .

٣ - الكمونيون باعتبارهم انصار ماخ وافيناريوس

في معرض الكلام عن المذهب النقدي التجريبي ، لم يكن بمقدورنا ان نتجنب الاستشهاد مراراً وتكراراً بفلاسفة ما يسمى المدرسة الكمونية ، التي يعتبر شوبه وليكلر ورمكه وشوبرت-زولدرن ممثليها الرئيسيين . وينبغي ان ننظر الآن في موقف المذهب النقدي التجريبي من الكمونيين وفي جوهر الفلسفة التي يروجها هؤلاء الاخيريون .

في عام ١٩٠٢ كتب ماخ يقول : «... في الوقت الحاضر ارى سواء طائفة كاملة من الفلاسفة ، - من الوضعيين والنقاد والتجريبيين وانصار الفلسفة الكمونية ، - ام عدداً قليلاً جداً من علماء الطبيعة ، قد شرعوا ، دون ان يعرفوا شيئاً بعضهم عن بعض ، يشقون طرقاً جديدة تتلاقى ، رغم جميع الفوارق الفردية ، في نقطة واحدة تقريباً» («تحليل الاحساسات» ، ص ٩) . هنا ، اولاً ، تجب الاشارة الى اعتراف ماخ النادر الصدق بان عدداً قليلاً جداً من علماء الطبيعة هم من انصار فلسفة يزعم انها «جديدة» ، ولكنها بالفعل قديمة جداً ، هي الفلسفة الهيومية البركلية . ثانياً ، انها لخارقة الاهمية نظرة ماخ الى هذه الفلسفة «الجديدة» بوصفها تياراً واسعاً يقف فيه الكمونيون من الند للند مع الوضعيين والنقاد التجريبيين . ويكرر ماخ في مقدمة الترجمة الروسية لمؤلفه «تحليل الاحساسات» (عام ١٩٠٦) : «وهكذا تتكشف حركة مشتركة واحدة» (ص ٤) . . . ويقول ماخ في مكان آخر : «انا قريب جداً من اتباع الفلسفة الكمونية . . . انا لم اجد في هذا الكتاب (كتاب شوبه «دراسة نظرية المعرفة والمنطق») شيئاً لا يمكنني ان اوافق عليه بكل طيبة خاطر ، مع قيامي - في اقصى الاحوال - بتعديلات تافهة» (ص ٤٦) . ويرى ماخ ان شوبرت-زولدرن يمضي هو ايضاً في «طرق قريبة جداً» (ص ٤) ؛ اما ولهم شوبه ، فان ماخ حتى

يكرس له مؤلفه الفلسفي ، الاخير والملخص اذا جاز القول :
«المعرفة والضلال» .

وفي عام ١٨٩٤ كتب مؤسس آخر للمذهب النقدي التجريبي ،
هو افيناريوس ، ان عطف شوبه على المذهب النقدي التجريبي
«يفرحه» و«يشجعه» وان «الفرق» (Differenz) بينه وبين شوبه
«يوجد ، على الأرجح ، بصورة مؤقتة فقط»
(*vielleicht nur einstweilen noch bestehend) . واخيراً ، ان
بتسولدت ، الذي يعتبر ف . ليسيفيتش تعاليمه
الكلمة الاخيرة في المذهب النقدي التجريبي ، **ينادي صراحة بالثلاثي**
شوبه وماخ وافيناريوس على وجه الضبط **زعماء الاتجاه «الجديد»**
(«Einführung in die Philosophie der reinen Erfahrung», Bd. II,
1904, S. 295**», «D. Weltproblem», 1906, S. V, 146***).

وعند ذلك ، يقف بتسولدت قطعاً ضد فيللي («Einf.», II, 321)
الذي يكاد يكون الماخي البارز الوحيد ممن خجل من قرابته مع
شوبه وامثاله وحاول ان ينفصل عنه مبدئياً ، الامر الذي حصل
من جرائه تلميذ افيناريوس على توبيخ من معلمه العزيز . فقد
كتب افيناريوس الكلمات المذكورة اعلاه عن شوبه في ملاحظته على
مقالة فيللي ضد شوبه ، علماً بأنه اضاف ان نقد فيللي «غدا ،
على الأرجح ، اشدّ مما كان يلزم» («Vierteljahrsschr. f. w. Ph.», 18,
Jahrg., 1894, S. 29 وهنا ايضاً ترد مقالة فيللي ضد شوبه) .

بعد اطلعنا على تقييم الكمونيين من قبل النقاد التجريبيين ،
لننتقل الى تقييم النقاد التجريبيين من قبل الكمونيين . وقد سبق لنا

* «Vierteljahrsschrift für wissenschaftliche Philosophie», 1894,
18 Jahrg., Heft I, S. 29 («المجلة الفصلية للفلسفة العلمية» ، عام ١٨٩٤ ،
السنة ١٨ ، الدفتر الاول ، ص ٢٩ . الناشر) .

** «مقدمة لفلسفة التجربة الخالصة» ، المجلد الثاني ، عام ١٩٠٤ ،
ص ٢٩٥ . الناشر .

*** «Das Weltproblem von positivistischem Standpunkte aus»,
1906, S. V, 146 («قضية العالم من وجهة النظر الوضعية» ، سنة ١٩٠٦ ،
ص ١٤٦ و ٧ . الناشر) .

ونوهنا بالرأى الذي اعرب عنه ليكلر في سنة ١٨٧٩ . وفي سنة ١٨٨٢ ، يشير شوبرت-زولدرون صراحة الى «موافقته» «جزئياً مع فيخته الاب» (اي مع الممثل الشهير للمثالية الذاتية ، يوهان غوتليب فيخته الذي كان عنده هو ايضاً ، مثله مثل يوسف ديتزغن ، ابن فلسفي فاشل) ، ثم «مع شوبته» ، وليكلر ، **وافيناريوس** وجزئياً مع رمكه» ، علماً بأنه يستشهد بماخ بمتعة خاصة (*«Erh. d. Arb.») ضد «الميتافيزياء التاريخية الطبيعية» * * - فهكذا يسمي جميع الاساتذة المحاضرين والبروفسورات الرجعيين في المانيا المادية التاريخية الطبيعية . وبعد صدور مؤلف افيناريوس «المفهوم الانساني عن العالم» رحب ف . شوبته في سنة ١٨٩٣ بهذا المؤلف في «رسالة مفتوحة الى ر . افيناريوس» «تأكيداً للواقعية الساذجة» التي يدافع عنها شوبته نفسه ، على حد زعمه . وقد كتب شوبته يقول : «ان فهمي للتفكير يتطابق بصورة رائعة مع «تجربتك (تجربة افيناريوس) الخاصة» * * * . ثم عمد شوبرت-زولدرون في عام ١٨٩٦ الى استخلاص رصيد ذلك «الاتجاه المنهاجي في الفلسفة» الذي «يعتمد» عليه ، فاعاد اصل نسبه الى بركلي وهيوم عبر ف . ا . لانغه («من لانغه يبدأ بالضبط تاريخ بداية اتجاها في المانيا») ، ثم الى لاس وشوبته وشركاهما ، الى **افيناريوس وماخ** ، من الكانطيين الجدد ويل ، من الفرنسيين ش .

«Die Geschichte und die Wurzel des Satzes von der Erhal- *
tung der Arbeit» («مبدأ صيانة العمل ، تاريخه وجذره») . **الناشر** .
Dr. Richard von Schubert-Soldern. «Über Transcendenz des * *
Objects und Subjects», 1882, S. 37; §5
«Grundlagen einer Erkenntnistheorie», 1884, S. 3.
(ولدرون . «في تعالي الموضوع والذات» ، سنة ١٨٨٢ ، ص ٣٧ والفقرة
٥ . قارن كذلك مؤلفه : «اسس نظرية المعرفة» ، سنة ١٨٨٤ ، ص ٣ .
الناشر) .

Vierteljahrsschrift für wissenschaftliche Philosophie», 17. * * *
Jahrg., 1893, S. 384.

رينوفيه ، والخ . * . واخيراً ، نقرأ في «المقدمة» البرنامجية المطبوعة في العدد الاول من لسان حال الكمونييين الفلسفي الخاص ، الى جانب اعلان الحرب على المادية والتعبير عن العطف على شارل رينوفيه : «وحتى في معسكر علماء الطبيعة انفسهم ، ترتفع منذ حين اصوات بعض علماء الطبيعة للدعوة ضد تعاضم الاعتداد بالنفس عند رفاقهم في الاختصاص ، ضد الروح غير الفلسفية التي سادت في العلوم الطبيعية . ومن هؤلاء ، مثلاً ، الفيزيائي ماخ . . . في كل مكان تبدأ تتحرك قوى نضرة وتعمل على تدمير الايمان الاعمى في عصمة العلوم الطبيعية عن الخطأ ، وتبدأ تفتش من جديد عن السبل الاخرى المؤدية الى اعماق المجهول ، تفتش عن مدخل افضل الى مقام الحقيقة» * * .

كلمتان عن ش . رينوفيه . انه رئيس مدرسة نافذة وواسعة الانتشار في فرنسا ، هي مدرسة من يسمون بالانتقادين الجدد . ان فلسفته النظرية هي عبارة عن جمع بين ظاهرية هيوم وقبلية كانط . وهي ترفض قطعاً الشيء في ذاته . وهي تعلن الصلة بين الظاهرات ، النظام ، القانون قبلياً ، وتكتب كلمة «القانون» باحرف كبيرة وتجعل منه قاعدة للدين . والكهنة الكاثوليك فرحون جداً بهذه الفلسفة . والمآخي فيللي ينعت رينوفيه بغضب انه «الرسول بولص الثاني» ، و«ظلامي المدرسة العليا» ، و«داعية ماكر لحرية الارادة» (***) (S. 129, «Gegen die Schulweisheit»). وهاكم من اي طراز هم رفاق الكمونييين بالفكر الذين يحيون بحرارة فلسفة ماخ . فعندما صدر مؤلفه «الميكانيك» بالترجمة الفرنسية ، كتب

Dr. Richard von Schubert-Soldern. «Das menschliche Clück *
und die soziale Frage», 1896, SS. V, VI
زولدرن . «السعادة البشرية والقضية الاجتماعية» . سنة ١٨٩٦ ،
ص ٧ ، VI . الناشر) .

«Zeitschrift für immanente Philosophie» (٥٩), Bd. I, Berlin. * *
1896, SS. 6, 9.

* * * «ضد الحكمة المدرسية» ، ص ١٢٩ . الناشر .

لسان حال «الانتقادين الجدد» «L'Année Philosophique» (٦٠) التي يصدرها معاون رينوفيه وتلميذه ، بيلون ، يقول : «لا جدوى من القول الى اية درجة يتطابق العلم الوضعي للسيد ماخ ، في نقده للجوهر ، للشيء ، للشيء في ذاته ، مع المثالية الانتقادية الجديدة» (المجلد ١٥ ، سنة ١٩٠٤ ، ص ١٧٩) .

اما فيما يخص الماخيين الروس ، فانهم جميعهم يخجلون من قرابتهم مع الكمونييين ، - ولم يكن من الممكن بالطبع توقع امر آخر من اناس لم يسلكوا قصداً وعمداً درب ستروفه ومنشيكوف وشركاهما . الا ان بازاروف وحده يسمي «بعض ممثلي المدرسة الكمونية» «بالواقعيين» * . ويعلن بوغدانوف بايجاز (و**فعلاً** بصورة غير صحيحة) ان «المدرسة الكمونية هي مجرد شكل متوسط بين الكانطية ومذهب النقد التجريبي» («الاحادية التجريبية» ، III ، XXII) . ويكتب ف . تشيرنوف : «ان الكمونييين لا يقتربون على العموم من الوضعية الا بجانب واحد من نظريتهم ، بينما يتخطون بجوانبها الاخرى اطار الوضعية بعيداً» («دراسات فلسفية وسوسولوجية» ، ٣٧) . ويقول فالنتينوف ان «المدرسة الكمونية اضيفت على هذه الافكار (الماخية) شكلاً غير لائق وتورطت في مأزق السوليبسيسم» I.c. ، ص ١٤٩) . هنا ، كما ترون ، يطلبون ما يشاؤون : الدستور ، وسمك السفريوغا مع الفجل الحار ، والواقعية والسوليبسيسم. ان اصحابنا الماخيين يخافون ان يقولوا الحقيقة عن الكمونييين بصراحة ووضوح .

ذلك ان الكمونييين هم رجعيون في منتهى الرجعية ، ودعاة سافرون للايمانية ، واناس متكاملون في ظلاميتهم . وما من احد منهم لم يدفع على المكشوف باكثر مؤلفاته اتساماً بالسمة النظرية في علم العرفان الى الدفاع عن الدين ، الى تبرير هذه الظاهرة

* «الواقعيون في الفلسفة المعاصرة ، وهم بعض ممثلي المدرسة الديمونية التي نجمت من الكانطية ، مدرسة ماخ - افيناريوس وكثير من التيارات القريبة منهما ، يجدون انه لا وجود البتة لاي اساس لرفض منطلق الواقعية الساذجة» . «دراسات» ، ص ٢٦ .

القروسطية او تلك . ففي عام ١٨٧٩ يدافع ليكلر عن فلسفته باعتبارها تلمي «جميع متطلبات العقل الديني النزعة» (*S. 73, «Der Realismus etc.»). وفي عام ١٨٨٠ يكرس رمكه «نظريته عن المعرفة» للقس البروتستانتي بيدرمان ويختتم كتابه بالوعظ ، لا بالاله فوق الاحساس ، بل بالاله بوصفه «مفهوماً واقعياً» (أوليس لهذا السبب ، يا ترى ، صَنَّفَ بازاروف «بعض» الكمونيين في عداد «الواقعيين» ؟) ، علماً بان «مسألة تبيان موضوعية هذا المفهوم الواقعي يعود حلها الى الحياة العملية» ، وبان «الاعتقادية المسيحية» لبيدرمان تعلن نموذج «اللاهوت العلمي» (J. Rehmke. «Die Welt als Wahrnehmung und Begriff», Berlin, 1880, S. 312) . ويؤكد شوبته في «المجلة لأجل الفلسفة الكمونية» انه اذا كان الكمونيون ينكرون المتعالي ، فان هذا المفهوم لا يشمل البتة الاله والحياة المقبلة («Zeitschrift für immanente Philosophie», II. Band, S. 52**) ويدافع في مؤلفه «الاخلاق» عن «صلة القانون الاخلاقي . . . بالعقيدة الميتافيزائية» ويشجب «الكلام السخيف» عن فصل الكنيسة عن الدولة (Dr. Wilhelm Schuppe. «Grundzüge der Ethik und Rechtsphilosophie», Bresl, 1881, S. 181, 325***) ويخلص شوبرت-زولدرن في مؤلفه «أسس نظرية المعرفة» الى القول بالوجود المسبق لأنانا قبل وجود الجسم وبالوجود اللاحق لأنانا بعد الجسم اي بخلود الروح (l.c. ، ص ٨٢) ، والنخ . . . وفي مؤلفه «المسألة الاجتماعية» يدافع ، علاوة على «الاصلاحات الاجتماعية» ، عن الحق الانتخابي المراتبي ضد بيبيل ، ويقول ان «الاشتراكيين-الديموقراطيين يتجاهلون واقع انه لولا الهبة الالهية - التعاسية ، - لما كان للسعادة وجود» (ص

* «Der Realismus der modernen Naturwissenschaft im Lichte der von Berkeley und Kant angebahnten Erkenntniskritik», S. 73.

الناشر .

** «مجلة الفلسفة الكمونية» ، المجلد ٢ ، ص ٥٢ . الناشر .

*** الدكتور ولهم شوبته . «اسس الاخلاق وفلسفة الحق» ،

بريسلاو ، عام ١٨٨١ ، ص ١٨١ ، ٣٢٥ . الناشر .

(٣٣٠) ، ومع ذلك يتباكي زاعماً ان المادية «تسود» (ص ٢٤٢) ، «ان من يؤمن في زمننا بالحياة في الآخرة ، وان باحتمالها فقط ، انما يعتبرونه احمق» (ib.) .

وهاكم اضراب منشيكوف الالمان ، الذين لا يقلون في شيء عن رينوفيه من حيث شدة الظلامية ، يعيشون في علاقة متينة من التسري مع النقاد التجريبيين . ان القرابة النظرية بين الجماعتين لا مرء فيها . والكانطية عند الكمونييين ليست اكثر مما عند بتسولدت او بيرسون . وقد سبق ورأينا انهم يعتبرون انفسهم تلامذة لهيوم وبركلي ، وهذا التقييم للكمونييين معترف به عموماً في المطبوعات الفلسفية . ولكي نبين بجلاء من اي مقدمات عرفانية ينطلق انصار ماخ وافيناريوس هؤلاء ، نسوق بعض الموضوعات الاساسية النظرية من مؤلفات الكمونييين .

في عام ١٨٧٩ ، لم يكن ليكلر قد اخترع بعد اسم «الكمونييين» الذي يعني بالضبط «التجريبي» «المعطى في التجربة» والذي هو عبارة عن لافتة كاذبة لستر العفن كما هي كاذبة لافتات الاحزاب البرجوازية الاوروبية . فان ليكلر يسمي نفسه علناً وصراحة في مؤلفه الاول «بالمثالي الانتقادي» («Der Realismus etc.» ، ص ١١ ، ٢١ ، ٢٠٦ وكثير غيرها) . وفي هذا المؤلف ينتقد كانط ، كما سبق ورأينا ، لتنازله في صالح المادية ، مشيراً بوضوح الى طريقه هو من كانط الى فيخته وبركلي . وضد المادية على العموم ، وضد ميل اغلبية علماء الطبيعيات الى المادية على الخصوص ، يشن ليكلر نضالاً لا رحمة فيه ولا هوادة ، مثله مثل شوبته وشوبرت-زولدرون ورمكه على حد سواء .

يقول ليكلر : «لنعد الى الورا ، الى وجهة نظر المثالية النقدية ، ولن ننسب الى الطبيعة اجمالاً والى عمليات الطبيعة وجوداً متعالياً» (اي وجوداً خارج الوعي البشري) «وحيث سيكون بالنسبة للذات مجمل الاجسام وجسمه الخاص ، - اذ انه يراه ويلمسه مع جميع تغيراته ، - ظاهرة معطاة مباشرة لتعايشات مترابطة على الصعيد المكاني ولتتابعات على صعيد الزمان ، وينحصر تفسير

الطبيعة كله في ملاحظة قوانين هذه التعايشات والتتابعات» (ص ٢١) .

الى الوراء نحو كانط ، قال الكانطيون الجدد الرجعيون . الى الوراء نحو فيخته ونحو بركلي - هذا ما يقوله من حيث جوهر الامر الكمونيون الرجعيون . اما بالنسبة لليكلر ، فان كل موجود انما هو «مركبات الاحساسات» (ص ٣٨) ، علماً بأنه يرمز الى بعض فئات الخواص (Eigenschaften) المؤثرة في حواسنا ، مثلاً ، بحرف M ، والى الفئات الاخرى المؤثرة في المواضيع الاخرى للطبيعة بحرف N (ص ١٥٠ وغيرها) . فضلاً عن ذلك ، يتحدث ليكلر عن الطبيعة بوصفها «ظاهرة الوعي» (Bewußtseinsphänomen) لا لانسان واحد ، بل «للنوع البشري» (ص ٥٥-٥٦) . واذا اخذنا بعين الاعتبار ان ليكلر اصدر هذا الكتاب في نفس مدينة براغ حيث كان ماخ بروفيسوراً في الفيزياء ، وان ليكلر يستشهد باعجاب وابتهاج بمؤلف ماخ «Erhaltung der Arbeit» الصادر في عام ١٨٧٢ ولا يستشهد الا به وحده ، فان السؤال التالي يتبادر عفو الخاطر الى الذهن : الا يجب الاعتراف بان نصير الايمانية والمثالي السافر ليكلر هو المؤسس الفعلي لفلسفة ماخ «الاصيلة» ؟

اما فيما يخص شوبته الذي توصل ، على حد قول ليكلر * ، الى «استنتاجات مماثلة» ، فانه كما سبق ورأينا ، يدعي فعلاً بالدفاع عن «الواقعية الساذجة» ويبكي بكاء مرأً في «رسالة مفتوحة الى ر . افيناريوس» بصدده «التشويه المستقر لنظريتي (نظرية ولهم شوبته) عن المعرفة بتحويلها الى مثالية ذاتية» . اما فيما تتلخص الحيلة الفظة ، التي سماها الكموني شوبته بالدفاع عن الواقعية ، فان هذا يتبين بما يكفي من الوضوح من جملة له نطق بها ضد فوننت الذي يصنف الكمونيين ، بلا تردد ، في عداد انصار

* «Beiträge zu einer monistischen Erkenntnistheorie», Bresl.,

1882., S. 10 («دراسات في النظرية الاحادية بصدده المعرفة» . بريسلاو . سنة ١٨٨٢ ، ص ١٠ . الناشر) .

فيخته ، في عداد المثاليين الذاتيين ، l.c., «Philosophische Studien» (S. 386, 397, 407*)

فقد اعترض شوبته على فوننت قائلاً : «ان الموضوعة القائلة «الوجود هو الوعي» تعني عندي ان الوعي مستحيل بدون العالم الخارجي ، وان الاخير يخص بالتالي الاول ، اي انها تعني الصلة المطلقة (Zusammengehörigkeit) بين هذا وذاك ، التي اشترت اليها واوضحتها مراراً عديدة ، تلك الصلة التي يؤلفان فيها الكل الاولي الواحد للوجود» * * .

لا بد ان يتسم المرء بقدر كبير من السذاجة لكي لا يرى المثالية الذاتية الاصيلة في مثل هذه «الواقعية» ! فكروا فقط : العالم الخارجي «يخص الوعي» وهو على صلة مطلقة معه ! وبالفعل ، افتروا على البروفسور المسكين بتصنيفه بصورة «مستقرة» في عداد المثاليين الذاتيين . ان هذه الفلسفة تتطابق كلياً مع «التنسيق المبدئي» الذي قال به افيناريوس : فليس من الممكن ان تفصل بينهما اية تحفظات واحتجاجات من جانب تشيرنوف وفالنتينوف ، لان الفلسفتين سترسلان معاً الى متحف اختلاقات البروفسورات الالمان الرجعية . ومن باب الطرائف التي تدل ايضاً وايضاً على نقص التفكير عند السيد فالنتينوف ، نشير الى انه ينعت شوبته بالسوليبيسي (وغني عن البيان ان شوبته اقسام اليمين واستشهد بالله بالهمة نفسها بانه ليس سوليبيسياً ، وكتب مقالات خاصة في هذا الموضوع ، مثل ماخ وبتسولدت وشركاهما) ، في حين انه يعجب العجب بمقالة بازاروف في «دراسات» ! واود لو اترجم الى اللغة

* «دراسات فلسفية» ، في المكان المذكور . ص ٣٨٦ ، ٣٩٧ ، ٤٠٧ . الناشر .

Wilhelm Schuppe. «Die immanente Philosophie und Wilhelm Wundt» * * في «Zeitschrift für immanente Philosophie», Band II, S. 195 (ولهلم شوبه . «الفلسفة الكمونية وولهلم فوننت» في «مجلة الفلسفة الكمونية» ، المجلد ٢ ، ص ١٩٥ . الناشر .)

الالمانية قول بازاروف المأثور : «التصور الحسي انما هو الواقع الموجود خارجاً عننا» ولو ارسله الى كموني فطن نوعاً ؛ فانه سينهال على بازاروف بالقبلات الحارة مثلما انهال على ماخ وافيناريوس بالقبلات الحارة شوبته وليكلر وشوبرت-زولدرن ومن لف لفهم . لأن قول بازاروف هذا انما هو **الفا واوميغا *** مذاهب المدرسة الكمونية .

واليكم ، اخيراً ، شوبرت-زولدرن ايضاً . «مادية العلوم الطبيعية» ، «ميتافيزياء» الاعتراف بواقعية العالم الخارجي الموضوعية هي العدو الرئيسي لهذا الفيلسوف («اسس نظرية المعرفة» ، عام ١٨٨٤ ، ص ٣١ وكل الفصل الثاني : «ميتافيزياء العلوم الطبيعية» . «العلوم الطبيعية تتجرد عن جميع علاقات الوعي» (ص ٥٢) - هنا بالذات يكمن الشر الرئيسي (ففي هذا تتلخص المادية !) . لأنه ليس بمقدور الانسان ان يخرج من «الاحساسات ، وبالتالي من حالات الوعي» (ص ٣٣ ، ٣٤) . وفي عام ١٨٩٦ ، يعترف شوبرت-زولدرن قائلاً : يقيناً ان وجهة نظري هي **سوليبسيسم عرفاني نظري** («المسألة الاجتماعية» ، ص X) ، ولكنه ليس «ميتافيزيائياً» ، ولا «عملياً» . «ان ما هو معطى لنا مباشرة ، انما هو الاحساسات ، مركبات الاحساسات المتغيرة دوماً» («Über Transc. والخ .» ، ص ٧٣ * *) .

يقول شوبرت-زولدرن : «لقد اعتبر ماركس ان عملية الانتاج المادية هي سبب العمليات والبواعث الداخلية مثلما تعتبر العلوم الطبيعية بالنحو نفسه (وبالقدر نفسه من الزيف) ان العالم الخارجي العام» (للبنشيرية) «هو سبب العوالم الخارجية الفردية» . («المسألة الاجتماعية» ، ص XVII) . اما فيما يتعلق بالصلة بين مادية ماركس التاريخية وبين المادية التاريخية الطبيعية والمادية الفلسفية

* الفا - الحرف الاول في الابدادية اليونانية . اوميغا - الحرف الاخير فيها ؛ الفا واوميغا - الف وياء او بداية ونهاية . **المعرب** .

* * «Über Transcendenz des Objects und Subjects» ، ص ٧٢ .

على العموم ، فانه لا يخطر حتى في بال هذا النصير من انصار ماخ ان يشك في ذلك .

«ان كثيرين ، وحتى الاغلبية على الارجح ، سيتبنون الرأي القائل انه تستحيل اية ميتافيزياء من وجهة النظر السوليبسية العرفانية اي ان الميتافيزياء هي دائماً متعالية . وبعد تفكير اعمق ، لا يسعني ان اوافق على هذا الرأي . اليكم حجبي . . . ان الاساس المباشر لكل الامور المعطاة انما هو الصلة الروحية (السوليبسية) التي **الأنأ** الفردي (عالم التصورات الفردي) مع جسمه هو نقطتها المركزية . والعالم الباقي يستحيل تصوره بدون هذا **الأنأ** ، وهذا **الأنأ** يستحيل تصوره بدون العالم الباقي : مع القضاء على **الأنأ** الفردي يتناثر العالم هو ايضاً هباء ، - وهذا امر غير ممكن ، - ومع القضاء على العالم الباقي لا يبقى كذلك مكان لأجل **الأنأ** الفردي ، لانه لا يمكن فصله عن العالم الا من الناحية المنطقية ، وليس في الزمان وفي المكان . ولهذا يجب على **أنأ** الفردي ان يتواجد حتماً ايضاً بعد موتي ما دام العالم كله لا يزول معه . . .» (المرجع نفسه ، ص XXIII) .

ان «التنسيق المبدئي» و«مركبات الاحساسات» والابتدال الماخى بمختلف اشكاله ، كل هذا يقدم خدمة ودية لمن يلزم !
 «. . . ما هو العالم الآخر (das Jenseits) من وجهة النظر السوليبسية ؟ ان هذا هو مجرد تجربة ممكنة في المستقبل لاجلي ان» (ibid.) . . . «يقيناً ان الروحانية ، مثلاً ، لم تبرهن Jenseits الخاص بها ، ولكنه لا يمكن في اي حال من الاحوال مقابلة الروحانية بمادية العلوم الطبيعية ، لأن هذه المادية ، كما رأينا ، ليست سوى جانب واحد من العملية العالمية في داخل» («التنسيق المبدئي» (= «الصلة الروحية الشاملة» (ص XXIII).

وكل هذا يقال في نفس المقدمة الفلسفية لكتاب «المسألة الاجتماعية» (سنة ١٨٩٦) الذي يبرز فيه شوبرت - زولدرن دائماً لي صحبة ماخ وافيناريوس . ان الماخية هي عند حفنة الماخين في

روسيا فقط وسيلة لثروة المثقفين بوجه الحصر ، في حين ان دورها كخادمة للايمانية يعلن في وطنها على المكشوف !

٤ - الى اين ينمو المذهب النقدي التجريبي ؟

لنلق الآن نظرة الى تطور الماخية بعد ماخ وافيناريوس . لقد رأينا ان فلسفتها هي خليط ، مجموعة من موضوعات عرفانية متناقضة وغير مترابطة . وينبغي لنا الآن ان نرى كيف والى اين ، اي في اي اتجاه ، تنمو هذه الفلسفة ، فان هذا سيساعدنا في حل بعض المسائل «المختلف عليها» ، عن طريق الاستشهاد بالوقائع التاريخية التي لا جدال حولها . وبالفعل نرى ان اختيارية وتشوش المقدمات الفلسفية المنطقية للاتجاه الذي ندرسه يجعلان من المحتم تماماً قيام تفسيرات مختلفة له ومجادلات عقيمة حول الجزئيات والصغائر . ولكن المذهب النقدي التجريبي ، مثله مثل كل تيار فكري ، انما هو شيء حي ، متنام ، متطور ، وواقع نموه في هذا الاتجاه او ذاك سيساعد خيراً من المحاكمات المسهبة على حل المسألة الاساسية ، مسألة جوهر هذه الفلسفة الحقيقي . فلا يحكمون على الانسان بموجب ما يقوله او يظنه عن نفسه ، بل بموجب افعاله . وعلى الفلاسفة يجب الحكم ، لا بموجب الالفاظ التي يعلقونها بانفسهم على انفسهم («الوضعية» ، فلسفة «التجربة الخالصة» ، «الاحادية» ، او «الاحادية التجريبية» ، «فلسفة العلوم الطبيعية» ، وما الى ذلك) ، بل بموجب ما يلي : كيف يحلون فعلاً المسائل النظرية الاساسية ، مع من يمشون يداً بيد ، ماذا يعلمون وماذا علموا تلامذتهم واتباعهم .

وهذه المسألة الاخيرة هي التي تهمننا الآن . ان كل ما هو جوهرى قد قاله ماخ وافيناريوس منذ اكثر من ٢٠ سنة . وخلال هذه الحقبة من الزمن ، لم يكن من الممكن الاّ يتبين كيف فهم هذين الزعيمين اولئك الذين ارادوا ان يفهموها ومن يعتبرانهم

(وعلى الاقل ماخ الذي بقي حياً بعد وفاة زميله) مواصلي عملهما . ولكي نكون دقيقين ، لناخذ اولئك الذين يسمون انفسهم بانفسهم بتلامذة ماخ وافيناريوس (او اتباعهما) واولئك الذين يصنفهم ماخ في هذا المعسكر ، فنحصل بالتالي على فكرة عن المذهب النقدي التجريبي ، بوصفه تياراً فلسفياً ، وليس بوصفه مجموعة من الطوائف الادبية .

يوصي ماخ في مقدمة الترجمة الروسية لمؤلفه «تحليل الاحساسات» بهانس كورنيليوس (ص ٤) باعتباره «باحثاً شاباً» يسلك «ان لم يكن السبل نفسها ، فسبلاً قريبة» . وفي نص «تحليل الاحساسات» ، «يشير» ماخ مرة اخرى ، فيما يشير اليه ، «برضى وسرور الى مؤلفات» ه . كورنيليوس وغيره ممن «كشفوا كنه افكار افيناريوس وطوروها» (ص ٤٨) . لناخذ كراس ه . كورنيليوس «مقدمة الى الفلسفة» (الطبعة الالمانية . سنة ١٩٠٣) ؛ فاننا نرى ان مؤلفه يشير هو ايضاً الى سعيه الى الحدو حدو ماخ وافيناريوس (ص VIII ، ٣٢) . وهكذا نجد امامنا تلميذاً يعترف به معلمه . وهذا التلميذ يبدأ هو ايضاً من الاحساسات-العناصر (ص ١٧ ، ٢٤) ، ويعلن قطعاً انه يكتفي بالتجربة (ص VI) ، وينعت نظراته «بالتجريبية المنسجمة او العرفانية» (ص ٣٣٥) ، ويشجب ، بكل حزم ، سواء «احادية جانب» المثالية ام «اعتقادية» المثاليين والماديين على حد سواء (ص ١٢٩) ، وينبذ بخارق الهمة «سوء الفهم المحتمل» (ص ١٢٣) وهو كأنما ينجم من فلسفته اعتبار العالم موجوداً في رأس الانسان ، ويجامل الواقعية الساذجة بتفنن لا يقل عن تفنن افيناريوس او شوبه او بازاروف (ص ١٢٥) : «ان للمدرك البصري ولكل مدرك آخر مكاناً لوجوده حيث نجده فقط حيث نجده ، اي حيث يحصره الوعي الساذج الذي لم تمسه الفلسفة الكاذبة» ، ثم يخلص هذا التلميذ الذي يعترف به معلمه الى القول **بالخلود وبالله** . ان هذا الشرطي الريفى في الكرسي الاستاذي ، اي تلميذ «الوضعيين الحديثين» ، يطلق صواعقه قائلاً : المادية تحول الانسان الى آلة

اوتوماتيكية . «لا داعي الى القول انها ، مع تقويضها الايمان في حرية قراراتنا ، تقوض كل تقييم القيمة الاخلاقية لتصرفاتنا وتقوض مسؤوليتنا . وهي كذلك لا تترك مكاناً لأجل فكرة استمرار حياتنا بعد الموت» (ص ١١٦) . خاتمة الكتاب : ان التربية (اغلب الظن ، تربية الشباب الذي يستغفله فطحل العلم هذا) ضرورية لا لأجل النشاط فقط ، ولكن «قبل كل شيء» «كتربيبة لأجل الاحترام (Ehrfurcht) لا حيال القيم الموقته للتقليد الصدفي ، بل حيال القيم الثابتة للواجب والجمال ، حيال المبدأ الالهي (dem Göttlichen) في داخلنا وخارجنا» (ص ٣٥٧) .

قارنوا بهذا زعم ا . بوغدانوف انه لا مكان اطلاقاً (حرف التأكيد لبوغدانوف) و«لا يمكن ان يكون مكان» في فلسفة ماخ ، نظراً لانكاره لكل «شيء في ذاته» ، لأجل افكار الاله وحرية الارادة وخلود الروح («تحليل الاحساسات» ، ص XII) . بينما يعلن ماخ في هذا الكراس نفسه (ص ٢٩٣) : «لا وجود لفلسفة ماخ» ، ويوصي لا بالكمونيين وحسب ، بل ايضاً بكورنيليوس الذي ابان كنه افكار افيناريوس ! اولاً ، ينجم من هنا ان بوغدانوف لا يعرف البتة «فلسفة ماخ» ، بوصفها تياراً لا يندس تحت كنف الايمانية وحسب ، بل يمضي كذلك الى حد الايمانية . ثانياً ، ان بوغدانوف لا يعرف البتة تاريخ الفلسفة لأن ربط انكار الافكار المذكورة بانكار كل شيء في ذاته انما يعني السخر من هذا التاريخ . فهل يتجرأ بوغدانوف على انكار واقع ان جميع انصار هيوم المنسجمين ، اذ ينكرون كل شيء في ذاته ، انما يتركون مكاناً لأجل هذه الافكار ؟ اولم يسمع بوغدانوف بالمثاليين الذاتيين الذين ينكرون كل شيء في ذاته ويخصصون بالتالي مكاناً لأجل هذه الافكار ؟ «لا يمكن ان يكون مكان» لأجل هذه الافكار في فلسفة واحدة بوجه الحصر هي الفلسفة التي تعلم انه لا يوجد غير الوجود الحسي ، ان العالم هو مادة متحركة ، اي ان العالم الخارجي الذي يعرفه الجميع وكل فرد ، اي العالم الفيزيائي ، هو الواقع الموضوعي الوحيد ، اي في فلسفة المادية . وبسبب هذا ، بسبب هذا على وجه الضبط ، يحارب ضد

المادية ، سواء الكمونيون الذين اوصى بهم ماخ ام كورنيليوس ، تلميذ ماخ وكل الفلسفة الاستاذية المعاصرة .
وقد شرع اصحابنا الماخيون يتبرأون من كورنيليوس عندما دلوهم بالاصبح الى البذاءة . الا ان هذه التبرؤات لا تكلف كثيراً .
ان فريدريخ آدلر لم «يتلق تحذيراً» ، على ما يبدو ، ولذا يوصي بكورنيليوس هذا في المجلة الاشتراكية («Der Kampf» ، سنة ١٩٠٨ ، ٥ ، ص ٢٣٥ * : «مؤلف سهل على القراءة ، وجدير بتوصية رفيعة») . ومن خلال الماخية ، يجعلون من الرجعيين الفلاسفة المسافرين ومن مروجي الايمانية معلمين للعمال !
وبدون تحذير ، لاحظ بتسولدت زيف كورنيليوس ، ولكن اسلوبه للنضال ضد هذا الزيف هو درة حقاً . اسمعوا : «ان القول بان العالم هو تصور» (كما يؤكد المثاليون الذين نحاربهم ، لا تمزحوا !) «ليس له معنى الا اذا شاؤوا ان يقولوا بذلك انه تصور لدى الناطق او على الاقل لدى جميع الناطقين (المعربين عن آرائهم) ، اي انه رهن في وجوده بتفكير هذا الشخص او هؤلاء الاشخاص على وجه الحصر : ان العالم لا يوجد الا ما دام يتصوره هذا الشخص ، وان العالم لا يوجد حين لا يتصوره . اما نحن ، فاننا ، على العكس ، نجعل العالم رهناً ، لا بتفكير شخص بمفرده او بضعة افراد ، او بصورة افضل واوضح : لا بفعل التفكير — لا بالتفكير الفعلي (الواقعي) اياً كان ، بل بالتفكير على العموم ، علماً باننا نجعل ذلك بصورة منطقية خالصة . وان المثالي يخلط هذا وذاك ، واذا النتيجة لصف سوليبسيسم لاعرفاني ، كما نراه عند كورنيليوس» («Einführung» ، المجلد ٢ ، ص ٣١٧ * *) .

لقد دحض ستوليبين وجود المكاتب السوداء ! (٦١) وهشم بتسولدت المثاليين تهشيماً ، ولكن المدهش ان هذا القضاء على

* «النضال» . عام ١٩٠٨ ، الدفتر ٥ ، ص ٢٣٥ . الناشر .

* * «Einführung in die Philosophie der reinen Erfahrung», II, 317

المثالية يشبه النصائح الموجهة الى المثاليين بان يستروا مثالياتهم بمزيد من الدهاء . ان العالم رهن بتفكير الناس ، - هذه هي المثالية السيئة . العالم رهن بالتفكير على العموم ، - هذه هي الوضعية الحديثة ، الواقعية النقدية ، وبكلمة ، - الشعوذة البرجوازية الخالصة ! واذا كان كورنيليوس نصف سوليبيسي لاعرفاني ، فان بتسولدت نصف لاعرفاني سوليبيسي . انتم تقرصون برغوثاً ، ايها السادة !

لنواصل . يقول ماخ في الطبعة الثانية لمؤلفه «المعرفة والضلال» : ان البروفسور الدكتور هانس كلينبيتر يعطي «عرضاً منتظماً» (آراء ماخ) «يمكنني ان اوافق عليه في كل ما هو جوهري» («Die Erkenntnistheorie der Naturforschung der Gegenwart»), Lpz., 1905 : «نظرية المعرفة في العلوم الطبيعية المعاصرة» . لناخذ هانس رقم ٢ . ان هذا البروفسور هو ناشر مشاير للماخية : كومة من المقالات عن نظرات ماخ في مجلات فلسفية خالصة باللغة الالمانية وباللغة الانجليزية ، ترجمات مؤلفات اوصى بها ماخ ومع مقدمة لماخ ، وبكلمة ، يد «المعلم» اليمنى . اليكم نظراته : «... كل تجربتي (الخارجية والداخلية) ، وكل تفكيري وجميع تطلعاتي معطاة لي بوصفها عملية نفسية ، بوصفها جزءاً من ادراكي» (ص ١٨ من الكتاب المذكور) . «ان ما نسميه بالفيزيائي هو بناء من عناصر نفسية» (ص ١٤٤) . «ان الاقتناع الذاتي ، وليس الحقيقة الموضوعية (Gewißheit) هو الهدف الوحيد الذي يمكن ان يبلغه العلم ، كل علم» (ص ٩ ، حرف التأكيد لكلينبيتر الذي يضيف في هذا المكان الملاحظة التالية : «هكذا جاء تقريباً عند كانط في «نقد العقل العملي»» . «ان افتراض ادراكات الغير هو افتراض لا يمكن ابدأ ان تؤكد التجربة صحته» (ص ٤٢) . «انا لا اعرف ... ما اذا كان يوجد خارجاً عني **أنا** اخرى» (ص ٤٣) . الفقرة ٥ : «عن النشاط» («العفوية»=«التلقائية») «في الادراك» . ان تعاقب التصورات يجري عند الجهاز الاوتوماتيكي الحيواني بصورة آلية بحتة . والشئ نفسه يجري عندنا عندما نحلم . «عن هذا تختلف من حيث جوهر الامر

خاصة وعينا في الحالة العادية . اي بالضبط : عنده خاصة لا وجود لها عند تلك» (الاجهزة الاوتوماتيكية) «ومن الصعب ، على الاقل ، تفسيرها تفسيراً ميكانيكياً او اوتوماتيكياً ، هي : ما يسمى النشاط الذاتي لأنانا . بوسع كل امرئ ان يقابل حالات وعيه بنفسه ، ان يتحكم فيها ، ان يقدمها او ان يزيحها الى المؤخرة بمزيد من العتة ، ان يحللها ، ويقارن بين اجزائها ، والنخ . . . كل هذا واقع من التجربة (المباشرة) . ان انا يختلف من حيث الجوهر عن مجمل جميع حالات الادراك ولا يمكن مساواته بهذا المجمل . فان السكر يتألف من الكربون والهيدروجين والاكسيجين ؛ واذا ما نسبنا الى السكر روحاً سكرية ، فلا بدّ ، بموجب قياس التمثيل ، من ان تملك خاصة تحريك دقائق الهيدروجين والاكسيجين والكربون كما يطيب لها» (ص ٢٩-٣٠) . الفقرة ٤ في الفصل التالي : «ان فعل المعرفة هو فعل ارادة (Willenshandlung)» . «يجب ان يعتبر من الوقائع الاكيدة انقسام جميع انفعالاتي النفسية الى مجموعتين اساسيتين كبيرتين : الاعمال الاضطرارية والاختيارية . في عداد الاولى ترد جميع الانطباعات عن العالم الخارجي» (ص ٤٧) . «اما انه يمكن ان نعطي نظريات كثيرة عن ميدان واحد من الوقائع . . . فان هذا واقع معروف للفيزيائي بنفس القدر الذي لا يتطابق به مع مقدمات اية نظرية مطلقة عن المعرفة . وهذا الواقع يعزى الى الطابع الارادي لتفكيرنا ، وفيه يتجلى عدم تعلق ارادتنا بالظروف الخارجية» (ص ٥٠) .

احكموا الآن على جرأة تصريحات بوغدانوف الزاعمة انه «لا مكان اطلاقاً لأجل حرية الارادة» في فلسفة ماخ ، في حين ان ماخ نفسه يوصي بشخص مثل كلينبيتر ! وقد سبق ورأينا ان هذا الاخير لا يخفي مثاليته ومثالية ماخ . وفي ١٨٩٨-١٨٩٩ كتب كلينبيتر : «ان هرتس يعرض نظرة ذاتانية مماثلة» (كما عند ماخ) «الى طبيعة مفاهيمنا . . .» . «... واذا كان ماخ وهرتس» (اما باي قدر من الصواب يشبك كلينبيتر هذا الفيزيائي الشهير في الامر ، فسنتحدث عن ذلك بنحو خاص) «قد استحقا من وجهة نظر المثالية الفضل

بكونهما يؤكدان على الاصل الذاتي لجميع مفاهيمنا وعلى الصلة بينها ، وليس لبعض المفاهيم ، فقد استحقا من وجهة نظر التجريبية فضلاً ليس اقل شأنًا باقرارهما بان التجربة وحدها هي التي تحل مسألة صحة المفاهيم ، بوصفها مرجعاً مستقلاً عن التفكير» (Archiv für systematische Philosophie» ، المجلد ٥ ، ١٨٩٨ - ١٨٩٩ ، ص ١٦٩-١٧٠ *) . وفي سنة ١٩٠٠ كتب كلينبيتر : ان كانط وبركلي ، رغم جميع الفوارق بينهما وبين ماخ ، «يقفان ، على كل حال ، اقرب اليه مما تقف منه التجريبية الميتافيزيائية» (اي المادية ! ان السيد البروفسور يتحاشى تسمية الشيطان باسمه !) «السائدة في العلوم الطبيعية والتي تشكل الموضوع الرئيسي لحملات ماخ» (ib. ، المجلد ٦ ، ص ٨٧) . وفي عام ١٩٠٣ كتب كلينبيتر : «ان نقطة انطلاق بركلي وماخ لا تدحض» ... «ماخ - منجز قضية كانط» (Kantstudien» ، المجلد ٨ ، ١٩٠٣ ، ص ٣١٤ ، ٢٧٤ * *) .

كذلك يقول ماخ في مقدمة الترجمة الروسية لمؤلفه «تحليل الاحساسات» عن ت . تسيهن بانه «يسلك ان لم يكن السبيل نفسها ، فسبلاً قريبة جداً» . لناخذ كتاب البروفسور ت . تسيهن «النظرية النفسية الفيزيولوجية عن المعرفة» (Theodor Ziehen: Psychophysiological Erkenntnistheories, Jena, 1898) فاننا نرى ان المؤلف قد استشهد في المقدمة بماخ وافيناريوس وشوبه والخ . . . وهنا نجد بالتالي من جديد تلميذاً يعترف به معلمه . ان نظرية تسيهن «الحديثة» تتلخص في كون «الجمع» وحده قادراً على الظن بان «الاشياء الفعلية تستثير احساساتنا» (ص ٣) وانه لا يمكن ان تقوم عند مدخل نظرية المعرفة اية كتابة غير كلمات بركلي : «ان المواضيع الخارجية لا توجد بحد ذاتها ، بل توجد في عقولنا»

* «ارشيف الفلسفة النظامية» ، المجلد ٥ ، ١٨٩٨ - ١٨٩٩ ، ص ١٦٩-١٧٠ . الناشر .

** «دراسات كانطية» ، المجلد ٨ ، ١٩٠٣ ، ص ٣١٤ ، ٢٧٤ .

(ص ٥) . «الاحساسات والتصورات معطاة لنا . وهذا وذاك نفسي . اللانفسي كلمة لا معنى لها» (ص ١٠٠) . ان قوانين الطبيعة ليست علاقات بين اجسام مادية بل علاقات «بين احساسات مخفضة» (ص ١٠٤) . في هذا المفهوم «الجديد» - «الاحساسات المخفضة» - تتلخص كل اصالة البركلية التسيهنية ! .

وقد تبرأ بتسولدت من تسيهن بوصفه مثالياً ، في عام ١٩٠٤ في المجلد الثاني من مؤلفه «مقدمة» (ص ٢٩٨-٣٠١) . وفي عام ١٩٠٦ ادرج كورنيليوس وكلينبيرتر وتسيهن وفرفورن في قائمة **المثاليين او الاحاديين النفسيين** . S. 137. «Das Weltproblem etc.»

(الملاحظة) . وعند جميع هؤلاء السادة البروفسورات ، لو ترون ، «سوء فهم» في تفسير «نظرات ماخ وافيناريوس» (المرجع نفسه) . فيا للمسكينين ماخ وافيناريوس ! فليس الاعداء وحدهم افتروا عليهما بصدد المثالية و«حتى» (كما يقول بوغدانوف) بصدد السوليبيسيسم ، كلا ؛ فان الاصدقاء ، والتلامذة ، والاتباع ، والاختصاصيين البروفسورات فهموا ايضاً معلمهم فهماً سيئاً ، بالمعنى المثالي . واذا كان المذهب النقدي التجريبي يتحول الى مثالية ، فان هذا لا يبرهن البتة على كون مقدماته الاساسية البركلية المشوشة زيفاً مطبقاً . خلصنا يا رب ! فان هذا مجرد «سوء فهم» صغير - بمعنى الكلمة النوزدريفي-التسولدت (٦٢) . ولعل اكثر ما يدعو الى الضحك هنا هو ان حارس النقاوة والبراءة نفسه بتسولدت ، اولاً ، «أكمل» ماخ وافيناريوس «قبلية منطقية» ، وثانياً ، قرنهما مع مروج الايمانية ولهلم شوبه .

ولو كان بتسولدت يعرف انصار ماخ الانجليز ، لكان اضطر الى تطويل قائمة الماخيين الساقطين (بسبب من «سوء الفهم» في المثالية وتطويلها بصورة ملحوظة . وقد سبق لنا واشرنا الى كارل بيرسون الذي اطراه ماخ ، بوصفه مثالياً كاملاً . اليكم آراء اخرى «المفترين» اثنين يقولان عن بيرسون الشيء نفسه : «ان مذهب البروفسور ك . بيرسون هو مجرد صدى لتعاليم بركلي العظيمة

حقاً» (Howard V. Knox في «Mind», vol. VI, 1897, p. 205 *).
 «ما من شك في ان السيد بيرسون مثالي بادر معاني الكلمة»
 (Georges Rodier في «Revue philosophique» (٦٣) 1888, II, vol.
 **) 26, p. 200 . اما المثالي الانجليزي وليام كليفورد الذي يعتبره
 ماخ «قريباً جداً» من فلسفته («تحليل الاحساسات» ، ص ٨) ،
 فانه يتعين بالاحرى اعتباره معلماً لماخ لا تلميذاً له ، لأن مؤلفات
 كليفورد الفلسفية صدرت في السبعينيات من القرن الماضي . ان
 «سوء الفهم» هنا ينبع مباشرة من ماخ الذي «لم يلاحظ» في عام
 ١٩٠١ المثالية في تعاليم كليفورد القائلة ان العالم هو «مادة روحية»
 (mind-stuff) - «موضوع اجتماعي» ، «تجربة عالية التنظيم» ،
 والنخ . . . * * * ولوصف شعوزة الماخيين الالمان ، تجب الاشارة الى
 ان كلينبيتر يرفع في عام ١٩٠٥ هذا المثالي الى صف مؤسسي
 «علم العرفان في العلوم الطبيعية المعاصرة» !

ويشير ماخ في الصفحة ٢٨٤ من مؤلفه «تحليل الاحساسات»
 الى الفيلسوف الاميركي ب . كاروس «الذي اقترب» (من البوذية
 ومن الماخية) . فان كاروس ، الذي يقول عن نفسه انه «معجب»
 بماخ و«صديق شخصي» له ، يحرر في شيكاغو مجلة «هونيست»
 (٦٤) المكرسة للفلسفة ، والمجلة الصغيرة «The Open Court»
 («المنبر المفتوح») (٦٥) ، المكرسة للدعوة الى الدين . تقول هيئة
 تحرير هذه المجلة الصغيرة الواسعة الشعبية : «ان العلم هو وحي

* هوفارد ف . نوكس في مجلة «الفكر» ، المجلد ٦ ، عام ١٨٩٧ ،
 ص ٢٠٥ . الناشر .

** جورج روديه في «المجلة الفلسفية» ، ١٨٨٨ ، الطبعة الثانية ،
 المجلد ٢٦ ، ص ٢٠٠ . الناشر .

*** William Kingdon Clifford. «Lectures and Essays», 3rd ed.,
 Lond., 1901, vol. II, pp. 55, 65, 69 (وليام كينغدون كليفورد : «مطالعات
 وبحوث» ، الطبعة الثالثة ، لندن ، ١٩٠١ ، المجلد ٢ ، ص ٥٥ ، ٦٥ ،
 ٦٩ . الناشر) . ص ٥٨ : «انا مع بركلي ضد سبنسر» ؛ ص ٥٢
 «الموضوع هو جملة من التغيرات في ادراكي ، وليس شيئاً ما في خارجه» .

رباني» . «نحن نتبنى الرأي القائل ان بوسع العلم ان يحدث اصلاحاً في الكنيسة يحفظ من الدين كل ما فيه من صحيح وسليم وجيد» . وماخ ، المحرر الدائم في «مونيست» ، ينشر فيها مؤلفاته الجديدة فصلاً فصلاً . ويصلح كاروس «قليلاً جداً» ماخ بروح كانط معلناً ان ماخ «مثالي او ، كما قد اقول ، ذاتي» ؛ ولكنه ، هو كاروس ، على اقتناع ، رغم الخلافات الجزئية ، «باننا انا وماخ نفكر تفكيراً واحداً» * . ويعلن كاروس : ان احاديثنا «ليست مادية ولا روحانية ولا لاعرفانية ؛ وهي تعني ببساطة وبوجه الحصر الانسجامية . . . وهي تأخذ التجربة كاساس لها ، وتستعمل الاشكال المصنفة لعلاقات التجربة كطريقة» (يبدو ان هذا استنساخ من مؤلف ا . بوغدانوف «الاحادية التجريبية» !) . شعار كاروس : «لا الاعرفانية ، بل العلم الوضعي ، لا الصوفية بل الفكر الواضح ؛ لا الفوقطبيعية ولا المادية ، بل النظرة الاحادية الى العالم ، لا العقيدة بل الدين ، لا الايمان كمذهب ، بل الايمان كمزاج» (not creed, but faith) . وتطبيقاً لهذا الشعار ، يعظ كاروس «بلاهوت جديد» ، «بلاهوت علمي» او تيونوميا * تنكر حرف التوراة ولكنها تلح على الفكرة التالية وهي ان «الحقيقة كلها ربانية وان الرب يكشف نفسه في العلوم الطبيعية كما في التاريخ» * * * . وتجب الاشارة الى ان كلينبيتر يوصي ، في الكتاب المذكور اعلاه عن علم المرفان في العلوم الطبيعية المعاصرة ، بكاروس الى جانب اوستفالد واليناريوس والكمونيين (ص ١٥١-١٥٢) . وعندما تقدم هيكل

«The Monist», vol. XVI, 1906, July; P. Carus. «Pr. Mach's Philosophy», pp. 320, 315, 113 («مونيست») ، المجلد ١٦ ، سنة ١٩٠٦ ، تموز- يوليو ؛ ب . كاروس . «فلسفة البروفسور ماخ» ، ص ٣٢٠ ، ٣٤٥ ، ٣٣٣ (الناشر) . وهذا رد على مقالة كلينبيتر في المجلة ذاتها .

••• Theonomie . المهرّب .

••• المرجع نفسه ، المجلد ١٣ ، ص ٢٤ وبعدها . مقالة كاروس :

واللاهوت بوصفه علماً .

بموضوعاته لأجل اتحاد الاحاديين ، عارضه كاروس قطعاً : اولاً ، عبثاً ينبذ هيكل القبليّة التي «تتلاءم تماماً مع الفلسفة العلميّة» ؛ ثانياً ، يعارض كاروس مذهب الحتمية الهيكلية ، الذي «ينفي امكانية حرية الارادة» ؛ ثالثاً ، «يقترف» هيكل «خطأ قوامه انه يؤكد على وجهة نظر الطبيعي الوحيدة الجانب ضد روح المحافظة التقليدية الملازمة للاديان . ولهذا يبرز كعدو للاديان القائمة عوضاً عن ان يبذل الجهد بسرور على تطويرها اسمى التطوير في تفسيرات جديدة للعقائد اصح مما مضى» (ib. ، المجلد ١٦ ، ١٩٠٦ ، ص ١٢٢) . ويعترف كاروس نفسه : «ان كثيرين من ذوي التفكير الحر يعتبرونني رجعيّاً ، ويلومونني على اني لا انضم الى جوقة حملاتهم على الدين ، كل دين ، بوصفه وهمّاً» (ص ٣٥٥) .

واضح تماماً اننا نواجه زعيم شلة من الكويتيين الاندال الاميركيين الذين يعملون على تخدير الشعب بافيون الدين . وقد وقع ماخ وكلينبيتر في عضوية هذه الشلة كذلك ، اغلب الظن ، من جراء «سوء فهم» صغير .

٥ - «احادية» ا . بوغدانوف «التجريبية»

يكتب بوغدانوف عن نفسه قائلاً : «انا لا اعرف شخصياً في الادب حتى الآن سوى احادي تجريبي واحد هو المدعو ا . بوغدانوف ؛ ولكنني بالمقابل اعرفه جيداً جداً ، وبوسعي ان اؤكد بان نظراته تتجاوب كلياً مع الصيغة المقدسة لاولية الطبيعة بالنسبة للروح . واعني بذلك انه يعتبر كل ما هو موجود بمثابة سلسلة متواصلة من التطور ، تضيع حلقاتها الدنيا في عماء العناصر ، بينما حلقاتها العليا التي نعرفها تمثل تجربة الناس (حرف التأكيد لبوغدانوف) النفسية ، والحلقات الاعلى منها تمثل التجربة الفيزيائية ، علماً بان هذه التجربة والمعرفة التي تنشأ عنها تتطابقان مع ما يسمى عادة بالروح» («الاحادية التجريبية» المجلد ٣ ، ص XII) .

ان الصيغة التي يسخر منها بوغدانوف هنا ناعثاً اياها «بالمقدسة» هي موضوعة انجلس المعروفة لدينا ، ولكن بوغدانوف يتحاشى باسلوب ديبلوماسي عن ذكر اسمه ! فكأنه يقول : نحن لا نفترق عن انجلس في الرأي ، ولا شيء من هذا القبيل

ولكن انظروا بمزيد من الانتباه الى هذا الموجز الذي وضعه بوغدانوف نفسه «لاحاديته التجريبية» السيئة الشهرة و«بدائله» .

ان العالم الفيزيائي يُسمى عنده **تجربة الناس** ، ويُعلن ان التجربة الفيزيائية «اعلى» في سلسلة التطور من التجربة النفسية . الا ان هذه سخافة صارخة ! وهي بالضبط سخافة من نوع السخافات الملازمة لكل فلسفة مثالية اياً كانت . وهذا هزل حقاً اذا ما اظهر بوغدانوف مثل هذا «النظام» بمظهر المادية ايضاً : وعندي انا ايضاً ، لو ترون ، الطبيعة هي الاولى والروح هي الثانوية . واذا طبقنا تعريف انجلس على هذا النحو ، فان هيغل ايضاً مادي لأن عنده ايضاً تأتي التجربة النفسية (تحت اسم الفكرة المطلقة) في البدء ، ثم يليها «فوقها» العالم الفيزيائي ، الطبيعة ، واخيراً ، معرفة الانسان الذي يعرف الفكرة المطلقة من خلال الطبيعة . ولن ينكر اي مثالي اولية الطبيعة بهذا المعنى ، لأن هذا ليس بالفعل اولية ، لأن الطبيعة لا تؤخذ بالفعل على انها معطى مباشرة ، على انها نقطة انطلاق علم العرفان . فهناك ايضاً بالفعل ممر طويل يؤدي **هـر تجريدات** «النفسي» الى الطبيعة . ولا شأن لاسماء هذه التجريدات : فسواء اُسِّميت الفكرة المطلقة ام **الأنا الشاملة** ام الارادة العالمية ، وما الى ذلك . فبذلك تتمايز انواع المثالية ، ومن هذه الانواع توجد كثرة لا عد لها . فان كنه المثالية يكمن في اعتبار النفسي نقطة الانطلاق الاولى ؛ ومنه تُشتق الطبيعة ، ثم **بعد ذلك** يُشتق من الطبيعة الوعي البشري العادي . ولهذا يندو هذا «النفسي» الانطلاقي الاول دائماً **تجريداً ميتاً** يستر اللاهوت المميع . مثلاً . كل يعرف ما هي **الفكرة البشرية** ، ولكن الفكرة بدون الانسان وقبل الانسان ، الفكرة في المجرّد ، الفكرة المطلقة انما هي **اختلاق لاهوتي** من المثالي هيغل . وكل يعرف ما هو الاحساس

الانساني ، ولكن الاحساس بدون الانسان وقبل الانسان انما هو هراء ، تجريد ميت ، شعوذة مثالية . وبمثل هذه الشعوذة المثالية بالذات يقوم بوغدانوف عندما يبني السُلّم التالي :

١ - عماء «العناصر» (ونحن نعرف انه لا يكمن وراء كلمة العنصر هذه اي مفهوم بشري غير الاحساس) .

٢ - تجربة الناس النفسية .

٣ - تجربة الناس الفيزيائية .

٤ - «المعرفة الناشئة منها» .

لا احساسات (بشرية) بدون الانسان . اذن ، الدرجة الاولى هي تجريد مثالي ميت . ان ما نواجهه هنا ، من حيث جوهر الامر ، ليس احساسات بشرية عادية ويعرفها الجميع ، بل احساسات مختلفة ، احساسات ليست لأحد ، احساسات على العموم ، احساسات ربانية ، مثلما غدت الفكرة الانسانية العادية عند هيغل ربانية ما ان فصلوها عن الانسان وعن الدماغ الانساني . لتسقط الدرجة الاولى .

ولتسقط الدرجة الثانية ايضاً ، لأن احداً من البشر لا يعرف ، والعلوم الطبيعية لا تعرف النفسي قبل الفيزيائي (والحال ان الدرجة الثانية تأتي عند بوغدانوف قبل الثالثة) . فان العالم الفيزيائي كان موجوداً قبل ان يكون من الممكن ان يظهر النفسي ، بوصفه النتاج الاعلى للاشكال العليا للمادة العضوية . ان الدرجة الثانية عند بوغدانوف هي كذلك تجريد ميت ، هي فكرة بدون دماغ ، هي عقل الانسان مفصلاً عن الانسان .

ولكن اذا طرحنا جانباً الدرجتين الاوليين ، ففي وسعنا في هذه الحال ، وفي هذه الحال فقط ، ان نحصل على لوحة عن العالم متطابقاً فعلاً مع العلوم الطبيعية ومع المادية . ونعني بذلك : ١ - العالم الفيزيائي موجود بصورة مستقلة عن وعي الانسان وكان موجوداً قبل الانسان بزمان طويل ، قبل اية «تجربة للناس» ؛ ٢ - النفسي الواعي ، والنخ . ، هي النتاج الاعلى للمادة (اي للفيزيائي) ،

وظيفة ذلك القسم ذي التعقد الخاص من المادة الذي يسمى بدماغ الانسان .

كتب بوغدانوف يقول : «ان ميدان البديل يتطابق مع ميدان الظاهرات الفيزيائية ؛ فليس المطلوب تبديل الظاهرات النفسية باي شيء لأنها مركبات مباشرة» (ص XXXIX) .

وهذا بالذات هو المثالية لأن النفسي اي الوعي ، التصور ، الاحساس ، وما الى ذلك ، يؤخذ على انه **المباشر** ، بينما يستخلص الفيزيائي منه ، ويوضع تحته . ان العالم هو **الانا** الذي صنعه **الانا** ، - هكذا قال فيخته . العالم هو الفكرة المطلقة ، - هكذا قال هيغل . العالم هو الارادة ، - هكذا قال شوبنهاور . العالم هو مفهوم وتصور ، - هكذا يقول الكموني رمكه . الوجود هو الوعي ، - هكذا يقول الكموني شوبه . الفيزيائي هو بديل النفسي ، - هكذا يقول بوغدانوف . لا بد ان يكون المرء اعمى لكي لا يرى كنهاً منالياً واحداً في مختلف الحلل الكلامية .

يكتب بوغدانوف في الطبعة الاولى من «الاحادية التجريبية» ، ص ١٢٨-١٢٩ ، يقول : «لنطرح على انفسنا السؤال التالي : ما هو «الكائن الحي» ، مثلاً ، «الانسان» ؟ ويجيب : «ان الانسان» هو قبل كل شيء مركب معين من «انفعالات مباشرة» . لاحظوا : «قبل كل شيء» ! - «وبعد ذلك» ، في سياق تطور التجربة اللاحق ، يظهر «الانسان» لنفسه وللآخرين جسماً فيزيائياً في عداد الاجسام الفيزيائية الاخرى» .

ولكن هذا مجرد «مركب» هراء لا يصلح الا لاستخلاص خلود الروح او فكرة الاله وما الى ذلك . الانسان هو قبل كل شيء مركب انفعالات مباشرة ، ثم جسم فيزيائي في **التطور اللاحق** ! وهذا يعني انه توجد «انفعالات مباشرة» **بدون** جسم فيزيائي ، قبل الجسم الفيزيائي . من المؤسف ان هذه الفلسفة البديعة لم تصل بعد الى مدارسنا الدينية ؛ فهناك يستطيعون ان يقدرها جميع مزاياها .

«... لقد اعترفنا بان الطبيعة الفيزيائية ذاتها مشتقة (حرف التاكيد لبوغدانوف) من مركبات ذات طابع مباشر (بينها التنسيقات

النفسية) ، وانها انعكاس لمثل هذه المركبات في مركبات اخرى ، مماثلة لها ، ولكنها من الطراز الاشد تعقداً (في التجربة المنظمة اجتماعياً للكائنات الحية)» (ص ١٤٦) .

ان الفلسفة التي تعلم ان الطبيعة الفيزيائية نفسها هي مشتقة ، انما هي فلسفة الاكليروس في أخلص مظاهرها . وان طابعها هذا لا يتغير البتة من جراء تبرؤ بوغدانوف نفسه بشدة من الدين ، كل دين . فان دوهرينغ هو ايضاً كان ملحداً ؛ بل انه اقترح حتى منع الدين في بنيانه «الاشتراكي الكلي» . ومع ذلك ، كان انجلس على كامل الحق عندما بين ان «نظام» دوهرينغ لا تترابط عراه بعضها مع بعض بدون الدين (٦٦) . والشيء نفسه فيما يتعلق ببوغدانوف ، ولكن مع الفارق الجوهرى التالي وهو ان المقطع المذكور ليس عدم انسجام من باب الصدفة ، بل كنه «احاديته التجريبية» وكل «بديله» . فاذا كانت الطبيعة مشتقة ، فمن البديهي انه لا يمكن اشتقاقها الا من شيء ما اكبر واغنى واوسع واقدر من الطبيعة ، من شيء ما موجود ، لأنه لأجل «انتاج» الطبيعة ، لا بد من الوجود بصورة مستقلة عن الطبيعة . وهذا يعني انه يوجد شيء خارج الطبيعة ، ويبتجج الطبيعة فضلاً عن ذلك . وهذا ما يسمى بالروسية بالله . ولقد حاول الفلاسفة المثاليون على الدوام ان يغيروا هذا الاسم الاخير وان يجعلوه اكثر تجريداً ، واشهد غموضاً ، وفي الوقت نفسه (لأجل احتمال الصدق) اقرب الى «النفسي» بوصفه «مركباً مباشراً» ، بوصفه معطى مباشرة لا يتطلب ادلة . ان الفكرة المطلقة ، الروح الشاملة ، الارادة العالمية ، «البديل» النفسى «العام» للفيزيائي ، - كل هذا انما هو الفكرة نفسها ولكن في صيغ مختلفة . فان اي انسان يعرف - والعلوم الطبيعية تبحث - الفكرة ، الروح ، الارادة ، النفسى ، كوظيفة الدماغ الانساني العامل بصورة عادية ؛ اما فصل هذه الوظيفة عن المادة المنظمة بطريقة معينة ، وتحويل هذه الوظيفة الى تجريد شامل ، عام ، و«تبديل» كل الطبيعة الفيزيائية بهذا التجريد ، فان هذا هذيان المثالية الفلسفية ، هذا تهكم بالعلوم الطبيعية

ان المادية تقول ان «التجربة المنظمة اجتماعياً للكائنات الحية» هي مشتق من الطبيعة الفيزيائية ، نتيجة لتطورها الطويل ، ولتطور من حالة للطبيعة الفيزيائية لم تكن توجد فيها ولم يكن من الممكن ان توجد فيها لا الاجتماعية ، ولا التنظيمية ، ولا التجربة ، ولا الكائنات الحية . اما المثالية ، فانها تقول ان الطبيعة الفيزيائية مشتقة من هذه التجربة للكائنات الحية ؛ ويقول هذا ، تجعل المثالية الطبيعة مساوية لاله (هذا اذا كانت لا تخضعها له) . لان الاله هو ، بلا ريب ، مشتق من التجربة المنظمة اجتماعياً للكائنات الحية . ومهما قلبتم الفلسفة البوغدانوفية ، فانها لا تحتوي اي شيء عدا التشوش الرجعي .

يبدو لبوغدانوف ان الحديث عن التنظيم الاجتماعي للتجربة هو «اشتراكية عرفانية» (الكتاب الثالث ، ص XXXIV) . هذه ترهات مجانين . فان الجزويت ، - اذا حاكمنا على هذا النحو بصدده الاشتراكية ، - هم انصار متحمسون «للاشترائية العرفانية» ، لأن لفظة الانطلاق في علم العرفان عندهم انما هي اله ، بوصفه «تجربة منظمة اجتماعياً» . ولا ريب في ان الكاثوليكية هي تجربة منظمة اجتماعياً ؛ ولكنها لا تعكس الحقيقة الموضوعية (التي ينكرها بوغدانوف والتي يعكسها العلم) ، بل تعكس استغلال جهل الشعب من قبل طبقات اجتماعية معينة .

وما اتفه الجزويت هنا ! فاننا نجد «اشترائية» بوغدانوف «العرفانية» بكليتها عند الكمونيين الذين يحبهم ماخ . ويرى ليكلر الطبيعة عبارة عن وعي «النوع البشري» (*S. 55, «Der Realismus etc.») وليس وعي الفرد . وهذه الاشتراكية العرفانية الفيختية سيقدمها لكم الفلاسفة البرجوازيون قدر ما يطيب لكم . فان شوبته يؤكد هو ايضاً على das generische, das gattungsmäßige Moment des Bewußtseins (قارن ص ٣٧٩-٣٨٠ في «Vierteljahrsschrift für

«Der Realismus der modernen Naturwissenschaft im Lichte der von Berkeley und Kant angebahnten Erkenntniskritik», S. ٦٦

*«wissenschaftliche Philosophie» ، المجلد ١٧) اي العنصر المشترك ، النوعي في المعرفة . ان الظن ان المثالية الفلسفية تزول من جراء الاستعاضة عن وعي الفرد بوعي البشرية ، او عن تجربة فرد واحد بالتجربة المنظمة اجتماعياً ، انما يعني الظن ان الرأسمالية تزول من جراء الاستعاضة عن رأسمالي واحد بشركة مساهمة . وقد كرر صاحبانا الماخيان الروسيان يوشكيفيتش وفالنتينوف على اثر المادي رحمتوف ان بوغدانوف مثالي (وشتما فضلاً عن ذلك رحمتوف على المكشوف بشتائم العريضة والشقاوة) . ولكنهما لم يستطيعا ان يمينا الفكر لمعرفة منبع هذه المثالية . ينجم عندهما ان بوغدانوف ظاهرة فردية ، صدفة ، حادثة خاصة . هذا غير صحيح . قد يخيل لبوغدانوف شخصياً انه قد اخترع نظاماً «اصيلاً» ؛ ولكن حسبنا ان تقارنه مع تلميذي ماخ المذكورين اعلاه حتى نرى زيف هذا الرأي . فان الفرق بين بوغدانوف وكورنيليوس اقل كثيراً من الفرق بين كورنيليوس وكاروس . والفرق بين بوغدانوف وكاروس اقل (من حيث النظام الفلسفي وليس بالطبع من حيث كون الاستنتاجات الرجعية واعية) من الفرق بين كاروس وتسيهن ، والنخ . وما بوغدانوف غير مظهر من مظاهر تلك «التجربة المنظمة اجتماعياً» التي تشهد على صيرورة الماخية الى المثالية . وما كان من الممكن ان يظهر بوغدانوف (والمقصود هنا ، بالطبع ، وعلى وجه الحصر ، بوغدانوف بوصفه فيلسوفاً) في هذه الدنيا لو لم يتضمن مذهب معلمه ماخ «عناصر» . . . من البركلية . ولا يسعني ان اتصور «انتقاماً» من بوغدانوف اشد «رعباً» مما لو ترجم كتابه «الاحادية التجريبية» الى اللغة الالمانية ، مثلاً ، واحيل الى ليكلر وشوبرت-زولدرن ، وكورنيليوس ، وكلينبيتر ، وكاروس وبيلون (معاون رينوفيه وتلميذه الفرنسي) من اجل ابداء الرأي . ولو جرى ذلك ، لكان رفاق ماخ بالفكر الاكيدون هؤلاء ، واتباعه السافرون جزئياً قالوا بقبلاهم الموجهة الى «التبديل» اكثر مما بمحاكماتهم .

* «المجلة الفصلية للفلسفة العلمية» . الناشر .

بيد ان من المشكوك ان يكون من الصحيح اعتبار فلسفة بوغدانوف نظاماً متكاملًا وجامداً . ففي غضون تسع سنوات ، من ١٨٩٩ الى ١٩٠٨ ، اجتاز بوغدانوف اربعة اطوار في تيهانه الفلسفي . كان في البدء مادياً «طبيعياً تاريخياً» (اي لاواعياً نصفياً ووفياً بصورة عفوية لروح العلوم الطبيعية) . فان مؤلف «العناصر الاساسية في النظرية التاريخية الى الطبيعة» يحمل آثاراً بينة من هذا الطور . الدرجة الثانية - النظرية الدارجة في اواخر العقد العاشر من القرن الماضي ، «نظرية الطاقة» التي ابتدعها اوستفالد ، اي اللاعرفانية المشوشة التي تنزلق هنا وهناك الى المثالية . ومن اوستفالد (على غلاف كتاب اوستفالد «محاضرات في فلسفة الطبيعة» ، وردت عبارة «يهدى الى ا . ماخ») انتقل بوغدانوف الى ماخ اي انه تبنى المقدمات الاساسية للمثالية الذاتية ، غير المنسجمة وغير المتتابة ، مثلها مثل كل فلسفة ماخ . الطور الرابع : محاولات اقضاء بعض تناقضات الماخية ، وانشاء ما يشبه المثالية الموضوعية . «ان نظرية التبدل العام» تبين ان طريق بوغدانوف ترسم قوساً من ١٨٠ درجة تقريباً ، ابتداء من نقطة انطلاقه . وهذا الطور من الفلسفة البوغدانوفية ، أيقع ابعدهم اقرب الى المادية الديالكتيكية مما كانت تقع الاطوار السابقة ؟ اذا كان يقع في مكان واحد ، فهو آنذاك ابعدهم ، بالطبع . اما اذا كان يواصل التحرك الى امام في نفس الخط المتقوس الذي تحرك فيه خلال تسع سنوات ، فهو اقرب : اذ تلزمه الآن خطوة جديدة واحدة فقط لكي يستدير من جديد صوب المادية . اي بالضبط لكي يطرح جانباً بصورة شاملة تبديله الشامل . لأن هذا التبدل الشامل يجمع معاً ، في جديدة صينية واحدة ، جميع خطايا المثالية النصفية ، جميع جوانب ضعف المثالية الذاتية المنسجمة مثلما (si licet parva componere magnis!) - هذا اذا كان يجوز تشبيهه الصغير بالعظيم) - مثلما جمعت معاً «الفكرة المطلقة» لهيغل جميع تناقضات المثالية الكانطية وجميع جوانب ضعف الفيختية . وبقيت لفورباخ خطوة جديدة واحدة فقط لكي يستدير من جديد صوب

المادية : اي بالضبط لكي يطرح جانباً بصورة شاملة ، لكي يقصي بصورة مطلقة الفكرة المطلقة ، «تبديل» الطبيعة الفيزيائية الهيجلي هذا «بالنفسى» . ولقد قص فورباخ الجديدة الصينية للمثالية الفلسفية ، اي انه اتخذ الطبيعة اساساً بدون اي «تبديل» . من يعيش ير ما اذا كانت الجديدة الصينية للمثالية الماخية ستظل تنمو زمنياً طويلاً .

٦ - «نظرية الرموز» (او الهيروغليفات) ونقد هلمهولتر

اضافة الى ما قيل اعلاه عن المثاليين بوصفهم رفاقاً بالفكر وورثة للمذهب النقدي التجريبي ، سيكون من المناسب الاشارة الى طابع النقد الماخى لبعض من الموضوعات الفلسفية التي تناولتها مطبوعاتنا الفلسفية . مثلاً . ان اصحابنا الماخين الذين يرغبون في ان يكونوا ماركسيين قد انقضوا بفرحة خاصة على «هيروغليفات» بليخانوف (٦٧) اي على النظرية التي تقول ان احساسات الانسان وتصوراتهِ ليست نسخاً عن الاشياء والعمليات الفعلية في الطبيعة ، وليست صوراً لها ، بل علامات اصطلاحية ، رموز ، هيروغليفات ، وما مائل . ويسخر بازاروف من هذه المادية الهيروغليفية ؛ وتجب الاشارة الى ما يلي : لو انه رفض المادية الهيروغليفية في صالح **المادية غير الهيروغليفية** ، **لكان على حق** . ولكن بازاروف يستعمل هنا من جديد اسلوباً من اساليب الشعوذة ، ممرراً ، خلسة وتهريباً ، تنكره للمادية ، تحت راية نقد «الهيروغليفية» . فان انجلس لا يتحدث لا عن الرموز ، ولا عن الهيروغليفات ، بل عن نسخ الاشياء ، صورها ، رسومها ، انعكاساتها في المرآة . وعوضاً عن تبيان خطأ التراجع البليخانوفي عن الصيغة التي اعطاها انجلس عن المادية ، يحجب بازاروف عن القارئ حقيقة انجلس بخطأ بليخانوف .

ولكي نوضح خطأ بليخانوف وتشويش بازاروف على السواء ، لناخذ ممثلاً كبيراً «لنظرية الرموز» (ان المسألة لا تتغير بالاستعاضة عن كلمة الرموز بكلمة الهيروغليف) ، هو هلمهولتز ، ولتر كيف انتقد الماديون وكذلك المثاليون سوية مع الماخين ، هلمهولتز .

ان هلمهولتز شخصية كبيرة جداً في العلوم الطبيعية ، ولكنه كان في الفلسفة غير منسجم مثله مثل الاغلبية الساحقة من علماء الطبيعة . فقد كان يميل الى الكانطية ، ولكنه لم يتمسك بوجهة النظر هذه بصورة منسجمة في علم العرفان . اليكم ، مثلاً ، محاكمات من مؤلفه «علم البصريات الفيزيولوجية» بصدد اتفاق المفاهيم مع المواضيع : «... لقد اعتبرت الاحساسات **وهوذا** للظواهر الخارجية ، وقد رفضت كل تشبيه لها بالاشياء التي تمثلها» (ص ٥٧٩ من الترجمة الفرنسية ، ص ٤٤٢ من الاصل الالمانى) . هذه لاعرفانية ؛ ولكننا نقرأ فيما بعد في الصفحة ذاتها : «ان مفاهيمنا وتصوراتنا هي **ردود فعل** تستثيرها في نظامنا العصبي وفي ادراكنا اشياء نراها او نتصورها» . هذه مادية . الا ان هلمهولتز يتصور بصورة غير واضحة العلاقة بين الحقيقة المطلقة والحقيقة النسبية ، كما يتبين من محاكماته اللاحقة . مثلاً . يقول هلمهولتز بعد ذلك بقليل : «واني اعتقد بالتالي انه لا معنى البتة للتحدث عن حقيقة تصوراتنا الا بمعنى الحقيقة العملية . ان التصورات التي نكونها عن الاشياء لا يمكن ان تكون سوى رموز ، سوى علامات طبيعية لأجل المواضيع ، علامات نتعلم استعمالها لأجل ضبط حركاتنا وفعالنا . وعندما نتعلم تفسير هذه الرموز تفسيراً صحيحاً ، - فانه سيصبح في وسعنا ، بواسطتها ، ان نوجه افعالنا بحيث نتوصل الى النتيجة المنشودة» . . . هذا غير صحيح : فان هلمهولتز ينزلق هنا الى الذاتية ، الى انكار الواقع الموضوعي والحقيقة الموضوعية . ويتمادى الى حد النطق بخطأ صارخ حين يختم المقطع بالكلمات التالية : «ان الفكرة والموضوع الذي تمثله هما شيان يعودان ، اغلب الظن ، الى عالمين مختلفين تماماً . . .» . ولا يفصل

على هذا النحو بين الفكرة والواقع ، بين الوعي والطبيعة غير الكانطيين . ولكننا نقرأ بعد قليل : «اما فيما يخص ، في المقام الاول ، صفات الاشياء الخارجية ، فحسبنا القليل من التفكير لكي نرى ان جميع الصفات التي نستطيع ان ننسبها اليها تعني بوجه الحصر تأثير اشياء خارجية اما في حواسنا ، واما في اشياء اخرى من اشياء الطبيعة» (ص ٥٨١ من الترجمة الفرنسية ؛ ص ٤٤٥ من الاصل الالمانى ؛ واني اترجم نقلاً عن الترجمة الفرنسية) . هنا ينتقل هلمهولتز من جديد الى وجهة نظر مادية . لقد كان هلمهولتز كانطياً غير ثابت ، تارة يعترف بقوانين الفكر القبليّة ، وطوراً يميل الى «واقعية» الزمان والمكان «المتعالية» (اي الى النظرة المادية اليهما) ، وحيناً يستخلص احساسات الانسان من الاشياء الخارجية المؤثرة في اعضاء حواسنا ، وحيناً آخر يعلن ان الاحساسات هي مجرد رموز اي علامات اعتباطية ما مفضولة عن عالم الاشياء المعنوية «المختلف تماماً» (قارن : Victor Heyfelder. «Über den Begriff der Erfahrung bei Helmholtz», Brk., 1897*).

اليكم كيف يعبر هلمهولتز عن نظراته في خطاب القاء عام ١٨٧٨ عن «الوقائع في الادراك» (وقد نعت ليكلر هذا الخطاب بانه «حدث كبير في المعسكر الواقعي») : «ان احساساتنا ليست غير ردود فعل تستثيرها في اعضائنا اسباب خارجية ؛ اما كيف يتكشف رد الفعل هذا ، فان ذلك ، بالطبع ، يتوقف ، لدرجة كبيرة جداً ، على طابع الجهاز الذي يجري التأثير فيه . وبما ان نوعية احساسنا تنبئنا بخواص التأثير الخارجي الذي استتبع هذا الاحساس ، - فمن الممكن اعتبار الاحساس علامة (Zeichen) له ، ولكن لا صورة عنه . لأن المطلوب من الصورة تشابهاً معيناً مع الشيء المصور . . . اما العلامة ، فلا يطلب منها اي تشابه مع ما هي علامته» (**S. 226, 1884, «Vorträge und Reden», المجلد الثاني) .

* فكتور هايفلدر : «في مفهوم التجربة عند هلمهولتز» ، برلين ، عام ١٨٩٧ . الناشر .

** «تقارير وخطابات» ، سنة ١٨٨٤ ، ص ٢٢٦ . الناشر .

واذا لم تكن الاحساسات صور الاشياء بل كانت مجرد علامات او رموز «لا تشابه لها» معها ، فان مقدمة هلمهولتز المادية الانطلاقية تتقوض ، ويتعرض لبعض الشك وجود الاشياء الخارجية لأن العلامات او الرموز ممكنة تماماً حيال الاشياء الموهومة ، وكل امرىء يعرف امثلة عن علامات او رموز كهذه . ويحاول هلمهولتز ، اثر كانط ، ان يقيم ما يشبه حداً مبدئياً بين «الظاهرة» و«الشيء في ذاته» . ويضمّر هلمهولتز للمادية الصريحة ، الواضحة، السفارة سوء ظن يستحيل تدليله . ولكنه يقول مع ذلك فيما بعد بقليل : «انا لا ارى كيف يمكن دحض نظام المثالية الذاتية الاشد طرفاً التي قد ترغب في اعتبار الحياة حلماً من الاحلام . يمكن القول عن هذا النظام انه غريب ، غير مرض اطلاقاً ، - واميل الى الانضمام في هذا الصدد الى اقوى تعابير الانكار ، - ولكنه من الممكن تطبيقه بتتابع . . . ان الفرضية الواقعية ، بالعكس ، تركز الى رأي (او : شهادة ، Aussage) المراقبة الذاتية العادية ، ومفاده ان تغيرات الادراك التي تتبع عملاً معيناً لا تمت باي صلة نفسية الى البثة السابقة من الارادة . فان هذه الفرضية تعتبر ان كل ما تؤكده المدركات اليومية ، اي العالم المادي القائم خارجاً عنا ، موجود بصورة مستقلة عن تصوراتنا» (ص ٢٤٢-٢٤٣) . «لا ريب ان الفرضية الواقعية هي ابسط فرضية يمكننا ان نضعها ، فرضية مجربة ومؤكدة في ميادين للتطبيق في منتهى الاتساع ، ومحددة بدقة في مختلف اقسامها ، وبالتالي صالحة وناجعة الى اقصى حد بوصفها اساساً لأجل العمل» (ص ٢٤٣) . ان لاعرفانية هلمهولتز تشبه هي ايضاً «مادية خجلة» مرفقة بالتهجمات الكانطية خلافاً لتهجمات هكسلي البركلية .

ولهذا ينتقد البريخت راو ، تابع فورباخ ، انتقاداً قاطعاً نظرية الرموز لهلمهولتز ، بوصفها تراجعاً لامبدئياً عن «الواقعية» . يقول راو ان نظرة هلمهولتز الاساسية هي مقدمة واقعية «نعرف»

بموجبها «بمساعدة حواسنا خواص الشيء الموضوعية» * . ان نظرية الرموز لا تتوافق مع نظرة كهذه (مادية تماماً ، كما رأينا) ، لأنها تحمل نوعاً من عدم الثقة حيال الحساسية ، من عدم الثقة حيال شهادات اعضاء حواسنا . ولا جدال في ان الصورة لا يمكن لها ابدأ ان تشبه الموديل كلياً ؛ ولكن الصورة شيء ، والرمز ، **العلامة الاصطلاحية** شيء آخر . فان الصورة تفترض بالضرورة ومن كل بد الواقعية الموضوعية لما هو «مصور» . اما «العلامة الاصطلاحية» ، الرمز ، الهيروغليف ، فهي مفاهيم تحمل معها عنصر الاعرفانية غير الضروري ابدأ . ولذا كان ا . راو على حق تام حين يقول ان هلمهولتز يدفع بنظرية الرموز جزية للكانطية . يقول راو : «لو ان هلمهولتز ظل مخلصاً لنظرته الواقعية ، ولو تمسك بثبات بالمبدأ القائل ان خواص الاجسام تعبر عن علاقات الاجسام فيما بينها وعن علاقاتها معنا ، لما كان بحاجة ، اغلب الظن ، الى كل نظرية الرموز هذه ؛ لكان بوسعه في هذه الحال ، ان يقول بايجاز ووضوح : «الاحساسات التي تستثيرها فينا الاشياء هي صور لماهية هذه الاشياء» (المرجع نفسه . ص ٣٢٠) .

هكذا ينتقد مادي هلمهولتز . فهو يرفض المادية الهيروغليفية او الرمزية او المادية النصفية عند هلمهولتز باسم مادية فورباخ المنسجمة .

ثم ان المثالي ليكلر (ممثل «المدرسة الكمونية» المستطابة على عقل ماخ وقلبه) يتهم هو ايضاً هلمهولتز بعدم الثبات ، بالتأرجح بين المادية والروحانية (**S. 154, «Der Realismus etc.»). ولكن نظرية الرموز ليست بنظر ليكلر مادية بصورة غير كافية ،

* Albrecht Rau. «Empfinden und Denken», Gissen, 1896. S. 304

(البريخت راو . «الاحساس والتفكير» ، غيسن ، عام ١٨٩٦ ، ص ٣٠٤ .
الناشر) .

** —«Der Realismus der modernen Naturwissenschaft im Lichte
der von Berkeley und Kant angebahnten Erkenntniskritik», S. 154.
الناشر .

بل مادية اكثر من اللزوم . وقد كتب ليكلر يقول : «يعتقد هلمهولتز ان مدركات وعينا تعطي نقاط ارتكاز كافية لأجل معرفة التتابع في الزمان وتمائل الاسباب المتعالية او اختلافها . وهذا كاف ، بنظر هلمهولتز ، لأجل افتراض نظام طبيعي في ميدان المتعالي» (ص ٣٣ ، - اي في ميدان الواقعي الموضوعي) ويبرق ويرعد ليكلر ضد هذا «الوهم الاعتقادي لهلمهولتز» . ويهتف قائلاً : «ان الاله البركلي ، بوصفه السبب الفرضي للنظام الطبيعي للافكار في وعينا ، يستطيع على اقل تقدير ان يلبي حاجتنا الى تفسير سببي كما يليها عالم الاشياء الخارجية» (ص ٣٤) . «ان تطبيق نظرية الرموز بانسجام . . . يستحيل بدون شوائب كثيرة من الواقعية المبتدلة» (٣٥) - اي من المادية .

هكذا قرع «المثالي الناقد» في عام ١٨٧٩ هلمهولتز بسبب ماديته . وبعد عشرين سنة ، عمد كلينبيتر ، تلميذ ماخ ، الذي اطراه ماخ ، ودحض هلمهولتز «الشائخ» ، بواسطة فلسفة ماخ «الحديثة» في مقاله : «بصدد النظرات المبدئية الى الفيزياء عند ارنست ماخ وهنريخ هرتس» * ، على النحو التالي : لندع جانباً موقتاً هرتس (الذي كان غير منسجم ، من حيث الجوهر ، مثل هلمهولتز) ولنر الى المقارنة التي اجراها كلينبيتر بين ماخ وهلمهولتز . فان كلينبيتر يسوق جملة من المقتبسات من الكاتبين ، ويؤكد بتشديد خاص على تصريحات معروفة لماخ مفادها ان الاجسام هي رموز تصورية لأجل مركب الاحساسات ، والنخ . ، ويقول : «اذا تتبعنا مجرى فكر هلمهولتز ، فاننا نجد المقدمات الاساسية التالية :

١ - توجد مواضيع العالم الخارجي .

* «Archiv für Philosophie» II, Systematische Philosophie, (٦٨)

Band V, 1899, SS. 163—164 على الاخص («ارشيف الفلسفة» . القسم

الثاني . الفلسفة النظامية ، المجلد ٥ ، عام ١٨٩٩ ، ص ١٦٣-١٦٤ على

الاخص . الناشر) .

٢- ان تغيير هذه المواضيع غير ممكن بدون تأثير سبب ما (على اعتباره سبباً واقعياً) .

٣- «السبب ، حسب معنى هذه الكلمة الاولي ، هو ما يبقى بدون تغير ، بوصفه باقياً او موجوداً وراء الظواهر المتعاقبة ، اي بالضبط : المادة وقانون فعلها ، القوة» (مقتبس اخذه كلينبيتر عن هلمهولتز) .

٤- يمكن استخلاص جميع الظواهر من اسبابها بطريقة صارمة ووحيدة المدلول على صعيد المنطق .

٥- ان بلوغ هذا الهدف يعني امتلاك الحقيقة الموضوعية التي يعتبر اكتسابها (Erlangung) بالتالي امراً ممكناً» (ص ١٦٣) .
ويستاء كلينبيتر من هذه المقدمات ، وتناقضها ، وخلق قضايا لا حل لها ، ويشير الى ان هلمهولتز لا يتقيد بدقة بهذه النظرات ، اذ يستعمل احياناً «اساليب في الكلام شبيهة نوعاً بفهم ماخ فهماً منطقياً صرفاً بعض الشيء لكلمات» المادة والقوة والسبب والخ . .

«ليس من الصعب ان نجد مبعث عدم رضانا من هلمهولتز ، اذا تذكرنا كلمات ماخ الرائعة والواضحة للغاية . الفهم الخاطيء لكلمات : الكتلة ، القوة ، والخ . ، هذا ما يشوب محاكمة هلمهولتز كلها . فان هذه الكلمات مجرد مفاهيم ، مجرد منتوجات لخيالنا ، وليست البتة اشياء واقعية موجودة خارج التفكير . ليس بمقدورنا اطلاقاً ان نعرف اية اشياء واقعية . ومن مراقبات حواسنا ، ليس بمقدورنا على العموم ، من جراء عدم كمالها ، ان نستخلص فقط استنتاجاً ذي مدلول واحد . ولا يمكننا ابداً ان نؤكد اننا ، مثلاً ، سنحصل على عدد معين واحد اذا شاهدنا مقياساً مدرجاً معيناً (durch Ablesen einer Skala) ، فمن الممكن دائماً ، ضمن حدود معينة ، وجود اعداد كثيرة الى ما لا نهاية له ، تتطابق جيداً بالقدر نفسه مع وقائع المشاهدة . اما ان نعرف شيئاً واقعياً قائماً خارجاً عنا ، فاننا عاجزون تماماً عن هذا . افترضوا حتى ان هذا ممكن واننا عرفنا اشياء واقعية ؛ ففي هذه الحال لن يكون من حقنا ان

نطبق عليها قوانين المنطق ، لأنها قوانيننا نحن ، وانه لا يمكن تطبيقها الا على مفاهيمنا نحن ، على منتوجات فكرنا نحن (حرف التأكيد في كل مكان لكلينبيرتر) . فبين الوقائع لا توجد صلة منطقية ، بل يوجد مجرد تتابع ؛ وهنا تستحيل الاحكام الدامغة . فليس من الصحيح ، بالتالي ، القول ان واقعاً هو سبب واقع آخر ؛ ومع هذا الزعم يسقط كل استنتاج هلمهولتز المبني على هذا المفهوم . واخيراً يستحيل بلوغ الحقيقة الموضوعية اي الموجودة بصورة مستقلة عن اي ذات ، ويستحيل ذلك لا بحكم خصائص حواسنا وحسب ، بل ايضاً لأننا لا نستطيع على العموم ، لكوننا بشراً (wir als Menschen) ان نكون ابدأ اي تصور عما هو موجود بصورة مستقلة تماماً عنا» (ص ١٦٤) .

ويرى القارىء ان صاحبنا تلميذ ماخ ، مع تكراره الكلمات المفضلة لدى معلمه ، ولدى بوغدانوف الذي لا يعتبر نفسه ماخياً ، انما ينبذ كل فلسفة هلمهولتز بمجملها ، ينبذها من وجهة النظر المثالية . بل ان المثالي حتى لا يبرز بنحو خاص نظرية الرموز ، اذ انه يعتبرها انحرافاً عن المادية غير هام ، ولربما من باب الصدفة . ولكن كلينبيرتر يعتبر هلمهولتز ممثلاً «للنظرات التقليدية في الفيزياء» ، «هذه النظرات التي يتمسك بها الآن الفيزيائيون بمعظمهم» (ص ١٦٠) .

وبالنتيجة يتبين لنا ان بليخانوف اقترف خطأ بيناً في عرضه للمادية ، وان بازاروف شوش المسألة كلياً ، حيث خلط في كومة واحدة المادية والمثالية ، وقابل «نظرية الرموز» او «المادية الهيروغليفية» بهراء مثالي يزعم ان «التصور الحسي هو بالذات الواقع الموجود خارجاً عنا» . وعن الكانطي هلمهولتز ، كما عن كانط نفسه ، مضى الماديون الى اليسار ، والماخيون الى اليمين .

٧ - بصدد نقد دوهرينغ المزدوج

لنشر الى سمة صغيرة مميزة اخرى في تشويه الماخيين للمادية تشويهاً هائلاً . فان فالنتينوف يريد ان يهزم الماركسيين

بمقارنة مع بوختر الذي ، كما يزعم ، تجمعهم ببليخانوف كثرة من الاشياء المتماثلة ، رغم ان انجلس فصل نفسه بكل حدة ووضوح عن بوختر . اما بوغدانوف الذي تناول المسألة نفسها من جانب آخر ، فكأنه يدافع عن «مادية علماء الطبيعيات» ، التي «من المعتاد التحدث عنها بازدراء» («الاحادية التجريبية» ، الكتاب الثالث ، ص ٧٧) . ولكن فالنتينوف وبوغدانوف على السواء يخبصان هنا بوقاحة . فان ماركس وانجلس قد «تحدثا» دائماً «بازدراء» عن الاشتراكيين الاردياء ، ولكنه ينجم من هنا ان ما يتطابق مع روحهما هو مذهب الاشتراكية الصحيحة ، العلمية وليس الانتقالات من الاشتراكية الى النظرات البرجوازية . وقد ندد ماركس وانجلس على الدوام بالمادية الرديئة (وبصورة رئيسية ، بالمادية المنافية للديالكتيك) ، ولكنهما نددا بها من وجهة نظر مادية اعلى ، اكثر تطوراً ، هي المادية الديالكتيكية ، وليس من وجهة نظر الهيومية او البركليسية . وعن الماديين الاردياء تحدث ماركس وانجلس وديتزنغ باكثرات ، راغبين في ان يصلحوا اخطاءهم ؛ ولكنهم ما كانوا يرغبوا حتى في التحدث عن الهيوميين والبركليين ، وعن ماخ وافيناريوس ، واكتفوا بملاحظة اشد ازدراء بحق كل اتجاههم . ولهذا ، فان تصعيرات اصحابنا الماخيين اللامتناهية وتكشيراتهم بصدد هولباخ وشركاه ، وبوختر وشركاه ، والنخ . ، تعني كلياً وبوجه الحصر ذر الرماد في عيون الجمهور ، وتغطية تراجع الماخية كلها عن اساس المادية بوجه عام ، وخوفاً من التحاسب بصراحة ووضوح مع انجلس .

ومن الصعب الاعراب عن الرأي بشكل اوضح مما اعرب انجلس عن رأيه في المادية الفرنسية في القرن الثامن عشر ، وفي بوختر وفوغت وموايشوت في نهاية الفصل الثاني من مؤلفه «لودفيغ فورباخ» . ولا يسع المرء ان لا يفهم انجلس ، اذا كان لا يرغب في تشويبه . نحن ، ماركس وانا ، ماديان . هكذا يقول انجلس في هذا الفصل ، موضحاً الفرق الاساسي الذي يميز جميع مدارس المادية عن كل معسكر المثاليين ، عن كل الكانطيين والهيوميين

عامة . وان انجلس يلوم فورباخ على بعض من خور العزيمة ، وعلى الخفة اللذين تجليا في كونه قد تبرأ في بعض الاماكن من المادية بوجه عام بسبب من اخطاء هذه او تلك من مدارس الماديين . يقول انجلس ان فورباخ «لم يكن من حقه (durfte nicht) ان يخلط بين مذهب المبشرين المتجولين (بوختر وشركاه) وبين المادية على العموم» (ص ٢١) (٦٩) . ان الرؤوس التي افسدتها مطالعة تعاليم البروفسورات الرجعيين الالمان والايمان الاعمى بصحتها هي وحدها التي كان بمقدورها ان لا تفهم طابع مثل هذه الملامات التي وجهها انجلس الى فورباخ .

يقول انجلس بوضوح ما بعده وضوح ان بوختر وشركاه «ام يتخطوا في شيء حدود تعاليم معلمهم» اي ماديي القرن الثامن عشر ، ولم يقوموا باية خطوة الى الامام . وعلى هذا ، وعلى هذا فقط يلوم انجلس بوختر وشركاه ، لا على ماديتهم ، كما يظن الجهلاء ، بل على انهم لم يدفعوا المادية الى امام ، على انه «حتى لم يعطر لهم في البال تطوير نظرية» المادية «الى ابعد» . على هذا فقط يلوم انجلس بوختر وشركاه . وعلى الفور ، يعدد انجلس ، بنداً بنداً ، ثلاث «محدوديات» اساسية عند الماديين

الارستين في القرن الثامن عشر تخلص منها ماركس وانجلس ولكن ام يستطع ان يتخلص منها بوختر وشركاه . المحدودية الاولى : لان مفهوم الماديين القدماء «ميكانيكياً» بمعنى انهم «طبقوا اصول الميكانيك بوجه الحصر على العمليات الجارية في الطبيعة الكيماوية والعضوية» (ص ١٩) . وسنرى في الفصل التالي كيف اسفر عدم فهم كلمات انجلس هذه عن انحراف بعض الناس الى المثالية بسبب من الهيزياء الجديدة . فان انجلس ينبذ المادية الميكانيكية ليس لانها ما يتهمها به الفيزيائيون من الاتجاه المثالي (والماخي ايضاً) «الماديت» . المحدودية الثانية : ميتافيزيائية نظرات الماديين القدماء «بما هي» «كون فلسفتهم منافية للمديالكتيك» . وهذه المحدودية «بما هي» كلياً ، مع بوختر وشركاه ، اصحابنا الماخيون الذين ، كما رأينا ، لم يفهموا شيئاً على الاطلاق فيما يتعلق بتطبيق

انجلس للديالكتيك على علم العرفان (الحقيقة المطلقة والنسبية ،
مثلاً) . المحدودية الثالثة : الاحتفاظ بالمثالية «في اعلى» ، في ميدان
العلوم الاجتماعية ، وعدم فهم المادية التاريخية .

وبعد ان عدد وفتر انجلس هذه «المحدوديات» الثلاث
بوضوح يستنفد المسألة (ص ١٩ - ٢١) ، اضاف في الحال ان بوخنر
وشركاه لم يتجاوزوا «هذه الحدود» (über diese Schranken) .

وبسبب هذه الاشياء الثلاثة **بوجه العصر** ، وضمن هذه الحدود
بوجه العصر ، ينبذ انجلس سواء مادية القرن الثامن عشر ام
تعاليم بوخنر وشركاه ! اما في جميع مسائل المادية الاخرى ، وهي
مسائل ايسط (شوهها الماخيون) ، **فليس هناك ولا يمكن ان يكون**
اي فرق بين ماركس وانجلس من جهة ، وجميع هؤلاء الماديين
القدماء من جهة اخرى . والتشوش في هذه المسألة الواضحة تماماً
قد جاء به الماخيون الروس وحدهم دون غيرهم ، لأن معلمهم
ورفاقهم بالفكر الاوروبيين الغربيين يرون بجلاء الاختلاف الجذري
بين خط ماخ وشركاه وخط الماديين على العموم . وقد احتاج اصحابنا
الماخيون الى تشويش المسألة لكي يظهروا قطيعتهم مع الماركسية
وانتقالهم الى معسكر الفلسفة البرجوازية بمظهر «تعديلات طفيفة»
على الماركسية !

خذوا دوهرينغ . من الصعب ان نتصور ما هو اشد اتساماً
بالازدراء من آراء انجلس عنه . ولكن انظروا كيف انتقد ليكلر
دوهرينغ هذا ذاته في نفس الوقت الذي انتقده فيه انجلس ،
وكيف اطرى «فلسفة» ماخ «المثورة» . فان دوهرينغ هو ، بنظر
ليكلر ، «اليسارية المتطرفة» في المادية ، التي «تعلن على المكشوف
ان الاحساس ، مثله مثل كل مظهر للوعي والعقل بوجه عام ، هو
افراز العضوية الحية ، وظيفتها ، زهرتها العليا ، مفعولها الاجمالي
وما الى ذلك» * ٢٤ (Der Realismus) والنخ ، عام ١٨٧٩ ، ص ٢٣ -

* Der Realismus der modernen Naturwissenschaft im Lichte
der von Berkeley und Kant angebahnten Erkenntniskritik», 1879, S. 23—

فهل على هذا انتقد انجلس دوهرينغ ؟ كلا . ففي هذا اتفق تماماً في الرأي مع دوهرينغ كما مع اي مادي آخر . لقد انتقد انجلس دوهرينغ من وجهة نظر مضادة تماماً ، انتقده على عدم انسجام ماديته ، على نزواته المثالية التي ترك منفذاً امام الايمانية .

«ان الطبيعة نفسها تعمل في الكائن الذي يملك تصورات ، وكذلك من خارجه ، على ان تخلق بطريقة طبيعية مفاهيم واضحة وان تكون المعرفة الضرورية عن مجرى الاشياء» . ان ليكلر يورد كلمات دوهرينغ هذه ، وينقض بجنون على المادية التي تتبنى وجهة النظر هذه ، على «الميتافيزياء الخشنة غاية الخشونة» الملازمة لهذه المادية ، على «خداع النفس» وهلم جراً ، وهكذا دواليك (ص ١٦٠ ، و ١٦١-١٦٣) .

فهل على هذا انتقد انجلس دوهرينغ ؟ كلا . لقد سخر انجلس من كل تزويق في الكلام ، ولكن انجلس اتفق تماماً في الرأي مع دوهرينغ ، كما مع اي مادي آخر ، فيما يتعلق بالاعتراف بالسنة الموضوعية للطبيعة ، التي يعكسها الوعي .

«ان التفكير هو الشكل الاعلى للواقع الباقي كله . . .» . «ان المقدمة الاساسية للفلسفة انما هي استقلالية وتميز العالم الواقعي موضوعياً عن فئة ظاهرات الوعي التي تنبثق في هذا العالم وتعرفه» . هذه الكلمات يوردها ليكلر مع جملة من تهجمات دوهرينغ على كانط ، والنخ . ويتهم دوهرينغ من جراء ذلك «بالميتافيزياء» (ص ٢١٨-٢٢٢) ، بالاعتراف «بالعقيدة الميتافيزيائية» ، وما مائل .

فهل على هذا انتقد انجلس دوهرينغ ؟ كلا . ففيما يتعلق بكون العالم موجوداً بصورة مستقلة عن الوعي وبكون كل تراجع عن هذه الحقيقة من جانب الكانطيين والهيوميين والبركليين ، والنخ . ، هو زيف ، اتفق انجلس تماماً في الرأي مع دوهرينغ ، كما مع اي مادي آخر . ولو ان انجلس رأى من اي جانب يوجه ليكلر بمصاحبة ماخ النقد الى دوهرينغ ، لكان نعت هذين الرجعيين

الفلسفيين بتعابير اشد اتساماً بالازدراء بمائة مرة مما نعت بها دوهرينغ ! فان دوهرينغ كان بنظر ليكلر صورة مجسدة للواقعية والمادية الخبيثتين (قارن ايضاً «Beiträge zu einer monistischen Erkenntnistheorie», 1882, S. 45) اما شوبه ، معلم ماخ ورفيقه في الفكر ، فقد اتهم دوهرينغ في عام ١٨٧٨ «بالواقعية الهذيانية» *Traumrealismus* ، ثأراً لنعت «المثالية الهذيانية» ، الذي اطلقه دوهرينغ ضد جميع المثاليين . اما بنظر انجلس فالامر على العكس بالضبط : فان دوهرينغ كان مادياً على درجة غير كافية من الوضوح والانسجام .

ولقد دخل ماركس وانجلس ويوسف ديتزغن على السواء حلبة الفلسفة في وقت كانت تسود فيه المادية في اوساط المثقفين الطبيعيين على العموم وفي اوساط العمال على الخصوص . ولهذا من الطبيعي تماماً ان يكون ماركس وانجلس قد وجها كل انتباههما ، لا الى تكرار القديم ، بل الى تطوير المادية تطويراً نظرياً جدياً ، الى تطبيقها على التاريخ ، اي الى استكمال بناء صرح الفلسفة المادية تماماً و كلياً . ومن الطبيعي تماماً ان يكونا قد اكتفيا في ميدان علم العرفان باصلاح اخطاء فورباخ ، وبالسخر من تفاهات المادي دوهرينغ ، وبنقد اخطاء بوختر (راجع يوسف ديتزغن) ، وبالإشارة الى ما افتقر اليه على الاخص هؤلاء الكتاب الاوسع شعبية وشهرة في اوساط العمال ، عنيانا به الدياليكتيك . اما الحقائق الاولية للمادية ، التي زعق بها المبشرون المتجولون في عشرات المطبوعات ، فان ماركس وانجلس وديتزغن لم يأبهوا بها ، بل وجهوا كل انتباههم للحيلولة دون ابتذال هذه الحقائق الاولية ، ودون تبسيطها بافراط ، ولكي لا تؤدي الى تحجر الفكر («المادية من تحت ، المثالية من فوق») ، الى نسيان الثمرة القيمة

* Dr. Wilhelm Schuppe. «Erkenntnistheoretische Logik», Bonn, 1878, S. 56 (الدكتور ولهم شوبه . «المنطق العرفاني النظري» ، بون ، عام ١٨٧٨ ، ص ٥٦ . الناشر) .

للانظمة المثالية ، الى نسيان الدياليكتيك الهيجلي - هذه الدرة التي لم يستطع الديوك اضراب بوختر ودوهرينغ وشركاهم (مع ليكلر وماخ وافيناريوس وخلافهم) ان يفرزوها من كومة زبل المثالية المطلقة . واذا تصورنا بصورة ملموسة نوعاً هذه الظروف التاريخية لمؤلفات انجلس ويوسف ديتزغن الفلسفية ، اتضح لنا تماماً لماذا **تجنبنا** ابتذال الحقائق الاولية للمادية اكثر مما **دافعا** عن هذه الحقائق بالذات . كذلك تجنب ماركس وانجلس ابتذال المطالب الاساسية للديموقراطية السياسية اكثر مما دافعا عن هذه المطالب بالذات .

ان تلامذة الرجعيين الفلاسفة هم وحدهم استطاعوا ان «لا يلحظوا» هذا الامر ، وان يصوروا المسألة للقراء بحيث يبدو كأن ماركس وانجلس لم يفهما ما يعنيه ان يكون المرء مادياً .

٨ - كيف امكن ان أعجب يوسف ديتزغن الفلاسفة الرجعيين ؟

ان المثال المذكور اعلاه عن غلفوند يتضمن الجواب عن هذا السؤال ، ولن نتبع الحالات التي لا عد لها من معاملة اصحابنا الماخيين ليوسف ديتزغن على طريقة غلفوند . فمن الاصوب ان نسوق جملة من محاكمات يوسف ديتزغن نفسه لكي نبين جوانب ضعفه .

يقول ديتزغن : «ان الفكر هو وظيفة الدماغ» (Das Wesen der menschlichen Kopfarbeit», 1903, S. 52 توجد ترجمة روسية : «جوهر عمل الرأس» . «الفكر هو نتاج الدماغ . . . ان مكتبي ، بوصفه مضمون فكري ، يتطابق مع هذا الفكر ، لا يختلف عنه . ولكن هذا المكتب ، خارج رأسي ، هو موضوعه المختلف تماماً عنه» (ص ٥٣) . ولكن ديتزغن يكمل هذه الموضوعات المادية الواضحة تماماً ، بما يلي : «ولكن التصور غير الحسي هو

ايضاً حسي ، مادي ، اي فعلي . . . ان الروح لا تختلف عن المكتب والنور والصوت اكثر مما تختلف هذه الاشياء بعضها عن بعض» (ص ٥٤) . هنا خطأ بين . اما ان الفكر والمادة هما على السواء «فعليان» اي موجودان ، فان هذا صحيح . ولكن القول عن الفكر بانه مادي انما يعني القيام بخطوة خاطئة نحو خلط المادية بالمثالية . وهذا ، على الارجح ، من حيث جوهر الامر ، هفوة في التعبير ، اذ ان ديتزغن يقول بصورة صحيحة في مكان آخر : «ان للروح والمادة ، على الاقل ، امراً مشتركاً ، هو انهما موجودان» (ص ٨٠) . ويقول ديتزغن : «التفكير هو عمل جسماني ، فلأجل التفكير احتاج الى مادة يمكن التفكير بها . وهذه المادة معطاة لنا في ظاهرات الطبيعة والحياة . . . المادة هي حد الروح ؛ والروح لا تستطيع ان تتجاوز حدود المادة . الروح هي نتاج المادة ، ولكن المادة هي شيء اكبر من نتاج الروح . . .» (ص ٦٤) . الا ان الماخيين يستنكفون عن تحليل مثل هذه المحاكمات المادية للمادي ي . ديتزغن ! فهم يفضلون التشبث بالتشوش وعدم الدقة عند ديتزغن . مثلاً . يقول ديتزغن انه من الممكن ان يكون علماء الطبيعيات «مثاليين في خارج ميدانهم فقط» (ص ١٠٨) . فهل هكذا هو الحال ولماذا ؟ ان الماخيين يلزمون الصمت في هذا الصدد . ولكن ديتزغن يعترف في صفحة سابقة «بالجانب الايجابي للمثالية المعاصرة» (ص ١٠٦) و«بناقصة المبدأ المادي» ، الامر الذي لا بد له ان يفرح الماخيين ! ان الفكرة التي عبر عنها ديتزغن بأسلوب غير صحيح تتلخص فيما يلي : ان اختلاف المادة عن الروح هو ايضاً نسبي ، وليس مفرطاً (ص ١٠٧) . هذا صحيح ، ولكن ما ينبع من هنا ، ليس ناقصة المادية ، بل ناقصة المادية الميتافيزيائية ، المنافية للديالكتيك .

«ان الحقيقة البسيطة ، العلمية ، لا تركز على الفرد . فان اسسها تقع في الخارج (اي في خارج الفرد) ، في مادتها ، وهي حقيقة موضوعية . . . نحن نسمي انفسنا بالماديين . . . ان الماديين الفلسفيين يتصفون بكونهم يضعون العالم الجسماني في البداية ،

في الطبيعة ، بينما يعتبرون الفكرة او الروح عاقبة ، في حين ان
الخصوم يستخلصون الاشياء من الكلمة ، على طريقة الدين ...
يستخلصون العالم المادي من الفكرة «Kleinere philosophische
Schriften», 1903, S. 59, 62*) بيد ان الماخين يتحاشون هذا
الاعتراف بالحقيقة الموضوعية وهذا التكرار لتعريف المادية على
طريقة انجلس . ولكن ها هو ذا ديتزغن يقول : «كان بوسعنا ان
نسمي انفسنا ، بالقدر نفسه من الحق ، بالمثاليين لأن نظامنا
يرتكز على النتيجة الاجمالية للفلسفة ، على دراسة الفكرة دراسة
علمية ، على الفهم الواضح لطبيعة الروح» (ص ٦٣) . ليس من
الصعب التشبث بهذه الجملة ، البينة الخطأ ، لأجل التبرؤ من
المادية . اما في الواقع فان صيغة ديتزغن هي اكثر خطأ من الفكرة
الاساسية التي تتلخص في الاشارة الى ان المادية القديمة لم تستطع
ان تدرس الافكار دراسة علمية (بمساعدة المادية التاريخية) .
واليكم محاكمة ديتزغن بصدد المادية القديمة : «كما ان فهمنا
للاقتصاد السياسي هو مكسب علمي تاريخي ، كذلك هي المادية .
وكما نتميز بوضوح تام عن اشتراكي الماضي ، كذلك نتميز
عن الماديين السابقين . ولا يجمع بيننا وبين هؤلاء الاخيرين سوى
اعترافنا بان المادة هي مقدمة الفكرة او اساسها الاول» (ص ١٤٠) .
ما اكثر ما تدل عليه هذه الكلمة «سوى» ! فهي تنطوي على جميع
الاسس العرفانية للمادية خلافاً للاعرفانية والماخية والمثالية . ولكن
انتباه ديتزغن يرمي الى التنصل من المادية المتبذلة .
ولكن فيما بعد يأتي مقطع غير صحيح ابداً : «يجب توسيع
مفهوم المادة . والى هنا تعود جميع ظاهرات الواقع ، وبالتالي
قدرتنا على المعرفة والايضاح» (ص ١٤١) . هذا تشويش من شأنه
ان يخلط المادية والمثالية فحسب تحت ستار «توسيع» الاولى .
ان التشبث بمثل هذا «التوسيع» يعني نسيان اساس فلسفة

* «مؤلفات فلسفية صغيرة» . عام ١٩٠٣ ، ص ٥٩ ، ٦٢ .

ديتزغن ، اي الاعتراف بان المادة هي الاولية ، هي «حد الروح» . وبعد بضعة اسطر ، يصلح ديتزغن بنفسه ، من حيث جوهر الامر ، خطأه : «لكل يوجه الجزء ، المادة توجه الروح» (ص ١٤٢) . . . «بهذا المعنى نستطيع ان نرى الى العالم المادي . . . بوصفه السبب الاول ، بوصفه خالق السماء والارض» (ص ١٤٢) . اما انه يجب ادراج الافكار ايضاً في مفهوم المادة ، كما يردد ديتزغن في «جولات» (ص ٢١٤ من الكتاب المذكور) ، فان هذه لخبطة ، لأن معارضة الروح بالمادة ، المثالية بالمادية ، على اساس علم العرفان ، - هذه المعارضة التي يصر عليها ديتزغن نفسه ، - تفقد معناها في حالة هذا الادراج . اما انه يجب ان لا تكون هذه المعارضة «مفرطة» ، مضخمة ، ميتافيزيائية ، فان هذا امر لا جدال فيه (والتأكيد على هذا مآثرة المادي **الديالكتيكي** ديتزغن الكبيرة) . ان حدود الضرورة المطلقة والصحة المطلقة لهذه المعارضة النسبية هي بالضبط الحدود التي تعين **اتجاه** الدراسات العرفانية . وانه لمن الخطأ الفادح اللجوء فيما وراء هذه الحدود الى التضاد بين المادة والروح ، بين الفيزيائي والنفسي ، بوصفه تضاداً مطلقاً . ان ديتزغن يعرب عن افكاره باسلوب مائع مبهم ، اشبه بالخبيص - خلافاً لانجلس . ولكنه ، مع التغاضي عن نواقص العرض والاختفاء الجزئية ، لا يدافع عبثاً عن «**نظرية العرفان المادية**» (ص ٢٢٢ ، وكذلك ص ٢٧١) ، عن «**المادية الديالكتيكية**» (ص ٢٢٤) . يقول ديتزغن : «ان نظرية العرفان المادية تتلخص في الاعتراف بان عضو المعرفة الانساني لا يشع باي نور ميتافيزيائي ، بل هو قطعة من الطبيعة ، تعكس قطعات اخرى من الطبيعة» (ص ٢٢٢-٢٢٣) . «ان القدرة العرفانية ليست مصدراً ما خارق الطبيعة للحقيقة ، بل اداة شبيهة بالمرآة تعكس اشياء العالم او الطبيعة» (ص ٢٤٣) . ان اصحابنا الماخين العميقي التفكير يتحاشون تحليل كل موضوعة بمفردها من موضوعات **نظرية العرفان المادية** لدى يوسف ديتزغن ، ويتشبهون بتراجعاته عنها ، بالغموض والخبطة . وقد امكن ان اعجب يوسف ديتزغن الفلاسفة الرجعيين لأنه يلخبط

في بعض الاماكن . وحيث تكون اللخبطة ، يكون الماخيون ؛ وهذا غدا من البديهييات .

في ٥ كانون الاول (ديسمبر) ١٨٦٨ كتب ماركس الى كوغلمان يقول : «من زمان ارسل اليّ ديتزغن مقطعاً من مخطوطة عن «مقدرة التفكير» يتضمن ، رغم بعض التشوش في المفاهيم ورغم الافراط في التكرار ، كثرة من الافكار الممتازة ، والجديرة بالاعجاب بوصفها نتاج تفكير مستقل من عامل» (ص ٥٣ . الترجمة الروسية) . ان السيد فالنتينوف يورد هذا الرأي **ولا يخطر في باله** ان يتساءل : فيم استشف ماركس التشوش عند يوسف ديتزغن : أفيما يقرب ديتزغن من ماخ ، ام فيما يميز ديتزغن عن ماخ ؟ ان السيد فالنتينوف لم يطرح هذا السؤال ، لأنه قرأ ديتزغن وقرأ رسائل ماركس ايضاً على طريقة بتروشكا ، بطل قصة غوغول . والحال ، ليس من الصعب ايجاد الجواب عن هذا السؤال . فان ماركس قد سمى غير مرة عقيدته بالمادية الديالكتيكية ، كما ان مؤلف انجلس «ضد دوهرينغ» ، **الذي قرأه ماركس كله في المخطوطة** ، يعرض هذه العقيدة بالضبط . ومن هنا كان بوسع السادة امثال فالنتينوف ان يفهموا ان تشوش ي . ديتزغن لا يمكن ان يتلخص الا في **تراجعاته** عن تطبيق الديالكتيك بانسجام ، عن المادية المنسجمة ، وخاصة عن كتاب «ضد دوهرينغ» .

أفلا يحزر الآن السيد فالنتينوف مع شلته انه لا يمكن ان ينعت ماركس بالتشوش عند ديتزغن **الا ما يقرب ديتزغن من ماخ** الذي مضى من كانط نحو بركلي وهيوم وليس نحو المادية ؟ أم لربما نعت المادي ماركس بالتشوش نظرية ديتزغن المادية الخاصة بالمعرفة على وجه الضبط ، وحبذ تراجعاته عن المادية ؟ ام حبذ ماركس ما يختلف عن كتاب «ضد دوهرينغ» المكتوب بمشاركته ؟ ومن يضلل اصحابنا الماخيون الذين يرغبون في ان يحسبوهم ماركسيين ، ويعلنون فضلاً عن ذلك على رؤوس الاشهاد بان «اخ»هم قد حبذ ديتزغن ؟ لم يفتن ابطالنا الى انه لا يمكن لماخ

ان يحبذ ديتزغن الا لسبب واحد فقط ، هو ان ماركس نعت ديتزغن بالمشوش !

ان يوسف ديتزغن لا يستحق مثل هذا التنديد الحاد ، في حال تقييمه بصورة عامة . فهو مادي بتسعة اعشاره ، ولم يدع يوماً لا بالاصالة ولا بفلسفة خاصة تتميز عن المادية . وقد تحدث ديتزغن عن ماركس مراراً عديدة ولم يتحدث عنه الا بوصفه رئيس اتجاه («Kleinere phil. Schr.» ، ص ٤ - رأي عام ١٨٧٣ ؛ ص ٩٥ - عام ١٨٧٦ ، حيث قيل ان ماركس وانجلس «كانا ذوي مدرسة فلسفية ضرورية» ، اي ذوي تحصيل فلسفي ؛ ص ١٨١ - عام ١٨٨٦ - قيل عن ماركس وانجلس انهما «مؤسسان معترف بهما» لاتجاه) . كان ديتزغن ماركسياً ؛ وان يفغيني ديتزغن وكذلك - ويا للأسف ! - الرفيق ب . داوغي يقدمان له خدمة الدب باختلاقيهما «الاحادية الطبيعية» ، «الديتزغنية» ، وما الى ذلك . فان «الديتزغنية» ، خلافاً للمادية الديالكتيكية ، هي تشوش ، هي خطوة نحو الفلسفة الرجعية ، هي محاولة لانشاء النهج لا مما هو عظيم عند يوسف ديتزغن (فعند هذا العامل - الفيلسوف ، الذي اكتشف المادية الديالكتيكية على طريقته ، كثرة من الاشياء العظيمة !) ، بل مما هو ضعيف عنده !

واني اکتفي بمثلين يبينان كيف ينزلق الرفيق ب . داوغي ويفغيني ديتزغن الى الفلسفة الرجعية .

يكتب ب . داوغي في الطبعة الثانية من «المكتسبات» ، ص ٢٧٣ : «وحتى النقد البرجوازي يشير الى صلة فلسفة ديتزغن بالمذهب النقدي التجريبي وبالمدرسة الكمونية» ، وفيما بعد : «ولا سيما بمدرسة ليكلر» (في استشهاد من «النقد البرجوازي») .

اما ان ب . داوغي يقدر ويحترم يوسف ديتزغن ، فان هذا لا ريب فيه . ولكن لا ريب كذلك في انه يغزي ي . ديتزغن بايراده ، بدون احتجاج ، رأي مخربش برجوازي يقرب العدو الألد للايمانية والبروفسورات ، «خدم» البرجوازية «ذوي الشهادات» ، من مروج الايمانية السافر والرجعي العريق ليكلر .

لربما ردد داوغه رأي غيره في الكمونيين وليكلر ، لأنه لم يطلع شخصياً على كتابات هؤلاء الرجعيين . ولكن ليأخذ درساً من هذا : ان الطريق من ماركس الى خصائص ديتزغن - الى ماخ - الى الكمونيين - هو طريق الى المستنقع . وليس الاقتراب من ليكلر وحسب ، بل الاقتراب من ماخ ايضاً ، يبرزان ديتزغن-المشوش على نقيض ديتزغن-المادي .

وسأدافع عن يوسف ديتزغن دون ب . داوغه . اني أوكد ان يوسف ديتزغن لم يستحق خزيّاً كتقريبه من ليكلر . وبوسعي ان استشهد بشاهد هو الاكبر نفوذاً في هذه المسألة : برجي وفيلسوف للايمانية و«كموني» مثل ليكلر ، اي بالضبط بشوبرت-زولدرن . ففي عام ١٨٩٦ كتب شوبرت-زولدرن يقول : «ان الاشتراكيين-الديموقراطيين ينضمون بطيبة خاطر الى هيغل ، بقدر اكبر او اقل (وعادة اقل) من الحق ، ولكنهم يجعلون من فلسفة هيغل فلسفة مادية ؛ قارن يوسف ديتزغن . فعند ديتزغن يصبح المطلق الدنيا (universum - المعرب) ، وهذه الاخيرة تصبح شيئاً في ذاته ، ذاتاً مطلقاً ظاهراته هي محمولاته . اما ان ديتزغن يجعل على هذا النحو من تجريد خالص للغاية اساس عملية ملموسة ، فانه لا يلاحظ ذلك بالطبع ، مثلما لم يلاحظه هيغل . . . ان هيغل وداروين وهيكل والمادية التاريخية الطبيعية يخلطهم ديتزغن احياناً كثيرة بصورة عمائية» («المسألة الاجتماعية» ، ص XXXIII) . ان شوبرت-زولدرن يتفهم التلاوين الفلسفية خيراً مما يتفهمها ماخ الذي يطري الجميع واي شخص كان ، بمن فيهم الكانطي اورشليم ايضاً .

اما يفغيني ديتزغن ، فقد دفعته السذاجة الى التشككي للجمهور الالمانى من ان الماديين الضيقين في روسيا قد «اهانوا» يوسف ديتزغن ، وترجم الى اللغة الالمانية مقالتي بليخانوف وداوغه عن يوسف ديتزغن (راجع J. Dietzgen: «Erkenntnis

*1908, Stuttgart, «und Wahrheit», (الملحقات) . واضر «الاحادي الطبيعي» المسكين نفسه بتشكيه : فان فرانتس مهرينغ الذي هو ملم نوعاً بالفلسفة وبالماركسية قد كتب في مقاله الانتقادية ان بليغانوف محق من حيث الجوهر ضد داوغه («Neue Zeit», 1908, N 38, 19. Juni, Feuilleton, S. 432**) . اما ان يوسف ديتزغن بتراجعه عن ماركس وانجلس قد وقع في ورطة (ص ٤٣١) ، فان هذا ، بنظر مهرينغ ، امر لا يطاله الشك . وقد رد يفغيني ديتزغن على مهرينغ بنبذة طويلة وبكأة تمادى فيها الى حد القول ان يوسف ديتزغن يمكن ان يكون نافعا «لأجل الجمع» بين «الاخوة الاورثوذكس والمحرفين المتعادين» («N. Z.», 1908, N 44, 31. Juli, S. 652) . واليك تحذيراً آخر ، يا رفيق داوغه : ان الطريق من ماركس الى «الديتزغنية» و«الماخية» هي طريق الى المستنقع ، لا بالنسبة للاشخاص ، بالطبع ، لا بالنسبة لرياض او سمير ، او كميل ، بل بالنسبة للاتجاه .

ولا تصيحوا ، ايها السادة الماخيون ، اني استشهد «بذوي المكانة» : فان صيحاتكم ضد ذوي المكانة هي مجرد تغطية لكونكم تستعيضون عن ذوي المكانة الاشتراكيين (ماركس ، انجلس ، لافارغ ، مهرينغ ، كاوتسكي) بذوي مكانة برجوازيين (ماخ ، بتسولدت ، افيناريوس ، الكمونيين) ، فالافضل لكم ان لا تثيروا مسألة «المكانة» و«ذوي المكانة» !

* يوسف ديتزغن . «المعرفة والحقيقة» ، شتوتغارت ، عام ١٩٠٨ .
الناشر .

** «الازمنة الحديثة» ، عام ١٩٠٨ ، العدد ٣٨ ، ١٩ حزيران (يونيو) ، مقالة هجائية ، ص ٤٣٢ . الناشر .

الفصل الخامس

الثورة الحديثة في علم الطبيعيات ، والمثالية الفلسفية

منذ سنة ، نشرت مجلة «Die Neue Zeit» مقالة يوسف دينه-دينس : «الماركسية والثورة الحديثة في علم الطبيعيات» (١٩٠٦-١٩٠٧ ، العدد ٥٢) . ان نقص هذه المقالة هو تجاهل الاستنتاجات العرفانية التي تُستخلص من الفيزياء «الجديدة» والتي تهمننا خصوصاً في الوقت الحاضر . ولكن هذا النقص بالذات هو الذي يجعل وجهة نظر المؤلف المذكور واستنتاجاته طريفة بخاصة بالنسبة لنا . فان يوسف دينه-دينس يتبنى ، مثل كاتب هذه الاسطر ، وجهة نظر ذلك «الماركسي العادي» نفسه الذي يتحدث عنه اصحابنا الماخيون بمثل هذا الازدراء الجليل . مثلاً ، يكتب السيد يوشكيفيتش : «ان الماركسي المتوسط ، العادي يسمي نفسه عادة بالمادي الدياليكتيكي» (الصفحة الاولى من كتابه) . وهذا الماركسي العادي بالذات في شخص يوسف دينه-دينس قارن الاكتشافات الحديثة في علم الطبيعيات ولا سيما في الفيزياء (اشعة اكس ، اشعة بكيريل ، الراديوم (٧٠) ، والنخ) مباشرة مع مؤلف انجلس «ضد دوهرينغ» . فالى اي استنتاج ساقته هذه المقارنة ؟ كتب يوسف دينه-دينس يقول : «في شتى ميادين العلوم الطبيعية تم اكتساب معارف جديدة ، وجميعها تنحصر في نقطة اراد انجلس ان يضعها في المرتبة الاولى ، اي بالضبط في الفكرة القائلة انه «لا توجد» في الطبيعة «اية متضادات مستعصية ، اية خطوط فاصلة وفوارق مثبتة عنوة» ، وانه اذا كانت تصادف في الطبيعة متضادات وفوارق ، فان جمودها وطابعها المطلق انما نحن وحدنا نحملها الى

الطبيعة». وقد اكتشفوا ، مثلاً ، ان النور والكهرباء ليسا سوى مظهري القوة الواحدة نفسها من قوى الطبيعة (٧١) . ويوماً بعد يوم يصبح من المحتمل اكثر من ذي قبل ان الالفة الكيماوية تنحصر في عمليات كهربائية . والعناصر الكيماوية غير القابلة للتفكيك والانشطار التي يتزايد عددها باستمرار كأنما ازدراء بوحدة العالم تغدو قابلة للتفكيك والانشطار . وقد امكن تحويل عنصر الراديوم الى عنصر الهيليوم (٧٢) . «وكما تنحصر جميع قوى الطبيعة في قوة واحدة ، كذلك تؤول جميع مواد الطبيعة الى مادة واحدة» (حرف التأكيد ليوسف دينه-دينس) . وبعد ان يورد المؤلف رأي احد الكتاب الذين يعتبرون الذرة مجرد متكشف من الاثير ، يهتف قائلاً : «باي بهاء يتأكد قول انجلس ان الحركة هي شكل وجود المادة» . «ان جميع ظاهرات الطبيعة هي حركة ، والفرق بينها ينحصر في كوننا نحن الناس ندرك هذه الحركة في اشكال مختلفة . . . ان الحقيقة هي بالضبط كما قال انجلس . فان الطبيعة ، مثلها مثل التاريخ ، تخضع لقانون الحركة الديالكتيكي» .

ومن ناحية اخرى ، لا يسع المرء ان يأخذ في يده مطبوعات الماخية او المطبوعات عن الماخية ولا تقع عينه فيها على استشهادات متحذقة بالفيزياء الجديدة التي دحضت المادية ، كما يزعم ، وما الى ذلك من الترهات . اما ان هذه الاستشهادات معللة ، فان هذه مسألة اخرى ؛ ولكن الصلة بين الفيزياء الجديدة ، او بالاصح بين مدرسة معينة في الفيزياء الجديدة وبين الماخية وسائر انواع الفلسفة المثالية المعاصرة ، لا تترك مجالاً لاي شك . وان تحليل الماخية مع تجاهل هذه الصلة ، - كما يفعل بليخانوف (٧٣) ، - إنما يعني التهكم على روح المادية الديالكتيكية ، اي التضحينة بطريقة انجلس ارضاء لهذا الحرف او ذاك عند انجلس . فان انجلس يقول صراحة انه «عند كل اكتشاف يشكل عهداً حتى في ميدان تاريخ الطبيعة» (ناهيك عن تاريخ البشرية) «ينبغي حتماً على المادية ان تغير شكلها» . («لودفيغ فورباخ» ، ص ١٩ من الطبعة الالمانية) (٧٤) . ومن هنا ينجم ان اعادة النظر في «شكل» مادية انجلس

اعادة النظر في موضوعات فلسفته عن الطبيعة ، لا تنطوي على اي شيء «تعريفي» بمعنى الكلمة الشائع ، وليس هذا وحسب ، بل بالعكس تقتضيها الماركسية بالضرورة . ونحن لا نلوم البتة الماخيين على اعادة النظر هذه ، بل نلومهم على اسلوبهم التعريفي الصرف ، ومفاده خيانة كنهه المادية تحت ستار نقد شكلها ، واقتباس الموضوعات الاساسية في الفلسفة البرجوازية الرجعية بدون اية محاولة لحساب الحساب بنحو صريح وسافر وقاطع لتأكيدات لانجلس من المؤكد انها بالغة الشأن في المسألة المعنية ، ومنها ، مثلاً ، تأكيد القائل : «... الحركة غير ممكنة بدون المادة» («ضد دوهرينغ» ، ص ٥٠) (٧٥) .

وغني عن البيان اننا ، اذ نحلل مسألة الصلة بين مدرسة من مدارس الفيزيائيين الحديثين وانبعث المثالية الفلسفية ، لأبعد هن فكرة تناول التعاليم الفيزيائية المختصة . فان الاستنتاجات العرفانية من بعض الموضوعات المحددة والاكتشافات المعروفة للجميع هي وحدها التي تهمننا . وهذه الاستنتاجات العرفانية تتبادر الى الذهن من تلقاء ذاتها على درجة من القوة والتواتر بحيث ان كثيرين من الفيزيائيين شرعوا يتناولونها منذ حين . وفضلاً عن ذلك ، توجد الآن بين الفيزيائيين اتجاهات مختلفة ، وتتكون مدارس معينة على هذا الاساس . ولهذا تقتصر مهمتنا على ان نعرض بجلاء كنه الخلافات بين هذه الاتجاهات ، وموقف هذه الاتجاهات من الخطين الاساسيين في الفلسفة .

١ - أزمة الفيزياء المعاصرة

يقول الفيزيائي الفرنسي الشهير هنري بوانكاريه في كتابه عن «قيمة العلم» ان هناك «علائم أزمة جدية» في الفيزياء ، ويكرس فصلاً خاصاً لهذه الأزمة . (الفصل الثامن ، قارن ص ١٧١) . ان هذه الأزمة لا تقتصر على كون «الثوري العظيم - الراديوم» يقوض مبدأ بقاء الطاقة . «كذلك تتعرض للخطر جميع المبادئ الاخرى»

(ص ١٨٠) . مثلاً . يظهر ان مبدأ لافوازيه ، او مبدأ بقاء الكتلة ، قد قوضته النظرية الالكترونيية بشأن المادة . فبموجب هذه النظرية ، تتشكل الذرات من دقائق متناهية الصغر ذات شحنة سالبة او موجبة ، ومسماة بالالكترونات و«موضوعة في بيئة نسميها الاثير» . ان تجارب الفيزيائيين تعطي مادة لأجل حساب سرعة حركة الالكترونات وكتلتها (او علاقة كتلتها بشحنتها الكهربية) . ويظهر ان سرعة هذه الحركة قابلة للمقارنة مع سرعة النور (٣٠٠٠٠٠٠ كيلومتر في الثانية) ، اذ انها تبلغ ، مثلاً ، قرابة ثلث سرعة النور . وفي هذه الاحوال ، لا بد من ان تؤخذ بالحسبان كتلة الالكترون المزدوجة تجاوباً مع ضرورة التغلب على الجمود ، اولاً ، للالكترون نفسه ، وثانياً ، للاثير . ان الكتلة الاولى هي كتلة الالكترون الفعلية او الميكانيكية ، والثانية هي «الكتلة الكهردينامية التي تمثل جمود الاثير» . الا انه يظهر ان الكتلة الاولى توازي الصفر . ويظهر ان كل كتلة الالكترونات ، او على الاقل ، كتلة الالكترونات السالبة هي من حيث اصلها ، كهردينامية كلياً وعلى وجه الحصر . وتزول الكتلة . وتتقوض اساس الميكانيك . ويتقوض مبدأ نيوتن وتتقوض المساواة بين الفعل ورد الفعل ، والنخ . (٧٦) .

ويقول بوانكاره : امامنا «انقاص» المبادئ القديمة للفيزياء «انهزام المبادئ العام» . ولكنه يتحفظ قائلاً : صحيح ان جميع الاستثناءات المشار اليها عن المبادئ تتعلق بمقادير متناهية الصغر ، - ومن الممكن اننا لا نعرف بعد مقادير اخرى متناهية الصغر تقاوم تقويض القوانين القديمة ، - والراديوم نادر جداً فضلاً عن ذلك ، ولكن «مرحلة الشكوك» تواجهنا على كل حال . ولقد سبق وراينا استنتاجات المؤلف العرفانية من «مرحلة الشكوك» هذه : «ليست الطبيعة هي التي تعطينا (او تفرض علينا) مفهوم المكان والزمان ، بل نحن الذين نعطيها للطبيعة» ؛ «ان كل ما ليس فكراً هو لاشيء مطبق» . هذه استنتاجات مثالية . ان تحطيم المبادئ الاساسية يثبت (وذلك هو مجرى تفكير بوانكاره) ان هذه المبادئ

ليست نسخاً او صوراً ما عن الطبيعة ، ليست انعكاسات لشيء ما خارجي حيال وعي الانسان ، بل نتاجات لهذا الوعي . ان بوانكاره لا يطور هذه الاستنتاجات بانسجام ، ولا يهتم بالجانب الفلسفي من المسألة اهتماماً جوهرياً نوعاً . وان هذا الجانب يتناوله باكثر ما يكون من التفصيل الكاتب الفرنسي في المسائل الفلسفية آبل ري في كتابه «نظرية الفيزياء عند الفيزيائيين المعاصرين» (Abel Rey: «La théorie de la physique chez les physiciens contemporains»،

Paris, F. Alcan, 1907) صحيح ان المؤلف نفسه وضعي ، اي مشوش ونصف ماخي ، ولكن هذا يوفر في هذه الحالة حتماً بعض التسهيلات ، لأنه لا يمكن الظن بان ري يرغب في «الافتراء» على معبود اصحابنا الماخيين . لا تمكن الثقة بري حين يدور الحديث حول التعريف الفلسفي الدقيق للمفاهيم وحول المادية على الخصوص ، لأن ري هو ايضاً بروفيسور ، وهو ، بهذه الصفة ، مليء بازدياء لا حد له للماديين (ويتميز بجهل لا حد له فيما يتعلق بعلم العرفان المادي) . ولا داعي الى القول ان ماركس او الجلس او من هم من طرازهما غير موجودين البتة بالنسبة لمثل هؤلاء من «فحول العلم» . ولكن ري يوجز بدقة وبحسن ذمة على العموم ، المطبوعات الخارقة الغنى المتعلقة بالمسألة ، واپس المطبوعات الفرنسية وحسب ، بل الانجليزية والالمانية ايضاً (اوستفالد وماخ على الخصوص) ، ولذا نستشهد احياناً كثيرة بعمله .

يقول المؤلف : ان انتباه الفلاسفة على العموم ، وكذلك اولئك الذين يريدون ، لهذه الدوافع او تلك ، ان ينتقدوا العلم على العموم ، يتجه الآن نحو الفيزياء على الخصوص . «في معرض مناقشة حدود المعارف الفيزيائية وقيمتها ، ينتقدون من حيث الجوهر طرعية العلم الايجابي ، وامكانية معرفة الموضوع» (ص ١-٢) . ومن «ازمة الفيزياء المعاصرة» يستعجلون في استخلاص الاستنتاجات المشككة (ص ١٤) . فقيم يتلخص جوهر هذه الازمة ؟ في غضون القرنين الاولين من القرن التاسع عشر ، كان الفيزيائيون متفقين

فيما بينهم في كل ما هو جوهرى . «كانوا يؤمنون بالتفسير الميكانيكي الصرف للطبيعة ؛ وكانوا يعتقدون ان الفيزياء ليست سوى ميكانيك اشد تعقداً ، انها بالضبط ميكانيك جزيئية . ولم يختلفوا الا فيما يتعلق باساليب حصر الفيزياء في الميكانيك ، اي بتفاصيل النزعة الميكانيكية» . «وفي الوقت الحاضر ، يبدو المشهد الذي تقدمه لنا العلوم الفيزيائية الكيماوية معاكساً تماماً . وحلت اشد الخلافات محل الاجماع السابق ، علماً بان الخلافات لا تخص التفاصيل ، بل الافكار الاساسية والموجهة . ولئن كان من المبالغة القول ان لكل عالم ميوله الخاصة ، فمن الضروري مع ذلك ان نلاحظ ان للعلم ، ولا سيما للفيزياء ، مثله مثل الفن ، مدارس كثيرة تختلف استنتاجاتها في معظم الاحيان ، بل تتعاضد صراحة احياناً ...

ومن هنا يمكن ان نرى مبلغ اهمية وسعة ما اُسمى بازمة الفيزياء المعاصرة .

ان الفيزياء التقليدية كانت تعتقد قبل النصف الثاني من القرن التاسع عشر انه يكفي مجرد مواصلة الفيزياء حتى يتم الحصول على ميتافيزياء المادة . ولقد اضفت هذه الفيزياء على نظرياتها مغزى انطولوجياً * . وهذه النظريات كانت ميكانيكية كلياً . وعليه كانت الميكانيكية التقليدية» (ويستعمل ري هذه الكلمة بمعنى خاص ، بمعنى نظام من نظرات تحصر الفيزياء في الميكانيك) «تمثل بالتالي ، ما فوق نتائج التجربة ، ما وراء حدود نتائج التجربة المعرفة الفعلية للعالم المادي . ولم يكن ذلك تعبيراً فرضياً عن التجربة ، بل كان عقيدة» (ص ١٦) ...

هنا من المناسب ان نقطع حبل كلام «الوضعي» المحترم فواضح انه يرسم لنا الفلسفة المادية للفيزياء التقليدية ، غير راغب في ان يسمى الشيطان (اي المادية) باسمه . فلا بد ان تبدو المادية للهيومي ميتافيزياء ، عقيدة ، خروجاً عن حدود التجربة

* الانطولوجيا - ontologie - علم الوجود . المعرب .

والخ . . . فان الهيومني ري ، فضلاً عن انه لا يعرف المادية ، يبدي جهلاً مطبقاً بصدد الديالكتيك ، بصدد الفرق بين المادية الديالكتيكية والمادية الميتافيزيقية بالمعنى الذي اضفاه انجلس على هذه الكلمة . ولهذا ، مثلاً ، كانت العلاقة بين الحقيقة المطلقة والحقيقة النسبية غير واضحة اطلاقاً لري .

« . . . ان الملاحظات الانتقادية التي وردت ضد الميكانيكية التقليدية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر قد قوضت هذه المقدمة للواقعية الانطولوجية للميكانيكية . وعلى هذا الانتقاد ترسخت النظرة الفلسفية الى الفيزياء ؛ وقد غدت هذه النظرة تقليدية تقريباً في الفلسفة في اواخر القرن التاسع عشر . فالعلم ، حسب هذه النظرة ، لا يعدو ان يكون صيغة رمزية ، اساليب للاشارة (للاعتلام ، repérage ، لوضع العلائم والاشارات والرموز) ؛ وبما ان اساليب الاشارة هذه تختلف باختلاف المدارس ، فسرعان ما ظهر استنتاج يقول انه لا يشار في هذه الحالة الا الى ما تم صنعه (façonné) من قبل الانسان لأجل الاعتلام (لأجل التمييز برمز) . وقد غدا العلم انتاجاً للفن من اجل هواة الفن ، انتاجاً للفن من اجل المنفعيين ؛ ووجهتا النظر هاتان شرعوا بالطبع يفسرونهما في كل مكان بانهما تعنيان انكار امكانية العلم . فان العلم بوصفه وسيلة فنية خالصة للتأثير في الطبيعة ، بوصفه تكنيكاً منفعياً عادياً ، لا يحق له ان يتسمى بالعلم اذا لم نشوه معنى الكلمات . ان القول بان العلم لا يستطيع ان يكون غير هذه الوسيلة الفنية للتأثير انما يعني انكار العلم بمعنى الكلمة الحقيقي .

ان افلاس النزعة الميكانيكية التقليدية او بالاصح ذلك النقد الذي تعرضت له قد ادى الى الموضوعة التالية : لقد منى العلم هو ايضاً بالافلاس . فمن استحالة اتباع النزعة الميكانيكية التقليدية ببساطة وعلى وجه الحصر ، خلصوا الى القول باستحالة العلم» (ص ١٦-١٧) .

ويطرح المؤلف السؤال التالي : «الازمة المعاصرة في الفيزياء ،

أهي حادثة مؤقتة وخارجية في تطور العلم ام ان العلم يستدير فجأة الى الوراء ويفارق نهائياً ذلك السبيل الذي سار فيه ؟ . . .»
 «... ولئن كانت العلوم الفيزيائية الكيماوية التي ظلت في سياق التاريخ ، من حيث جوهر الامر ، نصيرة الانعتاق ، تمنى بكارثة في هذه الازمة التي لا تترك لها سوى قيمة وصفات نافعة تكتيكياً ، ولكن التي تفرغها من كل شأن من حيث معرفة الطبيعة ، فينبغي ان ينجم من هنا انقلاب تام سواء في منطق الافكار ام في تاريخ الافكار . ان الفيزياء تفقد كل قيمة تربوية ؛ وتمسي روح العلم الايجابي التي تمثلها كاذبة وخطرة» . ان العلم يستطيع ان يعطي وصفات عملية فقط ، ولا يستطيع ان يعطي معرفة فعلية . «يجب البحث عن معرفة الواقعي بوسائل اخرى . . . يجب السير في سبيل آخر ، يجب ان يعاد الى الحدس الذاتي ، الى الشعور الصوفي بالواقع ، وبكلمة ، الى الملغز ، ما كان من المظنون ان العلم قد انتزعه منها» (ص ١٩) .

ان المؤلف ، بوصفه وضعياً ، يعتبر ان هذه النظرة غير صحيحة وان ازمة الفيزياء مؤقتة . اما باي نحو يظهر ري ماخ وبوانكاره وشركاهما من هذه الاستنتاجات ، فسئرى هذا فيما بعد .
 والآن نكتفي بملاحظة واقع «الازمة» وشأنها . فمن اقوال ري الاخيرة التي اوردناها ، يتضح لنا اية عناصر رجعية استغلت هذه الازمة وزادتها شدة وتفاقماً . ان ري يقول صراحة في مقدمة كتابه ان «الحركة الايمانية واللاعقلية في السنوات الاخيرة من القرن التاسع عشر» تسعى الى «الاعتماد على الروح العام للفيزياء المعاصرة» (ص II) . وفي فرنسا يسمون بالايمانيين (بالفيديين - من الكلمة اللاتينية fides ومعناها الايمان) اولئك الذين يضعون الايمان فوق العقل . ويسمى المذهب الذي ينكر حقوق العقل او ادعاءاته بالمذهب اللاعقلي . ومن هنا ينجم ان جوهر «الازمة المعاصرة في الفيزياء» يتلخص في كون الفيزياء القديمة رأت في نظرياتها «معرفة فعلية للعالم المادي» ، اي انعكاساً للواقع الموضوعي . اما التيار الجديد في الفيزياء ، فانه لا يرى في النظرية سوى رموز وعلامات واشارات

لأجل النشاط العملي ، اي انه ينكر وجود الواقع الموضوعي ، المستقل عن وعينا والذي يعكسه وعينا . ولو ان ري استعمل تعابير فلسفية صحيحة ، لكان عليه ان يقول : ان نظرية العرفان المادية ، التي كانت الفيزياء السابقة تتقبلها بصورة عفوية ، قد حلت محلها النظرية المثالية واللاعرفانية ، الامر الذي استغلته الايمانية رغم انث المثاليين واللاعرفانيين .

ولكن هذا التبدل الذي يشكل الازمة لا يتصوره ري بصورة يبدو معها كأن جميع الفيزيائيين الجدد يقفون ضد جميع الفيزيائيين القدماء . كلا . فهو يبيّن ان الفيزيائيين المعاصرين ينقسمون حسب ميولهم العرفانية الى ثلاث مدارس - المدرسة الطاقية او المفاهيمية (conceptuelle من كلمة concept - الفكرة العامة او المفهوم الخالص) ، والمدرسة الميكانيكية او الميكانيكية الجديدة التي لا تزال تتمسك بها اغلبية الفيزيائيين الساحقة ؛ والمدرسة الانتقادية القائمة بين الاولى والثانية . والى الاولى ينتسب ماخ ودرهيم ؛ والى الثالثة هنري بوانكاريه ؛ والى الثانية كيرخهوف وهلمهولتز وتومسون (اللورد كلفين) ، ومكسويل من الفيزيائيين القدماء ، ولارمور ولورنتس من الفيزيائيين الحديثين . اما ما هو كنه الخطين الاساسيين الاثنيين (لان الثالث ليس مستقلاً ، بل متوسطاً) ، فيتبين من اقوال ري التالية :

«ان النزعة الميكانيكية التقليدية قد بنت نظام العالم المادي» . وقد انطلقت في المذهب عن بنية المادة من «عناصر متجانسة ومتماثلة نوعياً» ، علماً بانه كان يجب اعتبار العناصر عناصر «لا تتغير ولا تُخترق» ، والنخ . ان الفيزياء «بنت صرحاً فعلياً من مواد فعلية واسمنت فعلي . وكانت في متناول الفيزيائي العناصر المادية ، واسباب واسلوب فعلها ، وقوانين فعلها الفعلية» (ص ٣٣-٣٨) . «ان تغيرات هذه النظرة الى الفيزياء تتجسد على الاغلب في نبذ القيمة الانطولوجية للنظريات وفي التأكيد بشكل خارق على الاهمية الظاهرية للفيزياء» . «ان النظرة المفاهيمية تتناول «التجريدات الخالصة» و«تفتش عن نظرية تجريدية خالصة تستبعد ،

قدر الامكان ، فرضية المادة» . «ان مفهوم الطاقة يصبح اساساً تحتانياً (substructure) للفيزياء الجديدة . ولهذا يمكن تسمية الفيزياء المفاهيمية ، اساساً ، بالفيزياء الطاقية» ، رغم ان هذه التسمية لا تصح ، مثلاً ، على ممثل للفيزياء المفاهيمية مثل ماخ (ص ٤٦) .

ويقينا ان هذا الخلط بين مذهب الطاقة والماخية عند ري هو غير صحيح بعض الشيء ، مثله مثل التأكيد ان المدرسة الميكانيكية الجديدة تنتقل هي ايضاً الى النظرة الظاهرية الى الفيزياء (ص ٤٨) رغم كل خلافها مع انصار المفاهيمية . ان مصطلحات ري «الجديدة» لا توضح القضية ، بل تعميها ، ولكنه لم يكن بوسعنا ان نتحاشاها ، وذلك لكي نعطي القارىء فكرة عن نظرة «الوضعي» الى ازمة الفيزياء . وان معارضة النظرة القديمة بالمدرسة «الجديدة» تتطابق كلياً ، من حيث جوهر المسألة ، كما امكن ان يقتنع القارىء ، مع ما سبق وعرضناه من انتقاد لهلمهولتز من قبل كلينبيرتر . واذ يعرض ري نظرات مختلف الفيزيائيين ، يعكس في عرضه كل غموض وتقلقل نظراتهم الفلسفية . ان كنه ازمة الفيزياء المعاصرة يكمن في تحطيم القوانين القديمة والمبادئ الاساسية القديمة ، في نبذ الواقع الموضوعي القائم خارج الوعي ، اي في الاستعاضة عن المادية بالمثالية واللاعرفانية . «المادة زالت» - هكذا يمكن الاعراب عن الصعوبة الاساسية والنموذجية فيما يتعلق بكثير من المسائل الجزئية ، والتي خلقت هذه الازمة . وهذه الصعوبة نتناولها الآن .

٢ - «المادة زالت»

نصادف عند الفيزيائيين المعاصرين تعبيراً كهذا حرفياً لدن وصف الاكتشافات الحديثة . فان ل . هولفيغ ، مثلاً ، قد عنون في كتابه «تطور العلوم» فصلاً عن النظريات الجديدة بشأن المادة : «هل توجد المادة؟» . وفي هذا الفصل يقول : «الذرة تفقد ماديتها ،

المادة تزول» * . ولكي نرى كيف يستخلص الماخيون من هنا بسهولة استنتاجات فلسفية جذرية ، لناخذ فالنتينوف مثلاً . فقد كتب يقول : «ان القول بان التفسير العلمي للعالم يحصل على تعليل راسخ «في المادية فقط» ، ليس اكثر من اختلاق ، زد على ذلك انه اختلاق سخيف» (ص ٦٧) . وبصفة مدمر لهذا الاختلاق السخيف يستشهد فالنتينوف بالفيزيائي الايطالي المعروف اوغست ريغي الذي يقول ان النظرية الالكترونية «هي نظرية الكهرباء اقل مما هي نظرية المادة ؛ فان النظام الجديد يُحل الكهرباء محل المادة وحسب» (Augusto Righi. «Die moderne Theorie der physikalischen Erscheinungen», Lpz., 1905, S. 131** . توجد ترجمة روسية) .

ويورد فالنتينوف هذه الكلمات (ص ٦٤) ، ويهتف قائلاً :

«لماذا يسمح اوغست ريغي لنفسه بتوجيه هذه الالهانة الى المادة المقدسة ؟ لربما لأنه سوليبيسي ، مثالي ، انتقادي برجوازي ، احادي تجريبي او شخص حتى شر من ذلك ؟» .

ان هذه الملاحظة التي تبدو للسيد فالنتينوف سماً قاتلاً ضد الماديين تبين كل سذاجته البتولية في مسألة المادية الفلسفية . فان السيد فالنتينوف لم يفهم البتة فيما تتجسد الصلة الفعلية بين المثالية الفلسفية و«زوال المادة» . والحال ان «زوال المادة» الذي يتحدث عنه في اثر الفيزيائيين المعاصرين لا يمت باي صلة الى التمييز العرفاني بين المادية والمثالية . ولتوضيح هذا ، لناخذ واحداً من اكثر الماخيين انسجماً ووضوحاً ، هو كارل

L. Houllevigue. «L'évolution des sciences», Paris (A. Collin), *

«Les idées des physiciens sur : مقالته 1908, pp. 63, 87, 88.

«طور العلوم» ، باريس (١ . كولين) ، ١٩٠٨ ، ص ٦٣ ، ٨٧ ، ٨٨ .

«طور العلوم» ، باريس (١ . كولين) ، ١٩٠٨ ، ص ٦٣ ، ٨٧ ، ٨٨ .
قارن مقالته «افكار الفيزيائيين حول المادة» في «الحولية النفسانية» ، ١٩٠٨ . الناشر) .

** اوغست ريغي . «النظرية المعاصرة للظواهر الفيزيائية» .

لهبريغ ، عام ١٩٠٥ ، ص ١٣١ . الناشر .

بيرسون . فان العالم المادي هو بنظره مجموعات من المدركات الحسية . وهو يرسم «موديلنا الادراكي للعالم الفيزيائي» بالمخطط البياني التالي ، متحفظاً بانه لم يتقيد في رسم هذا المخطط بالنسبة بين المقاييس («The Grammar of Science», p. 282) :



الجسم

الدقيقة
(V=)الجزئية
(I=)الذرة
الكيماويةالذرة
الاولىوحدات
الاثير

ولكي يبسط كارل بيرسون مخططه البياني ، ينبذ كلياً مسألة العلاقة بين الاثير والكهرباء ، او بين الالكترونات الموجبة والسالبة . ولكن هذا ليس مهماً . فالمهم هو ان وجهة نظر بيرسون المثالية تعتبر «الاجسام» مدركات حسية ؛ ثم بعد ذلك يتعلق تركيب هذه الاجسام من الدقائق ، والدقائق من الجزيئات ، والنخ . ، بالتغيرات في موديل العالم الفيزيائي ، وليس البتة بمسألة ما اذا كانت الاجسام رموز الاحساسات ام الاحساسات صور الاجسام . ان المادية والمثالية تختلفان من حيث هذا الحل او ذاك لمسألة مصدر معرفتنا ، لمسألة علاقة المعرفة («النفسي» على العموم) بالعالم الفيزيائي ، في حين ان مسألة بنيان المادة ، مسألة الذرات والالكترونات ، هي مسألة تتعلق بهذا «العالم الفيزيائي» وحده . وحين يقول الفيزيائيون : «المادة تزول» ، فانهم يريدون ان يقولوا بذلك ان علم الطبيعيات حصر حتى الآن جميع بحوثه للعالم الفيزيائي في المفاهيم الاخيرة الثلاثة : المادة ، الكهرباء ، الاثير ؛ اما الآن ، فيبقى الاخيران فقط ، لانه يمكن

حصر المادة في الكهرباء * ، ويمكن تفسير الذرة على انها ضرب من نظام شمسي صغير الى ما لا حد له (٧٨) تتحرك في داخله الالكترونات السالبة بسرعة معينة (وهائلة الى ما لا قياس له ، كما رأينا) حول الاكترون الموجب (٧٩) . وعوضاً عن عشرات العناصر ، يمكن ، بالتالي ، حصر العالم الفيزيائي في عنصرين او ثلاثة (لأن الالكترونين الموجب والسالب يشكلان «مادتين مختلفتين اختلافاً جوهرياً» ، كما يقول الفيزيائي بيلا - Rey, l.c., p. 294-295 * *) وبالتالي يؤدي علم الطبيعيات الى «وحدة المادة» (المجع نفسه) * * * - ذلك هو المضمون الفعلي لتلك الجملة عن زوال المادة ، عن حلول الكهرباء محل المادة ، والنخ . ، التي تحير الكثيرين والكثيرين . «المادة تزول» - ان هذا يعني انه يزول ذلك الحد الذي كنا نعرف المادة اليه حتى الآن ، وان معرفتنا تمضي الى اعماق ؛ كذلك تزول خواص المادة التي كانت تبدو من قبل مطلقة ، ثابتة ، اولية (اللانفاذية ، الجمود ، الكتلة (٨١) وخلافها) والتي تتكشف الآن بوصفها نسبية ملازمة لبعض حالات المادة فقط . لأن «الخاصة» الوحيدة للمادة التي ترتبط

* راجع كذلك هذا الكتاب ، ص ٣٦٤-٣٦٥ ، الملاحظة . الناشر .

** ري . في المقطع المقتبس . ص ٢٩٤-٢٩٥ . الناشر .

*** قارن Oliver Lodge. «Sur les électrons», Paris, 1906, p. 159

اوليفر لودج . «عن الالكترونات» . باريس ، ١٩٠٦ . ص ١٥٩ .
الناشر) ؛ «ان النظرية الكهربائية عن المادة» ، الاعتراف بالكهرباء «الجوهر الاساسي» ، انما هو «الفهم النظري القريب لما سعى الفلاسفة دائماً اليه

اي لوحدية المادة» . قارن كذلك Augusto Righi. «Über die Struktur der Materie», Lpz., 1908; J. J. Thomson. «The Corpuscular Theory of Matter», Lond., 1907; P. Langevin. «La physique des électrons»

«Revue générale des sciences» (٨٠) , 1905, pp. 257-276

اوغست ريغي «بنيان المادة» . ليزيغ ، ١٩٠٨ ، ج . ج . تومسون . «النظرية المسيمية عن المادة» ، لندن ، ١٩٠٧ . ب . لانجيفن . «فيزياء الالكترونات» في «المجلة العامة للعلوم» ، ١٩٠٥ ، ص ٢٥٧-٢٧٦ .
الناشر) .

المادية الفلسفية بالاعتراف بها انما هي خاصة ان تكون واقعية موضوعية ، ان توجد خارج وعينا .

ان خطأ الماخية على العموم والفيزياء الجديدة الماخية يتلخص في تجاهل اساس المادية الفلسفية هذا وفي تجاهل الفرق بين المادية الميتافيزيائية والمادية الديالكتيكية . فان الاعتراف بعناصر ما ثابتة لا تتغير ، «بجوهر الاشياء الذي لا يتغير» ، وما الى ذلك ، ليس المادية ، بل هو مادية ميتافيزيائية اي منافية للديالكتيك . ولقد اشار يوسف ديتزغن الى ان «موضوع العلم لامتناه» ، وان ما لا يقاس ، ما لا تمكن معرفته الى النهاية ، ما لا يمكن استنفاده ، ليس اللامتناهي فقط ، بل ايضاً «اصغر ذرة» ، لأن «الطبيعة في كل اجزائها لا بداية لها ولا نهاية» («Kleinere philosophische Schriften», S. 229-230) . ولهذا ساق انجلس مثاله عن اكتشاف الاليزارين في قطران الفحم الحجري ، وانتقد المادية الميكانيكية . ولطرح المسألة من وجهة النظر الصحيحة الوحيدة اي من وجهة نظر المادية الديالكتيكية ، يجب ان نسأل : أتوجد الالكترونات والاثير وما الى ذلك خارج الوعي البشري بوصفها واقعية موضوعية ، ام لا ؟ عن هذا السؤال سيتعين على علماء الطبيعيات ان يجيبوا وهم يجيبون دوماً بدون تردد : اجل ، كما يعترفون بلا تردد بوجود الطبيعة قبل الانسان وقبل المادة العضوية . وبذلك تحلّ المسألة في صالح المادية ، لأن مفهوم المادة ، كما سبق وقلنا ، لا يعني من الناحية العرفانية اي شيء غير الواقعية الموضوعية ، الموجودة بصورة مستقلة عن الوعي الانساني والتي يعكسها هذا الوعي .

ولكن المادية الديالكتيكية تلح على الطابع التقريبي ، النسبي لكل موضوع علمية عن بنيان المادة وخواصها ، على انعدام الحدود المطلقة في الطبيعة ، على تحول المادة المتحركة من حالة الى اخرى ، متنافية معها ، على الارجح ، من وجهة نظرنا ، والنخ . ومهما كان تحول الاثير العديم الوزن الى مادة ذات وزن ، والعكس بالعكس ، * «مؤلفات فلسفية صغيرة» ، ص ٢٢٩-٢٣٠ . الناشر .

عجيباً من وجهة نظر «العقل السليم» ، ومهما كان انعدام اية كتلة عند الالكترون عدا الكتلة الكهرمغناطيسية «غريباً» ، ومهما كان اقتصار القوانين الميكانيكية للحركة على ميدان ظاهرات الطبيعة وحدها ، وخضوع هذه القوانين لقوانين اعمق هي قوانين الظاهرات الكهرمغناطيسية ، والنخ . ، غير عادي ، - فان كل هذا هو مجرد تأكيد آخر على صحة المادية الديالكتيكية . فان الفيزياء الجديدة قد انخرقت الى المثالية ، وذلك بصورة رئيسية للسبب التالي على وجه الدقة ، وهو ان الفيزيائيين لم يكونوا يعرفون الديالكتيك . لقد ناضلوا ضد المادية الميتافيزيقائية (بمعنى هذه الكلمة الانجليزي وليس بمعناها الوضعي ، اي الهيومني) ، ضد «ميكانيكيتها» الوحيدة الجانب ، - وفي هذه الحال قذفوا بالطفل مع الماء من الحمام . وبما انهم انكروا ثبات العناصر وخواص المادة المعروفة حتى الآن ، فقد انزلوا الى انكار المادة اي الى انكار واقعية العالم الفيزيائي الموضوعية . وبما انهم انكروا الطابع المطلق للقوانين الاساسية والاهم ، فقد انزلوا الى انكار كل سنة موضوعية في الطبيعة ، الى اعلان قانون الطبيعة اصطلاحاً صرفاً ، «تحديداً للتوقع» ، «ضرورة منطقية» ، وما الى ذلك . وبما انهم اصرروا على طابع معارفنا التلريبي ، النسبي ، فقد انزلوا الى انكار الموضوع المستقل عن المعرفة ، والذي تعكسه هذه المعرفة بصورة صادقة تقريباً ، بصورة صحيحة نسبياً ، وهكذا دواليك ، وهلم جراً الى ما لا نهاية . ان محاكمات بوغدانوف في عام ١٨٩٩ بشأن «كنه الاشياء الذي لا يتغير» ، ومحاكمات فالنتينوف ويوشكيفيتش حول «الجوهر» والنخ . ، كل هذه هي ايضاً نتائج لجهل الديالكتيك . فان ما لا يظهر ، من وجهة نظر انجلس ، هو امر واحد فقط ، هو عكس الوهم البشري (حين يكون الوعي البشري موجوداً) للعالم الخارجي الموجود المتطور بصورة مستقلة عن الوعي البشري . ولا وجود لمطر ماركس وانجلس لاي «ثابتية» اخرى ، او لاي «كنه آخر» ، او لاي «جوهر مطلق» آخر بالمعنى الذي رسمت به الفلسفة الاستاذية الفارغة هذه المفاهيم . فان «كنه» الاشياء او «الجوهر»

هما ايضاً نسيبان ؛ وهما يعربان فقط عن تعميق المعرفة البشرية للمواضيع ؛ ولئن كان هذا التعميق لم يمض امس الى ابعد من الذرة ، واليوم الى ابعد من الالكترون والاثير ، فان المادية الديالكتيكية تلح على الطابع الموقت ، النسبي ، التقريبي لجميع هذه المراحل من معرفة الطبيعة من قبل العلم المتطور المتقدم لدى الانسان . ان الالكترون لا ينضب مثله مثل الذرة ، والطبيعة لامتناهية ، ولكنها توجد الى ما لا نهاية ؛ وان هذا الاعتراف القاطع الوحيد ، والمطلق الوحيد بوجودها خارج وعي الانسان واحساسه هو الذي يميز المادية الديالكتيكية عن الاعرفانية النسبية وعن المثالية .

لنضرب مثالين يبينان كيف تتأرجح الفيزياء الجديدة بلا وعي وبصورة عفوية بين المادية الديالكتيكية التي لا تزال مجهولة بالنسبة للعلماء البرجوازيين وبين «الظاهرية» مع استنتاجاتها الذاتية (والايمانية على المكشوف فيما بعد) المحتممة .

ان اوغست ريغي ذاته الذي لم يعرف السيد فالنتينوف كيف يسأله بصدد المسألة التي تهمة ، مسألة المادية ، يكتب في مقدمة كتابه : «اما ماهية الالكترونات او الذرات الكهربائية بالضبط ، فان هذا لا يزال سراً حتى الوقت الحاضر ؛ ولكن رغم هذا ، لربما كتب للنظرية الجديدة ان تكتسب مع مر الزمن اهمية فلسفية لا يستهان بها ، لأنها تتوصل الى مقدمات جديدة تماماً فيما يتعلق ببيان المادة الموزونة ، وتسعى الى حصر جميع ظاهرات العالم الخارجي في اصل مشترك واحد .

«ان هذه الافضلية هي ، اغلب الظن ، غير هامة من وجهة نظر ميول زمننا الوضعية والنفعية ، ومن الممكن اعتبار النظرية قبل كل شيء وسيلة لترتيب ومقارنة الوقائع بصورة مناسبة ، ومن الممكن ان تكون مرشداً لدن البحث عن الظاهرات اللاحقة . ولكن لئن كانوا في الازمنة السابقة يبالغون ، حسبما يبدو ، في الايمان بكفاءات الروح البشرية وفي الظن بسهولة وضع اليد على

الاسباب الاخيرة لجمع الاشياء ، ففي زمننا يتواجد الميل الى التورط في الخطأ المعاكس» (l.c., S. 3) .

لماذا يتحاشى ريفي هنا الميول الوضعية والنفعية ؟ لأنه ، وهو الذي لا يتبنى ، على ما يبدو ، اي وجهة نظر فلسفية معينة ، يتمسك عفويًا بواقعية العالم الخارجي وبالاعتراف بالنظرية الجديدة ، لا بوصفها «مناسبة» وحسب (بوانكاره) ، لا بوصفها «رمزاً تجريبياً» وحسب (يوشكيفيتش) ، لا بوصفها «تنسيقاً للتجربة» وحسب (بوغدانوف) ، وما الى ذلك مما يطلقونه هناك على مثل هذه الشعورات الذاتية ، بل ايضاً بوصفها خطوة لاحقة الى معرفة الواقع الموضوعي . ولو ان هذا الفيزيائي اطلع على المادية الديالكتيكية ، فلربما غدا حكمه بشأن الخطأ المعاكس لخطأ المادية الميتافيزيائية القديمة نقطة انطلاق لفلسفة صحيحة . ولكن كل الجو الذي يعيش فيه هؤلاء الناس يستبعدهم عن ماركس وانجلس ، ويدفعهم الى احضان الفلسفة الرسمية المبتذلة .

كذلك ري لا يلم البتة بالديالكتيكية . ولكنه اضطر هو ايضاً الى ان يلاحظ انه يوجد بين الفلاسفة الحديثين مواصلون لتقاليد النزعة «الميكانيكية» (اي المادية) . وهو يقول ان طريق النزعة «الميكانيكية» لا يسلكه كيرخهوف ، وهرتس ، وبولتسمان ، ومكسويل ، وهلمهولتز ، واللورد كلفين وحسب . «فان اولئك الذين يصوغون ، اثر لورنس ولارمور ، النظرية الكهربائية عن المادة ويخلصون الى انكار دوام الكتلة معتبرينها وظيفة للحركة هم انصار خالصون للنزعة الميكانيكية ، بل هم ، من وجهة نظر معينة ، اشد تمسكاً بها من اي كان ممن يمثلون آخر كلمة (l'aboutissant) للنزعة الميكانيكية . فانهم جميعهم انصار للنزعة الميكانيكية لأنهم يأخذون الحركات الفعلية نقطة الانطلاق» (حرف التشديد لري . ص ٢٩٠-٢٩١) .

«... لو ان الفرضيات الجديدة التي تقدم بها لورنتس ولارمور ولانجيفن (Langevin) تأكدت صحتها بالتجربة واكتسبت قاعدة متينة كافية لأجل تنسيق الفيزياء ، لكان مما لا شك فيه ان

قوانين الميكانيك المعاصر تتوقف على قوانين المغناطيسية الكهربائية ؛ ولكانت قوانين الميكانيك حالة خاصة ولكانت محصورة ضمن حدود معينة بدقة ؛ ولكان دوام الكتلة ، مبدأنا الخاص بالجمود احتفظا بمفعولهما بالنسبة للسرعات المتوسطة للاجسام فقط ، مع فهم تعبير «المتوسط» مطبقاً على احساساتنا وعلى الظاهرات التي تشكل تجربتنا العادية ؛ ولأصبح من الضروري اعادة بناء الميكانيك عموماً وبالتالي اعادة بناء الفيزياء عموماً بوصفها نظاماً .

فهل يعني هذا عدولاً عن الميكانيكية ؟ كلا ابدأ . فان التقليد الميكانيكي الخالص يستمر في هذه الحال ، وتسير الميكانيكية في الطريق العادي لتطورها» (ص ٢٩٥) .

«ان الفيزياء الالكترونية التي يجب ان ننسبها الى عداد النظريات الميكانيكية من حيث روحها العامة تسعى الى اضافة ترتيبها المنهاجي على الفيزياء بأسرها . ان فيزياء الالكترونيات هذه ، - مع ان مبادئها الاساسية لا تؤخذ من الميكانيك بل تؤخذ من المعطيات الاختبارية لنظرية الكهرباء ، - تتوافق مع الروح الميكانيكية ، لأنها : ١ - تستعمل عناصر شكلية (figurés) ، مادية ، لكي تعرض الخواص الفيزيائية وقوانينها ؛ وهي تنعكس في تعابير الادراك . ٢ - اذا كانت لا تعتبر الظاهرات الفيزيائية حالات خاصة من الظاهرات الميكانيكية ، فانها تعتبر الظاهرات الميكانيكية حالة خاصة من الظاهرات الفيزيائية . وبالتالي تبقى قوانين الميكانيك على صلة مباشرة بقوانين الفيزياء ؛ وتبقى مفاهيم الميكانيك مفاهيم من نفس طراز المفاهيم الفيزيائية الكيماوية . وقد كانت هذه المفاهيم في الميكانيكية التقليدية منسوخة (calqués) عن حركات بطيئة نسبياً اعتبرت . . . نماذج لجميع الحركات الممكنة لأنها كانت وحدها فقط معروفة وفي منال المراقبة المباشرة . الا ان التجارب الجديدة بينت انه من الضروري توسيع تصورنا عن الحركات الممكنة . ويبقى الميكانيك التقليدي كله في عصمة ، ولكن لا يغدو من الممكن تطبيقه الا على الحركات البطيئة نسبياً . . . اما فيما يتعلق

بالسرعات الكبيرة ، فان قوانين الحركة تختلف . ان المادة تحصر في دقائق كهربائية ، في آخر عناصر الذرة ... ٣ - تبقى الحركة ، التنقل في المكان ، العنصر الشكلي (figuré) الوحيد في النظرية الفيزيائية . ٤ - أخيراً - وهذا الاعتبار هو ارفع من جميع الاعتبارات الاخرى من وجهة نظر روح الفيزياء العام - تبقى النظرة الى الفيزياء ، والى طريققتها والى نظرياتها والى علاقتها بالتجربة ، مماثلة تماماً لنظرات الميكانيكية ، لنظرية الفيزياء ، ابتداء من عهد النهضة» (ص ٤٦-٤٧) .

لقد اوردت هذه المقطعات الطويلة بنصها الكامل من ري ، لأنه كان من المستحيل ان اعرض مزاعمه بنحو آخر نظراً لحرصه الدائم على تجنب «الميتافيزياء المادية» . ولكن مهما تنصل ري والفيزيائيون الذين يتحدث عنهم من المادية ، يبق مع ذلك مما لا ريب فيه ان الميكانيكية كانت منسوخة عن حركات فعلية بطيئة ، في حين ان الفيزياء الجديدة منسوخة عن حركات فعلية هائلة السرعة . ففي الاعتراف بالنظرية صورة ، نسخة تقريبية عن الواقع الموضوعي ، - في هذا بالضبط تتلخص المادية . وحين يقول ري انه يوجد بين الفيزيائيين الجدد «رد فعل ضد المدرسة المفاهيمية (الماخية) والطاقية» ، وحين ينسب الى عداد ممثلي رد الفعل هذا فيزيائي النظرية الالكترونية (ص ٤٦) ، فانه لا يسعنا ان نتمنى برهاناً افضل على ان الصراع يدور ، من حيث جوهر الامر ، بين الميول المادية والميول المثالية . ولكنه ينبغي ان لا يغيب عن البال ان الجهل المطبق للديالكتيك يؤثر في ابرز النظريين ، علاوة على الخرافات العامة ضد المادية لدى جميع التافهين الضيقى الافق المتعلمين .

٣ - هل تمكن الحركة بدون المادة ؟

ان ما يستتبع استعمال الفيزياء الجديدة من قبل المثالية الفلسفية ، او يستتبع الاستنتاجات المثالية من الفيزياء الجديدة ليس اكتشاف انواع جديدة من الشيء والقوة ، من المادة والحركة ،

بل القيام بمحاولة لتصوير الحركة بدون المادة . وهذه المحاولة بالذات لا يتبصر بها اصحابنا الماخيون بالفعل . وهم لم يرغبوا في ان يأخذوا بالحسبان قول انجلس ان «الحركة مستعجلة بدون المادة» . ان يوسف ديتزغن اعرب حتى في عام ١٨٦٩ في مؤلفه «جوهر عمل الرأس» عن نفس الفكرة التي اعرب عنها انجلس ، - ولكن ، والحق يقال ، ليس دون محاولاته المملخبطة العادية «للتوفيق» بين المادية والمثالية . لندع جانباً هذه المحاولات التي تعزى بدرجة كبيرة الى ان ديتزغن يتناظر مع المادية البوخنرية ، الغريبة عن الديالكتيك ، ولننظر الى بيانات ديتزغن ذاتها في المسألة التي تهمننا . يقول ديتزغن : «يريد المثاليون العام بدون الخاص ، الروح بدون المادة ، القوة بدون الشيء ، العلم بدون التجربة او بدون المادة ، المطلق بدون النسبي» (*Das Wesen der menschlichen Kopfarbeit, 1903, S. 108).

وهكذا يقرن ديتزغن بالمثالية السعي الى فصل الحركة عن المادة ، القوة عن الشيء ، ويضعه الى جانب السعي الى فصل الفكر عن الدماغ . ويستطرد ديتزغن قائلاً : «ان ليبينغ الذي يطيب له ان يقوم بتراجعات عن علمه الاستقرائي صوب التأمل الفلسفي يتكلم بمعنى المثالية : لا يمكن رؤية القوة» (ص ١٠٩) . «ان الروحاني او المثالي يؤمن في جوهر القوة الروحي اي الخيالي ، غير الممكن تفسيره» (ص ١١٠) . «ان التضاد بين القوة والشيء قديم مثل قدم التضاد بين المثالية والمادية» (ص ١١١) . «بديهي انه لا وجود للقوة بدون الشيء ، ولا وجود للشيء بدون القوة . ان الشيء بدون القوة ، والقوة بدون الشيء انما هو امر سخيف ، غير معقول . واذا كان علماء الطبيعيات المثاليون يؤمنون بوجود القوى غير المادي ، فانهم في هذه النقطة ليسوا علماء طبيعيات ، بل .. روحانيون» (ص ١١٤) .

ومن هنا نرى انه توجد ايضاً منذ اربعين سنة علماء طبيعيات

* «جوهر عمل رأس الانسان» ، عام ١٩٠٣ ، ص ١٠٨ . الناشر .

مستعدون للتسليم بإمكان تصور الحركة بدون المادة ، وان ديتزغن اعتبرهم «في هذه النقطة» روحانيين . فما هي صلة المثالية الفلسفية بفصل المادة عن الحركة ، باستبعاد الشيء عن القوة ؟ وليس «اكثر اقتصاداً» ، بالفعل ، تصور الحركة بدون المادة ؟

لنتصور مثالياً منسجماً يتبنى ، مثلاً ، وجهة النظر القائلة ان العالم كله هو احساسه او تصوره ، والنخ . (اذا اخذنا احساساً او تصوراً «لا يخص احداً» ، فمن جراء ذلك يتغير مجرد نوع المثالية الفلسفية ، ولكن جوهرها لن يتغير) . ان هذا المثالي لن ينكر ابدأ ان العالم هو حركة ، اي بالضبط : حركة افكاره وتصوراته واحساساته . اما مسألة معرفة ما يتحرك ، فان المثالي ينبذها ويعتبرها سخيفة ويقول : تتعاقب احساساتي ، وتزول وتظهر التصورات ، وهذا كل ما في الأمر . ولا شيء خارجاً عني . «يتحرك» - وكفى . ولا يمكن تصور تفكير اكثر «اقتصاداً» . ولا يمكن دحض السوليبسي باية براهين وقياسات وتعريفات اذا كان يطبق نظرتة بانسجام .

ان الفرق الاساسي بين المادي ونصير الفلسفة المثالية يتجسد في اعتبار احساس الانسان ، ادراكه ، تصوره ، ووعيه على العموم صورة عن الواقع الموضوعي . فان العالم هو حركة هذا الواقع الموضوعي الذي يعكسه وعينا . وحركة التصورات ، والمدركات ، والنخ . ، تناسبها حركة المادة خارجاً عني . ان مفهوم المادة لا يعبر عن شيء عدا الواقع الموضوعي المعطى لنا في الاحساس . ولهذا يعني فصل الحركة عن المادة فصل التفكير عن الواقع الموضوعي ، فصل احساساتي عن العالم الخارجي ، اي الانتقال الى جانب المثالية . ان تلك الشعوذة التي يقومون بها عادة فيما يتعلق بانكار المادة ، بالتسليم بالحركة بدون المادة تتلخص في الصمت عن علاقة المادة بالفكر . ويصورون الامر كأن هذه العلاقة لم توجد ، في حين انها تمرر بالفعل سرا ، وتبقى غير ماثلة في بداية المحاكمة ، ولكنها تظهر فيما بعد بصورة غير ملحوظة الى هذا الحد او ذاك .

يقولون لنا : المادة زالت ، راغبين في استخلاص استنتاجات عرفانية من هنا . ولكن هل بقي الفكر ؟ - نسأل نحن . اذا كان كلا ، اذا زال الفكر ايضاً مع زوال المادة ، وزالت التصورات والاحساسات مع زوال الدماغ والجهاز العصبي ، فاذا كان يعني ان كل شيء زال ، بما في ذلك محاكماتكم بوصفها تجسيداً «للفكر» على كل حال (او للغباوة !). واذا كان نعم ، اذا كان يُفترض ان الفكر (التصور ، الاحساس ، والسخ .) لا يزول في حال زوال المادة ، فان هذا يعني انكم انتقلتم سراً الى وجهة نظر المثالية الفلسفية . وهذا بالذات ما يحدث دائماً لأولئك الذين يرغبون ، من باب «الاقتصاد» ، في تصور الحركة بدون المادة ، لأنهم يعترفون ضمناً ، لمجرد كونهم يواصلون محاكمتهم ، بوجود الفكر بعد زوال المادة . والحال ان هذا يعني ان المثالية الفلسفية البسيطة جداً او المعقدة جداً تؤخذ اساساً : البسيطة جداً ، اذا حُصر الامر على المكشوف في السوليبسيسم (انا موجود ، والعالم كله ليس غير احساسى انا) ؛ المعقدة جداً ، اذا أخذ التجريد الميت عوضاً عن فكر الانسان الحي وتصوره واحساسه : الفكر لا يخص احداً ، التصور لا يخص احداً ، الاحساس لا يخص احداً ، الفكر على العموم (الفكرة المطلقة ، الارادة الكلية ، وما الى ذلك) ، الاحساس بوصفه «عنصراً» غير معين ، «نفسياً» ، موضوعاً تحت الطبيعة الفيزيائية كلها ، وهكذا دواليك وهلم جراً . وبين انواع المثالية الفلسفية ، من الممكن في هذه الحال قيام آلاف التلاوين ومن الممكن دائماً صنع التلوين الواحد بعد الالف ؛ ومن الممكن ان يبدو لصاحب مثل هذا النظام الواحد بعد الالف (مثلاً ، نظام الاحادية التجريبية) الفرق بين نظامه والانظمة الباقية هاماً . اما من وجهة نظر المادية ، فان هذه الفوارق ليست ذات شأن اطلاقاً . فالمهم هو نقطة الانطلاق . المهم هو ان محاولة تصور الحركة بدون المادة تمرر الفكر المفصول عن المادة ، وهذه هي المثالية الفلسفية بالضبط .

ولهذا ، مثلاً ، نرى الماخي الانجليزي كارل بيرسون - وهو الماخي الاشد وضوحاً وانسجماً وعداء للمراوغات في الكلام - يبدأ

على المكشوف الفصل السابع من كتابه ، المخصص «للمادة» ،
 بفقرة تحمل العنوان المميز التالي : «جميع الأشياء تتحرك ، ولكن
 في التصور الذهني فقط» («All things move-but only in
 conception» . «فيما يتعلق بميدان المدركات ، لا جدوى من
 السؤال («it is idle to ask» عما يتحرك ولماذا يتحرك»
 * «The Grammar of Science» ، p. 243 .

ولهذا بدأت مصائب بوغدانوف الفلسفية ايضاً قبل اطلاعه
 على ماخ ، وبدأ ذلك منذ ان آمن في الكيماوي الكبير والفيلسوف
 الصغير اوستفالد الذي زعم انه يمكن تصور الحركة بدون المادة .
 ويجدر التوقف عند هذا الواقع الغارق في القدم من تطور بوغدانوف
 الفلسفي خصوصاً وانه يستحيل تحاشي «مذهب الطاقة» عند
 اوستفالد ، في معرض الكلام عن صلة المثالية الفلسفية ببعض
 التيارات في الفيزياء الجديدة .

كتب بوغدانوف في عام ١٨٩٩ يقول : «لقد سبق وقلنا ان
 القرن التاسع عشر لم يفلح في البت بمسألة «جوهر الاشياء الذي
 لا يتغير» . ان هذا الجوهر يضطلع بدور بارز حتى في عقائد اكثر
 مفكري القرن تقدماً تحت اسم «المادة» . . .» («العناصر الاساسية
 للنظرة التاريخية الى الطبيعة» ، ص ٣٨) .

لقد قلنا ان هذا تخبيص . فان الاعتراف بواقعية العالم
 الخارجي الموضوعية ، الاعتراف بوجود مادة خارج ادراكنا متحركة
 منذ الازل والى الابد ومتغيرة منذ الازل والى الابد يختلط هنا مع
 الاعتراف بجوهر الاشياء الذي لا يتغير . فلا يمكن الظن بان
 بوغدانوف لم ينسب ماركس وانجلس في عام ١٨٩٩ الى عداد
 «المفكرين المتقدمين» . ولكنه من الواضح انه لم يفهم المادية
 الديالكتيكية .

«... لا يزالون يميزون عادة في عمليات الطبيعة جانبين :
 المادة وحركتها . فلا يمكن القول ان مفهوم المادة يتميز بوضوح
 كبير . وعن السؤال عن ماهية المادة ، ليس من السهل اعطاء جواب

مرض . يعترفون المادة على انها «سبب الاحساسات» او على انها «الامكانية الدائمة للاحاساسات» ؛ ولكنه من الجلي ان المادة مخلوطة هنا مع الحركة» .

واضح ان بوغدانوف يحاكم بصورة غير صحيحة . فهو لا يكتفي بخلط الاعتراف المادي بالمصدر الموضوعي للاحاساسات (المصاغ بدون وضوح في كلمتي سبب الاحساسات) مع تعريف ميل اللاعرفاني للمادة بوصفها **امكانية** دائمة للاحاساسات . ان الخطأ الاساسي هنا ، هو ان المؤلف ، مع اقترابه عن كتب من مسألة وجود او عدم وجود المصدر الموضوعي للاحاساسات ، يترك هذه المسألة في منتصف الطريق ويقفز الى مسألة اخرى ، الى مسألة وجود او عدم وجود المادة بدون الحركة . بوسع المثالي ان يعتبر العالم حركة احساساتنا (ولو على الاقل احساساتنا «المنظمة اجتماعياً» و«المنسقة» الى اقصى حد) ، في حين ان المادي يعتبر العالم حركة مصدر موضوعي ، موديل موضوعي لاحساساتنا . بوسع المادي الميتافيزيائي اي المناهض للديالكتيك ان يسلم بوجود المادة (وان مؤقتاً ، قبل «الدفعة الاولى» ، وما الى ذلك) بدون الحركة . اما المادي الديالكتيكي ، فانه لا يعتبر الحركة خاصة ملازمة للمادة لا تنفصل عنها وحسب ، بل يرفض كذلك النظرة المبسطة الى الحركة ، والنخ

«... لعل التعريف التالي قد يكون التعريف الادق : «ان المادة هي ما يتحرك» ؛ ولكن هذا لا معنى له كما لو قلنا : ان المادة هي مبتدأ خبره «يتحرك» . ولكن المسألة تتلخص ، اغلب الظن ، في كون الناس قد اعتادوا في عهد علم الاستاتيكا ان يروا في دور المبتدأ من كل بّد امرأ ما موزوناً ، «شيئاً» ما ، في حين انهم لم يوافقوا على ان يصبروا على هذا الشيء غير الملائم للتفكير الاستاتيكي ، اي «الحركة» ، الا باعتباره خبراً ، احدى صفات المادة .

ان هذا يشبه اتهام اكيهوف للايسكريين بان برنامجهم يخلو من كلمة البروليتاريا في حالة الرفع ! (٨٢) . فان المسألة لا تتغير

سواء قلت ان العالم هو مادة متحركة ام قلت ان العالم حركة مادية .

«... ولكن لا بد ان يكون للطاقة حامل!» هكذا يقول انصار المادة . «ولماذا؟» - يسأل اوستفالد بصورة معقولة . «فهل الطبيعة ملزمة بان تتألف من مبتدأ وخبر؟» . (ص ٣٩) .

ان جواب اوستفالد ، الذي اعجب كثيراً بوغدانوف في عام ١٨٩٩ هو مجرد سفسطائية . فقد كان من الممكن الرد على اوستفالد بما يلي : وهل آراؤنا ملزمة بان تتألف من الكترونات واثير؟ وبالفعل ، ان استبعاد المادة من «الطبيعة» بالفكر ، بوصف المادة «مبتدأ» ، انما يعنى التسليم ضمناً بادخال الفكر بوصفه «مبتدأ» (اي بوصفه شيئاً ما اولياً ، منطقياً ، مستقلاً عن المادة) في الفلسفة . ان ما يستبعد ، ليس المبتدأ ، بل المصدر الموضوعي للاحساس ، ويصبح الاحساس هو «المبتدأ» اي ان الفلسفة تصبح بركلية ، مهما غيروا فيما بعد حلل كلمة «الاحساس» . ولقد حاول اوستفالد ان يتهرب من هذه العنادية الفلسفية التي لا مناص منها (المادية ام المثالية) عن طريق استعمال كلمة «الطاقة» بشكل غير واضح ، ولكن محاولته بالذات هي التي تبين مرة اخرى بطلان هذه الاحتمالات . فاذا كانت الطاقة حركة ، فقد اقتصرتم على نقل الصعوبة من المبتدأ الى الخبر ، واقتصرتم على تحوير السؤال : هل المادة تتحرك؟ الى سؤال : هل الطاقة مادية؟ أيجري تحول الطاقة خارج وعيي ، بصورة مستقلة عن الانسان والانسانية ، ام ان هذا مجرد افكار ، رموز ، علامات اصطلاحية ، وما الى ذلك؟ وعلى هذا السؤال بالذات كسرت الفلسفة «الطاقية» رقبتها ، اي هذه المحاولة لطمس الاخطاء العرفانية القديمة بتعابير «جديدة» .

اليكم امثلة تبين كيف تورط الطاقوي اوستفالد في الضلالة . فهو يقول في مقدمة كتابه «محاضرات في فلسفة الطبيعة» * انه يعتبر

• Wilhelm Ostwald. «Vorlesungen über Naturphilosophie», 2.

Aufl., Leipz., 1902, S. VIII (ولهم اوستفالد . «محاضرات في فلسفة الطبيعة» ، الطبعة الثانية ، ليبزيغ ، عام ١٩٠٢ ، ص VIII . الناشر) .

«مكسباً هائلاً» اذا ازيلت الصعوبة القديمة - كيف الجمع بين مفهومي المادة والروح - بصورة بسيطة وطبيعية بحصر هذين المفهومين في مفهوم «الطاقة». هذا ليس مكسباً ، بل خسارة ، لأن مسألة توجيه اجراء البحث العرفاني (واوستفالد لا يدرك بوضوح انه يطرح مسألة عرفانية على وجه الضبط وليس مسألة كيماوية!) في الاتجاه المادي ام في الاتجاه المثالي لا يحلها بل يخبصها استعمال كلمة «الطاقة» اعتباطاً . يقيناً اننا اذا «حصرنا» المادة والروح معاً في هذا المفهوم ، فان القضاء الكلامي على التضاد سيكون امراً لا ريب فيه ، ولكن سخافة التعليم عن العفاريت والجن لا تزول اذا سميناها «بمذهب الطاقة» . وفي الصفحة ٣٩٤ من «محاضرات» اوستفالد ، نقرأ : «اما انه يمكن تصوير جميع الظاهرات الخارجية بصورة عمليات بين الطاقات ، فانه يمكن تفسير هذا الامر باسسط نحو يكون عمليات وعينا على وجه الدقة هي نفسها طاقية وبكونها تنقل (aufprägen) خاصتها هذه الى جميع التجارب الخارجية» . هذه مثالية خالصة : لانه ينجم من هنا ان فكرنا ليس هو الذي يعكس تحول الطاقة في العالم الخارجي ، بل العالم الخارجي هو الذي يعكس «خاصة» وعينا ! ويقول الفيلسوف الاميركي هيبن ببالح الصواب ، مشيراً الى هذا المقطع وغيره من المقاطع المماثلة في محاضرات اوستفالد ، ان اوستفالد «يظهر هنا في لباس الكانطية» : فان قابلية تفسير ظاهرات العالم الخارجي تستخلص من خواص عقلنا ! * ويقول هيبن : «من الجلي اننا اذا عرفنا مفهوم الطاقة الاولي بحيث انه يشمل كذلك الظواهر النفسية ، فان هذا لن يكون ذلك المفهوم البسيط عن الطاقة الذي يلقي الاعتراف في الاوساط العلمية او حتى من قبل الطاقين انفسهم» . ان العلوم الطبيعية تعتبر تحول الطاقة عملية موضوعية مستقلة عن وعي الانسان وعن تجربة

J. Gr. Hibben. «The Theory of Energetics and Its Philosophical Bearings», «The Monist», vol. XIII, N° 3, 1903, April, pp. 329-330
 (ج . غر . هيبن . «نظرية الطاقة ودلالاتها الفلسفية» . «الاحادي» . المجلد ١٣ ، العدد ٣ ، عام ١٩٠٣ ، نيسان - ابريل ، ص ٣٢٩ - ٣٣٠ . الناشر) .

الانسانية ، اي انها تنظر اليه نظرة مادية . وعند اوستفالد نفسه نجد في طائفة من الاحوال ، وحتى على الأرجح في الاغلبية الساحقة من الاحوال ، انه يُقصد بالطاقة الحركة **المادية** . ولهذا بالذات ظهرت هذه الظاهرة الفريدة ، وهي ان تلميذ اوستفالد ، بوغدانوف ، بعد ان غدا تلميذ ماخ ، اخذ يلوم اوستفالد ، لا على انه لا يتمسك بنظرة مادية منسجمة الى الطاقة ، بل على انه يجيز (وحتى يضع في الاساس احياناً) النظرة المادية الى الطاقة . ان الماديين ينتقدون اوستفالد لأنه يسقط في حماسة المثالية ، لأنه يحاول ان يوفق بين المادية والمثالية . اما بوغدانوف فانه ينتقد اوستفالد من وجهة النظر **المثالية** . فقد كتب بوغدانوف في عام ١٩٠٦ يقول : «... ان مذهب الطاقة عند اوستفالد ، المعادي لنظرية الذرة ، ولكن القريب جداً في كل الباقي من المادية ، قد حظي باحر عواطفني . ولكن سرعان ما لاحظت تناقضاً هاماً في فلسفة الطبيعة عنده : فمع تأكيد مراراً عديدة على دلالة مفهوم الطاقة على **صعيد منهج البحث الخالص** ، لا يتقيد بها هو نفسه في كثير جداً من الاحوال . فان الطاقة تتحول عنده مراراً من رمز خالص للعلاقة بين وقائع التجربة الى **جوهر التجربة** ، الى مادة العالم ...» («الاحادية التجريبية» . الكتاب الثالث ، ص XVI—XVII) .

الطاقة - رمز خالص ! بعد هذا ، يمكن لبوغدانوف ان يجادل قدر ما يطيب له ضد «الرمزي التجريبي» يوشكيفيتش ، ضد «الماخيين الخالصين» ، النقاد التجريبيين ، والخ . ، فمن وجهة نظر الماديين سيكون هذا جدالاً بين انسان يؤمن في الشيطان الاصفر ، وانسان يؤمن في الشيطان الاخضر . لأن المهم ليس ما يفرق بوغدانوف عن سائر الماخيين ، بل ما يجمع بينه وبينهم ، وهو التفسير **المثالي** «للتجربة» و«الطاقة» ، وانكار الواقع الموضوعي الذي تتجسد تجربة الانسان في التكيف له ، والذي يتلخص «منهج البحث» العلمي الوحيد و«مذهب الطاقة» العلمي الوحيد في استنساخه .

«ان مادة العالم هي بالنسبة له (لمذهب الطاقة عند اوستفالد) امر لا يُعبأ به ، اذ تلائمه تماماً سواء المادية القديمة ام مذهب النفسية الشامل» (ص XVII) . . . - اي المثالية الفلسفية ؟ وقد انطلق بوغدانوف من مذهب الطاقة المشوش ، لا في الدرب المادي ، بل في الدرب المثالي . . . «حين يصورون الطاقة بصورة الجوهر ، فان هذا لا يعدو ان يكون المادية القديمة ناقص الذرات المطلقة ، - المادية مع تعديل بمعنى ديمومة الوجود» (المرجع نفسه) . اجل ، لقد انطلق بوغدانوف من المادية «القديمة» اي من المادية الميتافيزيائية عند علماء الطبيعيات ، لا الى المادية **الديالكتيكية** التي ظل لا يفهمها في عام ١٩٠٦ كما لم يفهمها في عام ١٨٩٩ ، بل الى المثالية والى الايمانية ، لأنه ما من ممثل متعلم للايمانية المعاصرة ، ما من كموني ، ما من «انتقادي جديد» والنخ . ، يعترض على المفهوم «المنهجي» للطاقة ، وعلى تفسير الطاقة بوصفها «زماً خالصاً للعلاقة بين وقائع التجربة» . خذوا ب . كاروس الذي سبق وتعرفنا اعلاه كفاية على سحنته ، تروا ان هذا الماخي ينتقد اوستفالد **بالطريقة البوغدانوفية تماماً** ؛ فقد كتب كاروس يقول : «المادية ومذهب الطاقة يعودان بالتأكيد الى المصنف ذاته» («The Monist», vol. XVII, 1907, N. 4, p. 536) . «ان المادية تنيرنا قليلاً جداً عندما تقول لنا ان كل شيء مادة ، ان الاجسام هي مادة ، وان الفكر هو وظيفة المادة فقط ؛ ومذهب الطاقة عند البروفسور اوستفالد ليس البتة افضل ما دام يقول لنا ان المادة هي طاقة وان الروح هي عامل الطاقة فقط» (ص ٥٣٣) .

ان مذهب الطاقة عند اوستفالد هو مثال جيد يبين باي سرعة تصبح التعابير «الجديدة» تعابير على الموضة ، وباي سرعة يظهر ان اسلوباً معدلاً نوعاً للتعبير لا يزيل البتة المسائل الفلسفية الاساسية والاتجاهات الفلسفية الاساسية . ومن الممكن الاعراب عن المادية والمثالية (بقدر متفاوت من الانسجام ، بالطبع) بتعابير «مذهب الطاقة» كما بتعابير «التجربة» وما الى ذلك . ان الفيزياء

الطاقية هي مصدر محاولات مثالية جديدة لتصوير الحركة بدون المادة ، وذلك بسبب انشطار دقائق من المادة كانت تعتبر حتى الآن غير قابلة للانشطار ، واكتشاف اشكال للحركة المادية كانت غير معروفة حتى الآن .

٤ - اتجاهان في الفيزياء المعاصرة والمذهب الروحاني البريطاني

لكي نبين بصورة ملموسة ذلك الصراع الفلسفي الذي احتدم في الادب المعاصر بصدده هذه الاستنتاجات او تلك من الفيزياء الجديدة ، نترك الكلمة لمشاركون مباشرين في «المعركة» ، ونبدأ بالانجليز . ان الفيزيائي ارتور ريكير يدود عن اتجاه - من وجهة نظر عالم الطبيعيات ؛ والفيلسوف جيمس ورد يدود عن اتجاه آخر - من وجهة نظر علم العرفان .

ففي مؤتمر علماء الطبيعيات البريطانيين في غلاسغو المنعقد عام ١٩٠١ ، اختار رئيس الشعبة الفيزيائية ارتور ريكير ، موضوعاً لخطابه ، مسألة قيمة النظرية الفيزيائية ، ومسألة تلك الشكوك التي اصبحت وجود الذرات والاثير على الخصوص عرضة لها . وقد استشهد الخطيب بالفيزيائيين اللذين اثارا هذه المسألة ، وهما بوانكاريه وبوينتينغ (وهذا الاخير رفيق بريطاني بالفكر للرمزيين او الماخيين) ، وبالفيلسوف ورد ، وبالكاتب المعروف الذي كتبه ا . هيكل ، وحاول ان يقدم عرضاً لنظراته * .

قال ريكير : «ان المسألة المتنازع عليها تتلخص فيما يلي . تلك الفرضيات التي تقوم في اساس اوسع النظريات العلمية

* The British Association at Glasgow. 1901. Presidential Address

«The Scientific American. Supplement», by Prof. Arthur W. Rücker
1901, N° 1345, N° 1346 (الرابطة البريطانية في غلاسغو . عام ١٩٠١ .
خطاب الرئيس البروفسور ارتور ريكير . «العلم الاميركي . ملحق» ، عام ١٩٠١ ، العدد ١٣٤٥ والعدد ١٣٤٦ . الناشر) .

انتشاراً ، أوجب اعتبارها بمثابة اوصاف دقيقة لبنية العالم المحيط بنا ، ام فقط بمثابة اوهام ملائمة» (بتعابير جدالنا مع بوغدانوف ويوشكيفيتش وشركاهما : نسخة عن الواقع الموضوعي ، وعن المادة المتحركة ، ام مجرد «منهج للبحث» ، «رمز خالص» ، «اشكال لتنظيم التجربة» ؟) . ويوافق ريكر على انه قد ينعدم الفرق عملياً بين النظريتين : فان اتجاه النهر يمكن ، على الأرجح ، ان يحدده سواء ذاك الذي ينظر فقط الى الشريط الازرق على الخريطة او على الرسم البياني ، ام ذاك الذي يعرف ان هذا الشريط يصور النهر بالفعل . ان النظرية ستكون ، من وجهة نظر الوهم الملائم ، «تسهيلاً للذاكرة» ، «ترتيباً» لمراقباتنا ، تنسيقاً بينها وبين نظام اصطناعي معين ، و«ضبطاً لمعرفةنا» ، وتلخيصاً لها في معادلة ، والنح . . . يمكن ، مثلاً ، الاكتفاء بكون الحرارة شكلاً للحركة او للطاقة ، و«الاستعاضة بالتالي عن المشهد الحي للذرات المتحركة بتصريح عديم اللون (colourless) عن الطاقة الحرارية التي لا نحاول ان نحدد طبيعتها الفعلية» . الا ان ريكر ، مع اعترافه تماماً بإمكان النجاحات العلمية الكبيرة في هذا الطريق ، «يتجرأ على الزعم انه لا يجوز اعتبار مثل هذا النهج التكنيكي بمثابة آخر كلمة للعلم في النضال من اجل الحقيقة» . ان السؤال لا يزال مطروحاً : «هل يمكننا ان نستخلص من الظاهرات التي تظهرها المادة بنية المادة ذاتها» ؟ «هل تتوفر لنا الاسس للظن ان موجز النظرية الذي سبق واعطاه العلم هو الى درجة ما نسخة عن الحقيقة وليس مجرد رسم بياني عنها» ؟

ولتحليل مسألة بنية المادة ، يأخذ ريكر الهواء على سبيل المثال ويقول ان الهواء يتألف من غازات وان العلم يحل «اي غاز اولي الى خليط من الذرات والاثير» . وهنا بالذات ، - كما يستطرد قائلاً ، - يصيحون بنا : «قف !» تستحيل رؤية الجزيئات والذرات ؛ يمكن ان تكون صالحة بوصفها «مجرد مفاهيم» (mere conceptions) ، «ولكنه لا يمكن اعتبارها اشياء واقعية» . وينحي ريكر هذا الاعتراض بالاستشهاد بحالة من الحالات التي لا

عَد لها في تطور العلم : ان حلقات كوكب زحل تبدو في التلسكوب كتلة متكاملة . الا ان علماء الرياضيات برهنوا بالحساب ان هذا مستحيل ، واكد التحليل الطيفي صحة الاستنتاجات المستخلصة على اساس الحسابات . واليكم اعتراضاً آخر : ينسبون الى الذرات والاثير خواص لا تبينها لنا حواسنا في المادة العادية . وهذا الاعتراض ايضاً ينحيه ريكر بالاستشهاد بامثلة من نوع انتشار الغازات والسوائل ، والنخ . . وتثبت جملة من الوقائع والمراقبات والتجارب ان المادة تتألف من مختلف الدقائق ، او الحبوب . ان مسألة معرفة ما اذا كانت هذه الدقائق ، هذه الذرات تختلف عن «البيئة الاولية» ، عن «البيئة الاساسية» التي تحيط بها (الاثير) ، ام انها اجزاء من هذه البيئة موجودة في حالة خاصة ، لا تزال معلقة ، دون ان تمس نظرية وجود الذرات . وليس ثمة اساس للانكار القبلي ، خلافاً لمعطيات التجربة ، لوجود «الجواهر المادية الزائفة» المختلفة عن المادة العادية (الذرات والاثير) . ان الاخطاء في التفاصيل لا مناص منها هنا ، ولكن كل مجمل المعطيات العلمية لا يدع مجالاً للشك في وجود الذرات والجزيئات .

ثم يشير ريكر الى المعطيات الجديدة عن بنية الذرات من جسيمات (كريات ، الكترونات) سالبة الشحنة ، وينوه بتشابه نتائج مختلف التجارب والحسابات المتعلقة بحجم الجزيئات : ان «التقريب الاول» يعطي قطراً قدره زهاء ١٠٠ مليمكرون (جزء من مليون جزء من المليمتر) . واننا نتجاوز ملاحظات ريكر الجزئية وانتقاده للمذهب الحيوي الجديد (٨٣) ، ونورد استنتاجاته :

«ان اولئك الذين يقللون من شأن الافكار التي كانت توجه حتى الآن تقدم النظرية العلمية يظنون احياناً كثيرة جداً انه لا اختيار الا بين زعمين متناقضين : اما ان الذرة والاثير هما مجرد وهمين للخيال العلمي ، وإمّا ان النظرية الميكانيكية للذرات والاثير - هذه النظرية لا تزال الآن غير مكتملة ، ولكن لو امكن استكمالها - تعطينا تصوراً كاملاً ودقيقاً للغاية عن الوقائع . وبرأيي انه يوجد سبيل متوسط» . بوسع الانسان في غرفة مظلمة

ان يتبين الاشياء باقصى الغموض ، ولكنه اذا لم يصطدم بمفروشة من المفروشات واذا لم يمض الى المرآة كما الى الباب ، فان هذا يعني انه يرى شيئاً ما بنحو صحيح . ولهذا لا حاجة لنا الى التخلي عن المطالبة بالتغلغل الى اعماق من سطح الطبيعة ، ولا الى الادعاء باننا قد نزعنا جميع الاستار عن اسرار العالم المحيط بنا . «تمكن الموافقة على اننا لم نرسم بعد لانفسنا لوحة كاملة تماماً لا عن طبيعة الذرات ولا عن طبيعة الاثير الذي توجد فيه هذه الذرات ؛ ولكنني حاولت ان ابين ان نظرية الذرات ... صحيحة من حيث اساسها الرئيسية ، رغم الطابع التقريبي (tentative) ، حرفياً : التحسسي) لبعض نظرياتنا ، ورغم الكثير من المصاعب الجزئية ؛ وان الذرات ليست مفاهيم مساعدة (helps) لأجل الرياضيين (puzzled mathematicians) وحسب ، بل ايضاً وقائع فيزيائية» .

هكذا اختتم ريكز خطابيه . وان القارى يرى ان الخطيب لم يتناول مسائل علم العرفان ، ولكنه زاد من حيث جوهر الامر ، باسم جمهور علماء الطبيعيات ، بلا ريب ، عن وجهة النظر المادية العفوية . واليكم كنه موقفه : ان نظرية الفيزياء هي نسخة (ادق فادق) عن الواقع الموضوعي . والعالم هو مادة متحركة نعرفها بشكل اعماق فأعمق . ان عدم دقة فلسفة ريكز تنبع من الدفاع غير الالزامي عن النظرية «الميكانيكية» (ولم لا عن النظرية الكهرمغناطيسية ؟) لحركة الاثير ومن عدم فهم العلاقة بين الحقيقة النسبية والحقيقة المطلقة . ولا ينقص هذا الفيزيائي غير معرفة المادية الديالكتيكية (هذا اذا لم تأخذ بالحسبان ، طبعاً ، تلك الاعتبارات الحياتية البالغة الاهمية التي تجبر البروفسورات البريطانيين على تسمية انفسهم «بالاعرفانيين») .

لنر الآن كيف انتقد الروحاني جيمس ورد هذه الفلسفة . فقد كتب يقول : «... المذهب الطبيعي ليس علماً ؛ والنظرية الميكانيكية عن الطبيعة التي تشكل اساساً له ، ليست هي ايضاً علماً ... ولكن رغم ان المذهب الطبيعي والعلوم الطبيعية ،

النظرية الميكانيكية عن العالم والميكانيك كعلم ، هي من الناحية المنطقية اشياء مختلفة ، الا انها من النظرة الاولى مشابهة كثيراً بعضها لبعض ، و مترابطة بوثوق من الناحية التاريخية. وليس هناك خطر الخلط بين العلوم الطبيعية والفلسفة ذات الاتجاه المثالي او الروحاني ، لأن هذه الفلسفة تشمل بالضرورة نقد المقدمات العرفانية التي يصنعها العلم عن غير وعي...» * . صحيح ! فان العلوم الطبيعية تسلم عن غير وعي بان تعاليمها تعكس الواقع الموضوعي ، وهذه الفلسفة وحدها توافق العلوم الطبيعية ! «... ولكن الحال يختلف فيما يخص المذهب الطبيعي الذي هو ظاهر الذيل ، مثله مثل العلم نفسه ، فيما يتعلق بنظرية العرفان . فان المذهب الطبيعي ، مثله مثل المادية ، هو ، بالفعل ، مجرد الفيزياء المنظور اليها كما الى الميتافيزياء... لا ريب ان المذهب الطبيعي اقل تحجراً من المادية لأنه يبدي تحفظات لاعرفانية فيما يتعلق بطبيعة الواقع الاخير ؛ ولكنه يلح قطعاً على اولية الجانب المادي من هذا «المستحيل على المعرفة»...» .

ان المادي ينظر الى الفيزياء كما ينظر الى الميتافيزياء . حجة معروفة ! الاعتراف بالواقع الموضوعي خارج الانسان يُنعت بالميتافيزياء : الروحانيون يلتقون مع الكانطيين والهيوميين في توجيه مثل هذه الملامات الى المادية . وهذا مفهوم : بدون تنحية الواقعية الموضوعية للاشياء والاجسام والمواضيع المعروفة للجميع ولكل فرد ، لا يمكن تمهيد الطريق امام «المفاهيم الواقعية» بروح رمكها...»

«... حين تنشأ مسألة كيفية تصنيف التجربة اجمالاً على نحو افضل» (انتحال من بوغدانوف ، يا سيد ورد ا) «وهي مسألة فلسفية من حيث جوهرها ، يؤكد الطبيعي انه يتعين علينا ان نبدأ

* James Ward. «Naturalism and Agnosticism», vol. I, 1906 p.303

اجيمس ورد . «المذهب الطبيعي واللاادرية» . المجلد الاول ، عام ١٩٠٦ ، ص ٣٠٣ . الناشر .

من الجانب الفيزيائي . فان هذه الوقائع هي وحدها دقيقة ، محددة ، ومترابطة بشدة ؛ وكل فكرة تحرك نياط قلب الانسان . . . انما يمكن ، كما يقولون لنا ، حصرها في اعادة توزيع دقيقة تماماً للمادة والحركة . . . اما ان التأكيدات بمثل هذه الدلالة الفلسفية ومثل هذه السعة هي استنتاجات مشروعة من العلم الفيزيائي (اي من العلوم الطبيعية) ، فان الفيزيائيين المعاصرين لا يتجاسرون على المجاهرة بها صراحة . ولكن كثيرين منهم يعتبرون ان اولئك الذين يسعون الى فض الميتافيزياء السرية ، وفضح الواقعية الفيزيائية التي تركز عليها نظرية العالم الميكانيكية هم مقوضون لشأن العلم . . . » وهذا تلميح الى ان ريكز ايضاً نظر على النحو نفسه الى فلسفتي . . . » اما بالفعل ، فان انتقادي» (لهذه «الميتافيزياء» التي يكرها ايضاً جميع الماخيين) «يرتكز كلياً على استنتاجات مدرسة الفيزيائيين ، اذا امكن تسميتها كذلك ، التي تتنامى عدداً وتوسع نفوذها اكثر فاكثر ، والتي ترفض هذه الواقعية القروسطية تقريباً . . . ان هذه الواقعية ظلت زمناً طويلاً لا تلقى اي اعتراض الى حد ان الانتفاضة عليها يشبهونها بالمناداة بالفوضى العلمية . ولكنه من التهور حقاً الارتياب في اناس مثل كيرخهوف وبوانكاره - واكتفي بذكر اسمين ضخمين في عداد الكثير من الاسماء - بانهم يريدون «تقويض شأن العلم» . . . ولأجل فصلهم عن المدرسة القديمة التي يحق لنا ان نسمي اصحابها بالواقعيين الفيزيائيين ، بوسعنا ان نسمي اصحاب المدرسة الجديدة بالرمزيين الفيزيائيين . ان هذا التعبير غير موفق كفاية ، ولكنه يشير ، على الاقل ، الى فرق جوهرى بين المدرستين يهمننا نحن على الاخص في الظرف الراهن . ان المسألة المتنازع عليها بسيطة جداً . فان المدرستين تنطلقان ، بالطبع ، من التجربة الحسية (perceptual) نفسها ؛ والمدرستان تستعملان نظامين مجردين من المفاهيم يتميزان في التفاصيل ولكنهما يتشابهان في الجوهر ؛ والمدرستان تلجآن الى الاساليب ذاتها للتحقق من صحة النظريات . ولكن احدهما تعتقد انها تقترب اكثر فاكثر من الواقع الاخير وتترك وراءها اكثر فاكثر

من الظاهريات . وتعتقد الثانية انها تطبق (is substituting) المخططات الوصفية المعممة ، الصالحة لأجل العمليات الذهنية ، على الوقائع الملموسة المعقدة . . . ولكن لا هذا الجانب ولا ذاك يلتمان قيمة الفيزياء بوصفها معرفة منظمة عن (حرف التأكيد لورد) الاشياء ؛ وامكانية تطوير الفيزياء وتطبيقاتها العملية لاحقاً واحدة في هذه الحالة وتلك . ولكن الفرق الفلسفي (speculative) بين المدرستين ضخيم ؛ ومن هذه الناحية تصبح مسألة معرفة اية منهما على حق ذات شأن . . .» .

ان طرح المسألة من جانب روحاني صريح ومنسجم روعة في الصواب والوضوح . وبالفعل ، ان الفرق بين المدرستين في الفيزياء المعاصرة فلسفي فقط ، عرفاني فقط . وبالفعل ، ان الفرق الاساسي يتجسد فقط في كون احدهما تعترف بالواقع «الخير» (كان يجب القول : الموضوعي) الذي تعكسه نظريتنا ، بينما تنكر الاخرى هذا ، معتبرة النظرية مجرد تصنيف للتجربة ، مجرد نظام من الرموز التجريبية ، وهكذا دواليك وهلمجرأ . ان الفيزياء الجديدة ، التي وجدت اصنافاً جديدة من المادة واشكالاً جديدة لحركتها قد طرحت بمناسبة تحطيم المفاهيم الفيزيائية القديمة مسائل فلسفية قديمة . واذا كان اصحاب الاتجاهات الفلسفية «المتوسطة» («الوضعيون» ، الهيوميون ، الماخيون) لا يعرفون كيف يطرحون بوضوح المسألة المختلف عليها ، فان المثالي الصريح ورد قد رمى جانباً بجميع الاغطية .

«... لقد كرس ريكز خطابته الرئاسي للدفاع عن الواقعية الفيزيائية ضد التفسير الرمزي الذي يدافع عنه في الآونة الاخيرة البروفسوران بوانكاره وبوينتينغ وانا» (ص ٣٠٥-٣٠٦ ؛ ويضيف ورد في امكنة اخرى من كتابه الى هذه القائمة دوهم وبيرسون وماخ . راجع المجلد الثاني ، ص ١٦١ ، ٦٣ ، ٥٧ ، ٧٥ ، ٨٣ ، وغيرها) .

«... يتحدث ريكز على الدوام عن «الصور الذهنية» ويعلن على الدوام في الوقت نفسه ان الذرة والاثير هما شيء اكبر من

الصور الذهنية . ان هذا الاسلوب في المحاكمة يؤول بالفعل الى ما يلي : في الحالة المعنية لا يستطيع ان استحضر صورة اخرى ، ولهذا يجب ان يكون الواقع مشابهاً لها . . . ان البروفسور ريكز يعترف بالامكانية المجردة لصورة فكرية اخرى . . . وهو يسلم حتى بالطابع «التقريبي» (tentative) لبعض نظرياتنا وبكثير من المصاعب الجزئية» . وهو يدافع في آخر المطاف عن فرضية عاملة (a working hypothesis) فقط ، فضلاً عن انها فرضية فقدت الكثير من مكانتها في النصف الاخير من القرن . ولكن اذا كانت النظرية الذرية والنظريات الاخرى بصدد بنية المادة هي فرضيات عاملة فقط ، فضلاً عن انها فرضيات محدودة كلياً بظواهر فيزيائية ، فلا يمكن بأي شيء تبرير النظرية الزاعمة ان الميكانيكية هي اساس كل شيء وانها تحصر وقائع الحياة والروح في ظواهر ثانوية اي انها تجعلها ، اذا جاز القول ، بمقدار درجة واحدة اكثر ظاهريّة ، وبمقدار درجة واحدة اقل واقعية ، من المادة والحركة . هذه هي النظرية الميكانيكية عن العالم ، واذا لم يؤيدها البروفسور ريكز صراحة ، فلا يبقى لنا شيء نتجادل بشأنه معه» (ص ٣١٤-٣١٥) .

انه ، بالطبع ، لمن الهراء التام الزعم ان المادية قد اكدت واقعية «اصغر» للادراك او لوحة «ميكانيكية» الزاما عن العالم بوصفه مادة متحركة ، وليس لوحة كهرمغناطيسية ، ليس لوحة ما اشد تعقداً بما لا يقاس . ولكن المثالي الصريح والسافر ورد يتلقف ، بحداقة حاوٍ حقاً ، وبشكل افضل بكثير من اصحابنا الماخيين (اي المثاليين المشوشين) ، نقاط الضعف في المادية التاريخية الطبيعية «العفوية» ومنها ، مثلاً ، العجز عن توضيح العلاقة بين الحقيقة النسبية والحقيقة المطلقة . ان ورد يشعوز ويعلن انه ما دامت الحقيقة نسبية ، تقريبية ، «تلمس» كنه الامر فحسب ، فان هذا يعني انها لا تستطيع ان تعكس الواقع ! ولكن الروحاني طرح بالمقابل بصورة صحيحة للغاية مسألة الذرات وخلافها بوصفها «فرضية عاملة» . ولا تفكر الايمانية المعاصرة ، المثقفة

(وورد يستخرجها مباشرة من مذهبه الروحاني) **بأن تطالب** باكثر من اعلان مفاهيم العلوم الطبيعية «فرضيات عاملة» . سنعطيك العلم ، ايها السادة علماء الطبيعيات ، فاعطونا علم العرفان ، الفلسفة ، - ذلك هو شرط المساكنة بين اللاهوتيين والبروفسورات في البلدان الرأسمالية «المتقدمة» .

اما فيما يخص البنود الاخرى من علم العرفان عند ورد ، البنود التي يربطها بالفيزياء «الجديدة» ، فانه يتعين ان نضيف اليها ايضاً نضاله الحازم ضد **المادة** . ما هي المادة ؟ ما هي الطاقة ؟ يسأل ورد متحكماً من فيض الفرضيات وتناقض بعضها لبعض . اثير ام اثيرات ؟ «سائل كامل» جديد ما ينسبون اليه اعتباراً صفات جديدة لا تصدق ! استنتاج ورد : «نحن لا نجد اي شيء واضح غير الحركة . ان الحرارة هي شكل للحركة ، والمطاطية هي شكل للحركة ، والنور والمغناطيسية هما شكل للحركة . وحتى الكتلة نفسها تبدو في آخر المطاف ، كما يفترضون ، شكلاً للحركة - لحركة شيء ما ليس جسماً صلباً ولا سائلاً ولا غازاً ، - شيء ليس جسماً وليس مجموعة اجسام ، - ليس ظاهرياً ولا يجب ان يكون نوميئاً ، * - apeiron ** (ابرون - تعبير من الفلسفة الاغريقية= لا نهاية له ، لا حد له) حقيقي يمكننا ان نرفقه بمواصفاتنا الخاصة» (المجلد الاول . ص ١٤٠) .

ان الروحاني مخلص لنفسه حين يفصل الحركة عن المادة . فان حركة الاجسام تتحول في الطبيعة الى حركة ما ليس جسماً ذا كتلة دائمة ، الى حركة ما هو شحنة مجهولة من كهرباء مجهولة في اثير مجهول ، - ان هذا الديالكتيك للتحويلات **المادية المحققة** في المختبر وفي المصنع لا يشكل في نظر المثالي (كما في نظر الجمهور الواسع ، وكما في نظر الماخيين) تأكيداً للديالكتيك المادي ، بل

* noumenal - راجع الملاحظة في الصفحة ٢٣١ . **المعرب** .

** في الطبعة الاولى ترجم لينين التعبير بما يلي : لا يخضع للتجربة ،

لا يمكن معرفته . **الناشر** .

يشكل حجة ضد المادية : «... ان النظرية الميكانيكية بوصفها تفسيراً الزامياً (professed) للعالم تتلقى ضربة قاتلة من تقدم الفيزياء الميكانيكية ذاتها» (ص ١٤٣) ... ونرد نحن : العالم هو مادة متحركة وقوانين حركة هذه المادة يعكسها الميكانيك بالنسبة للحركات البطيئة ، وتعكسها النظرية الكهرمغناطيسية بالنسبة للحركات السريعة ... «ان الذرة الممدودة ، الصلبة ، التي لا تنشطر ، كانت دائماً سندا للنظرة المادية الى العالم . ولكن الذرة الممدودة ، لما فيه سوء خط هذه النظرات ، لم تلب* المطالب (was not equal to the demands) التي تقدمت بها منها المعرفة المتنامية» (ص ١٤٤) ... ان قابلية الذرة للانشطار ، واستحالة نفاذها ، وقابلية جميع اشكال المادة وحركتها للتحويل - كل هذا كان دائماً سندا للمادية الديالكتيكية . ان جميع الحدود في الطبيعة اصطلاحية ، نسبية ، متحركة ، وتعبر عن اقتراب عقلنا من معرفة المادة ، ولكن هذا لا يثبت البتة ان الطبيعة ، المادة ذاتها كانت رمزاً ، علامة اصطلاحية اي نتاجاً لعقلنا . ان نسبة حجم الالكترون الى الذرة ، كنسبة حجم نقطة في هذا الكتاب الى حجم بناية طولها ٣٠ ساجناً* وعرضها ١٥ ساجناً وعلوها $7\frac{1}{2}$ ساجناً (لودج) ، وهو يتحرك بسرعة في حدود ٢٧٠٠٠٠٠ كيلومتر في الثانية ، وكتلته تتغير حسب سرعته ، وهو يقوم بـ ٥٠٠ الف مليار دورة في الثانية ، - كل هذا اشد تعقداً بكثير من الميكانيك القديم ، ولكن كل هذا هو حركة المادة في المكان وفي الزمان . لقد كشف العقل الانساني الكثير من الطوائف في الطبيعة وسوف يكشف المزيد ، زائداً بذلك سلطانه عليها ، ولكن هذا لا يعني ان الطبيعة من صنع عقلنا او من صنع عقل مجرد ، اي اله ورد و«بديل» بوغدانوف وما الى ذلك . «... ان هذا المثال الاعلى (مثال «الميكانيكية») المطبق بدقة (rigorously) بوصفه نظرية العالم الفعلي ، يقودنا الى العدمية : جميع التغيرات هي حركات لأن الحركات هي التغيرات الوحيدة

* الساجن - متر و ١٣ سنتمترأ . الناشر .

التي نستطيع ان نعرفها ؛ وما يتحرك ، لا بدء من ان يكون حركة ايضاً لكي يمكننا معرفته» (ص ١٦٦) . . . «ان تقدم الفيزياء ، كما حاولت ان ابين ، هو بالضبط اقوى وسيلة للنضال ضد الايمان الجاهل في المادة والحركة ، ضد اعتبارهما الجوهر الاخير (inmost) ، وليس الرمز الاكثر تجريداً لأجل مجمل الوجود . . . اننا لن نصل ابدأ الى الرب عبر الميكانيكية المجردة» (ص ١٨٠) . . .
 وها قد سار الامر هنا تماماً كما في «دراسات «في» فلسفة الماركسية» ! يجدر بك ان ترجع الى هذه «الدراسات» ، ايها السيد ورد ، الى لوناتشارسكي ويوشكيفيتش ، الى بازاروف وبوغدانوف : صحيح انهم «اكثر حياء» منك ، ولكنهم يعظون بالشيء نفسه تماماً .

٥ - اتجاهان في الفيزياء المعاصرة والمثالية الالمانية

في عام ١٨٩٦ ، كتب الكانطي-المثالي المعروف غرمن كوهن بابتهاج خارق المهابة في مقدمة الطبعة الخامسة لكتاب «تاريخ المادية» الذي زوره فريدريخ البرت لانغه . فقد هتف غرمن كوهن (ص XXVI) قائلاً : «ان المثالية النظرية اخذت تززع مادية علماء الطبيعيات ، ولربما ستنتصر عليها نهائياً عما قريب» .
 «المثالية تشرب (Durchwirkung) الفيزياء الجديدة» . «كان لا بد لمذهب الذرة ان يخلي المكان للديناميكية» . «ان الانعطاف الرائع يتلخص في انه كان مكتوباً للتعلم في القضايا الكيماوية للمادة ان يؤدي الى التغلب المبدئي على النظرة المادية الى المادة . وكما ان فالس قام بالتجريد الاول بفرزه مفهوم المادة ، وربط بذلك الافكار التأملية في الالكترون ، كذلك كان مكتوباً لنظرية الكهرباء ان تقوم بانقلاب عظيم للغاية في فهم المادة وان تؤدي الى انتصار المثالية عن طريق تحول المادة الى قوة» (ص XXIX) .

ان غرمن كوهن يشير بدقة ووضوح ، مثله مثل جيمس ورد ، الى الاتجاهين الفلسفيين الاساسيين دون ان يضيع (كما يضيع اصحابنا الماخيون) في الفوارق التافهة بين ضروب المثالية على اختلافها ، الطاقية منها والرمزية والنقدية التجريبية والاحادية التجريبية وهلمجرأ . فان كوهن يأخذ الميل الفلسفي الاساسي لتلك المدرسة في الفيزياء التي تقترن الآن باسماء ماخ وبوانكاره وغيرهما ، واصفاً هذا الميل وصفاً صحيحاً بأنه ميل مثالي . ان «تحويل المادة الى قوة» هو بنظر كوهن مكسب المثالية الرئيسي ، تماماً كما بنظر اولئك من علماء الطبيعيات «الروحانيين» الذين فضحهم يوسف ديتزغن في عام ١٨٦٩ . تَعلَنُ الكهرباء معاونة للمثالية ، لأنها قضت على النظرية القديمة عن بنية المادة ، وابانت انشطار الذرة ، وكشفت اشكالاً جديدة للحركة المادية ، تختلف عن الاشكال القديمة ، ولما يتناولها الدرس والبحث ، وغير عادية ، و«عجيبة» الى حد انه يمكن تفسير الطبيعة على انها حركة غير مادية (روحية ، فكرية ، نفسية) . زال حدّ الامس لمعرفةنا لدقائق المادة المتناهية الصغر ، وبالتالي - كما يستنتج الفيلسوف المثالي ، - زالت المادة (ولكن الفكر بقي) . ان اي فيزيائي واي مهندس يعرفان ان الكهرباء هي حركة (مادية) ، ولكن احداً لا يعرف ما يتحرك هنا ، وبالتالي ، - كما يستنتج الفيلسوف المثالي ، - يمكن خداع الناس غير الملمين بالفلسفة باقتراح مغر «باقتصاده»: هيا بنا نتصور الحركة بدون المادة ...

ويحاول غرمن كوهن ان يتخذ بصفة حليف له الفيزيائي المشهور هنريخ هرتس . ان هرتس هو معنا ، انه كانطي ، فعنده نجد تسليماً بالقبلية ! ان هرتس هو معنا ، انه ماخي ، - يعترض الماخي كلينبيتر ، - فعند هرتس نستشف «نفس النظرة الذاتية ، الموجودة عند ماخ ، الى جوهر مفاهيمنا» * . ان هذا

* «Archiv für systematische Philosophie», Bd. V, 1898—1899, SS. 169—170 («ارشيف الفلسفة النظامية» ، المجلد ٥ ، عام ١٨٩٨ - ١٨٩٩ ، ص ١٦٩ - ١٧٠ . الناشر) .

الجدال الطريف حول من معه هرتس يعطي مثالا جيدا بين كيف يتلقف الفلاسفة المثاليون اقل خطأ ، اقل غموض في التعبير عند مشاهير علماء الطبيعيات ، لكي يبرروا دفاعهم المجدد عن الايمانية . وبالفعل ، تبين مقدمة هنريخ هرتس الفلسفية لمؤلفه «الميكانيك» * وجهة النظر العادية عند عالم طبيعيات مذعور بزعيق البروفسورات ضد «ميتافيزياء» المادية ، ولكنه لا يستطيع في اي حال من الاحوال ان يتغلب على اقتناعه العفوي بواقعية العالم الخارجي . وهذا ما يعترف به كلينبيتر نفسه ، الذي يرمي الى جمهور القراء ، من جهة ، كراريس مبسطة الاسلوب وكاذبة كلياً عن نظرية معرفة العلوم الطبيعية ، علماً بان ماخ يرد في هذه الكراريس الى جانب هرتس ، والذي يعترف في مقالات فلسفية خاصة ، من جهة اخرى ، بان «هرتس ، خلافاً لماخ وبيرسون ، لا يزال يتمسك بالاوهام بصدد امكان تفسير الفيزياء كلها تفسيراً ميكانيكياً» * * ، وبانه يحتفظ بمفهوم الشيء في ذاته و«بوجهة نظر الفيزيائيين العادية» ، وبان هرتس «ظل متمسكاً بفكرة وجود العالم في ذاته» * * * وما الى ذلك .

ومن الطريف والمفيد التنويه بنظرة هرتس الى مذهب الطاقة . فقد كتب يقول : «اذا سألنا لماذا يطيب للفيزياء المعاصرة ان تستعمل في محاكماتها اسلوب مذهب الطاقة في التعبير ، فان الجواب سيكون الجواب التالي : لأنه من الاسهل على هذا النحو تجنب التحدث عن الاشياء التي نعرف عنها القليل القليل . . . يقيناً اننا جميعاً على اقتناع بان المادة الموزونة تتألف من ذرات ؛ ولدينا

• Heinrich Hertz. «Gesammelte Werke», Bd. 3, Lpz., 1894,

ولخاصة SS. 1, 2, 49 (هنريخ هرتس . مجموعة المؤلفات ، المجلد ٣ ، ابريل ، عام ١٨٩٤ ، وخاصة ص ١ ، ٢ ، ٤٩ . الناشر) .

• • «Kantstudien», VIII. Band. 1903, S. 309 (وبحوث كانطية) ،

المجلد ٨ ، عام ١٩٠٣ ، ص ٣٠٩ . الناشر) .

• • • «The Monist», vol. XVI, 1906, N. 2, p. 164 ، مقالة عن

واحادية ماخ .

تصورات واضحة كفاية عن احجامها وحركاتها في احوال معينة . ولكن شكل الذرات ، وتماسكها ، وحركاتها مخفية تماماً عنا في اغلبية الاحوال ولهذا كانت تصوراتنا عن الذرات عبارة عن هدف هام وطريف لبحوث لاحقة معانها ليست البتة صالحة جداً لتشكيل اساساً متيناً للنظريات الرياضية» (l.c., III, 21) . فقد كان هرتس يتوقع من دراسة الاثير لاحقاً توضيح «كنه المادة القديمة ، وجمودها ، وقوة جاذبيتها» (I, 354) .

ومن هنا يتبين انه حتى لا تخطر في بال هرتس امكانية النظر نظرة غير مادية الى الطاقة . ان مذهب الطاقة كان بالنسبة للفلاسفة ذريعة للفرار من المادية الى المثالية . اما عالم الطبيعيات ، فانه ينظر الى مذهب الطاقة نظرتة الى اسلوب ملائم لعرض قوانين الحركة المادية في الوقت الذي ابتعد فيه الفيزيائيون ، اذا جاز القول ، عن الذرة ، ولكنهم لم يصلوا بعد الى الالكترتون . وهذا الوقت لا يزال الآن ايضاً يستمر بدرجة كبيرة : فان الفرضيات تتعاقب الواحدة تلو الاخرى ؛ وعن الالكترتون الموجب لا يعرفون البتة شيئاً ؛ ومنذ ثلاثة اشهر فقط (في ٢٢ حزيران - يونيو - ١٩٠٨) افاد جان بكيريل اكاديمية العلوم الفرنسية انه توفق ووجد هذا «الجزء» المكون الجديد من المادة» («Comptes rendus des séances de l'Académie des Sciences», p. 1311*) . فكيف لا تستغل الفلسفة المثالية هذه الورقة الكاسبة : ما دام العقل البشري لا يزال «يفتش» وحسب عن «المادة» ، فانها ليست بالتالي اكثر من «رمز» ، والنخ . . .

وهناك مثالي الماني آخر ذو تلوين اشد رجعية بكثير من تلوين كوهن ، هو ادوارد فون هارتمان ، كرس كتاباً كاملاً لموضوع «نظرة الفيزياء الحديثة الى العالم» («Die Weltanschauung der modernen Physik» Lpz., 1902) . ومن المؤكد اننا لا نهتم بمحاكمات المؤلف الخاصة حول ذلك الضرب من المثالية الذي يندود

* «تقارير جلسات اكاديمية العلوم» ، ص ١٣١١ . الناشر .

عنه . اننا نهتم بأمر واحد فقط ، هو ان نشير الى ان هذا المثالي يلاحظ هو ايضاً نفس الظاهرات التي لاحظها ري وورد وكوهن . فان ادوارد هارتمان يقول : «ان الفيزياء العصرية قد نشأت في تربة الواقعية ؛ ومن جراء التيار الكانطي الجديد والتيار اللاعرفاني في عهدنا وحسب ، اصبحت النتائج النهائية للفيزياء تُفسَّر بالمعنى المثالي» . (ص ٢١٨) . وهناك ثلاثة أنظمة عرفانية ، برأي ادوارد هارتمان ، تقوم في اساس الفيزياء الحديثة : الهيلوكينيتيكا (من الكلمتين اليونانيتين hyle = المادة و kinesis = الحركة ، اي اعتبار الظاهرات الفيزيائية حركة المادة) ، مذهب الطاقة ، والحركية (اي الاعتراف بالقوة بدون المادة) . ومفهوم ان المثالي هارتمان يزود عن «الحركية» ويستخلص من هذا ان قوانين الطبيعة هي فكرة عالمية ، اي انه ، باختصار ، «يبدل» الطبيعة الفيزيائية بالنفسي . ولكنه مضطر الى الاعتراف بان القسم الاكبر من الفيزيائيين هم من انصار الهيلوكينيتيكا ، وبان هذا النظام هو «اكثر ما يُستعمل» (ص ١٩٠) ، وبان «المادية والالحاد اللذين يتهددان الهيلوكينيتيكا الخاصة» هما نقص خطير يشكو منه هذا النظام (ص ١٨٩) . ويعتبر المؤلف مذهب الطاقة بحق وصواب نظاماً متوسطاً ، ويسميه بالمذهب اللاعرفاني (ص ١٣٦) . يقيناً ان مذهب الطاقة «حليف للحركية الخالصة ، لأنه ينحّي المادة» (S. VI, p. 192) ، ولكن لاعرفانيته لا تطيب لهارتمان بوصفها «موالاة للانجليز» مناقضة للمثالية الحقيقية عند الرجعي المتطرف الالمانى حقاً .

من خارق الدلالة والعبرة ان نرى كيف ان هذا المثالي المتشدد حزبياً (ان الاحزبيين في الفلسفة اغبياء مطبقون كما في السياسة) يوضح للفيزيائيين ماهية السير في هذا الخط العرفاني او ذاك . يكتب هارتمان عن التفسير المثالي لآخر نتائج الفيزياء : «ان قسماً تافهاً جداً من اولئك الفيزيائيين الذين يتبعون هذه الموضحة يدركون تماماً كل اهمية هذا التفسير وجميع عواقبه . وهم لم يلاحظوا ان الفيزياء بقوانينها الخاصة لم تحتفظ باستقلالها الا بقدر ما تمسك الفيزيائيون ، خلافاً لمثاليتهم ، بالمقدمات الاساسية الواقعية

الا وهي وجود الاشياء في ذاتها ، تغيرها الفعلي في الزمان ، السببية الفعلية فقط بموجب هذه المقدمات الواقعية (المغزى المتعالي للسببية والزمان والمكان ذي المقاييس الثلاثة) اي فقط بشرط ان تتطابق الطبيعة ، التي يتحدث الفيزيائيون عن قوانينها ، مع مملكة الاشياء في ذاتها يمكن التحدث عن قوانين الطبيعة خلافاً للقوانين النفسانية . ولا يمكن لقوانين الطبيعة ان تشكل تفسيراً لكون الاستنتاجات الضرورية منطقياً من صورنا هي صور النتائج الضرورية طبيعياً وتاريخياً لذلك المجهول الذي تعكسه هذه الصور او ترمز اليه في وعينا ، الا اذا كانت تفعل فعلها في ميدان مستقل عن تفكيرنا» (ص ٢١٨-٢١٩) .

ان هارتمان يحذر بصواب من ان مثالية الفيزياء الجديدة هي بالضبط هوضة وليست انعطافاً فلسفياً جدياً عن المادية الطبيعية التاريخية ، ولهذا يوضح بشكل صحيح للفيزيائيين ان تحويل «الموضة» الى مثالية فلسفية منسجمة ، متكاملة ، يقتضي تعديل التعاليم عن الواقعية الموضوعية للزمان والمكان والسببية وقوانين الطبيعة تعديلاً جذرياً . لا يجوز اعتبار الذرات والالكترونات والاثير وحدها مجرد رموز ، مجرد «فرضية عاملة» ، انما يجب ايضاً اعتبار الزمان والمكان وقوانين الطبيعة والعالم الخارجي كله «فرضية عاملة» . إما المادية ، وإما تبديل الطبيعة الفيزيائية كلها بالنفسي تبديلاً ؛ هناك عدد هائل من الراغبين في الخلط بين الامرين ، ولكننا انا وبوغدانوف لسنا من عدادهم .

كان لودفيغ بولتسمان (الذي توفي في عام ١٩٠٦) بين الفيزيائيين الالمان الفيزيائي الذي ناضل بثبات واستمرار ضد التيار الماخي . وقد سبق واشرنا الى انه عارض «هواية العقائد العرفانية الجديدة» بحصر الماخية ببساطة ووضوح في السوليبسيسم (راجع اعلاه ، الفصل الاول ، الفقرة السادسة) . ومن المؤكد ان بولتسمان يخشى ان يسمي نفسه بالمادي ، بل انه

يتحفظ خصيصاً قائلاً انه ليس البتة ضد وجود الله * . ولكن نظريته عن المعرفة هي مادية من حيث جوهر الامر ، وتعرب - كما يعترف مؤرخ العلوم الطبيعية في القرن التاسع عشر زيغموند غونتر * * - عن رأي اغلبية علماء الطبيعيات . يقول لودفيغ بولتسمان : «نحن نعرف وجود جميع الاشياء من الانطباعات التي تحدثها في حواسنا» (l.c., S. 29) . ان النظرية هي «صورة» (او نسخة) عن الطبيعة ، عن العالم الخارجي (ص ٧٧) . واولئك الذين يقولون ان المادة هي مجرد مركب من الاحساسات يعترض عليهم بولتسمان قائلاً ان الناس الآخرين هم ايضاً في هذه الحال مجرد احساسات المتكلم (ص ١٦٨) . وهؤلاء «الايدولوجيون» ، - كما يقول بولتسمان احياناً ، عوضاً عن ان يقول : المثاليون الفيلسوفيون ، - يرسمون لنا «لوحة ذاتية عن العالم» (ص ١٧٦) ، ولكن بولتسمان يفضل «لوحة موضوعية ابسط عن العالم» . «ان المثالي يشبه الزعم القائل ان المادة توجد مثلما توجد احساساتنا ، براي طفل يزعم ان الحجر المضروب يشعر بالألم . والواقعي يشبه الراي القائل انه لا يمكن تصور نشوء النفسي من المادي او حتى من تلاعب الذرات ، براي انسان غير متعلم يزعم انه لا يمكن للشمس ان تبعد عن الارض مسافة ٢٠ مليون ميل لأنه لا يستطيع ان يتصور ذلك» (ص ١٨٦) . الا ان بولتسمان لا يتخلى عن المثال الاعلى للعلم بتصوير الروح والارادة بصورة «فعلين معقدين لدقائق المادة» (ص ٣٩٦) .

و ضد مذهب الطاقة الاوستفالدي ناظر لودفيغ بولتسمان غير

Ludwig Boltzmann. «Populäre Schriften», Lpz., 1905, S. 187 •

(لودفيغ بولتسمان . «مقالات مبسطة» ، ليبزيغ ، عام ١٩٠٥ ، ص ١٨٧ . الناشر) .

Siegmund Günther. «Geschichte der anorganischen Naturwissenschaften im 19. Jahrhundert», Brl., 1901, SS. 942, 941. • •

(زيغموند غونتر . «تاريخ العلوم عن الطبيعة غير العضوية في القرن التاسع عشر» ، برلين ، عام ١٩٠١ ، ص ٩٤٢ ، ٩٤١ . الناشر) .

مرة من وجهة نظر الفيزيائي ، مثبتاً ان اوستفالد لا يستطيع لا ان يدحض معادلات الطاقة الحركية (نصف الكتلة مضروباً بمربع السرعة) ولا ان يقضي عليها ، وانه يدور في حلقة مفرغة مستخرجاً في البدء الطاقة من الكتلة (يقبل معادلة الطاقة الحركية) ، ومعرفاً فيما بعد الكتلة على انها الطاقة (ص ١١٢ ، ١٣٩) . وفي هذا الصدد اذكر عرض بوغدانوف لآراء ماخ في الكتاب الثالث من «الاحادية التجريبية» . فقد كتب بوغدانوف مستشهداً بمؤلف ماخ «الميكانيك» : «في العلم يُحصر مفهوم المادة في معامل الكتلة البارز في معادلات الميكانيك ، وهذا المعامل يبدو ، بعد التحليل الدقيق ، مقداراً معاكساً للتسارع لدى جسمين مركبين فيزيائين» (ص ١٤٦) . ومفهوم اننا اذا اخذنا جسماً ما كوحدة ، فمن الممكن الاعراب عن الحركة (الميكانيكية) لجميع الاجسام الاخرى بمجرد نسبة التسارع . ولكن «الاجسام» (اي المادة) لا تزول البتة من جراء هذا ، لا تكف عن الوجود بصورة مستقلة عن وعينا . وحين يحصرون العالم كله في حركة الالكترونات ، فانه سيكون من الممكن استبعاد الالكترونات من جميع المعادلات وذلك للسبب التالي على وجه الضبط ، لأنه سيكون مقصوداً ضمناً في كل مكان ، ولأن النسبة بين فئات او مجموعات الالكترونات ستحصر في تسارعها المتبادل ، لو كانت اشكال الحركة بسيطة كما في الميكانيك .

وفي سياق النضال ضد فيزياء ماخ وشركاه «الظاهرية» ، اكد بولتسمان ان «اولئك الذين يفكرون بازالة النظرية الذرية بواسطة معادلات التفاضل لا يرون الغاب وراء الاشجار» (ص ١٤٤) . «واذا لم يعلل المرء نفسه بالاوهام بصدد اهمية معادلات التفاضل ، فلا يمكن ان يقوم اي شك في ان لوحة العالم (بواسطة معادلات التفاضل) ستكون مع ذلك بالضرورة لوحة ذرية ، لوحة عن كيف ستتغير في الزمان ، بموجب قواعد معروفة ، كميات هائلة من الاشياء الواقعة في المكان ذي الابعاد الثلاثة . وغني عن البيان ان هذه الاشياء قد تكون متماثلة او مختلفة ، ثابتة او متغيرة» ، والخ . . . (ص ١٥٦) . يقول بولتسمان في خطاب القاہ عام ١٨٩٩ امام

مؤتمر علماء الطبيعيات في مونيخ : «واضح تماماً ان الفيزياء الظاهرية لا تفعل غير ان تتستر بستار معادلات التفاضل ، اما في الواقع ، فانها تنطلق بالنحو نفسه من كائنات منفردة ذرية الشكل (Einzelwesen) . وبما انه يتعين تصور هذه الكائنات متسمة تارة بهذه الخواص وطوراً بتلك الخواص بالنسبة لمختلف فئات الظواهر ، فسرعان ما تتبدى الحاجة الى نظرية ذرية اكثر بساطة وتماثلاً» (ص ٢٢٣) . «ان مذهب الالكترونات يتطور على وجه الدقة ليصبح النظرية الذرية لجميع ظواهر الكهرباء» (ص ٣٥٧) . ان وحدة الطبيعة تتكشف في «التماثلية المذهلة» بين معادلات التفاضل المتعلقة بميادين مختلفة من الظواهر . «وبالمعادلات ذاتها يمكن حل مسائل الهيدروديناميك والاعراب عن نظرية الجهود . ان نظرية الدردورات في السوائل ونظرية احتكاك الغازات (Gasreibung) تكشفان تماثلاً مذهلاً مع نظرية الكهرمغناطيسية والنخ .» (ص ٧) . ان اولئك الذين يعترفون «بنظرية الاستبدال العام» لن يتملصوا في اي حال من الاحوال من المسألة التالية : من ذا الذي ابتدع «استبدال» الطبيعة الفيزيائية بهذه الدرجة من التماثل . وكأنما للرد على اولئك الذين يرفضون «فيزيائي المدرسة القديمة» ، يحكي بولتسمان باسهاب عن كيف يتبنى بعض الاختصاصيين في «الكيمياء الفيزيائية» وجهة النظر العرفانية المقابلة للماخية . فان مؤلف «واحد من خيرة» الاعمال التلخيصية في عام ١٩٠٣ ، على حد قول بولتسمان ، هو فوبل (Vaubel) ، «يتبنى موقفاً معادياً قطعاً من الفيزياء الظاهرية التي تحظى بالاطراء بمثل هذا التواتر البالغ» (ص ٣٨١) . «انه يحاول ان يكون تصويراً ملموساً وجلياً اكثر ما يمكن عن طبيعة الذرات والجزيئات وعن القوى العاملة بينها . وهذا التصور يجمعه مع احدث التجارب في هذا الميدان» (اليونات ، الالكترونات ، الراديوم ، ظاهرة زيمان ، والنخ .) . «ان المؤلف يتمسك بشدة باثنينية المادة والطاقة * ،

* يريد بولتسمان ان يقول ان المؤلف لا يحاول ان يتصور الحركة بدون المادة . ومن المضحك التحدث هنا عن «الاثينية» . فان الاحادية

عارضاً على الاخص قانون بقاء المادة وقانون بقاء الطاقة . وفيما يتعلق بالمادة يتمسك المؤلف ايضاً باثنينية المادة الموزونة والاثير ، ولكنه يعتبر هذا الاخير ، بالمعنى الادق ، مادياً» (ص ٣٨١) . «ومنذ يادى بدء يتبنى» المؤلف في المجلد الثاني من عمله (نظرية الكهرباء) «وجهة النظر القائلة ان الظواهر الكهربائية تنجم عن تفاعل وحركة اللامنقسمات الذرية الشكل عينا بها الالكترونات» (ص ٣٨٣) .

وبالتالي يتأكد بالنسبة لالمانيا ايضاً ، ما اعترف به بالنسبة لبريطانيا الروحاني جيمس ورد ، ونعني بذلك ان فيزيائيي المدرسة الواقعية يصنفون وقائع واكتشافات السنوات الاخيرة بقدر من التوفيق لا يقل عن القدر الذي يصنفها به فيزيائيي المدرسة الرمزية ، وان الفرق الجوهرى يتلخص في وجهة النظر العرفانية «فقط» * .

الفلسفية والاثينية الفلسفية تتجسدان في التمسك بالمادية او بالمثالية بصورة منسجمة او بصورة غير منسجمة .

* ان مؤلف ايرىخ بيخر عن «المقدمات الفلسفية للعلوم الطبيعية الدقيقة» (Erich Becher. «Philosophische Voraussetzungen der exakten Naturwissenschaften», Lpz., 1907) الذي اطلعت عليه بعد الانتهاء من وضع كتابي هذا ، يؤكد ما قيل في هذا الباب . فان المؤلف يقف اقرب ما يكون الى وجهة النظر العرفانية لدى هلمهولتز وبولتسمان اي الى المادية «الخجلة» والتي لم يتم التفكير فيها الى النهاية ، فيكرس عمله للدفاع عن المقدمات الاساسية للفيزياء والكيمياء لتفسيرها . وهذا الدفاع يتحول ، بالطبع ، الى نضال ضد الاتجاه الماخى (قارن ص ٩١ وغيرها) في الفيزياء ، هذا الاتجاه الدارج ، على الموضة ، ولكن الذي يستثير الرد والصد اكثر فاكثر . وعن حق وصواب يصف ايرىخ بيخر هذا الاتجاه «بالوضعية الذاتية» (ص III) وينقل مركز ثقل النضال ضده الى البرهنة على «فرضية» العالم الخارجى (الفصول الثاني الى السابع) ، الى البرهنة على «وجود» «بصورة مستقلة عن المدركات البشرية» (von Wahrgenommenwerden unab-hängige Existenz) . ان انكار هذه «الفرضية» من قبل الماخيين يقودهم احياناً كثيرة الى السوليبسيسم (ص ٧٨-٨٢ وغيرها) . ان نظرة ماخ

٦ - اتجاهان في الفيزياء المعاصرة والإيمانية الفرنسية

في فرنسا ، تمسكت الفلسفة المثالية بنفس القدر من الحزم
بذبذبات الفيزياء الماخية . ولقد رأينا كيف قابل النقاد الجدد
مؤلف ماخ «الميكانيك» مشيرين في الحال الى الطابع المثالي لاسس
فلسفة ماخ . وفي هذا المجال احرز الماخي الفرنسي بوانكاريه (هنري)
مزيداً من التوفيق . فان الفلسفة المثالية المغرقة في الرجعية ذات
الاستنتاجات الإيمانية البيّنة قد تشبّثت في الحال بنظريته . ولقد
حاكم ممثل هذه الفلسفة ليروا (Le Roy) كما يلي : ان حقائق
العلم هي علامات اصطلاحية ، رموز ؛ وانتم طرحتم ادعاءات
سخيفة ، «ميتافيزيائية» ، بادراك الواقع الموضوعي ؛ فكونوا

القائلة ان «الاحساسات ومركباتها وليس العالم الخارجي» هي الموضوع
الوحيد للعلوم الطبيعية (ص ١٢٨) ، انما يسميها بيخر «باحاديثية
الاحساسات» (Empfindungsmonismus) ويصنفها في عداد «الاتجاهات
الكونسيانسيوناليستية الخالصة» . ان هذا التعبير الاخرق والسخيف مركب
من الكلمة اللاتينية conscientia - الوعي ، ولا يعني سوى المثالية الفلسفية .
(قارن ص ١٥٦) . وفي الفصلين الاخيرين من الكتاب ، يقارن ايربخ بيخر
بنحو لا باس به بين النظرية القديمة ، الميكانيكية عن المادة وبين النظرية
الجديدة ، الكهربائية عن المادة ، ولوحة العالم (الفهم «الحركي المطاطي» ،
على حد تعبير المؤلف ، و«الحركي الكهربائي» للطبيعة) . ان النظرية
الاهيرة ، المرتكزة على التعاليم عن الالكترونات ، هي خطوة الى الامام في
ادراك وحدة العالم ؛ وهي ترى ان «عناصر العالم المادي هي شحنات
كهربائية» (Ladungen) (ص ٢٢٣) . «ان اي فهم حركي خالص للطبيعة
لا يعرف شيئاً غير عدد ما من الاشياء المتحركة ، سواء اُسْمِيت
بالالكترونات او باسم ما آخر ؛ ان حالة حركة هذه الاشياء في كل لحظة
ناهية من الزمان يحددها بصورة مشروعة تماماً وضع وحالة حركتها في
اللحظة السابقة من الزمان» (ص ٢٢٥) . ان النقص الاساسي الذي يعيب
اناب ايربخ بيخر هو جهل المؤلف للمادية الديالكتيكية جهلاً مطلقاً .
وهذا الجهل غالباً ما يدفعه الى تخبيصات وسخافات يستحيل هنا التوقف
عندها .

منطقيين ووافقوا معنا على ان للعلم اهمية عملية فقط بالنسبة لميدان واحد من الافعال البشرية وان للدين اهمية فعلية ليست اقل من اهمية العلم بالنسبة لميدان آخر من الافعال ؛ ولا يحق للعلم «الرمزي» ، «الماخي» ، انكار اللاهوت . وقد خجل هنري بوانكاره من هذه الاستنتاجات ، فهاجمها خصيصاً في كتابه «قيمة العلم» . ولكن انظروا اي موقف عرفاني اضطر الى اتخاذه لكي يتخلص من الحلفاء من طراز ليروا . فقد كتب بوانكاره يقول : «ان السيد ليروا لا يعلن العقل عاجزاً بشكل لا مرد له الا لكي يخصص مكاناً اوسع لأجل المصادر الاخرى للمعرفة ، لأجل القلب والشعور والغريزة والايمان» (صص ٢١٤-٢١٥) . «انا لا امضي الى النهاية» : ان القوانين العلمية هي اصطلاحات ، رموز ، ولكن «اذا كانت «للوصفات» العلمية قيمة بوصفها قاعدة لأجل التصرف ، فذلك لأنها عموماً واجمالياً ، كما نعرف ، تحظى بالنجاح . وان معرفة هذا تعني معرفة شيء ما ؛ وما دام الحال هكذا ، فبأي حق تقول لنا اننا لا نستطيع ان نعرف شيئاً؟» (ص ٢١٩) .

ويستشهد هنري بوانكاره بمعيار الواقع العملي . ولكنه لا يفعل غير ان ينقل هذه المسألة الى مكان آخر ، الا انه لا يحلها لأنه يمكن تفسير هذا المعيار بالمعنى الذاتي والمعنى الموضوعي على السواء . ويقر ليروا هو ايضاً بهذا المعيار لأجل العلم والصناعة ؛ ولكنه ينكر ان يكون بمقدور هذا المعيار ان يبرهن الحقيقة الموضوعية ، لأن هذا الانكار يكفيه لأجل الاعتراف بحقيقة الدين الذاتية الى جانب حقيقة العلم الذاتية (غير الموجودة بصورة مستقلة عن البشرية) . ويرى هنري بوانكاره انه لا يجوز الاكتفاء بالاستشهاد بالواقع العملي ضد ليروا فينتقل الى مسألة موضوعية العلم . «ما هو معيار موضوعية العلم ؟ انه نفس معيار ايماننا في الاشياء الخارجية . ان هذه الاشياء فعلية لأن الاحساسات التي تستشيرها فينا (qu'ils nous font éprouver) تبدو لنا موصولة فيما بينها باسمنت ما غير قابل للتدمير ، وليس بحادثة طارئة» (ص ٢٦٩-٢٧٠) .

اما ان صاحب هذه المحاكمة يمكن ان يكون فيزيائياً كبيراً ، فان هذا جائز . ولكنه لا جدال البتة في انه لا يمكن ان يأخذه على محمل الجد كفيلسوف غير فوروشيلوف ويوشكيفيتش واضرابهما . انهم اعلنوا ان المادية قد دمرتها «نظرية» تعتمى تحت كنف المادية لدى اول ضغط من جانب الايمانية ! لأنه اذا اعتبرتسم ان الاحساسات تستثيرها فينا اشياء فعلية وان «الايمان» في موضوعية العلم هو مثل «الايمان» في وجود الاشياء الخارجية الموضوعي ، فان هذا سيكون مادية خالصة للغاية .

«... يمكن القول ، مثلاً ، ان للآثير واقعية لا تقل عما لاي جسم خارجي آخر» (ص ٢٧٠) .

فأي ضجة كان أثارها الماخيون لو قال مادي هذا ! ولكم كان ظهر هنا من النكات غير الحادة بصدد «المادة الاثيرية» وما الى ذلك . ولكن مؤسس الرمزية التجريبية الحديثة يتشدد بعد خمس صفحات : «كل ما ليس فكراً هو عدم صرف ، لأنه لا يسعنا ان نخلق بالفكر شيئاً غير الفكر» (ص ٢٧٦) . انك تخطيء ، يا سيّد بوانكاره : فان مؤلفاتك تثبت ان هناك اناساً لا يمكنهم ان يخلقوا بالفكر غير السخافات . ومن عداد هؤلاء الناس ، المشوّش الشهير جورج سوريل الذي يزعم ان «القسمين الاولين» من كتاب بوانكاره عن قيمة العلم «مكتوبان بروح ليروا» وانه يمكن بالتالي لهذين الفيلسوفين ان «يتصالحا» على ما يلي : ان محاولة اقرار تشابه بين العلم والعالم هي وهم ، ولا داعي الى طرح مسألة ما اذا كان بوسع العلم ان يعرف الطبيعة ، اذ يكفي تطابق العلم مع الآليات التي نصنعها (Georges Sorel: «Les préoccupations métaphysiques des physiciens modernes», P., 1907, p. 77, 80, 81 *) .

ولكن اذا كان يكفي مجرد التنويه «بفلسفة» بوانكاره والتغاضي عنها ، فانه يجب تناول مؤلفات ا . ري بالتفصيل . وقد سبق لنا

* جورج سوريل . «اوهام الفيزيائيين المعاصرين الميتافيزيائية» ، باريس ، ١٩٠٧ ، ص ٧٧ ، ٨٠ ، ٨١ . الناشر .

واشرنا الى ان الاتجاهين الاساسيين في الفيزياء المعاصرة اللذين يسميهما ري باتجاه «المفاهيمي» والاتجاه «الميكانيكي الجديد» ، يتلخصان في الفرق بين علم العرفان المثالي وعلم العرفان المادي . ويتعين علينا ان نرى الآن كيف يحل الوضعي ري المعضلة المقابلة كلياً لمعضلة الروحاني جيمس ورد والمثاليين كوهن وهارتمان ، عنينا بذلك : الامتناع عن تلقف الاخطاء الفلسفية للفيزياء الجديدة ، وانحرافها صوب المثالية ، بل اصلاح هذه الاخطاء ، واثبات عدم شرعية الاستنتاجات المثالية (والايمانية) من الفيزياء الجديدة . ان كل مؤلف ا . ري يتخلله ، كخيطة احمر على خلفية بيضاء ، الاعتراف بواقع ان النظرية الجديدة لفيزياء «المفاهيميين» (الماخيين) قد تمسكت بها الايمانية (ص II ، ١٧ ، ٢٢٠ ، ٣٦٢ ، وغيرها) و«المثالية الفلسفية» (ص ٢٠٠) والريبية فيما يتعلق بحقوق العقل وحقوق العلم (ص ٢١٠ ، ٢٢٠) ، والذاتية (ص ٣١١) ، والنخ . . ولهذا يجعل ا . ري ، عن كامل الحق والصواب ، من تحليل «آراء الفيزيائيين المتعلقة بالقيمة الموضوعية للفيزياء» مركز عمله (ص ٣) .

فما هي نتائج هذا التحليل ؟

لنأخذ المفهوم الاساسي ، مفهوم التجربة . يؤكد ري ان التفسير الذاتاني الذي يعطيه ماخ (وسنعتبره ، لأجل البساطة والايجاز ، ممثلاً لتلك المدرسة التي يسميها ري بالمدرسة المفاهيمية) هو باطل تماماً . صحيح انه يرد في عداد «السمات الجديدة الرئيسية لفلسفة اواخر القرن التاسع عشر» كون «التجريبية التي تغدو اكثر فاكثر تفنناً ، واغنى فأغنى بالتلاوين ، تؤدي الى الايمانية ، الى الاعتراف باولوية الايمان ، - التجريبية التي كانت فيما مضى سلاحاً عظيماً في نضال الريبية ضد مزاعم الميتافيزياء . اولم يحدث هذا لأنه جرى ، من حيث الجوهر ، تشويه المعنى الحقيقي لكلمة «التجربة» شيئاً فشيئاً ، عن طريق تلاوين غير ملحوظة ؟ اما بالفعل ، فان التجربة ، - اذا أخذت في ظروف وجودها ، في ذلك العلم الاختباري الذي يحددها ويصقلها ، - ان التجربة

تقودنا الى الضرورة والى الحقيقة» (ص ٣٩٨) . لا ريب في ان الماخية كلها ، بمعنى هذه الكلمة الواسع ، لا تعدو ان تكون تشويهاً لمعنى كلمة «التجربة» الحقيقي بواسطة تلاوين غير ملحوظة ! ولكن كيف يصلح ري هذا التشويه ، وهو الذي يتهم بالتشويه الايمانين وحدهم ، ولا يتهم ماخ بالذات ؟ سمعوا : «ان التجربة هي ، حسب التعريف العادي ، معرفة الموضوع . وهذا التعريف انسب في علم الفيزياء مما في اي مكان آخر . . . ان التجربة هي ما ليس لعقلنا سلطان عليه ، ما لا يمكن لرغائبنا وارادتنا ان تغيره ، - ما هو معطى ، ما لا ننتجه . ان التجربة هي الموضوع في مواجهة (en face du) الذات» (ص ٣١٤) .

اليكم نموذجاً عن دفاع ري عن الماخية ! وبأي تبصر عبقرى تحلى انجلس حين اطلق على الطراز الحديث من انصار اللاعرفانية الفلسفية ومذهب الظاهرية نعت «الماديين الخجولين» . ان الوضعى والظاهري المتعصب ، ري ، نموذج ممتاز من هذا الطراز . اذا كانت التجربة هي «معرفة الموضوع» ، اذا كانت «التجربة هي الموضوع في مواجهة الذات» ، اذا كانت التجربة تتلخص في كون «شيء ما خارجي (quelque chose du dehors) يوجد ويوجد بالضرورة» (se pose et en se posant s'impose, p. 324) ، فان هذا ينحصر ، على ما يبدو ، في المادية ! ان ظاهريه ري ، واشارته ببالغ الاجتهاد الى انه لا يوجد شيء عدا الاحساسات والى ان الموضوعى هو ذو دلالة عامة ، وهكذا دواليك ، - ان كل هذا ورقة تين ، تستير للمادية بالكلام الفارغ ، ما داموا يقولون لنا :

«الموضوعى هو ما هو معطى لنا من الخارج ، ما هو مفروض (imposé) من قبل التجربة ؛ ما لا ننتجه ، ما هو منتج بصورة مستقلة عنا وما ينتجنا بدرجة ما» (ص ٣٢٠) . ان ري يدافع عن «الملاهيمية» بالقضاء على المفاهيمية ! ولا يتم التوصل الى دحض الاستنتاجات المثالية من الماخية الا بتفسير الماخية بمعنى المادية الخجلة . وان ري الذي اعترف هو نفسه بالفرق بين الاتجاهين في الفيزياء المعاصرة يبذل قصارى جهده لكي يمحو جميع الفوارق في

مصلحة الاتجاه المادي . مثلاً . يقول ري بشأن مدرسة الميكانيكية الجديدة انها لا تقبل «لا باقل شك ، ولا باقل تردد» في مسألة موضوعية الفيزياء (ص ٢٣٧) : «هنا (اي في تربة تعاليم هذه المدرسة) انتم بعيدون عن جميع تلك السبل الملتوية التي اضطررتم الى السير فيها من وجهة نظر سائر نظريات الفيزياء لكي تصلوا الى اقرار هذه الموضوعية» .

ان هذه «السبل الملتوية» بالذات للماخية هي التي يحجبها ري ، ويلقي عليها الستار بكل عرضه . ان السمة الاساسية التي تتسم بها المادية ، انما هي بالضبط كونها **تنطلق** من موضوعية العلم ، من الاعتراف بالواقع الموضوعي الذي يعكسه العلم ، بينما المثالية **تحتاج** الى «سبل ملتوية» لكي «تستخلص» الموضوعية ، بنحو او آخر ، من الروح ، من الوعي ، من «النفسي» . ويكتب ري : «ان المدرسة الميكانيكية الجديدة (اي السائدة) في الفيزياء **تؤمن في واقعية** النظرية الفيزيائية بالمعنى الذي تؤمن به البشرية **في واقعية** العالم الخارجي» (ص ٢٣٤ ، الفقرة ٢٢ : الموضوعية) . وبنظر هذه المدرسة ، «تريد النظرية ان تكون نسخة (le décalque) عن الموضوع» (ص ٢٣٥) .

صحيح . وهذه السمة الاساسية في المدرسة «الميكانيكية الجديدة» لا تعدو ان تكون اساس علم العرفان **المادي** . وليس بمقدور اي من تبرؤات ري من الماديين ، واي من تأكيدات ان الميكانيكيين الجدد هم ايضاً ، من حيث الجوهر ، ظاهريون ، وما الى ذلك ، ان تضعف هذا الواقع الجذري . فان كنه الفرق بين الميكانيكيين الجدد (وهم ماديون متفاوتون في الخجل) والماخيين انما هو كون الاخيرين **يتراجعون** عن هذه النظرية للمعرفة ، وبتراجعهم عنها ، **يترلقون** حتماً الى الايمانية .

خذوا موقف ري من تعليم ماخ بشأن سببية وضرورة الطبيعة . من النظرة الاولى فقط ، - كما يؤكد ري ، - «يقترِب» ماخ «من الريبية» (ص ٧٦) ومن «الذاتية» (ص ٧٦) ؛ ان هذا «الالتباس» (équivoque, p. 115) يتبدد ، اذا احذنا تعاليم ماخ

بمجمليها . وري يأخذها بمجمليها ، ويورد جملة من المقتبسات سواء من «مذهب الدفء» ام من «تحليل الاحساسات» ، ويتوقف خصيصاً عند الفصل عن السببية في الكتاب الاول من الكتابين المذكورين ، - ولكنه . . . ولكنه يتعاشى ايراد المقطع العاسم ، بيان ماخ القائل انه لا وجود للضرورة الفيزيائية ، بل توجد الضرورة المنطقية فقط ! وهنا يمكن القول فقط ان هذا ليس تفسيراً لآراء ماخ بل طلي لها بالمساحيق ، وان هذا محو للفوارق بين «الميكانيكية الجديدة» والماخية . استنتاج ري : «يواصل ماخ التحليل ويقبل استنتاجات هيوم وميل وجميع الظاهريين الذين يعتبرون ان السببية لا تنطوي على اي شيء جوهري وانها عادة التفكير وحسب . ويتقبل ماخ من الظاهرية موضوعتها الاساسية التي يشكل مذهب السببية بالنسبة لها مجرد عاقبة ، اي بالضبط : لا يوجد شيء غير الاحساسات . ولكن ماخ يضيف في اتجاه موضوعاني صرف : ان العلم ، اذ يبحث الاحساسات ، يجد فيها عناصر دائمة ومشتركة يكون لها ، اذا تم تجريدها من الاحساسات ، نفس الواقعية التي للاحاساسات ، لأنها مستمدة من الاحساسات بواسطة المراقبة الحسية . وهذه العناصر الدائمة والمشاركة ، اي بالضبط : الطاقة وتحولاتها ، هي اساس تصنيف الفيزياء» (ص ١١٧) .

ينجم من هنا ان ماخ يتقبل النظرية الذاتية عن السببية عند هيوم ويفسرها بالمعنى الموضوعاني ! ويتملص ري ، مدافعاً عن ماخ باستشهادات بعدم انسجامه ، وخالصاً الى القول ان التجربة تؤدي ، في التفسير «الواقعي» لهذه التجربة ، الى «الضرورة» . والحال ان التجربة هي المعطى من الخارج ؛ واذا كانت ضرورة الطبيعة ، وفوانينها معطاة هي ايضاً للانسان من الخارج ، من الطبيعة الواقعية الموضوعية ، فمن البديهي آنذاك ان يزول كل فرق بين الماخية والمادية . ويدافع ري عن الماخية دون «الميكانيكية الجديدة» بكونه . . . تسلّم على طول الخط امام الاخيرة اذ يزود عن كلمة «الظاهرية» وليس عن كنه هذا الاتجاه .

وبروح ماخ تماماً ، يستخلص بوانكاره ، مثلاً ، قوانين

الطبيعة - بما فيها ضمناً القانون القائل ان للمكان ثلاثة ابعاد - من «الملاءمة» . ولكن هذا لا يعني البتة : «الاعتباطي» - كما يسرع ري الى «الاصلاح» . كلا . ان «الملائم» يعبر هنا عن «التكيف للموضوع» (حرف التأكيد لري . ص ١٩٦) . يا له من مثال رائع على التمييز بين المدرستين وعلى «دحض» المادية . . . «اذا كانت نظرية بوانكاريه تفصلها هوة يستحيل عبورها منطقياً عن تفسير المدرسة الميكانيكية الانطولوجي» (اي عن اعتراف هذه المدرسة بان النظرية هي صورة عن الموضوع) . . . «اذا كان بمقدور نظرية بوانكاريه ان تشكل سنداً لأجل المثالية الفلسفية ، فانها تتوافق جيداً في تربة العلم ، على الاقل ، مع التطور العام لافكار الفيزياء الكلاسيكية ، مع الميل الى اعتبار الفيزياء معرفة موضوعية ، توازي موضوعيتها موضوعية التجربة ، اي الاحساسات التي تنطلق منها التجربة» (ص ٢٠٠) . من جهة ، لا يمكن عدم الاعتراف ؛ ومن جهة اخرى يجب الاعتراف . من جهة ، تفصل هوة يستحيل عبورها بوانكاريه عن الميكانيكية الجديدة رغم ان بوانكاريه يقف في الوسط بين «مفاهيمية» ماخ والميكانيكية الجديدة ، في حين يبدو كأن ماخ غير مفصول اطلاقاً باية هاوية عن الميكانيكية الجديدة . ومن جهة اخرى يمكن التوفيق كلياً بين بوانكاريه والفيزياء الكلاسيكية التي تبني تماماً ، على حد قول ري نفسه ، وجهة نظر «الميكانيكية» . من جهة ، بمقدور نظرية بوانكاريه ان تشكل سنداً للمثالية الفلسفية ؛ ومن جهة اخرى ، تتوافق نظرية بوانكاريه مع التفسير الموضوعي لكلمة «التجربة» . من جهة ، شوّه هؤلاء الايمانين الاردياء معنى كلمة «التجربة» عن طريق تحريفات غير ملحوظة ، متراجعين عن النظرة الصحيحة القائلة ان «التجربة هي الموضوع» ؛ ومن جهة اخرى تعني موضوعية التجربة امراً واحداً فقط ، هو ان التجربة هي الاحساسات ، - وهذا ما يوافق عليه كلياً بركلي وفيخته سواء بسواء !

لقد التبس الامر على ري لأنه وضع امام عينيه مهمة يستحيل اداؤها ، قوامها «توفيق» التضاد بين المدرسة المادية والمدرسة

المثالية في الفيزياء الجديدة . فهو يحاول ان يضعف مادية المدرسة الميكانيكية الجديدة مصوراً بالظاهرية نظرات الفيزيائيين الذين يعتبرون نظريتهم صورة عن الموضوع * . وهو يحاول ان يضعف مثالية المدرسة المفاهيمية ، باتراً احزم تصاريح انصارها ، ومفسراً التصاريح الباقية بمعنى المادية الخجلة . اما اي درجة من

* ان «الموفق» ري لم يلحق الستار على طرح المسألة من قبل المادية الفلسفية وحسب ، بل تحاشى كذلك تصريحات الفيزيائيين الفرنسيين المادية الأشد سطوعاً . فلم يذكر ، مثلاً ، الفرد كورنو (A. Cornu) الذي توفي عام ١٩٠٢ . فان هذا الفيزيائي قد استقبل «تدمير (او تدليل ، Überwindung) المادية العلمية» الذي قال به اوستفالد بملاحظة تهكم وازدراء بصدد تفسير المسألة تفسيراً متحذلقاً وسطحياً ومبتدلاً . (راجع «Revue générale des sciences, 1895, p. 1030-1031» . «المجلة العامة للعلوم» ، عام ١٨٩٥ . ص ١٠٣٠-١٠٣١ . الناشر) . وفي مؤتمر الفيزيائيين العالمي المنعقد في باريس عام ١٩٠٠ قال كورنو : «بقدر ما نزداد معرفة لظواهر الطبيعة ، بقدر ما يتطور ويزداد دقة المفهوم الديكارتي الجريء عن ميكانيكية العالم : لا شيء يوجد في العالم الفيزيائي عدا المادة والحركة . ان قضية وحدة القوى الفيزيائية ... تتقدم من جديد الى المرتبة الاولى بعد الاكتشافات العظيمة التي تميزت بها اواخر القرن التاسع عشر . ان الاهتمام الرئيسي لزعماء علمنا المعاصرين فارادي ، كسمويل ، هرتس (اذا تكلمنا فقط عن الفيزيائيين المشهورين الذين ...) - يتركز على تعريف الطبيعة بمزيد من الدقة ، وحزر خواص **المادة العديمة الوزن** (matière subtile) ، خواص حامل الطاقة العالمية .. ان العودة الى الافكار الديكارتية جلية للعيان ...» . («Rapports présentés au Congrès International de Physique», P., 1900, t. 4-me, p. 7) (الاربير مقدمة في مؤتمر الفيزياء العالمي ، باريس ، ١٩٠٠ ، المجلد ٤ ، ص ٧ . الناشر) . وعن حق وصواب يلاحظ لوسيان بوانكاره في كتابه عن «الفيزياء المعاصرة» ان هذه الفكرة الديكارتية قد اخذها وطورها موسوعيو الارن الثامن عشر (Lucien Poincaré. «La Physique moderne», P., 1906, (11 p. ، ولكن ، لا هذا الفيزيائي ولا الفرد كورنو يعرفان كيف طهر الماديان الديالكتيكيان ماركس وانجلس هذه المقدمة الاساسية للمادية من احادية حامها المادية الميكانيكية .

التوهم ومن التكلف بلغ في هذه الحال تبرؤ ري من المادية ،
 فيبينه ، مثلاً ، تقيمه للاهمية النظرية لمعادلات مكسويل وهرتس
 التفاضلية . ان كون هذين الفيزيائيين يقصران نظريتهما على نظام
 المعادلات يشكل بنظر الماخيين دحضاً للمادية : المعادلات - وهذا
 كل شيء ، ليس ثمة اية مادة ، ليس ثمة اي واقع موضوعي ،
 هناك رموز فقط . الا ان بولتسمان يدحض هذه النظرة مدركاً انه
 يدحض الفيزياء الظاهرية . ويدحض ري هذه النظرة ، معتقداً انه
 يدافع عن الظاهرية ! وهو يقول : «لا يجوز الامتناع عن تصنيف
 مكسويل وهرتس في عداد «الميكانيكيين» ، على اساس انهما اكتفيا
 بمعادلات تشبه المعادلات التفاضلية في ديناميكا لاغرانج . ولكن
 هذا لا يعني اننا لا نستطيع ، برأي مكسويل وهرتس ، ان نبني
 نظرية ميكانيكية عن الكهرباء على عناصر فعلية . بل بالعكس . فان
 امكانية ذلك يشبها الواقع التالي ، وهو ان الظواهر الكهربائية
 تمثلها نظرية شكلها مماثل للشكل العام للميكانيك الكلاسيكي»
 (ص ٢٥٣) . . . ان الالتباس في حل القضية الحالي «سيقل بقدر ما
 ترتسم بمزيد من الدقة طبيعة تلك الوحدات الكمية اي العناصر
 التي تدخل في المعادلات» . ان عدم دراسة هذه او تلك من اشكال
 الحركة المادية ليس بنظر ري ذريعة لانكار مادية الحركة . «تجانس
 المادة» (ص ٢٦٢) ، - لا بوصفه مسلماً ، بل بوصفه نتيجة
 التجربة وتطور العلم ، «تجانس موضوع الفيزياء» ، - هذا هو الشرط
 لامكان تطبيق المقاييس وتطبيق الحسابات الرياضية .
 واليكم تقدير ري لمعيار الواقع العملي في نظرية المعرفة :
 «لمقابلة مقدمات الريبية ، يحق لنا ان نقول ان قيمة العلم العملية
 تنبع من قيمته النظرية» (ص ٣٦٨) . . . اما ان ماخ وبوانكاره
 وكل مدرستهما قد اخذوا مقدمات الريبية هذه بدون اي لبس وابهام
 على الاطلاق ، فان ري يفضل لزوم الصمت عن هذا . . . «وهذه
 القيمة وتلك هما جانبا قيمتها الموضوعية اللذان لا ينفصلان
 والمتوازيان بكل دقة . ان القول ان للقانون المعني من قوانين
 الطبيعة قيمة عملية ، . . . يؤول من حيث الجوهر الى القول ان

لقانون الطبيعة هذا أهمية موضوعية . . . ان التأثير في الموضوع يفترض تغيير الموضوع ، رد فعل الموضوع رداً متناسباً مع توقعاتنا او تكهناتنا التي قمنا على اساسها بهذا التأثير . وبالتالي ، تتضمن هذه التوقعات او هذه التكهنات عناصر يراقبها الموضوع وفعلاً . . . وهذا يعني ان هذه النظريات المختلفة تحتوى جزءاً من الموضوعي» (ص ٣٦٨) . هذه نظرية للمعرفة مادية تماماً ومادية فقط ، لأن وجهات النظر الاخرى والماخية على الاخص تنكر الاهمية الموضوعية ، اي المستقلة عن الانسان والانسانية ، لمعيار الواقع العملي .

الحاصل : لقد تناول ري المسألة من جانب ليس البتة بالجانب الذي تناولها منه ورد وكوهن وشركاهما ، ولكن النتائج عنده ايضاً جاءت مماثلة لنتائجهم : الاعتراف بالميل المادي والميل المثالي بوصفهما اساس انقسام المدرستين الرئيسيتين في الفيزياء المعاصرة .

٧ - «الفيزيائي-المثالي» الروسي

بحكم بعض ظروف عملي المؤسفة ، لم استطع او يكاد ان اطلع على المطبوعات الروسية في المسألة التي نحن بصدددها . ولذا اكتفي بعرض مقالة هامة جداً بالنسبة لموضوعي هي مقالة الرجعي المتطرف الفيلسفي الروسي المشهور السيد لوباتين : «الفيزيائي-المثالي» ، المنشورة في «قضايا الفلسفة وعلم النفس» (٨٤) للسنة الماضية (سنة ١٩٠٧ ، ايلول - تشرين الاول (سبتمبر - اكتوبر)) . ان المثالي الفيلسفي الروسي حقاً السيد لوباتين ينظر تقريباً الى المثاليين الاوروبيين المعاصرين مثلما ينظر «اتحاد الشعب الروسي» (٨٥) الى الاحزاب الرجعية الغربية . ولكنه من الافيد بالتالي ان ارى كيف تتبدى الميول الفلسفية المتماثلة في اوضاع ثقافية ومعيشية مختلفة تماماً . فان مقالة السيد لوباتين هي ، كما يقول الفرنسيون ، *éloge* - مديح للفيزيائي الروسي المرحوم ن . اي . هميشكين (توفي عام ١٩٠٦) . فقد افتن السيد لوباتين بواقع ان

هذا الرجل المتعلم الذي اهتم بالغ الاهتمام بهرتس والفيزياء الجديدة على العموم ، لم يكن كاديتياً يمينياً وحسب (ص ٣٣٩) ، بل كان كذلك انساناً عميق الايمان بالله ، ومعجباً بفلسفة فل . سولوفيوف ، وما الى ذلك ، وهلمجرأ . ولكن السيد لوباتين استطاع ، رغم «سعيه» على الاغلب الى ميدان متاخم للميدان الفلسفي والبوليسي ، ان يعطي مادة ما لأجل وصف نظرات الفيزيائي-المثالي العرفانية ايضاً . فقد كتب لوباتين يقول : «كان وضعياً حقيقياً في سعيه بلا كلل الى انتقاد اساليب البحث وفرضيات العلم ووقائعه اوسع انتقاد تبعاً لنفعها بوصفها وسائل ومادة لأجل بناء عقيدة كاملة ، ناجزة . وفي هذا المجال كان ن . اي . شيشكين نقيضاً تاماً لكثيرين جداً من معاصريه . ولقد حاولت مراراً في مقالاتي الصادرة سابقاً في هذه المجلة ان اوضح من اي مواد متباينة ، وغالباً متقلقلة ، يتألف ما يسمى بالعقيدة العلمية : فهنا نجد وقائع ثابتة ، وتعميمات جريئة الى هذا الحد او ذاك ، وفرضيات ملائمة في اللحظة المعنية لأجل هذا الميدان العلمي او ذاك ، وحتى اوهاماً علمية ثانوية مساعدة ؛ وكل هذا يُرفع الى مصف حقائق موضوعية لا جدال فيها ويتعين الحكم من وجهة نظرها على اية افكار وعقائد ذات طابع فلسفي وديني ، على ان يُنبذ منها كل ما ليس وارداً في هذه الحقائق . ان صاحبنا المفكر-الطبيعي الرفيع الموهبة فل . اي . فرنادسكي قد بين بوضوح ما بعده وضوح ان مثل هذه الادعاءات بتحويل النظرات العلمية لعهد تاريخي معين الى نظام عقائدي جامد الزامي على الجميع فارغة وفي غير محلها . والواقع ان هذا التحويل لم تقترفه الاوساط الواسعة من جمهور القراء وحسب (ملاحظة السيد لوباتين : «لقد كتبت من اجل هذه الاوساط جملة كاملة من الكتب المبسطة التي يكمن القصد منها في الاقناع بوجود كتاب علمي للتعاليم بالسؤال والجواب يعطي حلاً لجميع المسائل . ومن المؤلفات النموذجية من هذا الطراز : «القوة والمادة» لبوخنر ، او «الغاز العالم» لهيكل» ولم يقترفه مختلف العلماء في الفروع المختصة من العلوم الطبيعية وحسب ؛ فان ما هو اغرب بكثير ، هو

ان الفلاسفة الرسميين يقترفونه ، باذلين جميع جهودهم احياناً ، بوجه الحصر على تقديم البرهان عن انهم لا يقولون شيئاً عدا ما قاله من قبل ممثلو مختلف العلوم المختصة ، مع فارق واحد هو انهم ينطقون به بلغتهم الخاصة .

لم يكن لدى ن . اي . شيشكين اية اعتقادية مسبقة . فهو نصير عن اقتناع لتفسير ظاهرات الطبيعة تفسيراً ميكانيكياً ، ولكن هذا التفسير هو بنظره مجرد طريقة للبحث» (ص ٣٤١)
 هه . . . هه . . . انغام معروفة ! . . . «لم يكن يعتقد اطلاقاً ان النظرية الميكانيكية تكشف كنه الظاهرات المدروسة ذاته ، ولم يكن يرى في هذه النظرية الا الاسلوب الاكثر ملاءمة وفائدة لتوحيد هذه الظاهرات وتعليلها لاغراض العلم . ولهذا لا يتطابق البتة بنظره الفهم الميكانيكي للطبيعة مع النظرة المادية اليها» .
 تماماً كما عند اصحاب «دراسات» «في» فلسفة الماركسية» ! . . .
 «بل بالعكس تماماً ؛ فقد كان يبدو له انه لا بدّ للنظرية الميكانيكية ان تشغل في المسائل من المرتبة العليا موقفاً انتقادياً صرفاً ، وحتى توفيقياً» .

وهذا يعني بلغة الماخيين «تجاوز» التضاد «الشائخ والضيق والوحيد الجانب» بين المادية والمثالية . . . «ان مسألة مبدأ الاشياء الاول ونهايتها الاخيرة ، ومسألة الكنه الداخلي لروحنا ، ومسألة حرية الارادة ، ومسألة خلود الروح ، والنخ . ، لا يمكن لها ، في سعة معناها الفعلي ، ان تكون من صلاحية النظرية الميكانيكية ، لأن هذه النظرية ، بوصفها طريقة للبحث ، تقتصر ضمن الحدود الطبيعية لامكان تطبيقها على وقائع التجربة الفيزيائية وحدها» (ص ٣٤٢) . . . السطران الاخيران منتحلان بلا ريب من كتاب بوغدانوف «الاحادية التجريبية» .

كتب شيشكين في مقالته : «عن الظاهرات النفسية الفيزيائية من وجهة نظر النظرية الميكانيكية» («قضايا الفلسفة وعلم النفس» ، الكتاب الاول ، ص ١٢٧) : «يمكن اعتبار النور مادة ، حركة ، كهرباء ، احساساً» .

لا ريب في ان السيد لوباتين قد نسب شيشكين عن حق وصواب الى عداد الوضعيين وان هذا الفيزيائي يخص كلياً المدرسة الماخية في الفيزياء الجديدة . فان شيشكين يريد ان يقول برأيه في النور ان مختلف النظرات الى النور هي عبارة عن طرائق مختلفة «لتنظيم التجربة» (حسب تعابير ا . بوغدانوف) ، مشروعة بالقدر نفسه من وجهة النظر هذه او تلك ، او «صلات» مختلفة بين «العناصر» (حسب تعابير ماخ) ، وان تعاليم الفيزيائيين عن النور ليست ، على كل حال ، نسخة عن الواقع الموضوعي . ولكن شيشكين يحاكم بشكل رديء جداً . «يمكن اعتبار النور مادة ، حركة . . .» . لا مادة بدون حركة ، ولا حركة بدون مادة في الطبيعة . ان «التضاد» الاول الذي اورده شيشكين لا معنى له . . . «كهرباء . . .» . الكهرباء هي حركة مادة ، وبالتالي كان شيشكين هنا ايضاً على غير حق . وقد أثبتت نظرية النور الكهرمغناطيسية ان النور والكهرباء هما شكلاً حركة المادة ذاتها» (الاثير) . . . «احساساً . . .» . الاحساس هو صورة المادة المتحركة . ولا يسعنا ان نعرف شيئاً ، لا عن اية اشكال للمادة ولا عن اية اشكال للحركة ، الا بواسطة الاحساسات ؛ والاحساسات يستثيرها تأثير المادة المتحركة في اعضاء حواسنا . هكذا يرى علم الطبيعيات . فان الاحساس بالنور الاحمر يعكس ذبذبات الاثير التي تحدث بسرعة ٤٥٠ الف مليار بالثانية تقريباً . والاحساس بالنور الازرق يعكس ذبذبات الاثير التي تحدث بسرعة ٦٢٠ الف مليار بالثانية تقريباً . وذبذبات الاثير موجودة بصورة مستقلة عن احساساتنا بالنور . واحساساتنا بالنور رهن بتاثير ذبذبات الاثير في عضو البصر الانساني . ان احساساتنا تعكس الواقع الموضوعي اي ما هو موجود بصورة مستقلة عن الانسانية والاحساسات الانسانية . هكذا يرى علم الطبيعيات ، وما محاكمة شيشكين الموجهة ضد المادية غير سفسطائية رخيصة للغاية .

٨ - جوهر المثالية «الفيزيائية» ومغزاها

رأينا ان مسألة الاستنتاجات العرفانية من الفيزياء الحديثة قد أثرت وانها موضع بحث من شتى وجهات النظر سواء في المطبوعات الانجليزية ام الالمانية ام الفرنسية . ولا يمكن ان يقوم اي شك في ان امامنا تياراً فكرياً عالمياً لا يتوقف على اي نظام فلسفي ، بل ينبع من بعض الاسباب العامة القائمة خارج الفلسفة . وان استعراض المعطيات الوارد اعلاه يبين بلا ريب ان الماخية «مرتبطة» بالفيزياء الجديدة - ويبين في الوقت نفسه التصور **الغاطي** اصلاً الذي ينشره اصحابنا الماخيون عن هذا الارتباط . ففي الفلسفة كما في الفيزياء ، ينساق الماخيون بذل ومهانة وراء **الموضوعة** ، غير عارفين كيف يعطون من وجهة نظرهم ، الماركسية ، لمحة عامة عن التيارات المعروفة وكيف يقيمون مكانها . . .

ان زيفاً مزدوجاً يفعم كل الشقشقة في الموضوع التالي ، وهو ان فلسفة ماخ هي «فلسفة علم الطبيعيات في القرن العشرين» ، «الفلسفة الحديثة لعلم الطبيعيات» ، «الوضعية الحديثة لعلم الطبيعيات» ، وما الى ذلك (بوغدانوف في مقدمة كتاب «تحليل الاحساسات» ، ص XII, VI ؛ قارن الشيء نفسه عند يوشكيفيتش وفالنتينوف وشركاهما) . اولاً ، الماخية مرتبطة فكرياً بمدرسة واحدة فقط في فرع واحد فقط من فروع العلوم الطبيعية المعاصرة . ثانياً ، - وهذا هو الرئيسي - يرتبط بهذه المدرسة في الماخية ، لا ما يميزها عن جميع الاتجاهات والانظمة الاخرى في الفلسفة المثالية ، بل ما تشترك به الماخية مع المثالية الفلسفية كلها اجمالاً . حسبنا ان نلقي نظرة اجمالية الى كل التيار الفكري الذي نحن بصدده لكي لا يبقى وان ظل لشك في صحة هذه الموضوعية .

خذوا فيزيائي هذه المدرسة : الالمانى ماخ ، الفرنسى هنري بوانكارة ، البلجيكي دوهم ، البريطانى ك . بيرسون . بينهم امور كثيرة مشتركة . وعندهم اساس واحد واتجاه واحد ، كما يعترف كل منهم بذلك عن كل حق وصواب ، ولكن هذا المشترك لا يشمل

لا مذهب النقد التجريبي على العموم ، ولا مذهب ماخ وان على الاقل عن «عناصر العالم» على الخصوص . بل ان الفيزيائيين الاخيرين الثلاثة حتى لا يعرفون لا هذا المذهب ولا ذاك . والمشارك بينهم واحد «فقط» : المثالية الفلسفية التي **يميلون** اليها جميعهم بلا استثناء بدرجات متفاوتة من الوعي ، بدرجات متفاوتة من الحزم . خذوا الفلاسفة الذين يعتمدون على **هذه المدرسة في الفيزياء** الجديدة ، ويحاولون ان يعللوا ويطورها على الصعيد العرفاني ، تروا هنا من جديد الكمونيين الالمان ، تلامذة ماخ ، والنقاد الجدد والمثاليين الفرنسيين ، والروحانيين البريطانيين ، والروسي لوباتين ، وكذلك الاحادي التجريبي الوحيد أ . بوغدانوف . ان المشترك بينهم واحد فقط ، ونعني به انهم جميعاً يروجون المثالية الفلسفية بدرجات متفاوتة من الوعي ، بدرجات متفاوتة من الحزم ، بانحراف حاد ومتسرع صوب الايمانية او بنفور شخصي منها (أ . بوغدانوف) .

ان الفكرة الاساسية عند مدرسة الفيزياء الجديدة التي نحن بصدددها ، هي انكار الواقع الموضوعي المعطى لنا في الاحساس والذي تعكسه نظرياتنا ، او الشك في وجود هذا الواقع . هنا تنصرف هذه المدرسة عن **المادية السائدة حسب الاعتراف العام** بين الفيزيائيين (علماء بان المادية تسمى بصورة غير دقيقة بالواقعية ، والميكانيكية الجديدة ، والهيلوكينتيكا ، وبان الفيزيائيين انفسهم يطورونها بصورة واعية الى حد ما) ، - تنصرف بوصفها مدرسة المثالية «الفيزيائية» .

ولايضاح هذا التعبير الاخير الذي يبدو غريباً جداً ، لا بد من التذكير بواقعة من تاريخ الفلسفة الحديثة وعلم الطبيعيات الحديث . ففي عام ١٨٦٦ ، انقض لودفيغ فورباخ على يوهانس مولر ، المؤسس الشهير للفيزيولوجيا الحديثة ، وصنفته «في عداد المثاليين الفيزيولوجيين» (Werke, X, S. 197) . كانت مثالية هذا الفيزيولوجي تتلخص فيما يلي : مع دراسة اهمية آلية اعضاء حواسنا في علاقاتها بالاحساسات ، ومع الاشارة ، مثلاً ، الى ان

الاحساس بالنور يحصل في حال شتى ضروب التأثير في العين ، كان يميل الى ان يستنتج من هنا انكار كون احساساتنا هي صور عن الواقع الموضوعي . وهذا الميل من مدرسة من مدارس علماء الطبيعيات الى «المثالية الفيزيولوجية» اي الى التفسير المثالي للنتائج المعروفة التي توصلت اليها الفيزيولوجيا ، انما لاحظته لودفيغ فورباخ بخارق الدقة . وفيما بعد ، استغلت الفلسفة الرجعية خلال زمن طويل «صلة» الفيزيولوجيا بالمثالية الفلسفية ، الكانطية الصبغة على الاغلب . وقد تلاعب ف . ا . لانغه بالفيزيولوجيا في صالح المثالية الكانطية ولدحض المادية ؛ ومن بين الكمونيين (الذين صنفهم ا . بوغدانوف ببالح خطأ في خط الوسط بين ماخ و كانط) ، هب ي . رمكه خصيصاً في عام ١٨٨٢ ضد التأكيد الموهوم للكانطية من قبل الفيزيولوجيا* . اما ان عدداً من الفيزيولوجيين الكبار قد مال في ذلك الزمن الى المثالية والكانطية ، فان هذا لا جدال فيه كما لا جدال في ان عدداً من كبار الفيزيائيين يميل في زمننا الى المثالية الفلسفية . ان المثالية «الفيزيائية» اي مثالية مدرسة الفيزيائيين المعروفة في اواخر القرن التاسع عشر وفي اوائل القرن العشرين قلما «تدحض» المادية وقلما تثبت صلة المثالية (او المذهب النقدي التجريبي) بالعلوم الطبيعية ، كما قلما كانت دامغة مساعي ف . ا . لونغه والمثاليين «الفيزيولوجيين» المماثلة . ان الانحراف صوب الفلسفة الرجعية الذي تكشف في هذه الحالة وتلك عند احدى مدارس علماء الطبيعيات في فرع من فروع العلوم الطبيعية هو تعرج موقت ، مرحلة مَرَضِيَّة عابرة في تاريخ العلم ، مرض النمو ، مرض ناجم اكثر ما يكون عن تعظيم المفاهيم المستقرة القديمة تعظيماً شديداً .

ان صلة المثالية «الفيزيائية» المعاصرة بازمة الفيزياء المعاصرة

Johannes Rehmke. «Philosophie und Kantianismus», Eisenach, *

1882, S. 15 وما يليها . (يوهانس رمكه . «الفلسفة والكانطية» ، ايريناخ ،

عام ١٨٨٢ ، ص ١٥ وما يليها . الناشر) .

تلقى الاعتراف العام ، كما سبق وبيّنا . وقد كتب ا . ري ، قاصداً الارتيابين اقل مما قصد انصار الايمانية السافرين من طراز برونيستير ، يقول : «ان حجج النقد الارتيابي الموجهة ضد الفيزياء المعاصرة تتلخص ، من حيث الجوهر ، في حجة جميع الارتيابين المشهورة : في اختلاف الآراء» (بين الفيزيائيين) . ولكن هذه الاختلافات «لا تثبت شيئاً ضد موضوعية الفيزياء» . «في تاريخ الفيزياء ، كما في كل تاريخ ، يمكن تمييز مراحل كبيرة تتصف باختلاف اشكال النظرية ، باختلاف منظرها العام . . . وما ان يظهر واحد من تلك الاكتشافات التي يتردد صداها في جميع اقسام الفيزياء ، مؤكدة واقعاً جذرياً ما كان غير معروف حتى ذاك او لم يلق التقييم التام ، حتى يتغير كل منظر الفيزياء ؛ وتبدأ مرحلة جديدة . هكذا كان بعد اكتشافات نيوتن ، وبعد اكتشافات جول - ماير و كارنو - كلاوزيوس . والامر نفسه يجري ، اغلب الظن ، بعد اكتشاف النشاط الاشعاعي . . . ان المؤرخ الذي سيراقب الاحداث فيما بعد من بعض البعد الضروري ، سيرى بدون جهد دوام التطور حيث المعاصرون لا يرون غير النزاعات والتناقضات والانشقاق الى مدارس مختلفة . اغلب الظن ان هذه الازمة التي عانتها الفيزياء في هذه السنوات الاخيرة انما تنتسب هي ايضاً الى الصنف نفسه من الازمات (خلافاً للاستنتاجات التي استخلصها النقد الفلسفي على اساس هذه الازمة) . انها ازمة نمو (crise de croissance) نموذجية ، ناجمة عن الاكتشافات الجديدة العظيمة . ولا جدال في ان الازمة تؤدي الى تحويل الفيزياء - ، ولولا هذا ، لما كان التطور والتقدم ، - ولكنها لا تغير الروح العلمية» (1.c., p. 370-372) .

ان الموفق ري يحاول ان يجمع معاً جميع مدارس الفيزياء المعاصرة ضد الايمانية ! هذا زيف حسن النية ، ولكنه زيف مع ذلك ، لأن انحراف مدرسة ماخ - بوانكاره - بيرسون الى المثالية (اي الى الايمانية المتفننة) ثابت لا مرأى فيه . اما موضوعية الفيزياء المرتبطة بأسس «الروح العلمية» ، خلافاً للروح الايمانية ، والتي يدافع عنها ري بمثل هذه الحرارة ، فهي لا تعدو ان تكون صيغة

«خجلة» للمادية . ان الروح الاساسية المادية في الفيزياء كما في جميع العلوم الطبيعية المعاصرة ، تتغلب على جميع الازمات على اختلافها ، ولكن بنحو واحد فقط ، هو باحلال المادية الديالكتيكية من كل بدّ محل المادية الميتافيزيائية .

اما ان ازمة الفيزياء المعاصرة تتلخص في تراجعها عن الاعتراف الصريح والقاطع وبلا عودة بالقيمة الموضوعية لنظرياتها ، فان الموفق ري يحاول احياناً كثيرة جداً ان يطمسها ؛ ولكن الوقائع اقوى من جميع محاولات التوفيق . فقد كتب ري يقول : «ان الرياضيين الذين يألفون التعامل مع علم الموضوع فيه ، - على الاقل ، حسبما يبدو ، - يخلقه عقل العالم ، او لا تتدخل فيه ، على كل حال ، الظاهرات الملموسة في البحوث ، قد كوّنوا لانفسهم تصوراً مفرطاً في التجريد عن الفيزياء : فسعيّاً الى تقريب الفيزياء من الرياضيات ، نقلوا النظرية العامة عن الرياضيات الى الفيزياء . . . ان جميع المختبرين يشيرون الى غزو (invasion) روح الرياضيات لاساليب المحاكمات الفيزيائية ولفهم الفيزياء . اولىس هذا التأثير - الذي لا يفقد قوته لأنه يكون احياناً خفياً ، - هو الذي يفسر في معظم الاحيان عدم الثقة ، وتأرجح الفكر فيما يتعلق بموضوعية الفيزياء ، والسبل الملتوية التي يتوصلون فيها الى الموضوعية ، والعقبات التي يذللونها في هذه الحال ؟ . . .» (ص ٢٢٧) .

لقد قيل هذا ببراءة . «تأرجح الفكر» في مسألة موضوعية الفيزياء - في هذا يكمن جوهر المثالية «الفيزيائية» الدارجة ، على الموضة .

« . . . كانت الاوهام المجردة في الرياضيات بمثابة حاجز بين الواقع الفيزيائي وذلك النحو الذي يفهم به الرياضيون علم هذا الواقع . انهم يشعرون شعوراً غامضاً بموضوعية الفيزياء . . . انهم يريدون ان يكونوا ، قبل كل شيء ، موضوعيين ، حين يعكفون على الفيزياء ، وهم يحاولون ان يعتمدوا على الواقع ويحتفظوا بهذا السند ، ولكن العادات القديمة تتغلب . وحتى في مذهب الطاقة الذي

اراد ان يبني العالم بصورة امتن وبعده اقل من الفرضيات مما تبنيه الفيزياء الميكانيكية القديمة ، - التي سعت الى استنساخ (décalquer) العالم الحسي ، لا الى بعثه ، - لا نزال نواجهه نظريات الرياضيين ... لقد فعل الرياضيون كل شيء ، لأجل انقاذ موضوعية الفيزياء ، لأنه لا يمكن بدون الموضوعية ، - وهذا ما يفهمونه جيداً جداً ، - حتى الكلام عن الفيزياء ... ولكن تعقد نظرياتهم ، وسبلهم الملتوية تترك في النفس شعور الارتباك . هذا مفرط في التصنع ، مفرط في التأنق والتأليف (édifié) ؛ والمختبر لا يجد هنا تلك الثقة العفوية التي يبعثها في نفسه التماس الدائم مع الواقع الفيزيائي ... هذا ما يقوله ، من حيث الجوهر ، جميع الفيزيائيين الذين هم فيزيائيون في المقام الاول ، - وهؤلاء كثيرون جداً ، - او هم فيزيائيون فقط ، هذا ما تقوله المدرسة الميكانيكية الجديدة كلها ... ان ازمة الفيزياء تكمن في استيلاء روح الرياضيات على الفيزياء . فان تقدم الفيزياء ، من جهة ، وتقدم الرياضيات من جهة اخرى ، قد أديا في القرن التاسع عشر الى التقارب الوثيق بين هذين العلمين ... ان الفيزياء النظرية قد غدت فيزياء رياضية ... وآنذاك بدأت مرحلة الفيزياء الشكلية اي الفيزياء الرياضية التي صارت رياضية خالصة ، - اي الفيزياء الرياضية لا بوصفها فرعاً من الفيزياء بل فرعاً من الرياضيات . وفي هذا الطور الجديد كان لا بدّ للرياضي الذي اعتاد على العناصر المفاهيمية (المنطقية الصرف) التي تشكل مادة عمله الوحيدة ، والذي يشعر بانه مقيّد بالعناصر الخشنة ، المادية التي وجدها على غير ما يكفي من الليونة ، - كان لا بدّ له ان يبذل جهده لكي يتجرد من هذه العناصر اكثر ما يمكن ، ويتصورها لنفسه بصورة لامادية تماماً ، بصورة منطقية خالصة ، او حتى لكي يتجاهلها كلياً . ان العناصر ، بوصفها معطيات فعلية ، موضوعية ، اي بوصفها عناصر فيزيائية ، قد زالت تماماً . ولم يبق غير العلاقات الشكلية الممثلة بمعادلات تفاضلية ... واذا لم يملك الخبل الرياضي بسبب هذا العمل البناء لعقله ... ، فانه سيستطيع ان يجد صلة الفيزياء النظرية بالتجربة ، ولكن الحاصل

سيكون من النظرة الاولى وبالنسبة للانسان غير المتحيز ، واغلب الظن ، بنياناً اعتباطياً للنظرية . . . التصور ، المفهوم الخالص يحلان محل العناصر الفعلية . . . هكذا تفسّر تاريخياً ، بحكم الشكل الرياضي الذي ارتدته الفيزياء النظرية ، . . . وعكة (le malaise) ، ازمة الفيزياء وابتعادها الظاهري عن الوقائع الموضوعية» (ص ٢٢٨-٢٣٢) .

ذلك هو السبب الاول للمثالية «الفيزيائية» . ان الادعاءات الرجعية تنجم عن تقدم العلم نفسه . ونجاح علم الطبيعيات الضخم ، اي الاقتراب من عناصر متجانسة وبسيطة من عناصر المادة تجيز قوانين حركتها المعالجة الرياضية ، يؤدي الى نسيان المادة من قبل الرياضيين . «المادة تزول» ، وتبقى المعادلات فقط . وفي المرحلة الجديدة من التطور ، تظهر بطريقة جديدة ، على ما يزعم ، الفكرة الكانطية القديمة القائلة ان العقل يملي القوانين على الطبيعة . وان غرمن كوهن الذي ابتهج ، كما رأينا ، بروح الفيزياء الجديدة المثالي ، يتمادى الى حد انه يعظ بادخال الرياضيات العليا في المدرسة ، وذلك لأجل بث روح المثالية في تلامذة المدارس الذي يزيحه عهدنا المادي . (Geschichte des Materialismus von A. Lange, 5. Auflage, 1896, Bd. II, S. XLIX* . يقيناً ان هذا حلم سخيف لرجعي ، ولا يوجد هنا ولا يمكن ان يوجد اي شيء عدا تولع عرضي بالمثالية من قبل جزء صغير من الاختصاصيين . ولكن من اقصى الدلالة ان نرى باية وسائل متفننة يحاول ممثلو البرجوازية المتعلمة ، شأنهم شأن الغارق الذي يتمسك بقشة ، ان يصرونوا او يجدوا مكاناً صغيراً لأجل الايمانية التي يولدها - في اعماق الجماهير الشعبية الجهل والضيم وما يلزم التناقضات الرأسمالية من وحشية سخيفة .

وهناك سبب آخر ولد المثالية «الفيزيائية» ، هو مبدأ نسبية

* ا . لانغه . «تاريخ المادية» ، الطبعة الخامسة ، عام ١٨٩٦ ، المجلد الثاني ، ص ٤٩ . الناشر .

معرفتنا ، المبدأ الذي يفرض نفسه بقوة خاصة على الفيزيائيين في مرحلة تحطيم النظريات القديمة تحطيماً شديداً والذي يؤدي لا محالة - **في حال جهل الديالكتيك** - الى المثالية .

ان هذه المسألة ، مسألة العلاقة بين النسبية والديالكتيك ، تكاد تكون أهم نقطة في تفسير المصائب النظرية للماخية . فان ري ، مثلاً ، شأنه شأن جميع الوضعيين الاوروبيين ، لا يلسم بتاتا بالديالكتيك الماركسي . فهو يستعمل كلمة «الديالكتيك» بمعنى التأمل الفلسفي المثالي على وجه الحصر . ولهذا يتخبط بعجز ، لشعوره بان الفيزياء الجديدة قد جُنّت بالنسبية ، ويحاول ان يميز بين النسبية المعتدلة والنسبية غير المعتدلة . ويقيناً «ان النسبية غير المعتدلة تتاخم منطقياً ، ان لم يكن في الواقع العملي ، الريبية الحقيقية» (ص ٢١٥) ، ولكن هذه النسبية «غير المعتدلة» لا وجود لها ، لو ترون ، عند بوانكاريه . وما في الامر ؟ يمكن ، على طريقة الصيدلي ، وزن قدر اكثر بقليل او اقل بقليل من النسبية ، فيصلح بالتالي امر الماخية !

والواقع ان الطرح الوحيد الصحيح نظرياً لمسألة النسبية يعطيه الديالكتيك المادي لماركس وانجلس ؛ ولا بد لجهل هذا الديالكتيك ان يؤدي لا محالة من النسبية الى المثالية الفلسفية . وان عدم فهم هذا العامل يكفي وحده ، مع ذلك ، لحرمان الكتيب السخيف الذي وضعه السيد برمان عن «الديالكتيك في ضوء النظرية المعاصرة عن المعرفة» من كل اهمية ؛ فان السيد برمان كرر اللغو القديم عن الديالكتيك الذي لم يفهمه اطلاقاً . ولقد سبق وراينا ان عدم الفهم هذا يتكشف عند جميع الماخيين لدى كل خطوة في نظرية المعرفة .

ان جميع الحقائق القديمة في الفيزياء ، بما فيها الحقائق التي كانت تعتبر ثابتة ولا جدال فيها ، تظهر حقائق نسبية ، - وهذا يعني انه لا يمكن ان تكون ثمة اية حقيقة موضوعية مستقلة عن الانسان . هكذا تحاكم لا الماخية كلها وحسب ، بل ايضاً المثالية «الفيزيائية» كلها على العموم . اما ان الحقيقة المطلقة تتكون من

مجمل الحقائق النسبية في تطورها ، وان الحقائق النسبية هي انعكاسات صادقة نسبياً للموضوع المستقل عن البشرية ، وان هذه الانعكاسات تصبح صادقة اكثر فاكثر ، وان لكل دقيقة علمية ، بالرغم من نسبيتها ، عنصر الحقيقة المطلقة ، فان جميع هذه الموضوعات ، البديهية بالنسبة لكل من امعن الفكر في مؤلف انجلس «ضد دوهرينغ» ، هي بمثابة السر المغلق بالنسبة لنظرية العرفان «المعاصرة» .

ان المؤلفات من طراز كتاب ب . دوهيم «نظرية الفيزياء» * او كتاب ستالو «مفاهيم ونظريات الفيزياء المعاصرة» * * اللذين يوصي بهما ماخ بخاصة تبين بخارق الوضوح ان هذين المثاليين «الفيزيائيين» يضيفان القدر الاكبر من الاهمية بوجه الدقة على اثبات نسبية معارفنا ، متذبذبين ، من حيث الجوهر ، بين المثالية وبين المادية الديالكتيكية . والمؤلفان كلاهما ، اللذان ينتسبان الى عهدين مختلفين ويتناولان المسألة من وجهتي نظر مختلفتين (دوهيم - فيزيائي من حيث الاختصاص ، عمل ٢٠ سنة في هذا الميدان ؛ ستالو - هيغلي مخلص سابق ، ينجل من كتاب فلسفة الطبيعة الذي اصدره عام ١٨٤٨ بالروح الهيغلي القديم) يحاربان بأشد الحزم الفهم الذري-الميكانيكي للطبيعة . وهما يبرهنان محدودية هذا الفهم ، واستحالة الاعتراف به حداً لمعارفنا ، وتحجر الكثير من المفاهيم عند الكتاب الذين يتمسكون بهذا الفهم . وهذا النقص الذي تعانيه المادية القديمة اكيد ، لا ريب فيه ؛ وعلى عدم فهم نسبية النظريات العلمية كافة ، وعدم معرفة الديالكتيك ، والمبالغة في وجهة النظر الميكانيكية ، - على كل هذا لام انجلس الماديين السابقين . ولكن انجلس استطاع (خلاقاً لستالو) ان يطرح

P. Duhem. «La théorie physique, son objet et sa structure», *
Paris, 1906 (ب . دوهيم . «نظرية الفيزياء ، موضوعها وبنيتها» ،
باريس ، ١٩٠٦ . الناشر) .

J. B. Stallo. «The Concepts and Theories of Modern Physics», * *
Lond., 1882. وهناك ترجمة فرنسية والمانية .

المثالية الهيغلية جانباً ويفهم نواة الديالكتيك الهيغلي العبقرية حقاً . ولقد تخلى انجلس عن المادية القديمة ، الميتافيزائية في صالح المادية الديالكتيكية ، وليس في صالح النسبية التي تنزلق الى الذاتية . فان ستالو ، مثلاً يقول : «ان النظرية الميكانيكية تنسب ، مع جميع النظريات الميتافيزائية ، وجوداً مادياً مستقلاً الى مجموعات خاصة ، مثالية ولربما اصطلاحية تماماً من الصفات او الى صفات مختلفة وتعتبرها بمثابة وجوه مختلفة من الواقع الموضوعي» (ص ١٥٠) . هذا صحيح اذا كنتم لا تتبراون من الاعتراف بالواقع الموضوعي واذا كنتم تحاربون الميتافيزياء بوصفها مناهضة للديالكتيك . ان ستالو لا يدرك هذا بوضوح . وهو لم يفهم الديالكتيك المادي ولهذا غالباً ما ينزلق عبر النسبية الى الذاتية والمثالية .

والشيء نفسه عند دوهيم . فببذل قدر هائل من الجهد ، ومع امثلة فائقة الطرافة والقيمة من تاريخ الفيزياء كالتي غالباً ما نجدها عند ماخ ، يبرهن دوهيم ان «ايّاً من قوانين الفيزياء هو هوقت ونسبي لأنه تقريبي» (ص ٢٨٠) . هذا الرجل يقتحم باباً مفتوحاً ! - هكذا يقول الماركسي في نفسه حين يقرأ محاكمات طويلة في هذا الموضوع . ولكن مصيبة دوهيم وستالو وماخ وبوانكاره تتلخص بالذات في كونهم لا يرون الباب الذي فتحته المادية الديالكتيكية . وبما انهم لا يعرفون كيف يعطون النسبية صيغة صحيحة ، فانهم ينزلون منها الى المثالية . وقد كتب دوهيم يقول : «ان قانون الفيزياء ، والحق يقال ، ليس صحيحاً ولا كاذباً ، بل تقريبي» (ص ٢٧٤) . ان كلمة «بل» هذه هي بداية الزيف ، بداية محو الحدود بين نظرية العلم التي تعكس الموضوع بصورة تقريبية اي التي تقترب من الحقيقة الموضوعية ، وبين النظرية الاعباطية ، الخيالية ، الاصطلاحية الصرف ، مثلاً ، نظرية الدين او نظرية لعبة الشطرنج .

ان هذا الزيف يبلغ عند دوهيم حد اعلان مسألة ما اذا كان «الواقع المادي» يناسب الظواهر الحسية ، ميتافيزائياً (ص ١٠) :

لتسقط مسألة الواقعية ؛ ان مفاهيمنا وفرضياتنا هي مجرد رموز (signes, p. 26) ، انشاءات «اعتباطية» (ص ٢٧) ، وما الى ذلك . ومن هنا خطوة واحدة الى المثالية ، الى «فيزياء المؤمن» التي يعظ بها السيد بيوتر دوهيم بروح الكانطية (عند ري ، ص ١٢٦ ؛ قارن ص ١٦٠) . اما الطيب الساذج آدلر (فريتس) - وهو ايضاً ماخي يرغب في ان يكون ماركسياً ! - فلم يجد شيئاً اذكي من «اصلاح» دوهيم على النحو التالي : انه ينحني «الوقائع المنغنية وراء الظاهرات ، وذلك بوصفها مواضيع النظرية وحسب ، وليس بوصفها **مواضيع الواقع**» * . هذا نقد للكانطية من وجهة نظر هيوم وبركلي ، نقد سبق وعرفناه .

ولكنه لا يمكن حتى ان يدور الحديث عن اي كانطية واعية عند دوهيم . فهو يتأرجح وحسب ، مثل ماخ ، غير عارف على ما يسند نسبته . وفي جملة كاملة من الاماكن يقترب عن كذب من المادية الديالكتيكية . نحن نعرف الصوت ، «كما هو موجود حياناً ، ولكن ليس كما هو في حد ذاته ، في الاجسام التي تولد الصوت . وهذا الواقع الذي لا تكشف منه احساساتنا غير الخارجي والسطحي ، توفر لنا امكانية معرفته نظريات علم الصوتيات . وهي تبين لنا انه حيث لا تتلقف مدركاتنا غير ذلك الظاهري الذي نسميه بالصوت ، توجد بالفعل حركة دورية ، صغيرة جداً ، سريعة جداً» والخ . (ص ٧) . ليست الاجسام رموز الاحساسات ، بل الاحساسات هي رموز (والاصح - صور) الاجسام . «ان تطور الفيزياء يستتبع نضالاً دائماً بين الطبيعة التي لا تكل عن اعطاء المادة ، وبين العقل الذي لا يكل عن المعرفة» (ص ٣٢) - الطبيعة لامتناهية ، كما ان اصغر دقيقة منها (بما في ذلك الالكترون) لامتناهية ، ولكن العقل يحول «الاشياء في ذاتها» بصورة لامتناهية ايضاً الى «اشياء من اجلنا» . «ان النضال بين الواقع وقوانين الفيزياء سيدوم الى ما لا نهاية ؛ وكل قانون تصوغه الفيزياء يقابله الواقع ، عاجلاً ام

* «ملاحظة المترجم» للترجمة الالمانية لكتاب دوهيم ،

آجلاً ، بدحض فظ - بالدحض بواسطة الواقع ؛ ولكن الفيزياء ستنتج بلا كلل ، وتغير ، وتعقد القانون المدحوض» (ص ٢٩٠) .
ولو ان المؤلف تمسك بصلافة بالوجود المستقل عن البشرية لهذا الواقع الموضوعي ، لكان ذلك عرضاً صحيحاً تماماً للمادية الديالكتيكية . «... ان نظرية الفيزياء ليست نظاماً مصطنعاً تماماً ، نظاماً ملائماً اليوم ، وغير نافع غداً ؛ انما هي تصنيف طبيعي اكثر فاكثر ، انعكاس اوضح فأوضح لتلك الوقائع التي لا يمكن للطريقة الاختبارية ان تتأملها مباشرة» (حرفياً : وجهاً لوجه : face à face, . p. 445)

وبالجملة الاخيرة يغازل الماخي دوهم المثالية الكانطية : فكأنما ينكشف درب امام طريقة اخرى غير الطريقة «الاختبارية» ، كأنما نحن لا نعرف «الاشياء في ذاتها» رأساً ، مباشرة ، وجهاً لوجه . ولكن اذا كانت نظرية الفيزياء تصبح طبيعية اكثر فاكثر ، فان هذا يعني انه توجد ، بصورة مستقلة عن ادراكنا ، «طبيعة» ، واقع ، «تعكسه» هذه النظرية ، - وهكذا هي بالضبط نظرة المادية الديالكتيكية .

خلاصة القول ان المثالية «الفيزيائية» اليوم ، شأنها تماماً شأن المثالية «الفيزيولوجية» في الامس ، تعني فقط ان مدرسة من مدارس علماء الطبيعيات في فرع واحد من فروع العلوم الطبيعية قد انزلت الى الفلسفة الرجعية ، اذ لم تستطع ان تنهض رأساً ودفعة واحدة من المادية الميتافيزيائية الى المادية الديالكتيكية * .

* يقول الكيماوي الشهير وليام رمسي : «غالباً ما سالوني : اوليست الكهرباء اهتزازاً ؟ وكيف يمكن تفسير التلغراف اللاسلكي بتحريك دقائق صغيرة او جسيمات صغيرة ؟ الجواب عن هذا يتلخص فيما يلي : الكهرباء هي شيء ؛ وهي (حرف التأكيد لرمسي) هذه الجسيمات الصغيرة ، ولكن حين تتطاير هذه الجسيمات من موضوع ما ، تنتشر في الاثير موجة تشبه الموجة الضوئية ، وهذه الموجة يستفاد منها لأجل التلغراف اللاسلكي» (William Ramsay. «Essays Biographical and Chemical», Lond., 1908, p. 126) (وليام رمسي . «نبذات بيوغرافية وكيماوية» ، لندن ، عام

ان هذه الخطوة تخطوها وستخطوها الفيزياء المعاصرة ، ولكن هذه الفيزياء تمضي نحو الطريقة الصحيحة الوحيدة ونحو الفلسفة الصحيحة الوحيدة للعلوم الطبيعية ، لا بطريق مستقيم ، بل بتعرجات ، لا بصورة واعية ، بل بصورة عفوية ، دون ان ترى بوضوح «هدفها النهائي» ، بل مقتربة منه تلمساً ، مترنحة ، وحتى بالمقلوب احياناً . ان الفيزياء المعاصرة هي في حالة الوضع . وهي تضع المادية الديالكتيكية . والوضع مؤلم . وعدا الكائن الحي والقادر على الحياة ، يعطي الوضع بلا مناص بعض المنتوجات الميتة ، بعض النفايات التي يتعين ارسالها الى المزبلة . وفي عداد هذه النفايات ، كل المثالية الفيزيائية ، كل الفلسفة النقدية التجريبية مع الرمزية التجريبية والاحادية التجريبية ، وما شاكلهما) .

١٩٠٨ ، ص ١٢٦ . (الناشر) . وبعد ان يتحدث رمسي عن تحول الراديوم الى هيليوم ، يلاحظ قائلاً : «على الاقل ، لم يعد من الممكن الآن اعتبار ما يسمى بالعنصر الواحد المادة الاخيرة ؛ فهو نفسه يتحول الى شكل ايسر للمادة» (ص ١٦٠) . «لا ريب تقريباً ان الكهرباء السالبة هي شكل خاص للمادة ؛ في حين ان الكهرباء الموجبة هي مادة محرومة من الكهرباء السالبة اي هي مادة خالية من هذه المادة الكهربائية» (ص ١٧٦) . «ما هي الكهرباء ؟ من قبل كانوا يعتقدون انه يوجد نوعان من الكهرباء : الموجبة والسالبة . ففي ذلك الوقت ، لم يكن من الممكن الجواب عن السؤال المطروح . ولكن البحوث الحديثة تجعل من المحتمل ان يكون ما اعتادوا على تسميته بالكهرباء السالبة جوهراً بالفعل (really) . وبالفعل تم قياس الوزن النسبي لدقيقته : وهذه الدقيقة توازي تقريباً جزءاً من ٧٠٠ جزء من كتلة ذرة الهيدروجين . . . ان ذرات الكهرباء تسمى بالالكترونات» (ص ١٩٦) . ولو كان بوسع اصحابنا الماخيين الذين يكتبون الكتب والمقالات في مواضيع فلسفية ان يفكروا ، لفهموا ان تعبير : «المادة تزلزل» او تعبير «المادة تنحصر في الكهرباء» او ما الى ذلك ، ليس غير تعبير عاجز على الصعيد العرفاني عن تلك الحقيقة القائلة انه من الممكن اكتشاف اشكال جديدة للمادة ، اشكال جديدة للحركة المادية ، وحصر الاشكال القديمة في هذه الاشكال الجديدة ، والخ . . .

الفصل السادس

المذهب النقدي التجريبي والمادية التاريخية

ينقسم الماخيون الروس ، كما سبق ورأينا ، الى معسكرين . المعسكر الاول : السيد تشيرنوف ومعاونو «روسكويه بوغاتستفو» (٨٦) ، وهم اخصام كاملون ومنسجمون للمادية الديالكتيكية في الفلسفة والتاريخ على السواء . وزمرة الماخيين الاخرى ، - وهي اكثر ما يهمننا هنا ، - ترغب في ان تكون من الماركسيين ، وتحاول بشتى الوسائل ان تؤكد للقراء بان الماخية تتفق مع مادية ماركس وانجلس التاريخية . صحيح ان هذه التأكيدات تبقى في معظم الاحيان مجرد تأكيدات : فما من ماخي يرغب في ان يكون ماركسياً قام بأقل محاولة لكي يعرض بصورة نظامية نوعاً الميول الفعلية لمؤسسي المذهب النقدي التجريبي في ميدان العلوم الاجتماعية . وسنتناول بايجاز هذه المسألة ونأخذ في البدء بيانات النقاد التجريبيين الالمان المتوفرة في المطبوعات ، ثم بيانات تلامذتهم الروس .

١- جولات النقاد التجريبيين الالمان في ميدان العلوم الاجتماعية

في سنة ١٨٩٥ ، عندما كان ر . افيناريوس لا يزال على قيد الحياة ، ظهرت في المجلة الفلسفية التي كان يصدرها مقالة تلميذه ،

ف . بلي : «الميتافيزياء في الاقتصاد السياسي» * . ان جميع معلمي المذهب النقدي التجريبي يحاربون ضد الميتافيزياء ، لا في المادية الفلسفية السافرة ، الواعية وحسب ، بل ايضاً في العلوم الطبيعية التي تتبنى بصورة عفوية وجهة نظر النظرية المادية عن المعرفة . ويشن التلميذ الحرب ضد الميتافيزياء في الاقتصاد السياسي . وهذه الحرب موجهة ضد شتى المدارس في الاقتصاد السياسي ، ولكن ما يهمنا بوجه الحصر هو طابع الحجج النقدية التجريبية ضد مدرسة ماركس وانجلس .

كتب ف . بلي يقول : «هدف هذا البحث ، ان يبين ان كل الاقتصاد السياسي المعاصر يستخدم مقدمات ميتافيزيائية لدن تفسير ظاهرات الحياة الاقتصادية : فهو «يستنتج» «قوانين» الاقتصاد من «طبيعته» ، ولا يظهر الانسان الا كشيء عرضي حيال هذه «القوانين» . . . ان الاقتصاد السياسي يقف بكل نظرياته المعاصرة في التربة الميتافيزيائية ، وجميع نظرياته لابيولوجية وبالتالي لاعلمية ، ولا قيمة لها لأجل المعرفة . . . ان النظرين لا يعرفون على ما يبنون نظرياتهم ، ولا يعرفون في اي تربة نشأت هذه النظريات . وهم يتصورون انهم واقعيون لا يستخدمون اية مقدمات ، لأنهم يهتمون ، حسب زعمهم ، بظاهرات اقتصادية «بسيطة» (nüchterne) ، «عملية» ، «جليية للعيان» (sinnfällige) . . . وجميعهم يجمعهم مع كثير من الاتجاهات في الفيزيولوجيا ذلك الشبه بين الاقارب الذي لا ينتقل الى الاولاد - وفي حالتنا : الفيزيولوجيين والاقتصاديين - الا من جراء ولادتهم من نفس الاب والام ، اي بالضبط : الميتافيزياء والتأمل . فان مدرسة من مدارس الاقتصاديين تحلل «ظاهرات» «الاقتصاد» (يأخذ افيناريوس

* «Vierteljahrsschrift für wissenschaftliche Philosophie», 1895, Bd. XIX. F. Blei. «Die Metaphysik in der Nationalökonomie», SS. 378-390 (المجلة الفصلية في الفلسفة العلمية) ، عام ١٨٩٥ ، المجلد ١٩ . ف . بلي . «الميتافيزياء في الاقتصاد السياسي» ، ص ٣٧٨-٣٩٠ . (الناشر) .

ومدرسته بين هلالين صغيرين كلمات عادية ، رغبة في تبيان انهم ، وهم فلاسفة حقيقيون ، على حد زعمهم ، يفهمون كل «ميتافيزيائية» مثل هذا الاستعمال المبتذل للكلمات ، غير المطهر «بالتحليل العرفاني» ، دون ان تربط بين ما تجده (das Gefundene) في هذا السبيل ، وبين سلوك الافراد : فان الفيزيولوجيين يستبعدون سلوك الفرد بوصفه «فعل الروح» (Wirkungen der Seele) من بحوثهم ، والاقتصاديون من هذا الاتجاه يعلنون ان سلوك الافراد لا يتسم باي اهمية (eine Negligible) بالنسبة «لقوانين الاقتصاد الكمونية» (ص ٣٧٨-٣٧٩) . وعند ماركس ، لاحظت النظرية بين العمليات المبنية «القوانين الاقتصادية» ، علماً بان «القوانين» وردت في القسم الاولي (Initialabschnitt) من الصف الحيوي التابع ، بينما وردت العمليات الاقتصادية في القسم النهائي (Finalabschnitt) . . . وتحول «الاقتصاد» عند الاقتصاديين الى مقولة متعالية اكتشفوا فيها «قوانين» ارادوا ان يكتشفوها : «قوانين» «الرأسمال» و«العمل» ، و«الربح» و«الاجرة» ، و«الربح» . وتحول الانسان عند الاقتصاديين الى مفهوم افلاطوني عن «الرأسمالي» و«العامل» والخ . . . ونسبت الاشتراكية الى «الرأسمالي» خاصة «التحرق الى الربح» ، ونسبت الليبرالية الى العامل خاصة «التطلب» ، وكلا القانونين جرى تفسيره في هذه الحال «بالفعل الطبيعي للرأسمال» (ص ٣٨١-٣٨٢) .

«لقد باشر ماركس دراسة الاشتراكية الفرنسية والاقتصاد السياسي انطلاقاً من العقيدة الاشتراكية ، وكان هدفه العرفاني اعطاء هذه العقيدة «تعليلاً نظرياً» لأجل «تأمين» قيمتها الانطلاقية . ولقد وجد ماركس عند ريكاردو قانون القيمة ، ولكن . . . استنتاجات الاشتراكيين الفرنسيين من ريكاردو لم يكن بوسعها ان ترضي ماركس لأجل «تأمين» قيمتها الانطلاقية ، الموضوعية في حالة التنوع الحياتي ، اي في حالة «عقيدة» ، لأن هذه الاستنتاجات قد دخلت كقسم مكوّن في مضمون قيمتها الاولية ، بصورة «الاستياء من سرقة العمال» ، والخ . . . وقد نبذت الاستنتاجات

بوصفها «غير صحيحة شكلاً من الناحية الاقتصادية» ، لأنها مجرد «تطبيق للاخلاق على الاقتصاد السياسي» . «ولكن ما هو غير صحيح بالمعنى الاقتصادي الشكلي قد يكون صحيحاً بالمعنى التاريخي العالمي . واذا كان وعي الجماهير الاخلاقي يعلن واقعاً اقتصادياً معيناً غير عادل ، فان هذا برهان على ان هذا الواقع نفسه قد ولى عهده ، وانه ظهرت وقائع اقتصادية اخرى اصبحت هذا الواقع بحكمها واقعاً لا يطاق ولا يمكن ابقاؤه . ووراء الخطأ الاقتصادي الشكلي يمكن بالتالي ان يكمن المضمون الاقتصادي الحقيقي» (انجلس في مقدمته لكتاب ماركس «بؤس الفلسفة»).

ويواصل ف . بلي ، مستشهداً بمقتبس من انجلس : «في هذا المقتبس ، سحِب (abgehoben - وهذا تعبير تكنيكي عند افيناريوس يعني : وصل الى الوعي ، تميّز) القسم الاوسط (Medialabschnitt) من الصف التابع الذي يهمننا هنا . بعد «معرفة» انه لا بد ان يكون «الواقع الاقتصادي» كامناً وراء «الوعي الاخلاقي للخطأ» ، يحل القسم النهائي . . .» . (Finalabschnitt) : ان نظرية ماركس هي رأي اي قيمة انطلاقية ، اي تنوع حياتي يمر بثلاثة اطوار ، ثلاثة اقسام : البدايه ، الوسط ، النهايه ، (Initialabschnitt, Medialabschnitt, Finalabschnitt) . . .» اي

«معرفة» هذا «الواقع الاقتصادي» . او بتعبير آخر : تتلخص المهمة الآن في «ان نجد من جديد» «القيمة الاولية» اي «العقيدة» في «الوقائع الاقتصادية» لأجل «تأمين» هذه القيمة الاولية . هذا الشكل المعين من الصف التابع يتضمن ميتافيزياء ماركس ، ولا فرق ، مهما برز «المعروف» في القسم النهائي (Finalabschnitt) . ان «العقيدة الاشتراكية» ، بوصفها قيمة انطلاقية مستقلة و«حقيقة مطلقة» ، تُعَلَّل «بعد فوات الاوان» بواسطة نظرية «خاصة» للمعرفة ، اي بالضبط : بواسطة نظام ماركس الاقتصادي ونظرية التاريخ المادية . . . بواسطة مفهوم القيمة الزائدة يجد «الحقيقي» «ذاتياً» في العقيدة الماركسية «حقيقته الموضوعية» في نظرية معرفة «المقولات الاقتصادية» ، - تأمين القيمة الاولية تحقق ، الميتافيزياء

تلقت بعد وقوع الامر انتقاد المعرفة» (ص ٣٨٤-٣٨٦) .
اغلب الظن ان القارى يغضب علينا لأننا نورد بمثل هذا
التطويل هذا الهذر الذي بلغ حداً لا يصدق من السخف والابتذال ،
هذه البهلوانية العلمية المزيفة في لباس تعابير افيناريوس . ولكن
wer den *Feind* will verstehen, muß im *Feindes* Lande gehen
- من يرغب في معرفة العدو ، يتعين عليه ان يزور البلاد المعادية
(٨٧) . والواقع ان مجلة ر . افيناريوس الفلسفية هي بلاد معادية
حقيقية بالنسبة للماركسيين . ونحن ندعو القراء الى التغلب لحظة
على النفور المشروع من بهاليل العلم البرجوازي وتحليل حجج تلميذ
افيناريوس ومعاونه .

الحجة الاولى : ماركس هو «ميتافيزيائي» ، لم يفهم «نقد
المفاهيم» العرفاني ، ولم يضع نظرية العرفان العامة ، ودس
المادية رأساً في «نظريته الخاصة عن العرفان» .

ليس في هذه الحجة شيء يخص بلي شخصياً وبلي وحده .
فلقد رأينا عشرات المرات ومئات المرات كيف يتهم جميع مؤسسي
المذهب النقدي التجريبي وجميع الماخين الروس المادية
«بالميتافيزياء» اي - والاصح القول - كيف يكررون حجج الكانطيين
والهيوميين والمثاليين البالية ضد «المتافيزياء» المادية .

الحجة الثانية : الماركسية ميتافيزيائية مثل علم الطبيعيات
(الفيزيولوجيا) . و«ذنب» هذه الحجة لا يتحملة بلي ، بل يتحملة
ماخ وافيناريوس ، لأنها اعلنا الحرب على «الميتافيزياء الطبيعية
التاريخية» ، مطلقين هذا الاسم على النظرية المادية-العفوية عن
المعرفة التي تتمسك بها (باعترافهما بالذات وبرأي جميع الذين
يعرفون المسألة نوعاً) الاغلبية الساحقة من علماء الطبيعيات .

الحجة الثالثة : اعلان «الفرد» من قبل الماركسية مقداراً لا
شأن له ، *quantité négligeable* ، اعتبار الانسان «صدفة» ،
اخضاعه «لقوانين اقتصادية كموثية» ما ، غياب تحليل
des *Gefundenen* - ما نجده ، ما هو معطى لنا ، والخ . . - هذه
الحجة تكرر كلياً مجموعة افكار «التنسيق المبدئي» النقدي التجريبي

اي الشعوذة المثالية في نظرية افيناريوس . ان بلي محق تماماً في قوله انه لا يمكن ان نجد عند ماركس وانجلس وان ظلّا لتلميح الى التسليم بمثل هذا الهراء المثالي وانه يتأتى حتماً ، من وجهة نظر هذا الهراء ، نبذ الماركسية كلياً ، منذ بادىء بدء ، من مقدماتها الفلسفية الاساسية بالذات .

الحجة الرابعة : نظرية ماركس «لابيولوجية» ؛ وهي لا تعرف ولا تريد ان تعرف اية «تنوعات حياتية» وما مائل من التلاعب بالتعابير البيولوجية الذي يشكل «علم» البروفسور الرجعي افيناريوس . ان حجة بلي صحيحة من وجهة نظر الماخية ، لأن الهوة بين نظرية ماركس وترهات افيناريوس «البيولوجية» تفتقاً العين بالفعل من النظرة الاولى . وسنرى الآن كيف حدا في واقع الامر الماخيون الروس حذو بلي رغبة منهم في ان يكونوا ماركسيين .

الحجة الخامسة : حزبية نظرية ماركس ، تحيّرنا ، تحامل

قراره . ان المذهب النقدي التجريبي كله ، وليس البتة بلي وحده ، يدّعي بالاحزبية في الفلسفة وفي العلم الاجتماعي على السواء . لا اشتراكية ، ولا ليبرالية . لا الفصل بين الاتجاهين الجذريين وغير القابلين للتوفيق بينهما في الفلسفة ، المادية والمثالية ، بل السعي الى الارتفاع فوقهما . ولقد تتبعنا ميل الماخية هذا في جملة طويلة من مسائل علم العرفان ، ولا يحق لنا ان ندهش اذا وجدناه في علم الاجتماع .

«الحجة» السادسة : السخر من الحقيقة «الموضوعية» . ان بلي قد شعر في الحال ، وشعر بصورة صحيحة تماماً بان المادية التاريخية ومذهب ماركس الاقتصادي كله مفعمان تماماً بالاعتراف بالحقيقة الموضوعية . ولقد اعرب بلي بصورة صحيحة عن ميل مذهب ماخ وافيناريوس عندما نبذ الماركسية «من العتبة» ، كما يقال ، وذلك بالضبط بسبب فكرة الحقيقة الموضوعية ، عندما اعلن في الحال ان لا شيء عدا نظرات ماركس «الذاتية» ، لا يكمن بالفعل وراء مذهب ماركس .

واذا ما تبرأ اصحابنا الماخيون من بلي (وسيتبرأون منه

على الارجح) ، فاننا سنقول لهم : لا تلم المرأة اذا . . . والنخ . . . فان بلي هو مرآة تعكس بصدق وامانة ميول المذهب النقدي التجريبي ، في حين ان تبرؤ ماخينا يشهد فقط على نواياهم الطيبة ، وعلى سعيهم الاختياري السخيف للجمع بين ماركس وافيناريوس . لننتقل من بلي الى بتسولدت : اذا كان الاول تلميذاً بسيطاً ، فان الثاني يعلنه نقاد تجريبيون مثل ليسيفيتش معلماً . واذا كان بلي قد طرح مسألة الماركسية مباشرة ، فان بتسولدت ، - الذي لا يتنازل الى حد ان يحسب حساباً لشخص ما اسمه ماركس او انجلس ، - يعرض بشكل ايجابي نظرات المذهب النقدي التجريبي في علم الاجتماع ، الامر الذي يتيح اجراء مقارنة بينها وبين الماركسية .

المجلد الثاني من مؤلف بتسولدت «مقدمة الى فلسفة التجربة الخالصة» يحمل العنوان التالي : «في الطريق الى الاستقرار» («Auf dem Wege zum Dauernden») . ويضع المؤلف الميل الى الاستقرار في اساس بحثه . «ان الحالة النهائية (endgültig) ، المستقرة للبشرية يمكن كشفها من الناحية الشكلية بخطوطها الكبرى . وهكذا نكتسب اسساً لأجل علم الاخلاق وعلم الجمال والنظرية الشكلية للمعرفة» (ص III) . «ان التطور البشري ينطوي على هدفه» ، وهو يسير نحو «الحالة المستقرة الكاملة (vollkommenen) (ص ٦٠) . وعلائم ذلك عديدة ومتنوعة . مثلاً ، هل هم كثيرون اولئك الراديكاليون المتعصبون الذين قد لا «يعقلون» ولا يهدأون على ابواب الشيوخة ؟ صحيح ان هذا «الاستقرار السابق للوان» (ص ٦٢) هو خاصة التافه الضيق الافق . ولكن ألا يشكل التافهون الضيقو الافق «اغلبية متراصة» ؟ (ص ٦٢) .

اليكم استنتاج فيلسوفنا المطبوع باحرف مائلة : «ان العلامة الجوهرية ولا اكثر لجميع اهداف تفكيرنا وابداعنا هي الاستقرار» (ص ٧٢) . التوضيح : كثيرون «لا يستطيعون ان يروا» اللوحة معلقة على الجدار باعوجاج او المفتاح موضوعاً على الطاولة باعوجاج .

وهؤلاء الناس «ليسوا البتة بالضرورة متحذلقين» (ص ٧٢) . وهم يتحلون «بالشعور بأنه يوجد تشوش ما» (ص ٧٢) . حرف التأكيد لبتسولدت) . خلاصة القول ان «الميل الى الاستقرار هو السعي الى الحالة النهائية ، الاخيرة بحكم طبيعتها» (ص ٧٣) . وكل هذا وارد في الفصل الخامس من المجلد الثاني ، وعنوان هذا الفصل : «الميل النفسي الى الاستقرار» . براهين هذا الميل جميعها دامغة ولا اكثر . مثلاً : «ان الذين يحبون تسلق الجبال يسعون الى الاخير ، الى الاعلى بالمعنى الاولي ، المكاني . وما يدفعهم الى هذا ، ليس دائماً مجرد السعي الى رؤية البعيد والى التمرين البدني ، السعي الى الهواء النقي والطبيعة العظيمة ، بل كذلك السعي الكامن عميقاً في كل كائن عضوي الى ان يكون مثابراً في الاتجاه المتخذ مرة للنشاط حتى بلوغ الهدف الطبيعي ضمناً» (ص ٧٣) . واليكم مثلاً آخر : كم وكم من النقود يدفع الناس لكي يجمعوا مجموعة كاملة من الطوابع البريدية ! «قد يدوخ رأسك ما ان ترى تسعير تاجر الطوابع البريدية . . . ومع ذلك لا يمكن ان يكون ثمة شيء طبيعياً ومفهوماً اكثر من هذا السعي الى الاستقرار» (ص ٧٤) .

ان الناس غير الملمين بالفلسفة لا يدركون كل سعة مبادئ استقرار او اقتصاد التفكير . وعلى هؤلاء يعرض بتسولدت «نظرية» بالتفصيل . «الشفقة هي تعبير عن حاجة طبيعية الى حالة مستقرة» . ذلك هو مضمون الفقرة ٢٨ . . . «الشفقة ليست تكراراً ، مضاعفة للآلم المنظور ، بل آلم لمناسبة هذا الآلم . . . يجب دفع طبيعية الشفقة الى الامام بأشد العزيمة . واذا اعترفنا بها ، فاننا نعترف بالتالي ان خير الآخرين يمكن ان يهم الانسان بصورة طبيعية وفي المقام الاول كما يهمله خيره بالذات . وهكذا ننبت بالتالي كل تعليل بالنعمية والسعادة لمذهب الاخلاقية . ان الطبيعة البشرية ، بفضل سعيها الى الاستقرار والهدوء على وجه الدقة ، ليست في اساسها شراً ، بل هي مفعمة بالاستعداد لتقديم العون .

وغالباً ما تتكشف طبيعية الشفقة في طبيعة المساعدة . فلأجل انقاذ الغير ، لا يندر ان يندفع المرء بدون تفكير الى مساعدة

الغريق . فان رؤية انسان يكافح الموت لا تطاق ، وتحمل المندفع الى تقديم المساعدة على نسيان واجباته الاخرى ، وحتى على المجازفة بوجوده ووجود اقربائه بغية انقاذ الحياة العقيمة لسكير ما فاسد ، اي ان يوسع الشفقة في احوال معينة ان تدفع الى اعمال غير جديرة بالتبرير من وجهة النظر الاخلاقية» . . .

وبمثل هذه التفاهات التي لا توصف تمتلئ عشرات ومئات الصفحات من فلسفة النقد التجريبي !

فان الاخلاق تُستخلص من مفهوم «الحالة المستقرة الاخلاقية» (القسم الثاني من المجلد الثاني : «حالات الروح المستقرة» ، الفصل الاول : «بصدد الحالة المستقرة الاخلاقية») . «ان الحالة المستقرة لا تتضمن ، من حيث مفهومها ، في اي من عناصرها ، اية شروط للتغير . ومن هنا ينجم ، بدون اية محاكمات لاحقة ، ان هذه الحالة لا تترك اية امكانية لأجل الحرب» (ص ٢٠٢) . «ان المساواة الاقتصادية والاجتماعية تنبع من مفهوم الحالة المستقرة النهائية (endgültig) (ص ٢١٣) . وليس من الدين تنبع هذه «الحالة المستقرة» ، بل من «العلم» . وليست «الاجلبيية» هي التي تحققها ، كما يظن الاشتراكيون ، وليست سلطة الاشتراكيين هي التي «ستساعد البشرية» (ص ٢٠٧) - كلا ، فان «التطور الحر» سوف يقود الى المثال الاعلى . الا ينخفض بالفعل ، يا ترى ، ربح الرأسمال ، ألا تزداد الاجرة على الدوام ؟ (ص ٢٢٣) . وجميع هذه الاقوال بصدد «العبودية المأجورة» غير صحيحة (ص ٢٢٩) . كانوا يكسرون ارجل العبيد دون اي عقاب ، اما الآن ؟ كلا ، ان «التقدم الاخلاقي» امر لا ريب فيه : انظر الى المقامات الجامعية في انجلترا ، الى جيش الخلاص (ص ٢٣٠) ، الى «الجمعيات الاخلاقية» الالمانية . وباسم «الحالة المستقرة الجمالية» (الفصل الثاني من القسم الثاني) تُنبذ «الرومانطيقية» . والحال تُنسب الى الرومانطيقية جميع وجوه توسيع الأنا الى ما لا حد له ، والمثالية ، والميتافيزياء ، والسحر والتنجيم ، والسوليبسيسم ، والانانية ، و«فرض ارادة الاجلبيية على الاقلية بالعنف» ، و«المثال

الاعلى الاشتراكي-الديموقراطي لتنظيم العمل كله من قبل الدولة»
(ص ٢٤٠-٢٤١) * .

البلاد الامتنائية للتافه الضيق الافق الذي ينشر بخيلاء
النفائات المبتذلة للغاية تحت ستار التصنيف والمصطلحات
«الجديدة» ، «النقدية التجريبية» ، الى هذا تؤول جولات بلسي
وبتسولدت وماخ في ميدان علم الاجتماع . الحلة الدعية المتحدقة
من الشعوذات الكلامية ، حيل القياس المصطنعة ، والمدرسية
المتفئنة ، وبكلمة- الشيء نفسه في علم العرفان وعلم الاجتماع
على السواء ، المضمون الرجعي نفسه وراء الالفة الصياحة نفسها .
لنر الآن الى الماخين الروس .

٢ - كيف يصلح بوغدانوف ماركس و «يطوره»

يورد بوغدانوف في مقالته «تطور الحياة في الطبيعة وفي
المجتمع» (عام ١٩٠٢ . انظر «من سيكولوجيا المجتمع» ، ص ٣٥
وما يليها) مقطعاً مشهوراً من مقدمة «Zur Kritik» (٨٨) الذي
يعرض فيه «العالم لاجتماعي الاعظم» ، اي ماركس ، اسس المادية
التاريخية . وبعد ان يورد بوغدانوف كلمات ماركس ، يعلن ان
«الصياغة القديمة للاحادية التاريخية لم تعد ترضينا تماماً مع انها
لا تزال صحيحة في اساسها» (ص ٣٧) . ان المؤلف يريد بالتالي
ان يعدل او يطور النظرية ، **انطلاقاً من اساسها بالذات** . واستنتاج
المؤلف الرئيسي هو التالي :

«لقد بيّننا ان الاشكال الاجتماعية تعود الى نوع واسع هو

* وبالروح نفسه يعرب ماخ عن تأييده لاشتراكية بوبر ومنغر
البيروقراطية التي تؤمن «حرية الفرد» في حين ان مذهب الاشتراكيين-
الديموقراطيين الذي «هو اسوأ» من هذه الاشتراكية يهدد «بعبودية أعم
وأشق مما في ظل الدولة الملكية او في ظل الدولة الاوليغاركية» . انظر
«Erkenntnis und Irrtum», 2. Auflage, 1906, SS. 80-81 (المعرفة

والضلال» ، الطبعة الثانية ، عام ١٩٠٦ ، ص ٨٠-٨١ . (الناشر) .

نوع التكيفات البيولوجية . ولكننا بذلك لم نحدد بعد ميدان الاشكال الاجتماعية : فلأجل التحديد يجب ان نثبت ، لا النوع وحسب ، بل الجنس ايضاً . . . ان الناس لا يستطيعون في نضالهم من اجل الوجود ان يتعدوا الا بمساعدة الوعي : فلا معاشره بدون وعي . ولهذا فان الحياة الاجتماعية في جميع مظاهرها هي نفسية عن وعي . . . ان الطابع الاجتماعي لا ينفصل عن الوعي . ان الوجود الاجتماعي والوعي الاجتماعي ، بمعنى هاتين الكلمتين الدقيق ، متماثلان» (ص ٥٠ ، ٥١ . حرف التأكيد لبوغدانوف) .

اما ان هذا الاستنتاج لا يجمعه اي جامع بالماركسية ، فقد سبق وأثبت اورثودوكس ذلك («نبذات فلسفية» ، سانت بطرسبورغ ، عام ١٩٠٦ ، ص ١٨٣ وما قبلها) . ولكن بوغدانوف رد عليه بالشتائم فقط مما حاكاً بشأن خطأ في المقتبس : فعوضاً عن «بمعنى هاتين الكلمتين الدقيق» ، اورد اورثودوكس «بالمعنى الكامل» . الخطأ بيّن ، وكان للمؤلف كل الحق في اصلاحه ؛ ولكن الزعيق في هذا الصدد «بالتشويه» ، و«التبديل» وما الى ذلك («الاحادية التجريبية» ، الكتاب الثالث ، ص XLIV) - يعني طمس جوهر الخلاف بمجرد كلمات حقيرة . واياً كان المعنى «الدقيق» الذي يخلقه بوغدانوف لتعبري «الوجود الاجتماعي» و«الوعي الاجتماعي» ، يظل مما لا ريب فيه ان موضوعته التي سقناها غير صحيحة . فان الوجود الاجتماعي والوعي الاجتماعي ليسا متماثلين ، - تماماً كما ان الوجود على العموم والوعي على العموم ليسا متماثلين . ومن كون الناس ، اذ يدخلون في التعاشر ، يدخلون فيه ككائنات واعية ، لا ينجم في اي حال من الاحوال ان الوعي الاجتماعي مماثل للوجود الاجتماعي . فان الناس في جميع التشكيلات الاجتماعية المعقدة نوعاً ، - وخاصة في التشكيلة الاجتماعية الرأسمالية - اذ يدخلون في التعاشر ، لا يعون ما يلي : اية علاقات اجتماعية تتكون في هذه الحال ، وبموجب اية قوانين تتطور ، والنخ . . مثلاً . ان الفلاح ، اذ يبيع الحبوب ، يدخل في «تعاشر» مع منتجي الحبوب العالميين في السوق العالمية ، ولكنه لا يعي ذلك ، ولا يعي

العلاقات الاجتماعية التي تتكون من جراء التبادل . ان الوعي الاجتماعي يعكس الوجود الاجتماعي - في هذا يتلخص مذهب ماركس . وقد يكون الانعكاس نسخة صادقة تقريباً للمعكوس ، ولكنه من السخافة القول بالتماثل هنا . ان الوعي يعكس على العموم الوجود ، وهذه هي الموضوعة العامة للمادية كلها . ومن المستحيل عدم رؤية العلاقة المباشرة والتي لا تنفصل عراها بين هذه الموضوعة وبين موضوعة المادية التاريخية القائلة ان الوعي الاجتماعي يعكس الوجود الاجتماعي .

ان محاولة بوغدانوف لاصلاح ماركس وتطويره بصورة غير ملحوظة ، «بروح اسسه» ، هي تشويه بيتن لهذه الاسس المادية بروح المثالية . ومن المضحك انكار ذلك . لنتذكر عرض بازاروف للمذهب النقدي التجريبي (وليس للاحادية التجريبية ، فكيف يمكن هذا ! فبين هذين «النظامين» فرق هائل ، هائل الى ما لا حد له !): «ان التصور الحسي انما هو الواقع الموجود خارجاً عننا» . هذه مثالية بيتنة ، نظرية بيتنة عن تماثل الوعي والوجود . ثم تذكروا صيغة ف . شوبه ، الكموني (الذي اقسام اليمين واستشهد الله بفائق الجهد بانه ليس مثالياً مثل بازاروف وشركاه ، والذي اكد بحزم ، مثل بازاروف ، على معنى كلماته «الدقيق» بخاصة) : «الوجود هو الوعي» . قارن بهذا الآن دحض مادية ماركس التاريخية من قبل الكموني شوبرت-زولدرن : «كل عملية انتاج مادية هي دائماً ظاهرة وعي بالنسبة للناظر اليها . . . وعلى صعيد علم العرفان ، ليست عملية الانتاج الخارجية العنصر الاولي (prius) ، بل الذات او الذوات ؛ وبتعبير آخر نقول : ان عملية الانتاج المادية الصرف لا تخرج(نا) من صلة الوعي العامة» (Bewußtseinszusammenhang) راجع الكتاب المذكور : «Das menschliche Glück und die soziale Frage», S. 293, 295-296*

* «السعادة البشرية والمسألة الاجتماعية» ، ص ٢٩٣ و ٢٩٥ -

بوسع بوغدانوف ان يلعن الماديين قدر ما يطيب له بسبب «تشويه افكاره» ، ولكن اللعنات ، اياً كانت ، لا تغير الواقع البسيط والواضح . وان تعديل ماركس وتطوير ماركس بروح ماركس حسبما يزعم ، من جانب «الاحادي التجريبي» بوغدانوف لا يتميزان **بأي شيء جوهري** عن دحض ماركس من قبل المثالي والسوليبيسي العرفاني شوبرت-زولدرن . ان بوغدانوف يؤكد انه ليس مثالياً . وشوبرت-زولدرن يؤكد انه واقعي (بل ان بازاروف حتى صدق هذا) . وفي زمننا ، لا يمكن للفيلسوف الا يقول عن نفسه انه «واقعي» و«عدو للمثالية» . آن الاوان لفهم هذا ، ايها السادة الماخيون !

ان الكمونيين ، والنقاد التجريبيين ، والاحادي التجريبي ، سواء بسواء يجادلون بصدد التفاصيل ، بصدد الجزئيات ، بصدد صياغة **المثالية** ؛ اما نحن ، فاننا ننبذ **منذ بادى** بدء جميع اسس فلسفتهم ، الاسس المشتركة بين كل هذا الثلاثي . فليروج بوغدانوف ، بخير معاني الكلمة وبخير النوايا ، مع قبوله **بجميع استنتاجات ماركس** ، «بتماثل» الوجود الاجتماعي والوعي الاجتماعي ؛ فاننا سنقول : بوغدانوف **ناقص** «الاحادية التجريبية» (والاصح ، **ناقص** الماخية) هو ماركسي لان هذه النظرية ، نظرية التماثل بين الوجود الاجتماعي والوعي الاجتماعي ، هي **لغو وهراء كلها** ، هي بلا شك نظرية **وجعية** . واذا كان بعض الافراد يوفقون بينها وبين الماركسية والمسلك الماركسي ، فانه يتعين علينا ان نعترف بان هؤلاء الافراد افضل من نظرياتهم ، ولكنه لا يتعين علينا ان نبرر التشويهات النظرية الصارخة للماركسية .

ان بوغدانوف يوفق نظريته مع استنتاجات ماركس ، مضحياً في سبيل هذه الاستنتاجات بالمنطقية الابتدائية . فان كل منتج بمفرده في الاقتصاد العالمي يدرك انه يدخل تغييراً ما في تكنيك الانتاج ، وكل رب عمل يدرك انه يبادل منتوجات ما بمنتوجات اخرى ، ولكن هؤلاء المنتجين وارباب العمل هؤلاء لا يدركون انهم يغيرون **الوجود الاجتماعي** بذلك . ولم يكن بوسع حتى ٧٠ شخصاً

مثل ماركس ان يشملوا في الاقتصاد العالمي الرأسمالي مجمل هذه التغيرات بجميع تشعباتها . والاكبر هو ان **قوانين** هذه التغيرات قد اكتشفت ، وان المنطق **الموضوعي** لهذه التغيرات ولتطورها التاريخي قد ثبت من حيث الرئيسي والاساسي ، الموضوعي ، لا بمعنى انه بوسع مجتمع الكائنات الواعية ، الناس ، ان يوجد ويتطور بصورة مستقلة عن وجود الكائنات الواعية (والى هذه التوافق فقط يشير بوغدانوف «بنظريته») بل بمعنى ان الوجود الاجتماعي مستقل عن وعي الناس الاجتماعي . ومن واقع انك تعيش وتدير اقتصاداً ، وتنجب اولاداً ، وتنتج منتجات ، وتبادلها ، تتشكل سلسلة ضرورية موضوعياً من الاحداث ، سلسلة من التطور ، مستقلة عن وعيك الاجتماعي الذي لا يشملها ابدأ بكليتها . ان اسمى مهام البشرية هي شمول هذا المنطق الموضوعي للتطور الاقتصادي (لتطور الوجود الاجتماعي) في السمات العامة والاساسية لكي تكيف له ، باكثر ما يمكن من الوضوح والجلء والنقد ، وعيها الاجتماعي ووعي الطبقات الطليعية في جميع البلدان الرأسمالية .

وكل هذا يعترف به بوغدانوف . يعني ؟ يعني انه ينبذ **بالفعل** نظريته القائلة «بتماثل الوجود الاجتماعي والوعي الاجتماعي» ولا يبقى منها غير شرابة مدرسية فارغة ، - فارغة ، وميتة ، وباطلة مثل «نظرية الاستبدال العام» او مذهب «العناصر» و«الحقن» وكل الهراء الماخي . ولكن «الميت يتمسك بالحي» ؛ وان الشرابة المدرسية الميتة تحول فلسفة بوغدانوف ، **رغم ارادته وبصورة مستقلة عن وعيه** ، الى اداة في خدمة شوبرت-زولدرن واضرابه وخلافهم من الرجعيين الذين ينشرون بألاف الاساليب من مئات الكراسي الاستاذية هذا الميت **بالذات** عوضاً عن الحي ، ضد الحي ، بغية خنق الحي . ان بوغدانوف هو شخصياً عدو لدود لكل رجعية وللرجعية البرجوازية على الخصوص . الا ان «الاستبدال» البوغدانوفي ونظرية «تماثل الوجود الاجتماعي والوعي الاجتماعي» **يعدمان** هذه الرجعية . هذا واقع مؤسف ولكنه واقع .

ان المادية بوجه عام تعترف بالوجود الفعلي موضوعياً (المادة) ، المستقل عن وعي البشرية واحساسها وتجربتها ، والنخ . . ان المادية التاريخية تعترف بالوجود الاجتماعي مستقلاً عن وعي البشرية الاجتماعي . ان الوعي هنا وهناك ليس غير انعكاس للوجود ، وانعكاس له صادق (مطابق ، دقيق بدرجة مثلى) تقريباً في افضل الاحوال . وفي فلسفة الماركسية هذه ، المصوبية من قطعة واحدة من الفولاذ ، لا يمكن سحب اية مقدمة اساسية ، اي جزء جوهري ، دون الابتعاد عن الحقيقة الموضوعية ، دون السقوط في احضان الكذب البرجوازي الرجعي .

اليكم امثلة اخرى تبين كيف تتمسك المثالية الفلسفية الميتة بالماركسي الحي بوغدانوف .

مقالة : «ما هي المثالية؟» عام ١٩٠١ (المرجع نفسه . ص ١١ وما يليها) . «نحن نخلص الى الاستنتاج التالي : سواء حيث الناس يتفقون في آرائهم بشأن التقدم ام حيث يختلفون ، يبقى المغزى الاساسي لفكرة التقدم هو هو : **تعاظم كمال وتجانس حياة الوعي** . هذا هو المضمون الموضوعي لمفهوم التقدم . . . واذا قارنا الآن التعبير النفساني الذي حصلنا عليه عن فكرة التقدم مع التعبير البيولوجي المفسر سابقاً («ان نمو مجمل الحياة يسمى بيولوجياً بالتقدم» ، ص ١٤) ، فاننا نقتنع بسهولة ان الاول يتطابق كلياً مع الثاني ، ويمكن استخلاصه منه . . . وبما ان الحياة الاجتماعية تنحصر في الحياة النفسية لاعضاء المجتمع ، فان مضمون فكرة التقدم يبقى هنا ايضاً هو هو : **تعاظم كمال وتجانس الحياة** ؛ انما ينبغي ان نضيف - حياة الناس الاجتماعية . وان فكرة التقدم الاجتماعي لم تملك ابداً ولا يمكن ان تملك بالطبع اي مضمون آخر» (ص ١٦) .

«لقد وجدنا . . . ان المثالية تعرب عن انتصار الامزجة الاكثر اتساماً بالسمة الاجتماعية في روح الانسان على الامزجة الاقل اتساماً بها ، وان المثال الاعلى التقدمي هو انعكاس للميل الاجتماعي التقدمي في النفسية المثالية» (ص ٣٢) .

ولا داعي الى القول ان كل هذا اللعب بالبيولوجيا والسوسيوولوجيا لا ينطوي على اية ذرة من الماركسية . ومن الممكن ان نجد عند سبنسر وعند ميخايلوفسكي قدر ما تريد من تعريفات ليست اسوأ البتة ، ولا تعرف شيئاً عدا «حسن نية» المؤلف ، وتبين **عدم فهم تام** «لما هي المثالية» وما هي المادية .

الكتاب الثالث من «الاحادية التجريبية» ، ومقالة «الاختيار الاجتماعي» (اسس الطريقة) عام ١٩٠٦ . يبدأ المؤلف بنبذ «المحاولات الاجتماعية البيولوجية الاختيارية لانغه وفيري وفولتمان وكثيرين غيرهم» (ص ١) ؛ وفي ص ١٥ يعرض الاستنتاج التالي «للبحث» : «بوسعنا ان نصوغ على النحو التالي الصلة الاساسية بين مذهب الطاقة والاختيار الاجتماعي :

كل عمل من اعمال الاختيار الاجتماعي هو عبارة عن تعاضل او انعكاس طاقة ذلك المركب الاجتماعي الذي يتعلق به . ففي الحالة الاولى نواجه «الاختيار الايجابي» ، وفي الثانية ، «السلبي» .
(حرف التأكيد للمؤلف .)

وهذا الهراء الذي لا يوصف يقدمونه على انه من الماركسية ! فهل يسع المرء ان يتصور شيئاً عقيماً ، ميتاً ، مدرسياً اكثر من هذا الرصف للكلمات البيولوجية والطاقية التي لا تعطي شيئاً والتي لا يمكنها ان تعطي شيئاً في ميدان العلوم الاجتماعية ؟ فلا ظل لبحث اقتصادي ملموس ، ولا تلميح الى طريقة ماركس ، طريقة الدياليكتيك ، والى عقيدة المادية ، بل مجرد اختلاق للتعريف ، ومحاولات لاظهارها بمظهر استنتاجات جاهزة للماركسية . «ان النمو السريع للقوى المنتجة في المجتمع الرأسمالي هو ، بلا ريب ، ازدياد طاقة الكل الاجتماعي . . .» - ان النصف الثاني من الجملة هو ، بلا ريب ، مجرد تكرار للنصف الاول ، معبر عنه في تعابير خالية من المعنى تبدو انها «تعمق» المسألة ولكنها لا تختلف بالفعل ، وان مقدار شعرة ، عن محاولات لانغه وشركاه البيولوجية السوسيوولوجية الاختيارية ! - «ولكن هذه العملية تنتهي ، من جراء طابعها غير المتجانس ، «بازمة» ، بتبذير هائل للقوى المنتجة ،

بانخفاض حاد في الطاقة : فالاختيار الايجابي يحل محله الاختيار السلبي» (ص ١٨) .
 اوليس هذا لانغه ؟ فالى الاستنتاجات الجاهزة عن الازمات ، تخاط لصيقة بيولوجية طاقية ، دون اضافة وان ذرة من اية مادة ملموسة ، دون توضيح لطبيعة الازمات . وكل هذا حسن النية جداً ، لأن المؤلف يريد ان يؤكد ويعمق استنتاجات ماركس ، ولكنه يشعشعها بالماء المدرسي الميت ، الممل بصورة لا تطاق . ان «الماركسي» هنا هو الاكتفاء بترديد استنتاج معروف سلفاً ؛ اما تعليقه «الجديد» ، وكل «مذهب الطاقة الاجتماعي» هذا (ص ٣٤) ، و«الاختيار الاجتماعي» ، ان كل هذا انما هو مجرد وصف للكلمات ، واستهزاء تام بالماركسية .

ان بوغدانوف لا يقوم البتة ببحث ماركسي ، بل يقوم بالبأس النتائج التي توصل اليها هذا البحث من قبل حلة من المصطلحات البيولوجية والطاقية . وكل هذه المحاولة باطلة من اولها الى آخرها ، لأن تطبيق مفاهيم «الاختيار» و«تمثل وتصفية تمثّل» الطاقة ، والميزان الطاقى ، وما شاكل ، في ميدان العلوم الاجتماعية انما هو كلام فارغ . وبالفعل لا يمكن بواسطة هذه المفاهيم اعطاء اي بحث عن الظواهر الاجتماعية ، واي توضيح لطريقة العلوم الاجتماعية . وليس ثمة ما هو أسهل من لصق اللصيقة «الطاقية» او «البيولوجية السوسيوبيولوجية» على الظواهر من نوع الازمات ، والثورات ، ونضال الطبقات ، وما الى ذلك ، ولكن ليس ثمة ما هو عقيم ومدرسي وميت اكثر من هذا العمل . ان جوهر الامر لا يتلخص في كون بوغدانوف كيف في هذه الحال جميع نتائجه واستنتاجاته او جميعها «تقريباً وفقاً لماركس (فقد رأينا «تعديلاً» على مسألة العلاقة بين الوجود الاجتماعي والوعي الاجتماعي) ، بل في كون اساليب هذا التكييف و«مذهب الطاقة الاجتماعي» هذا مزيفة تماماً ولا تختلف في شيء عن اساليب لانغه ، كتب ماركس في ٢٧ حزيران (يونيو) ١٨٧٠ الى كوغلمان («بصدد المسألة العمالية والنخ . . .» ، الطبعة الثانية) يقول : «ان

السيد لانغه يطريني كثيراً . . . لكي يصور نفسه بصورة انسان عظيم . ذلك ان السيد لانغه حقق اكتشافاً عظيماً . فمن الممكن حصر التاريخ كله في قانون طبيعي عظيم واحد وحيد . وهذا القانون الطبيعي يتلخص في جملة «Struggle for life» - الصراع من اجل البقاء (ان تعبير داروين يصبح في استعماله هذا جملة فارغة) ، في حين ان فحوى هذه الجملة تشكل القانون المالتوسي بصدد السكان او ، بالاصح ، بصدد فيض السكان . وهكذا ، عوضاً عن تحليل هذا «Struggle for life» كما تجلي تاريخياً في مختلف الاشكال الاجتماعية ، لا يبقى ما يمكن فعله غير تحويل كل صراع ملموس الى جملة «Struggle for life» ، وتحويل هذه الجملة الى تخيل مالتوسي بشأن السكان . لا بد من الموافقة على ان هذه طريقة مقنعة جداً لاجل الجهل المفخم ، المزوق ، المتظاهر بمظهر العلم ، ولأجل كسل الفكر .

ان اساس نقد لانغه يتلخص عند ماركس ، لا في كون لانغه يدس خصيصاً المالتوسية (٨٩) في السوسيوولوجيا ، بل في كون نقل المفاهيم البيولوجية على العموم الى ميدان العلوم الاجتماعية هو جملة . وسواء كان الدافع الى هذا النقل اهدافاً «طيبة» ام دعم الاستنتاجات السوسيوولوجية الكاذبة (الخطئة) ، فان الجملة لا تكف من جراء ذلك عن ان تكون جملة . وان «مذهب الطاقة الاجتماعي» الذي يقول به بوغدانوف ، وضمه مذهب الاختيار الاجتماعي الى الماركسية انما هما بالضبط جملة من هذا النوع .

وكما ان ماخ وافيناريوس لم يطورا المثالية في علم العرفان ، بل ضمنا الاخطاء المثالية القديمة هراء متحذلقاً من المصطلحات والتعابير («العناصر» ، «التنسيق المبدئي» ، «الحقن» ، «الخ . . .») ، كذلك يؤدي المذهب النقدي التجريبي في السوسيوولوجيا ، حتى في حال اصدق التعاطف مع استنتاجات الماركسية ، الى تشويه المادية التاريخية بالمصطلحات الطاقية والبيولوجية الدعية الفارغة .

ان الخاصة التاريخية للماخية المعاصرة في روسيا (والاصح القول : الوباء الماخي بين قسم من الاشتراكيين-الديموقراطيين) هي

الواقع التالي . فان فورباخ قد كان «مادياً في اسفل ، ومثالياً في اعلى» ؛ والشيء نفسه يصح بقدر معين على بوختر وفوغت وموليشوت وعلى دوهرينغ مع الفرق الجوهرى التالي ، وهو ان جميع هؤلاء الفلاسفة كانوا اقزاماً وكويتبين ركيكين حقيرين بالقياس الى فورباخ .

ان ماركس وانجلس ، اللذين تربيا على مؤلفات فورباخ ، واشتد مراسهما في النضال ضد الكويتبين الركيكين ، قد اوليا بالطبع جل الاهتمام لاستكمال بناء فلسفة المادية الى النهاية اي على الفهم المادي للتاريخ وليس على علم العرفان المادي . ومن جراء ذلك ، اكد ماركس وانجلس في مؤلفاتهم على المادية **الديالكتيكية** اكثر مما اكدوا على **المادية** **الديالكتيكية** ، والحا على **المادية التاريخية** اكثر مما الحا على **المادية التاريخية** . اما اصحابنا الماخيون الذين يرغبون في ان يكونوا ماركسيين ، فقد تناولوا الماركسية في مرحلة تاريخية مختلفة تماماً عن هذا ، تناولوها في زمن تخصصت فيه الفلسفة البرجوازية على الاخص في علم العرفان ، واستوعبت فيه بشكل وحيد الجانب ومشوه بعض الاقسام المكونة من **الديالكتيك** (مثلاً ، النسبية) ، فوجهت الانتباه على الاغلب الى الدفاع عن المثالية او الى بعثها من اسفل وليس من اعلى . ويتبين على الاقل ان الوضعية على العموم والماخية على الخصوص قد انصرفتا اكثر بكثير الى تزيف علم العرفان تزيفاً ناعماً ، متلونتين بلون المادية ، ساترتين المثالية وراء مصطلحات وتعابير مادية مزعومة ، ووجهتا الانتباه بقدر قليل نسبياً الى فلسفة التاريخ . ان اصحابنا الماخين لم يفهموا الماركسية لانهم تناولوها ، اذا جاز القول ، **من الجانب الآخر** ، فاستوعبوا - واحياناً استوعبوا اقل مما حفظوا غيباً - نظرية ماركس الاقتصادية والتاريخية ، دون ان يستوضحوا اسسها ، اي المادية الفلسفية . فكان الحاصل انه يجب تسمية بوغدانوف وشركاه بالاضراب الروس بالمقلوب لبوخر ودوهرينغ . ولقد رغبوا في ان يكونوا ماديين في الاعلى ، ولكنهم لا يستطيعون ان يتخلصوا من المثالية المشوشة في الاسفل ! «في

الاعلى» عند بوغدانوف - المادية التاريخية المبتدلة ، والحق يقال ، والتي أفسدتها المثالية بشدة ؛ «في الاسفل» - المثالية ، المجلبة بالتعابير الماركسية ، المكيفة للكلمات الماركسية . «التجربة المنظمة اجتماعياً» ، «عملية العمل الجماعية» ، - كل هذه كلمات ماركسية ، ولكنها كلها **كلمات فقط** ، تخفي الفلسفة المثالية التي تعلن ان الاشياء مركبات «عناصر» - احساسات ، وان العالم الخارجي «تجربة» او «رمز تجريبي» للبشرية ، وان الطبيعة الفيزيائية «مشتقة» من «النفسي» ، والنخ . ، وهلم جراً .

تزييف الماركسية بصورة أنعم فأنعم ، تزوير المذاهب المعادية للمادية واظهارها بمظهر الماركسية بصورة انعم فأنعم ، - هذا ما تتميز به التحريفية المعاصرة في الاقتصاد السياسي وفي مسائل التكتيك ، وفي الفلسفة على العموم ، سواء في علم العرفان ام في علم الاجتماع .

٣ - في «اسس الفلسفة الاجتماعية» لسوفوروف

ان «دراسات «في» فلسفة الماركسية» التي تنتهي بمقالة الرفيق س . سوفوروف المشار اليها ، هي بمثابة باقة ذات فعل خارق القوة ، وذلك على وجه الضبط بحكم طابع الكتاب الجماعي . فعندما يظهر امامكم ، معاً وجنباً الى جنب ، بازاروف الذي يقول ان «التصور الحسي انما هو» ، حسب انجلس ، «الواقع الموجود خارجاً عننا» ، وبرمان الذي يقول ان دياليكتيك ماركس وانجلس تصوف ، ولوناتشارسكي الذي تمادى في كلامه الى حد الدين ، ويوشكيفيتش الذي يحمل «اللوغوس الى سيل المعطيات اللاعقلاني» ، وبوغدانوف الذي يسمي المثالية بفلسفة الماركسية ، وغلفوند الذي يطهر يوسف ديتزغن من المادية ، واخيراً س . سوفوروف مع مقالة «اسس الفلسفة الاجتماعية» ، فانكم تشعرون في الحال «بروح» الخط الجديد . الكمية تحولت الى كيفية . «الباحثون» ، الذين كانوا يفتشون حتى هذا الحين كلاً على حدة ، في مختلف المقالات ،

والكتب ، قد تقدموا ببيان رسمي حقيقي . فان الخلافات الجزئية بينهم يمحوها واقع الكتابة الجماعية ضد (وليس «في») فلسفة الماركسية ، وتصبح السمات الرجعية للماخية بوصفها تياراً جلية للعيان .

ان مقالة سوفوروف تزداد طرافة في هذه الاحوال خصوصاً وان المؤلف ليس احادياً تجريبياً وليس ناقداً تجريبياً ، بل مجرد «واقعي» ، - وان ما يقرب به بالتالي من الشركاء الآخرين ، ليس ما يميز بازاروف ويوشكيفيتش وبوغدانوف كفلاسفة ، بل ما يجمع بينهم جميعهم ضد المادية الديالكتيكية . ان مقارنة محاكمات هذا «الواقعي» السوسيولوجية بمحاكمات الاحادي التجريبي تساعدنا في رسم ميلهم المشترك .

كتب سوفوروف يقول : «في تدرج القوانين التي تضبط العملية العالمية ، تتحول القوانين الجزئية والمعقدة الى قوانين عامة وبسيطة ، وجميعها تخضع للقانون الكلي للتطور ، - لقانون اقتصاد القوى . وكنه هذا القانون هو ان اي نظام من القوى يزداد قدرة على البقاء والتطور بقدر ما تقل النفقة فيه وبقدر ما يزداد التراكم فيه وبقدر ما تخدم النفقة التراكم بصورة افضل . ان اشكال التوازن المتحرك التي استتبعت من زمان فكرة الملاءمة الموضوعية (النظام الشمسي ، تعاقب الظاهرات الارضية ، عملية الحياة) تتشكل وتتطور على وجه الضبط بحكم ادخار وتكديس الطاقة الملازمة لها ، بحكم اقتصادها الداخلي . ان قانون اقتصاد القوى هو المبدأ الموحد والضابط لكل تطور ، - للتطور غير العضوي والبيولوجي والاجتماعي» (ص ٢٩٣ . حرف التأكيد للمؤلف) .

باية سهولة رائعة يلفق اصحابنا «الوضعيون» و«الواقعيون» «القوانين الكلية» ! الا انه من المؤسف ان هذه القوانين ليست افضل من القوانين التي لفقها اوجين دوهرينغ بنفس القدر من السهولة والسرعة . ان «القانون الكلي» الذي لفته سوفوروف هو جملة مفخمة ، خالية من كل معنى مثله مثل قوانين دوهرينغ الكلية . جربوا ان تطبقوا هذا القانون على الميدان الاول من الميادين

الثلاثة التي اشار اليها المؤلف : علي التطور غير العضوي ، تروا انكم لن تفلحوا في ان تطبقوا هنا ، وبصورة «كلية» اي «اقتصاد في القوى» ، **عدا** قانون بقاء وتحول الطاقة . والحال ، سبق للمؤلف ان استبعد قانون «بقاء الطاقة» ، وسبق له ان ذكره (ص ٢٩٢) بوصفه قانوناً خاصاً * . فماذا بقي ، عدا هذا القانون ، في ميدان التطور غير العضوي ؟ اين هي تلك الاضافات ، او المضاعفات ، او الاكتشافات الجديدة ، او الوقائع الجديدة التي اتاحت للمؤلف ان يعدل («يرقي») قانون بقاء وتحول الطاقة الى قانون «**لاقتصاد القوى**» ؟ لا وجود لأي من هذه الوقائع او الاكتشافات ، بل ان سوفوروف لم يقل وان كلمة واحدة عنها . وقد لوح بالقلم ببساطة - من باب الوقار ، كما قال بازاروف في رواية لتورغينيف (٩١) - ولفق «قانوناً كلياً» جديداً في «الفلسفة الاحادية الواقعية» (ص ٢٩٢) . اعرف من نحن ! نحن اسوأ من دوهرينغ ؟

خذوا الميدان الثاني من ميادين التطور - الميدان البيولوجي . فهل هو كلي هنا ، في حال تطور العضويات عن طريق الصراع من اجل البقاء او عن طريق الانتخاب ، قانون اقتصاد القوى او «قانون» * مما له دلالة ان سوفوروف يسمي اكتشاف قانون بقاء وتحول الطاقة (٩٠) «باقرار الموضوعات الاساسية لمذهب الطاقة» (ص ٢٩٢) . فهل سمع صاحبنا «الواقعي» الذي يرغب في ان يكون ماركسياً ان الماديين المبتدئين بوختر وشركاء والمادي الدياليكتيكي انجلس على السواء كانوا يعتبرون هذا القانون اثباتاً للموضوعات الاساسية للمادية ؟ هل فكر صاحبنا «الواقعي» فيما يعنيه هذا الفرق ؟ آه ، كلا ، انه اقتبس الموضة بكل بساطة ، وكرر اوستفالد ، وكفى . والمصيبة ان امثال هؤلاء «الواقعيين» يستسلمون امام الموضة ، في حين ان انجلس ، مثلاً ، استوعب تعبير الطاقة الجديد عليه وشرع يستعمله في عام ١٨٨٥ (مقدمة الطبعة الثانية لكتابه «ضد دوهرينغ») وفي عام ١٨٨٨ («لودفيغ فورباخ») ، ولكنه شرع يستعمله على قدم المساواة مع مفهومي «القوة» و«الحركة» ، وبالتناسب معهما ؛ وبذلك استطاع انجلس ان يغني ماديته ، باستيعاب تعابير جديدة . ان «الواقعيين» واضرابهم من المشوشين ، وقد تلقفوا تعبيراً جديداً ، لم يلاحظوا الفرق بين المادية ومذهب الطاقة !

تبيد القوى ؟ لا ضير ! . فبوسع «الفلسفة الاحادية الواقعية» ان تفهم «معنى» القانون الكلي في ميدان ما بطريقة ما ، وفي ميدان آخر بطريقة اخرى ، مثلاً ، بمعنى تطور العضويات العليا من العضويات الدنيا . ولا ضير ان القانون الكلي يمسي من جراء ذلك جملة فارغة ، ولكن مبدأ «الاحادية» روعي بالمقابل . اما بالنسبة للميدان الثالث (الاجتماعي) ، فمن الممكن فهم «القانون الكلي» بالمعنى الثالث ، بمعنى تطور القوى المنتجة . فان «القانون الكلي» صالح لأن يشمل اي شيء كان .

«رغم ان العلم الاجتماعي لا يزال حديث العهد ، توفرت له منذ حين قاعدة متينة وتعميمات مكتملة ؛ ففي القرن التاسع عشر تطور حتى الذروة النظرية ، وهذا يشكل مآثرة ماركس الرئيسية . فقد رفع العلم الاجتماعي الى درجة النظرية الاجتماعية . . .» . قال انجلس ان ماركس حول الاشتراكية من طوبوية الى علم (٩٢) ، ولكن هذا لا يكفي سوفوروف . فاذا ميزنا ايضاً النظرية عن العلم (وهل كان هناك علم اجتماعي قبل ماركس ؟) ، فان هذا سيكون اقوى ؛ ولا ضير اذا جاء التمييز سخيفاً !

«... باثبات القانون الاساسي للدينامية الاجتماعية الذي يشكل تطور القوى المنتجة بموجبه المبدأ المحدد لكل التطور الاقتصادي والاجتماعي . ولكن تطور القوى المنتجة يناسب نمو انتاجية العمل وانخفاض النفقة النسبي وازدياد تراكم الطاقة . . .» (أوترون كم هي ثمرة «الفلسفة الاحادية الواقعية» : فقد اعطي تحليل جديد ، طاقي للماركسية !) . . . «هذا مبدأ اقتصادي . وعلى هذا النحو ، ارسى ماركس في اساس النظرية الاجتماعية مبدأ اقتصاد القوى . . .» .

هذا التعبير «وعلى هذا النحو» لا نظير له حقاً ! بما انه يوجد اقتصاد سياسي عند ماركس ، فلنعلك لهذه المناسبة كلمة «الاقتصاد» مسمين منتوجات العلك «بالفلسفة الاحادية الواقعية» ! كلا . ان ماركس لم يرس في اساس نظريته اي مبدأ لاقتصاد القوى . فهذه ترهات اختلقها اناس حرمتهم النوم اكاليل غار اوجين

دوهرينغ . فان ماركس قد اعطى تعريفاً دقيقاً تماماً لمفهوم نمو القوى المنتجة ودرس عملية هذا النمو الملموسة . اما سوفوروف فقد ابتدع كلمة جديدة للاشارة الى المفهوم الذي حلله ماركس ، وابتدعها بصورة غير موفقة ابدأ ، ولم يفعل غير ان شوش المسألة . لانه ماذا يعني «اقتصاد القوى» ، وكيف يقاس ، وكيف يطبق هذا المفهوم ، واي وقائع دقيقة وواضحة تصح هنا ؟ - ان سوفوروف لم يفسر هذا ، ومن المستحيل تفسير هذا ، لأن هذا تخبيص . ثم اسمعوا ما يلي :

«... ان قانون الاقتصاد الاجتماعي هذا ليس مبدأ وحدة العلم الاجتماعي الداخلية وحسب» (هل تفهم شيئاً هنا ، ايها القارى ؟) ، «بل ايضاً حلقة وصل بين النظرية الاجتماعية ونظرية الوجود العامة» (ص ٢٩٤) .

هكذا اذن . ان «نظرية الوجود العامة» قد اكتشفها س . سوفوروف من جديد بعد ان اكتشفها مراراً عديدة في شتى الاشكال العديدين من ممثلي المدرسية الفلسفة . لنهني الماخين الروس «بنظرية الوجود العامة» الجديدة ! ولنامل في ان يخصصوا عملهم الجماعي القادم بكليته لتعليل وتطوير هذا الاكتشاف العظيم !

اما اي عرض لنظرية ماركس يقدمه صاحبنا ممثل الفلسفة الواقعية او الفلسفة الاحادية الواقعية ، فان هذا يظهر من المثال التالي : «ان قوى الناس المنتجة تشكل على العموم تدرجاً تولدياً» (اف !) «وتتألف من طاقتهم على العمل ، ومن القوى الطبيعية المنضعة ، ومن الطبيعة المغيّرة بصورة مثقفة ، ومن ادوات العمل التي تشكل التكنيك المنتج ... وفيما يخص عملية العمل ، تؤدي هذه القوى وظيفة اقتصادية خالصة ؛ وهي توفر طاقة العمل وتزيد انتاجية انفاقها» (ص ٢٩٨) . القوى المنتجة تؤدي وظيفة اقتصادية فيما يخص عملية العمل ! ان هذا يعني كأنك تقول : القوى الحيوية تؤدي وظيفة حيوية فيما يخص عملية الحياة . هذا ليس عرضاً لماركس ، بل توسيح للماركسية بقمامة كلامية لا تصدق .

وكل هذه القمامة في مقالة سوفوروف يستحيل تعدادها . «ان
 جتمعة الطبقة تتجلى في تعاظم سلطتها الجماعية على الناس وعلى
 ملكيتهم سواء بسواء» (ص ٣١٣) . . . «النضال الطبقي يرمي الى
 اقامة اشكال من التوازن بين القوى الاجتماعية» (ص ٣٢٢) . . .
 الشقاق الاجتماعي ، والعداء الاجتماعي ، والصراع الاجتماعي هي ،
 من حيث الجوهر ، ظاهرات سلبية ، لاجتماعية . «ان التقدم
 الاجتماعي هو ، من حيث مضمونه الاساسي ، نمو اجتماعية الناس ،
 نمو الصلة الاجتماعية بين الناس» (ص ٣٢٨) . ومن الممكن املاء
 مجلدات بمثل هذه المجموعات من السطحيات ، - وبها يملأ
 المجلدات ممثلو علم الاجتماع البرجوازي ؛ ولكن الادعاء بان هذا
 هو فلسفة الماركسية امر يتجاوز كل حد . ولو كانت مقالة
 سوفوروف محاولة لعرض الماركسية باسلوب مبسط ، لما تعين
 الحكم عليها بصرامة خاصة ؛ ولكن اعترف كل امرئ بان نوايا
 المؤلف طيبة ، ولكن محاولته غير موفقة ابداً وكفى . اما حين
 يقدم لنا فريق من الماخيين مثل هذا الشيء باسم «اسس الفلسفة
 الاجتماعية» ، وحين نرى الاساليب نفسها «لتطوير» الماركسية في
 كتب بوغدانوف الفلسفية ، فاننا نخلص من كل بد الى القول بوجود
 صلة لا تنفصم عراها بين علم العرفان الرجعي وبين المساعي
 الرجعية في علم الاجتماع .

٤ - الاحزاب في الفلسفة والفلاسفة

القديمو الرؤوس

بقي لنا ان نبحث مسألة موقف الماخية من الدين . ولكن
 هذه المسألة تتسع الى درجة تدفعنا الى التساؤل عما اذا كان ثمة ،
 بعامة ، احزاب في الفلسفة واية اهمية ترتديها للاحزبية في حقل
 الفلسفة .

في كل مسألة من مسائل علم العرفان التي تناولناها ، كما
 في كل مسألة من المسائل الفلسفية التي طرحتها الفيزياء الجديدة ،

تتبعنا في سياق كل العرض السابق النضال بين المادية والمثالية .
 ووراء اكوام احابيل المصطلحات الجديدة ، ووراء قمامة مدرسية
 غيليرتر ، وجدنا دائماً ، دون استثناء ، خطين اساسيين ، اتجاهين
 اساسيين ، في طريقة حل المسائل الفلسفية . فهل ينبغي ايلاء
 الاولوية للطبيعة ، للمادة ، للفيزيائي ، للعالم الخارجي ، واعتبار
 الوعي ، الروح ، الاحساس (- التجربة حسب التعبير الراجح في
 ايامنا) ، النفسي ، وما الى ذلك ، عنصراً ثانوياً ، - تلك هي
 المسألة الرئيسية التي ما تزال في الواقع تقسم الفلاسفة الى
 معسكرين كبيرين . ان سبب الآلاف من الاخطاء والبلبلات في هذا
 الميدان ، هو ان القوم لا يستشفون هذين الميلين الاساسيين وراء
 ظواهر المصطلحات والتعاريف ، والشعوزات المدرسية ، والالاعيب
 الكلامية (ان بوغدانوف ، مثلاً ، لا يريد ان يعترف بمثاليته ،
 لأنه ، كما ترون ، استعاض عن مفهومي «الطبيعة» و«الروح»
 «الميتافيزيائيين» بمفهومي «الفيزيائي» و«النفسي» «التجريبيين» .
 لقد غيرَ الكلمة فقط !)

ان عبقرية ماركس وانجلس تتجسد بالضبط في كونهما قد
 طورا المادية خلال مرحلة طويلة جداً - خلال ما يقرب من نصف
 قرن - ودفعا الى امام اتجاهها اساسياً واحداً في الفلسفة ؛ ودون ان
 يطبلا تكرار المسائل العرفانية المحلولة ، طبقاً بمثابرة وانسجام
 هذه المادية نفسها ، وبيننا كيف ينبغي تطبيقها على العلوم
 الاجتماعية ، مكنّسين بلا رحمة ، كالاقدار والاوساخ ، الهراء
 واللغو ، والسفسطات الدعية المفخمة ، والمحاولات التي لا عد لها
 من اجل «اكتشاف» خط «جديد» في الفلسفة ، واختراع اتجاه
 «جديد» ، والنخ . . وما حاربه ماركس وانجلس وطارده خلال
 نشاطهما كله ، انما هو ذلك الطابع الكلامي لهذا النوع من
 المحاولات ، والتلاعب المدرسي بالمذاهب الفلسفية الجديدة
 المنتهية بـ«ية» ، وتعمية جوهر المسألة بحيل معقدة ، والعجز عن
 فهم ووضوح ادراك الصراع بين الاتجاهين الاساسيين في العرفانية .
 قلنا : خلال ما يقرب من نصف قرن . وبالفعل رسم ماركس

بوضوح مدهش الخطوط الجنزية في الفلسفة في عام ١٨٤٣ ، اي حين لم يكن الا بسبيل ان يصبح ماركس ، اي مؤسس الاشتراكية بوصفها علماً ، مؤسس **المادية المعاصرة** ، التي هي اغنى محتوى بما لا حد له واشد انسجاماً بما لا يقاس من جميع الاشكال السابقة للمادية . وقد اورد كارل غرون رسالة وجهها ماركس الى فورباخ بتاريخ ٢٠ تشرين الاول (اكتوبر) ١٨٤٣ . وفي هذه الرسالة طلب ماركس من فورباخ ان يكتب لصحيفة «Deutsch-Französische Jahrbücher» (٩٣) مقالةً ضد شيلينغ . فان شيلينغ هذا ، - كما كتب ماركس - ليس سوى متبجح فارغ يدعي ان يشمل ويتجاوز جميع الاتجاهات الفلسفية السابقة . «فلرومانطيين والصوفيين الفرنسيين يقول شيلينغ : انا تألف الفلسفة واللاهوت ؛ وللماديين الفرنسيين يقول : انا تألف الجسد والفكرة ؛ وللريبيين الفرنسيين يقول : انا محطم الجمود العقائدي» * . أما ان «الريبيين» يزعمون ضد «الجمود العقائدي» في المادية وفي المثالية ، سواء كانوا من انصار هيوم او كانط (ام في القرن العشرين ، من انصار ماخ) ، فان ماركس كان يرى هذا منذ ذلك ؛ وقد عرف بالاعتماد على فورباخ كيف يسلك مباشرة سبيل المادية ضد المثالية ، دون ان يتلهى باي من آلاف المناهج الفلسفية الصغيرة الحقيرة . وبعد ثلاثين سنة ، كتب ماركس في تذييل الطبعة الثانية من المجلد الاول من «رأس المال» يعارض بماديته ، بنفس الوضوح ونفس الجلاء ، **مثالية هيغل** ، اي المثالية الاكثر تطوراً والاشد انسجاماً ، ونبذ بازدراء «المذهب الوضعي» عند كونت وسخر بالفلاسفة المعاصرين الذين يظنون انهم قضوا على هيغل مع انهم لم يقوموا في الواقع باي عمل سوى انهم رددوا اخطاء كانط وهيوم السابقة لهيغل وبعثهم

* Karl Grün. «Ludwig Feuerbach in seinem Briefwechsel und Nachlaß, sowie in seiner philosophischen Charakterentwicklung», I. Bd., Lpz., 1874, S. 361 (كارل غرون . «لودفيغ فورباخ ، رسائله وقرائه الادبي وكذلك تحليل تطوره الفلسفي» ، المجلد الاول . ليبزيغ ، عام ١٨٧٤ ، ص ٣٦١ . الناشر) .

بالمقلدين الحقراء . وبنفس الازدراء ، رأى ماركس ، في رسالة وجهها الى كوغلمان بتاريخ ٢٧ حزيران (يونيو) ١٨٧٠ ، الى «بوخنر ، ولانغه ، ودوهرينغ ، وفخنر ، وغيرهم» لأنهم لم يستطيعوا ان يفهموا دياليكتيك هيغل ، ونظروا اليه باحتقار * . واخيراً خذوا بعض ملاحظات ماركس الفلسفية في «رأس المال» وفي مؤلفاته الاخرى . تروا فيها ابدأ نفس الفكرة الرئيسية: الالحاق على ابراز المادية ، وسخریات زاخرة بالازدراء من كل تمويه ، من كل بلبلة ، من كل تراجع نحو المثالية . ان جميع ملاحظات ماركس الفلسفية تدور في نطاق هذين النقيضين الاساسيين اللذين لا يمكن التوفيق بينهما . فان هذا «الضيق» وهذا «الموقف الوحيد الجانب» يشكلان عيبها ، من وجهة نظر الفلسفة الاستاذية . الا ان عدم الرغبة في ان يأخذ بعين الاعتبار المشاريع السقط الرامية الى التوفيق بين المادية والمثالية هو ، في الواقع ، اكبر مآثر ماركس الذي كان يسير قدماً ، سالكاً في الفلسفة سبيلاً واضح المعالم للغاية .

وبالتجاوب الروحي التام مع ماركس ، وبالتعاون الوثيق معه ، اقدم انجلس ايضاً ، في جميع مؤلفاته الفلسفية ، وبنفس الوضوح والايجاز ، على تبيان التضاد بين الخطين المادي والمثالي في جميع المسائل ، دون ان يحمل على محمل الجد ، لا في عام ١٨٧٨ ولا في عام ١٨٨٨ ، ولا في عام ١٨٩٢ (٩٥) ، المحاولات التي لا عد لها الرامية الى «تجاوز» «طابع» المادية والمثالية «الوحيد الطرف» ، والى اعلان خط جديد ، سواء كان ذلك يتعلق «بالوضعية» ام باي تدجيل استاذي . وكل النضال الذي خاضه انجلس ضد دوهرينغ ، انما خاضه كلياً تحت شعار تطبيق المادية تطبيقاً

* في رسالة بتاريخ ١٣ كانون الاول (ديسمبر) ١٨٧٠ ، قال ماركس عن الوضعي بيسلي (Beesly) : «ان بيسلي ، بوصفه من اتباع كوت ، لا يسعه ان يتخلى عن شتى النزوات الغريبة غير المعقولة» (crotchets) . قارن هذه الكلمات بالرأي الذي ابداه انجلس عام ١٨٩٢ حول الوضعيين à la (على طريقة) هكسلي (٩٤) .

دائماً منسجماً ، مع اتهامه المادي دوهرينغ بأنه يعمي جوهر المسألة بالكلمات ، وبأنه يعتمد على الجمل والتعابير ويلجأ الى اساليب محاكمة تنطوي على تنازل للمثالية ، على الانتقال الى صعيد المثالية . اما المادية المنسجمة الى النهاية ، واما اكاذيب المثالية الفلسفية وبلبلتها ؛ هكذا توضع المسألة في كل فقرة من كتاب «ضد دوهرينغ» ؛ فقط اناس ختمت الفلسفة الاستاذية الرجعية على عقولهم لم يستطيعوا ان يروا ذلك . وحتى عام ١٨٩٤ ، عندما كتب انجلس مقدمته الاخيرة لكتابه «ضد دوهرينغ» بعد ان اعاد النظر فيه واكماله للمرة الاخيرة ، ظل يتتبع الفلسفة الجديدة وعلم الطبيعيات الجديد ، وما انفك يلح بنفس الحزم على مواقفه الواضحة الراسخة ، مكنساً اوساخ المناهج الجديدة ، كبيرها وصغيرها .

اما ان يكون انجلس تتبع الفلسفة الجديدة ، فذلك يتبين من مؤلفه «لودفيغ فورباخ» . فانه يذكر في مقدمة هذا المؤلف التي كتبها في عام ١٨٨٨ ، حدثاً كنهضة الفلسفة الالمانية الكلاسيكية في انجلترا وفي سكاندينافيا ؛ اما الكانطية الجديدة السائدة ومذهب هيوم ، فان انجلس لا يتحدث عنهما (سواء في مقدمة كتابه ، ام في متنه) الا باشد الازدراء . من الواضح تماماً ان انجلس ، وقد لاحظ ترديد الفلسفة الالمانية والانجليزية الرائجة اخطاء الكانطية والهيومية القديمة ، السابقة لهيغل ، كان مستعداً لتوقع الخير حتى من عودة الى هيغل (في انجلترا وسكاندينافيا) ، آملاً في ان يسهم هذا المثالي والديالكتيكي الكبير في رؤية الاخطاء المثالية والميتافيزيائية الصغيرة .

ولم يستغرق انجلس في دراسة المظاهر العديدة المتنوعة التي ظهرت بها الكانطية الجديدة في المانيا ومذهب هيوم في انجلترا ، انما شجب من الوهلة الاولى انحرافهما الاساسي عن المادية . وقد نعت اتجاه هاتين المدرستين بكليته بأنه «خطوة الى الوراء في ميدان العلم» . ولكن ، كيف قدر انجلس الاتجاه الذي لا جدال بانسه «وضعي» من وجهة نظر التعابير الدارجة ، والذي لا جدال بانسه

«واقعي» الذي سار فيه هؤلاء الكانطيون الجدد وانصار هيوم ، وبينهم من لا يمكن لانجلس الا يعرفه ، كهكسلي مثلاً ؟ لقد اعتبر انجلس ان «الوضعية» و«الواقعية» اللتين كانتا ولا تزالان تستغويان عدداً لا حد له من المشوشين ، هما ، في افضل الحالات بمثابة اسلوب تافه ضيق الافق قوامه تمرير المادية خلسة ، مع ترذيلها وجعلها جهاراً في الوقت نفسه ! (٩٦) . يكفي المرء ان يتأمل دقيقة بهذا التقدير بصدقت . هكسلي ، اكبر عالم طبيعيات ، بهذا الواقعي الذي هو اكثر واقعية من ماخ وافيناريوس واضرابهمسا بكثير ، بهذا الوضعي الذي هو اكثر وضعية من هؤلاء بكثير ، لكي يدرك اي ازدراء يولده عند انجلس ما تبديه حالياً حفنة من الماركسيين من شغف «بالوضعية الحديثة» او «بالواقعية الحديثة» ، وما الى ذلك .

ان ماركس وانجلس كانا حزبيين في حقل الفلسفة من البداية الى النهاية ؛ وقد عرفا كيف يكتشفان الانحرافات عن المادية والتساهلات حيال المثالية والايمانية في جميع الاتجاهات «الحديثة» ، اياً كانت . ولذا لم يريا الى هكسلي الا من ناحية امانته للمادية . ولذا لاما فورباخ لأنه لم يطبق المادية الى النهاية ، لأنه جحد المادية بسبب اخطاء بعض الماديين ، لأنه حارب الدين بقصد تجديده او بقصد صنع دين جديد ، لأنه لم يعرف كيف يتخلص من التعابير المثالية في حقل علم الاجتماع ويصبح مادياً .

وقد قدر يوسف ديتزغن هذا التقليد الكبير القيم من تقاليد معلميه كامل التقدير وواصله رغم ما وقع به من اخطاء جزئية عند عرضه المادية الديالكتيكية . لقد اخطأ يوسف ديتزغن كثيراً بسبب انحرافات الخرقاء عن المادية ولكنه لم يحاول قط الانفصال عن المادية من حيث الاساس ، ولم يرفع راية «جديدة» ، بل اعلن دائماً ، في الساعات الحاسمة ، قائلاً بصلافة وحزم : انا مادي وفلسفتنا مادية . وقال صاحبنا يوسف ديتزغن بحق : «ان أحسن حزب من جميع الاحزاب هو حزب الوسط . . . وكما ان الاحزاب في مضمار السياسة تتجمع اكثر فاكثر في معسكرين فقط . . . كذلك

ينقسم العلم الى طبقتين اساسيتين (Generalklassen) : فهناك الميتافيزيائيون ، وهنا الفيزيائيون او الماديون * . والعناصر الوسطية ، والدجالون دعاة التوفيق ، اياً كانت القابهم ، سواء كانوا روحانيين ام حسيين ، ام واقعيين ، وهكذا دواليك ، انما يقعون في طريقهم تارة في هذا التيار وطوراً في التيار الثاني . اننا نطالب بالصلابة ، اننا نريد الوضوح . ان الظلاميين الرجعيين (Retraitebläser) يقولون عن انفسهم انهم مثاليون * * : ان جميع الذين يطمحون الى تحرير العقل البشري من الاضاليل الميتافيزيائية ، انما ينبغي ان يتسموا بالماديين . . . واذا قارنا هذين الحزبين بالجامد والسائل ، فان ما يكون في الوسط بينهما ليس سوى خبيص هلامي» * * * .

صحيح ! فان «الواقعيين» ومن هم على شاكلتهم ، بمن فيهم «الوضعيون» ، والماخيون ، والنخ . ، كل ذلك خبيص هش يرثى له ، حزب الوسط الحقير في الفلسفة الذي يخلط في كل مسألة على حدة بين الاتجاهين المادي والمثالي . وليست محاولات التخلص من هذين التيارين الاساسيين في الفلسفة سوى ضرب من «التدجيل الداعي الى التوفيق» .

ان يوسف ديتزغن لم يشك قط في ان «الاكليريكية العلمية» في الفلسفة المثالية هي مقدمة الاكليريكية الصريحة . فقد كتب يقول : «ان الاكليريكية العلمية تسعى جهدها باكبر الجهد لكي تمد يد المساعدة للاكليريكية الدينية» (l.c. ، ص ٥١) . «ان ميدان

* وهذا التعبير غير موفق وغير واضح ايضاً : فقد كان ينبغي القول «مثاليون» بدلاً من «ميتافيزيائيون» . هذا مع العلم ان يوسف ديتزغن نفسه يعارض في اماكن اخرى الميتافيزيائيين بالديالكتيكيين .
* * لاحظ ان يوسف ديتزغن قد اصلح خطأه واوضح بتعابير أدق ما هو حزب اعداء المادية .

* * * راجع مقال «الفلسفة الاشتراكية-الديموقراطية» المكتوب في عام ١٨٧٦ . . 1903, S. 135. «Kleinere philosophische Schriften» (المؤلفات الفلسفية الصغيرة) . عام ١٩٠٣ ، ص ١٢٥ . (الناشر) .

نظرية المعرفة ، وعدم فهم الروح البشري ، هما ، بخاصة ، حجر القمل» (Lausgrube) الذي «يبيض» فيه هذان النوعان من الاكليريكية . واساتذة الفلسفة هم ، بنظر يوسف ديتزغن ، «تخدم يحملون شهادات ويلقون الخطب حول «الخيرات المثالية» ويخبلون الشعب بواسطة مثالية طافحة بالتكلف (geschraubter) (ص ٥٣) . «وكما ان الشيطان هو نقيض الاله ، كذلك المادي هو نقيض الاستاذ الاكليريكي (Kathederpfaffen) . والنظرية المادية عن المعرفة هي «سلاح شامل ضد الايمان الديني» (ص ٥٥) ، لا ضد «دين الكهنة ، الدين العادي ، الحقيقي ، الذي يعرفه الجميع» وحسب ، بل ايضاً ضد «الدين الاستاذي ، المصفى ، المرفوع ، دين المثاليين الثملين (benebelter)» (ص ٥٨) .

ان ديتزغن كان على استعداد لأن يفضل «الاستقامة الدينية» على «نصفية» الاساتذة المفكرين الاحرار (ص ٦٠) : فهناك «يوجد نظام» ، يوجد رجال كاملون لا يفصلون النظرية عن التطبيق . اما حضرات الاساتذة ، فانهم يرون «ان الفلسفة ليست بعلم ، بل وسيلة دفاع ضد الاشتراكية-الديموقراطية» (ص ١٠٧) . «ان الاساتذة ومعلمي الجامعات ممن يقولون عن انفسهم انهم فلاسفة يقعون ، الى هذا الحد او ذاك ، رغم حرية تفكيرهم ، في حمأة الاوهام ، في حمأة الصوفية . . . وهم لا يؤلفون جميعاً سوى كتلة رجعية واحدة بالنسبة للاشتراكية-الديموقراطية» (ص ١٠٨) . «لكي يسلك المرء السبيل القويم دون ان يدع السخافات (Welsch) الدينية والفلسفية اياً كانت ، تشوش عليه افكاره ، ينبغي له ان يدرس السبيل الخاطيء للسبيل الخاطئة (der Holzweg der Holzwege) ، اي الفلسفة» (ص ١٠٣) .

وانظر الآن الى ماخ وافيناريوس ومدرستهما من وجهة نظر الاحزاب في الفلسفة . آه ، ان هؤلاء السادة يتباهون بلاحزبيتهم ، واذا كان ثمة نقيض لهم ، فما هو الا نقيض واحد ، وهو . . . مادي . وفي جميع كتابات جميع الماخيين ، يبرز بكل جلاء الادعاء البليد «بالارتفاع فوق» المادية والمثالية ، بالتغلب على هذا التضاد الذي

اكل الدهر عليه وشرب» ؛ غير اننا نرى في الواقع ان كل هذه الاخوية تقع في المثالية في كل لحظة ، وتخوضها حرباً لا هوادة فيها ولا رحمة ضد المادية . ان الشعوذات العرفانية المتفننة لافيناريوس ما تبقى تلفيقات اساتذية ، ومحاولة لانشاء شيعة فلسفية صغيرة ، «خاصة» به ، ولكننا نرى في الواقع ، في الظروف العامة للصراع بين الافكار والاتجاهات في قلب المجتمع المعاصر ، ان الدور الموضوعي لهذه الشعوذات العرفانية هو واحد وواحد فقط : تمهيد السبيل امام المثالية والايمانية ، وخدمتهما بأمانة . وبالفعل ليس من قبيل الصدفة ان يتشبهت باذيال مدرسة انصار المذهب النقدي التجريبي الصغيرة الروحانيون الانجليز من طراز ورد ، والنقديون الجدد الفرنسيون الذين يمدحون ماخ لنضاله ضد المادية ، والكمونيون الالمان ! ان النعت الذي اطلقه يوسف ديتزغن : «خدم الايمانية حملة الشهادات» يصيب ماخ وافيناريوس وكل مدرستهما اصابة مباشرة * .

* اليكم مثالا آخر يبين كيف تستغل بالفعل التيارات الواسعة الانتشار من الفلسفة البرجوازية الرجعية مذهب ماخ . ان «البراغماتية» (من الكلمة اليونانية pragma ومعناها العمل ، النشاط ؛ فلسفة العمل) تكاد تكون «آخر موضة» في الفلسفة الاميركية الحديثة . وللبراغماتية تخصص المجالات الفلسفية المجال الاوسع او يكاد . ان البراغماتية تسخر من ميتافيزيائية المثالية والمادية على السواء ، وترفع حتى السماء التجربة والتجربة فقط ، وترى في النشاط العملي المقياس الوحيد ، وتستشهد بالتيار الوضعي على العموم وتستند على الاخص الى اوستفالد وماخ وبيرسون وبوانكاره ودوهيم ، وترى ان العلم ليس «نسخة طبق الاصل تماماً عن الواقع» و... تستخلص من كل ذلك ، باو فر السلامة ، وجود الله ، لغايات عملية ، لأجل النشاط العملي فقط ، دون اي ميتافيزياء ، دون ان تتجاوز ابدأ حدود التجربة . (قارن : William James. «Pragmatism. A new name for some old ways of thinking», N. Y. and L., 1907, p. 57 ولاسيما 106 (قارن : وليام جيمس . «البراغماتية» اسم جديد لبعض الطرق القديمة في التفكير» ، نيويورك ولندن ؛ عام ١٩٠٧ ، ص ٥٧ ولاسيما ص ١٠٦) . ان الفرق بين الماخية

ان مصيبة الماخيين الروس الذين يريدون «التوفيق» بين الماخية والماركسية ، تتلخص على وجه الضبط في انهم وثقروا باساتذة الفلسفة الرجعيين فانزلقوا على منحدر . ان شتى محاولاتهم لتطوير ماركس وتكميله ترتكز على اساليب في غاية البساطة . لقد قرأوا اوستفالد ، وآمنوا باوستفالد ، وعرضوا اوستفالد ، وسموا هذا بالماركسية . قرأوا ماخ ، وآمنوا بماخ وعرضوا ماخ ، وسموا هذا بالماركسية . قرأوا بوانكاره ، وآمنوا ببوانكاره ، وعرضوا بوانكاره وسموا هذا بالماركسية ! عندما يدور الكلام حول الفلسفة ، لا يمكن تصديق اية كلمة من اي من هؤلاء الاساتذة مع انهم يستطيعون تدبيج مؤلفات ذات قيمة كبيرة جداً في ميادين خاصة من الكيمياء والتاريخ والفيزياء . لماذا ؟ لنفس السبب الذي يحمل على عدم تصديق اية كلمة من اي استاذ في الاقتصاد السياسي عندما يدور الكلام حول نظرية الاقتصاد السياسي العامة ، مع انه يستطيع تدبيج مؤلفات ذات قيمة كبيرة جداً في ميدان الابحاث العملية ، المختصة ، وذلك لأن هذه النظرية ، شأنها شأن علم العرفان ، هي علم حزبي في المجتمع المعاصر . وليس اساتذة علم الاقتصاد ، بوجه عام ، سوى خدم متعلمين لطبقة الرأسماليين ، وليس اساتذة الفلسفة سوى خدم متعلمين للاهوتيين .

ينبغي على الماركسيين ، هنا وهناك ، ان يعرفوا كيف يستوعبون ويعالجون مكتسبات هؤلاء «الخدم» (فانكم لن تخطوا ، مثلاً ، اية خطوة في ميدان دراسة الظواهر الاقتصادية الجديدة دون الاستفادة من دراسات هؤلاء الخدم) ؛ ينبغي على الماركسيين ان

والبراغماتية هو ، من وجهة النظر المادية ، ضئيل لا يؤبه له كالفرق بين المذهب النقدي التجريبي ومذهب الاحادية التجريبية . وللاقتناع بذلك ، لارن على الاقل تعريف الحقيقة كما صاغه بوغدانوف بتعريف الـ «البراغماتيين» : «الحقيقة هي ، بنظر الـبراغماتيين ، مفهوم جنسي يحدد في التجربة قيم عمل (working-values) معينة من اي جنس كان» (المصدر نفسه . ص ٦٨) .

يعرفوا كيف يقتطعون من هذه المكتسبات ميلها الرجعي ، ينبغي عليهم ان يعرفوا كيف يطبقون خطهم الخاص وكيف يناضلون ضد كل خط القوى والطبقات المعادية لنا . وهذا ما لم يستطع ان يقوم به اصحابنا الماخيون الذين يسيرون **بخنوع** وراء الفلسفة الاساتذية الرجعية . وقد كتب لوناتشارسكي باسم واضعي كتاب «دراسات» يقول : «قد نكون على ضلال ولكننا نبحت» . لستم **انتم الذين تبحثون** ، انما **يبعثون عنكم** ، وتلك هي المصيبة ! لستم انتم الذين تعالجون ، من وجهة نظركم ، اي من وجهة النظر الماركسية (اذ انكم تريدون ان تكونوا ماركسيين) ، كلاً من تقلبات الموضة في الفلسفة البرجوازية ، بل ان هذه الموضة هي التي تعالجكم وتفرض عليكم تزويراتها الجديدة من ذوق المثالية à la (على طريقة - المعرب) اوستفالد اليوم ، وغداً à la ماخ وبعد غد - à la بوانكاره . ان التحايلات «النظرية» الحمقاء («طاقة» ، «عناصر» ، «حقن» ، وما الى ذلك) التي تؤمنون فيها بسذاجة ، تظل في نطاق مدرسة ضيقة ، صغيرة للغاية ؛ ولكن **هيل** هذه التحايلات الفكرى و **الاجتماعي** يتلقفه حالاً ورد واضرابه ، والنقديون الجدد ، والكمونيون ، ولوباتين واضرابه ، والبراغماتيون ، **ويخدم خدمته** . ان هواية المذهب النقدي التجريبي والمثالية «الفيزيائية» تزول بسرعة كما تزول هواية الكانطية الجديدة والمثالية «الفيزيولوجية» ؛ ولكن الايمانية تأخذ جزيتها من كل من هذه الهوايات معدلة بالف طريقة تحايلاتها في صالح المثالية الفلسفية .

ان الموقف من الدين والعلوم الطبيعية يوضح غاية الايضاح هذا الاستخدام الطبقي **الفعلي** للمذهب النقدي التجريبي من جانب الرجعية البرجوازية .

خذوا المسألة الاولى . ألا ترون ان من باب الصدفة ذهب لوناتشارسكي ، في مؤلف جماعي ضد فلسفة الماركسية ، الى حد الكلام عن «تأليه الطاقات البشرية العليا» ، عن «الاحاد الديني» * ،

* «دراسات» ، ص ١٥٧ ، ١٥٩ . ان هذا المؤلف يعالج ايضا في صحيفة «زاغرانيتشنايا غازيتا» (٩٧) موضوع «الاشتراكية العلمية»

والخ . ؟ واذا كان هذا رأيكم ، فلسبب واحد ، هو ان الماخيين الروس قد اعطوا الجمهور معلومات خاطئة عن كل التيار الماخي في اوروبا وعن موقف هذا التيار من الدين . ان هذا الموقف لا يشبه في شيء موقف ماركس وانجلس ويوسف ديتزغن وحتى فورباخ ، وليس هذا وحسب ، بل يناقضه مباشرة ، ابتداء من تصريحات بتسولدت : ان المذهب النقدي التجريبي «لا يناقض مذهب التأليه ولا الالحاد» «Einführung in die Philosophie der reinen Erfahrung» * (المجلد الاول ، ص ٣٥١) او من بيان ماخ القائل : «الآراء الدينية قضية خاصة» (الترجمة الفرنسية ، ص ٤٣٤) ، حتى الايمانية السافرة ، حتى النزعة الرجعية المتطرفة السافرة سواء عند كورنيليوس الذي يمدح ماخ والذي يمدحه ماخ ، ام عند كاروس وجميع الكمونييين . ان حياد الفيلسوف في هذه المسألة انما هو الخنوع امام الايمانية ؛ والحال لا يرتفع ماخ وافيناريوس ولا يستطيعان الارتفاع فوق هذا الحياد ، بسبب من نقاط انطلاق عرفانيتها .

وما دتم تنكرون الواقع الموضوعي المعطى لنا من خلال الاحساس ، فانكم تفقدون كل سلاح ضد الايمانية ، اذ انكم تنزلقون حينذاك الى لجة اللاعرفانية او الى لجة الذاتية ، ولا تتطلب الايمانية منكم اكثر من ذلك . فاذا كان العالم المحسوس واقعاً موضوعياً ، اغلق الباب على كل «واقع» آخر او على كل واقع مزعوم آخر (تذكروا ان بازاروف قد آمن في «واقعية» الكمونييين الذين قالوا ان الله «مفهوم واقعي» . واذا كان العالم مادة متحركة ، كان من الممكن والواجب دراستها الى ما لا نهاية في اقل الظاهرات والتشعبات اللامتناهية التعقيد والتفصيل لهذه الحركة ، حركة هذه المادة ؛ بيد انه لا يمكن ان يكون ثمة شيء خارج هذه المادة ،

وقيمتها الدينية» (العدد ٣ ، ص ٥) ، كما كتب صراحة في مجلة «اوبرازوفانيه» (٩٨) ، ١٩٠٨ ، العدد ١ ، ص ١٦٤ ، يقول : «ان ديناً جديداً ينضج في نفسي من زمان بعيد...» .

* «مقدمة فلسفة التجربة الخالصة» . الناشر .

خارج العالم الخارجي ، «الفيزيائي» ، الأليف للجميع ولكل فرد . ان العداوة للمادية ، والافتراءات المكذوبة على الماديين رائجة اليوم في اوروبا المتمدنة والديموقراطية . وكل ذلك ما يزال قائماً حتى الآن . كل ذلك يخفيه الماخيون الروس عن الجمهور ، وهم لم يحاولوا ولو مرة واحدة ان يقارنوا بكل بساطة بين تهجمات ماخ وافيناريوس وبتسولدت وشركاهم على المادية وبين بيانات فورباخ وماركس وانجلس ويوسف ديتزغن في صالح المادية .

ولكنه لن يجدي نفعاً «اخفاء» موقف ماخ وافيناريوس من الايمانية . فالوقائع هي الوقائع . وما من جهد في العالم ينتزع هؤلاء الاساتذة الرجعيين من صليب الخزي والعار الذي سمرتهم عليه قبلات ورد ، والنقديين الجدد ، وشوبه ، وشوبرتزولدرون ، وليكلر ، والبراغماتيين ، وغيرهم . ان تأثير هؤلاء القوم الذين ذكرت الآن اسماءهم ، بوصفهم فلاسفة واساتذة ، وانتشار افكارهم بين الجمهور «المتعلم» اي البرجوازي ، والادب الخاص الذي ابدعوه ، كل ذلك اغنى واوسع عشر مرات من مدرسة ماخ وافيناريوس الخاصة الصغيرة . ان هذه المدرسة تخدم من يترتب عليها ان تخدمهم ، وهم يستخدمون هذه المدرسة كما ينبغي استخدامها .

ان الاعمال المخزية التي انحط اليها لوناتشارسكي ليست بالامر الاستثنائي ، انما هي ثمرة المذهب للنقدي التجريبي الروسي والالمانى معاً . ولا يمكن الدفاع عنها بالتذرع «بحسن نوايا» المؤلف ، ولا «بمعنى» اقواله «الخاص» : فاذا كان المقصود معناها المباشر العادي ، المؤلف ، الالمانى الصريح ، فاننا لن نحاول ابدأ الدخول في جدال مع المؤلف ، اذ لا ريب انه لن يكون ثمة ماركسي لم يعتمد ، بعد هذه البيانات ، الى وضع اناطولسي لوناتشارسكي ، دون تحفظ ، في نفس مرتبة بيوتر ستروفه . واذا لم يكن الحال كذلك ، (وليس الحال كذلك حتى الآن) ، فلسبب واحد ، هو اننا نرى في كلمات الاول ، لوناتشارسكي ، معنى «خاصاً» فنكافحه ما دام ثمة امامنا مجال لمكافحته كرفاق . ان عار بيانات لوناتشارسكي ، هو بالضبط كونه استطاع ان يربط بياناته

هذه «بحسن» نواياه . وان ضرر «نظريته» هو بالضبط كونها تسلم بوسائل كهذه او باستنتاجات كهذه من اجل تحقيق النوايا الحسنة . والمصيبة هي بالضبط كون النوايا «الحسنة» تظل ، في افضل الحالات ، شيئاً ذاتياً من شؤون يوسف او عصام او سليم ، بينما **الاهمية الاجتماعية** لمثل هذه البيانات ثابتة لا جدال حولها ، ولا يمكن تقليلها باية تحفظات او تفسيرات .

فالعميان وحدهم لا يرون القرابة الفكرية بين «تأليه الطاقات البشرية العليا» الذي قال به لوناتشارسكي وبين ما قال به بوغدانوف من «استبدال» كل الطبيعة الفيزيائية «العام» بالنفسي . فالفكرة هنا واحدة ، ولكنها في احدى الحالتين مصاغة بصورة رئيسية من وجهة نظر علم الجمال ، وفي الحالة الثانية ، من وجهة نظر علم العرفان . فان «الاستبدال» ، اذ يعالج المسألة في صمت ومن جهة اخرى ، يؤله «الطاقات البشرية العليا» ، فاصلاً «النفسي» عن الانسان ، ويستبدل **الطبيعة الفيزيائية كلها** «بالنفسي بوجه عام» ، الموسّع الى ما لا حد له ، المجرد ، الميت بروعة آلهية ؛ وما هو «لوغوس» يوشكيفيتش الذي يدخل في «التيار اللاعقلاني للمعطي» ؟ اول الشجرة النواة واول الهلاك زلة . والحال ان ماخينا جميعهم زلت بهم القدم في المثالية ، اي في ايمانية ملطفة ، متفننة ، وجميعهم يتخبطون في حماتها منذ ان اخذوا يعتبرون «الاحساس» «عنصراً» خاصاً وليس صورة عن العالم الخارجي . فاذا لم يقر المرء بالنظرية المادية التي تقول ان الوعي الانساني يعكس العالم الخارجي الفعلي موضوعياً ، انزلت بالضرورة الى احساس لا يخص احداً ، الى نفسية لا تخص احداً ، الى روح لا تخص احداً ، الى ارادة لا تخص احداً .

٥ - ارنست هيكل وارنست ماخ

انظروا الى موقف الماخية ، بوصفها تياراً فلسفياً ، من علم الطبيعيات . فان الماخية كلها تعارب منذ البداية والى النهاية ضد «ميتافيزياء» علم الطبيعيات ، مطلقة هذه التسمية على المادية

الطبيعية التاريخية ، اي الاقتناع العفوي ، غير الواعي ، غير المتشكك ، اللاواعي فلسفياً ، لدى الاغلبية الساحقة من علماء الطبيعيات بواقعية العالم الخارجي الموضوعية ، التي يعكسها وعينا . وهذا الواقع يلزم اصحابنا الماخيون الصمت حوله زيفاً ونفاقاً ، طامسين او مشوشين الصلة التي لا تنفصم عراها بين المادية العفوية لدى علماء الطبيعيات وبين المادية الفلسفية بوصفها اتجاهاً معروفاً من قديم الزمان واكده ماركس وانجلس مئات المرات .

خذوا افيناريوس . ففي مؤلفه الاول بالذات ، الصادر عام ١٨٧٦ : «الفلسفة بوصفها تفكيراً عن العالم بموجب مبدأ الحد الأدنى من الجهد» ، يحارب ميتافيزياء العلوم الطبيعية * اي المادية الطبيعية التاريخية ، ويحارب ، كما اعترف بنفسه في عام ١٨٩١ (ولكن دون ان «يصلح» نظراته !) ، من وجهة نظر المثالية العرفانية-النظرية .

خذوا ماخ . انه يحارب ميتافيزياء علم الطبيعيات ابداً ودائماً ، من عام ١٨٧٢ ، او حتى قبل ذلك ، الى عام ١٩٠٦ ، علماً بأنه يعترف بنزاهة وحسن ذمة بان «كوكبة كاملة من الفلاسفة» (بمن فيهم الكمونيون) ولكن «عدداً قليلاً جداً من علماء الطبيعيات» يسرون وراءه ومعهم («تحليل الاحساسات» ، ص ٩) . وفي عام ١٩٠٦ يعترف ماخ مرة اخرى بنزاهة وحسن ذمة بان «اغلبية علماء الطبيعيات تتبنى المادية (Erkenntnis und Irrtum)» ، الطبعة الثانية ، ص ٤) .

خذوا بتسولدت . في عام ١٩٠٠ ، يعلن ان «العلوم الطبيعية مشبعة كلياً (ganz und gar) بالميتافيزياء» . «لا يزال يتعين تطهير تجربتها» ، («Einführung in die Philosophie der reinen Erfahrung» (Bd. I, S. 343) . ونحن نعرف ان افيناريوس وبتسولدت «يطهران» التجربة من اي اعتراف بالواقع الموضوعي ، المعطى لنا من خلال الاحساس . وفي عام ١٩٠٤ يعلن بتسولدت ان «العقيدة

* الفقرات ٧٩ ، ١١٤ ، وغيرهما .

الميكانيكية عند عالم الطبيعيات المعاصر ليست ، من حيث الجوهر ، افضل من عقيدة الهنود القدماء» . «لا فرق البتة فيما اذا كان العالم يرتكز على فيل الحكاية ام على الجزيئات والذرات ، اذا تصورها المرء» (مفاهيم) «واقعية على الصعيد العرفاني ، وليس مجرد» (مفاهيم) «قابلة للاستعمال على سبيل المجاز (bloss bildlich)» (Bd. II, S. 176) .

خذوا فيللي - الشخص الوحيد المستقيم بين الماخين الى حد انه يستحي من القرابة مع الكمونيين - وهو ايضا يعلن في عام ١٩٠٥ . . . «وان العلوم الطبيعية تتبدى في آخر المطاف على درجة من المكانة في كثير من الميادين بحيث يتعين علينا ان نتخلص منها» («Gegen die Schulweisheit», S. 158*) .

والحال ، ان كل هذا **ظلامية مطبقة** ورجعية لامتناهية . فان اعتبار الذرات والجزيئات والالكترونات والنخ . انعكاساً صادقاً بصورة تقريبية في رأسنا لحركة المادة ، **لحركاتها الواقعية موضوعياً** ، يساوي الايمان في الفيل الذي يحمل العالم ! مفهوم ان تمسك الكمونيون **بكلتا اليدين** بمثل هذا **الظلامي** المجلبب ببذلة التهريج التي يجلبب بها الوضعي على الموضة . فما من كهوتي لا ينقض ، والزبد يتدفق من فمه ، على «ميتافيزياء» علم الطبيعيات ، على «مادية» علماء الطبيعيات . وذلك **بالضبط بسبب هذا الاعتراف** من جانب علماء الطبيعيات بالواقعية الموضوعية للمادة (ودقائقها) والزمان والمكان ، وبسنة الطبيعة ، وهكذا دواليك والى آخره . وقبل زمن طويل من الاكتشافات الجديدة في الفيزياء ، التي خلقت «المثالية الفيزيائية» ، كان ليكلر يناضل ، بالاعتماد على ماخ ، ضد «الاتجاه (Grundzug) المادي المهيمن في علم الطبيعيات المعاصر» (عنوان الفقرة ٦ في 1879 ،** «Der Realismus u.s.w.») ، وكان

* «ضد الحكمة المدرسية» . ص ١٥٨ . الناشر .

** «Der Realismus der modernen Naturwissenschaft im Lichte der von Berkeley und Kant angebahnten Erkenntniskritik» (واقعية العلوم الطبيعية المعاصرة في ضوء نقد المعرفة الذي اعطاه بركلي وكانط) . الناشر .

شوبرت-زولدرن يحارب ميتافيزياء علم الطبيعيات (عنوان الفصل الثاني في *1884, «Grundlagen einer Erkenntnistheorie»)، وكان رمكه يقاتل ضد «المادية» الطبيعية التاريخية، ضد «ميتافيزياء الشارع» هذه، 1882, «Philosophie und Kantianismus» (S. 17**) وهكذا دواليك وإلى آخره .

ومن هذه الفكرة الماخية عن «ميتافيزيائية» المادية الطبيعية التاريخية استخلص الكمونيون بصورة مشروعة تماماً استنتاجات ايمانية صريحة وسافرة . فاذا كان علم الطبيعيات لا يرسم لنا في نظرياته الواقع الموضوعي ، بل يرسم فقط المجازات والرموز ، واشكال التجربة الانسانية ، والنخ . ، فلا مراء اطلاقاً بأنه يحق للبشرية ان تصنع لنفسها من اجل ميدان آخر «مفاهيم» ليست اقل «واقعية» من نوع الاله وما الى ذلك .

ان فلسفة عالم الطبيعيات ماخ تعني بالنسبة لعلم الطبيعيات كما كانت قبله المسيحي يهوذا تعني بالنسبة للمسيح . فان ماخ يخون بالطريقة نفسها علم الطبيعيات في صالح الايمانية ، منتقلاً من حيث جوهر الامر الى جانب المثالية الفلسفية . ان تنكر ماخ للمادية الطبيعية التاريخية هو ظاهرة رجعية من جميع الوجوه : فقد رأينا هذا بما يكفي من الوضوح في معرض الكلام عن نضال «المثاليين الفيزيائيين» ضد اغلبيّة علماء الطبيعيات ممن لا يزالون يتبنون وجهة نظر الفلسفة القديمة . وسنرى هذا بمزيد من الوضوح اذا اجرينا مقارنة بين عالم الطبيعيات الشهير ارنست هيكل وبين الفيلسوف الشهير (في اوساط التفاهة الرجعية) ارنست ماخ .

ان العاصفة التي استثارها في جميع البلدان المتمدنة كتاب ارنست هيكل «الالغاز العالمية» قد كشفت بشكل بارز وواضح جداً حزبية الفلسفة في المجتمع المعاصر ، من جهة ، والاهمية الاجتماعية الحقيقية لنضال المادية ضد المثالية واللاعرفانية ، من

* «اسس نظرية المعرفة» . عام ١٨٨٤ . الناشر .

** «الفلسفة والكانطية» ، عام ١٨٨٢ ، ص ١٧ . الناشر .

جهة اخرى . فان مئات الآلاف من نسخ الكتاب الذي ترجم في الحال الى جميع اللغات وصدر خصيصاً بطبعات رخيصة ، قد بينت بكل وضوح ان هذا الكتاب «راح الى الشعب» ، وانه توجد جماهير من القراء الذين اجتذبهم ارنست هيكل في الحال الى جانبه . فقد اصبح هذا الكتاب الرائج اداة للنضال الطبقي . وعمد اساتذة الفلسفة واللاهوت في جميع اقطار الدنيا الى تقريع هيكل بآلاف الطرائق والى القضاء عليه بآلاف الاساليب . واندفع الفيزيائي الانجليزي الشهير لودج يدافع عن الرب دون هيكل . ومضى الفيزيائي الروسي ، السيد خفولسون ، الى المانيا لكي يطبع هناك كراسة سافلة رجعية متطرفة ضد هيكل ويؤكد للسادة الاجلاء التافهين الضيقي الافق ان ليست جميع العلوم الطبيعية تتبنى الآن وجهة نظر «الواقعية الساذجة» * . ولا عدّ لاولئك اللاهوتيين الذين تألبوا على هيكل . وانهاى عليه اساتذة الفلسفة الرسميون بشتائم الحقد والغضب من كل لون وشاكلة * * . ومن المسلي والمفرح ان نرى كيف تشع العيون وتتورد الخدود عند هذه المومياءات التي جفت في المدرسية الميتة ، - ولربما للمرة الاولى في الحياة - من جراء تلك الصفعات التي نزل بها ارنست هيكل عليها . ان كهان العلم الخالص والنظرية الاكثر تجرداً على ما يبدو ، يثنون ويتألمون من الغضب المسعور ؛ وفي كل هذا الخوار الذي يطلقه الرجعيون المتطرفون في الفلسفة (المثالي باولسن ، الكموني رمكه ، الكانطي اديكس ومن لف لفهم ؛ اما اسماء هؤلاء ، فالله وحده اعلم بها !) تتعالى بكل وضوح نبرة اساسية واحدة : ضد «ميتافيزياء» علم

* O. D. Chwolson: «Hegel, Haeckel, Kossuth und das zwölfte

Gebot», 1906. S. 80 (او د . خفولسون . «هيجل ، هيكل ،

كوشوت والوصية الثانية عشرة» ، عام ١٩٠٦ ، قارن ص ٨٠ . الناشر) .

* * ان كراسة هنريخ شميدت «الصراع بسبب ((الانغاز العالمية))»

(بون . عام ١٩٠٠) تعطي وصفاً لا بأس به لحملة اساتذة الفلسفة

واللاهوت على هيكل . ولكن هذه الكراسة قد شاخت كثيراً في الوقت

الحاضر .

الطبيعيات ، ضد «الجمود العقائدي» ، ضد «استعظام قيمة علم الطبيعيات واهميته» ، ضد «المادية الطبيعية التاريخية» . انه مادي ، عليه يا رجال ، على المادي يا رجال ! انه يخدع الجمهور بعدم القول صراحة عن نفسه بانه مادي - هذا على وجه الخصوص ما يدفع السادة الاساتذة الاجلاء الى حد الغيظ والجنون .

ومما له دلالة خاصة في كل هذه المشهديات التراجيدية الكوميديّة * ، واقع ان هيكل نفسه يتبرا من المادية ، يرفض هذا النعت . زد على ذلك انه لا ينكر اي دين ، وليس هذا وحسب ، بل يخلق ديناً خاصاً به (هو ايضاً ضرب من «الايمان الالحادي» لبولغاكوف او من «الالحاد الديني» للوناتشارسكي) ، مدافعاً من الناحية المبدئية عن الاتحاد بين الدين والعلم ! فما الحكاية ؟ ومن جراء اي «سوء تفاهم مشؤوم» اندلع الهرج والمرج ؟

الحكاية ان سذاجة ارنست هيكل الفلسفية ، وغياب الاهداف الحزبية الواضحة عنده ، ورغبته في مراعاة الوهم التافه السائد ضد المادية ، وميوله التوفيقية الشخصية ، ومقترحاته بصدد الدين ، - كل هذا اظهر بمزيد من الوضوح روح كتابه العامة ، واستحالة استئصال المادية الطبيعية التاريخية ، واستحالة التوفيق بينها وبين كل الفلسفة واللاهوت الاستاذيين الرسميين . ان هيكل لا يرغب شخصياً في القطيعة مع التافهين الضيقي الافق ، ولكن ما يعرضه بمثل هذا الاقتناع الساذج الذي لا يتزعزع ، لا يتوافق اطلاقاً مع اي من تلاوين المثالية الفلسفية السائدة . جميع هذه التلاوين ، ابتداء من النظريات الرجعية الاشد خشونة التي يلفقها هارتمان ما حتى المذهب الوضعي لبتسولدت الذي يظن نفسه حديثاً وتقدمياً وطليعياً ، او المذهب النقدي التجريبي لماخ ، جميعها تتفق في ان

* ان العنصر التراجيدي ، المأساوي ، قد حملته الاعتداء على حياة هيكل في ربيع السنة الجارية (١٩٠٨) . فبعد جملة من الرسائل المغفلة التي حيت هيكل بنعوت من نوع : «كلب» ، «كافر» ، «قرود» وما الى ذلك ، رمى رجل مجهول ، الماني حقاً في مكتب هيكل في بينا حجراً ذا وزن لا بأس به .

المادية الطبيعية التاريخية هي «ميتافيزياء» ، وان الاعتراف بالواقع الموضوعي لنظريات العلوم الطبيعية واستنتاجاتها هو «واقعية ساذجة» للغاية ، وما الى ذلك . وهذه التعاليم «الحميمة» لكل الفلسفة الاستاذية واللاهوت الاستاذي هي التي تصفها كل صفحة من صفحات كتاب هيكل . فان عالم الطبيعيات هذا ، الذي يعرب بالتأكيد عن الآراء والامزجة والميول الاشد رسوخاً ، وان لم تكن قد اتخذت شكلاً مكتملاً ، لدى الاغلبية الساحقة من علماء الطبيعيات في اواخر القرن التاسع عشر واولئل القرن العشرين ، قد بين من الوهلة الاولى ، وبسهولة وبساطة ، ما حاولت الفلسفة الاستاذية ان تخفيه عن الجمهور وعن نفسها ، ونعني بذلك انه توجد دعامة تصبح اوسع فأوسع وامتن فأمتن وتتحطم عليها جميع جهود ومساعي الف مدرسة ومدرسة للمثالية الفلسفية ، والوضعية ، والواقعية ، والمذهب النقدي التجريبي وغير ذلك من ضروب الالتباس . هذه الدعامة هي **المادية الطبيعية التاريخية** . ان اقتناع «الواقعيين السذج» (اي البشرية جمعاء) بان احساساتنا هي صور عن العالم الخارجي الواقعي موضوعياً هو اقتناع يتعاضم ويشتد باستمرار لدى جمهور علماء الطبيعيات .

اخفقت قضية مؤسسي المدارس التافهة الفلسفية الجديدة ، مؤلفي المذاهب العرفانية الجديدة ، - اخفقت الى الابد وبلا أمل . بوسعهم ان يتخطوا مع انظمتهم التافهة «الاصيلة» ، بوسعهم ان يشغلوا بال بعض الانصار بجدال طريف حول ما اذا كان الناقد التجريبي بوبتشينسكي ام الاحادي التجريبي دوبتشينسكي (٩٩) هو الذي سبق ولفظ حرف «ت !» ، بوسعهم ان يدبجوا حتى ادباً «خاصاً» شاسعاً على غرار «الكمونيين» ، - فان مجرى تطور علم الطبيعيات ، رغم كل تذبذبه وتأرجحه ، رغم كل المادية اللاواعية لدى علماء الطبيعيات ، رغم الانسياق في الامس وراء «المثالية الفيزيولوجية» الدارجة ، او اليوم وراء «المثالية الفيزيائية» الدارجة ، ينبذ جانباً جميع الانظمة التافهة وجميع التحايلات ، مقدماً المرة تلو المرة «ميتافيزياء» **المادية الطبيعية التاريخية** .

اليكم توضيحاً لما قيل بالاستناد الى مثال من امثلة هيكل .
ففي «عجائب الحياة» يقارن المؤلف بين نظرية العرفان الاحادية
والاثينية ؛ وهنا نسوق اطرف بنود المقارنة :

نظرية العرفان الاثينية

نظرية العرفان الاحادية

- | | |
|---|--|
| <p>٣ - المعرفة ليست ظاهرة
فيزيولوجية ، بل عملية
روحية خالصة .</p> <p>٤ - ان ذلك الجزء من الدماغ
الذي يبدو انه يعمل بوصفه
عضو المعرفة ، ليس بالفعل
غير اداة تساعد في اظهار
الظواهر الذهنية .</p> <p>٥ - الفرونيما ، بوصفه عضو
العقل ، ليس مستقلاً ،
وليس مع اقسامه المكونة
(الخلايا الفرونيماية) سوى
وسيط بين الروح غير المادية
والعالم الخارجي . ان العقل
البشري يختلف من حيث
الجوهر عن عقل الحيوانات
العليا وعن غريزة الحيوانات
الدنيا .</p> | <p>٣ - المعرفة هي ظاهرة
فيزيولوجية : العضو التشريحي
هو الدماغ .</p> <p>٤ - الجزء الوحيد من الدماغ
البشري الذي توجد فيه
المعرفة هو جزء معين من
قشرة الدماغ ، «الفرونيما» .</p> <p>٥ - الفرونيما هو آلة دينامو-
كهربائية كاملة للغاية
اقسامها المكونة ملايين الخلايا
الفيزيائية (الخلايا
الفرونيماية) . ان وظيفة
القسم المعني من الدماغ ،
(الوظيفة الروحية) هي ،
تماماً كما بالنسبة لسائر
اعضاء الجسم ، النتيجة
النهائية لوظائف الخلايا التي
تشكل الدماغ . *</p> |
|---|--|

وانتم ترون من هذا المقتطف النموذجي لمؤلفات هيكل انه
لا يحلل المسائل الفلسفية ولا يعرف كيف يقابل بين نظرية العرفان

* هنا استعمل الترجمة الفرنسية «Les merveilles de la vie», Paris, Schleicher. Tabl. I et XVI (عجائب الحياة) ، باريس ، شليخ ،
الجدولان ١ ، ١٦ - الناشر .

المادية ونظرية العرفان المثالية . وهو يسخر من جميع التحايلات المثالية ، بل يسخر ، بالإضافة الى ذلك ، من جميع التحايلات الفلسفية الخاصة ، من وجهة نظر العلوم الطبيعية ، دون ان يعجز حتى الفكرة الزاعمة انه يمكن وجود نظرية للعرفان اخرى غير المادية الطبيعية التاريخية . وهو يسخر من الفلاسفة من وجهة نظر المادي دون ان يرى واقع انه يتبنى وجهة نظر المادي !

وانه لمفهوم حقد الفلاسفة العاجز على هذه المادية الكلية القدرة . ولقد سقنا اعلاه رأي «الروسي حقاً» لوباتين . واليكم الآن رأي السيد رودولف فيللي ، «الناقد التجريبي» الاكثر تقدماً ، المعادي للمثالية عداء مستحكماً (تمزحوا !) : «الخليط العمائي لبعض القوانين الطبيعية التاريخية ، مثلاً ، قانون بقاء الطاقة ، وما اليه ، الى جانب التقاليد المدرسية بضد الجوهر والشيء في ذاته» («Gegen die Schulweisheit», S. 128) .

ما الذي أغضب «الوضعي الحديث» الجزيل الاحترام ؟ ولكن ، كيف لا يغضب وقد فهم في الحال ان جميع التعاليم العظيمة لمعلمه افيناريوس - مثلاً ، ان الدماغ ليس عضو الفكر ، وان الاحساسات ليست صور العالم الخارجي ، وان المادة («الجوهر») او «الشيء في ذاته» ليس واقعاً موضوعياً ، والنخ . - هي ، من وجهة نظر هيكل ، رطانة مثالية برمتها ! ؟ ان هيكل لم يقل هذا ، لأنه لم يتعاط الفلسفة ، ولم يطلع على «المذهب النقدي التجريبي» ، مأخوذاً بعد ذاته . ولكنه لا يسع رودولف فيللي ان لا يرى ان قراء هيكل المائة الف يعنون مائة الف باصق في وجه فلسفة ماخ وافيناريوس . وسلفاً يمسح رودولف فيللي وجهه - على طريقة لوباتين . لأن كنه ذرائع السيد لوباتين والسيد فيللي ضد كل مادية على العموم وضد المادية الطبيعية التاريخية على الخصوص واحد تماماً . وان الفرق بين السيد لوباتين والسيد فيللي وبتسولدت وماخ وشركاهما ليس بنظرنا نحن الماركسيين اكبر من الفرق بين اللاهوتي البروتستانتى واللاهوتي الكاثوليكي . ولقد برهنت «الحرب» ضد هيكل ان نظرنا هذه تتطابق مع

الواقع الموضوعي اي مع الطبيعة التطبيقية للمجتمع المعاصر ولميوله الفكرية التطبيقية .

اليكم مثالا صغيراً آخر . ترجم الماخي كلينبيتر من اللغة الانجليزية الى اللغة الالمانية مؤلف كارل سنايدر المنتشر في اميركا «لوحة العالم من وجهة نظر علم الطبيعيات المعاصر» («Das Weltbild der modernen Naturwissenschaft». Lpz., 1905).

ان هذا المؤلف يعرض بصورة واضحة واسلوب مبسط جملة كاملة من الاكتشافات الحديثة سواء في الفيزياء ام في الميادين الاخرى من علم الطبيعيات ولكن الماخي كلينبيتر اضطر الى تزويد سنايدر بمقدمة تتضمن **تحفظات** منها ، مثلاً ، ان طريقة العرفان لدى سنايدر «غير مرضية» (S.V) . فما الحكاية ؟ الحكاية ان سنايدر لا

يخامره ، وان لحظة ، اي شك بصدد ان لوحة العالم هي لوحة عن كيف تتحرك المادة وعن كيف «تفكر المادة» (S. 228. 1. c.) .

ويقول سنايدر في عمله الثاني «آلة العالم» (Lond. and N.Y., 1907; Karl Snyder «The World Machine»)

كتابه لذكرى ديموقريطس من ابديرا الذي عاش تقريباً بين عام ٤٦٠ و٣٦٠ قبل المسيح : «غالباً ما سموا ديموقريطس بالوالد

المسبق للمادية . ان هذه المدرسة الفلسفية ليست نوعاً على

الموضحة في ايامنا ؛ ولكنه لن يكون من الناقل التنويه بان كل

التقدم الحديث لتصوراتنا عن العالم قد ارتكز بالفعل على مقدمات المادية . ان المقدمات المادية ، اذا تكلمنا صراحة (practically speaking) ، هي بكل بساطة غير قابلة للازالة (unescapable) في البحوث الطبيعية التاريخية» (ص ١٤٠) .

«من المؤكد ان بوسع المرء ، اذا طاب له ، ان يحلم مع الاسقف الطيب بركلي بصدد الموضوع التالي ، وهو ان كل شيء

حلم . ولكن مهما كانت شعوزات المثالية الهوائية مستطابة ، فانه

سيواجه مع ذلك عدد قليل من الناس ممن يشكون - رغم تبنيهم

لاكثر الآراء في قضية العالم الخارجي تبايناً - في انهم موجودون . ولا داعي للمرء الى بذل الكثير من الجهود بشأن سراب الأنا واللا-

أنا لكي يقتنع باننا ، اذ نُسلم بوجودنا بالذات ، انما نفتح البوابات الست لحواسنا امام طائفة من التخيلات . ان فرضية الكتل الضبابية ، ونظرية النور بوصفه حركة الاثير ، ونظرية الذرات ، وجميع التعاليم المماثلة لها ، انما يمكن اعلانها بكل بساطة «فرضيات عمل» ملائمة ؛ ولكنه يجب التذكير بان هذه التعاليم ، طالما لم يتم دحضها ، تظل تقوم بهذا القدر او ذاك على نفس الاساس الذي تقوم عليه الفرضية القائلة ان الكائن الذي تسميه بنفسك ، ايها القارىء الفائق اللطف ، يطالع هذه الاسطر» (ص ٣١-٣٢) .

تصوروا قسمة الماخي المرة حين تتعرض تلفيقاته المتفننة المفضلة التي تحصر مقولات العلوم الطبيعية في مجرد فرضيات عمل للسخر والتهكم ، بوصفها هراء ولغوًا ، من قبل علماء الطبيعيات من على جانبي المحيط ! هل يعجبون من كون رودولف فيللي يحارب في عام ١٩٠٥ ، كما ضد عدو حي ، ضد ديموقريطس ، مقدماً بذلك برهاناً رائعاً على **حزبية الفلسفة** ، وكاشفاً ايضاً وايضاً موقفه الحقيقي في هذا الصراع الحزبي ؟ فقد كتب يقول : «من المؤكد ان ديموقريطس لا يلم بواقع ان الذرات والمكان الفارغ ليسا سوى مفهومين وهميين يقدمان مجرد خدمة بوصفهما وسيلة ثانوية (blosse Handlangerdienste) ، ويتقبلونهما لاعتبارات العقلانية ما داما صالحين للاستعمال . ان ديموقريطس لم يكن حراً الى حد ان يفهم هذا ؛ ولكن اصحابنا علماء الطبيعيات المعاصرين ، باستثناء قلة قليلة منهم ، ليسوا هم ايضاً احراراً . ان ايمان ديموقريطس القديم هو ايمان اصحابنا علماء الطبيعيات» (l.c., S. 57) .

هناك حقاً ما يحمل على اليأس ! لقد برهنوا «بطريقة جديدة» تماماً ، بطريقة «النقد التجريبي» ان المكان والذرات على السواء «فرضيتا عمل» ، ولكن علماء الطبيعيات يسخرون من هذه البركالية ويسيروا وراء هيكلي ! نحن لسنا البتة مثاليين ؛ هذا افتراء ؛ نحن لا نفعل غير ان نكدح (مع المثاليين) لدحض الخط العرفاني عند ديموقريطس ، ونكدح منذ اكثر من ٢٠٠٠ سنة ، - ولكن عبثاً !

فلا يبقى لزعيمننا ، ارنست ماخ ، الا ان يهدي عمله الاخير ، حاصل حياته وفلسفته ، «المعرفة والضلال» ، لولهلم شوبه ، وان يشير في المتن بتأسف الى ان علماء الطبيعيات ماديون باغلبيتهم ، و«اننا نحن ايضاً» فتعاطف مع هيكل . . بسبب «التفكير الحر» (ص ١٤) . هنا ارتسم كله ، هذا الايديولوجي للتفاهة الرجعية السائر وراء الرجعي المتطرف ولهلم شوبه ، و«المتعاطف» مع هيكل وتفكيره الحر . انهم هكذا جميعاً ، هؤلاء التافهين الضيقي الافق الانسانيين في اوروبا مع عواطف حبهم للحرية ، ومع وقوعهم في الاسر الفكري (والسياسي والاقتصادي) لاضراب ولهلم شوبه * . ان اللاحزبية في الفلسفة ليست غير استخذاء مستور باحتقار امام المثالية والايمانية .

وفي الختام ، قارنوا رأي فرانتس مهرينغ في هيكل ، علماً بان مهرينغ انسان لا يرغب في ان يكون ماركسياً وحسب ، بل يعرف كذلك كيف يكون ماركسياً . فما ان صدر كتاب «الغاز العالم» ، وذلك في اواخر عام ١٨٩٩ ، حتى اشار مهرينغ على الفور الى ان «مؤلف هيكل رائع القيمة ، سواء بجوانبه الضعيفة ام بجوانبه القوية ، للمساعدة في توضيح بضع نظرات مشوشة في حزبنا بصدد ما تشكله بالنسبة له المادية التاريخية من جهة ، والمادية التاريخية من جهة اخرى» * * . ان نقص هيكل ، هو انه ليست لديه اية فكرة عن المادية التاريخية ، فتمادى الى حد النطق بجملة كاملة من السخافات الصارخة سواء بصدد السياسة ام بصدد «الدين الاحادي» ، والخ . ،

* ان بليخانوف لم يعن في ملاحظاته ضد الماخية بدحض ماخ قدر ما عني بالحاق الضرر التكتلي بالبلشفية . وجزاء على هذا الاستغلال التافه والحقير للخلافات النظرية الجذرية ، عوقب بحق وعدالة بكتابين من تأليف المناشفة-الماخيين (١٠٠) .

* * Fr. Mehring. «Die Welträtsel», «Neue Zeit», 1899—1900, 18, 1, 418 (فرانتس مهرينغ . «الغاز العالم» ، «الازمنة الحديثة» ، ١٨٩٩—١٩٠٠ ، ١٨ ، ١ ، ٤١٨ . الناشر) .

وهلم جراً . «هيكل مادي واحادي ، ولكنه ليس مادياً تاريخياً ، بل مادي طبيعي تاريخي» (المرجع نفسه) .

«ليطالع كتاب هيكل كل من يريد ان يلمس بيديه هذا العجز (عجز المادية الطبيعية التاريخية عن تناول المسائل الاجتماعية) ، كل من يريد ان يدرك الى اي حد من الضروري توسيع المادية الطبيعية التاريخية حتى المادية التاريخية بغية تحويلها الى سلاح قاهر فعلاً في كفاح البشرية التحرري العظيم .

ولكنه لا ينبغي قراءة كتاب هيكل لهذا الغرض وحسب . فان جانبه الخارق الضعف مرتبط بصورة لا انفصام لعراها بجانبه الخارق القوة - اي بعرض جلي ، ساطع لتطور العلوم الطبيعية في هذا القرن (التاسع عشر) يشكل القسم الاكبر الى ما لا قياس له من الكتاب - سواء من حيث الحجم او من حيث الاهمية - اي بتعبير آخر : **عرض لرحف المادية الطبيعية التاريخية المظفر**» * .

Franz Mehring. Die Welträtsel», «Neue Zeit», 1899—1900, 18,*

الغاتمة

يجب على الماركسي ان يعتمد من اربع وجهات نظر الى تقييم المذهب النقدي التجريبي .

اولاً وقبل كل شيء ، من الضروري مقارنة الاسس النظرية لهذه الفلسفة وللمادية الديالكتيكية . ان هذه المقارنة التي خصصنا لها الفصول الثلاثة الاولى تبين ، على طول خط المسائل العرفانية ، الرجعية التامة الملازمة للمذهب النقدي التجريبي الذي يستر بالأعيب وتحايلات وكلمات جديدة الاخطاء القديمة للمثالية والاعرفانية . ولا يمكن الحديث عن «الجمع» بين المذهب النقدي التجريبي والماركسية الا في حال الجهل المطبق بصدد ماهية المادية الفلسفية على العموم وبصدد ماهية طريقة ماركس وانجلس الديالكتيكية .

ثانياً ، من الضروري تحديد مكان المذهب النقدي التجريبي بوصفه مدرسة صغيرة جداً لفلاسفة اختصاصيين بين المدارس الفلسفية الاخرى في العهد المعاصر . لقد بدأ ماخ وافيناريوس على السواء من كانط ، ومنه لم يذهبوا نحو المادية ، بل ذهبوا في الاتجاه المعاكس ، نحو هيوم ونحو بركلي . وقد تصور افيناريوس انه «يطهر التجربة» على العموم ، ولكنه لم يطهر بالفعل الا الاعرفانية من الكانطية . ان مدرسة ماخ وافيناريوس تمضي كلها الى المثالية بوضوح متعاضم ابدأً ، وفي وحدة وثيقة مع مدرسة من اشد المدارس المثالية اغراقاً في الرجعية ، هي مدرسة من يسمون بالكمونيين . ثالثاً ، يجب ان تؤخذ بعين الاعتبار الصلة الاكيدة بين الماخية وبين مدرسة في فرع من فروع العلوم الطبيعية الحديثة . فالى جانب

المادية تقف ابدأ ودائماً الاغلبية الساحقة من علماء الطبيعيات سواء على العموم ام في الفرع المختص المعني ، اي بالضبط في الفيزياء . اما اقلية الفيزيائيين الجدد ، فقد انزلت عبر النسبية الى المثالية ، بحكم جهل الدياليكتيك ، وبتأثير تحطيم النظريات القديمة من قبل الاكتشافات العظيمة في السنوات الاخيرة ، وبتأثير ازمة الفيزياء الجديدة ، هذه الازمة التي بينت بجلاء خاص نسبية معارفنا . ان المثالية الفيزيائية الدارجة في ايامنا هي هوية رجعية وقصيرة الامد شأنها شأن المثالية الفيزيولوجية الدارجة في الماضي غير البعيد .

رابعاً ، لا يجوز للمرء ان لا يرى وراء السكولاستيك العرفاني للمذهب النقدي التجريبي صراع الاحزاب في الفلسفة ، هذا الصراع الذي يعبر في آخر تحليل عن ميول الطبقات المتعادية في المجتمع المعاصر وعن ايديولوجيتها . فان الفلسفة الحديثة حزبية كالفلسفة منذ الفي سنة . وان المادية والمثالية هما حزبان متصارعان من حيث جوهر الامر المستور بنعوت جديدة مشعوذة عقائدية جامدة او بالاحزبية القليلة العقل . وما المثالية غير شكل متفنن ، منعم للايمانية التي تقف على كامل التأهب ، وتملك منظمات هائلة ، وتواصل التأثير ابدأ ودائماً في الجماهير ، مستغلة في صالحها اقل تأرجح في الفكر الفلسفي . وان دور المذهب النقدي التجريبي ، دوره الموضوعي ، الطبقي ينحصر كلياً في خدمة الايمانين بخنوع ومذلة في نضالهم ضد المادية على العموم وضد المادية التاريخية على الخصوص .

إضافة الى الفقرة الاولى من الفصل الرابع *

**من اي جانب انتقدن . غ . تشيرنيشيفسكي
الكانطية ؟ (١٠١)**

في الفقرة الاولى من الفصل الرابع ، بينا بالتفصيل ان الماديين انتقدوا وينتقدون كانط من جانب مقابل تماماً للجانب الذي ينتقده منه ماخ وافيناريوس . ولا نرى من الناقل ان نضيف هنا ، وان بايجاز ، اشارة الى الموقف العرفاني الذي وقفه الهيجلي والمادي الروسي العظيم ن . غ . تشيرنيشيفسكي .

فبعد مرور حقبة قصيرة على انتقاد كانط من قبل البريخت زاو ، التلميذ الالمانى لفورباخ ، حاول الكاتب الروسي العظيم ن . غ . تشيرنيشيفسكي ، - وهو ايضاً تلميذ فورباخ ، - ان يعرض للمرة الاولى بصورة صريحة موقفه من فورباخ وموقفه من كانط . وقد تدخل ن . غ . تشيرنيشيفسكي في الادب الروسي ، حتى في الخمسينيات من القرن الماضي ، كنصير لفورباخ ، ولكن رقابتنا لم تسمح له حتى بذكر اسم فورباخ . وفي عام ١٨٨٨ ، حاول ن . غ . تشيرنيشيفسكي في مقدمة الطبعة الثالثة العتيدة لكتاب «علاقات الفن الجمالية بالواقع» ان يشير صراحة الى فورباخ ، ولكن الرقابة لم تسمح في عام ١٨٨٨ ايضاً حتى بمجرد الاستشهاد بفورباخ ! ولم تر المقدمة النور إلا في عام ١٩٠٦ ؛ انظر المجلد ١٠ ، الجزء ٢ من «المؤلفات الكاملة» . ن . غ . تشيرنيشيفسكي ، ص ١٩٠-١٩٧ . في هذه «المقدمة» ، يخصص

* راجع هذا الكتاب ، ص ٢٢٣-٢٢٦ . الناشر .

ن . غ . تشيرنيشيفسكي نصف صحفة لانتقاد كانط وعلماء الطبيعيات الذين يسيرون وراء كانط في استنتاجاتهم الفلسفية .
اليكم محاكمة ن . غ . تشيرنيشيفسكي الرائعة هذه في عام
١٨٨٨ :

«ان اولئك من علماء الطبيعيات الذين يتصورون انهم صانعو النظريات الكلية يظلون في الواقع تلامذة ، بل تلامذة ضعفاء في الغالب ، للمفكرين القدماء الذين ابدعوا الانظمة الميتافيزيائية ، وللمفكرين الذين قضى شيلينغ على انظمتهم بصورة جزئية وقضى عليها هيغل نهائياً . حسبنا التذكير بان اغلبية علماء الطبيعيات الذين حاولوا ان يبنوا نظريات واسعة عن قوانين نشاط الفكر البشري يكررون نظرية كانط الميتافيزيائية بصدد ذاتية معرفتنا» ، . . . (ليأخذ الماخيون الروس الذين شوشوا كل شيء علماً بان تشيرنيشيفسكي يقف وراء انجلس لأنه يخلط في تعابيره بين مقابلة المثالية بالمادية ومقابلة التفكير الميتافيزيائي بالتفكير الديالكتيكي ، ولكن تشيرنيشيفسكي يقف كلياً في مستوى انجلس لأنه يلوم كانط ، لا بسبب الواقعية ، بل بسبب اللاعرفانية والذاتية ، لا بسبب التسليم «بالشيء في ذاته» ، بل بسبب عدم القدرة على استخلاص معرفتنا من هذا المصدر الموضوعي) . . .
«يزعمون على غرار كانط ان اشكال ادراكنا الحسي لا تشبه اشكال وجود الاشياء الفعلية» ، . . . (ليأخذ الماخيون الروس الذين شوشوا كل شيء علماً بان انتقاد كانط من قبل تشيرنيشيفسكي مناقض تماماً لانتقاد كانط من قبل افيناريوس - ماخ والكمونيين ، لان اشكال ادراكنا الحسي ، كما يعتقد تشيرنيشيفسكي مثل اي مادي آخر ، تشبه اشكال وجود الاشياء الفعلية اي الوجود الواقعي الموضوعي) . . . «وان الاشياء الموجودة فعلاً وصفاتها الفعلية ، وعلاقاتها الفعلية فيما بينها ، هي بالتالي مستحيلة على معرفتنا اياها» ، . . . (وليأخذ الماخيون الروس الذين شوشوا كل شيء علماً بان تشيرنيشيفسكي يعتقد مثل اي مادي ان الاشياء ، اي ، بلغة كانط المزوقة ، «الاشياء في ذاتها» ، توجد فعلاً وقابلة

لمعرفتنا اياها كلياً ، قابلة لمعرفة في وجودها وفي صفاتها وفي علاقاتها الفعلية) . . . «وانها لو كانت قابلة لمعرفة ، لما كان يمكن ان تكون موضوع تفكيرنا الذي يضع كل مادة معارفنا في اشكال مختلفة تماماً عن اشكال الوجود الفعلي ، وبان قوانين التفكير ذاتها لا تتسم إلا باهمية ذاتية» ، . . . (ليأخذ المشوشون الماخيون علماء بان تشيرنيشيفسكي يعتقد مثل اي مادي ان قوانين التفكير لا تتسم باهمية ذاتية وحسب ، اي ان قوانين التفكير تعكس اشكال وجود الاشياء الفعلي ، وانها تتشابه تماماً مع هذه الاشكال ولا تختلف عنها) . . . «وبانه لا يوجد في الواقع ما يبدو لنا بمثابة صلة السبب مع الفعل ، لأنه لا يوجد لا سابق ، ولا تابع ، لا يوجد لا كامل ولا اجزاء ، وهكذا دواليك وهلم جراً» . . . (ليأخذ المشوشون الماخيون علماء بان تشيرنيشيفسكي يعتقد مثل اي مادي انه يوجد في الواقع ما يبدو لنا بمثابة صلة السبب مع الفعل ، اي انه توجد السببية الموضوعية للطبيعة او ضرورة الطبيعة) . . . «وحين يكف علماء الطبيعيات عن النطق بهذا اللغو الميتافيزيائي وبما يماثله ، يصبح بمقدورهم ان يصوغوا ، وهم يصوغون ، على الارجح ، بالاستناد الى العلوم الطبيعية ، نظاماً من مفاهيم ادق واكمل من تلك التي عرضها فورباخ . . .» . (ليأخذ المشوشون الماخيون علماء بان تشيرنيشيفسكي ينعت باللغو الميتافيزيائي اية انحرافات عن المادية الى جانب المثالية والى جانب اللاعرفانية) . . . «وحتى ذاك ، يظل العرض الذي قدمه فورباخ افضل عرض للمفاهيم العلمية عما يسمى بالمسائل الاساسية لحب المعرفة البشرية» (ص ١٩٥-١٩٦) . ويسمى تشيرنيشيفسكي بالمسائل الاساسية لحب المعرفة البشري ما يسمى في اللغة المعاصرة بالمسائل الاساسية لنظرية المعرفة او لعلم العرفان . ان تشيرنيشيفسكي هو الكاتب الروسي الوحيد والعظيم فعلاً الذي استطاع ان يظل من الخمسينيات حتى عام ١٨٨٨ في مستوى المادية الفلسفية الكاملة وان ينبذ جانباً اللغو الحقير للكانطيين الجدد ، والوضعيين ، والماخيين ، وسائر المشوشين . ولكن تشيرنيشيفسكي

لم يستطع ، والاصح القول ، عجز ، بحكم تأخر الحياة الروسية ، ان يرتفع الى مستوى مادية ماركس وانجلس الديالكتيكية .

المجلد ١٨ ،
ص ٧-٣٨٤

كتب في شباط - تشرين الاول
(فبراير-اكتوبر) عام ١٩٠٨ ؛
والاضافة الى الفقرة الاولى من الفصل
الرابع في آذار (مارس) ١٩٠٩

حول الديالكتيك (١٠٢)

ان ازدواج ما هو واحد ومعرفة جزئية المتناقضين (راجع «هيراقليت» لاسال ، رأي فيلون بهيراقليت ، في مطلع القسم الثالث ، «في المعرفة») يشكلان جوهر الديالكتيك (أحد «جواهره» ، إحدى خصائصه أو ميزاته الرئيسية ، ان لم تكن خاصته الرئيسية) . على هذا النحو بالضبط يطرح هيغل المسألة بدوره . (ان أرسطو يدور بلا انقطاع ، في كتابه «ميتافيزياء» ، حول هذه المسألة ويعارب هيراقليت و respective * الافكار الهيراقليتية) . ينبغي اثبات صحة هذا الجانب من مضمون الديالكتيك بواسطة تاريخ العلم . فعادة (بليخانوف ، مثلاً) لا يُهتم الاهتمام الكافي بهذا الجانب من الديالكتيك : فان تماثل الأضداد يعتبر بمثابة مجموعة من الأمثلة [«مثلاً» ، «الحب» ، «مثلاً» ، الشيوعية البدائية] . كذلك هي الحال عند انجلس . ولكن «بقصد التبسيط» [...] لا بمثابة قانون من قوانين المعرفة (وقانون من قوانين العالم الموضوعي) .

- في الرياضيات ، الأكثر+والأقل- . التفاضل والتكامل .
- في الميكانيك ، فعل ، ورد فعل .
- في الفيزياء ، كهرباء ايجابية وكهرباء سلبية .
- في الكيمياء ، اتحاد الذرات وانفصالها .
- في العلم الاجتماعي ، النضال الطبقي .

* Respective (ريسبيكتيف) - وردت هكذا بالنص الروسي وتعني «بالتالي» . المعرب .

ان تماثل الأضداد (قد تكون «وحدت»ها أصح ؟ رغم ان التمييز بين كلمتي تماثل ووحدة ليس بذات أهمية في هذا المجال . فالكلمتان كلتاهما صحيحتان بمعنى معين) هو اقرار (اكتشاف) بميول متناقضة ، متضادة ، ينفي بعضها بعضاً في جميع ظاهرات الطبيعة وتفاعلاتها ، (وفي عدادها تدخل ايضاً ظاهرات الروح والمجتمع وتفاعلاتهما) . ولأجل إدراك جميع تفاعلات العالم من حيث «حركتها الذاتية» ، من حيث تطورها العفوي ، من حيث واقعها الحي ، ينبغي ادراكها من حيث هي وحدة من الأضداد . ان التطور هو «نضال» الأضداد . ان مفهومي (او المفهومين الممكنين ؟ او المفهومين اللذين يعطيها التاريخ ؟) التطور الاساسيين هما : التطور بوصفه نقصاناً وزيادة ، بوصفه تكراراً ، والتطور بوصفه وحدة الأضداد (ازدواج ما هو واحد ، الى ضدين ينفي احدهما الآخر ، وعلاقات بين الضدين) .

مع المفهوم الاول عن الحركة ، تبقى في الظل الحركة الذاتية ، قوتها المعركة ، مصدرها ، سببها (او يُنقل هذا المصدر الى الخارج - الله ، فاعل ما ، etc.) . اما المفهوم الآخر ، فهو يحملنا خاصة على معرفة مصدر الحركة «الذاتية» .

المفهوم الاول ، جامد ، عقيم ، جاف . المفهوم الثاني ، طافح بالنشاط والحياة . فقط المفهوم الثاني يعطينا مفتاح «الحركة الذاتية» لكل ما هو موجود ؛ فقط المفهوم الثاني يعطينا مفتاح «القفزات» ، و«الانقطاع في الاستمرار» ، و«تحوّل الشيء الى ضدّه» ، وتدمير ما هو قديم وولادة ما هو جديد .

ان وحدة (توارد ، تماثل ، تعادل) الأضداد مشروطة ، موقته ، نسبية . ان نضال الأضداد التي ينفي بعضها بعضاً ، هو مطلق ، كما هو عليه التطور ، كما هي عليه الحركة .

NB (ملاحظة - المعرب) : ان الذاتية (الريبية والسفسطائية ،

etc.) تختلف عن الديالكتيك ، فيما تختلف عنه ، بما يلي ، وهو ان الفرق بين النسبي والمطلق هو أيضاً نسبي بنظر الديالكتيك (الموضوعي) . فبنظر الديالكتيك الموضوعي يوجد مطلق في

النسبي . اما بنظر الذاتية والسفسطائية ، فالنسبي ليس سوى نسبي ، وهو ينفي المطلق .
 ان ماركس يحلل اولاً ، في «رأس المال» ، أبسط الأشياء ، وآلفها وأكثرها تواتراً ، الأشياء العادية ، الأشياء الأساسية ، ولا أكثر ، الأشياء التي تُصادف مليارات المرات : **العلاقات في المجتمع البرجوازي (البضاعي) : تبادل البضائع . وتحليله يبين في هذه الظاهرة البسيطة (في «خلية» المجتمع البرجوازي هذه) جميع تناقضات (respective اجنة جميع تناقضات) المجتمع المعاصر .**
 ان تنمة هذا العرض تبين لنا تطور (ونمو ، وحركة) هذه التناقضات وهذا المجتمع في Σ * شتى اقسامه ، منذ بدايته حتى نهايته .

هكذا يجب ان تكون ايضاً طريقة عرض (respective دراسة) الدياليكتيك بوجه عام ، (لان دياليكتيك المجتمع البرجوازي ليس ، بنظر ماركس ، سوى حالة خاصة من حالات الدياليكتيك) . سواء بدى **بأية جملة من أبسط الجمل العادية ، وأكثرها تواتراً ،** etc. : أوراق الشجرة خضراء ؛ زيد رجل ؛ غبروش كلب ، الخ . ، ففيها (كما لاحظ هيجل بصورة عبقرية) **يوجد دياليكتيك : فما هو خاص هو عام (قارن : Aristoteles, Metaphysik, ترجمة شفيغلر ، Bd. II, S. 40, 3. Buch, 4. Kapitel, 8-9: «denn natürlich kann man nicht der Meinung sein, daß es ein Haus – بيت بوجه عام – gebe außer den sichtbaren Häusern» . («ou γαρ ἄν θειημεν εἰναι τινὰ οἰκίαν παρὰ τὰς τινὰς οἰκίας»)**** وهكذا تكون الأضداد (الخاص هو ضد العام) متماثلة : فالخاص غير موجود الا في العلاقة التي تؤدي الى العام . والعام غير موجود الا في الخاص ، عبر الخاص . كل خاص له طابعه العام (بهذه الصورة او تلك) . وكل

* Σ سيغما ، حرف يوناني يعني المجموع . الناشر .

** ارسطو ، «ميتافيزياء» ، ترجمة شفيغلر ، المجلد ٢ ، ص ٤٠ ، الكتاب الثالث ، الفصل الرابع ، ٨-٩ : «لأنه لا يمكن ، بالطبع ، ان نظن انه يوجد بيت (بوجه عام) خارج البيوت المرئية» . الناشر .

عام هو (جزء او جانب او جوهر) من الخاص . وكل عام لا يشمل جميع الأشياء الخاصة الا على وجه التقريب . وكل خاص لا يشترك تمام الاشتراك في العام ، الخ . الخ . كل خاص يرتبط عبر آلاف الدرجات الانتقالية بعناصر خاصة من طبيعة أخرى (أشياء ، ظاهرات ، تفاعلات) ، الخ . حتى هنا توجد عناصر واجنة مفهوم **الضرورة** : عناصر واجنة العلاقة الموضوعية في الطبيعة etc. فالعرضي والضروري ، والظاهرة والجوهر ، موجودة حتى هنا ، لأننا حين نقول : زيد رجل ، غبروش كلب ، هذه ورقة شجرة ، الخ . . . فاننا ننبذ جملة من المميزات بوصفها من الأشياء العرضية ، ونفصل الجوهرى عما هو طارىء ، ونعارض احدهما بالآخر .

وهكذا يمكن (ويجب) ان نستشف في كل جملة ، كما نستشف في «نخروب» («خلية») ، اجنة جميع عناصر الديالكتيك ، لكي نبين ان الديالكتيك ، بوجه عام ، هو من طبيعة كل معرفة إنسانية . والحال ، ان العلوم الطبيعية تبين لنا (وهذه المرة ايضا ، ينبغي تقديم الدليل على ذلك باي مثال بسيط جداً) الطبيعة الموضوعية بنفس صفاتها ، وتحوّل الخاص الى عام ، والطارىء الى ضروري ، والدرجات الانتقالية ، والتنوعات ، والصلة المتبادلة بين الأضداد . ان الديالكتيك هو **حقاً** نظرية المعرفة (عند هيغل و) عند الماركسية : ان هذا «الجانب» من الامر (وهو ليس «جانباً» ، انما هو جوهر الامر) قد أهمله بليخانوف ، فضلا عن الماركسيين الآخرين .

• • •

ان المعرفة ، المصورة بسلسلة من الحلقات ، قد حدّدها كل من هيغل (راجع «المنطق») و Paul Volkmann ، «العرفاني» العصري في العلوم الطبيعية ، الاختياري ، خصم الهيغلية (التي لم يفهمها !) (راجع كتابه * «Erkenntnistheoretische Grundzüge»).

* باول فولكمان . «اسس نظرية لمعرفة العلوم الطبيعية وعلاقتها بحياة عصرنا الروحية» . الناشر .

«الحلقات» في الفلسفة : [هل تسلسل تاريخ الاشخاص ضروري
حقا ؟ كلا !]

في الفلسفة القديمة : من ديموقريطس الى افلاطون والى دياليكتيك
هيراقليت .

في فلسفة عصر النهضة : ديكارت (Spinoza?) versus* Gassendi .

في الفلسفة العصرية : من هولباخ الى هيغل (عبر بركلي ، هيوم ،
كانط) .

هيغل - فورباخ - - Marx .

الدياليكتيك ، بوصفه معرفة حية ، متعددة الجوانب (اذ
ان الجوانب تتكاثر بلا انقطاع) ، مع ما لا حد له من الأشكال
والألوان ، بغية مجابهة الواقع ، بغية الاقتراب من الواقع (مع
نهج فلسفي ينبثق من كل شكل ولون ليشكل كلا واحداً) ، ذلك
هو محتوى فائق الغنى بالنسبة للمادية «الميتافيزيائية» ، التي
مصيبتها الكبرى انها غير أهل لتطبيق الدياليكتيك على
Bildertheorie * * على مجرى المعرفة وتطورها .

ان المثالية الفلسفية ليست سوى ضرب من الحماسة
من وجهة نظر مادية فظة ، مبسطة ، ميتافيزيائية . ولكن
المثالية الفلسفية هي ، بالعكس ، من وجهة نظر المادية
الدياليكتيكية ، وتطوير وحيد الطرف ، مبالغ فيه ،
(تكبير ، تضخيم) (überschwengliches (Dietzgen) لاحدى
الميزات الصغيرة في المعرفة ، لأحد جوانبها ، لأحد
وجوهها ، الى مطلق منفصل عن المادة ، عن الطبيعة ،
مؤله . ان المثالية هي ضرب من الظلامية الاكليريكية .

* ضد . الناشر .

* * نظرية الانعكاس . الناشر .

NB
 لاحظوا
 هذه الحكمة
 الموجزة
 وهذا صحيح . ولكن المثالية الفلسفية هي «بالأحرى»
 و«فضلاً عن ذلك» سبيل يؤدي الى الظلامية الاكليريكية
 عبر احد مظاهر معرفة الانسان (الديالكتيكية) اللامتناهية
 التعقيد .

ان معرفة الانسان ليست (respective لا تتبع) خطأ مستقيماً ،
 انما هي خط منحني ، يقترب اقتراباً لا حد له من سلسلة من
 الحلقات ، من خط لولبي . ويمكن تحويل اي قطعة ، قسم ، جزء
 من هذا الخط المنحني (تحويله بشكل وحيث الطرف) الى خط
 مستقل ، كامل ، مستقيم ، يؤدي (اذا كانت الأشجار تحول دون
 رؤية الغابة) حينذاك الى المستنقع ، الى الظلامية الاكليريكية (حيث
 تثبته المصلحة الطبقيّة للطبقات السائدة) . الطابع المستقيم
 والوحيد الطرف ، التحجر والتعظم ، الذاتية والعمى الذاتي *voilà
 الجذور العرفانية للمثالية . والحال ، من المؤكد ان للظلامية
 الاكليريكية (=المثالية الفلسفية) جذوراً عرفانية ؛ ولها تربة ، انها
 زهرة عقيمة ، ذلك لا جدال فيه ، ولكنها تنبت على شجرة حية هي
 شجرة المعرفة الانسانية الحقيقية ، الشديدة الحيوية ، المثمرة ،
 القوية ، الكلية الجبروت ، الموضوعية ، المطلقة .

كتب لي عام ١٩١٥

المجلد ٢٩ ،
 ص ٣١٦-٣٢٢

ملاحظات

١ - يقصد لينين ما يسمى «ببناء الله» ، وهو تيار فلسفي ديني معاد للماركسية انبثق في مرحلة الردة الرجعية بين قسم من المثقفين الحزبيين ممن ابتعدوا عن الماركسية بعد هزيمة ثورة ١٩٠٥ - ١٩٠٧ . وعظ «بناة الله» (لوناتشارسكي ، بازاروف ، وغيرهما) ببناء دين جديد ، «اشتراكي» محاولين التوفيق بين الماركسية والدين .

شجبت مداولة هيئة التحرير الموسعة لجريدة «بروليتاري» البلشفية (عام ١٩٠٩) «ببناء الله» ، واعلنت في قرار خاص ان الكتلة البلشفية لا يجمعها اي جامع «بهذا التشويه للاشتراكية العلمية» . - ص ١٢ .

٢ - مقالة ف . اي . نيفسكي «المادية الديالكتيكية وفلسفة الرجعية الميتة» صدرت عام ١٩٢٠ بصورة ملحق للطبعة الثانية لكتاب «المادية والمذهب النقدي التجريبي» . - ص ١٤ .

٣ - في عام ١٩٠٩ ، تقدم بوغدانوف بفكرة «الثقافة البروليتارية» قاصداً بذلك انه ينبغي للبروليتاريا ان تصوغ ثقافة «خاصة» بها ، معارضة لثقافة الماضي ، وفلسفة «خاصة» بها ، عرض بوغدانوف وراء ستارها فلسفته المثالية . وقد نشر بوغدانوف وانصاره فكرة «الثقافة البروليتارية» في المدرستين اللتين نظمتهما لاجل العمال في جزيرة كابري (١٩٠٩) وفي مدينة بولونيا (١٩١٠-١٩١١) . كان هدف المدرستين شكلاً تثقيف العمال القادمين من روسيا ، ولكنهما اضطلعتا عملياً بدور مركز انشقاقي معاد للبلشفية .

بعد ثورة اكتوبر الاشتراكية ، اختار بوغدانوف ورفاقه بالفكر ميدانا لنشاطهم ما يسمى بالمنظمات الثقافية التنويرية البروليتارية (بالايجاز بالروسية : «بروليت كولت») ؛ وبما انهم حصلوا على منبر مناسب ، فقد شرعوا يروجون بنشاط نظرات معادية للماركسية ، وانكروا عملياً اهمية التراث الثقافي مسن الماضي ، وحاولوا ان يبنوا ثقافة للبروليتاريا بمعزل عن الحياة « بالطريق المختبري » . كان بوغدانوف يعترف بالماركسية قولاً ولكنه كان يروج فعلاً بالفلسفة الماخية ، المثالية الذاتية . ناضل لينين ضد انفصالية وانعزالية «بروليت كولت» وضد نظرات ايدولوجيها المعادية للماركسية . وفي عام ١٩٢٠ ، اتخذت لجنة الحزب المركزية قراراً خاصاً باخضاع نشاط «بروليت كولت» لمفوضية الشعب للمعارف . ابتداء من العشرينيات ، اخذ دور منظمات «بروليت كولت» يتضاءل ؛ في عام ١٩٣٢ اوقفت «بروليت كولت» نشاطها نهائياً . - ص ١٤ .

٤- راجع انجلس « لودفيغ فورباخ ونهاية الفلسفة الالمانية الكلاسيكية » . (دار التقدم . موسكو ، عام ١٩٧٤ ، ص ١٩-٢٢) . - ص ٢٨ .

٥- راجع انجلس « الاشتراكية الطوبوية والاشتراكية العلمية » . مقدمة للطبعة الانجليزية (عام ١٨٩٢) (دار التقدم . موسكو ، عام ١٩٧٣ ، ص ١٥-١٦) . - ص ٢٨ .

٦- الكانطية الجديدة- اتجاه رجعي في الفلسفة يدعو للمثالية الذاتية تحت شعار بعث فلسفة كانط ؛ انبثق في اواسط القرن التاسع عشر في المانيا ، حيث تعاضم آنذاك الاهتمام بالكانطية . في عام ١٨٦٥ ، صدر كتاب ليتمان «كانط والمقلدون» ؛ وكان كل فصل من هذا الكتاب ينتهي بالدعوة للعودة «الى الوراء نحو كانط» . طرح ليتمان مهمة تصحيح «خطأ» كانط «الاساسي» ، اي الاعتراف بوجود «الاشياء في ذاتها» . كان لانغه من اوائل ممثلي الكانطية الجديدة ؛ وقد حاول استغلال الفيزيولوجيا لأجل تحليل اللاعرفانية .

فيما بعد ، نشأت في الكانطية الجديدة مدرستان اساسيتان ، هما مدرسة موبورغ (كوهن ، ناتورب ، وغيرهما) ومدرسة

فريبورغ أو بادن (فندلباند ، ريكتر وغيرهما) . عللت الاولى المثالية ، مستغلة نجاحات العلوم الطبيعية ، ولا سيما تسرب طرائق الرياضيات الى الفيزياء ؛ وعارضت الثانية العلوم الطبيعية بالعلوم الاجتماعية ، محاولة ان تبرهن ان الظواهر التاريخية فردية خالصة ولا تخضع لأية قوانين وستن . انكر الكانطيون الجدد وجود العالم المادي وجوداً موضوعياً ، واعتبروا من موضوع المعرفة ليس قوانين الطبيعة والمجتمع ، بل ظاهرات الوعي فقط . خلافاً للاعرفانية علماء الطبيعيات ، لم تكن لاعرفانية الكانطيين الجدد «مادية خجلة» ، بل كانت ضرباً من المثالية يؤكد على عجز العلم بالفعل عن معرفة الواقع وتغييره . وقف الكانطيون الجدد على المكشوف ضد الماركسية ، وعارضوها «بالاشتراكية الاخلاقية» . وفقاً لنظريتهم بشأن المعرفة ، اعلنوا الاشتراكية «مثالاً اعلى اخلاقياً» للتعاشر بين البشر ، تسعى البشرية وراءه ، ولكنها عاجزة عن بلوغه . تلقف المحرفون وعلى رأسهم برنشتين الذي رفع شعار «الحركة كل شيء ، الهدف النهائي لا شيء» «نظرية» الكانطيين الجدد هذه .

وقف بليخانوف ولافارغ ومهرينغ ضد التحريف الكانطي الجديد للماركسية . كشف لينين كنه الكانطية الجديدة الرجعي وابان صلتها بالاتجاهات الاخرى في الفلسفة البرجوازية (الكمونيين ، الماخية ، البراغماتية ، وخلافها) . - ص ٢٨ .

٧ - «Die Neue Zeit» («الازمنة الحديثة») - مجلة نظرية للحزب الاشتراكي-الديموقراطي الالمانى . صدرت في شتوتغارت من عام ١٨٨٣ الى عام ١٩٢٣ . نشرت في المجلة للمرة الاولى بعض مؤلفات ماركس وانجلس . ساعد انجلس على الدوام بنصائحه هيئة تحرير المجلة ؛ وانتقدها احياناً على الانحرافات عن الماركسية . ابتداء من النصف الثاني من العقد العاشر من القرن التاسع عشر ، اي بعد وفاة انجلس ، اخذت المجلة تنشر بانتظام مقالات المحرفين ، بما فيها سلسلة مقالات برنشتين «قضايا الاشتراكية» التي افتتحت حملة المحرفين على الماركسية . - ص ٢٨ .

٨ - الهوسوعيون (Encyclopédistes) - فريق من المنورين الفرنسيين من القرن الثامن عشر - من فلاسفة ، وعلماء طبيعيات ، وكتاب

اجتماعيين اتحدوا لاصدار «Encyclopédie ou Dictionnaire raisonné des sciences, des arts et des métiers» (الموسوعة او القاموس القياسي للعلوم والفنون والحرف) (١٧٥١-١٧٨٠) . كان ديني ديدرو مؤسس الفريق ورئيسه ، وكان جان ليرون دالامبر اقرب معاونيه. اشترك بول هنري هولباخ وكلود ادريان هلفيسوس وفولتير اشتراكاً نشيطاً في اصدار «الموسوعة» (او «دائرة المعارف») ؛ وعاون جان جاك روسو في المجلدات الاولى منها . ضمت «الموسوعة» مجموعة كبيرة من الاختصاصيين في مختلف ميادين المعرفة . وكان معاونوها يتبنون آراء مختلفة سواء في ميدان العلم ام في ميدان السياسة ، ولكنهم كانوا مجتمعين في موقفهم السلبي من الاقطاعية وتعسف الكنيسة ، وفي كرههم للفلسفة الكلامية (السكولاستية) القروسطية . وبين الموسوعيين اضطلع بدور بارز الماديون الذين كانوا يعارضون الفلسفة المثالية بنشاط وفعالية . كان الموسوعيون ايديولوجيي البرجوازية الثورية ؛ وقد قاموا بالدور الفاصل في الاعداد الفكري للثورة البرجوازية في اواخر القرن الثامن عشر في فرنسا . - ص ٣١ .

٩ - «Revue Néo-Scholastique» («المجلة السكولاستية الجديدة») - مجلة أسستها الجمعية الفلسفية الكاثوليكية في لوفان - Louvain (بلجيكا) . صدرت من عام ١٨٩٤ الى عام ١٩٠٩ باشراف الكاردينال مرسيه . - ص ٤٦ .

١٠ - «Der Kampf» («النضال») - مجلة شهرية لسان حال الاشتراكية-الديموقراطية النمساوية . صدرت في فيينا من عام ١٩٠٧ الى عام ١٩٣٤ . شغلت موقفاً انتهازياً ، وسطياً ، سائرة اياه بالجمل والتعابير اليسارية - ص ٥٢ .

١١ - «The International Socialist Review» («المجلة الاشتراكية العالمية») - مجلة شهرية اميركية تحريفية الاتجاه . صدرت في شيكاغو من عام ١٩٠٠ الى عام ١٩١٨ . - ص ٥٢ .

١٢ - «Vierteljahrsschrift für wissenschaftliche Philosophie» («المجلة الفصلية في الفلسفة العلمية») - مجلة النقاد التجريبيين

(الماخيين) . صدرت في ليبزيغ من عام ١٨٧٦ الى عام ١٩١٦
(ابتداء من عام ١٩٠٢ ، صدرت باسم «Vierteljahrsschrift für
wissenschaftliche Philosophie und Soziologie» (والمجلة الفصلية
في الفلسفة العلمية وعلم الاجتماع)) . أسسها فيناريوس . صدرت
بإشرافه حتى عام ١٨٩٦ . بعد عام ١٨٩٦ صدرت بمعاونة ماخ .
عاون في المجلة كل من فوننت ورييل وشوبنه وغيرهم . يقيم
لينين هذه المجلة في هذا الكتاب ، ص ٣٧٠ . - ص ٥٦ .

١٣ - «Philosophische Studien» (دراسات فلسفية) - مجلة مثالية
الاتجاه ، تتناول على الاغلب مسائل علم النفس . اصدرها فوننت
في ليبزيغ من عام ١٨٨١ الى عام ١٩٠٣ . ابتداء من عام
١٩٠٥ ، صدرت باسم «Psychologische Studien» (دراسات
نفسانية) . - ص ٦٢ .

١٤ - «بتروشكا» - خادم قن ، شخصية من رواية الكاتب الروسي نيقولاي
غوغول «النفوس الميتة» . كان يطالع الكتب بتهجي مقاطع الكلمات
دون ان يفهم مضمونها ، مهتماً فقط بعملية المطالعة
الميكانيكية . - ص ٦٢ .

١٥ - راجع : انجلس ، «لودفيغ فورباخ ونهاية الفلسفة الالمانية
الكلاسيكية» (دار التقدم . موسكو ، عام ١٩٧٤ ، ص ٢-٤) . -
ص ٦٤ .

١٦ - «Mind» («الفكر») - مجلة مثالية الاتجاه ، تتناول مسائل الفلسفة
وعلم النفس . تصدر منذ عام ١٨٧٦ (لندن - ايدنبورغ) . -
ص ٧٣ .

١٧ - راجع : انجلس ، «ضد دوهرينغ» (القسم الاول . الفصل
الثالث) . - ص ٩٣ .

١٨ - راجع : انجلس ، «لودفيغ فورباخ ونهاية الفلسفة الالمانية
الكلاسيكية» ، (دار التقدم . موسكو ، عام ١٩٧٤ ، ص ٩-١٠ ،
٢٣-٢٤) . - ص ٩٤ .

١٩ - يقصد لينين صورة ادبية من الشعر النثري للكاتب الروسي تورغينيف «قاعدة الحياة» . - ص ٩٥ .

٢٠ - «Archiv für systematische Philosophie» («ارشيف الفلسفة المنهاجية») - مجلة مثالية الاتجاه . صدرت في برلين من عام ١٨٩٥ الى عام ١٩٣١ ؛ كانت قسماً مستقلاً ثانياً من مجلة «Archiv für Philosophie» («ارشيف الفلسفة») (راجع الملاحظة رقم ٦٨) . كان ناتورب محررها الاول . منذ عام ١٩٢٥ بدأت تصدر باسم «Archiv für systematische Philosophie und Soziologie» («ارشيف الفلسفة المنهاجية وعلم الاجتماع») . - ص ١٠٢ .

٢١ - «Kantstudien» («دراسات كانطية») - مجلة فلسفية المانية مثالية الاتجاه . لسان حال الكانطيين الجدد . صدرت بانقطاعات من عام ١٨٩٧ الى عام ١٩٤٤ . (هامبورغ - برلين - كولونيا) . في عام ١٩٥٤ ، استأنفت المجلة صدورها . - ص ١٠٣ .

٢٢ - «Nature» («الطبيعة») - مجلة اسبوعية مصورة في العلوم الطبيعية . تصدر في لندن منذ عام ١٨٦٩ . - ص ١٠٤ .

٢٣ - عند اعداد الطبعة الاولى من كتاب «المادية والمذهب النقدي التجريبي» للطبع ، امتعاضت أنا ايلينيتشنا اوليانوفا-ايليزاروفا ، اخت لينين ، عن كلمات «خصماً ادبياً أكثر شرفاً» بكلمات «خصماً ادبياً أكثر مبدئية» . وقد اعترض لينين على هذا التعديل وكتب الى اخته في ٢٧ شباط - فبراير (١٢ آذار - مارس) ١٩٠٩ يقول : «ارجوك ، لا تخفني اي شيء من المقاطع الموجهة ضد بوغدانوف ولوناتشارسكي وشركاهما ، يستحيل التخفيف . لقد شطبت قولي ان تشيرنوف خصم «أكثر شرفاً» منهم ، وهذا مؤسف جداً . فجاءت النبوة مغايرة للقصد . فلا تناسب في كل طابع اتهاماتي . ان لب المسألة كله هو ان ماخيينا اعداء للماركسية في الفلسفة غير شرفاء ، جبناء وانذال» (المؤلفات الكاملة ، المجلد ٥٥ ، ص ٢٨٠ - ٢٧١) . - ص ١٠٧ .

٢٤- راجع : انجلس ، « لودفيغ فورباخ ونهاية الفلسفة الالمانية الكلاسيكية » (دار التقدم ، موسكو ، عام ١٩٧٤ ، ص ١٩ - ٢٢) . - ص ١٠٩ .

٢٥- يقصد لينين النموذج الادبي من رواية الكاتب الروسي ايفان تورغينيف «الدخان» ، نموذج العقائدي الكذاب ، والقارى السطحي . - ص ١١٠ .

٢٦- راجع : انجلس ، « لودفيغ فورباخ ونهاية الفلسفة الالمانية الكلاسيكية » (دار التقدم ، موسكو ، عام ١٩٧٤ ، ص ٢١ - ٢٢) . - ص ١١١ .

٢٧- في ١١ كانون الثاني (يناير) ١٨٦٩ ، اذاع العالمان الكيماويان الالمانيان غريبه وليبرمان في اجتماع للجمعية الكيماوية الالمانية نبا الحصول بصورة اصطناعية على الاليزارين ، وهو مادة صباغية عضوية كانت تستخرج حتى ذلك من جذور الفوة . وقد كان الانتراسين - وهو مادة يحتويها قطران الفحم الحجري - المادة الاولى لاجل تركيب الاليزارين . - ص ١١٢ .

٢٨- فريدريك انجلس . « لودفيغ فورباخ ونهاية الفلسفة الالمانية الكلاسيكية » (دار التقدم ، موسكو ، عام ١٩٧٤ ، ص ٦٦ - ٦٧ . ملحق . كارل ماركس . «موضوعات عن فورباخ») . - ص ١١٤ .

٢٩- راجع : انجلس ، «مقدمة للطبعة الانجليزية» (١٨٩٢) لمؤلف «الاشتراكية الطوبوية والاشتراكية العلمية» (دار التقدم ، موسكو ، عام ١٩٧٣ ، ص ١٤ - ١٥) . - ص ١١٩ .

٣٠- راجع : انجلس ، «مقدمة للطبعة الانجليزية» (١٨٩٢) لمؤلف «الاشتراكية الطوبوية والاشتراكية العلمية» : (دار التقدم ، موسكو ، عام ١٩٧٣ ، ص ١٤ - ١٥) . - ص ١٢٢ .

٣١- راجع : انجلس ، «ضد دوهرينغ» ، القسم الاول . الفصل الرابع) - ص ١٢٩ .

٣٢- راجع : انجلس ، « لودفيغ فورباخ ونهاية الفلسفة الالمانية الكلاسيكية » (دار التقدم ، موسكو ، عام ١٩٧٤ ، ص ٢١ - ٢٢) . - ص ١٤٢ .

٣٣ - الريبية - اتجاه في الفلسفة يروج الشك والريبة في امكانية معرفة الواقع الموضوعي . نشأت الريبية بوصفها مدرسة فلسفية في اليونان القديمة في القرنين الرابع والثالث قبل المسيح . كان بيرون مؤسسها وكان اينزويديم وسكست امبيريك من ابرز ممثليها . استخلص انصار الريبية القديمة استنتاجات لاعرفانية من المقدمات الحسية . ورفع الربيون ذاتية الاحساسات الى المطلق ودعوا الى الامتناع عن ابداء آراء محددة بشأن الاشياء واعتبروا ان الانسان لا يستطيع ان يخرج من حدود احساساته وان يحدد اي منها هو الحقيقي .

وفي القرن الثامن عشر انبعثت الريبة في لاعرفانية دافيد هيوم وثمانوئيل كانط ، كما قام غوتليب ارنت شولتسه (اينزويديم) بمحاولة تحديث الريبة القديمة . واستغل الماخيون والكانطيون الجدد والمدارس الفلسفية المثالية الاخرى في منتصف القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين حجج الريبة .

الابيقورية - مذهب الفيلسوف المادي الاغريقي (القرن الرابع - القرن الثالث قبل المسيح) ابيقور وانصاره . كان ابيقور يعتبر ان هدف الفلسفة هو سعادة الانسان وتخليصه من الآلام وبلوغه النعيم . ان الفلسفة مدعوة لتذليل العقبات التي تعترض الطريق المؤدي الى السعادة الا وهي : الخوف من الموت الذي ينجم من عدم معرفة قوانين الطبيعة والذي يستثير بدوره الايمان في ما هو فوق الطبيعة ، في القوى الالهية .

وابيقور في نظرية المعرفة من انصار المذهب الحسي . فقد فسر نشوء الاحساسات بصورة مادية ساذجة ، اي كأنه ينبعث من سطح الاشياء سيل لا ينقطع من الجسيمات الصغيرة للغاية التي تنفذ الى اعضاء الاحساس وتستتبع صور الاشياء . واعتبر ابيقور ان معيار الحقيقة هو المدركات الحسية بالذات ، كما رأى مصدر الضلال في صدفية الاحساسات على حدة او في سرعة تكون الآراء . ان هدف المعرفة يقوم في تخليص الانسان من الجهل والخرافات ، وبدون ذلك تستحيل السعادة .

وفي التعريف الذي يورده لينين عن المذهب الحسي كان فرانك على حق في اعتبار الابيقورية ضرباً من هذا المذهب ، الا انه يفرق بدون سبب وجيه بين الابيقورية وبين المذهب الحسي المادي ، الموضوعي ، - ص ١٤٦ .

- ٣٤- راجع : انجلس ، « ضد دوهرينغ » (القسم الاول ، الفصل التاسع) . - ص ١٥٠ .
- ٣٥- راجع : انجلس ، « ضد دوهرينغ » (القسم الاول ، الفصل التاسع) . - ص ١٥١ .
- ٣٦- راجع : رسالة ماركس الى كوغلان بتاريخ ٥ كانون الاول (ديسمبر) عام ١٨٦٨ . - ص ١٥٢ .
- ٣٧- يقصد لينين مؤلف ماركس «موضوعات عن فورباخ» (١٨٤٥) ومؤلفي انجلس «لودفيغ فورباخ ونهاية الفلسفة الالمانية الكلاسيكية» (١٨٨٨) و«مقدمة للطبعة الانجليزية» (١٨٩٢) لمؤلف «الاشتراكية الطوبوية والاشتراكية العلمية» . - ص ١٥٥ .
- ٣٨- راجع : ماركس ، «موضوعات عن فورباخ» ، وانجلس ، «لودفيغ فورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية» ، وانجلس ، «مقدمة للطبعة الانجليزية» لمؤلف «الاشتراكية الطوبوية والاشتراكية العلمية» (دار التقدم . موسكو ، ص ٦٦-٦٧ ؛ ٢١-٢٢ ؛ ١٤-١٥) . - ص ١٥٥ .
- ٣٩- «Revue de Philosophie» («مجلة الفلسفة») - مجلة فلسفية مثالية فرنسية . أسسها بيّوب . صدرت في باريس من عام ١٩٠٠ الى عام ١٩٣٩ . - ص ١٧٠ .
- ٤٠- راجع : انجلس ، « ضد دوهرينغ » (المقدمة . الفصل الاول ، الفصل الثاني) . - ص ١٧٨ .
- ٤١- راجع : انجلس ، « لودفيغ فورباخ ونهاية الفلسفة الالمانية الكلاسيكية » (دار التقدم . موسكو ، عام ١٩٧٤ ، ص ٤٣ - ٤٤ ، ٤٧-٤٨) . - ص ١٧٨ .
- ٤٢- «Annalen der Naturphilosophie» («حوليات فلسفة الطبيعة») - مجلة وضعية الاتجاه . اصدرها اوستفالد في ليبزيغ من عام

١٩٠١ الى عام ١٩٢١ . كان ماخ وفولكمان وغيرهما من عداد
معاونيها . - ص ١٨٩ .

٤٣- راجع : انجلس ، « لودفيغ فورباخ ونهاية الفلسفة الالمائية
الكلاسيكية » (دار التقدم ، موسكو ، عام ١٩٧٤ ، ص ١٨ -
٢١) . - ص ١٩٠ .

٤٤- راجع : انجلس ، « ضد دوهرينغ » (القسم الاول ، الفصل
الرابع) . - ص ١٩٨ .

٤٥- **الفرطيس** - واحد الفرطيسات (protista) - هي ، بموجب تصنيف
هيكّل ، فئة واسعة من ابسط العضويات تشمل العضويات الوحيدة
الخلية والعضويات اللاخلوية ، وتشكل ، الى جانب مملكتي العضويات
المتعددة الخلايا (النباتات والحيوانات) مملكة خاصة ، ثلاثة ،
للطبيعة العضوية . - ص ١٩٩ .

٤٦- راجع : انجلس ، « ضد دوهرينغ » (القسم الاول ، الفصل
الخامس) . - ص ٢٠١ .

٤٧- «Natural Science» («العلوم الطبيعية») - مجلة شهرية ذات طابع
استعراضى . صدرت في لندن من عام ١٨٩٢ الى عام ١٨٩٩ . -
ص ٢١١ .

٤٨- «The Philosophical Review» («المجلة الفلسفية») - مجلة
اميركية مثالية الاتجاه . أسسها شورمان . تصدر منذ عام
١٨٩٢ . - ص ٢١١ .

٤٩- راجع : انجلس ، « ضد دوهرينغ » (القسم الاول ، الفصل
العاشر) . - ص ٢١٦ .

٥٠- («الطريقة الذاتية في السوسيوولوجيا») - موقف مثالي ، مناف للعلم ،
من العملية التاريخية ينكر قوانين التطور الاجتماعى الموضوعية ،
ويحصرها في نشاط «الشخصيات البارزة» الاعتباطى . في الثلاثينيات

والاربعينيات من القرن التاسع عشر ، كان الهيجليون الشباب باور وشتراوس وشتيرنر وغيرهم من انصار المدرسة الذاتية في السويولوجيا (علم الاجتماع) ؛ وقد اعلنوا ان الشعب « جمهور غير ناقد » يسير على العمياء وراء « الشخصيات المفكرة بروح النقد » . انتقد ماركس وانجلس في « العائلة المقدسة » و« الايديولوجية الالمانية » وغيرهما من اعمالهما نظرات الهيجليين الشباب انتقاداً عميقاً وشاملاً . وفي روسيا ، كان الشعبيون الليبراليون (لافروف ، ميخايلوفسكي وغيرهما) ممثلي الطريقة الذاتية في السويولوجيا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ؛ وقد انكروا الطابع الموضوعي لقوانين تطور المجتمع ، وحصروا التاريخ في نشاط الابطال ، في نشاط « الشخصيات البارزة » .

ابانت الماركسية-اللينينية ما يلزم الاتجاه المثالي الذاتي في علم الاجتماع من بطلان تام ، وبنت مذهباً علمياً حقاً عن تطور المجتمع البشري ، وعن دور الجماهير الشعبية الحاسم في التاريخ ، وعن شأن نشاط الفرد بمفرده . - ص ٢٢٠ .

٥١ - راجع الملاحظة رقم ٦ . - ص ٢٢٣ .

٥٢ - الكاديت - اعضاء الحزب الدستوري الديموقراطي ، الحزب الرئيسي للبرجوازية الملكية الليبرالية في روسيا . تأسس حزب الكاديت في تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٠٥ . انضم اليه ممثلو البرجوازية والملاكين العقاريين والمثقفين البرجوازيين . لأجل خداع الجماهير الكادحة ، اطلق الكاديت على انفسهم اسماً زائفاً - وحزب حرية الشعب ، ولكنهم بالفعل لم يمضوا الى ابعد من المطالبة بالملكية الدستورية .

اثناء ثورة شباط (فبراير) البرجوازية الديموقراطية (عام ١٩١٧) ، حاول الكاديت انقاذ الملكية . شغل الكاديت في الحكومة المؤقتة البرجوازية وضعا قيادياً وانتهجوا سياسة معادية للشعب ومعادية للثورة .

بعد ثورة اكتوبر الاشتراكية (١٩١٧) ، ناضل الكاديت بنشاط ضد السلطة السوفييتية . - ص ٢٢٨ .

٥٣ - المقصود هنا التيار الانتهازي الذي تكون في داخل الحزب الاشتراكي-الديموقراطي الالمانى خلال النصف الثاني من

السبعينيات في القرن التاسع عشر . كان هوخبرغ وبرنشتين وشرام
أيديولوجيي هذا التيار الرئيسيين .

ان ما يلزم جماعة هوخبرغ من طابع انتهازي ، معاد
للماركسية قد تبدى بكل سطوع في مسألة تأسيس لسان الحال
المركزي للحزب الاشتراكي-الديموقراطي الالمانى في زوريخ (بعد
صدور القانون الاستثنائي ضد الاشتراكيين في سنة ١٨٧٨) . فان
هوخبرغ ورفاقه بالفكر قد اعتبروا انه ينبغي للجريدة ان تمتنع
عن انتهاج سياسة الحزب الثورية ، وانه ينبغي لها ان تكتفي
بترويج المثل العليا الاشتراكية بصورة مجردة . استصغرت قيادة
الحزب - اوغست بيبيل ، ولهم ليكنخت وغيرهم - الخطر
الانتهازي ، بتكليفها جماعة زوريخ ، من حيث جوهر الامر ،
باصدار الجريدة .

في تموز (يوليو) ١٨٧٩ ، نشرت مجلة «Jahrbuch für
Sozialwissenschaft und Sozialpolitik» (حولية العلم الاجتماعى
والسياسة الاجتماعية) التي يحررها هوخبرغ مقالة «لمحنة
استعادية عن الحركة الاشتراكية في المانيا» . كانت المقالة تندد
بالتكتيك الثوري الذي كان ينتهجه الحزب . وقد اتهم اصحاب
المقالة - هوخبرغ وشرام وبرنشتين - الحزب بانه استثار سن
القانون الاستثنائي بحملاته على البرجوازية ، ودعوا الى التحالف
مع البرجوازية والخصوع لها ، اذ اعتبروا ان الطبقة العاملة عاجزة
عن التوصل الى تحريرها بقواها الخاصة . استتبعت هذه النظرات
الاصلاحية الانتهازية احتجاجاً من جانب ماركس وانجلس ، اذ
انهما رآيا فيها عن حق وصواب خيانة للحزب . وفي ايلول
(سبتمبر) ١٨٧٩ اصدر ماركس وانجلس «الرسالة التعميمية»
الشهيرة . كتب لينين في وصف نضال مؤسسي الماركسية ضد
الانتهازية يقول : «من جراء الهجوم «المسعود» الذي شنّه
ماركس ، تراجع الانتهازيون و... تلاشوا . وفي رسالة بتاريخ
١٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٧٩ ، ينبى ماركس انهم صرفوا
هوخبرغ من اللجنة التحريرية ، وان جميع زعماء الحزب النافذين -
بيبل وليكنخت وبراكه وغيرهم - قد تبرأوا من افكاره» (المؤلفات
الكاملة ، المجلد ١٥ ، ص ٢٣٧) .

فيما بعد ، انصرف هوخبرغ وشرام عن الحركة العمالية . اما
برنشتين الذي عدل مؤقتاً عن ترويج الانتهازية ، فقد اصبح من

زعماء الاشتراكية-الديموقراطية الالمانية . ولكن التشوش النظري والموقف الانتهازي الذي وقفه برنشتين في اواخر السبعينيات لم يكونا من باب الصدفة : فبعد وفاة انجلس عمد على المكشوف الى تحريف الماركسية ، رافعا الشعار الانتهازي «الحركة كل شيء ، الهدف النهائي لا شيء» ، الذي كان بمثابة تطوير لاحق للموضوعات الاساسية الواردة في مقالة عام ١٨٧٩ . - ص ٢٣٤ .

٥٤ - «Le Socialiste» («الاشتراكي») - جريدة اسبوعية . صدرت من عام ١٨٨٥ بوصفها لسان الحال النظري لحزب العمال الفرنسي . منذ ١٩٠٢ غدت لسان حال الحزب الاشتراكي في فرنسا ؛ منذ ١٩٠٥ غدت لسان حال الحزب الاشتراكي الفرنسي . - ص ٢٣٥ .

٥٥ - راجع : انجلس ، «لودفيغ فورباخ ونهاية الفلسفة الالمانية الكلاسيكية» (دار التقدم . موسكو ، عام ١٩٧٤ ، ص ٢٧) . - ص ٢٣٧ .

٥٦ - يقصد لينين مؤلفي انجلس «لودفيغ فورباخ ونهاية الفلسفة الالمانية الكلاسيكية» (١٨٨٨) (دار التقدم . موسكو ، عام ١٩٧٤ ، ص ٢١-٢٢) ؛ و«مقدمة للطبعة الانجليزية» (١٨٩٢) لمؤلفه «الاشتراكية الطوبوية والاشتراكية العلمية» . (دار التقدم . موسكو ، عام ١٩٧٣ ، ص ١٤-١٨) . - ص ٢٣٧ .

٥٧ - راجع : انجلس ، «لودفيغ فورباخ ونهاية الفلسفة الالمانية الكلاسيكية» (دار التقدم . موسكو ، عام ١٩٧٤ ، ص ٣٠-٣١) . - ص ٢٣٧ .

٥٨ - راجع : انجلس ، «مقدمة للطبعة الانجليزية» (١٨٩٢) لمؤلفه «الاشتراكية الطوبوية والاشتراكية العلمية» . (دار التقدم . موسكو ، عام ١٩٧٣ ، ص ١٤) . - ص ٢٣٩ .

٥٩ - «Zeitschrift für immanente Philosophie» («مجلة الفلسفة الكمونية») - مجلة رجعية المانية . صدرت في برلين من سنة ١٨٩٥ الى سنة ١٩٠٠ بتحرير كاوفمان وبمشاركة شوبه وشوبرت-زولدرن . - ص ٢٤٤ .

- ٦٠ - «L'Année Philosophique» («الحولية الفلسفية») - لسان حال
والانتقاديين الجدد» الفرنسيين . صدرت في باريس من سنة
١٨٩٠ الى سنة ١٩١٣ بتحرير بيلون . - ص ٢٤٥ .
- ٦١ - يقصد لينين التصريح الكاذب لرئيس مجلس الوزراء ستوليبين الذي
انكر فيه وجود «المكاتب السوداء» التي كانت تراقب المراسلات
في مؤسسات البريد . - ص ٢٥٥ .
- ٦٢ - نوذريف - شخصية من رواية الكاتب الروسي نيقولاي غوغول
«النفوس الميتة» . ملاك عقارى ومحتال ومحب للشجار
والمشاكسة . - ص ٢٥٩ .
- ٦٣ - «Revue philosophique de la France et de l'étranger» («مجلة
الفلسفة في فرنسا والخارج») - مجلة ؛ أسسها العالم النفساني
الفرنسي ريبو في باريس سنة ١٨٧٦ . - ص ٢٦٠ .
- ٦٤ - «The Monist» («الاحادي») - مجلة فلسفية اميركية مثالية
الاتجاه . اصدرها كاروس . صدرت في شيكاغو من سنة ١٨٩٠
الى سنة ١٩٣٦ . - ص ٢٦٠ .
- ٦٥ - «The Open Court» («المنبر المفتوح») - مجلة دينية الاتجاه .
صدرت في شيكاغو من سنة ١٨٨٧ الى سنة ١٩٣٦ . - ص ٢٦٠ .
- ٦٦ - راجع : انجلس ، «ضد دوهرينغ» (القسم الثالث ، الفصل
الثالث) . - ص ٢٦٦ .
- ٦٧ - في عام ١٨٩٢ ، صدرت في جنيف الطبعة الروسية الاولى من مؤلف
فريدريك انجلس «لودفيغ فورباخ ونهاية الفلسفة الالمانية
الكلاسيكية» بترجمة بليخانوف ، مع مقدمة وملاحظات . وتعليقا
على الصيغة التي اعطاها انجلس عن المسألة الاساسية في الفلسفة ،
وعلى وصف اللاعرفانية ، عرض بليخانوف بعين نقادة نظرية
المعرفة في عدد من اتجاهات الفلسفة المثالية (عند هيوم) ، وكانط
والكانطيين الجدد وغيرهم) وعارضها بالنظرية المادية عن المعرفة .
ولكنه اقترب خطأ حين قال : «ان احساساتنا انما هي ضرب من

الهيروغليفيات التي توصل الى علمنا ما يجري في الواقع . ان الهيروغليفيات لا تشبه تلك الحوادث التي تنقلها هذه الهيروغليفيات . ولكن بمقدورها ان تنقل بصورة صحيحة تماماً سواء الحوادث ذاتها ، ام - وهذا هو الرئيسي - تلك العلاقات التي توجد بينها . وفي عام ١٩٠٥ ، اعترف بليخانوف في ملاحظات للطبعة الثانية من مؤلف انجلس انه « اعرب عن رأيه بصورة غير دقيقة تماماً » . ان خطأ بليخانوف ، وان كان خطأ في التعبير ، قد كان بمثابة تنازل امام الاعرفانية وكان دليلاً على فهمه ديالكتيك عملية المعرفة فهماً على درجة غير كافية من العمق . - ص ٢٧٠ .

٦٨ - « Archiv für Philosophie » (« ارشيف الفلسفة ») - مجلة فلسفية المانية ، مثالية الاتجاه . لسان حال الكانطيين الجدد والماخيين . صدرت في برلين من عام ١٨٩٥ الى عام ١٩٢١ في طبعتين متوازيتين : الاولى « Archiv für Geschichte der Philosophie » (« ارشيف تاريخ الفلسفة ») بتحرير شتين ، والثانية « Archiv für systematische Philosophie » (« ارشيف الفلسفة النظامية ») بتحرير ناتورب . ومنذ عام ١٩٢٥ شرعت المجلة تصدر باسم « Archiv für Philosophie und Soziologie » (« ارشيف الفلسفة والسوسيولوجيا ») . - ص ٢٧٥ .

٦٩ - راجع : انجلس ، « لودفيغ فورباخ ونهاية الفلسفة الالمانية الكلاسيكية » . (دار التقدم . موسكو ، عام ١٩٧٤ ، ص ٢٦ - ٢٧) . - ص ٢٧٩ .

٧٠ - سجل اكتشاف اشعة اكس واشعة بكيريل والراديوم بداية تطور الفيزياء الذرية .

اشعة اكس (اشعة X ، اشعة رونتغن ، الاشعة السينية ، الاشعة المجهولة) - اشعاع كهرومغناطيسي قصير الموجة ، يتغلغل عبر بيئات لا ينفذ فيها النور المرئي . في كانون الاول (ديسمبر) ١٨٩٥ اكتشف الفيزيائي الالمانى ولهم كونراد رونتغن (١٨٤٥ - ١٩٢٣) اشعة اكس . كذلك وصف رونتغن خواص النوع الجديد من الاشعاع الذي اكتشفت طبيعته فيما بعد . في عام ١٨٩٦ ، اكتشف انطوان هنري بكيريل (١٨٥٢ -

(١٩٠٨) ، اثناء دراسة فعل مختلف المواد الضيائية في الصفيحة التصويرية ، ان ملح الاورانيوم يؤثر في الصفيحة التصويرية في الظلمة حتى بدون تشعيع مسبق . ثم بينت تجارب بكيريل اللاحقة ان هذا التأثير ناجم عن نوع جديد من اشعة تختلف عن اشعة رونتنغن .

عكف بيير كوري وماريا سكلودوفسكايا - كوري على دراسة الاشعاع الجديد ، واثبتتا انه خاصة مجهولة حتى ذلك لمادة معينة ، واسميا هذه الخاصة بالنشاط الاشعاعي . وبنتيجة التجارب ، اكتشف بيير وماريا كوري عنصرين جديدين للنشاط الاشعاعي هما البولونيوم والراديوم (١٨٩٨) .

وفيما بعد ، ثبت ان اشعة بكيريل تتالف من ثلاثة اجزاء (اشعة الفا ، اشعة بيتا ، اشعة غاما) . - ص ٢٩١ .

٧١ - هذا الاكتشاف حققه جيمس مكسويل (١٨٣١-١٨٧٩) . فبتعميم تجارب فاراداي في دراسة الظاهرات الكهرمغناطيسية ، صاغ نظرية الحقل الكهرمغناطيسي التي ينجم منها ان تغيرات الحقل الكهرمغناطيسي تنتشر بسرعة النور . وفي عام ١٨٦٥ خلص مكسويل على اساس دراساته ، الى استنتاج مفاده ان النور هو عبارة عن ذبذبات كهرمغناطيسية . تاكدت صحة نظرية مكسويل بفضل التجارب التي قام بها هرتز بين عامي ١٨٨٦ و ١٨٨٩ ؛ فقد اثبت هرتز وجود الموجات الكهرمغناطيسية . - ص ٢٩٢ .

٧٢ - لدن دراسة ظاهرة النشاط الاشعاعي ، اكتشف نوع خاص من الاشعاع (اشعة الفا ، اشعة بيتا ، واشعة غاما) . في عام ١٩٠٣ ، افترض رذرفورد وسودبي ان النشاط الاشعاعي هو عبارة عن تحول تلقائي لبعض العناصر الكيماوية الى عناصر اخرى . وبعد فترة وجيزة ، اكد رمسي وسودي صحة هذه الفرضية ، باكتشافهما الهيليوم بين منتوجات الانشطار الاشعاعي للرادون (١٩٠٣) . واثبت ذلك ، ثبت ان الهيليوم يتشكل لدن انشطار الراديوم وغير ذلك من العناصر الاشعاعية التي تملك النشاط الاشعاعي - الفا . كان واقع نشوء الهيليوم في حال انشطار العناصر الاشعاعية حجة هامة في صالح نظرية التحولات الاشعاعية . ولم يكن من الممكن تفسير هذا الواقع تفسيراً تاماً الاً بالافتراض ان

اشعة الفا عبارة عن نوى ذرات الهيليوم ، الامر الذي تاكدت صحته عام ١٩٠٩ بفضل تجارب رزفورد ورويدس . - ص ٢٩٢ .

٧٣- في ١٩٠٧-١٩٠٨ ، انتقد بليخانوف في مؤلفيه «المسائل الاساسية في الماركسية» ، و «Materialismus militans» وغيرهما الماخية وانصارها في روسيا (بوغدانوف ، لوناتشارسكي وغيرهما) ، و اشار الى بطلان محاولاتهم للجمع بين الماركسية وفلسفة ماخ وافيناريوس المثالية الذاتية .

اضطلع نضال بليخانوف ضد الماخية بدور ايجابي في الدفاع عن الفلسفة الماركسية دون حملات المحرفين . ولكنه لم يعط تحليلاً نظرياً عميقاً للمذهب النقدي التجريبي ، ولم يكشف الصلة المباشرة بين الماخية وازمة العلوم الطبيعية ، واكتفى بنقد علم العرفان المثالي عند بعض ممثلي الماخية . - ص ٢٩٢ .

٧٤- راجع : انجلس ، « لودفيغ فورباخ ونهاية الفلسفة الالمانية الكلاسيكية » (دار التقدم . موسكو ، عام ١٩٧٤ ، ص ٢٤ - ٢٦) . - ص ٢٩٢ .

٧٥- راجع : انجلس ، « ضد دوهرينغ » . (القسم الاول ، الفصل السادس) . - ص ٢٩٣ .

٧٦- ان وصف مفهوم الكتلة الذي اعطاه هنري بوانكارة والذي اورده لينين ، يتطابق مع مستوى تطور الفيزياء في زمن بوانكارة . الا ان تطور النظرية الالكترونية بعد اكتشاف الالكترون ادى الى امكانية تفسير طبيعة كتلة الالكترون . فقد تقدم جوزف جون تومسون (١٨٥٦ - ١٩٤٠) بفرضية مفادها ان كتلة الالكترون ذاتها مشروطة بطاقة حقله الكهرمغناطيسي (اي ان استمرارية الالكترون رهن باستمرارية الحقل) ، وظهر مفهوم كتلة الالكترون الكهرمغناطيسية وتبين ان هذه الكتلة رهن بسرعة حركة الالكترون . واعتبروا كتلة الالكترون الميكانيكية ، مثلها مثل اي دقيقية اخرى ، ثابتة لا تتغير . وكان لا بد للتجارب الهادفة الى دراسة تبعية كتلة الالكترون الكهرمغناطيسية للسرعة ان تكشف وجود الكتلة الميكانيكية . ولكن هذه التجارب التي قام بها كاوفمان في سنتي ١٩٠١ و ١٩٠٢ بينت بصورة غير متوقعة ان الالكترون

يتصرف كما لو ان كل كتلته ذات طبيعة كهرمغناطيسية . ومن هنا خلصوا الى القول بزوال الكتلة الميكانيكية من الالكترون ، مع انها كانت تعتبر من قبل خاصة ملازمة للمادة . وقد اتخذ هذا الامر ذريعة لشتى الاختلاقات الفلسفية ، وشتى التصاريح « بزوال المادة » ، وقد برهن لينين على بطلان هذه الاختلاقات والتصاريح . ثم جاء تطور الفيزياء لاحقاً (نظرية النسبية) يبين ان الكتلة الميكانيكية تتوقف هي ايضاً على سرعة الحركة وانه لا يجوز حصر كتلة الالكترون في الكتلة الكهرمغناطيسية . - ص ٢٩٤ .

٧٧ - «L'Année Psychologique» («حولية علم النفس») - لسان حال فريق من علماء النفس المثاليين البرجوازيين الفرنسيين . تصدر في باريس منذ عام ١٨٩٤ . في البدء اصدرها بينه ، فيما بعد ، بيارون . - ص ٣٠١ .

٧٨ - في اواخر القرن التاسع عشر انبثق التصور عن تعقد الذرة بنتيجة اكتشاف مندلييف لنظام العناصر الدوري ، واكتشاف طبيعة النور الكهرمغناطيسية ، والالكترون ، وظاهرة النشاط الاشعاعي . ووردت مقترحات ببضعة موديلات للذرة . ويعتبر لينين ان الفكرة التي ظهرت بشكل فرضية في اواخر القرن التاسع عشر بشأن موديل الذرة الكوكبي هي الفكرة الاكثر احتمالاً . وقد تاكدت صحة هذه الفكرة على الصعيد الاختباري بفضل تجارب رزرفورد الذي بحث عبور دقائق - الفا (نوى الهيليوم الموجبة الشحنة) عبر مختلف المواد وخلص الى القول ان الشحنة الموجبة تتركز في وسط الذرة وتشغل قسماً صغيراً جداً من حجمها . وفي عام ١٩١١ ، عرض موديلاً توجد بموجبه في وسط الذرة نواة موجبة الشحنة ، ذات كتلة مساوية تقريباً لكل كتلة الذرة ، وتدور بموجبه الالكترونات حول النواة على مدارات مختلفة - مثل كواكب النظام الشمسي . ولكن هذا الموديل لم يستطع ان يفسر استقرار الذرة . وقد ارتكزت اول محاولة ناجحة لصياغة نظرية بنيان الذرة على موديل رزرفورد وكانت على ارتباط بادخال ما يسمى المسلمات الكمية للعالم بور (١٩١٣) . بموجب هذه النظرية الكمية الاولى عن الذرة ، يتحرك الالكترون في احد المدارات «المستقرة» (المناسبة لعلائم غير مترابطة من الطاقة) بدون اشعاع . ان اشعاع او

امتصاص الذرة لقدر معين من الطاقة لا يحدث الا في حال انتقال الالكترون من مدار الى آخر .

واغنى تطور الفيزياء لاحقا التصور عن بنية الذرة . وفي هذا المجال اضطلع بدور بالغ الشأن تنبؤ لويس دي برويل بالخواص الموجية للموضوعات الصغيرة ، وما تبعه من انشاء للميكانيك الكمي من قبل شريدينغر وغيزنبرغ وغيرهما . ان نواة الذرة ، حسب التصورات العصرية ، محاطة بغيمة من الالكترونات الموجودة في مدارات مختلفة تناسبها علائم معينة من الطاقة وتشكل مع النواة منظومة واحدة متبادلة الصلة .

في سياق تطور الفيزياء ، اتضح ان نواة الذرة تتألف من الدقائق-النوكلونات «الابتدائية» (البروتونات والنوترونات) ؛ وعدا الكتلة والشحنة ، اللتين كانتا معروفتين حتى في بداية القرن العشرين ، اكتشفت في الالكترون خواص جديدة وامكانية تحوله الى دقائق اخرى . وفضلاً عن الالكترون ، اكتشفت جملة من الدقائق «الابتدائية» الجديدة المختلفة من حيث خواصها (الفوتونات ، البروتونات ، النوترونات ، النوترينو ، ومختلف اصناف الميزونات والهيبيرونات) . كذلك امكن اكتشاف دقائق تتطابق بعض مواصفاتها مع مواصفات مناسبة لدقائق «ابتدائية» معروفة سابقاً ، واخرى موازية لها من حيث الكبر ، ولكنها مقابلة من حيث الشحنة (اي ضديدات) .

وقد ادى تقدم معرفة بنية المادة الى امتلاك الانسان لخاصية العمليات النووية ، واستعمال الطاقة النووية ، الامر الذي دل على بداية ثورة تكنولوجية جديدة لها اهمية هائلة بالنسبة لمستقبل البشرية جمعاء . - ص ٣٠٣ .

٧٩- الالكترون الموجب . هكذا كانوا يسمون في الفيزياء في اواخر القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين الكهيرب الموجب الشحنة . وفي عام ١٩٢٨ تنبأ الفيزيائي البريطاني بول ادريان موريس ديراك بوجود الالكترون الموجب بمفهومه العصري (البوزيترون) . وفي عام ١٩٣٢ ، اكتشف الفيزيائي الاميركي كارل دافيسد اندرسن البوزيترون في قوام الاشعة الكونية . - ص ٣٠٣ .

٨٠- «Revue générale des sciences pures et appliquées» (المجلة العامة للعلوم الخالصة والتطبيقية) - مجلة تنشر مقالات في العلوم

الطبيعية . تصدر في باريس منذ عام ١٨٩٠ . أسس المجلة
اوليفيه . - ص ٣٠٣ .

٨١ - المقصود هنا ، اغلب الظن ، الكتلة الميكانيكية التي تعتبرها الفيزياء
الكلاسيكية خاصة خالدة وثابتة للمادة . - ص ٣٠٣ .

٨٢ - يقصد لينين هنا الخطاب الذي القاه «الاقتصادي» اكيوف في المؤتمر
الثاني لحزب العمال الاشتراكي - الديموقراطي في روسيا (عام
١٩٠٣) ورفض فيه برنامج الحزب الذي عرضته جريدة
«الايسكرا» ، متذرعاً ، في عداد ما تذرعه به ، بكون كلمة
«البروليتاريا» ، ترد في البرنامج في حالة الاضافة لا في حالة
المبتدا . - ص ٣١٤ .

٨٣ - **المذهب الحيوي الجديد (Neo Vitalisme)** - اتجاه مثالي في
البيولوجيا ، انبثق في اواخر القرن التاسع عشر كرد فعل على
النظرة المادية الى العالم ، على الداروينية . بعث ممثلوه (رو ،
دريش ، إكسكول ، وغيرهم) نظرات المذهب الحيوي المناهضة
للعلم ، وحاولوا ان يفسروا الظواهر الحيوية وعقلانية العضويات
الحية بافعال عوامل غير مادية خاصة (القوة الحيوية) ،
«الانتلشيا» ، وما الى ذلك) ، وان يفصلوا بالتالي بصورة مبدئية
الطبيعة الحية عن الطبيعة غير الحية .
اقيم البرهان في اعمال البيولوجيين الماديين (هيكل ،
تيميريازيف ، بافلوف وغيرهم) على بطلان المذهب الحيوي الجديد
وطابعه المناهض للعلم . - ص ٣٢١ .

٨٤ - «**قضايا الفلسفة وعلم النفس**» - مجلة مثالية الاتجاه . صدرت في
موسكو من تشرين الثاني (نوفبر) ١٨٨٩ الى نيسان (ابريل)
١٩١٨ (ابتداء من سنة ١٨٩٤ ، اصدرتها جمعية علم النفس في
موسكو) . نشرت المجلة مقالات في الفلسفة ، والبيسيكولوجيا
(علم النفس) ، والمنطق ، وعلم الاخلاق ، وعلم الجمال ، وملاحظات
انتقادية وتحاليل لتعاليم ومؤلفات الفلاسفة وعلماء النفس
الاوروبيين الغربيين ، واستعراضات للكتب الفلسفية والمجلات
الفلسفية الاجنبية وغير ذلك من المواد . في سنوات الردة الرجعية

(١٩٠٧-١٩١٠) ، اشترك بوغدانوف والماخيون الآخرون في إصدارها وتحريرها . منذ عام ١٨٩٤ ، صدرت المجلة بتحرير لوباتين . - ص ٣٤٩ .

٨٥ - «اتحاد الشعب الروسي» - منظمة للملكيين مفرقة في الرجعية . تشكلت في تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٠٥ في بطرسبورغ لاجل النضال ضد الحركة الثورية .

سعى «الاتحاد» الى دعم وتثبيت الاوتوقراطية القيصرية ، وصيانة الاقتصاد الزراعي الكبير شبه الاقطاعي ، والحفاظ على امتيازات النبلاء . كانت المذابح والاغتيالات الوسيلة الرئيسية التي لجأ اليها «الاتحاد» للنضال ضد الثورة .

اثناء ثورة شباط (فبراير) البرجوازية الديمقراطية (عام ١٩١٧) ، تمت تصفية «الاتحاد» . - ص ٣٤٩ .

٨٦ - «روسكويه بوغاتستفو» - مجلة شهرية . صدرت في بطرسبورغ من عام ١٨٧٦ الى عام ١٩١٨ . منذ بداية العقد العاشر من القرن التاسع عشر انتقلت الى ايدي الشعبين الليبراليين وعلى رأسهم ميخايلوفسكي . في عام ١٩٠٦ اصبحت المجلة لسان حال حزب العمل الاشتراكي - الشعبي نصف الكاديتي .

دعت المجلة الى التصالح مع الحكومة القيصرية وناضلت بضراوة ضد الماركسية والماركسيين الروس . - ص ٣٦٦ .

٨٧ - كلمات «Wer den Feind...» ، التي هي عبارة عن تحوير لبيتين من الشعر للشاعر الالماني يوهان فولفغانغ غوته ، اخذها لينين من رواية الكاتب الروسي ايفان تورغينيف «الارض البكر» . - ص ٣٧٠ .

٨٨ - المقصود هنا مقدمة مؤلف ماركس «مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي» . - ص ٣٧٥ .

٨٩ - المالتوسية - مذهب يفسر املاق الجماهير الكادحة في ظل الرأسمالية بقانون السكان «الطبيعي» ، المطلق . اُسمي باسم الاقتصادي البرجوازي البريطاني توماس روبرت مالتوس (١٧٦٦-١٨٣٤) الذي حاول ان يثبت في مؤلفه الصادر عام ١٧٩٨

قانون بقاء وتحول الطاقة القانون العام الوحيد للطبيعة ، وحاول ان ينكر الواقعية الموضوعية للمادة ، وينبذ مفهوم المادة ، ويثبت ان الطاقة توجد بدون المادة ، وان يحصر في الطاقة جميع ظاهرات الطبيعة والمجتمع والتفكير . وحاول بوغدانوف ان يعتبر التغيرات الاجتماعية ازدياداً او انخفاضاً للطاقة .

انتقد لينين «مذهب الطاقة» بوصفه احد مظاهر المثالية «الفيزيائية» وبين البطلان المبدئي لمحاولات نقل قانون العلوم الطبيعية الى الظاهرات الاجتماعية . ثم جاء تطور العلوم الطبيعية وبحث ظاهرات العالم الصغير يؤكدان صحة الطابع العام لقانون بقاء وتحول الطاقة . - ص ٣٨٧ .

٩١ - بازاروف - شخصية رئيسية في رواية الكاتب الروسي ايفسان تورغينيف «الآباء والبنون» . - ص ٣٨٧ .

٩٢ - يقصد لينين ، على ما يبدو ، المقطع التالي من مؤلف انجلس «الاشتراكية الطوبوية والاشتراكية العلمية» : «... ان هذين الاكتشافين العظيمين ، ونعني بهما المفهوم المادي عن التاريخ ، والكشف عن سرّ الانتاج الرأسمالي بواسطة القيمة الزائدة ، انما نحن مدينون بهما لماركس . فبفضل هذين الاكتشافين ، اصبحت الاشتراكية علماً ، وتتلخص القضية الآن ، قبل كل شيء ، في صياغته باطراد بجميع تفاصيله وعلاقاته المتبادلة» (ماركس . انجلس . مختارات في اربعة اجزاء ، الجزء الثالث . دار التقدم . موسكو ص ١٠٦) . - ص ٣٨٨ .

٩٣ - «Deutsch-Französische Jahrbücher» («الحواليّة الألمانية الفرنسية») - صدرت باللغة الألمانية في باريس بتحرير ماركس وروغه . صدر منها العدد الاول ، المزدوج في شباط (فبراير) ١٨٤٤ . كانت الخلافات المبدئية بين ماركس والراديكالي البرجوازي روغه السبب الرئيسي لتوقف المجلة عن الصدور . - ص ٣٩٢ .

٩٤ - راجع انجلس «مقدمة للطبعة الانجليزية» (عام ١٨٩٢) لمؤلفه «الاشتراكية الطوبوية والاشتراكية العلمية» (ماركس وانجلس .

مختارات في اربعة اجزاء . الجزء الثالث . دار التقدم . موسكو ، عام ١٩٧٣ ، ص ٧-١٨) . - ص ٣٩٣ .

٩٥- يقصد لينين مؤلفات انجلس «ضد دوهرينغ» (١٨٧٨) ، و«لودفيغ فورباخ ونهاية الفلسفة الالمانية الكلاسيكية» (١٨٨٨) ، و«مقدمة للطبعة الانجليزية» (عام ١٨٩٢) لمؤلفه «الاشتراكية الطوبوية والاشتراكية العلمية» . - ص ٣٩٣ .

٩٦- راجع انجلس «لودفيغ فورباخ ونهاية الفلسفة الالمانية الكلاسيكية» (دار التقدم . موسكو ، عام ١٩٧٤ ، ص ٢١-٢٢) . - ص ٣٩٥ .

٩٧- «زاغرانيتشنايا غازيتا» - «Gazette Etrangère» («جريدة الخارج») - جريدة اسبوعية لفريق من المهاجرين الروس . صدرت في جنيف من آذار (مارس) الى نيسان (ابريل) ١٩٠٨ . قامت بترويج «بناء الله» والماخية (مقالات بوغدانوف ولوناتشارسكي) .

يورد لينين كلمات من «تحقيقات في الادب الروسي المعاصر» للوناتشارسكي التي نشرت في العددين ٢ و ٣ من الجريدة . - ص ٤٠٠ .

٩٨- «اوبرازوفانيه» («التثقيف») - مجلة شهرية شرعية ادبية وعلمية مبسطة واجتماعية سياسية . صدرت في بطرسبورغ من سنة ١٨٩٢ الى سنة ١٩٠٩ . - ص ٤٠١ .

٩٩- بوبتشينسكي ودوبتشينسكي . شخصيتان من مسرحية الكاتب الروسي نيقولاي غوغول الكوميدي «المفتش» . - ص ٤٠٩ .

١٠٠- يقصد لينين كتيبين للمنشقين-الماخيين صدرتا في سنة ١٩٠٨ : ن . فالنتينوف «الانشاءات الفلسفية للماركسية» وب . يوشكيفيتش «المادية والواقعية النقدية» . - ص ٤١٤ .

١٠١- مخطوطة «اضافة الى الفقرة الاولى من الفصل الرابع . من اي جانب تناول ن . غ . تشيرنيشيفسكي نقد الكانطية ؟» ارسلها لينين الى

اخته ١٠١ . اوليانوفا-ايليزاروفا في النصف الثاني من آذار (مارس) عندما كان الكتاب قيد الطبع . وقد كتب لينين بصدد هذه الاضافة في رسالة الى اخته بتاريخ ١٠ او ١١ (٢٣ او ٢٤) آذار (مارس) ١٩٠٩ : « ارسل اضافة . لا يصح التوقف بسببها . ولكن اذا توفر الوقت ، فادخليها في نهاية الكتاب بالذات ، بعد الخاتمة ، بحرف طباعي خاص ، مثلاً بحرف صغير من البنط ٨ . اعتبر من اقصى الاهمية معارضة الماخين بتشيرنيشيفسكى » . - ص ٤١٨ .

١٠٢ - ان المقطع «حول الديالكتيك» هو تعميم اصيل لعمل لينين في دراسة قضايا الفلسفة خلال سنتي ١٩١٤ ، ١٩١٥ .
في هذا المقطع يحلل لينين القانون الديالكتيكي للوحدة والصراع بين الاضداد ، والمفهوم الميتافيزيائي والديالكتيكي عن التطور ، ومقولات المطلق والنسبي ، المجرد والملموس ، العام والخاص والوحيد ، المنطقي والتاريخي ، وغيرها من المقولات ، ويكشف الطابع الديالكتيكي لعملية المعرفة ، ويبين الاسس العرفانية والطبقية للمثالية . - ص ٤٢٢ .

دليل الاسماء

ادلر (Adler) فريديرخ (١٨٧٩ - ١٩٦٠) - قائد اشتراكي-ديموقراطي نمساوي . اصلاحي . في الفلسفة - نصير المذهب النقدي التجريبي . حاول ان «يكمل» الماركسية بالفلسفة الماخية . - ص ٥١ ، ٥٧ ، ٦٤ ، ١٠٥ ، ١٢٩ ، ٢٥٥ ، ٣٦٣ .

اديكس (Adickes) ايربخ (١٨٦٦ - ١٩٢٨) - فيلسوف الماني . كانطي جديد . منذ عام ١٨٩٨ استاذ في جامعة كيل ؛ منذ عام ١٩٠٢ ، في جامعة مونستر ؛ منذ عام ١٩٠٤ في جامعة توبينغن . عارض المادية وزعم ان المادية لا توجد موضوعيا ، وانها «نتاج روحنا» ، وان الذرات ليست غير مفاهيم معاونة للعقل . انكر امكانية معرفة العالم الموضوعي معرفة علمية . - ص ٤٠٧ .

ارسطو (ارسطوطاليس) (٣٨٤ - ٣٢٢ قبل المسيح) - فيلسوف وعالم اغريقي ، تشمل مؤلفاته معارف ذلك الزمن جميعها تقريبا . تارجح في الفلسفة بين المادية والمثالية . - ص ٤٢٢ ، ٤٢٤ .

افلاطون (اسمه الحقيقي اريستوكل) (٤٢٧ - ٣٤٧ قبل المسيح) - فيلسوف اغريقي . مؤسس الاتجاه المثالي الموضوعي في الفلسفة القديمة . - ص ٩٠ ، ١٤٥ ، ٤٢٦ .

افيناريوس (Avenarius) ريخارد . (١٨٤٣ - ١٨٩٦) - فيلسوف الماني . مثالي ذاتي . استاذ في جامعة زوريخ . في عام ١٨٧٦ صاغ في مؤلفه

«Philosophie als Denken der Welt gemäß dem Prinzip des kleinsten Kraftmaßes» (الفلسفة كتفكير عن العالم بموجب مبدأ الجهد الأدنى) الموضوعات الأساسية للمذهب النقدي التجريبي - وهو فلسفة رجعية تبعث مثالية بركلي وهيوم الذاتية . - ص ١٥ ، ٢٠ - ٢٢ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٩ ، ٤٥ - ٤٨ ، ٥٠ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٩ - ٦٤ ، ٦٦ - ٦٩ ، ٧١ - ٨٥ ، ٩٠ - ١٠٢ ، ١٢٤ ، ١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٤٠ - ١٤٣ ، ١٥٣ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٧ - ١٧٤ ، ١٨٠ ، ١٨٢ ، ١٨٤ ، ١٨٧ ، ١٩٠ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ٢١٦ ، ٢١٩ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٣٠ ، ٢٣٥ - ٢٤٣ ، ٢٤٥ ، ٢٤٧ - ٢٥٤ ، ٢٥٩ ، ٢٦١ ، ٢٧٨ ، ٢٨٣ ، ٢٩٠ ، ٣٦٦ ، ٣٦٧ ، ٣٦٩ - ٣٧٢ ، ٣٨٣ ، ٣٩٥ ، ٣٩٧ ، ٣٩٨ ، ٤٠١ ، ٤٠٢ ، ٤١١ ، ٤١٦ ، ٤١٩ .

اكسيلرود لوبوف ايساكوفنا (اورتودوكس) (١٨٦٨ - ١٩٤٦) - فيلسوفة
وباحثة ادب روسية . اشتركت في الحركة الاشتراكية-الديموقراطية . في عام ١٩٠٣ ، التحقت بالمناشفة (اي بالتيار الانتهازي في حزب العمال الاشتراكي-الديموقراطي في روسيا) . وفي عام ١٩١٨ انصرفت عن النشاط السياسي الشديد . - ص ٣٧٦ .

اكيهوف (كنيته الحقيقية : ماخنوفتس) فلاديمير بتروفيتش (١٨٧٢ - ١٩٢١) - اشتراكي-ديموقراطي روسي . انتهازي متطرف . - ص ٣١٤ .

انجلس (Engels) فريدريك (١٨٢٠ - ١٨٩٥) - احد مؤسسي الشيوعية العلمية ، صديق ماركس ورفيقه في الفكر . - ص ١١ ، ١٢ ، ١٥ ، ٢٨ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٥٠ ، ٥٥ ، ٦٠ ، ٦٤ ، ٦٧ ، ٨٠ ، ٨٩ ، ٩٣ ، ٩٩ ، ١٠٧ - ١١٢ ، ١١٤ ، ١١٨ - ١٣٠ ، ١٣٥ - ١٣٧ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٧ - ١٥٢ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٧ ، ١٥٩ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٧٢ ، ١٧٧ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩٨ ، ٢٠١ - ٢٠٣ ، ٢١٠ -

٢١٣ ، ٢١٥-٢١٨ ، ٢٢٧ ، ٢٣٢-٢٣٩ ، ٢٦٣ ، ٢٦٦ ، ٢٧٠ ، ٢٧٨-٢٨٣ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٨٨ ، ٢٩٠-٢٩٣ ، ٢٩٥ ، ٢٩٧ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٧ ، ٣١٠ ، ٣١٣ ، ٣٤٣ ، ٣٤٧ ، ٣٦٠ ، ٣٦١ ، ٣٦٦ ، ٣٦٧ ، ٣٦٩ ، ٣٧١ ، ٣٧٢ ، ٣٧٤ ، ٣٧٥ ، ٣٨٧ ، ٣٨٨ ، ٣٩١ ، ٣٩٢-٣٩٥ ، ٤٠١ ، ٤٠٢ ، ٤٠٤ ، ٤١٦ ، ٤١٩ ، ٤٢١ ، ٤٢٢ .

اورتودوكس . راجع اكسيلرود لوبوف ايساكوفنا .

اورشليم (Jerusalem) ولهم (١٨٥٤-١٩٢٣) - فيلسوف مثالي وعالم
نفساني نمساوي . - ص ١٠٣ ، ١٧٠ ، ٢٨٩ .

اوستفالد (Ostwald) ولهم فريدريخ (١٨٥٣-١٩٣٢) - عالم طبيعيات
وفيلسوف مثالي الماني . منذ عام ١٨٨٢ استاذ في المدرسة
البوليتكنيكية في ريغا . منذ عام ١٨٨٧ استاذ في الكيمياء
الفيزيائية في جامعة ليبيغ .

عمل في مختلف ميادين الكيمياء . كرس بحوثه الاساسية
لنظرية التفكيك الالكتروليتي . صاحب النظرية «الطاقة» - وهي
نوع من المثالية «الفيزيائية» . اعتبر الطاقة اعم مفهوم ، وحاول
ان يتصور الحركة والطاقة بمعزل عن المادة . نعت لينين اوستفالد
بانه كيماوي كبير وفيلسوف صغير ، وانتقد «مذهب الطاقة»
واثبت بطلانه العلمي . - ص ٤٩ ، ٥٩ ، ١٩٢ ، ٢٦١ ، ٢٦٩ ،
٢٩٥ ، ٣١٣ ، ٣١٥-٣١٧ ، ٣٣٦ ، ٣٨٧ ، ٣٨٨ ، ٣٩٩ ،
٤٠٠ .

ايفريغ (Ueberweg) فريدريخ (١٨٢٦-١٨٧١) - فيلسوف الماني .
من حيث نظراته الفلسفية ، كان قريباً من المادية . اشتهر بوصفه
مؤلف الكتاب النظري «عرض موجز في تاريخ الفلسفة» (١٨٦٢-
١٨٦٦) . - ص ٢٢٢ .

ايفالد (Ewald) اوسكار (الاسم المستعار لفريدلندر او .) (من مواليد

عام (١٨٨١) - فيلسوف كانطي جديد . نمساوي . - ص ٦١ ، ٧٦ ،
٧٧ ، ٩٨ ، ١٠٢ .

بازاروف ف . (رودنييف فلاديمير الكسندروفيتش) (١٨٧٤ - ١٩٣٩) -
فيلسوف واقتصادي روسي . منذ عام ١٨٩٦ اشترك في الحركة
الاشتراكية-الديموقراطية . في سنوات ١٩٠٥ - ١٩٠٧ ، عاون في
عدد من المطبوعات البلشفية . في مرحلة الردة الرجعية (١٩٠٧ -
١٩١٠) ، ابتعد عن البلشفية ، وقام بترويج «بناء الله» والمذهب
النقدي التجريبي ، وكان من كبار ممثلي التحريف الماخي للماركسية .
في السنوات الاخيرة من حياته ، انصرف الى ترجمة المؤلفات
الادبية والفلسفية . - ص ١١ ، ١٢ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٩ ، ٧٦ ،
٨٦ - ٩١ ، ٩٣ ، ١٠٢ ، ١٠٧ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٢ ، ١٣٠ ،
١٥٩ ، ١٩٣ ، ٢١٢ ، ٢٢٧ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٥٠ ، ٢٥٣ ،
٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٣٢٩ ، ٣٧٧ ، ٣٨٥ ، ٣٨٦ ، ٤٠١ .

باكس (Bax) ارنست بلفورت (١٨٥٤ - ١٩٢٦) - اشتراكي انجليزي .
مؤرخ وفيلسوف . منذ اوائل الثمانينيات اشترك بنشاط في عمل
مختلف المنظمات الاشتراكية ، وكان مندوباً الى المؤتمرات الاشتراكية
العالمية . عمل على ترويج الماركسية . ودافع عن المادية
الديالكتيكية والفهم المادي للتاريخ . ولكنه اقترب اخطاء مثالية
الطابع (استعظام دور «العامل النفساني» في التاريخ ؛ تفسير
التجربة بروح الماخية وغير ذلك) - ص ١٧٠ .

پاولسن (Paulsen) فريديريخ (١٨٤٦ - ١٩٠٨) - فيلسوف كانطي جديد
الماني . من ابرز النظريين المحافظين في علم التربية الالماني في
اواخر القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين . استاذ في جامعة
برلين . تأثر بفلسفة شوبنهاور المثالية ، ودافع عن الدين . -
ص ٤٠٧ .

پاومان (Baumann) يوليوس (١٨٣٧ - ١٩١٦) - استاذ الفلسفة في

جامعة غوتنغن (منذ عام ١٨٦٩) . اختياري . جمع في آرائه بين المثالية الذاتية وعناصر من المادية . - ص ٢٢١ .

بتسولدت (Petzoldt) يوسف (١٨٦٢ - ١٩٢٩) - فيلسوف الماني . مثالي ذاتي . تلميذ ماخ وافيناريوس . انكر المادية بوصفها اتجاهاً فلسفياً وحاول ان يستعيز عن مبدأ السببية بمبدأ القبلية «التعريف الوحيد المدلول» ، وعارض الاشتراكية العلمية . قال لينين ان بتسولدت «يمكنه ان يكون مثلاً رائعاً على السكولاستية (المدرسية) الرجعية الملازمة للماخية» (راجع هذا الكتاب ، ص ١٨٤) . - ص ٢١ ، ٣٩ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٦٣ ، ٦٧ ، ٧٨ ، ٨١ - ٨٦ ، ٩١ ، ١٠١ ، ١٤٤ ، ١٥٣ ، ١٦٧ ، ١٧٣ ، ١٨٤ - ١٨٧ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ٢٠٠ ، ٢١٠ ، ٢١٩ ، ٢٣٦ ، ٢٤٢ ، ٢٤٧ ، ٢٤٩ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٥٩ ، ٢٩٠ ، ٣٧٢ ، ٣٧٣ ، ٣٧٥ ، ٤٠١ ، ٤٠٢ ، ٤٠٤ ، ٤٠٨ ، ٤١١ .

بركلي (Berkeley) جورج (١٦٨٥ - ١٧٥٣) - فيلسوف انجليزي . مثالي ذاتي . اسقف الكنيسة الانجليكانية . كانت فلسفة بركلي احد المصادر النظرية للمذهب النقدي التجريبي وعدد من الاتجاهات الاخرى في الفلسفة البرجوازية الرجعية . - ص ١٧ - ٢٩ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٩ - ٤١ ، ٤٥ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٦٦ ، ٦٨ ، ٧١ ، ٧٣ ، ٨٩ ، ٩١ ، ١٠٠ ، ١٠٣ ، ١١٥ ، ١١٩ ، ١٢٥ ، ١٣١ ، ١٣٥ ، ١٤١ ، ٢٠٧ ، ٢١١ ، ٢٢١ ، ٢٢٣ ، ٢٢٥ - ٢٢٧ ، ٢٢٧ ، ٢٣٠ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤٣ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٥٨ - ٢٦٠ ، ٢٧٥ ، ٣٤٦ ، ٣٦٩ ، ٤٠٥ ، ٤١٢ ، ٤١٦ ، ٤٢٦ .

برمان ياكوف الكسندروفيتش (١٨٦٨ - ١٩٣٣) - اشتراكي-ديموقراطي روسي . حقوقي وفيلسوف . كانت نظرات برمان الفلسفية عبارة عن خليط اختياري من المادية الميتافيزيائية ومن البراغماتية .

كان احد مؤلفي المجموعة التحريفية «دراسات في فلسفة الماركسية» (١٩٠٨) . كتب عدداً من البحوث في الفلسفة فحرف فيها المادية الديالكتيكية .

بعد ثورة اكتوبر الاشتراكية (عام ١٩١٧) انتسب الى الحزب الشيوعي (البلشفي) في روسيا ، وعمل في حقل التعليم . - ص ١١ ، ١٢ ، ١٠٧ ، ٢١٩ ، ٣٦٠ ، ٣٨٥ .

برنشتين (Bernstein) ادوارد (١٨٥٠ - ١٩٣٢) - احد زعماء الجناح الانتهازي في الاشتراكية-الديموقراطية الالمانية والاممية الثانية . نظري التحريفية . (راجع كذلك الملاحظة رقم ٥٣) . - ص ٢٣٤ .

برونيتيير (Brunetiere) فرديناند (١٨٤٩ - ١٩٠٦) - ناقد وباحث ادبي فرنسي . من حيث آرائه السياسية ، محافظ ، ثم رجعي صافر ، حلم ببعث سلطة الكنيسة الكاثوليكية . - ص ٣٥٦ .

بكيريل (Becquerel) انطوان هنري (١٨٥٢ - ١٩٠٨) - فيزيائي فرنسي . منذ عام ١٨٨٩ ، عضو اكااديمية العلوم في باريس . مؤلف عدد من البحوث في البصريات ، والكهرباء ، والمغناطيسية ، والكيمياء الضوئية ، والكيمياء الكهربائية ، وعلم الارصاد الجوية . في عام ١٨٩٦ اكتشف ظاهرة النشاط الاشعاعي . - ص ٢٩١ .

بكيريل (Becquerel) جان (١٨٧٨ - ١٩٥٣) - فيزيائي فرنسي . منذ عام ١٩٤٦ ، عضو اكااديمية العلوم في باريس . ابن هنري بكيريل . عمل في مختلف ميادين الفيزياء . بالتعاون مع العالم الهولندي كامرلينغ-اونيس ، بحث الظواهر التي تنبثق في مختلف المواد الموضوعية في حقل مغناطيسي في ظل حرارة الهواء السائل والهيدروجين السائل . - ص ٣٣٢ .

بلتوف - راجع بليخانوف غيورغي فالنتينوفيتش .

بلوم اوسكار - راجع رحمتوف . ن .

بلي (Blei) فرانتس (١٨٧١ - ١٩٤٢) - كاتب الماني . ناقد ومترجم . في الفلسفة ، من اتباع افيناريوس . عاون في مختلف المجلات ، وبينها مجلات اشتراكية ؛ وكتب مقالات في الاقتصاد السياسي ، وانتقد الماركسية بروح الماخية . - ص ٣٦٧ ، ٣٦٩ ، ٣٧٠ - ٣٧٢ ، ٣٧٥ .

بليخانوف غيورغي فالنتينوفيتش (بلتوف . ن .) (١٨٥٦ - ١٩١٨) - شخصية بارزة في الحركة العمالية الروسية والعالمية . اول داعية للماركسية في روسيا . مؤسس اول منظمة ماركسية روسية - فرقة «تحرير العمل» .

بعد المؤتمر الثاني ح ع ادر (عام ١٩٠٣) ، وقف بليخانوف مواقف التوفيق مع الانتهازية ، ثم التحق بالمناشفة (اي بالتيار الانتهازي في ح ع ادر) . قدر لينين رفيع التقدير مؤلفات بليخانوف الفلسفية ودوره في نشر الماركسية في روسيا ، ولكنه انتقد بليخانوف في الوقت نفسه انتقاداً حاداً لانحرافه عن الماركسية ولاخطائه الكبيرة في النشاط السياسي . - ص ١٥ ، ١٦ ، ١٩ ، ٥٧ ، ٨٨ - ٨٩ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ١٠٧ - ١٠٩ ، ١١٤ ، ١١٩ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٣٧ ، ١٥٩ ، ١٦٥ ، ١٧٢ - ١٧٤ ، ٢٢٧ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩٢ ، ٤١٤ ، ٤٢٢ ، ٤٢٥ .

بنتلي (Bentley) ج . مديسون (ولد عام ١٨٧٠) - عالم نفساني وفيلسوف اميركي . استاذ في جامعة كورنيل . - ص ٢١١ .

بوانكاره (Poincaré) لوسيان انطوان (١٨٦٢ - ١٩٢٠) - فيزيائي فرنسي . استاذ . تناولت بحوثه الاساسية نظرية الكهرباء . - ص ٣٤٧ .

بوانكاره (Poincaré) هنري (١٨٥٤-١٩١٢) - عالم فرنسي في الرياضيات والفيزياء . استاذ في جامعة باريس . عضو اكاديمية العلوم في باريس . اشتهر ببحوثه في نظرية المعادلات التفاضلية والفيزياء الرياضية والميكانيك السماوي . اخلص في نفس الوقت مع اينشتاين الى المفاهيم الاساسية في نظرية النسبية الخاصة .

كان بوانكاره في الفلسفة قريباً من الماخية ؛ وقد انكر وجود المادة الموضوعي والقوانين الموضوعية للطبيعة . - ص ٢٥ ، ٥١ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ٢٩٣-٢٩٥ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠٧ ، ٣١٩ ، ٣٢٤ ، ٣٢٥ ، ٣٣٠ ، ٣٣٩-٣٤١ ، ٣٤٥ ، ٣٤٦ ، ٣٤٨ ، ٣٥٣ ، ٣٥٦ ، ٣٦٠ ، ٢٦٢ ، ٢٦٨ ، ٢٩٩ ، ٤٠٠ .

بوبر (Popper) يوسف (١٨٣٨-١٩٢١) - مهندس نمساوي . وضعي . ممثل الاشتراكية البرجوازية الصغيرة . - ص ٣٧٥ .

بوختر (Büchner) فريدريخ كارل خريستيان لودفيغ (١٨٢٤-١٨٩٩) - فيلسوف الماني . من كبار ممثلي المادية المبتدلة . طبيب من حيث المهنة .

في مؤلفه الاساسي «Kraft und Stoff» («القوة والمادة») (عام ١٨٥٥) ، اعطى عرضاً للمادية المبتدلة . - ص ٤٥ ، ١٧٨ ، ٢٨٠ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٣٥٠ ، ٣٨٤ ، ٣٨٧ ، ٣٩٣ .

بوريشكيفيتش فلاديمير ميتروفانوفيتش (١٨٧٠-١٩٢٠) - ملاك عقارى كبير روسي . ملكي . من عام ١٩٠٥ الى عام ١٩٠٧ ، مؤسس منظمات سفاكة لأجل مكافحة الحركة الثورية . بعد ثورة اكتوبر الاشتراكية (١٩١٧) ، ناضل بنشاط ضد السلطة السوفييتية . - ص ٢٢٧ .

بوغدانوف . ا . (مالينوفسكي الكسندر الكسندروفيتش) (١٨٧٢-١٩٢٨) - اشتراكي-ديموقراطي روسي . فيلسوف . عالم اجتماع .

اقتصادي . طبيب من حيث التحصيل . بعد المؤتمر الثاني لحزب العمال الاشتراكي-الديموقراطي في روسيا (ح.ع.ادر) (عام ١٩٠٣) ، التحق بالبلاشفة ، واشترك في هيئات تحرير عدد من الصحف البلشفية . في سنوات الردة الرجعية (١٩٠٧-١٩١٠) ، اتصرف عن البلشفية ، وكان زعيم فرقة «فبريود» («الى الامام») التي عارضت خط الحزب . في ميدان الفلسفة حاول ان ينشئ نظاماً خاصاً به هو «الاحادية التجريبية» (وهو نوع من الفلسفة الماخية المثالية الذاتية ، مموه بتعابير ماركسية مزيفة) . في حزيران (يونيو) ١٩٠٩ ، طرد بوغدانوف من صفوف الحزب البلشفي . بعد ثورة اكتوبر الاشتراكية (عام ١٩١٧) ، كان احد منظمي وقادة «بروليت كولت» («الثقافة البروليتارية») .

منذ عام ١٩٢٦ ، مدير معهد نقل الدم الذي أسسه . - ص ١١ ، ١٤-١٦ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٧-٥٩ ، ٦٨ ، ٩٦-٩٨ ، ١٠٢ ، ١٠٤ ، ١٠٧ ، ١٢٣ ، ١٣٥-١٤٠ ، ١٤٢-١٥٢ ، ١٥٤ ، ١٦١ ، ١٦٥ ، ١٧٠ ، ١٧٤ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ، ٢١٤-٢١٧ ، ٢٢٧ ، ٢٤٥ ، ٢٥٤ ، ٢٥٧ ، ٢٥٩ ، ٢٦١-٢٦٩ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٣٠٥ ، ٣٠٧ ، ٣١٤-٣١٥ ، ٣١٧ ، ٣٢٠ ، ٣٢٣ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٣٣٤ ، ٣٣٦ ، ٣٥١-٣٥٥ ، ٣٧٥-٣٨٠ ، ٣٨٢-٣٨٦ ، ٣٩١ ، ٣٩٩ ، ٤٠٢ .

بولتسمان (Boltzmann) لودفيغ (١٨٤٤-١٩٠٦) - فيزيائي نمساوي .

منذ عام ١٨٨٥ ، عضو اكااديمية العلوم في فيينا . استاذ في جامعات غراتس ومونيخ وليبزيغ وفيينا . كانت لبحوثه في حقل نظرية الاشعاع وكذلك الدراسات الكلاسيكية في النظرية الحركية للغازات وفي التفسير الاحصائي للمبدأ الثاني في الدينامية الحرارية اهمية كبيرة لتطوير الفيزياء ، اذ انها سددت ضربة الى النظرية المثالية المتعلقة بما يسمى الموت الحراري للكون . ابدى اهتماماً كبيراً بالفلسفة ؛ والقى في السنوات الاخيرة من حياته محاضرات في

فلسفة الطبيعة . وقف في الفلسفة مواقف المادية الميكانيكية ، وانتقد مثالية الماخيين الذاتية و«مذهب الطاقة» عند اوستفالد . - ص ١٠٥ ، ٣٠٧ ، ٣٣٤ - ٣٣٨ ، ٣٤٨ .

بولفاكوف سرغي نيقولايفيتش (١٨٧١ - ١٩٤٤) - اقتصادي برجوازي روسي . فيلسوف مثالي . عمد بولفاكوف الى تحريف مذهب ماركس في المسألة الزراعية ، وفسر املاق الجماهير الشعبية بما يسمى «قانون تناقص خصب التربة» . بعد هزيمة الثورة البرجوازية الديمقراطية (١٩٠٥ - ١٩٠٧) ، كرز بالصوفية الفلسفية ، واشترك في المجموعة المعادية للثورة «فيخي» («المراحل») . في عام ١٩٢٢ ، ابعده الى خارج البلاد بسبب نشاطه المعادي للثورة ؛ وفي الخارج قام بدعاية معادية للاتحاد السوفييتي . - ص ٤٠٨ .

بولين (Bolin) ولهم اندرياس (١٨٢٥ - ١٩٢٤) - مؤرخ وفيلسوف مادي فنلندي . من اتباع لودفيغ فورباخ . استاذ في جامعة هلسنغفورس . مع يودل ، اعاد طبع مجموعة مؤلفات لودفيغ فورباخ . - ص ٢٢٢ .

بويل (Boyle) روبرت (١٦٢٧ - ١٦٩١) - كيمائي وفيزيائي انجليزي . من عام ١٦٨٠ الى عام ١٦٩١ ، رئيس الجمعية الملكية في لندن . صاغ الطريقة الاختبارية في الكيمياء ، واعطى اول تعريف معلل علمياً للعنصر الكيمائي . بالتعاون مع تونلي ، اثبت في عام ١٦٦٢ التبعية العكسية لتغير حجم الهواء من جراء الضغط ، التي اسميت فيما بعد بقانون بويل - ماريوت . ونظرات بويل الفلسفية خليط من عناصر المادية الميكانيكية واللاهوت . - ص ١٥١ .

بوينتينغ (Poynting) جون هنري (١٨٥٢ - ١٩١٤) - فيزيائي انجليزي . استاذ في جامعة برمينغام . - ص ٣١٩ ، ٣٢٥ .

بيبل (Bebel) اوغست (١٨٤٠-١٩١٣) - من مؤسسي وابرز قادة الاشتراكية-الديموقراطية الالمانية والحركة العمالية الالمانية . عامل خراط من حيث المهنة . وقف بنشاط ضد التحريفية والاصلاحية في الحركة العمالية الالمانية . - ص ٢٤٦ .

بيخر (Becher) ايربخ (١٨٨٢-١٩٢٩) - فيلسوف الماني . استاذ في جامعة مونستر ، ثم في جامعة مونيخ . في اطروحة شهادة الدكتوراه «Philosophische Voraussetzungen der exakten Naturwissenschaften» («المقدمات الفلسفية للعلوم الطبيعية الدقيقة» . عام ١٩٠٧) وفي غيرها من اعماله الاولى ، انطلق ، على حد قول لينين ، من مواقع قريبة من «المادية «الخجلة» وغير المفكر فيها الى النهاية» ، وانتقد نظرات ماخ واوستفالد المثالية الذاتية . فيما بعد ، انتقل الى المواقع المثالية . - ص ٢٢٢ ، ٣٨٨ ، ٣٣٩ .

بيدرمان (Biedermann) الويز ايمانويسل (١٨١٩-١٨٨٥) - قس بروتستانتي . استاذ اللاهوت في جامعة زوريخ . تأثر بفلسفة الدين الهيجلية ، فحاول ان يعلن بروحها الدين المسيحي ، معتبراً اياه صلة بين «الروح اللامتناهية» - الله - و«الروح المتناهية» - الانسان . - ص ٢٤٦ .

بيرسون (Pearson) كارل (١٨٥٧-١٩٣٦) - عالم انجليزي في الرياضيات والبيولوجيا . فيلسوف مثالي . استاذ في جامعة لندن . في نفس الوقت مع سينسر ، حاول ان يضيف على الوضعية شكلاً مبسطاً ؛ انكر الطابع الموضوعي لقوانين الطبيعة . ناضل ضد العقيدة المادية . - ص ٥٠ ، ٥١ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠٣ ، ١٠٥ ، ١٦٤ ، ١٦٦ ، ١٨٣ ، ٢١٠-٢١٢ ، ٢٣٤ ، ٢٣٩ ، ٢٤٧ ، ٢٥٩ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣١٢ ، ٣٢٥ ، ٣٣١ ، ٣٥٣ ، ٣٥٦ ، ٣٩٨ .

بيرون (حوالي ٣٦٥-٢٧٥ قبل المسيح) - فيلسوف اغريقي . مؤسس

الريبية القديمة . انكر بيرتون معرفة الحقيقة الموضوعية ، ودعا الى الانصراف عن الحياة العملية والى اللامبالاة التامة بها . - ص ١٥٨ ، ٢٣٤ .

بيسلي (Beesly) ادوارد سبنسر (١٨٢١ - ١٩١٥) - مؤرخ وفيلسوف وضعي انجليزي . استاذ التاريخ في جامعة لندن . روج بافكار اوغست كونت في انجلترا باسلوب مبسط ، وترجم مؤلفاته الى اللغة الانجليزية . منذ عام ١٨٩٣ ، حرر مجلة «Positivist Review» («المجلة الوضعية») . - ص ٣٩٢ .

بيسمارك (Bismarck) اوتو ادوارد ليوبولد (١٨١٥ - ١٨٩٨) - رجل دولة وديبلوماسي في بروسيا والمانيا . اول مستشار للامبراطورية الالمانية (١٨٧١ - ١٨٩٠) .

لم يستطع بيسمارك خلق الحركة العمالية بواسطة القانون الاستثنائي ضد الاشتراكيين الذي سنه (١٨٧٨ - ١٨٩٠) ، فتقدم ببرنامج ديماغوجي للتشريع الاجتماعي وطبق قوانين بشأن الضمان الالزامي لبعض فئات العمال . في آذار (مارس) ١٨٩٠ ، اقبل من منصبه . - ص ١٥٧ .

بيلا (Pellat) هنري (١٨٥٠ - ١٩٠٩) - فيزيائي فرنسي . استاذ . اشتهر ببحوثه في ميدان الكهرباء . - ص ٣٠٣ .

بيلون (Pillon) فرنسوا (١٨٣٠ - ١٩١٤) - فيلسوف كانطي جديد فرنسي . تلميذ ابرز ممثلي الكانطية الجديدة في فرنسا ، نصير الانتقادية الجديدة ، رينوفيه . منذ عام ١٨٩٠ حرر مجلة «L'Année Philosophique» («الحوالية الفلسفية») ، ونشر فيها بضع مقالات . - ص ٣٠ ، ٣١ ، ٢٤٥ ، ٢٦٨ .

تسيهن (Ziehen) تيودور (١٨٦٢ - ١٩٥٠) - فيلسوف مثالي الماني . فيزيولوجي واختصاصي في الامراض العقلية . استاذ الامراض

العقلية في جامعة يينا ثم في جامعات اوترريخت وهاله وبرلين . نصير
المذهب النقدي التجريبي والفلسفة الكمونية . - ص ٢٥٨ ، ٢٥٩ ،
٢٦٨ .

تشيرنوف فكتور ميخايلوفيتش (١٨٧٦ - ١٩٥٢) - احد زعماء ونظريي
حزب البرجوازية الصغيرة ، حزب الاشتراكيين-الثوريين . في اعماله
النظرية تجتمع المثالية الذاتية والاختيارية مع التحريفية ومسع
افكار الشعبين الطوبوية .

بعد ثورة اكتوبر الاشتراكية (عام ١٩١٧) ، احد منظمي
الفتن المعادية للسوفييت . في عام ١٩٢٠ ، هاجر . - ص ١٥ ،
١٠٧ ، ١١٢ ، ١١٤ ، ١٢٥ ، ١٤٤ ، ١٥٠ ، ١٥٣ ، ٢١٤ ،
٢٣٦ ، ٢٤٥ ، ٢٤٩ ، ٣٦٦ .

تشيرنيشيفسكي نيقولاي غريلوفيتش (١٨٢٨ - ١٨٨٩) - ديموقراطي
ثوري روسي . اشتراكي-طوبوي . فيلسوف مادي . كاتب وناقد
ادبي .

كان تشيرنيشيفسكي زعيم الحركة الديموقراطية الثورية في
الستينيات في روسيا وملهمها الفكري . (راجع تقدير لينين له
في هذا الكتاب ، ص ٤٢٠ - ٤٢١) . - ص ٤١٨ - ٤٢١ .

تومسون (Thomson) جوزف جون (١٨٥٦ - ١٩٤٠) - فيزيائي
انجليزي . استاذ في مدرسة ترينيتي . اشتهر باعماله في نظرية
الزوابع ، وفي تطبيق المبادئ العامة للميكانيك على الظواهر
الفيزيائية والفيزيائية الكيماوية . واشتهر على الاخص ببحوثه في
ميدان الكهرباء والمغناطيسية . اكتشف الالكترون (١٨٩٧) ، ووضع
موديلاً من اوائل موديلات الذرة (١٩٠٣) . من حيث نظراته
الفلسفية - مادي عفوي . - ص ٣٠٣ .

تومسون (Thomson) وليام ، اللورد كلفين (١٨٢٤ - ١٩٠٧) - فيزيائي
الجليزي . استاذ في جامعة غلاسكو . ترمذي اعماله في ميدان

الدينامية الحرارية وميدان الكهرباء وميدان المغناطيسية وغيرها من الميادين اهمية كبيرة . وهو صاحب جملة من الاختراعات والتحسينات للاجهزة الفيزيائية (البوصلة ، المقياس الكلفاني ، وغيرهما) .

من حيث نظراته الفلسفية كان مادياً ميكانيكياً . -
ص ٢٩٩ ، ٣٠٧ .

جوريس (Jaurés) جان (١٨٥٩ - ١٩١٤) - شخصية بارزة في الحركة الاشتراكية الفرنسية والعالمية . قائد الجناح الايمن ، الاصلاحى في الحزب الاشتراكي الفرنسي . خطيب بارز . مؤلف عدد من البحوث التاريخية . مثالي - اختياري من حيث نظراته الفلسفية . - ص ٢٣٤ .

جول (Joule) جيمس بريسكوت (١٨١٨ - ١٨٨٩) - فيزيائي انجليزي . اهتم ببحث الكهرمغناطيسية والحرارة ، واثبت المعادل الميكانيكي للحرارة . - ص ٣٥٦ .

جيمس (James) وليام (١٨٤٢ - ١٩١٠) - فيلسوف وعالم نفساني اميركي . مثالي ذاتي . احد مؤسسي البراغماتية . كان قريباً من المذهب النقدي التجريبي في تفسير جملة من المفاهيم الفلسفية (الادراك ، التجربة ، الحقيقة ، وما الى ذلك) . - ص ٣٩٨ .

خولسون اوريست دانيلوفيتش (١٨٥٢ - ١٩٣٤) - فيزيائي روسي . منذ عام ١٨٩١ ، استاذ في جامعة بطرسبورغ . تتسم اعماله في ميدان الكهترتكنيك باهمية كبيرة . في الفلسفة مال الى المثالية . - ص ٤٠٧ .

داروين (Darwin) شارلز روبرت (١٨٠٩ - ١٨٨٢) - عالم انجليزي . مؤسس البيولوجيا المادية ، المذهب التطوري لأجل الانواع . بالاستناد الى مادة ضخمة جداً من وقائع العلوم الطبيعية ، علل داروين للمرة الاولى نظرية تطور الطبيعة الحية ، واثبت ان تطور

العالم العضوي جرى من اشكال اقل تعقداً الى اشكال اكثر تعقداً ، وان ظهور الاشكال الجديدة ، مثل زوال الاشكال القديمة ، هو نتيجة تطور طبيعي تاريخي . اما الفكرة الموجهة الاساسية في نظرية داروين ، فهي مذهبه حول نشوء الانواع عن طريق الانتخاب الطبيعي والاصطناعي ، اكد داروين ان العضويات تتميز بالتغير والتوارث ، وان التغيرات التي تكون نافعة للحيوان او النبات في نضاله من اجل البقاء ، تبقى وتترسخ وتقوى ، وتنتقل بالوراثة وتؤدي الى ظهور اشكال حيوانية ونباتية جديدة .

اعتبر ماركس وانجلس مذهب داروين احد الاكتشافات العظيمة الثلاثة في العلوم الطبيعية في القرن التاسع عشر ، ورأياً فيه سنداً طبيعياً علمياً لنظراتهما ؛ ولكنهما اشارا في الوقت نفسه الى الجوانب الضعيفة في الداروينية وخاصة الى محاولتها الخاطئة لتفسير النضال من اجل البقاء في الطبيعة بواسطة النظرية المالتوسية الزائفة بصدد فيض السكان . - ص ٢٨٩ ، ٢٨٣ .

دالامبر (D'Alembert) جان ليرون (١٧١٧-١٧٨٣) - عالم رياضي وفيلسوف منور فرنسي . منذ عام ١٧٤١ ، عضو اكااديمية العلوم في باريس . منذ عام ١٧٥١ ، عمل مع ديدرو على وضع وتحرير «Encyclopédie ou Dictionnaire raisonné des sciences, des arts et des métiers» (الموسوعة او القاموس القياسي في العلوم والفنون والحرف) . في حقل الفلسفة ، كان دالامبر مادياً متارجحاً . اعترف بوجود الاشياء المادية الموضوعي ، وشك في امكانية معرفة كنهها ، وفسر خاصة الادراك بوجود جوهر خاص غير مادي في الانسان . - ص ٣٢ - ٣٤ .

داوغه بافل غيورغيفيتش (١٨٦٩-١٩٤٦) - احد مؤسسي حزب العمال الاشتراكي-الديموقراطي اللاتفي . مؤرخ . كاتب اجتماعي . دكتور في الطب . من عام ١٩٠٧ الى عام ١٩١٢ ، انصرف الى النشاط الطباعي . اصدرت دار داوغه للطبع والنشر باللغة الروسية مؤلفات

يوسف ديتزغن الاساسية . لم يلاحظ داوغه في بحوثه الفلسفية من تلك المرحلة جوانب الضعف في فلسفة ديتزغن ، وحاول ان يعارض المادية الديالكتيكية بنظرات ديتزغن . - ص ٢٨٨ - ٢٩٠ .

دوهرينغ (Dühring) أوجني (١٨٢٣ - ١٩٢١) - فيلسوف واقتصادي

الماني . ايدولوجي برجوازي صغير . كانت نظرات دوهرينغ الفلسفية عبارة عن خليط اختياري من الوضعية ومن المادية الميتافيزيائية ومن المثالية . لقيت نظرات دوهرينغ التأييد بين قسم من الاشتراكية-الديموقراطية الالمانية ، ولكن انجلس انتقدها في كتابه «ضد دوهرينغ» . السيد اوجني دوهرينغ يحدث انقلاباً في العلم . انتقد لينين غير مرة مفاهيم دوهرينغ الاختيارية . - ص ٣٨ ، ٨٠ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٩٨ ، ٢٠١ - ٢٠٤ ، ٢١٤ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٨٠ - ٢٨٣ ، ٣٨٤ ، ٣٨٦ - ٣٨٩ ، ٣٩٣ ، ٣٩٤ .

دوهيم (Duhem) بيار موريس ماري (١٨٦١ - ١٩١٦) - فيزيائي نظري

فرنسي . صاحب عدد من البحوث في التاريخ والفيزياء وفي نظرية المعرفة . ماخي . - ص ٥١ ، ٢٩٩ ، ٣٢٥ ، ٣٥٣ ، ٣٦١ ، ٣٦٢ ، ٣٩٨ .

ديتزغن (Dietzgen) يفغيني (١٨٦٢ - ١٩٣٠) - ابن يوسف ديتزغن

وناشر مؤلفاته . سمى وجهة نظره في الفلسفة «بالاحادية الطبيعية» ، وزعم انها توفق بين المادية والمثالية . اضفى صفة الاطلاق على جوانب الضعف في نظرات يوسف ديتزغن الفلسفية ، واعتبر مسن الضروري «اكمال» الماركسية بها ، وخلص الى رفض وانكار المادية والديالكتيك على السواء . - ص ١٣٣ ، ٢٨٨ - ٢٩٠ .

ديتزغن (Dietzgen) يوسف (١٨٢٨ - ١٨٨٨) - عامل دباغ الماني .

اشتراكي-ديموقراطي . فيلسوف توصل من تلقاء نفسه الى المادية الديالكتيكية . لاحظ ماركس ان ديتزغن ، رغم بعض الاخطاء في فهم المادية الديالكتيكية ، قد اعرّب عن وكثير من الافكار الممتازة

والجديرة بالاعجاب بوصفها نتاج تفكير مستقل من عامل» - ص ١٥ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣٣ - ١٣٥ ، ١٥٢ ، ١٥٦ ، ١٧٩ ، ١٨٤ ، ١٩٩ ، ٢٤٣ ، ٢٧٨ - ٢٩٠ ، ٣٠٤ ، ٣١٠ ، ٣١١ ، ٣٣٠ ، ٣٨٥ ، ٣٩٥ - ٣٩٨ ، ٤٠١ ، ٤٠٢ ، ٤٢٦ .

ديدرو (Diderot) ديني (١٧١٣ - ١٧٨٤) - فيلسوف مادي وملحد فرنسي . كاتب ونظري في ميدان الفن . بمبادرته واشرافه ، صدرت «Encyclopédie ou Dictionnaire raisonné des sciences, des arts et des métiers», 1751-1780. (الموسوعة او القاموس القياسي في العلوم والفنون والحرف) . (١٧٥١ - ١٧٨٠) . كان ديدرو رئيس الموسوعيين ؛ وقد جمع حوله المفكرين الفرنسيين الطليعيين الذين اضطلوا بالدور الحاسم في الاعداد الايديولوجي للثورة البرجوازية الفرنسية في اواخر القرن الثامن عشر . كان ديدرو ممثل المادية الميتافيزائية ، ولكنه اعرب في مؤلفاته عن عدد من الافكار الديالكتيكية العميقة . انتقد المثالية ، والاعرفانية ، والاخلاق الاقطاعية الارستقراطية انتقاداً حاداً ، وناضل من اجل الواقعية في الادب والفن . - ص ٣١ - ٣٥ ، ٤٣ ، ٤٥ ، ١٢٥ ، ١٤١ .

ديكارت (Descartes) دينيه (باللاتينية Cartesius - كارتيزيوس) (١٥٩٦ - ١٦٥٠) - فيلسوف اثيني فرنسي . عالم رياضيات وطبيعيات . - ص ٣٣ ، ٤٢٦ .

ديكسون (Dixon) ادوارد غريفرس - عالم انجليزي . مؤلف كتاب «An Essay on Reasoning», 1891 (مقالة في المحاكمة) . (١٨٩١) وكتاب «Foundations of Geometry» 1891 (اسس الهندسة) . (١٨٩١) - ص ١٠٤ .

ديلاكروا (Delacroix) هنري (١٨٧٣ - ١٩٣٧) - عالم نفساني فرنسي . مثالي وصوفي . من اتباع حدسية برغسون . - ص ٢٣٩ .

ديموقريطس من ابيديرا (حوالي ٤٦٠ - ٣٧٠ قبل المسيح) - فيلسوف اغريقي مادي . احد مؤسسي النظرية الذرية . يقول مذهبه ان العالم يتألف من ذرات متجانسة نوعياً ولا تتغير ومن الفراغ الذي تتحرك فيه ؛ ويفسر تعدد الاشياء وتنوعها بنظام ووضع الذرات المتعددة والمتنوعة من حيث الشكل والحجم . اعتبر ديموقريطس ان الكون لامتناه ، وانكر الصدفة ، لاعتقاده ان كل شيء يخضع لضرورة صارمة . كان لنظرات ديموقريطس الفلسفية تأثير بالغ في تطور العقيدة المادية . - ص ١٤٥ ، ٤١٢ ، ٤١٣ ، ٤٢٦ .

دينر-دينشس (Diner-Dénes) يوجف (دينه-دينس يوسف) (١٨٥٧ - ١٩٣٧) - كاتب اجتماعي مجري . عالم اجتماع وباحث فن . اشتراكي-ديموقراطي . - ص ٢٩١ - ٢٩٢ .

رابوبورت شارل (من مواليد عام ١٨٦٥) - اشتراكي فرنسي . عمد الى تحريف الفلسفة الماركسيية ، فانتقده لافارغ على ذلك انتقاداً حاداً . مؤلف عدد من البحوث في الفلسفة وعلم الاجتماع . - ص ٢٣٤ .

راو (Rau) البريخت (١٨٤٣ - ١٩٢٠) - فيلسوف ألماني . من اتباع لودفيغ فورباخ . - ص ٢٣٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٤١٨ .

رايل (Ryle) روجينالد جون (١٨٥٤ - ١٩٢٢) - عالم طبيعيات انجليزي . نشر في مجلة «Natural Science» («العلوم الطبيعية») ، العدد ٦ ، عام ١٨٩٢ ، مقالة : «Professor Lloyd Morgan on the Grammar of Science» («البروفسور لويد مورغان حول «غراما طبق العلم») ، وفيها دافع عن نظرات بيرسون المثالية . - ص ٢١١ .

رحمتوف ن . (بلوم اوسكار ف .) (من مواليد عام ١٨٨٦) - اشتراكي-ديموقراطي روسي . من انصار الاتجاه الانتهازي في ح ع ادب

(المنشقية) . فيما بعد ، استفزازي .

قام بنشاط ادبي ، وكتب في مواضيع فلسفية . - ص ٢٦٨ .

رمسي (Ramsay) وليام (١٨٥٢ - ١٩١٦) - عالم انجليزي في الكيمياء والفيزياء . منذ عام ١٨٨٠ استاذ في جامعة بريستول ؛ منذ عام ١٨٨٧ استاذ في جامعة لندن . اشتهر ببحوثه في ميدان الكيمياء العضوية والفيزيائية . اكتشف غاز الارغون (مع ريل) ، وغاز الهيليوم ، وغاز الكريبتون (مع ترافرس) ، وغاز الكسينون وغاز النيون اي الغازات التي تشكل ما يسمى مجموعة الصفرة في جدول مندليف الدوري . بصورة مستقلة عن مندليف ، وبعده بمدة طويلة ، اقترح رمسي القيام بتحويل الفحم الحجري الى غاز في جوف الارض بغية استخدام الغاز الناجم في الاغراض الصناعية . - ص ٣٦٤ .

رمكه (Rehmke) يوهانس (١٨٤٨ - ١٩٣٠) - فيلسوف مثالي الماني . من ممثلي المدرسة الكمونية . منذ عام ١٨٨٥ ، استاذ في جامعة غريفسفالد . - ص ٧٢ ، ٢٠٧ ، ٢٣٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٣ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٦٥ ، ٣٢٣ ، ٣٥٥ ، ٤٠٦ ، ٤٠٧ .

روبسبير (Robespierre) مكسيهيليان (١٧٥٨ - ١٧٩٤) - قائد بارز في الثورة البرجوازية الفرنسية في اواخر القرن الثامن عشر . زعيم اليقاقة . رئيس الحكومة الثورية (١٧٩٣ - ١٧٩٤) . - ص ٢٣٣ .

رودنف فلاديمير الكسندروفيتش - راجع بازاروف ف .

روديه (Rodier) جورج (١٨٤٨ - ١٩١٠) - استاذ تاريخ الفلسفة القديمة في باريس . - ص ٢٦٠ .

دي (Rey) آبل (١٨٧٣ - ١٩٤٠) - فيلسوف وضعي فرنسي . استاذ

في جامعة السوربون . في مسائل العلوم الطبيعية كان مادياً عفويًا متذبذباً ؛ في حقل نظرية المعرفة وقف مواقف الماخية . - ص ٢٩٥ - ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ ، ٣٠٧ ، ٣٠٩ ، ٣٢٣ ، ٣٤١ - ٣٤٦ ، ٣٤٨ ، ٣٤٩ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧ ، ٣٦٠ ، ٣٦٣ .

ريغي (Righi) اوغوستو (١٨٥٠ - ١٩٢١) - فيزيائي ايطالي . استاذ في المعهد التكنيكي في بولونيا (ايطاليا) . اشتهر باعماله في ميدان الكهرباء والمغناطيسية . من حيث نظراته الفلسفية - مادي عفوي . - ص ٣٠١ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ .

ريكاردو (Ricardo) دافيد (١٧٧٢ - ١٨٢٣) - اقتصادي انجليزي . من اكبر ممثلي الاقتصاد السياسي البرجوازي الكلاسيكي . - ص ٣٦٨ .

ريكر (Ricker) ارتور وليام (١٨٤٨ - ١٩١٥) - فيزيائي انجليزي . من عام ١٩٠١ الى عام ١٩٠٨ ، عميد جامعة لندن . عمل بصورة رئيسية في ميدان الجيوفيزياء ونظرية الكهرباء والمغناطيسية . في الفلسفة - مادي عفوي . - ص ٣١٩ ، ٣٢١ ، ٣٢٢ ، ٣٢٤ - ٣٢٦ .

ريل (Riehl) الويز (١٨٤٤ - ١٩٢٤) - فيلسوف كانطي جديد الماني . - ص ١٠٩ ، ١٦٨ ، ٢٣٨ ، ٢٤٣ .

رينوفيه (Renouvier) شارل (١٨١٥ - ١٩٠٣) - فيلسوف اختياري فرنسي . رئيس مدرسة الانتقادين الجدد الفلسفية . رياضي من حيث التحصيل . منذ عام ١٨٩٠ ، اشترك بنشاط في مجلة «L'Année Philosophique» (الحوالية الفلسفية) . (راجع وصف لينين لفلسفة رينوفيه في هذا الكتاب ، ص ٢٤٤ - ٢٤٥) . - ص ٣٠ ، ٣١ ، ٣٣٩ ، ٢٤٤ - ٢٤٧ ، ٢٦٨ .

زيهان (Zeeman) بيتر (١٨٦٥ - ١٩٤٣) - فيزيائي هولندي . في عام ١٨٩٦ ، اكتشف ظاهرة انشقاق الخطوط الطيفية بتأثير الحقل

المغناطيسي الخارجي (وهي ما يسمى بفعل او بظاهرة زيمان) ، الامر الذي اضطلع بدور هام في تحليل وتطوير النظرية الالكترونية . - ص ٣٣٧ .

سبنسر (Spencer) هربرت (١٨٢٠ - ١٩٠٣) - فيلسوف انجليزي . عالم نفساني واجتماعي . ممثل بارز للوضعية . احد مؤسسي ما يسمى بنظرية المجتمع العضوية . سعيا لتبرير اللامساواة الاجتماعية ، شبه المجتمع البشري بالعضوية الحيوانية ونقل المذهب البيولوجي عن الصراع من اجل البقاء الى تاريخ البشر . - ص ٢٣٧ ، ٢٦٠ ، ٣٨١ .

سبينوزا (Spinoza) باروخ (بينديكت) (١٦٣٢ - ١٦٧٧) - فيلسوف مادي هولندي . ملحد . - ص ٤٢٦ .

ستالو (Stallo) جون برنارد (١٨٢٣ - ١٩٠٠) - فيلسوف وفيزيائي اميركي . في بداية نشاطه كان من انصار المثالية الهغلية . فيما بعد ، دعم المذهب النقدي التجريبي . - ص ٣٦١ ، ٣٦٢ .

ستروفه بيوتر برنغاردوفيتش (١٨٧٠ - ١٩٤٤) - اقتصادي وكاتب اجتماعي برجوازي روسي . احد زعماء حزب الكاديت البرجوازي . بعد ثورة اكتوبر الاشتراكية (عام ١٩١٧) ، عدو السلطة السوفييتية . مهاجر ابيض . - ص ٧٥ ، ٢٤٥ ، ٤٠٢ .

ستوليبن بيوتر اركادييفيتش (١٨٦٢ - ١٩١١) - رجل دولة في روسيا القيصرية . ملاك عقاري كبير . من عام ١٩٠٦ الى عام ١٩١١ ، رئيس مجلس الوزراء ووزير الداخلية في روسيا . باسمه ترتبط مرحلة الردة الرجعية السياسية الفائقة القساوة التي رافقها اللجوء على نطاق واسع الى الاعداء بغية قمع الحركة الثورية («الردة الرجعية الستوليبينية» - ١٩٠٧ - ١٩١٠) . - ص ٢٥٥ .

سقراط (حوالي ٤٦٩ - حوالي ٣٩٩ قبل المسيح) - فيلسوف مثالي اغريقي . - ص ٩٠ .

سكستوس امبيريقوس (Sextus Empiricus) (القرن الثاني قبل المسيح) -
فيلسوف وطبيب اغريقي . ممثل بارز للريبية القديمة . - ص ١٥٨ .

سميث (Smith) **نورمان كيمب** (١٨٧٢ - ١٩٥٨) - فيلسوف مثالي
انجليزي . قريب من «الواقعية الجديدة» . - ص ٧٣ ، ٧٥ ، ٩٩ ،
. ١٦٩ .

سنايدر (Snyder) **كارل** (من مواليد عام ١٨٦٩) - اقتصادي وكاتب
اميركي . مؤلف ابحاث مبسطة في العلوم الطبيعية . - ص ٤١٢ .

سوريل (Sorel) **جورج** (١٨٤٧ - ١٩٢٢) - عالم اجتماع وفيلسوف
فرنسي . نظري الفوضوية-السنديكالية . في الفلسفة - اختياري .
بتأثير برودون ونيثشه وبرغسون ، حاول ان يجمع بين الماركسية
والبرودونية ودافع عن اللاعقلانية (irrationalisme) والارادية
(المذهب الارادي Volontarisme) . - ص ٣٤١ .

سوفوروف س . ا . (١٨٦٩ - ١٩١٨) - اشتراكي-ديموقراطي روسي .
اديب واحصائي . بعد هزيمة ثورة ١٩٠٥ - ١٩٠٧ ، التحق بفريق
المثقفين الحزبيين-الماخيين الذين شنوا حملة على فلسفة الماركسية .
نشر في مجموعة «دراسات في فلسفة الماركسية» (١٩٠٨) مقالة
«اسس الفلسفة الاجتماعية» . انتقد لينين هذه المقالة انتقاداً
ماحقاً . - ص ١١ ، ٣٨٥ - ٣٩٠ .

سولوفيوف فلاديمير سرغيفيتش (١٨٥٣ - ١٩٠٠) - فيلسوف روسي .
مثالي موضوعي . لاعقلاني وصوفي . - ص ٣٥٠ .

سينيور (Senior) **ناساو وليام** (١٧٩٠ - ١٨٦٤) - اقتصادي مبتدل
انجليزي . دافع عن مصالح اصحاب المصانع واشترك بنشاط في
تحريضهم ضد تقصير يوم العمل في بريطانيا (الثلاثينيات من القرن
التاسع عشر) . - ص ١٥٦ .

شاتوبريان (Chateaubriand) فرانسوا رنيه (١٧٦٨-١٨٤٨) - كاتب
وسياسي فرنسي . دافع عن الكاثوليكية بوصفها الاساس الايديولوجي
للنظام والاخلاق . - ص ٢٢٣ .

شتاركة (Starcke) كارل نيقولاوي (١٨٥٨-١٩٢٦) - فيلسوف وعالم
اجتماع دانماركي . استاذ في جامعة كوبنهاغ . مؤلف كتاب
«Ludwig Feuerbach», 1885 (لودفيغ فورباخ ، ١٨٨٥) الذي
حلله وانتقده انجلس في كتابه «لودفيغ فورباخ ونهاية الفلسفة
الالمانية الكلاسيكية» . - ص ٢٣٧ ، ٢٣٨ .

شفيغلر (Schwegler) البرت (١٨١٩-١٨٥٧) - لاهوتي الماني .
فيلسوف ومؤرخ ولغوي . مؤلف كتاب «Geschichte der Philosophie im
Umriß» (عرض لتاريخ الفلسفة ، عام ١٨٤٧) . - ص
١٤٦ ، ١٤٧ ، ٤٦٤ .

شميدت (Schmidt) هنريخ (١٨٧٤-١٩٣٥) - بيولوجي الماني . تلميذ
وتابع ارنست هيكل . مدير ارشيفه في بينا . اشترك بنشاط في
نضال هيكل ضد المثالية والاكليريكية . دافع عنه دون حملات
الفلاسفة واللاهوتيين الرجعيين ؛ ولهذا الغرض كتب عدداً من البحوث ،
منها «Der Kampf um die «Welträtsel» und die Kritik». 1900
(الصراع بسبب «الالغاز العالمية» والنقد . عام ١٩٠٠) . -
ص ٤٠٧ .

شوبرت-زولدون (Schubert-Soldern) ريخارد (١٨٥٢-١٩٣٥) -
استاذ الفلسفة في جامعة ليبزيغ . ممثل ما يسمى بالفلسفة الكمونية .
اشترك في اصدار المجلة الرجعية الالمانية «Zeitschrift für imma-
nente Philosophie» (مجلة الفلسفة الكمونية) . - ص ٧٢ ، ٨٠ ،
٩٢ ، ٢٠٧ ، ٢٤١ ، ٢٤٣ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ،
٢٦٨ ، ٢٨٩ ، ٣٧٧-٣٨٩ ، ٤٠٢ ، ٤٠٦ .

شوبنهاور (Schopenhauer) ارتور (١٧٨٨-١٨٦٠) - فيلسوف الماني .
 مثالي ذاتي . ان العالم الخارجي ، برأي شوبنهاور ، انما هو عالم
 تصورات ، وظاهرة ادراك ناجمة عن الجوهر الداخلي للذات ؛
 وهو مستحيل على المعرفة . انكر شوبنهاور فكرة التقدم الاجتماعي ،
 وعارض حق الجماهير الشعبية في النضال من اجل تحسين ظروف
 معيشتها . في عام ١٨١٣ صاغ الموضوعات الاساسية لفلسفته في
 اطروحة الدكتوراه ، ثم عرضها في مؤلفه الرئيسي «Die Welt als
 Wille und Vorstellung», 1819 (العالم بوصفه ارادة وتصورا) ،
 عام ١٨١٩ .

كانت الارادية واللاعقلانية في فلسفة شوبنهاور موضع استغلال
 واسع في عهد الامبريالية من قبل الفلاسفة الرجعيين (ليتشه ،
 برغسون ، جيمس ، كروتشه ، وغيرهم) وكانت احد مصادر
 ايدولوجية الفاشية الالمانية . - ص ٢٢١ ، ٢٣٨ ، ٢٦٥ .

شوبه (Schuppe) ولهم (١٨٣٦-١٩١٣) - فيلسوف الماني . مثالي
 ذاتي . رئيس ما يسمى بالمدرسة الكمونية . استاذ في جامعة
 غريفسفالد . يرى شوبه ان الوجود مائل للادراك الذي يختلف
 «انفا»ت هي انواعه . ادت نظرة شوبه هذه حتما الى السوليبسيسم .
 عاون شوبه في المجلة الالمانية الرجعية «Zeitschrift für
 immanente Philosophie» (مجلة الفلسفة الكمونية) . - ص ٧٢ ،
 ٧٥ ، ٧٧ ، ٨١ ، ٩٢ ، ١٢٤ ، ٢٠٧ ، ٢٤١ ، ٢٤٣ ، ٢٤٦ -
 ٢٥٠ ، ٢٥٣ ، ٢٥٩ ، ٢٦٥ ، ٢٦٧ ، ٢٨٢ ، ٣٧٧ ، ٤٠٢ ،
 ٤٠٤ .

شولتسه (Schulze) غوتليب ارنست (١٧٦١-١٨٣٣) - فيلسوف مثالي
 الماني . تابع دافيد هيوم . استاذ في جامعة هلمشتيدت ثم في جامعة
 غوتنغن . حاول ان يبعث ويحدث الريبة القديمة . اشتهر في تاريخ
 الفلسفة باسم شولتسه-اينيزيدم ، وذلك نسبة الى الفيلسوف
 الاغريقي القديم الربي اينيزيدم المقدم في مؤلف شولتسه الفلسفي
 الاساسي . - ص ١٥٨ ، ١٥٩ ، ٢١٣ ، ٢٢٤ - ٢٢٦ ، ٢٢٩ .

شيشكين ن . اي (١٨٤٠-١٩٠٦) - عالم روسي في الرياضيات والفيزياء .
عضو جمعية علم النفس في موسكو . معاون في مجلة «مسائل الفلسفة
وعلم النفس» . دافع في مقالاته عن افكار المذهب النقدي التجريبي
في العلوم الطبيعية . - ص ٣٤٩-٣٥٢ .

شيلينغ (Schelling) فريدريخ ولهلم يوسف (١٧٧٥-١٨٥٤) - ممثل
الفلسفة الالمانية الكلاسيكية في اواخر القرن الثامن عشر واوائل
القرن التاسع عشر . في البدء برز كنصير لفلسفة فيخته ، ثم وضع
«فلسفة التماثل» المثالية الموضوعية ، عارضاً فكرة التماثل المطلق
بين الوجود والتفكير ، بين المادة والروح ، بين الموضوع والذات . -
ص ١٠٣ ، ٣٩٢ ، ٤١٩ .

غاسندي (Gassendi) بيار (١٥٩٢-١٦٥٥) - فيلسوف مادي فرنسي .
اشتهر كذلك ببحوثه في ميادين علم الفلك والرياضيات والميكانيك
وتاريخ العلم . - ص ٤٢٦ .

غراسمان (Grassmann) غرمن (١٨٠٩-١٨٧٧) - عالم رياضي وفيزيائي
ولغوي الماني . في عام ١٨٤٤ اعطى في مؤلفه
«Die Ausdehnungslehre» («مذهب المقادير المطولة») البنيان
المنظوم الاول لمذهب المكان الاقليدسي المتعدد المقاييس . في ميدان
الفيزياء - صاحب مؤلفات في السمعيات ومزج الالوان ،
والكهرمغناطيسية . في نظراته الفلسفية ، كان قريباً من المادية . -
ص ١٩٥ ، ١٩٦ .

غرون (Grün) كارل (١٨١٧-١٨٨٧) - كاتب اجتماعي برجوازي صغير
الماني . في اواسط الاربعينيات - احد ممثلي «الاشتراكية الصحيحة»
الرئيسيين . كانت «الاشتراكية الصحيحة» كما تصورها غرون عبارة
عن مذهب طوبوي سيتحقق بموجبه في المجتمع المقبل المبني بواسطة
التعليم والحب للقريب ، والخ . ، جوهر الانسان «الحقيقي» ،
وتتحقق «الانسانية الصحيحة» . جمع غرون الجوانب المجردة ،

المثالية من فلسفة لودفيغ فورباخ مع افكار برودون الفوضوية .
انتقد ماركس وانجلس «الاشتراكية الصحيحة» باعتبارها «تعبيراً
عن مصالح رجعية هي مصالح البرجوازية الصغيرة الالمانية» . - ص
٩٠ ، ٢٣٢ ، ٣٩٢ .

غلفوند او . اي . (١٨٦٣-١٩٤٢) - احد مؤلفي المجموعة التحريفية
«دراسات في فلسفة الماركسية» (عام ١٩٠٦) . طبيب من حيث
المهنة . قال لينين عن آراء غلفوند الفلسفية انها «خليط من المادية
واللاعرفانية» (راجع هذا الكتاب ، ص ١٧٩) . - ص ١١ ، ١٧٩ ،
١٨٠ ، ٢٨٣ ، ٣٨٥ .

غونتر (Günther) زينغوند (١٨٤٨-١٩٢٣) - عالم رياضي ألماني .
جغرافي . مؤرخ للعلوم الطبيعية . - ص ٣٣٥ .

غيورغيفسكي ف . - راجع يفلوغي .

فاراداي (Faraday) مايكل (١٧٩١-١٨٦٧) - فيزيائي وكيميائي
انجليزي . مؤسس مذهب الحقل الكهرمغناطيسي . - ص ٣٤٧ .

فالس من ميليتا (حوالي ٦٢٤ - حوالي ٥٤٧ قبل المسيح) - فيلسوف
اغريقي . مؤسس مدرسة ميليتا المادية العفوية . - ص ٣٢٩ .

فالنتينوف نيقولاي (فولسكي نيقولاي فلاديسلافوفيتش) (١٨٧٩-

١٩٦٤) - اشتراكي-ديموقراطي روسي . صحفي . فيلسوف ماركسي . منذ
عام ١٩٠٤ ، التحق بالمناشفة (اي بالتيار الانتهازي في ح ع ا د ر) .
عاون في عدد من المطبوعات المنشفية والبرجوازية .

في سنوات الردة الرجعية (١٩٠٧-١٩١٠) ، قطع نهائياً كل
صلة له بالماركسية وعمد الى تحريف الفلسفة الماركسية ، وسعى
الى «اكمالها» بنظرات ماخ وافيناريوس المثالية الذاتية . منذ عام
١٩٣٠ ، مهاجر ابيض . - ص ١١ ، ١٥ ، ٣٥ ، ٩١ ، ١٠٧ ،

١٧٠ ، ١٧٤ ، ٢١٤ ، ٢٢٧ ، ٢٤٥ ، ٢٤٩ ، ٢٦٨ ، ٢٧٧ ،
٢٧٨ ، ٢٨٧ ، ٣٠١ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٥٣ .

فان كوفيلارت (Van Cauwelaert) يان فرانس (من مواليد عام ١٨٨٠) -
حقوقى ورجل دولة بلجيكي . في سنوات ١٩٠٥-١٩٠٧ نشر في
مجلة «Revue Néo—Scolastique» (المجلة المدرسية الجديدة)
بضعة مقالات فلسفية مثالية الطابع . - ص ٤٦ ، ٦٠ ، ٦١ ، ١٦٩ .

فخنر (Fechner) غوستاف تيودور (١٨٠١-١٨٨٧) - عالم طبيعيات
وفيلسوف مثالي الماني . استاذ الفيزياء في جامعة ليزيغ . كان
لاعمال فخنر اهمية كبيرة بالنسبة لعلم النفس الاختباري . تحظى
بحوثه في دراسة الاحساسات باوسع الشهرة . في الفلسفة تأثر
بشيلينغ ، حاول ان يوفق بين المثالية والدين وبين الطابع المادي
العفوي لاكتشافاته العلمية . - ص ٣٩٣ .

فرانك (Frank) ادولف (١٨٠٩-١٨٩٣) - فيلسوف مثالي فرنسي . وضع
قاموساً فلسفياً بالتعاون مع فلاسفة آخرين . - ص ١٤٦ .

فرانك (Frank) فيليب (من مواليد عام ١٨٨٤) - فيلسوف وضعي جديد .
فيزيائي . من عام ١٩١٢ الى عام ١٩٣٨ استاذ في جامعة براغ .
في ١٩٢٨ هاجر الى لولايات المتحدة الاميركية . - ص ١٨٩ .

فرفورن (Verworn) ماكس (١٨٦٣-١٩٢١) - فيزيولوجي وبيولوجي
الماني . منذ عام ١٨٩٥ ، استاذ في جامعة يينا ، ثم في جامعتي
غوتنغن وبون . اصدر «Zeitschrift für allgemeine Physiologie» . اهتم
بصورة رئيسية بمسائل الفيزيولوجيا العامة . مؤلف جملة من البحوث
المختصة . من حيث نظراته الفلسفية - اختياري . كان قريباً من
الماخية . - ص ٢٥٩ .

فريدلندر او . - راجع ايفالد ، اوسكار .

فريزر (Fraser) الكسندر كميل (١٨١٩-١٩١٤) - فيلسوف انجليزي .
استاذ المنطق في جامعة ايدنبورغ . نصير بركلي وناشر مؤلفاته .
ص ٢٤-٢٨ .

فندلباند (Windelband) ولهم (١٨٤٨-١٩١٥) - فيلسوف مثالي الماني .
مؤرخ في الفلسفة . مؤسس مدرسة الكانطية الجديدة في بادن
(فريبورغ) . استاذ في جامعات زوريخ (منذ عام ١٨٧٦) وفريبورغ
(منذ عام ١٨٧٧) وستراسبورغ (منذ عام ١٨٨٢) وهيدلبورغ (منذ
عام ١٩٠٣) . ص ٢٣٨ .

فوبل (Vaubel) يوهان ولهم (من مواليد عام ١٨٦٤) - عالم الماني في
الكيمياء العضوية . استاذ في المدرسة التقنية العليا في دارمشتادت .
يقصد لينين كتابه «Zehrbuch der theoretischen Chemie» ، عام
١٩٠٣ (كتاب مدرسي في الكيمياء النظرية) . ص ٣٣٧ .

فورباخ (Feuerbach) لودفيغ اندرياس (١٨٠٤-١٨٧٢) - فيلسوف مادي
وملحد الماني بارز . ص ١٥ ، ٤٥ ، ٥٠ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩٣ ،
١٠٨ ، ١١٠ ، ١١٤-١١٦ ، ١٢٩-١٣٢ ، ١٣٥ ، ١٤٦ ،
١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٧٥ ، ١٧٦-١٨١ ، ١٨٢ ،
١٨٥ ، ١٩٢ ، ٢٠٠ ، ٢٠٢ ، ٢٣٠-٢٣٢ ، ٢٣٥ ، ٢٣٧ ،
٢٣٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٩ ، ٢٨٢ ، ٣٥٤ ،
٣٥٥ ، ٣٨٤ ، ٣٩٢ ، ٣٩٥ ، ٤٠١ ، ٤٠٢ ، ٤١٨ ، ٤٢٠ ،
٤٢٦ .

فورنيير (Fournière) اوجين (١٨٥٧-١٩١٤) - اشتراكي وكاتب فرنسي .
من حيث نظراته الفلسفية - مثالي . ص ٢٣٤ .

فوغت (Vogt) كارل (١٨١٧-١٨٩٥) - عالم طبيعيات الماني . احد
الممثلين الرئيسيين للمادية المبتدلة . مؤلف جملة من البحوث في
علم الحيوان والجيولوجيا والفيزيولوجيا . كان عدواً لدوداً للاشتراكية

العلمية ، واشترك في ملاحقة الثورين البروليتاريين وادلى بتصريحات
افتراضية ضد نشاط ماركس وانجلس . - ص ٤٥ ، ٢٧٨ ، ٣٨٤ .

فولتمان (Woltmann) لودفيغ (١٨٧١-١٩٠٧) - عالم الماني رجعي في
علم الاجتماع وعلم السلالات البشرية . حاول في عدد من مؤلفاته ان
يثبت تماثل الكانطية والفلسفة الماركسية .
زعم فولتمان ان بنية المجتمع الطبقي لم تنجم عن اسباب
تاريخية وحسب ، بل نجمت كذلك عن اللامساواة الطبيعية بين افراد
البشر . دافع عن نظرية العرقية ، ورأى في العلام العرقية أهم عامل
التطور اسياسي والاقتصادي . - ص ٣٨١ .

فولتير (Voltaire) فرانسوا ماري (كنيته الحقيقية : ارويه) (١٦٩٤-
١٧٧٨) - فيلسوف فرنسي قال بالتاليه الطبيعي او السببي . كاتب
هجائي ساخر . مؤرخ . ممثل بارز للتنوير البرجوازي في القرن
الثامن عشر . ناضل ضد الحكم المطلق وضد الكاثوليكية . - ص ٢٢٣ .

فولسكي نيقولاي فلاديسلافوفيتش - راجع فالنتينوف ن .

فولكمان (Volkman) باول (١٨٥٦ - حوالى ١٩٣٨) - استاذ الفيزياء
النظرية في كونيغسبرغ . في الفلسفة - اختياري . - ص ١٩٠ ،
٤٢٥ .

فوندت (Wundt) ولهلم ماكس (١٨٣٢-١٩٢٠) - فيلسوف مثالي
الماني . عالم نفساني . احد مؤسسي علم النفس (البيكولوجيا)
الاختباري . تاجر بكانط وليبنيتس ، وكذلك بالكانطية الجديدة
وبالوضعية . - ص ٦١-٦٤ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٧٢ ، ٧٩ ، ٩٨ ،
٩٩ ، ١٠١ ، ١٦٩ ، ١٧٢ ، ١٧٤ ، ١٨١ ، ١٩٧ ، ٢٢٢ ،
٢٣٨ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ .

فيخته (Fichte) هانوييل غرمن (١٧٩٦-١٨٧٩) - فيلسوف مثالي
الماني . ابن يوهان غوتليب فيخته . - ص ٢٤٣ .

فيخته (Fichte) يوهان غوتليب (١٧٦٢-١٨١٤) - مثالي ذاتي . ممثل الفلسفة الالمانية الكلاسيكية . منذ عام ١٧٩٤ ، استاذ في جامعة يينا ، ثم في جامعة برلين وجامعة ارلنغن . - ص ٧٠ ، ٧١ ، ٧٤ ، ٨١ ، ٨٦ ، ١٠٣ ، ١٥٨ ، ١٦٠ ، ١٦٣ ، ١٦٩ ، ١٧٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٦ ، ٢٢٩ ، ٢٣٢ ، ٢٤٧-٢٤٩ ، ٢٦٥ ، ٣٤٦ .

فيرى (Ferri) هنريكو (١٨٥٦-١٩٢٩) - احد زعماء الحزب الاشتراكي الايطالي . ايدولوجي من يسمون «بالاطلاقيين» (الوسطيين) الذين وقفوا احيانا ضد الاصلاحيين السافرين ولكنهم شغلوا مع ذلك مواقف اصلاحية في مسائل النضال الطبقي الاساسية . - ص ٢٨١ .

فيشر (Fischer) كونو (١٨٢٤-١٩٠٧) - مؤرخ الماني في الفلسفة . هيغلي . مؤلفه الرئيسي الذي يتضمن مجموعة كبيرة من الوقائع ، كتاب من عدة مجلدات اسمه «Geschichte der neueren Philosophie» 1854-1877 («تاريخ الفلسفة الجديدة» . ١٨٥٤-١٨٧٧) ؛ وقد عرض فيه المناهج الفلسفية التي وضعها بيكون ، وديكارت ، وسبينوزا ، وليبنيتس ، وكانط ، وفيخته ، وشيلينغ وهيغل وغيرهم من الفلاسفة . لكن فيشر اكتفى بعرض سيرة حياة المفكرين ونظراتهم الفلسفية ، ولم يستطع ان يكشف الجذور الاجتماعية للفلسفة ، والظروف الاجتماعية التاريخية لظهور هذا او ذاك من المناهج ، واهميتها الفعلية . - ص ٢٢٦ .

فيللي (Willy) رودولف (١٨٥٥-١٩٢٠) - فيلسوف ماخي الماني ، تلميذ افيناريوس . - ص ٤٦ ، ٧١ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٨٣ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٩١ ، ١٠١ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤٢ ، ٢٤٤ ، ٤٠٥ ، ٤١١ ، ٤١٣ .

فيلون الاسكندري (Philo) (حوالي ٢٥ قبل المسيح - ٥٠ بعد المسيح) - فيلسوف . - ص ٤٢٢ .

كارستانيان (Garstanjen) فريدريخ - استاذ الفلسفة في جامعة زوريخ .

ماخي . تلميذ افيناريوس . بعد موت افيناريوس (عام ١٨٩٦) ،
 اصدر مجلة «Vierteljahrsschrift für wissenschaftliche Philosophie»
 («المجلة الفصلية للفلسفة العلمية») . - ص ٦٧ ، ٦٨ ، ١٦٧ ،
 ١٧٢-١٧٤ .

كارنو (Carnot) نيقولا ليونار سادي (١٧٩٦-١٨٣٢) - مهندس
 وفيزيائي فرنسي . احد مؤسسي الديناميك الحراري . - ص ٣٥٦ .

كاروس (Carus) بول (١٨٥٢-١٩١٩) - فيلسوف اميركي . مثالي
 ذاتي . صوفي . اصدر منذ عام ١٨٨٧ مجلة «The Open Court»
 («المنبر المفتوح») ، ومنذ عام ١٨٩٠ «The Monist»
 («الاحادي») . انحصرت «احادية» كاروس الفلسفية في محاولات
 للتوفيق بين العلم والدين ولترويج البوذية . - ص ٢٦٠-٢٦٢ ،
 ٢٦٨ ، ٣١٨ ، ٤٠١ .

كانط (Kant) عمانوئيل (١٧٢٤-١٨٠٤) - مؤسس الفلسفة الالمانية
 الكلاسيكية . كتب لينين يقول : «ان السمة الانسانية التي تختص
 بها فلسفة كانط هي التوفيق بين المادية والمثالية ، المساومة بين
 هذه وتلك ، الجمع في نظام واحد بين اتجاهات فلسفية مختلفة ،
 متضادة» (راجع هذا الكتاب ، ص ٢٢٨) . اضطلعت الكانطية بدور
 بالغ في تاريخ الفلسفة ؛ وبتأثيرها ، تكون فيما بعد ممثلو المثالية
 الالمانية الكلاسيكية (فيخته ، شلينغ ، هيغل) ، ونشأت تيارات
 في الفكر الفلسفي البرجوازي كالكانطية الجديدة ، والوضعية
 وغيرها . - ص ٢٠ ، ٢٨ ، ٨٧ ، ١٠٣ ، ١٠٩ ، ١١٠-١١٢ ،
 ١٢٢ ، ١٢٨ ، ١٣١ ، ١٤١ ، ١٤٣ ، ١٥٣ ، ١٥٨ ، ١٧٧ ،
 ١٨١ ، ١٨٤ ، ١٨٧ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩٢ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ،
 ٢٠٤ ، ٢١٠ ، ٢١١ ، ٢٢١ ، ٢٢٣-٢٣٦ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ،
 ٢٤٤ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٥٦ ، ٢٥٨ ، ٢٦١ ، ٢٦٨ ، ٢٧٣ ،
 ٢٧٥ ، ٢٧٧ ، ٢٨١ ، ٣٥٥ ، ٣٩٢ ، ٤٠٥ ، ٤١٦ ، ٤١٨ ،
 ٤٢٦ ، ٤١٩ .

كاوتسكي (Kautsky) كارل (١٨٥٤-١٩٣٨) - احد زعماء الاشتراكية-الديموقراطية الالمانية والاممية الثانية . في البدء ماركسي . فيما بعد ، مرتد عن الماركسية ، وايدولوجي اخطر واخر نوع من انواع الانتهازية ، هو الوسطية (الكاوتسكية) . محرر المجلة النظرية للاشتراكية-الديموقراطية الالمانية «Die Neue Zeit» (والا زمنة الحديثة) . - ص ١١٠ ، ٢٣٥ ، ٢٩٠ .

كلاوزيوس (Clausius) رودولف (١٨٢٢-١٨٨٨) - فيزيائي نظري الماني . اشتهر باعماله في اسس الديناميك الحراري وفي النظرية الحركية للغازات .

صاغ القانون الثاني للديناميك الحراري (عام ١٨٥٠) ، ولكنه فسر هذا القانون تفسيراً خاطئاً قريباً من الفرضية المثالية القائلة «بالموت الحراري للكون» . - ص ٣٥٦ .

كلفين - راجع **تومسون وليم** .

كليفورد (Clifford) وليم كينغدون (١٨٤٥-١٨٧٩) - عالم رياضيات انجليزي . استاذ الرياضيات في جامعة لندن . في الفلسفة - مثالي ذاتي . طور بيرسون نظرات كليفورد . - ص ٢٦٠ .

كليتبيتر (Kleinpeter) هانس (١٨٦٩-١٩١٦) - فيلسوف نمساوي . مثالي ذاتي . روج الماخية ، وحاول ان «يوفقها» بطريقة اختيارية مع العلوم الطبيعية . - ص ١٠٢ ، ٢٢١ ، ٢٣٩ ، ٢٥٦-٢٦٢ ، ٢٧٥-٢٧٧ ، ٣٠٠ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٤١٢ .

كوتليار غ . ا . - مترجم للمؤلفات الفلسفية . - ص ٣٩ .

كورنو (Cornu) ماري ألفرد (١٨٤١-١٩٠٢) - فيزيائي فرنسي . اشتهر ببحوثه العديدة في البصريات وفيزياء البلور ، وبحث الطيف . في الفلسفة - مادي طبيعي تاريخي . - ص ٣٤٦ ، ٣٤٧ .

كورنيليوس (Cornelius) هانس (١٨٦٣-١٩٤٧) - فيلسوف الماني . مثالي ذاتي . استاذ في جامعة مونيخ وفي جامعة فرانكفورت على الماين . حاول ان يكمل الماخية بفلسفة الكمونييين وبالبراغماتية التي نادى بها وليام جيمس . اضطلع بدور وسيط بين الماخية والوضعية الجديدة . - ص ٢٥٣-٢٥٦ ، ٢٥٩ ، ٢٦٨ ، ٤٠١ .

كوغلمان (Kugelmann) لودفيغ (١٨٣٠-١٩٠٢) - اشتراكي-ديموقراطي الماني . صديق ماركس . اشترك في ثورة ١٨٤٨-١٨٤٩ في المانيا . عضو الاممية الاولى . من عام ١٨٦٢ الى عام ١٨٧٤ تراسل مع ماركس واطلعه على الوضع في المانيا . صدرت رسائل ماركس الى كوغلمان للمرة الاولى في عام ١٩٠٢ في مجلة «Die Neue Zeit» (ردي نويه زايته) - (الازمنة الحديثة) . - ص ١٥٢ ، ٢٨٧ ، ٣٨٣ ، ٣٩٣ .

كوفيلارت - راجع فان كوفيلارت ، يان فرانس .

كونت (Comte) اوغست (١٧٩٨-١٨٥٧) - فيلسوف وعالم اجتماع فرنسي . مؤسس الوضعية . - ص ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٣٩٢ ، ٣٩٣ .

كونديلياك (Condillac) اتيان بونو (١٧١٥-١٧٨٠) - فيلسوف فرنسي من انصار المذهب الحسي ومذهب التاليه الطبيعي او السببي . كاهن كاثوليكي . طور المذهب الحسي المادي الذي قال به لوك ، وانتقد النظرية المثالية القائلة بالافكار الفطرية . كان المذهب الحسي الذي نادى به كونديلياك احد المصادر النظرية لمذهب الماديين الفرنسيين في القرن الثامن عشر الذين اعترفوا باهمية كونديلياك الايجابية وانتقدوا في الوقت نفسه تراجعه نحو المثالية والاعرفانية . - ص ٣٢ .

كوهن (Cohen) غرمن (١٨٤٢-١٩١٨) - فيلسوف مثالي الماني . عالم رياضيات . مؤسس مدرسة الكانطية الجديدة في ماربورغ . بتاثير

افكار كوهن ، تكون ما يسمى «بالاشتراكية الاخلاقية» التي عمد ممثلوها (برنشتين ، فورلندر ، وغيرهما) الى تحريف الماركسية بروح الكانطية الجديدة . - ص ١٠٩ ، ٣٢٩ ، ٣٣٠ ، ٣٣٣ ، ٣٤٢ ، ٣٤٩ ، ٣٥٩ .

كيرخهوف (Kirchhoff) غوستاف روبرت (١٨٢٤-١٨٨٧) - فيزيائي
الماني . استاذ في جامعتي هيدلبرغ وبرلين . منذ عام ١٨٧٤ ، عضو اكاديمية العلوم في برلين . اتمت بحوث كيرخهوف في ميدان الديناميك الكهربائي وفي ابواب اخرى من الفيزياء باهمية كبيرة لأجل تطوير العلم . في عام ١٨٥٩ ، ارسى مع الكيماوي الالماني بونزن اساس التحليل الطيفي . كان كيرخهوف من حيث نظراته ممثل المادية الطبيعية التاريخية . - ص ١٩٥ ، ١٩٦ ، ٢٩٩ ، ٣٠٧ ، ٣٢٤ .

لارمور (Larmor) جوزف (١٨٥٧-١٩٤٢) - عالم انجليزي في الفيزياء والرياضيات . من عام ١٨٨٠ الى عام ١٨٨٥ ، استاذ في جامعة غلاسكو ؛ من عام ١٨٨٥ الى عام ١٩٠٣ استاذ في جامعة كمبريدج . بحوثه في النظرية الالكترونية هي التي تتسم باكبر قدر من الاهمية . - ص ٢٩٩ ، ٣٠٧ .

لاس (Laas) ارنست (١٨٢٧-١٨٨٥) - فيلسوف وضعي الماني . استاذ في جامعة ستراسبورغ . حاول ، في الوقت نفسه مع افيناريوس ، ان يثبت وجود صلة لا انفصام لعراها («التنسيق المبدئي») بين الذات والموضوع ، واعتبر المواضيع مضمون الادراك الفردي او الادراك بوجه عام . - ص ١٠٩ ، ٢٣٨ ، ٢٤٣ .

لاغرانج (Lagrange) جوزف لويس (١٧٣٦-١٨١٣) - عالم فرنسي في الرياضيات والميكانيك . - ص ٣٤٨ .

لافارغ (Lafargue) بول (١٨٤٢-١٩١١) - شخصية بارزة في الحركة

العمالية الفرنسية والعالمية . أسس مع غيد حزب العمال في فرنسا .
 كاتب اجتماعي موهوب . من اوائل اتباع الشيوعية العلمية في
 فرنسا . صديق قريب ورفيق بالفكر لماركس وانجلس .
 قام لافارغ في بحوثه العديدة بترويج افكار الماركسية في
 ميدان الاقتصاد السياسي والفلسفة والتاريخ وعلم اللغة ، ودافع
 عنها ، وناضل ضد الاصلاحية والتحريرية ، وانتقد محاولات
 البرنشتينيين الرامية الى «تركيب» الماركسية والكانطية . - ص
 ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٩٠ .

لافوازيه (Lavoisier) انطوان لوران (١٧٤٣-١٧٩٤) - كيميائي فرنسي .
 منذ عام ١٧٧٢ ، عضو اكااديمية العلوم في باريس ، ومنذ عام
 ١٧٨٥ مديرها . اسهم ، في الوقت نفسه مع العالم الروسي الشهير
 لومونوسوف ، في تأكيد مبدأ بقاء وزن الاشياء في سياق التحولات
 الكيماوية ، الامر الذي كان له تاثير بالغ في كل تطور الكيمياء
 اللاحق . فسّر عملية الاحتراق ، واثبت بطلان نظرية الفلوجيستون .
 كان في الفلسفة نصيرا لنظرات المنورين الفرنسيين المادية . -
 ص ٢٩٤ .

لانجيفن (Langevin) بول (١٨٧٢-١٩٤٦) - فيزيائي فرنسي . استاذ في
 كوليج دي فرانس . منذ عام ١٩٣٤ ، عضو اكااديمية العلوم في
 باريس . اعماله الاساسية - في تايين الغازات ، وفي المغناطيسية ،
 وفي السمعيات . اشترك بنشاط في صياغة النظرية الكمية ولا سيما
 نظرية النسبية . في الفلسفة - مادي منسجم ، وقف ضد التفسير
 المثالي لمنجزات الفيزياء المعاصرة . - ص ٣٠٣ ، ٣٠٧ .

لانغه (Lange) فريدريخ البرت (١٨٢٨-١٨٧٥) - فيلسوف الماني . مثالي
 ذاتي . من اوائل ممثلي الكانطية الجديدة . منذ عام ١٨٧٠ استاذ
 في جامعة زوريخ ، منذ عام ١٨٧٢ في جامعة ماربورغ . زيف لانغه
 المادية وحاول ان يثبت بطلانها كنظرية فلسفية . في بحوثه المكتوبة
 من مواقع بروجوازية ليبرالية ، شوّه جوهر الحركة العمالية ، وتبنى

نظرية مالتوس الرجعية بشأن فيض السكان ، واعتبر الرأسمالية نظاما «طبيعيا وخالدا» للمجتمع البشري . - ص ١٠٩ ، ٢٢٣ ، ٢٢٨ ، ٢٤٣ ، ٣٢٩ ، ٣٥٥ ، ٣٥٩ ، ٣٨١-٣٨٣ ، ٣٩٣ .

لوباتين ليف ميخايلوفيتش (١٨٥٥-١٩٢٠) - فيلسوف مثالي روسي . منذ عام ١٨٩٤ ، محرر المجلة المثالية «مسائل الفلسفة والبيسيكولوجيا» . من حيث نظراته الفلسفية ، التحقق بالصوفي سولوفيوف ، وروج المذهب الروحي ، واعتبر تعليلا «خلود الروح» قضية من «قضايا الساعة» في الفلسفة . - ص ٣٤٩ ، ٣٥٠ ، ٣٥٢ ، ٤١١ ، ٤٠٠ .

لودج (Lodge) اوليفر جوزف (١٨٥١-١٩٤٠) - فيزيائي انجليزي . منذ عام ١٨٧٩ استاذ في جامعة لندن . منذ عام ١٨٨١ استاذ في جامعة ليفربول ؛ من عام ١٩٠٠ الى عام ١٩١٩ عميد جامعة بيرمينغام . مؤلف عدد من البحوث في مختلف ميادين الفيزياء . من حيث نظراته الفلسفية ، مثالي وصوفي . وقف ضد المادية ، وحاول ان يستغل اكتشافات العلوم الطبيعية للدفاع عن الدين . - ص ١٠٣ ، ٣٠٢ ، ٣٢٨ ، ٤٠٧ .

لورنتس (Lorentz) هندريك انطون (١٨٥٢-١٩٢٨) - فيزيائي هولندي . استاذ في جامعة ليدن . وضع النظرية الالكترونية عن المادة ، وعلل جملة من اهم الظواهر الكهربائية والبصرية (وخاصة ظاهرة زيمان) وتنبأ بظواهر جديدة . صاغ كهردينامية البيئات المتحركة ، التي اتسمت باهمية كبيرة لأجل اعداد نظرية النسبية . من حيث نظراته الفلسفية - مادي . عارض بنشاط مختلف مظاهر المثالية في الفيزياء . - ص ٢٩٩ ، ٣٠٧ .

لوك (Locke) جون (١٦٣٢-١٧٠٤) - فيلسوف مادي انجليزي . في مؤلفه الفلسفي الاساسي «An Essay concerning Human

« Understandings » (مقالة في الفهم البشري) ، صاغ نظرية حسية عن المعرفة ، مادية من حيث اساسها . انتقد مذهب ديكرت حول الافكار الفطرية ، ولكنه قام في الوقت نفسه بتراجعات صوب المثالية . اتسمت فلسفة لوك بطابع مزدوج ، ومن جراء ذلك استغلها الماديون والمثاليون على السواء . - ص ٢٤ ، ١٤١ .

لوكا (Lucka) اميل (١٨٧٧-١٩٤١) - كاتب وفيلسوف كانطسي نمساوي . - ص ١٠٣ ، ١٩٠ ، ٢٢٢ .

لوناتشارسكي اناطولي فاسيليفيتش (١٨٧٥-١٩٣٣) - رجل دولة وشخصية اجتماعية سوفيتية بارزة .

انضم الى الحركة الثورية في اوائل العقد العاشر من القرن التاسع عشر . بعد المؤتمر الثاني ح ع ادر (١٩٠٢) ، بلشفي . في سنوات الردة الرجعية (١٩٠٧-١٩١٠) ، ابتعد عن البلشفية (اي عن الاتجاه الثوري المنسجم في ح ع ادر) ، واخذ يعظ « ببناء الله » ، واشترك في فرقة « فبريود » (« الى الامام ») المعادية للحزب . ابان لينين خطأ نظرات لوناتشارسكي وانتقدها . بعد ثورة اكتوبر الاشتراكية (عام ١٩١٧) ، وحتى عام ١٩٢٩ ، مفوض الشعب للمعارف . مؤلف عدد من البحوث في الفن والأدب . - ص ١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٣٢٩ ، ٣٨٥ ، ٤٠٠ ، ٤٠٢ ، ٤٠٣ ، ٤٠٨ .

ليبنخت (Liebknecht) ولهم (١٨٢٦-١٩٠٠) - شخصية بارزة في الحركة العمالية الالمانية والعالمية . احد مؤسسي وزعماء الحزب الاشتراكي-الديموقراطي الالمانى . - ص ١٢٣ .

ليبمان (Liebmann) اوتو (١٨٤٠-١٩١٢) - فيلسوف الماني . كانطي جديد . ان ليمان هو الذي رفع شعار « الى الوراء نحو كانط » . - ص ١٠٩ .

ليبيخ (Liebig) يوستوس (١٨٠٣-١٨٧٣) - عالم الماني . من مؤسسي الكيمياء الزراعية . في نظراته الفلسفية - من اتباع شيلينغ . - ص ٣١٠ .

ليروا (Le Roy) ادوارد (١٨٧٠-١٩٥٤) - فيلسوف مثالي فرنسي . منذ عام ١٩٠٩ ، استاذ الرياضيات في سان-لويس . منذ عام ١٩٢١ ، استاذ الفلسفة في كوليج دي فرانس . من اتباع جدسية برغسون . براغماتي ووضعي جديد . - ص ٣٣٩-٣٤١ .

ليسيفيتش فلاديمير فكتوروفيتش (١٨٣٧-١٩٠٥) - فيلسوف وضعي روسي . رأى ليسيفيتش محدودية وضعية كونت في نقص صياغة العرفانية ، واعتبر من الضروري اصلاح الوضعية القديمة على اساس نظرية المعرفة التي تقول بها الكانطية الجديدة والتي يقول بها على الاخص المذهب النقدي التجريبي الذي رأى فيه ليسيفيتش ذروة تطور الفكر البشري . - ص ٥٦ ، ٢٢٠ ، ٢٢٩ ، ٢٧٢ .

ليفى (Lévy) البر - استاذ الفلسفة في جامعة نانسي . - ص ١١٥-١١٧ .

ليكلر (Leclair) انطون (من مواليد عام ١٨٤٧) - فيلسوف نمساوي . مثالي ذاتي . ممثل المدرسة الكمونية . دافع عن الايمانية ، ووقف على المكشوف ، كما قال لينين ، «ضد المادية على العموم ، وضد ميل اغلبية علماء الطبيعيات الى المادية على الخصوص» (راجع هذا الكتاب ، ص ٢٤٧-٢٤٨) . - ص ٧٢ ، ٢٠٧ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٣ ، ٢٤٦-٢٤٨ ، ٢٥٠ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٧٢ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٨٠-٢٨٣ ، ٣٨٨ ، ٢٨٩ ، ٤٠٢ ، ٤٠٥ .

ماخ (Mach) ارنست (١٨٣٨-١٩١٦) - فيزيائي وفيلسوف نمساوي . مثالي ذاتي . احد مؤسسي المذهب النقدي التجريبي . من عام ١٨٩٥ الى عام ١٩٠١ - استاذ الفلسفة في جامعة فيينا . في حقل نظرية

المعرفة ، بحث نظرات بركلي وهيوم . اعطى لينين في هذا الكتاب نقداً شاملاً لفلسفة ماخ الرجعية ، وتحليلاً لمؤلفاته الاساسية . - ص ١٥ ، ١٧ ، ٢٠-٢٢ ، ٣٠ ، ٣٥-٤٦ ، ٤٩-٥٣ ، ٥٥ ، ٥٧-٦١ ، ٦٣-٦٦ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧١ ، ٧٨ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٥ ، ٩٢-٩٨ ، ١٠٠-١٠٦ ، ١١٤ ، ١١٧ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٣ ، ١٤٥ ، ١٥٣ ، ١٥٥-١٥٩ ، ١٦٤ ، ١٦٦ ، ١٦٩ ، ١٧١ ، ١٨٠-١٨٤ ، ١٨٧ ، ١٩٠ ، ١٩٣-١٩٧ ، ٢٠٠ ، ٢٠٢-٢٠٩ ، ٢١٢ ، ٢١٤ ، ٢١٦ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢٢-٢٢٤ ، ٢٢٧ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣٥-٢٤١ ، ٢٤٣-٢٤٥ ، ٢٤٧-٢٥٦ ، ٢٥٧-٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٦٧-٢٦٩ ، ٢٧٤-٢٧٨ ، ٢٨٠ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٢٨٧ ، ٢٩٠ ، ٢٩٥ ، ٢٩٩ ، ٣١٣ ، ٣١٧ ، ٣٢٥ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٣٨ ، ٣٣٩ ، ٣٤٢-٣٤٦ ، ٣٤٨ ، ٣٥٢-٣٥٦ ، ٣٦١-٣٦٣ ، ٣٧٠-٣٧٢ ، ٣٧٥ ، ٣٨٣ ، ٣٩٢ ، ٣٩٥ ، ٣٩٧-٤٠٢ ، ٤٠٤-٤٠٦ ، ٤٠٨ ، ٤١١ ، ٤١٤ ، ٤١٦ ، ٤١٨ ، ٤١٩ .

ماركس (Marx) كارل (١٨١٨-١٨٨٣) - مؤسس الشيوعية العلمية .
 مفكر عبقرى . زعيم ومعلم البروليتاريا العالمية . - ص ١١ ، ١٢ ، ٣٧ ، ٤٥ ، ٥٠ ، ٥٢ ، ٦٧ ، ٨٩ ، ١٠٨ ، ١١٤-١١٧ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٥٢ ، ١٥٤-١٥٧ ، ١٥٩ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٦ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٥ ، ١٩٤ ، ١٩٨ ، ٢١٢ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٧ ، ٢٣٢-٢٣٦ ، ٢٥٠ ، ٢٧٨ ، ٢٨٠ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٢٨٧-٢٩٠ ، ٢٩٥ ، ٣٠٥ ، ٣٠٧ ، ٣١٣ ، ٣٤٧ ، ٣٦٠ ، ٣٦٦-٣٦٨ ، ٣٧٠-٣٧٢ ، ٣٧٥ ، ٣٧٧-٣٧٩ ، ٣٨١ ، ٣٨٤ ، ٣٨٨ ، ٣٨٩ ، ٣٩١-٣٩٣ ، ٣٩٥ ، ٣٩٩ ، ٤٠١ ، ٤٠٢ ، ٤٠٤ ، ٤١٦ ، ٤٢١ ، ٤٢٤ ، ٤٢٦ .

مالتوس (Malthus) توماس روبرت (١٧٦٦-١٨٣٤) - قس انجليزي .
 اقتصادي . روج نظرية فيض السكان الكارهة للبشر . - ص ٣٨٣ .

مالون (Malon) بينوا (١٨٤١-١٨٩٣) - اشتراكي برجوازي صغير فرنسي . احد زعماء وايدولوجيي التيار الانتهازي في الحركة الاشتراكية في فرنسا ، المسمى بتيار possibilisme (الامكانية) . - ص ٢٣٤ .

مالينوفسكي الكسندر الكسندروفيتش - راجع **بوغدانوف ، ا** .

ماير (Mayer) يوليوس روبرت (١٨١٤-١٨٧٨) - عالم طبيعيات الماني . من اوائل من اكتشفوا قانون بقاء الطاقة وتحولها . - ص ٣٥٦ .

مرسيه (Mercier) لويس سيباستيان (١٧٤٠-١٨١٤) - كاتب فرنسي . - ص ٢٣٣ .

مكسويل (Maxwell) جيمس كليرك (١٨٣١-١٨٧٩) - فيزيائي انجليزي . استاذ في جامعة ابردن وجامعة لندن وجامعة كمبريدج . اشتهر ببحوثه النظرية في ميدان البصريات ، وميدان النظرية الحركية للغازات ، وخاصة في ميدان نظرية الكهرباء . بتعميم تجارب فاراداي في دراسة الظواهر الكهرمغناطيسية ، انشا نظرية الحقل الكهرمغناطيسي ونظرية النور الكهرمغناطيسية . من حيث نظراته الفلسفية - مادي ، ولكن ماديته كانت ميكانيكية ، متذبذبة . - ص ٢٩٩ ، ٣٠٧ ، ٣٤٧ ، ٣٤٨ .

منشيكوف ميخائيل اوسيبوفيتش (١٨٥٩-١٩١٩) - كاتب اجتماعي روسي . عاون في جريدة المائة السود «نوفويه فريميا» (الازمنة الحديثة) . بعد ثورة اكتوبر الاشتراكية (عام ١٩١٧) ، ناضل بنشاط ضد السلطة السوفييتية . في عام ١٩١٩ اُعدم رمياً بالرصاص . - ص ٧٥ ، ١٤٥ ، ٢٤٥ ، ٢٤٧ .

منغر (Menger) انطون (١٨٤١-١٩٠٦) - حقوقي نمساوي . ممثل ما

يسمى «بالاشتراكية الحقوقية» . استاذ في جامعة فيينا . -
ص ٣٧٥ .

مهرينغ (Mehring) فرانس (١٨٤٦-١٩١٩) - شخصية بارزة في الحركة
العمالية في المانيا . احد زعماء ونظريسي الجناح اليساري في
الاشتراكية-الديموقراطية الالمانية . اضطلع بدور بارز في تاسيس
الحزب الشيوعي الالمانى . مؤرخ . كاتب اجتماعي . باحث ادبي . -
ص ١٢ ، ٢٩٠ ، ٤١٤ ، ٤١٥ .

مورغان (Morgan) كانفي لويد (١٨٥٢-١٩٣٦) - بيولوجي انجليزي .
عالم نفساني وفيلسوف . في المرحلة الاولى من نشاطه ، وقف مواقف
مادية . فيما بعد انصرف عن المادية . - ص ٤٣ ، ٢١٠ ، ٢١١ .

مولر (Müller) يوهانس بيتر (١٨٠١-١٨٥٨) - عالم طبيعيات الماني .
منذ عام ١٨٢٠ استاذ في جامعة بون ؛ منذ عام ١٨٣٣ استاذ في
جامعة برلين . مؤلف بحوث في الفيزيولوجيا ، وعلم التشريح
المقارن ، وعلم الاجنة ، وعلم الانسجة الحية . اهتم بدراسة الجهاز
العصبي المركزي واعضاء الحواس .
كان مولر من مؤسسي المثالية «الفيزيولوجية» ؛ اعتبر
الاحساسات نتيجة لتجلي الطاقة الداخلية لاعضاء حواس الانسان . -
ص ٣٨٤ .

موليشوت (Moleschott) ياكوب (١٨٢٢-١٨٩٣) - عالم هولندي . استاذ
الفيزيولوجيا في جامعة زوريخ (١٨٥٦-١٨٦١) ، وجامعة تورينو
(١٨٦١-١٨٧٩) وجامعة روما (١٨٧٩-١٨٩٣) . من كبار ممثلي
المادية المتبدلة . بعث النظرات الميكانيكية الى الطبيعة والمجتمع . -
ص ٤٥ ، ٢٧٨ ، ٣٨٤ .

مهايلوفسكي نيقولاى قسطنطينوفيتش (١٨٤٢-١٩٠٤) - من ابرز
نظريي الشعبية الليبرالية . كاتب اجتماعي . ناقد ادبي . فيلسوف

وضعي . من ممثلي المدرسة الذاتية في علم الاجتماع . - ص ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٣٨١ .

ميل (Mill) **جون ستيوارت** (١٨٠٦-١٨٧٣) - اقتصادي وفيلسوف
برجوازي انجليزي . من ممثلي الوضعية البارزين . - ص ١٢٠ ،
١٦٤ ، ٣١٤ ، ٣٤٥ .

نابليون الاول (بوناپرت) (١٧٦٩-١٨٢١) - امبراطور فرنسا ١٨٠٤-
١٨١٤ و ١٨١٥ . - ص ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٥٤ ، ١٦١ ، ٢٠٩ .

نوكس (Knox) **هوفارد** (من مواليد عام ١٨٦٨) - فيلسوف براغماتي
انجليزي . - ص ٢٦٠ .

نيفسكي فلاديمير ايفانوفيتش (١٨٧٦-١٩٣٧) - ثوري محترف . عضو
الحزب البلشفي منذ عام ١٨٩٨ . مؤلف عدد من البحوث في
الفلسفة . - ص ١٤ .

نيوتن (Newton) **اسحق** (١٦٤٢-١٧٢٧) - عالم انجليزي في الفيزياء
والميكانيك والفلك والرياضيات . منذ عام ١٦٦٩ اشرف على كرسي
الفيزياء والرياضيات في جامعة كمبريدج . منذ عام ١٦٧٢ عضو
الجمعية الملكية في لندن . منذ عام ١٧٠٣ ، رئيس هذه الجمعية .
صاغ القوانين الاساسية في الميكانيك الكلاسيكي ، واكتشف قانون
الجاذبية العام ، وانتشار النور ، وصاغ (في نفس الوقت مع ليبنيثس)
حساب التفاضل والتكامل . كان نيوتن مادياً عفويًا من حيث نظراته
الفلسفية . - ص ٢٠٥ ، ٢٩٤ ، ٣٥٦ .

هارتمان (Hartmann) **ادوارد** (١٨٤٢-١٩٠٦) - فيلسوف مثالي وصوفي
الماني . من اتباع شوبنهاور . عارض نظرية الاشتراكية العلمية ،
وزعم ان المثال الاعلى الذي تسعى وراءه البروليتاريا مستحيل
المنال . - ص ٦٦ ، ٣٣٢-٣٣٤ ، ٣٤٢ ، ٤٠٨ .

هايفلدر (Heyfelder) فكتور (من مواليد عام ١٨٧١) - ص ٢٧٢ .

هايم (Haym) رودولف (١٨٢١-١٩٠١) - مؤرخ الماني في الفلسفة والادب . استاذ في جامعة هال . في مؤلفاته التي تحتوي عدداً كبيراً من الوقائع ، انطلق من مواقع الوضعية . - ص ٩٠ ، ١٧٥ .

هرتس (Hertz) هنريخ رودولف (١٨٥٧-١٨٩٤) - فيزيائي الماني . من عام ١٨٨٦ الى عام ١٨٨٩ أثبت بالاختبار وجود الموجات الكهرمغناطيسية وبحث خواصها . بينت تجارب هرتس تماثل الخواص الاساسية للموجات الكهرمغناطيسية والضوئية ، واضطلعت بدور هام في تحليل نظرية النور الكهرمغناطيسية . - ص ٢٥٧ ، ٢٧٥ ، ٣٠٧ ، ٣٣٠-٣٣٢ ، ٣٤٧ ، ٣٤٨ ، ٣٥٠ .

هكسلي (Huxley) توماس هنري (١٨٢٥-١٨٩٥) - عالم طبيعيات انجليزي . من اقرب رفاق شارلز داروين في الفكر ، ومن ناشري مذهبه الذي اتسمت بحوث هكسلي في ميادين علم الحيوان وعلم الحفريات وعلم السلالات البشرية وعلم التشريح المقارن بأهمية كبيرة بالنسبة لتعليه وتدعيمه . كان هكسلي مادياً عفوياً ، «خجولاً» - حسب تعبير انجلس - ولكنه تنكر في الوقت نفسه للمادية وقال عن نفسه انه agnostique (وهو اول من ادخل هذا التعبير في الفلسفة . ويعني لا ادري ، لاعرفاني) . وقد كتب لينين يقول : «ان فلسفة هكسلي هي خليط من الهيومية والبركلية مثلها مثل فلسفة ماخ . ولكن الحملات البركلية عند هكسلي هي من باب الصدفة ، في حين ان لاعرفانيته هي بمثابة ورقة تين لستر المادية» (راجع هذا الكتاب ، ص ٢٤٠) . - ص ٣١-٣٣ ، ٩٩ ، ١٣ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٧٣ ، ٣٩٢ ، ٣٩٥ .

هلمهولتز (Helmholtz) غرمن لودفيغ فرديناند (١٨٢١-١٨٩٤) - عالم طبيعيات الماني . استاذ الفيزيولوجيا في جامعة كونيغسبرغ (مند

عام ١٨٤٩) ، وجامعة بون (منذ عام ١٨٥٥) ، وجامعة هيدلبرغ (منذ عام ١٨٥٨) ، ثم استاذ الفيزياء في جامعة برلين (منذ عام ١٨٧١) . مؤلف بحوث نظرية في مختلف ميادين الفيزياء والفيزيولوجيا . في عام ١٨٤٧ اعطى للمرة الاولى تفسيراً رياضياً لقانون بقاء الطاقة و اشار الى طابعه العام . انتقد انجلس فهم هلمهولتز لهذا القانون فهماً ميتافيزيائياً (راجع مؤلف انجلس «ديالكتيك الطبيعة») .

كان هلمهولتز في الفلسفة مادياً عفويّاً ، متذبذباً . (راجع انتقاد لينين لاراء هلمهولتز الفلسفية في هذا الكتاب ، ص ٢٧١-٢٧٧) . ص ٢٧٠ ، ٢٧٣-٢٧٧ ، ٢٧٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ .

هوخبرغ (Höchberg) كارل (١٨٥٣-١٨٨٥) - اشتراكي-ديموقراطي يميني الماني . صحفي . - ص ٢٣٤ .

هولباخ (Holbach) بول هنري ديتريخ (١٧٢٣-١٧٨٩) - فيلسوف مادي وملحد فرنسي . احد ايدولوجيي البرجوازية الفرنسية الثورية في القرن الثامن عشر . اشترك بصورة فعالة في اعداد «موسوعة العلوم والفنون والحرف» . انتقد الدين والمثالية انتقاداً حاداً . لقيت المادية الميتافيزيائية الفرنسية في اعمال هولباخ التعبير الاكمل عنها . - ص ٢٧٨ ، ٤٢٦ .

هولفيغ (Houllevigue) لويس (١٨٦٣-١٩٤٤) - فيزيائي فرنسي . استاذ في جامعة مرسيليا . - ص ٣٣١ .

هونيغسفالذ (Hönigswald) ريخارد (١٨٧٥-١٩٤٧) - فيلسوف كانطي جديد الماني . من اتباع «الواقعية النقدية» لصاحبها ريل . استاذ في جامعة بريسلاو (منذ عام ١٩١٦) وجامعة مونيخ (منذ عام ١٩٣٠) . منذ عام ١٩٣٣ عاش في الولايات المتحدة الاميركية . - ص ١٦ ، ١٠٣ ، ١٩٦ .

هيبن (Hibben) جون غريور (١٨٦١-١٩٣٣) - فيلسوف مثالي اميركي .
استاذ في جامعة برينستون ، ثم رئيسها . تناول أهم اعماله قضايا
المنطق . - ص ٣١٦ .

هيراقليت من افسس (حوالي ٥٣٠-٤٧٠ قبل المسيح) - فيلسوف مادي
اغريقي . احد مؤسسي الديالكتيك . - ص ٤٢٢ ، ٤٢٦ .

هيرينغ (Hering) ايفالد (١٨٣٤-١٩١٨) - فيزيولوجي الماني . استاذ
في جامعات فيينا وبراغ وليبزيغ . حظيت اعماله في فيزيولوجيا
اعضاء الحواس اكبر قدر من الشهرة . في حقل الفلسفة ، مال الى
المثالية ودعم النظرية الاثنينية بشأن الموازة النفسية الجسمانية ،
التي تقول ان العمليات النفسية والفيزيولوجية الجارية في الدماغ
تشكل نوعين من الظاهرات ، متوازيين ومستقلين احدهما عن
الآخر . - ص ٢١٤ .

هيرينغ (Hering) كارل (١٨٤١-١٨٧٩) - استاذ في الفلسفة في
ليبزيغ . قريب من الوضعية بالعقيدة . - ص ١٠٩ .

هيجل (Hegel) غيورغ ولهم فريدريخ (١٧٧٠-١٨٣١) - اكبر ممثل
للفلسفة الالمانية الكلاسيكية . مثالي موضوعي . صاغ هيجل بصورة
عميقة وشاملة ، وعلى الاساس المثالي ، مذهب التطور
الديالكتيكي . - ص ٧٦ ، ٩٠ ، ١٠٣ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١٤٢ ،
١٥٤ ، ٢١٥ ، ٢١٩ ، ٢٢١ ، ٢٦٣-٢٦٥ ، ٢٦٩ ، ٢٧١ ،
٢٧٢ ، ٢٨٨ ، ٢٩٢-٢٩٤ ، ٤٠٧ ، ٤١٩ ، ٤٢٢ ، ٤٢٤ ،
٤٢٥ ، ٤٢٦ .

هيككل (Haeckel) ارنست (١٨٣٤-١٩١٩) - عالم طبيعيات مادي الماني .
من اكبر البيولوجيين في النصف الثاني من القرن التاسع عشر واوائل
القرن العشرين . من عام ١٨٦٢ الى عام ١٩٠٩ ، استاذ في جامعة
فيينا . في عام ١٨٦٦ صاغ وعلل قانون النشوء الاحيائي الذي يقول

ان العضوية تكرر في تطورها الفردي المراحل التاريخية الاساسية في تطور النوع . عارض المثالية في العلوم الطبيعية .

وبما ان هيكل كان مادياً عفويًا ولم تكن عنده فكرة عن قوانين التطور الاجتماعي ، فقد قام بعدد من التراجعات عن المادية . ولم يكن ملحدًا منسجمًا . سحب على المجتمع قانون الانتقاء الطبيعي والصراع من اجل البقاء . راجع تقييم لينين لعقيدة ارنست هيكل في هذا الكتاب ، ص ٤٠٧-٤١١ . - ص ٤٣ ، ١٠٣ ، ١٩٩ ، ٢٦١ ، ٢٨٨ ، ٣١٩ ، ٣٥٠ ، ٤٠٣ ، ٤٠٦-٤١١ ، ٤١٣-٤١٥ .

هينتسه (Heinze) ماكس (١٨٣٥-١٩٠٩) - استاذ الفلسفة في جامعة ليبزيغ . مؤلف عدد من البحوث في تاريخ الفلسفة . اعدّ واصدر كتاب ايرفيغ «Grundriß der Geschichte der Philosophie» (وعرض في تاريخ الفلسفة) (الطبعات ٥-٩) . - ص ٢٢٢ .

هيوم (Hume) دافيد (١٧١١-١٧٧٦) - فيلسوف انجليزي . مثالي ذاتي . لاعرفاني . مؤرخ واقتصادي . اعترف بان الاحساسات هي اساس المعرفة ، واعتبر ان مهمة المعرفة هي تنسيق (على اساس العادة) الاحساسات الابتدائية والتصورات التي تتشكل منها . انكر الفهم المادي للسببية ، ولم يعترف الا بالتتابع الموقت للظواهرات ، واعتبر مسألة وجود العالم الخارجي مسألة يستحيل حلها . كان لنظرات هيوم تأثير ملحوظ في تطور الفلسفة البرجوازية المثالية اللاحق . - ص ١٣-٢٧ ، ٥١ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ١٠٨-١١٠ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٨ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٤٢ ، ١٥٣ ، ١٥٨ ، ١٥٦ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٨١ ، ١٨٤ ، ١٨٧ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ٢١١ ، ٢١٣ ، ٢٢٣-٢٢٧ ، ٢٣٢ ، ٢٣٤-٢٣٦ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٥٤ ، ٢٨٧ ، ٣٤٥ ، ٣٦٣ ، ٣٩٣ ، ٣٩٤ ، ٤١٦ ، ٤٢٦ .

ورد (Ward) جيمس (١٨٤٣-١٩٢٥) - عالم نفساني انجليزي .
 فيلسوف مثالي وصوفي . استاذ في جامعة كمبريدج . حاول في
 اعماله ، وخاصة في كتاب 1889 «Naturalism and Agnosticism»
 (والمذهب الطبيعي والمذهب اللاعرفاني) . ١٨٩٩ ان يستغل
 اكتشافات الفيزياء للنضال ضد المادية والدفاع عن الدين . - ص
 ٩٩ ، ١٩٧ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٣١٩ ، ٣٢٢ ، ٣٢٣ ، ٣٢٥ -
 ٣٢٧ ، ٣٣٠ ، ٣٣٣ ، ٣٣٨ ، ٣٤٢ ، ٣٤٩ ، ٣٩٨ ، ٤٠٠ ،
 ٤٠٢ ، ٤٠٦ .

يفلوفي (غيورغييفسكي ، ف .) (من مواليد عام ١٨٦٨) - ملكي . رجعي
 متطرف . احد قادة منظمة المائة السود ، «اتحاد الشعب الروسي» .
 منذ عام ١٩٠٢ ، اسقف لوبلين . في عام ١٩١٤ ، عيّن رئيس
 اساقفة في فولين . بعد ثورة اكتوبر الاشتراكية (عام ١٩١٧) -
 احد زعماء المهاجرين الملكيين . - ص ١٥٧ .

يودل (Jodl) فريديخ (١٨٤٩-١٩١٤) - استاذ الفلسفة في جامعتي
 براغ وفيينا . من اتباع لودفيغ فورباخ . اهتم بمسألة الاخلاق ،
 وسعى الى تخليصها من تأثير الدين ، ولكنه حاول في الوقت نفسه
 ان يعلل ديناً جديداً اسماه «دين البشرية» . اعدّ مع بولين الطبعة
 الثانية لمؤلفات لودفيغ فورباخ . - ص ٩٠ .

يوشكيفيتش بافل سولومونوفيتش (١٨٧٣-١٩٤٥) - اشتراكي -
 ديموقراطي روسي . في الفلسفة انضم الى الوضعية والبراغماتية . في
 سنوات الردة الرجعية (١٩٠٧-١٩١٠) ، عمد الى تحريف الفلسفة
 الماركسية ، محاولاً ان يستعيز عنها باحد انواع الماخية - وهو
 «المذهب الرمزي التجريبي» . كتب مقالة «مذهب الطاقة المعاصر
 من وجهة نظر المذهب الرمزي التجريبي» التي وردت في المجموعة
 التحريفية «دراسات في فلسفة الماركسية» وغير ذلك من الكتب .
 بعد عام ١٩١٩ ، انصرف عن النشاط السياسي ، واخذ يترجم

المطبوعات الفلسفية . - ص ١١ ، ١٥ ، ١٦ ، ٢٥ ، ٦٢ ، ٦٧ ،
٧٢ ، ١٠٧ ، ١٧٠ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩١ ، ١٩٢ ، ١٩٨ ،
١٩٩ ، ٢٠١ ، ٢٢٧ ، ٢٣٦ ، ٢٣٨ ، ٢٦٨ ، ٢٩١ ، ٣٠٥ ،
٣٠٧ ، ٣١٧ ، ٣٢٠ ، ٣٢٩ ، ٣٤١ ، ٣٥٢ ، ٣٨٥ ، ٣٨٦ ،
٤٠٣ .

محتويات

٣	من الدار
	المادية والمذهب النقدي التجريبي . ملاحظات انتقادية بصدد
٤٢٣ - ١١	فلسفة رجعية
١١	مقدمة الطبعة الاولى
١٤	مقدمة الطبعة الثانية
	موضوع المقدمة . كيف دحض بعض «الماركسيين» المادية
	في عام ١٩٠٨ وكيف دحضها بعض المثاليين في عام
٣٥ - ١٥	١٧١٠
	الفصل الاول . نظرية المعرفة في المذهب النقدي التجريبي وفي
١٠٦ - ٣٦	المادية الديالكتيكية . - ١
٣٦	١ - الاحساسات ومركبات الاحساسات
٥١	٢ - «اكتشاف عناصر العالم»
٦٨	٣ - التنسيق المبدئي و«الواقعية الساذجة»
٨٧	٤ - هل وجدت الطبيعة قبل الانسان ؟
٩٢	٥ - هل يفكر الانسان بواسطة الدماغ ؟
١٠١	٦ - عن سوليبيسم ماخ وافيناريوس
	الفصل الثاني . نظرية المعرفة في المذهب النقدي التجريبي وفي
١٦٢ - ١٠٧	المادية الديالكتيكية . - ٢

- ١ - «الشيء في ذاته» أو ف. تشيرنوف يدحض
 ١٠٧ ف . انجلس
 ٢ - عن «التعالى» ، او ف . بازاروف «يعالج»
 ١١٨ انجلس
 ٣ - لودفيغ فورباخ ويوسف ديتزغن والشيء في ذاته
 ١٣٠
 ٤ - هل توجد حقيقة موضوعية ؟
 ١٣٦
 ٥ - الحقيقة المطلقة والحقيقة النسبية ، او بصدد
 ١٤٧ اختيارية انجلس التي اكتشفها أ . بوغدانوف .
 ١٥٥ ٦ - مقياس الواقع العملي في نظرية المعرفة
 الفصل الثالث . نظرية المعرفة في المادية الديالكتيكية
 والمذهب النقدي التجريبي . - ٣ ١٦٣ - ٢٢٢
 ١ - ما هي المادة ؟ ما هي التجربة ؟ ١٦٣
 ٢ - خطأ بليخانوف بصدد مفهوم «التجربة» ١٧٢
 ٣ - بصدد السببية والضرورة في الطبيعة ١٧٥
 ٤ - «مبدأ الاقتصاد في التفكير» ومسألة «وحدة
 العالم» ١٩٣
 ٥ - المكان والزمان ٢٠٠
 ٦ - الحرية والضرورة ٢١٥
 الفصل الرابع . المثاليون الفلسفيون ، بوصفهم انصار وورثة
 المذهب النقدي التجريبي ٢٢٣ - ٢٩٠
 ١ - نقد الكانطية من اليسار ومن اليمين ٢٢٣
 ٢ - بصدد سخر «الرمزي التجريبي» يوشكيفيتش من
 «الناقد التجريبي» تشيرنوف ٢٣٦
 ٣ - الكمونيون باعتبارهم انصار ماخ وافيناريوس
 ٢٤١
 ٤ - الى اين ينمو المذهب النقدي التجريبي ؟ ٢٥٢
 ٥ - «احادية» أ . بوغدانوف «التجريبية» ٢٦٢
 ٦ - «نظرية الرموز» (او الهيروغليفات) ونقد
 هلمهولتز ٢٧٠

٢٧٧	٧- بصدد نقد دوهرينغ المزدوج
	٨- كيف امكن ان أعجب يوسف ديتزغن الفلاسفة
٢٨٣	الرجعيين
	الفصل الخامس . الثوة الحديثة في علم الطبيعيات ، والمثالية
٣٦٥-٢٩١	الفلسفية
٢٩٣	١- ازمة الفيزياء المعاصرة
٣٠٠	٢- «المادة زالت»
٣٠٩	٣- هل تمكن الحركة بدون المادة ؟
	٤- اتجاهان في الفيزياء المعاصرة والمذهب الروحاني
٣١٩	البريطانسي
٣٢٩	٥- اتجاهان في الفيزياء المعاصرة والمثالية الالمانية
٣٣٩	٦- اتجاهان في الفيزياء المعاصرة والايمانية الفرنسية
٣٤٩	٧- «الفيزيائي-المثالي» الروسي
٣٥٣	٨- جوهر المثالية «الفيزيائية» ومغزاها
٤١٥-٣٦٦	الفصل السادس . المذهب النقدي التجريبي والمادية التاريخية
	١- جولات النقاد التجريبيين الالمان في ميدان العلوم
٣٦٦	الاجتماعية
٣٧٥	٢- كيف يصلح بوغدانوف ماركس و«يطور»ه
٣٨٥	٣- في «اسس الفلسفة الاجتماعية» لسوفوروف
٣٩٠	٤- الاحزاب في الفلسفة والفلاسفة العديمو الرؤوس
٤٠٣	٥- ارنست هيكل وارنست ماخ
٤١٦	الخاتمة
	اضافة الى الفقرة الاولى من الفصل الرابع . من اي جانب انتقد
٤١٨	ن . غ . تشيرنيشيفسكي الكانطية ؟
٤٢٢	حول الديالكتيك
٤٥٢-٤٢٨	ملاحظات
٥٠٠-٤٥٣	دليل الاسماء

